عبد السلام محمد هارون

قطوف أدبية

دراسات نقدية في التراث العربي

حول تحقيق التراث

[وهو الكتاب الحادى والعشرون بعد المائة ١٢١ من أعمال العلامة عبد السلام محمد هارون ، وهو الأخير من مصنفاته رحمه الله وجزاه خيرا عن العلم وأهله ـ آمين]

مكتبة السنة
الدار السلفية لنشر العلم

الطبعة الأولى
ربيع الخير ١٤٠٩ = نوفمبر ١٩٨٨

مكتبة السنة
دار تراثية للنشر والتوزيع والطباعة والبحث العلمي وتصدير واستيراد الكتب
القاهرة ٨١ شارع البستان ناصية شارع الجمهورية - عابدين - تليفون ٣٩٠٠٣١٨ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان عصراً ذهبياً ذلك الذى عشناه فى مجالات تتسم بالأصالة والدقة والأمانة ، والحفاظ على الخلق العلمى الجليل ، والذوق الأدبى الرفيع .

وكانت أوعية الثقافة من المجلات ودور العلم تزخر بالأعلام وشيوخ الفكر وشبانه ، حيث كانت الصلة عميقة بين الشيخ وتلميذه ، يلتقيان حيث المودة الصادقة والتشجيع الصادق أيضاً .

عشنا فى عصر سعى نحو التراث العربى فى مكان يستثير الدرة إثر الدرة واللؤلؤة النادرة فى عقب أختها النادرة ، وأضواء النقد ساطعة عالية ، تنادى النقاد فى رحابة صدر ونقاوة منهج تتعاون جميعاً على صقل الدرة وجلاء اللؤلؤة .

وكان مُخرج الكتاب يسعى كذلك إلى جمهرة القراء والأدباء والنقاد ، ليعينوه على ما هو بسبيله من الإسهام فى إخراج كنوز التراث فى أروع صورها وأوضح معالمها .

والمجلات المصرية الأصيلة التى مضت إلى غير رجعة تتجاذب أقلام الأدباء والنقاد لتصوير معالم التراث العربى وتضعها فى القالب اللائق بها ، وفى الصورة التى تمكن الباحث من حسن الانتفاع بها .

كانت هناك مجلة الرسالة يتولى قمتها أحمد حسن الزيات ، ومجلة الثقافة يمسك بزمامها أحمد أمين ، ومجلة الكتاب لدار المعارف ينفخ فيها من روحه المهذبة عادل الغضبان ، ومجلة العصور يديرها فى ذوق رفيع إسماعيل مظهر . وأما والدة المجلات جميعاً ، وهى مجلة المقتطف فكان يدفعها إلى الأمام

يعقوب صروف ثم فؤاد صروف ، وكان فى طليعة الصحف التى تتولى ذلك صحيفة البلاغ اليومية والأسبوعية ، والمصرى ، والدستور ، والسياسة الأسبوعية .

عشنا نقرأ هذه المجلات جميعاً والصحف الأدبية فى تلك الصحف ، وقد لا يفوتنا منها عدد واحد ، لأن الجو العلمى كان متماسكاً مترابطاً ، هادفاً نحو نهضة واحدة ، تقيل الثقافة من عقارها الذى كانت تشكوه إلى أبنائها الأمناء ، فبدأت نهضة مباركة يتوازى فيها بعث الأدب والنقد الأصيل مع المسيرة المباركة فى إحياء التراث العربى والإسلامى .

ولا نستطيع أن نغفل فضل صاحب الجهد الأول فى توجيه ذلك الإحياء هذه الوجهة الجديدة التى عاصرناها وكانت نواة لأعمالنا . وهو العلامة الجليل أحمد زكى باشا (١٨٦٧ – ١٩٣٤) الذى قدم لنا باكورة المنهج الحديث فى تحقيق النصوص كما كان أول نافخ فى بوق إحياء التراث على النهج الحديث . وقد قام بتحقيق كتابى أنساب الخيل لابن الكلبى ، والأصنام له أيضاً . وقد طبعا فى المطبعة الأميرية سنة ١٩١٤ باسم لجنة إحياء الآداب العربية التى عرفت فيما بعد باسم « القسم الأدبى » . ولعل هذين الكتابين مع كتاب التاج فى أخلاق الملوك للجاحظ الذى حققه أيضاً بالمطبعة الأميرية فى سنة ١٩١٤ من أوائل الكتب فى هذا الشرق العربى التى كتب فى صدرها كلمة « بتحقيق » . كما أن تلك الكتب قد حظيت بإخراجها على أحدث المناهج العلمية للتحقيق ، مع استعمال المكملات الحديثة من تقديم النص إلى القراء ، ومن إلحاق الفهارس التحليلية المتنوعة . ويضاف إلى ذلك أنه أول من أشاع إدخال علامات الترقيم فى المطبوعات العربية ، وألف فى ذلك دستوراً فى كتاب سماه « الترقيم فى اللغة العربية » طبع فى بولاق فى زمن مبكر جداً هو سنة ١٩١٣ وإن كان يؤخذ عليه أنه كان يبالغ فى استعمال تلك العلامات ، ولا سيما فى الشعر الذى كان يختم كل بيت مستقل فيه بنقطة يضعها فى نهايته .

ومن أوائل مطبوعات هذا القسم بدار الكتب كتاب صبح الأعشى فى ١٤ مجلداً سنة ١٩٢٠ بالمطبعة الأميرية باسم دار الكتب وتعد هذه الطبعة هى الطبعة الثانية ، إذ كانت الأولى فى مطبعة بولاق سنة ١٩٠٥

وكانت الصيحة المدوية لدار الكتب المصرية تبنيها لطبع كتاب الأغانى لأبى الفرج بإشراف القسم الأدبى الذى كان يرأسه أحمد زكى العدوى بناء على اقتراح السيد على راتب الذى تكفل بنفقات طبعة ، وصدر الجزء الأول منه فى سنة ١٩٢٧ وحظى بعناية كاملة فى إعداد الأصول وصنع الفهارس التحليلية فى نهاية كل جزء من أجزائه .

واستمرت دار الكتب فى أداء مهمتها تنشر موسوعات التراث ، ومنها النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وتفسير القرطبى . ثم ضعفت العناية بهذا القسم إلى أن تولى أمين مرسى قنديل إدارة دار الكتب فقام بمجهود ضخم جداً لمسته بنفسى إذ حاول أن ينقذ هذا القسم من الفناء فدبت الحركة فيه ، وحاول أن ينقذ كتاب الأغانى من ورطته التاريخية فعهد إلى جمع من العلماء بإتمام ما بقى من أجزائه ، وكاد القسم الأدبى فى عهده يرتقى القمة فى نشر موسوعات التراث ، ولكن أطاحت بذلك فكرة خاطئة مغرضة تزعم أن ليس من وظائف دور الكتب فى أوربا أن تضطلع بنشر التراث ، وكأننا فى جميع خطواتنا إنما نترسم أوربا فى حقها وباطلها .

وفى أسف بالغ ودع المثقفون هذا القسم الأدبى الذى قضى على نشاطه بعد عهد أمين مرسى قنديل ، ولكن ما نراه هذه الأيام من نشاط فى دار الكتب يبشر بالخير ونأمل من ورائه نهضة مباركة ومحاولة لاستعادة المجد القديم .

إن ما أخرجه القسم الأدبى الذى ضم طائفة مختارة من المحققين كان من ألمعهم أحمد زكى العدوى الذى تولى رياسة هذا القسم دهراً طويلا وكذلك حافظ إبراهيم وأحمد نسيم وأحمد رامى الشعراء المعروفون، ومنهم كذلك

العلامة الخطير عبد الرحيم محمود وأحمد الزين وعبد الجواد الأصمعي وغيرهم وغيرهم — إن تلك الآثار كانت بمثابة مدرسة حذت حذوها جماهير من علماء القاهرة ودمشق وبغداد والسعودية والعراق والمغرب العربي واتسع بذلك نطاق إحياء التراث اتساعاً ظاهراً .

والناظر إلى تلك الجهود جميعاً يرى فيما يرى أن مشاركة تلك المجلات الأصيلة التي أشرت إليها في حركة ذلك الإحياء ، كانت مشاركة مثمرة مجدية ، وكان لها أثر كبير في توسيع دائرة النشر وحملها على الإجادة والدقة والأمانة ، فلا يكاد كتاب من كتب التراث يخرج إلى الوجود حتى تتناوله أقلام النقد في ترحيب ومبادرة لكي تشارك في تقويمه .

وأنت ترى في ثنايا هذه المقالات والبحوث مبادرة من بعض محققي التراث ، وهو الأستاذ الجليل أحمد أمين قد طلب إلي ، وأنا لا أزل في ميعة الشباب ، أن أنقد كتاباً له اشترك في إخراجه ، وهو « الهوامل والشوامل » لكي أكتب عنه بعض نظراتي إليه .

وكذلك كان موقفي من الأب أنستاس ماري الكرملي الذي طلبت إليه في إلحاح أن يكتب عما أخرجت من كتاب الحيوان للجاحظ ، وموقف الأستاذ أحمد شاكر من الأستاذ السيد أحمد صقر في إخراج كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، وهو الذي أبى إلا أن يسجل هذا النقد في الطبعة التالية لسابقتها من الشعر والشعراء مع مقال طويل وكذلك كان موقف العلامة حسن كامل الصيرفي مني عندما نشرت له نقداً « حول ديوان البحتري » في خمس مقالات لقيت منه كل ترحيب وعلق عليها بما أثبته في الباب الثاني .

وكان النقد نقداً حياً لا يستثير حفيظة ولا يوغر قلباً ، وكان هناك من أئمة النقد الأدبي العقاد ، وطه حسين ، وأحمد الزيات ، ومحمد مندور ، وصالح جودت والشاب المختضر محمد غنيمي هلال .

كان هذا العصر الذهبي الذي عشناه في غبطة بين الثقافة العربية المتحررة

من الإصار ، يطرز جنباتها الأدب الأصيل والشعر الأصيل والإنتاج القصصى الأصيل ، وكان ما فيه من ذلك أقوى عناصر الربط بيننا وبين أشقائنا الأخيار فى هذا الوطن العربى .

أما اليوم فقد زالت تلك المعالم أو ضعف شأنها بارتماء أجيالنا الجديدة فى أحضان الثقافة الأوربية والأمريكية ، وأوشكت دعائم النقد العربى الأصيل أن تتقوض كذلك ، وكاد أن يطغى ما يلقبونه زوراً بالشعر الحديث المهلهل النسج ، الأعجمى اللغة ، المتمزق المعنى ، الباعث حينا على التقزز ، وآخر على الحزن والاكتئاب ، وما هو بقادر أن يمحو من ذوق الأديب العربى الحر ما يفيض به وجدانه من متعة تذوق القصيدة العربية الفارغة ، ونحن على يقين أن صبح التحرر من تلك العبودية الآثمة للأفكار المستعارة ، والنماذج المشحوذة من فتات الاتجاه الغربى الهزيل سوف يسطع فى نهاية المطاف .

لهذا كله أحببت أن أستثير صورة رائعة من صور نهضتنا هى قل من كثر ، وقطرات من غيث لما كان يخص رجلا واحداً من أدباء جيله فى مجال النقد الأصيل ، بين هجوم مهذب باسم ودفاع نظيف . وأقول رجلا واحداً لأن كثيراً غيرى كان يتولى مثل ما توليت ، أو أروع مما توليت ، ولست أخص أحدهم بالتنويه ، لأن التاريخ يعرفهم تمام المعرفة ، ويسجلهم أصدق التسجيل وأعدله وأنصعه .

والناظر فى كتابى هذا الذى أعددته بناء على اقتراح الناشر الفاضل « شرف حجازى » الذى خشى أن يضيع هذا الجهد الأدبى أو أن يندثر ، وفى ظنه وفى يقينه أيضاً أنه تاريخ عزيز ، إن الناظر فى كتابى هذا يجده متعدد النشاط ، متشابك الجذور ، ممتداً من سنة ١٩٣٥ الميلادية إلى سنة ١٩٦٥ أى نحو ثلاثين سنة ، ومع هذا لم أستطع لمّ جميع أطرافه ، وتجميع كل ما قمت به من إسهام خارج نطاق الكتب التى قمت بتأليفها أو بتحقيقها على مدى تلك الحقبة أو قبلها أو بعدها ، والتى أربت على العشرين بعد المائة بحمد الله وبعونه .

وعسى أن يكون فى نشر هذه المقالات والبحوث ما يسد فراغاً نجم من خمول وسائل النشر والإعلام من الصحف والمجلات وتوقفها عن تشجيع النقد فى محيط التراث ، وهو ما أرجو أن يكون خمولا مؤقتاً وتوقفاً مؤقتاً كذلك :

هذا وقد اشتمل هذا المجلد على ضروب أربعة من خطوط البحث الأدبي

١ – الأول : بحوث ومقالات فى بعض ما عالجته من قضايا تخص تحقيق التراث . أو تمسه من قريب أو من بعيد .

٢ – الثانى : ما يخص نقدى الخاص لما عالجه أدباء عصرى من كتب ، وردهم على ذلك وسميته : ما بينى وبين الأدباء والعلماء .

٣ – الثالث : فيما يخص نقد الأدباء والعلماء لكتبى التى عالجتها ثم ردى عليها وسميته : ما بين الأدباء والعلماء وبينى .

٤ – الرابع : فيما يخص نظرة بعض الأدباء والأصدقاء إلى إنتاجى فى شيء من التقدير ، وفيه لا ريب كثير من المبالغة .

وقد اتبعت هذا كله بفهرس تحليلى يتناول رءوس البحوث أولا ، ثم يتناول الأعلام ومفردات النقد اللغوية والنحوية وقوافى الأشعار والأرجاز ثم المراجع ؛ أثبتت كما كانت فى العهد الذى كتبت فيه البحوث ولا جرم أنه قد تغيرت طبعات بعضها فى تلك الفترة الطويلة ، وليس بمستطاع أن تترجم بالطبعات الحديثة .

[وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين]

البَابُ الأَوَّل

بُحُوث وَمَقَالَات

- ١ -

حول تجربتى فى احياء التراث(*)

ما أحوجنا ونحن نتحدث فى تحقيق التراث أن نحقق كلمة (التراث) ، فلسنا نجد فى مواد لغتنا العربية مادة (ترث) ، كما أنه ليس فى معاجمنا العربية من المواد المبدوءة بالتاء والمختومة بالثاء المثلثة إلا ثلاث مواد ، لاتزيد ولا تنقص .

١ ـ الأولى : مادة (تفث) ، ومما ورد فيها من النصوص ما جاء فى القرآن الكريم : « ثم ليقضوا تفثهم » . وقضاء التفث يعنى به إذهاب الشعث والدرن ، وهو ما يتحلل به المحرم فى الحج من قص الشعر ، وتقليم الأظافر ونحو ذلك . وقالوا كذلك : رجل تَفِثٌ أى متغيّر شعث لم يدّهن ولم يستحدّ . وجاء فى الحديث أيضاً : « فتفَّثت الدماء مكانه » أى لطّخته .

٢ ـ والثانية مادة : (تلث) وفيها لفظ واحد : التَّليث : ضرب من نجيل السباخ .

٣ ـ والثالثة : مادة (توث) . ولم يرد فيها إلا لفظ واحد كذلك ، وهو التوث ، وهى لغة ضعيفة فى التوت ، تلك الثمرة الطيبة المعروفة ،

وهنا يتدخل التراث الصرفى ، الذى يقضى بأن بعض الكلمات المبدوءة بالتاء قد تكون تاؤها مبدلة من الواو ، كالتخمة ، وهى الأزمة الناشئة من ثقل الطعام . قالوا : أصلها « وُخمة » فلذا نلقاها فى مادة (وخم) لا (تخم) ؛ وكذلك (التهمة) نجدها فى (وهم) ، ومدلولها أن المرء يتوهم أن أخاه قد أساء أو تجاوز حداً من الحدود . ونحوهما التُّكلان ، أصلها الوُكلان ، أى الاعتماد على وكيل . وكذا (تَتْرَى) أصلها وَتْرَى من التواتر ، و « التُّقَى » ، و « التقية » و « التَّقوى » كلها مأخوذة من الوقاية .

(*) مؤتمر الدورة ٤٨ ونشرت فى مجلة المجمع بالجزء ٤٩ سنة ١٩٨٤م .

ولا يسكت الصرفيون بعد عرض هذه النماذج ، بل يذكرون العلة في هذا : أن العرب لحظوا أن الواو ، وهي الحرف الضعيف الذى تلعب به الريح حين يقع فى مهبها فلا يستقر على حال ، جديرة بأن يوضع بدلها فى أوائل تلك الكلمات حرف هو أجلد منها ، أى أقوى ، وهو التاء التى اختيرت بديلاً .

وعلى هذا استطاعوا فى حذق أن يضعوا كلمة «التراث» فى مادة (ورث). ولعل أقدم النصوص التى ظفرنا بها فى مجال هذه الكلمة هو النص القرآنى الكريم : «وتأكلون التراث أكلاً لما» فى سورة الفجر . إذ نعى على أهل الجاهلية منعهم توريث النساء وصغار الولدان ، وأكلهم لأنصبائهم الموروثة. وكانوا يقولون فى جاهليتهم : «لا يأكل الميراث إلا من يقاتل ويحمى حوزة القوم» . كما كانوا يلمون لمّا جميع ما تركه الميت من حلال أو حرام ، ويسرفون فى إنفاقه .

ومما ورد فى الشعر القديم قول سعد بن ناشب ، وهو شاعر إسلامى كان بلال بن أبى بردة قد هدم داره لأنه أصاب دماً فى قوم :

فإن تهدموا بالغدر دارى فإنهـــا
تراث كــريم لا يبـــالى العواقبا

وظلت كلمة التراث محدودة المعنى والاستعمال ، تنوب عنها أختها الميراث فى كثير من الأمر إلى أن دخلنا فى هذا العصر الحديث ، فألفينا هذه الكلمة تشيع بشيوع البحث والتنبيش عن الماضى : ماضى التاريخ وماضى الحضارة والفنون والآداب ، والعلم ، والقصص . وكل ما يمت إلى القديم بصلة .

ويقصد بعبارة إحياء التراث فى عرف الأدباء والمثقفين : إبراز نصوص المخطوطات محققة موثّقة بقدر الإمكان ، مع الوثوق بعنوان الكتاب أو النص . والثقة باسم مؤلفه ونسبة الكتاب إليه .

ولهذا كله معايير وضوابط ومناهج ، يستطاع بمتابعتها ومراعاتها أن نخرج كتاباً أو نصاً موثوقاً بنسبته إلى صاحبه على الصورة الأصيلة له أو المقاربة للأصيلة .

وهذا يدفع بنا أن نوضح معنى تحقيق متن الكتاب أو المخطوط .

والذى اتفق عليه المحققون من ذلك أن يؤدى متن الكتاب أداء صادقاً كما وضعه مؤلفه ، كمًّا وكيفاً بقدر الإمكان .

وقد يظن بعضهم أن معنى تحقيق المتن أن نلتمس للأسلوب النازل أسلوباً هو أعلى منه ، أو أن نحلّ كلمة صحيحة محل أخرى صحيحة بدعوى أن أولاهما أولى بمكانها أو أجمل أو أوفق ، أو ينسب المؤلف نصاً من النصوص إلى قائل ، وهو فى الواقع مخطئٌ فى هذه النسبة ، فيبدل المحقق ذلك الخطأ ويضع مكانه الصواب الظاهر ، أو أن يكون قد أخطأ فى عبارة خطأ نحوياً دقيقاً فيصحح المحقق خطأه فى ذلك . أو يجد المؤلفَ قد أوجز عبارته إيجازاً مخلاً فيلجأ هو إلى بسط عبارة المؤلف والزيادة فيها بما يدفع ذلك الإخلال .

هذه كلها أساليب لا يرتضيها التحقيق ، ويعدّ انتهاكها خرقاً لفنّ التحقيق ، وانتهاكاً لحرمته ، وتضييعاً للأمانة الصارمة التى يجب الأخذ بها فى هذا المجال الدقيق .

وليس تحقيق المتن تحسيناً أو تصحيحاً ، وإنما هو أمانة الأداء التى تقتضيها أمانة التاريخ ؛ فإنّ متن الكتاب حكَم على المؤلف وتأريخ لتفكيره ، وهو كذلك حكَم على عصره وبيئته . وهى اعتبارات تاريخية صادقة لها حرمتها . كما أن ذلك الضرب من التصرف ؛ عدوان على المؤلف الذى له وحده حق التبديل والتغيير أو التنقيح . ويسجل التاريخ المعاصر محاولة من ذلك وقعت فى إخراج كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ؛ إذ ظهرت طبعة بولاق منه أقرب ما تكون إلى الصحة . على حين نشرت

نسخته الموثقة فيما بعد سيئة الأسلوب كثيرة الأخطاء ، لأنها حكت أسلوب المؤلف أصدق حكاية لم تبدل منه شيئاً أو ترفع خطأ . وأسلوب ابن إياس معروف بأنه أسلوب نازل ، فرفعُ هذا الأسلوب إلى درجة فوقه يعد تدخلاً خاطئاً وعدواناً خاطئاً .

وقد ضربت لذلك مثلاً بما ورد فى السيرة من النص الذى تلقب فيه أسماء بنت أبى بكر بذات النطاق . والمعروف المشهور أنها ذات النطاقين[1] . وبالنص الذى وجدته فى تهذيب اللغة[2] يسمى أبا عمرو الشيبانى بإسحاق ابن مراد ، بالدال ، على حين تعد تسميته الصحيحة إسحاق بن مرار براءين. وذكرت أن تصحيح النص الأول بالنص المشهور فيه : « ذات النطاقين » وكذلك تصحيح الاسم الثانى بإسحاق بن مرار الذى هو الصواب الصحيح قطعاً — يعد تصحيحاً خاطئاً ، لأن صاحبى هذين النصين أرادا النص الأول ولم يعدلا عنه ، وثبت بالبينة أيضاً أن المؤلف الثانى أثبت ذلك النص الخاطئ يقيناً بخطه ، فلا مجال للعدول عما أثبتاه . وإن كان هناك مجال للتصحيح أو التعليق فليكن ذلك فى حواشى الكتاب لا فى صلبه . لأن أمانة الأداء فوق جمال الأداء .

وتحقيق متن الكتاب أمر جليل يحتاج من الجهد والعناية إلى أكثر مما يحتاج إليه التأليف . وقديماً قال الجاحظ فى كتابه (الحيوان) : « ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفاً أو كلمة ساقطة ، فيكون إنشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعانى ، أيسر عليه من إتمام ذلك النقص حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام » .

ويثور سؤال آخر : ما هى الأمور التى تعين على إقامة النص ، وتجنب المحقق مزالق سوء الأداء ؟

---

(١) السيرة ٣٢٩ جوتنجن .

(٢) مقدمة تهذيب اللغة للأزهرى ص ١٣ .

فأول تلك الأمور :

التمرس بقراءة المخطوط ، فإن القراءة الخاطئة ، لا تنتج إلا خطأ . وبعض كتابات الأقدمين يحتاج إلى مراس طويل وخبرة خاصة ، ولا سيما تلك الخطوط العتيقة التى لا يطّرد فيها النقط والإعجام ، وكذلك تلك المخطوطات التى كتبت بقلم كوفي قديم ، أو بقلم أندلسى أو مغربى ، وللأندلسى والمغربى صورهما الخاصة ونقطهما الخاص ، ولكل كاتب بأحد القلمين لازمة لا تكون لأخيه ، وتصوير يخالف تصوير أخيه .

وإذا تركنا ذلك وقرأنا فى الخطوط المعتادة ، وجدنا لكل كاتب من الكتاب طريقةً خاصة تستدعى خبرة خاصة كذلك .

فنحن نجد من يقارب بين رسمى الدال واللام ، فلا نشعر بالفرق بينهما فى النظر ، أو فى رسمى الغين المعجمة والفاء كذلك ، مع أن لكل منهما ضابطاً خاصاً ، ولكنّ الخبير بالخط يستطيع بدربته أن يفصل بينهما .

ونجد كذلك كثيراً من الكتاب الأقدمين يكتبون على طريقة خاصة بهم فى الرسم الإملائى . وهذا يحتاج أيضاً إلى خبرة خاصة تكتسب بالمرانة وبالرجوع إلى كتب الرسم القديمة ، أعنى الإملاء .

ومما هو جدير بالذكر أن النقط تختلف طرائقه فى الكتابة المشرقية والكتابة المغربية إلى وقتنا هذا ، ولا سيما فى الريف المغربى ، إذ نجد الفاء عندهم إلى الآن تميز بنقطة واحدة من أسفلها وليس من أعلاها ، على حين نجد القاف عندهم تميز بنقطة واحدة لكن فى الأعلى لا فى الأسفل . فهذا أمر يحتاج إلى يقظة ودراية .

وفى الكتابات القديمة أيضاً توضع بعض العلامات لتأكيد إهمال الحروف المهملة كالسين . نجد بعضهم يميز إهمالها بوضع ثلاث نقط من أسفلها فى مقابل تمييز إعجام الشين بوضع ثلاث من فوقها . وبعضهم يدل على إهمال

السين بتركها كما هى على حين يميز أختها الشين بوضع نقطة واحدة فى أعلاها، وبعضهم يكتب تحت السين المهملة سيناً صغيرة .

ومن الكتاب القدماء من يميز الحرف المهمل بوضع همزة فى أعلاه أو تحته إشارة إلى «إهمال» أو «أهمل» . ومنهم من يضع فوق المهمل خطاً أفقياً لحظر وضع النقط ، أو يضع رسماً كالهلال الصغير من فوقه .. ومنهم من يضع للاهمال علامة شبيهة بالرقم ٧

وبعض الكلمات التى تقرأ بالإهمال وبالإعجام معاً قد ينقط الحرف من أعلى ومن أسفل كذلك بنقطة ، أو يضع فوق السين نقطاً ثلاثا ومن أسفلها كذلك إشارة منه إلى جواز القراءتين كالتشميت والتسميت : « التبشميت» ، وهو الدعاء بالسلامة من شر العطاس . ونحو ذلك : المضمضة والمصمصة : « المضبمضبة » .

وفى (الإعجام) بمعنى الشكل والضبط يحتاج المحقق إلى خبرة خاصة ، وذلك فى الكتب العتيقة . وكان أبو الأسود يسميه « النقط » . يقول أبو الأسود الدؤلى لكاتبه القيسى :

رأيتنى قد فتحت فمى بالحرف فانقط على أعلاه . وإن ضممت فمى فانقط نقطة بين يدى الحرف، أى أمامه . وإن كسرت فمى فاجعل النقطة تحت الحرف . فإن اتبعت ذلك شيئاً من غنّة – يعنى التنوين – فاجعل مكان النقطة نقطتين » . وقد وجدنا تطبيق ذلك عملياً فى المخطوطات الذاهبة فى القدم من المصاحف وغيرها .

وفى الكتابة القديمة كثيراً ما تهمل كتابة الهمزة الواقعة فى نهاية الكلمات الممدودة وغيرها، مثل ماء وسماء ورداء، ومثل شىء وفىء وضَوء ، تكتب : ما ، وسما ، وردا ، وشى ، وفى ، وضو .

ونجد كذلك أن الهمزة المكسورة التى التزمنا اليوم بكتابتها تحت الألف يكتبها بعض الأقدمين تحت الحرف أو فوقه أيضاً .

والشدة ، وهى رأس الشين ، نجدها فى الكتابة القديمة حيناً فوق الحرف ، وحيناً آخر تحته إذا كانت مقرونة بالكسرة .

والفتحة مع الشدة التى ألفنا كتابتها فوق الشدة نجد كثيراً من الأقدمين لا يبالى بذلك ، فما دامت الفتحة فوق الحرف فهى فتحة ، سواء أكانت الشدة تحتها أم كانت فوقها ، على حين نعدّ نحن الآن أن الفتحة الموضوعة تحت الشدة هى تعبير عن الكسرة لا غير .

ووضع الكسرة تحت الشدة فوق الحرف أمر لا يكاد يوجد فى المخطوطات العتيقة .

ونجد فى المخطوطات المغربية من يضع الضمة تحت الشدة فوق الحرف . وفى كثير من الكتابات القديمة توضع الشدة على الحرف الأول من الكلمة اللاحقة إذا كان مدغماً فى آخر من نهاية الكلمة السابقة مثل : « بل رّان » توضع شدة على الراء مع أنها فى أول كلمة . وكذلك نحو : أهلكتَ مالاً لّو قَنَعت به » بوضع شدة على لام « لو » .

ومع هذا نجد أن شكل الشدة فى الكتابة المغربية تكتب كالعدد (٧) شديدة التقويس .

وقد عثرت على مخطوط أندلسى عتيق ، هو كتاب العققة والبررة لأبى عبيدة ، وقد التزم فيه كاتبه نمطاً غريباً ، هو وضع الحركات العلوية

وكذلك السكون تحت نقط الإعجام . فكلمة « مضغة » كتب تحت نقطة الضاد سكوناً ، كما وضع فتحة الغين تحت نقطة الغين لا فوقها .

وفى النسخة المغربية من كتاب المحتسب لابن جنى بدار الكتب المصرية وجدت الشدة مع الفتحة يعبّر عنها بعلامة فوق الحرف شبيهة بالعدد (٧) أما الشدة مع الضمة فإنها يعبر عنها بعلامة فوق الحرف شبيهة بالعدد (٨) . وأما الشدة مع الكسرة فيعبر عنها بعلامة (٨) أيضاً ، ولكن بوضعها تحت الحرف .

ومما يجب أن يعرفه المحقق ما يسمى بعلامة التمريض ، وهى الحرف (ض) يوضع فوق العبارة التى هى صحيحة سليمة فى نقلها مطابقة للأصل ، ولكنها خطأ فى ذاتها ، وذلك لكى يخلى الكاتب الأمين عهدته من خلل النص الذى نقله كما هو .

وهناك علامة تسمى علامة التثليث ، وهى الحرف (ث) يوضع فوق الكلمة اقتباساً من كلمة التثليث ، أى ضبط الحرف من الكلمة بثلاثة ضبوط : الفتح والضم والكسر ، نحو وجد وجد وجد ، توضع النقط الثلاث فوق الواو إشارة إلى اللغات الثلاث . وقد وجدت هذه العلامة فى مخطوطة الاشتقاق لابن دريد .

وعلامة أخرى تدل على وجود البياض بالنسخة ، أى فراغ لم تثبت فيه كلمة ، وهى الحرف (ض) يكتب فى موضع البياض إشارة إليه ، وهذه العلامة مقتبسة من كلمة « بياض » . وقد وجدت هذا فى نسخة مخطوطة من جمهرة أنساب العرب لابن حزم .

وكان للكتاب القدماء ذوق خاص فى التحرز من تشويه الكتابة ، فإذا أخطأ بزيادة بعض الكلمات ، أشار إلى ذلك بوضع خط معقف الطرفين فوق الكلمة أو الكلمات الزائدة ، أو أشار إلى ذلك بوضع دائرتين صغيرتين (٥٥) إحداهما فى بدء الزيادة والأخرى فى نهايتها ، أو أشار إلى ذلك بوضع نصفى دائرة (« ») أحدهما فى بدء الزيادة والآخر فى نهايتها .

وإذا أخطأ بالتقديم والتأخير وضع فوق الكلمتين المضطربتين أو الكلمات ألفين صغيرتين . وجدت فى إحدى المخطوطات : (سنة ومائة إحدى) وقد وضعت ألف صغيرة فوق « ومائة » ، وألف أخرى كذلك فوق كلمة « إحدى » أى اقرأ : سنة إحدى ومائة . وقد يوضع فى هذا المجال أيضاً أى الإشارة إلى التقديم والتأخير الحرفان (خ) و (ق) أو (خ) ، و (م) أى تأخير وتقديم . أو الحرفان (م) و (م) إشارة إلى مقدّم ومؤخّر .

وهناك رموز واختصارات لبعض الكلمات أو العبارات نجدها فى المخطوطات ولا سيما كتب الحديث ، وهو سبقٌ سبق به أسلافنا العرب ، وقلّدهم فى ذلك الفرنجة وأسرفوا فيه إسرافاً ، وذلك نحو :

ثنا – حدثنا .
ثنى – حدثنى .
أنا – أنبأنا أو أخبرنا .
قثنا – قال حدثنا .
ش – الشرح .
الشـ – الشارح .

س – سيبويه .
لا يخـ – لا يخفى .
سم – ابن أم قاسم .
عم – عليه السلام .
صلعم – صلى الله عليه وسلم .
رض – رضى الله عنه .

المص — المصنِّف ، أى المؤلف .

ص — المصنَّف ، أى المتن .

م — معتمد أو معروف .
وقد استعمله صاحب القاموس
ومن بعده بمعنى معروف .

إلخ — إلى آخره .

اه — انتهى .

ع — موضع ، وقد استعمله
صاحب القاموس ومن بعده .

ج — جمع .

جج — جمع الجمع .

ججج — جمع جمع الجمع .

ح — حينئذ . وهكذا .

هذا هو بعض ما ينبغى معرفته مما يكتسب من التمرس بقراءة المخطوطات. وبنقص هذه الخبرة يقع المحقق فى مزالق جمة تبعده عن الصواب وتجنح به إلى تشويه النصوص البريئة ، وتمهد له سبيل العدوان عليها وهذا هو الأمر الأول الذى جعلت قضيته هى التمرس بقراءة المخطوطات .

أما (الأمر الثانى) فهو التمرس بأسلوب المؤلف . ومعرفة لوازم ذلك الأسلوب ، والوقوف على ما يؤثره من العبارات والألفاظ ، وتعرُّف الأعلام التى يديرها فى كتابه ، والمعارف والحوادث التى يتكرر إيرادها ، وهذا كله بعد تصور العصر الذى عاشه والبيئة التى اشتملت عليه اشتمالاً ، وبدا أثرها عليه فى تفكيره وأسلوبه تفكيره ، فالإنسان وليد بيئته .

وأدنى صور التمرس بأسلوب المؤلف أن يرجع المحقق إلى أكبر قدر يستطيع الحصول عليه من كتب المؤلف ، وذلك ليزداد خبرة بأسلوبه وظروفه ، وليقدر على أن يوجد ترابطاً بين عباراته فى هذا الكتاب وذاك ؛ فإن معرفة ذلك مما يعين فى تحقيق المتن ، والتهدى بصدق إلى الصواب فيه.

و (الأمر الثالث) من مقدمات تحقيق المتن هو الإلمام بالموضوع والقضايا التى يعالجها المخطوط ، حتى يمكن المحقق أن يفهم النص فهماً سليماً

بجنبه الوقوع فى الخطأ حين يظن الصواب خطأ فيحاول إصلاحه ، أى يحاول إفساد الصواب .

وهذا الإلمام إنما يتحقق بدراسة بعض الكتب التى تعالج الموضوع نفسه . أو موضوعاً يقاربه أو يتصل به ، ليستطيع المحقق أن يعيش فى الأجواء المطابقة أو المقاربة أو المماثلة ، وكى يكون على بصيرة نافذة .

و (الأمر الرابع) من وسائل تحقيق المتن هو المراجع العلمية ذات العلاقة المباشرة بالمخطوط ؛ ومعنى هذا أن المحقق إذا اجتمع لديه أقصى ما يمكن جمعه من مخطوطات الكتاب واستطاع قراءتها قراءة سليمة ، وعرف أسلوب المؤلف ، وألم إلماماً كافياً بموضوع الكتاب استطاع أن يمضى فى التحقيق مستعيناً بالمراجع العلمية المباشرة التى يمكن تصنيفها على الوجه التالى :

١ ــ كتب المؤلف نفسه مخطوطها ومطبوعها .

٢ ــ الكتب التى لها علاقة نسب بالكتاب كالشروح والمختصرات والتهذيبات . فنسخة الشرح هى من جهة شرح وضبط وتقييد ، ومن جهة أخرى نسخة ثانية من الكتاب تتكفل بتوضيح الغوامض وتجلية النص ، وهو أمر له قيمته فى مكملات التحقيق .

ويلى نسخة الشرح نسخة المختصر أو التهذيب ؛ فإن كلا منهما تلقى ضوءاً لا يستهان به فى تحقيق النص .

ومن البديهى أن يرجع المحقق فى ذلك إلى المخطوطات ما أمكنه ذلك ، وألا يعتمد على المطبوعات الخالية من الروح العلمية المحققة .

٣ ــ وهناك ضرب آخر من المراجع التى لها علاقة حميمة بالكتاب ، وهى الكتب التى اعتمدت فى تأليفها اعتماداً كبيراً على الكتاب ، وهذه كثيراً ما تحتفظ بالنص الأصلى للكتاب الأول .

ولنضرب لذلك مثلا بكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة ؛ إذ نجد أنه من الكتب التي اعتمدت على كتب الجاحظ . ولا سيما كتاب الحيوان ، فى زاوية معينة عند كلام ابن قتيبة على الحيوان ، إذ نجده يقتبس نصوصاً كثيرة بأعيانها وألفاظها منه . وقد أعانني هذا كثيراً عند تحقيقي لكتاب الحيوان :

والكتاب نفسه – أعني عيون الأخبار – من الكتب التي اعتمدت على كتاب البيان والتبيين للجاحظ أيضاً ، فنجد كتاب الزهد فيه ، ونجد نصوص الخطب والوصايا التي تحتل مساحة كبيرة من عيون الأخبار ، جلُّها ومعظمها مقتبس من كتاب البيان والتبيين . وحاولت أن أعرف السر فى ذلك ، فوجدت أن ابن قتيبة قد أعطاه الجاحظ إجازة برواية بعض كتبه ، كما صرح بذلك ابن قتيبة فى عيون الأخبار فى عدة مواضع[1] أثبتها فى كتابه . فاستخدام هذا الضرب من الكتب ، هو من الضرورة بمكان ، كما هو من النفع وعظيم الفائدة بمكان أيضاً .

٤ – ومن المراجع المعينة على إقامة النص وتجنيب المحقق مزالق سوء الأداء عكس المراجع السابقة ، وهى المراجع التي استقى منها المؤلف . فإذا تهدَّى المحقق إلى المنابع والموارد التي استمدّ منها المؤلف تأليفه كان ذلك معواناً له على إقامة النص . وكان بعض المؤلفين القدماء ينصّون فى كتبهم فى صدورها أو فى أواخرها، على المراجع التي استقوا منها كما نفعل نحن الآن فى مناهج تأليفنا للكتب الحديثة، ويظنه البعض منّا مجاراة للأوربيين ، مع أنها منهج قديم عند المؤلفين العرب .

فنحن نجد ابن فارس (– ٣٩٥) فى مقدمته لكتابه « مقاييس اللغة » ينص على مراجعه التي اعتمد عليها فى كتابه ، وهى : العين للخليل ، وغريب الحديث ومصنف الغريب ، وكلاهما لأبى عبيد القاسم بن سلام ،

(١) عيون الأخبار ٣ : ١٩٩ ، ٢١٦ ، ٢٤٩ .

والمنطق لابن السكيت ، والجمهرة لابن دريد . ويقول ابن فارس بعد أن سردها : « فهذه الكتب الخمسة معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة . وما بعد هذه الكتب فمحمول عليها وراجع إليها ، حتى إذا وقع الشيء النادر نصصناه إلى قائله إن شاء الله »

وابن منظور (– ٧١١) فى مقدمة لسان العرب فعل ذلك أيضاً ، وسرد لنا من تلك المراجع خمساً رئيسية أيضاً هى : التهذيب للأزهرى ، والمحكم لابن سيده ، والصحاح للجوهرى ، وأمالى ابن برى على الصحاح ، والنهاية فى غريب الحديث لابن الأثير .

وابن حجر (– ٨٥٢) فى مقدمته لكتابه « تهذيب التهذيب » نص على كتاب الكمال للمقدسى ، وتهذيبه للمزى ، والكاشف للذهبى ، وتذهيب التهذيب له أيضاً ، وما جمعه مغلطاى على تهذيب الكمال .

وكذلك السيوطى (٩١١) فى « بغية الوعاة » ذكر فى مقدمته طائفة كبيرة من المراجع التى اعتمد عليها والتى أربى عدد مجلداتها على ثلثمائة مجلد .

وفاقهم جميعاً فى ذلك عبد القادر البغدادى (١٠٣٠ – ١٠٩١) صاحب خزانة الأدب الذى سرد فى مقدمتها أسماء مئات من المراجع التى اعتمد عليها وساقها مرتبة ترتيباً علمياً على حسب الفنون وفروعها .

وقد يكشف المحقق النقاب عن كتاب يعتمد اعتماداً كلياً أو جزئياً على مؤلف آخر يقتبس منه دون النص منه على ذلك ، كما حدث ويحدث فى عصرنا هذا . وأذكر هنا ما عثرت عليه عند تحقيقى لشرح المرزوقى لحماسة أبى تمام . إذ وجدت كثيراً جداً من نصوصه بالنص واللفظ ، أو بالاتجاه الواحد ، وجدتها فى شرح التبريزى للحماسة نفسها . والذى يوازن بين الشرحين يجد أن التبريزى المتأخر عن المرزوقى بنحو ثمانين عاماً ، وفاة المرزوقى سنة ٤٢١ ووفاة التبريزى ٥٠٢ ، يجد أنه فى معظم شروحه كان كلاً وعالة على المرزوقى .

وكما صنع التبريزى غفر الله له هذا فى شرحه للحماسة أدار وجهه مرة أخرى إلى شرح ابن الأنبارى للقصائد السبع الطوال ، وظل يرتشف من معينه ، ويقتبس من كنوزه فى شرحه هو للقصائد العشر . ورب ضارة نافعة، إذ كان انتفاعى بهذا الشرح المقتبس بعامل السطو، معيناً لى ونافعاً لى فى كثير من مشاكل تحقيق شرح ابن الأنبارى .

والتاريخ لا يغفُل عن أمثال هذه السطوات العلمية .

ومن الذين اتهمهم التاريخ بالإغارة على كتب غيرهم وإن كنت أجل قدره عن ذلك : الإمام عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى ، عثرت على نص نادر فى بغية الوعاة للسيوطى[1] عند ترجمته لأحمد بن محمد بن أحمد المرسى المتوفى سنة ٤٦٠ يقول فيه : « ونَسَب إليه ابن خلصة شرح أدب الكاتب المسمى بالاقتضاب . وذكر أن ابن السيد البطليوسى أغار عليه — أى على الكتاب — وانتحله » . وأقول : لكن لا تزال هذه التهمة فى ذمة التاريخ حتى نرى الكتابين معاً .

و (الأمر الخامس) مما يعين على صحة الأداء هو الرجوع إلى الكتب المعاصرة للمؤلف التى تعالج نفس موضوعه أو تعالج موضوعاً قريباً منه ، فمما لا ريب فيه أن الأجواء العلمية المتعاصرة تلقى أصدق الأضواء وأعلاها على تحقيق النص ، إذ أن للمعاصرة أثراً واضحاً فى الأفكار وفى الألفاظ والأساليب ، كما تعين على تصحيح الأعلام والوقائع التى تعاصر المؤلفين .

و (الأمر السادس) من الأمور التى تعين على صحة الأداء ولا يستطيع المحقق فراقه أو مجانبته هو المراجع اللغوية ، إذ هى المقياس الأول الذى تسبر به صحة النص ، والدليل الأول كذلك الذى يقودنا إلى حسن فهم النص وتصوره . فأحيانا يحكم المحقق العجلان الذى فارقته الأناة والدقة ، على نص

(١) بغية الوعاة ١٥٧

من النصوص أنه محرف ، أو أنه ذاهب فى الغموض ، على حين تنطق نصوص المراجع اللغوية أنه صحيح غاية الصحة ، أو أن من اليسر بمكان أن نزيح ما بدا للوهلة الأولى عسر فهمه أو صعوبة إدراكه . ولا يكفى فى هذه المهمة ضرب واحد من المراجع اللغوية .

ويمكننا أن نصنف المراجع اللغوية التى يستطيع المحقق أن يطرق بابها إلى خمسة أصناف :

الأول : معاجم الألفاظ ، وأعلاها وأوثقها وأيسرها جميعاً ، هو لسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للزبيدى ، الذى تضمن جميع نصوص القاموس المحيط وتكملاته .

ومن معاجم الألفاظ : معاجم المفردات الطبية القديمة ، كالمفردات لابن البيطار ، والمعتمد لابن رسولا ، وتذكرة داود الأنطاكى . ومن المعاجم الحديثة فى المفردات الحيوانية معجم الحيوان للفريق المعلوف ، وفى المفردات النباتية معجم أحمد عيسى ، ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير الشهابى .

ومنها معاجم المصطلحات العلمية ، كمفاتيح العلوم للخوارزمى ، وكليات أبى البقاء . وأوسعها وأشملها جميعاً كتاب « كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى .

كما أن هناك معاجم وضعها بعض فضلاء المستشرقين ، استدركوا بها على المعاجم العربية القديمة ، ومنها معجم دوزى اللغوى ، ومعجمه الخاص بأسماء الملابس .

وهذه المعاجم الأخيرة تفيدنا فى تحقيق النصوص الواردة فى الكتب التى كان تأليفها فى عصور متأخرة .

ثانياً : معاجم المعانى ، وأعلاها كما هو معروف كتاب المخصص لابن سيده ، وفقه اللغة للثعالبى .

ثالثاً : معاجم الأسلوب ، وأعلاها كتاب جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر ، والألفاظ الكتابية للهمذاني .

رابعاً : كتب المعربات ، وفى قمتها قديماً كتاب المُعْرب أو المعرَّب للجواليقى ، وشفاء الغَليل للشهاب الخفاجى . وفى قمتها حديثاً : كتاب الألفاظ الفارسية المعربة لأدى شير .

خامساً : معاجم اللغات التى تمت بصلة وثيقة إلى العربية ، كالفارسية والعبرية والسريانية ، واللاتينية والأسبانية .

وهذه المعاجم تعد مجالاً صحيًّا لتحقيق الكلمات المعربة التى يصيبها التحريف فى لفظها أو فى معناها ، فتكون هى حَكَماً فى تصحيح جسم الكلمة ، أو تصحيح دلالتها ومعناها .

ولست أنسى تجربتى فى تحقيق كلمة وردت محرفة فى جميع مخطوطات كتاب الحيوان ، وهى كلمة « كنعان » التى وردت فى الجزء السادس فى ص ٤٥٢ ضمن خبر ساقه الجاحظ ، ونصه :

« خلا معاوية بجارية له خراسانية ، فلما همّ بها نظر إلى وصيفة فى الدار . فترك الخراسانية وخلا بالوصيفة ثم خرج . فقال للخراسانية : ما اسم الأسد ؟ — قلت : وكأنه كان يريد أن يلقّب نفسه بذلك — قالت : كنعان . فخرج وهو يقول : ما الكنعان ؟ فقيل له : الكنعان : الضبع . فقال : ما لها قاتلها الله . أدركتْ بثأرها » .

وقد عقّب الجاحظ على ذلك بقوله : « والفُرس إذا استقبحت وجه الإنسان قالت : « روى كنعان » .

فلجأت حينئذ إلى المعجم الفارسى الإنجليزى لاستينجاس فى باب الكاف جميعه . انظر اللفظ الفارسى المقارب لكنعان ، والذى يؤدى فى الوقت نفسه

معنى الضبع . وبعد لأى شديد وتقليب كثير وترقب طويل لكلمة الضبع الإنجليزية ، وهى : Hyena وجدت أن اللفظ الفارسى الذى ينطبق عليه تفسير الضبع ويقارب «كنعان» هو لفظ : « كَفتار » .

وكثيراً ما كنت ألجأ إلى هذا المعجم الوثيق فى تحقيق الألفاظ الفارسية المعرَّبة ، أو المشتركة ، أو فى تحقيق مدلولاتها ومعانيها .

سادساً : ومن المراجع التى لا يستغنى المحقق عنها فى تحقيق العبارات والأساليب : المراجع النحوية . وأعلى المتداول منها وأجمعها هو كتاب « همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، كلاهما للسيوطى . وكذلك شرح ابن يعيش على مفصل الزمخشرى ، وحاشية الصبان على شرح الأشمونى للألفية .

سابعاً : وليس يستغنى المحقق عن الرجوع إلى المراجع العلمية الخاصة بمادة الكتاب أو موادّه . وهذه تخرج عن نطاق الحصر ، إذ أن لكل كتاب أو مخطوط يكون موضع التحقيق . ضروباً شتّى من المراجع التى يتطلبها .

فكتاب الأدب يحتاج إلى مراجع الأدب والتاريخ والبلدان على اختلاف ضروبها ، وإلى المراجع الدينية بمختلف أنواعها ، وكذلك مراجع الشعر بأنواعها من الدواوين الجاهلية والإسلامية ، وكتب النقد القديم والبلاغة والعروض والقافية .

كما أن كتاب التاريخ يفتقر إلى المراجع من كتب الأدب والبلدان ، وسائر ما أسلفت من أنواع المراجع ؛ فإن من المعروف أن نتاج الثقافة الإسلامية متواشج الأنساب ، متداخل الأسباب . وحذق المحقق وسعة اطّلاعه يهديانه بلا ريب ، إلى الوقوع على المراجع التى يتطلبها الكتاب ، وأذكر

أنني عند تحقيقي لكتاب الحيوان للجاحظ هالني تنوع المعارف التي يتضمنها هذا الكتاب الموسوعي ، ووجدت أني لو خبطت على غير هدىً لم أتمكن من إقامة نصه على الوجه الذي ينبغي أن يكون عليه . فرسمت لنفسي منهجاً بعد قراءتي للكتاب سبع مرّات ، منها ست مرات اقتضاها معارضتي لكل مخطوط من مخطوطاته على حدة ، ومرة سابعة كنت فيها أقروهُ لتنسيق فقاره وتبويب فصوله ، فكنت بذلك واعياً حافظاً لكثير مما ورد فيه .

وبعدئذ لجأت إلى مكتبتي أتصفح تصفُّحاً ما أحسب أن له علاقة بالكتاب وأقيد في أوراق ما أتوقعه معيناً للتصحيح أو التخريج . حتى استوى لي من ذلك قدر صالح من مواد التحقيق أو التعليق .

ولكن هذا كله لم يكن ليغنيني عن الرجوع إلى مراجع أخرى غير التي حسبت أو توقعت ، فكانت عدة المراجع التي اقتبست منها نصوصاً للتحقيق والتعليق فحسب نحو ٢٩٠ كتاباً غير المراجع التي لم أقتبس منها نصوصاً وهي تساوي العدد السابق أو تفوقه .

والذي أريد أن أقوله : أن تحقيق نصوص التراث محتاج إلى مصابرة ومثابرة ، وإلى يقظة وانتباه عظيمين ، وإلى سخاء في الجهد الذي لا يضن على الكلمة الواحدة بيوم واحد ، أو أيام معدودات .

— ٢ —

احياء التراث وما تم فيه(*)

التراث هو تلك الآثار المكتوبة الموروثة التى حفظها التاريخ كاملة أو مبتورة فوصلت إلينا . وليس هناك حدود معينة لتاريخ أى تراث كان ؛ فكل ما خلفه المؤلف بعد حياته من إنتاج يعد تراثاً فكرياً . ولقد أصبح شعر شوقى وحافظ ، وحديث عيسى بن هشام ، وآثار العقاد والمازنى تراثاً له حرمته التاريخية ، وله مقداره الأثرى .

تقويم التراث العربى :

ولعل من نافلة القول أن نسهب فى بيان قيمة التراث العربى ، فلقد سبقنا العلماء الأوربيون إلى الاعتراف بهذا الفضل ، واستولت عليهم الدهشة إزاء ظهورهم على ما صنع أسلافنا فى مختلف زوايا العلم والمعرفة . فالتراث العربى غنى فى الكيفية وغنى فى الكمية ، ولا تزال آثار هؤلاء الأسلاف فى التشريع والعلوم الفلسفية والرياضية والفنية وغيرها ، معدودة فى قمة الإنتاج الفكرى العالمى ، ولا تزال النظريات الفلسفية والاجتماعية لعلماء العرب وفلاسفتهم أصلا وجذراً من جذور علم الاجتماع والفلسفة المعاصرة .

وكنت قريباً فى مجلس ضم بعض المشتغلين بالفلسفة فذكر بعض الأساتذة أن أحدث البحوث الفلسفية الآن أصبح يستخدم الرموز الحرفية فى حل مشاكل الفلسفة ، وأن مسائل الفلسفة أمست شبيهة بمسائل الجبر والمعادلات الرياضية . فقلت له : إن أسلافنا العرب قد سبقوا فلاسفتنا المعاصرين فى هذا الاتجاه ، وذكرت له أنى قمت بنشر رسالة للرئيس ابن سينا ، عنوانها

(*) نشرت فى مجلة (المجلة) عدد يونية سنة ١٩٦٦م .

« الرسالة النوروزية » يتكلم فيها ابن سينا عن فلسفة الوجود مستخدماً فى ذلك الرموز الحرفية (أ ، ب ، ج ، د ، س ، ص ... إلخ) . وهذه الرسالة فى ضمن سلسلة نوادر المخطوطات التى قمت بنشرها سنة ١٩٥٤ . فأخذت الدهشة صاحبي من ذلك السبق الفنى العجيب لأسلافنا العرب .

وفى التراث العربى كثير من المعجزات الفريدة التى لم تتكرر فى عالم التأليف إلى الآن . فكتاب « مقاييس اللغة » لابن فارس ، يعد فريداً فى بابه ، إذ أن ابن فارس استطاع أن يبتدع نظرية لغوية دقيقة ، تتمثل فى إرجاع مفردات كل مادة لغوية إلى أصل أو أصلين أو أصول معنوية ، ترجع كل المفردات إليها ، وقام بتطبيق تلك الفكرة على جمهور المواد اللغوية العربية فاستقام له ذلك . ولم نسمع إلى الآن بمن قام بمثل هذا المجهود التأليفى فى أى لغة من لغات العالم كانت ، فى قديمها والحديث .

ويكفى أن ترجع إلى « كشف الظنون » لتقرأ أسماء نحو مائتى علم أو فن ، كعلم الأكتاف ، والأكر ، والآلات الحربية ، والآلات الرصدية ، وآلات الساعة ، والآلات الظلية ، وعلم إنباط المياه ، وعلم الأوزان والمقادير ، والباه ، والبُرد ومسافاتها ، والبيزرة والبيطرة ، وتحسين الحروف ، وتدبير المدينة ، وتدبير المنزل ، وترتيب العسكر ، وتركيب المداد ، والتصوف ، وتعبير الرؤيا ، والجبر والمقابلة ، والجراحة ، وجر الأثقال ، والجغرافيا ، والجفر ، والجهاد ، والحروف والأسماء ، والحكمة ، والرصد ، والرقص ، والرمل ، والرمى ، والرياضة ، والريافة ، والزيج والزايرجة ، والسياسة ، والسيمياء ، والشروط والسجلات ، والصيدلة ، والطبخ ، والطلسمات ، والطيرة ، والعدد ، والعرافة ، وعقود الأبنية ، والغنج ، والفتاوى والفراسة ، والفلاحة ، والفلقطيرات ، والقرانات ، والقرعة ، وقلع الآثار ، وقوانين الكتابة ، وقود العساكر ، والجيوش ، والكحالة ، وكشف الدك ، والكهانة ، والكيمياء ، ومراكز الأثقال ،

والمرايا المحرقة ، والمساحة ، والمعادن ، والمعمى ، والملاحة ، والملاحم ، والموسيقى ، والميقات ، والنبات ، ونزول الغيث ، والنيرنجات ، والوصايا ، والوضع ، والهندسة . والهيئة ... إلى كثير جداً مما أغفلت ذكره .

هذه بعض أسماء علومهم ، وفى المكتبات العامة فى العالم — وهى تناهز ألفاً وخمسمائة[1] على ما أحصاه الفيكونت فيليب دى طرازى فى كتابه المسمى : «خزائن الكتب العربية فى الخافقين » — آثار خالدة خلود الأهرام . وهى جديرة بأن يتعاقب المحققون على تمهيد السبيل للانتفاع بها والاستمداد منها .

ومن البديهى أنه يقصد بالتراث العربى ما تركه الأسلاف المتكامون أو المؤلفون باللغة العربية ، فإن الأفق العربى أوسع مجالاً وأرحب نطاقاً من أن يتقيد بالعنصرية العربية الأصيلة .

إحياء التراث :

وليس إحياء التراث أمراً حديثاً ، بل هو عمل طبيعى قامت به الأجيال القديمة على امتداد الدهر وعلى صور شتى ، من نشر ، أو تفسير ، أو تلخيص ، أو نقد أو تعليق .

فكم قد رأينا من الكتب القديمة التى خلفها أصحابها ، فقام النساخ والوارقون بإحيائها وإذاعتها على نطاق واسع .

فالمقريزى (الخطط ٢ : ٢٥٣ — ٢٥٥) يذكر أنه كان فى خزانة

---

(١) منها فى مصر ١٦ مكتبة وفى الجزائر ٨ وفى فلسطين ٦ ولبنان ٣ وسوريا والعراق والحجاز واليمن ١٥ والمغرب الأقصى ١٠ وتونس ٧ والولايات المتحدة ٢٨٥ وألمانيا والنمسا ١٤٥ والاتحاد السوفيتى ١٢٠ وبريطانيا ٧٦ وفرنسا ٦٧ وإيطاليا ٤٨ وسويسرا ٢١ وهولنده ١٥ وبلجيكا ١٣ واليابان ٩ والدانمرك ٦ واليونان ٢ والهند ٣ وإيران ٣ ، وفى هذه المكتبات جميعاً نحو ٢٦٢ مليون مجلد .

العزيز بالله ٣٠ نسخة من كتاب العين و ١٠٠ نسخة من جمهرة ابن دريد . كما يذكر أنه كانت فى خزانة الفاطميين ١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبرى .

ويروى ابن النديم (الفهرست ٣٦٩) فى ترجمته ليحيى بن عدى المنطقى النصرانى ، أنه كان ينسخ كتب التفسير والكلام ، مع أنه كان من النصارى اليعقوبية . وهذا أمر عجب . ويذكر أنه لقيه وعاتبه على كثرة نَسْخه ، فقال له : من أى شئ تعجب فى هذا الوقت : من صبرى ؟ قد نسخت بخطى نسختين من التفسير للطبرى ، وحملتهما إلى ملوك الأطراف ، وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى ، ولعهدى بنفسى وأنا أكتب فى اليوم والليلة مائة ورقة وأقل ! !

ومن طريف ما يروى عن أحد النحاة ، وهو يحيى بن محمد الأرزنى ، ما ذكره ياقوت فى شأنه ، إذ يقول : « إمام فى العربية مليح الخط ، سريع الكتابة ، كان يخرج فى وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد ، فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصيح لثعلب ، ويبيعه بنصف دينار ، ويشترى نبيذاً ولحماً وفاكهة ، ولا يبيت حتى ينفق ما معه منه » .

ومن الناشرين القدماء ، الذين عملوا فى حقل إحياء التراث أبو على محمد ابن الحسن بن الهيثم ، المهندس البصرى نزيل مصر ، المتوفى سنة ٤٣٠هـ . ذكر أنه كان ينسخ فى مدة سنة ثلاثة كتب فى ضمن أشغاله ، وهى : إقليدس ، والمتوسطات ، والمجسطى ، ويستكملها فى مدة السنة ، فإذا شرع فى نسخها جاءه من يعطيه فيها مائة وخمسين ديناراً مصرية ، فيجعلها مؤونة لنفسه .

وكانت صناعة الوراقة فى الأمصار العظيمة والبلدان الكبيرة من هذا الوطن العربى بمثابة المطابع الحديثة التى تملأ أمصار بلادنا فى الوقت الحاضر . وكانت مهمة الوراقين موزعة بين الانتساخ والتصحيح والتجليد والتذهيب وكل ما يمت إلى صناعة الكتب بصلة (مقدمة ابن خلدون ٣٦٧ ــ ٣٦٨) .

هذا جانب من جوانب إحياء التراث قديماً . أما الآخر فيتمثل فى شرح ذلك التراث ، فنحن نجد أن حماسة أبى تمام المتوفى سنة ٢٣١ تناولها بالشرح أكثر من أديب ، فشرحها أبو بكر الصولى ، والمرزوقى ، وابن جنى ، والآمدى ، والتبريزى ، وأبو هلال العسكرى ، وابن سيده ، والشنتمرى ، وغيرهم ممن أحصى عددهم صاحب كشف الظنون واحداً وعشرين شارحاً . وذكروا أن أول شارح لها هو أبو رياش أحمد بن إبراهيم الشيبانى المتوفى سنة ٣٣٩هـ .

وكتاب سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ شرحه أو قام بخدمته أكثر من ٥٥ عالماً ، منهم : السيرافى ، والرمانى ، والزمخشرى ، وابن الحاجب ، والشاوبين ، وابن الباذش [1] .

ومقامات الحريرى أبى محمد القاسم بن على (٤٤٦ – ٥١٦) شرحها معاصر له وقرأها عليه ، وهو محمد بن على العراقى المتوفى سنة ٥٦١ ؛ ثم تولى شرحها كثيرون ، منهم صدر الأفاضل قاسم بن حسين الخوارزمى (٦١٧) ، وناصر بن عبد السيد المطرزى (٦١٠) ، وأبو البقاء العكبرى (٦١٦) . وأحمد بن عبد المؤمن الشريشى (٦١٩) له شروح ثلاثة على المقامات : كبير ، وأوسط ، وصغير .

وكتاب إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى (٥٠٥) شرحه الزبيدى صاحب تاج العروس (١٢٠٥) وطبع هذا الشرح بفاس سنة ١٣٠٢ فى ١٣ جزءاً ثم فى الميمنية سنة ١٣١١ فى ١٠ أجزاء . وقام أخوه أحمد بن محمد الغزالى (٥٢٠) باختصاره ، واختصره بذلك أبو العباس الموصلى (٦٢٢) اختصارين ، كما اختصره السيوطى (٩١١) . وآخر اختصار له إلى الآن ما نشره عبد السلام هارون باسم « تهذيب إحياء علوم الدين » فى مجلدين .

---

(١) انظر مقدمة سيبويه ص ٣٦ – ٤١ تحقيق عبد السلام هارون .

تلك بعض النماذج للمحاولات القديمة التى كانت تعمل على إحياء التراث أو استحيائه على تطاول العصور ، لم يخل دهر من طائفة صالحة كانت تعمل فى هذا المضمار .

إحياء التراث فى العصور الحديثة :

أما إحياء التراث فى هذه العهود الحديثة فقد لبس ثوباً جديداً يمتاز بالنشاط السريع الذى يتمثل فى إنتاج المطبعة الحديثة ، فهى كانت عاملاً فعالاً فى نشر التراث الفكرى على نطاق أوسع وعلى صور شتى ، ودرجات مختلفة من الصحة والتوثيق ، ومراحل متدرجة من الدقة والعناية حتى وصلت إلى ما يشبه القمة فى عصرنا الحاضر .

وإذا تحدثنا عن المطبعة رجع بنا التاريخ إلى سنة ١٤٥٠ التى طبعت فيها التوراة بعد أن ابتدع جوتنبرج الألمانى ، « المطبعة » .

أما الطباعة العربية فكان مهدها الأول فى إيطاليا فى أوائل القرن السادس عشر ، إذ ظهرت أول مطبعة عربية فى مدينة فانو بأمر البابا يوليوس الثانى وافتتحها ليون العاشر سنة (١٥١٤) . ومن أوائل ما طبع فيها سفر الزبور (١٥١٦) . ثم مطبعة البندقية وفيها طبع القرآن الكريم للمرة الأولى ، وبعد أن تم طبعه صودرت نسخه وقضى عليها بدافع تعصبى ، ثم طبعت أول ترجمة إيطالية للقرآن سنة ١٥٤٧ ؛

وفى مطبعة روما (١٥٩٣) طبع « قانون ابن سينا » فى الطب ، ومعه علم المنطق ، وعلم الطبيعى وكتاب النجاة له أيضاً[1] . فكان صدور هذا الكتاب بداية عهد جديد فى دراسة الطب .

ثم تعددت المطابع العربية فى أوروبا وطبع فيها مئات من الكتب العربية.

---

(١) انظر وصف تلك الطبعة وسلسلة الطبعات التى بعدها فى معجم سركيس ١٣٠ – ١٣١

والشرقية ، أكثرها فى لندن وباريس ، وليبزج . وليدن ، وغوتنجن ، وروما ، وفينا ، وبرلين ، وبطرسبرج .

ثم تعددت المطابع العربية فى أوربا وطبع فيها فى أوائل القرن (١٦) إذ طبعت فيها التوراة العربية ترجمة سعيد الفيومى بالأحرف العبرانية ، أى العبرية وذلك فى سنة ١٥٥١ ؛

وفى القرن الثامن عشر ظهرت الطباعة العربية فى كل من الآستانة وسورية ولبنان .

ففى سورية طبع الإنجيل وطائفة من الكتب المسيحية ابتداء من سنة ١٧٠٢ ؛

أما فى تركيا فكان القوم فى حال تردد فى طبع كتب الحكمة واللغة والتاريخ والطب والفلك التى لم يجرؤ أحد على طبعها إلا بعد ظهور فتوى من شيخ الإسلام عبد الله أفندى سنة ١٧١٦ بجواز ذلك ما عدا الكتب الدينية ، التى استصدرت فتوى أخرى بعدها لإجازة طبعها . وتعددت المطابع فى الآستانة فكان أشهرها مطبعة الجوائب لأحمد فارس الشدياق ، ونشر فيها إلى جانب جريدة الجوائب طائفة صالحة من الكتب العربية .

وتلتهما فى ذلك لبنان . وكان من أقدم مطابعها مطبعة فرحيا ، بدأت بالحروف السريانية ثم انتقلت إلى العربية وكان اهتمامها بالمطبوعات الدينية . ومطبعة الشوير التى أسسها عبد الله زاخر ، وكانت معظم منشوراتها من الكتب الدينية كذلك . ثم ظهرت مطبعة القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس فى بيروت سنة ١٧٥٣ وطبعت كثيراً من كتب الأدب والتاريخ ، ثم المطبعة الأمريكية للمبعوثين الأمريكان ، أنشئت فى مالطة سنة ١٨٢٢م ثم نقلت إلى بيروت سنة ١٨٣٤م وطبعت كثيراً من الكتب المدرسية وطائفة من كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعر . ثم المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين

سنة ١٨٥٤م فكان لها فضل عظيم فى نشر كثير من أمهات التراث العربى سنفرده بالذكر . ثم المطبعة السورية لخليل الخورى صاحب حديقة الأخبار أنشأها سنة ١٨٥٧ واعتنت بطبع كتب القانون والأدب والتاريخ . ثم مطبعة المعارف للبستانى (بطرس بن بولس) سنة ١٨٦٧م وهى التى قامت بنشر دائرة المعارف له ثم لولده سليم ، وكذا محيط المحيط ، وقطر المحيط .

أما مصر فإن أقدم مطبعة ظهرت فيها هى مطبعة الحملة الفرنسية التى أحضرها نابليون معه سنة ١٧٩٨م لطبع المنشورات السياسية والأوامر باللغة العربية ، وكانت تعمل وهى على السفينة فى عرض البحر ، وحينما اقتحمت هذه الحملة ثغر الاسكندرية قام رجالها بتوزيع المنشورات التى أعدوها فى البحر ، وأطلق على تلك المطبعة اسم « المطبعة الأهلية » ، ثم نقلت إلى القاهرة واستمرت فى عملها إلى سنة ١٨٠١ حيث تم انسحاب الفرنسيين . ومن أظهر إنتاجها كتاب فى الهجاء باللغات العربية والتركية والفارسية .

ومرت فترة من الزمن زهاء عشرين سنة بقيت مصر فيها بلا مطبعة حتى استقر الأمر لمحمد على فأنشأ مطبعة على أنقاض المطبعة الأهلية الفرنسية . وسميت بالمطبعة الأهلية أيضاً وذلك فى سنة ١٨٢١م ثم نقلت إلى بولاق فعرفت بمطبعة بولاق ، وعهد بإدارتها إلى نقولا مسابكى السورى ، وكان هذا قد بدأ دربته الفنية على الطباعة فى روما زهاء أربع سنوات لصنع أمهات الحروف وسبكها . وكان محررو مطبعة بولاق من الطلبة الأزهريين الذين دربوا لذلك تدريباً خاصاً استغرق نحو ست سنوات . ومن ألمع نظار مطبعة بولاق حسين حسنى (باشا) الذى بدأ أمره مصححاً وكاتباً بالتركية فى الوقائع المصرية سنة ١٨٥١م ثم عمل فى المطبعة إلى أن ولى نظارتها سنة ١٨٨٠م وهو أول من أنشأ مصنعاً للورق فى مصر ، إذ كان معظمه قبل ذلك يستورد من إيطاليا .

وقد استمرت مطبعة بولاق فى عملها أكثر من ٩٠ سنة لم تركد فى أثنائها

إلا بضع سنوات فى الفترة التى انقضت بين عهد محمد على وإسماعيل ، وكان نشاطها ظاهراً فى طبع مئات من الكتب العربية فى الطب والرياضة والطبيعة والفنون الحربية والتاريخ والأدب والشعر والتفسير والحديث وغيرها . وهذه المطبعة هى نواة المطبعة التى عرفت منذ عهد قديم باسم المطبعة الأميرية . وظهرت إلى جانبها مطبعتان حكوميتان أخريان إحداهما فى طرة ، والأخرى فى أبى زعبل .

أما المطابع غير الأميرية فلم تظهر إلا بعد مضى نحو أربعين سنة من إنشاء مطبعة بولاق ، وأولها المطبعة الأهلية القبطية التى عرفت فيما بعد بمطبعة الوطن ، أنشئت سنة ١٨٦٠م بعد أن تدرب عمالها فى مطبعة بولاق بإذن من سعيد باشا . ومن أقدم المطابع الأهلية كذلك مطبعة وادى النيل ١٨٦٦م طبعت فيها صحيفة وادى النيل التى أنشأها صاحبها أبو السعود أفندى . ومطبعة جمعية المعارف . ثم تعددت المطابع فى عهد عباس الثانى فى القاهرة وفى سائر العواصم المصرية كالإسكندرية وبورسعيد وطنطا وأسيوط والمنصورة .

وظهرت كذلك مطابع عربية أخرى فى بلاد غير عربية ، ومنها مطابع كلكتا وبمباى ، ودهلى ، ولاهور ، ولكناو ، وحيدرآباد فى الهند . وكان لهذه الأخيرة فضل كبير فى نشر موسوعات من التراث العربى .

هذه نظرة خاطفة إلى تاريخ الطباعة العربية فى عصورها الأولى . أما فى الحديث فإن الحصر لا يحيط بعدد المطابع المنتشرة فى العالم العربى والغربى ، التى تقوم فيما تقوم به على إحياء التراث العربى ، ولعل أبرزها جميعاً مطبعة دار الكتب المصرية ، ومطبعة دار المعارف ، ومصطفى الحلبى ، وعيسى الحلبى .

جهود المستشرقين :

إن الجهد العلمى الذى بذله المستشرقون فى إحياء التراث العربى جهد

لا نستطاع إنكاره ، فهم كانوا أساتذة الجيل الحاضر فى الطريقة العلمية التى جروا عليها . وأعود لأقول إن تحقيق النصوص وتوثيقها فن عربى أصيل ، يتجلى فى معالجة أسلافنا الأقدمين لرواية كتب الحديث واللغة والشعر والأدب والتاريخ فى دقة وأمانة ونظام بارع ، ولكن المستشرقين تبنوا إحياء هذا الفن فى هذه العصور القريبة ، ونبغ من بينهم علماء أمناء ، قاموا بنشر عيون ثمينة من التراث العربى ـ على الوجه الأمثل ، ومنهم :

وستنفلد الألمانى : Ferdinand Wustenfeld ١٨٠٨ – ١٨٩٩م الذى ألف وحقق نحو مائتى كتاب بين صغير وكبير [١] .

وبيفان الهولندى : Bevan ١٨٥٩ – ١٩٣٤م ناشر نقائض جرير والفرزدق . وتحقيقه لها وتفسيره للألفاظ التى لم ترد فى المعاجم مما يذكر له بالتقدير .

ولايل الإنجليزى : Gharles Lyall ١٨٤٥ – ١٩٢٠م محقق شرح المفضليات لابن الأنبارى مع ترجمة شعرية لها باللغة الإنجليزية !

وجاير الألمانى : Rudolf Geyer ١٨٦١ – ١٩٢٩ محقق ديوان الأعشى فى عناية فائقة وتخريج مستفيض .

ولا تستطيع هذه العجالة أن تجلو صفحة هؤلاء المستشرقين ، ولكن كتاب « المستشرقون لنجيب العقيقى (وهو كتاب ضخم فى ١٤١٤ صفحة) أعيد طبعه فى العام الماضى ، هذا الكتاب كفيل بأن يبين ضخامة الجهود التى قام بها هؤلاء المستشرقون .

ولعل من أروع محاولاتهم فى إحياء التراث ونقله إلى داخل لغتهم ما قام به المستشرق العبقرى الدكتور ج. يان D. Gustuve Jahn من

(١) معجم المطبوعات لسركيس . النهر ١٩١٧ – ١٩١٨م .

ترجمته نص كتاب سيبويه كاملا إلى اللغة الألمانية ، مع إضافات وتعليقات بالعربية مقتبسة من شروح السيرافى والشنتمرى وغيرها ، وظهرت تلك الترجمة فى خمسة مجلدات ضخمة من سنة ١٨٩٥ – ١٩٠٠م .

جهود مطبعة بولاق :

أما جهود مطبعة بولاق فتبدو واضحة فى نشر أمهات كتب التراث ، أمثال صحيح البخارى ، وخزانة الأدب ، والأغانى ، ولسان العرب ، وصحاح الجوهرى ، والقاموس المحيط ، وكتاب سيبويه ، والمخصص لابن سيده ، وشرح الحماسة للتبريزى ، وشرح المقامات للشريشى ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان، وصبح الأعشى ، وكثير غيرها من أمهات الكتب . ولست أدرى ماذا يكون الوضع لو لم تبكر هذه المطبعة بنشر تلك الكتب وإذاعتها ، إذن لتغير وجه الثقافة العربية المعاصرة التى لا تزال مهتزة إزاء لطمات الاستعمار المتوالية ، وإزاء الدس الثقافى الذى لا يزال طائفة من أبناء أمتنا العربية فى دوار من بريقه الكاذب ! !

ويحفظ التاريخ لنا أسماء شيوخ عظام كانوا يقومون – فى أمانة – بإخراج تلك الكتب على قدر طاقتهم العلمية ومنهجهم الساذج فى الإخراج ، منهم : الشيخ نصر الهورينى ، والشيخ قطة العدوى ، والشيخ محمد الحسينى ، والشيخ طه محمود ، والشيخ محمد عبد الرسول[١] ، وغيرهم .

دار الكتب المصرية :

وأما دار الكتب المصرية فإليها يرجع الفضل الأخير فى القدوة المثالية للمحققين المعاصرين . ولعل أول نافخ فى بوق إحياء التراث العربى على النهج الحديث هو المغفور له أحمد زكى باشا الذى قام بتحقيق كتابى أنساب الخيل

---

(١) كان رحمه الله آية فى العلم والفضل ، وكان رئيساً للمصححين بالمطبعة الأميرية ثم مغيراً أول بدار الكتب . وقد رأيته فرأيت فيه رجلا فاضلا .

لابن الكلبي ، والأصنام لابن الكلبي أيضاً ، وقد طبعا فى المطبعة الأميرية سنة ١٩١٤م باسم لجنة إحياء الآداب العربية التى عرفت فيما بعد باسم القسم الأدبى ، ولعل هذين الكتابين مع كتاب التاج للجاحظ الذى حققه أيضاً من أوائل الكتب التى كتب فى صدرها كلمة « بتحقيق » . كما أن تلك الكتب قد حظيت بإخراجها على أحدث المناهج العلمية للتحقيق ، مع استعمال المكملات الحديثة من تقديم النص إلى القراء ، ومن إلحاق الفهارس التحليلية . يضاف إلى ذلك أنه أول من أشاع إدخال علامات الترقيم الحديثة فى المطبوعات العربية ، وألف فى ذلك كتاباً سماه « الترقيم فى اللغة العربية » طبع فى بولاق فى زمن مبكر جداً هو سنة ١٩١٣ وإن كان يؤخذ عليه أنه كان يبالغ فى استعمال تلك العلامات ، ولا سيما فى الشعر الذى كان يختم كل بيت مستقل فيه بنقطة يضعها فى نهايته .

ومن أوائل مطبوعات دار الكتب صبح الأعشى للقلقشندى فى ١٤ مجلداً سنة ١٩٢٠م بالمطبعة الأميرية باسم دار الكتب . وتعد هذه الطبعة هى الطبعة الثانية ، إذ طبع قبل ذلك فى مطبعة بولاق سنة ١٩٠٥م .

ثم نهاية الأرب الذى بدأت طبعه محققاً سنة ١٩٢٣ بمطبعتها .

وكانت الصيحة الداوية لدار الكتب تبنيّها لطبع كتاب الأغانى لأبى الفرج بإشراف القسم الأدبى الذى كان يرأسه المغفور له أحمد زكى العدوى بناء على اقتراح السيد على راتب الذى تكفل بنفقات طبعه ، وصدر الجزء الأول منه سنة ١٩٢٧م وحظى بعناية كاملة فى إعداد الأصول وصنع الفهارس التحليلية فى نهاية كل جزء من أجزائه ، واستمرت دار الكتب فى مهمتها تنشر موسوعات التراث ، ومنها النجوم الزاهرة ، وتفسير القرطبى ، ثم ضعفت العناية بهذا القسم إلى أن تولى الأستاذ أمين مرسى قنديل إدارة دار الكتب فقام بمجهود ضخم جداً لمسته بنفسى إذ حاول أن ينقذ هذا القسم من الفناء فدبت الحركة فيه ، وحاول أن يخلص كتاب الأغانى من

ورطته التاريخية فعهد إلى بعض العلماء بإتمام ما بقى من أجزائه ، ولكن الظروف لم تسعفه بتنفيذ فكرته النشيطة ، وكاد القسم الأدبى فى عهده أن يرتقى القمة فى نشر موسوعات التراث ، ولكن أطاحت بذلك فكرة خاطئة مغرضة تزعم أن ليس من وظائف دور الكتب فى أوربا أن تضطلع بنشر التراث ، وكأننا فى جميع خطواتنا إنما نترسم أوربا فى حقها وباطلها .

وفى أسف بالغ ودع المثقفون هذا القسم الأدبى الذى قضى على نشاطه بعد عهد أمين مرسى قنديل — أطال الله فى عمره — ولم يبق من أعلامه وعلمائه إلا وشل يقوم بإعادة طبع ما كان قد طبع من قبل .

ويعد إلغاء هذا القسم جريمة لا تغتفر فى حق إحياء التراث العربى ، ويجب كل الوجوب أن يبعث ثانياً ليؤدى رسالته التى لا يستطيع أداءها غيره ، نظراً إلى وفرة المراجع المخطوطة والمطبوعة ، وإمكان تجنيد طائفة من العلماء وإعداد جيل يتلقى فن التحقيق بوجه عملى فى رحاب دار الكتب ، هذا إلى اليسر الذى يجب أن تقدمه مطبعة دار الكتب لهذه الهيئة .

هيئات ومؤسسات نشر الكتب :

ومن أبرز هذه الهيئات :

المكتبة الميمنية :

أنشأها السيد أحمد البابى الحلبى المتوفى سنة ١٨٩٩م وتاريخ إنشائها سنة ١٨٥٨م أى منذ أكثر من مائة عام . وكان منشئ هذه المكتبة عالماً فاضلاً له تقريرات على حاشية الشجاعى على شرح القطر لابن هشام . وهو عم مصطفى وعيسى وبكرى البابى الحلبى . وقد نشر طائفة من كتب التراث .

دار الكتب العربية الكبرى :

وبعد وفاته استمرت المكتبة باسم (دار الكتب العربية الكبرى) وتولى

إدارتها أبناء أخيه مصطفى وبكرى وعيسى وقتاً طويلاً . وظلت الدار واحدة حتى تفرعت فى سنة ١٩٢٨ إلى فرعين عرف أحدهما باسم (مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده) ، والآخر باسم (دار إحياء الكتب العربية) بإدارة السيد عيسى البابى الحلبى .

مكتبة مصطفى البابى الحلبى :

ولها قسط وافر فى إحياء التراث . ومن منشوراتها : رسالة الشافعى بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ، وسيرة ابن هشام بتحقيق السقا والأبيارى وشلبى ، والحيوان للجاحظ فى سبعة مجلدات بتحقيق كاتب هذه السطور . وعشرات أخرى من كتب التراث . ولا تزال تعنى بأداء رسالتها فى هذه الزاوية الخطيرة .

دار إحياء الكتب العربية :

ولها نشاط ظاهر ملموس فى إحياء التراث ، بل يكاد يكون هذا هو طابعها الغالب . وفى عهد مديرها السيد محمد عيسى الحلبى نشرت جمهرة عظيمة من التراث ، منها المزهر للسيوطى ، وأمالى المرتضى ، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، وزهر الآداب للحصرى ، والبرهان فى علوم القرآن للزركشى ، والموشح للمرزبانى ، ومقاييس اللغة لابن فارس ، ووقعة صفين لنصر بن مزاحم ، وعدد آخر من كتب التراث يطول احصاؤه .

جمعية المعارف ١٨٦٨م :

كونها محمد عارف باشا عضو مجلس الأحكام ، وقام إبراهيم المويلحى بإنشاء مطبعة سماها باسم هذه الجمعية ، فكانت كتبها يطبع أغلبها فى هذه المطبعة ، وبعضها فى غيرها من المطابع . ولعل هذه الجمعية أول جمعية مساهمة لنشر الكتب . وكان مقابل السهم فيها ثلاثين قرشاً وعدد أسهمها

٣٠ ألف سهم وقد نجحت فى أداء مهمتها؛ إذ نشرت طائفة من أمهات الكتب منها أسد الغابة لابن الأثير فى خمسة مجلدات، وكتاب ألف باء للبلوى فى مجلدين، وتاج العروس شرح القاموس للسيد مرتضى الزبيدى فى عشرة مجلدات، وتاريخ ابن الوردى فى مجلدين[1].

المطبعة الكاثوليكية للآباء المرسلين اليسوعيين فى بيروت :

وفى وقت مبكر ظهرت جهود الآباء اليسوعيين فى بيروت، إذ نشر كتاب النوادر فى اللغة لأبى زيد الأنصارى، بتحقيق سعيد الخورى الشرتونى اللبنانى سنة ١٨٩٤م، وتهذيب الألفاظ للتبريزى بتحقيق الأب لويس شيخو سنة ١٨٩٥ واستمرت جهودهم فى النشر زمناً ليس بالقصير. ولا تزال المطبعة إلى وقتنا هذا تمارس نشاطها وتنشر كثيراً من تحقيقات المستشرقين.

شركة طبع الكتب العربية :

تكونت سنة ١٨٩٨م وكان من أبرز أعضائها حسن عاصم، وأحمد تيمور، وعلى بهجت. ومما نشر فيها «الموجز» فى فقه الشافعية، وسيرة صلاح الدين لابن شداد، وهى المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، وفتوح البلدان للبلاذرى.

لجنة نشر المخصص سنة ١٩٠٢ :

وتكونت لجنة لنشر «المخصص» لابن سيده فى ١٧ مجلداً، وكان من أبرز أعضائها الشيخ محمد عبده وكان مفتياً فى ذلك الوقت، وحسن عاصم، وعبد الخالق ثروت الذى أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء، ومحمد النجارى. وقام بتصحيحه والتعليق عليه الإمام الشنقيطى الكبير، ونظر فى أوله كذلك الشيخ محمد عبده، واستغرق طبعه ست سنوات. وهو كتاب جليل يحتاج الآن إلى إعادة نشره مع إضافة الفهارس الفنية التى يتطلبها.

(١) انظر تاريخ ابن الوردى ٢ : ٣٦٦ — ٣٦٨ لترى بعض أوجه نشاط هذه الجمعية

جمعية المستشرقين الالمانية بتركيا سنة ١٩١٨ :

ويرجع تاريخها الأول إلى سنة ١٨٤٥ حيث أسست فى ألمانيا فى مدينة هاله ، ثم أنشأت فروعاً لها فى الشرق ، أهمها فرع الآستانة سنة ١٩١٨ م تولى الإشراف عليه وتأسيس مكتبته المستشرق هلموت ريتر ، وقام مع غيره بنشر طائفة من كتب التراث الهامة ، منها مقالات الإسلاميين للأشعرى ، والوافى بالوفيات للصفدى بتحقيق ريتر ثم ديلرنج ، والمحتسب لابن جنى بتحقيق برجستراسر .

ثم فرع القاهرة الذى سمى بمعهد الآثار ، وكان يديره رويمر الذى حقق الجزء التاسع من كنز الدرر وجامع الغرر للداودى .

ثم معهد الدراسات الشرقية فى بيروت سنة ١٩٦٠م . ومن جهوده إعادة نشر الجزء الأول من الوافى بالوفيات للصفدى ، وطبقات المعتزلة بتحقيق السيدة فليتسردى فالد من معهد استانبول ، وكتاب النحاة ، للمرزبانى بتحقيق سلايم من جامعة فرانكفورت .

مكتبة الخانجى :

وممن لهم يد طولى فى إذاعة التراث العربى السيد محمد أمين الخانجى ، وفيه يقول أحد أدبائنا : « وقل أن تجد عالماً أو أديباً فى زمنه لم يكن لهذا الرجل النحيف الضئيل فضل عليه . يذكره الذاكر محسناً فى ذكره ، وينساه الناسى مسيئاً فى نسيانه . ذلك هو أمين الخانجى ، الذى أحب الكتاب العربى كأنه تراث أبيه وأمه »[١] .

وقد رأيت هذا الرجل فى صباى وعرفت فيه الإخلاص للعلم وحده إذ لم يكن المال عنده إلا فى المرتبة الثانية ، كما لمست فيه التفانى فى نشر

---

(١) الأستاذ محمود شاكر فى مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٥ .

التراث العربى لا يكاد يعترف بغيره . وقد قدم إلى قارئ العربية مجموعة ضخمة من كتب التراث ، يكفى أن نذكر منها معجم البلدان لياقوت ، وذيله عليه الذى سماه « منجم العمران » . وكذا حلية الأولياء لأبى نعيم ، وبدائع الصنائع فى ٧ مجلدات ، والإصابة لابن حجر فى ٨ مجلدات ، والعقد الفريد ، واللزوميات لأبى العلاء ، وجواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر ، وتيسير الوصول إلى جامع الوصول لابن الربيع الشيبانى وقد قام بتحقيقه والدى الشيخ محمد هارون رحمه الله .

ومن المعروف عنه أنه رحل إلى العراق وغيرها من البلدان العربية ، وعاد من رحلته سنة ١٩٢٥م جامعاً لنوادر المخطوطات التى لا يقدرها الثمن . وكان له ذوق مبكر فى منهج نشر الكتب وترقيمها واختيار الصالح منها للنشر ، وهو وإن لم يكن العالم كل العالم فإنه كان ذواقة لما يحتاج إليه المثقف العربى .

وبعد وفاته فى سنة ١٩٢٨ قام مقامه ولده محمد نجيب الخانجى وورث عنه الرغبة الملحة فى إحياء التراث عن صدق لمسته فيه من طول صحبتى له . ومن منشوراته مما حققه كاتب هذه السطور البيان والتبيين للجاحظ ، والاشتقاق لابن دريد ، ورسائل الجاحظ ، ونوادر المخطوطات فى مجلدين وهى ٢٥ كتاباً ورسالة . ومما حققه غيرى : صون المنطق ، وطبقات الصوفية للسلمى ، كما أسهم فى نشر الصلة ، وتكملة الصلة ، وصلة الصلة وغيرها .

المكتبة السلفية :

أنشأها الأستاذ محب الدين الخطيب ، وعبد الفتاح قتلان سنة ١٩٢٠م ثم استقل بها محب الدين الخطيب ونشر كثيراً من كتب السلف ، منها أدب الكاتب لابن قتيبة سنة ١٩٢٧م وقد اشتركت معه فى إخراجه وتتلمذت عليه فى ذلك الوقت حينما كنت طالباً فى تجهيزية دار العلوم ، فهو كان أستاذى الأول فى ذلك — مد الله فى حياته .

ومما نشره لأول مرة كتاب الميسر والقداح لابن قتيبة ، وصنع له فهارس فنية فى ذلك الوقت المبكر ، وكذا كتاب الموشح للمرزبانى .

ونشر كذلك كتاب الملاحن لابن دريد ، والثلث الأول من كتاب خزانة الأدب ، وظهر هذا الثلث فى أربعة أجزاء بتحقيقى وإضافة تعليقات لأحمد تيمور باشا وعبد العزيز الميمنى الراجكوتى ، وكنت لا أزال إذ ذاك طالباً فى دار العلوم .

لجنة التأليف والترجمة والنشر :

وكانت نواتها طائفة من طلبة مدرسة المعلمين العليا ومدرسة الحقوق ، يقول فيهم الدكتور أحمد أمين[١] : « طائفة من الشباب تمتلئ نفوسهم غيرة على العالم الإسلامى ، ويطيلون التفكير فى وسائل إصلاحه والنهوض به ، ألف بين أفرادها الشعور بالألم من موقف الشرق وخموله ، والإيمان بوجوب العمل على تنبيهه والأخذ بيده ورفع مستواه » ، ومنهم أمين مرسى قنديل ، وعبد الحميد العبادى ، ومحمد بدران ، ومحمد صبرى أبو علم . وكان كل عضو منهم يسهم بعشرة قروش فى كل شهر ، ثم جعل ثمن السهم جنيهاً واحداً . وتولى رياستها الأستاذ أحمد أمين فظهر نشاطها فى إحياء التراث ، ونشرت السلوك للمقريزى بتحقيق الدكتور زيادة سنة ١٩٣٤ ثم المختار من شعر بشار للخالديين ، وغيره من نفائس التراث كالعقد الفريد ، ومعجم ما استعجم للبكرى بتحقيق مصطفى السقا ، وشرح الحماسة للمرزوقى بتحقيق عبد السلام هارون[٢] .

(١) انظر كتاب لجنة التأليف والترجمة والنشر فى عشرين عاماً إصدار اللجنة سنة ١٩٣٤م

(٢) من الخطأ أن ينسب تحقيقه إلى الاشتراك بينى وبين الأستاذ أحمد أمين . وانظر لذلك كلام الأستاذ أحمد أمين نفسه فى مقدمة ص ٥ وكلامى كذلك فى ص ٢٤

دار المعارف :

ولم تأخذ دورها فى إحياء التراث بصفة الجدية إلا فى سنة ١٩٤٢ حين فكرت أنا وأخى المغفور له الشيخ أحمد شاكر فى نشر مجموعات من عيون الشعر سميناها « ديوان العرب » ، وبدأنا فى نشر المفضليات ثم الأصمعيات . ثم اقترحنا على دار المعارف أن تخصص نشراً منظماً لعيون التراث العربى ، فسرعان ما استجابت لهذا الاقتراح ، وأذكر إن لم تخنى الذاكرة أن الدار قد أعلنت عن مسابقة لتسمية هذا المشروع ففاز به عنوان « ذخائر العرب » ، يشترك فى تحقيقها علماء الشرق والغرب ، وكان باكورة هذه المجموعة كتاب « مجالس ثعلب » فى مجلدين بتحقيق عبد السلام هارون ، وإصلاح المنطق لابن السكيت بتحقيقه مع الشيخ أحمد شاكر ، والطبعة الأولى من « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم تحقيق ا. ليفى بروفنسال E. Levi Provencal .

وتوالى بعد ذلك نشر طائفة من تلك الذخائر التى بلغت الآن ٣٩ كتاباً منها ما هو فى أكثر من عشرة مجلدات .

ولا تزال تلك المجموعة فى تزايد ونجاح مطرد وإن كانت قد أبطأت دلاؤها فى الفترة الأخيرة .

جهود فرج الله زكى الكردى :

وقد أنشأ مطبعة سماها مطبعة كردستان العلمية بدأت نشاطها نحو سنة ١٩١١م ونشر طائفة من كتب التراث على منهج علمى متقارب ، منها كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

جهود محمد منير الدمشقى :

وكان يميل إلى نشر موسوعات التراث ، وقد نشر عمدة القارى للعينى ، وشرح المفصل لابن يعيش ، وتفسير الآلوسى . والكامل فى التاريخ لابن الأثير ، وكثيرا غير ذلك .

جهود حسام الدين القدسي :

وهو ناشر معاصر لا يزال يوالي نشاطه في إحياء التراث في صورة مكافحة ، ويقوم الآن بنشر تاريخ الإسلام للذهبي الذي أخرج منه خمسة أجزاء ، ولو قد وجد عوناً من أولي الأمر لأتمّ هذه المهمة الجليلة التي بدأها منذ عهد قديم ، ولكن الرجل مغمور مع أنه جدير بأن يلقى من التشجيع ما يمكنه من أداء رسالته . ولقد سمعت أنه ينسخ الكتاب بنفسه ، ثم يجمع حروفه بيده ، ثم يصححه ، ثم يدفع به إلى المطبعة[1] ، ويكفي أن نذكر من جهوده نشر شذرات الذهب لابن العماد ، والضوء اللامع للسخاوي ، ومجمع الزوائد للهيثمي ، وديوان المعاني للعسكري ، واللباب في تحرير الأنساب ، وذيول تذكرة الحفاظ .

جهود جامعة القاهرة :

ومن أقدم منشوراتها « الذخيرة » في علم الطب لثابت بن قرة تحقيق جورجي صبحي سنة ١٩٢٨م ، ومنتخب جامع المفردات للغافقي تحقيق ماكس ماير هوف وجورجي صبحي سنة ١٩٣٢م ، ونقد النثر لقدامة تحقيق طه حسين والعبادي سنة ١٩٣٣م ، ورسائل فلسفية للرازي تحقيق بول كراوس سنة ١٩٣٨م. وبعض أجزاء من الذخيرة لابن بسام تحقيق عبده عزام ، وعبد العزيز الأهواني ، وخليل عساكر وعبد القادر القط سنة ١٩٣٩ — ١٩٤٥ وكتاب الأصل للامام محمد بتحقيق شفيق شحاتهسنة ١٩٥٤م ، والسير الكبير له تحقيق محمد أبو زهره ومصطفى زيد سنة ١٩٥٨ .

المجمع اللغوي بالقاهرة :

أنشئ سنة ١٩٣٤ ولم تظهر له جهود في إحياء التراث العربي . اللهم إلا

(١) مما يسجل مشابهاً لهذا العمل ما قام به المستشرق الأسباني قديرد فرنسسكو مع زميليه اللذين قاما بإخراج المكتبة الأندلسية نسخاً وتحقيقاً وجمعاً وطبعاً .

بعض اقتراحات نفذ بعضها فى خارج المجمع ، ومنها إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج ، وتهذيب اللغة للأزهرى وكتاب سيبويه . ومحاولة أخرى فريدة لتشجيع إحياء التراث ، إذ أعلن فى سنة ١٩٤٩ عن مسابقة أدبية لمحققى التراث ، ظفر فيها كاتب هذه السطور بالجائزة الأولى للنشر والتحقيق العلمى عن كتابيه : (الحيوان للجاحظ) ، و (مجالس ثعلب) . كما ظفر كتابان آخران بالجائزة الثانية ، هما (رسالة الغفران) ، و (كتاب البخلاء للجاحظ) . ولم تكرر هذه المسابقة مرة أخرى [1] .

المجمع العلمى العربى بدمشق :

أنشئ سنة ١٩١٩م ونشر فى مجلته بعض كتب التراث ، منها نشوار المحاضرة ، وبحر العوام وديوان الوليد بن يزيد . كما قام بنشر كتب أخرى مستقلة ، منها رسالة الملائكة لأبى العلاء ، وديوان ابن عنين ، والأشربة لابن قتيبة ، وديوان على بن الجهم ، وديوان الوأواء ، وديوان ابن حيوس . وثلاثة أجزاء من الخريدة فى شعر الشام .

مديرية إحياء التراث القديم بوزارة الثقافة والإرشاد القومى بسوريا :

وقد بدأت نشاطها سنة ١٩٦٠ بنشر ديوان بشر بن أبى خازم الأسدى بتحقيق عزة حسن ، وكتاب المحكم فى نقط المصاحف لأبى عمرو الدانى بتحقيق عزة حسن أيضاً .

المجمع العلمى العراقى :

وظهرت جهوده فى تقديم المساعدات المالية لنشر المخطوطات . منها كتاب الديارات للشابستى الذى عنى بتحقيقه كوركيس عواد ونشر سنة

---

(١) كان هذا وقت كتابة هذا المقال ، لكن هذا الباب من مسابقات تحقيق التراث فتح فى سنة ١٩٧٥ ولا يزال مستمراً إلى وقتنا هذا .

١٩٥١ ، ورسوم دار الخلافة لأبى الحسين الصابى بتحقيق ميخائيل عواد سنة ١٩٦٤ ، وخريدة القصر (قسم العراق) .

مديرية الثقافة العامة بالعراق :

وقد بدأت العام الماضى بنشر (سلسلة كتب التراث) ظهر منها : الدر النقى فى علم الموسيقى للقادرى الرفاعى الموصلى بتحقيق الشيخ جلال الحنفى ، وديوان عدى بن زيد العبادى تحقيق وجمع محمد جبار المعيبد .

مكتبة المثنى ببغداد :

ولها جهد بارز فى إعادة طبع الكتب النادرة من تحقيقات المستشرقين والمحققين القدماء بطريقة التصوير (الأوفست) ، ظهر منها أكثر من خمسين كتاباً هاماً ، منها : ديوان ذى الرمة ، وفهرست ابن خير ، والبدء والتاريخ للبلخى ، والآثار الباقية للبيرونى ، وأحسن التقاسيم للبشارى ، والمصاحف لابن أبى داود السجستانى .

وهذا الأسلوب ــ أعنى أساوب الطباعة بالتصوير ــ مع فائدته العاجلة ، يخشى منه إن أسىء استخدامه أن يضع عقبة كأداء أمام من يحاولون إعادة تحقيق هذه الكتب على ضوء مخطوطات أخرى . وبذلك تجمد هذه الكتب على أوضاعها القديمة التى قد تحتاج إلى تعديل ، أو إعادة تحقيق . فالأمر فى سلامة وضعه موكول إلى حسن استخدامه .

لذلك نوجه الدعوة إلى جميع من يسيرون فى هذا التيار الخطير ــ ولا سيما أخواننا فى لبنان ــ أن يكفكفوا من غلوائهم ، وأن يكون عملهم فى حدود ضيقة مبنية على دراسة علمية لا على تخطيط تجارى .

وأنا أعلم أن السيد قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى من خير من يستجيب لمثل هذه الدعوة .

المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة :

قام بنشر كثير من الكتب ، منها جامع ابن وهب ، والجمانة فى إزالة الرّطانة ، وطبقات الحكماء والأطباء لابن جلجل ، وخطط المقريزى .

المعهد العلمي الفرنسي بدمشق :

قام كذلك بنشر بعض الكتب ، منها كتاب تعبير الرؤيا لحنين بن إسحاق ، وكتاب التوابين لابن قدامة المقدسى ، والمعتمد فى أصول الفقه لأبى الحسين محمد بن على البصرى المعتزلى ، وزبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ، وكثير غيرها .

دائرة المطبوعات والنشر بالكويت :

أصدرت وتصدر سلسلة عنوانها « التراث العربى » . وقد بدأت نشاطها سنة ١٩٥٩ فأصدرت مجموعة من روائع التراث ، منها المصون لأبى أحمد العسكرى ، ومجالس العلماء للزجاجى ، وديوان لبيد . ولعل أقوى أعمالها نشر تاج العروس للزبيدى محققاً بعناية علماء مختصين تراجعه لجنة فنية من وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت ، وسيظهر فى نحو خمسين جزءاً .

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف :

تسهم لجنة إحياء التراث التابعة له فى نشر طائفة من الكتب ، منها تحرير التحبير لابن أبى الأصبع ، والمقتضب للمبرد ، وبصائر ذوى التمييز ، وغيرها .

إدارة إحياء التراث بوزارة التربية والتعليم :

وقد قامت منذ عهد قريب بنشر ديوان أسامة بن منقذ ، ورفع الإصر لابن حجر ، وتحفة القادم ، والأيام والليالى والشهور للفراء .

إدارة إحياء التراث بوزارة الثقافة والإرشاد :

فى سنة ١٩٥٨م ضمت الإدارة السالفة إلى الإدارة التى أنشئت بوزارة الثقافة والإرشاد . وقامت بنشر بعض الكتب ، منها الشفاء لابن سينا ، وطيف الخيال للشريف المرتضى ، والفاخر للمفضل بن سلمة ، والمسلسل فى غريب اللغة لأبى الطيب ، والمعارف لابن قتيبة وذلك فى سلسلة (تراثنا) .

إدارة التأليف والترجمة والنشر :

ثم ضمت الإدارة السابقة إلى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، ثم انتقلت إلى شركة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، وخصصت إدارة فيها لإحياء التراث ، فقامت بنشر طائفة من الكتب ، منها تهذيب اللغة للأزهرى ، والمحكم لابن سيده ، وتبصير المنتبه ، والمغنى للقاضى عبد الجبار ، كما عملت على إعادة طبع بعض الموسوعات التى نشرتها دار الكتب قديماً كالأغانى ، والنجوم الزاهرة ، ونهاية الأرب ، وصبح الأعشى ، وهى الآن بصدد تكملة ما لم يتم من تلك الموسوعات ، وهى الأجزاء الباقية من الأغانى ونهاية الأرب ، والنجوم الزاهرة ، كما أنها أعادت طبع نسخة لسان العرب مصورة عن طبعة بولاق ، ومذيلة بفهارس فنية حديثة ، ولكن هذا الجهد النافع وأن يكن معيباً بأنه ينقصه التحقيق العلمى والمراجعة على نسخة ابن منظور المودعة فى دار الكتب ، فإنه يدرأ الآن خطر الفراغ الثقافى الذى يشعر به الباحثون اللغويون ، ولكنه لا يعفى المسئولين من وجوب إعادة نشر اللسان فيما بعد محققاً تحقيقاً علمياً ، ومراجعاً على الأقل على نسخة المؤلف .

المجلس الأعلى للفنون والآداب :

يحاول جاهداً أن يتبنى نشر طائفة من كتب التراث . ولديه ثبت بمشروعات لم ينفذ منها إلا القليل . ومما صنعه إعادة طبع آثار أبى العلاء

المعرى ، المتمثلة فى شروح سقط الزند (خمسة مجلدات) ، وتعريف القدماء بأبى العلاء ، وهذه الآثار قام بتحقيقها منذ سنة ١٩٤٤ لجنة إحياء آثار أبى العلاء ، المؤلفة من مصطفى السقا ، وعبد الرحيم محمود ، وعبد السلام هارون ، وإبراهيم الإبيارى ، وحامد عبد المجيد ، بإشراف الأستاذ الدكتور طه حسين ، وانتهت من مهمتها سنة ١٩٤٨م ووقف مجهود تلك اللجنة عند هذا الحد مع أنه قد بقى شىء غير قليل من آثار أبى العلاء ، والمأمول من المجلس الأعلى أن يتابع تكملة آثار أبى العلاء بتأليف لجنة أخرى شابة تستطيع أن تستوعب تحقيق ما بقى من ذلك التراث ، وتمنحها التفرغ الذى كان متاحاً للجنة الأولى ، والفرصة العلمية التى اختارت دار الكتب بين المخطوطات والمراجع مقراً لها للتمكن من أداء عملها على الوجه الأوفق .

ومن المجهودات التى تسجل لهذا المجلس إعادة طبع ديوان زهير ، وديوان الهذليين ، والأصنام لابن الكلبى . ونحن نخشى أن يستمرئ المجلس هذه الطريقة الميسورة فيظل يعيد طبع ما نشر من قبل وتقتصر جهوده على هذا العمل الهين اليسير .

دار القلم :

وقد شعر مديرها محمد المعلم بضرورة استكمال صور النشاط العلمى للدار فى أعلى مجال لها ، وهو مجال تحقيق التراث ، فبدأ بطبع كتاب (سيبويه) ، الذى ظهر منه الجزء الأول من خمسة أجزاء محققاً بعناية كاتب هذه السطور . وكذلك شرع فى طبع موسوعة (خزانة الأدب) للبغدادى التى تظهر فى ١٢ جزءاً متضمنة للفهارس الفنية . كما أن دار القلم قد أسهمت فى تنفيذ إعادة طبع بعض كتب دار الكتب كالأغانى وعيون الأخبار وتفسير القرطبى . وقد علمت أيضاً أنها بصدد نشر طائفة من كتب التراث

اليمني الذى لم يسبق طبعه من قبل بمشاركة فروعها التى أنشأتها فى الجمهورية اليمنية .

المؤسسة العربية الحديثة :

وقد بدأت منذ عهد قريب فى نشر بعض كتب التراث . ويؤمن صاحبها حمدى سيد مصطفى بضرورة الإسهام فى هذه الناحية ، وقد نشر منها أمالى الزجاجى ، ووقعة صفين ، وجمهرة الأمثال للعسكرى . وقد وضع برنامجاً طويلا لتنفيذ نشر بعض كتب التراث لولا أزمة الورق الساحقة التى يئن تحت وطأتها الناشرون .

صحيفة الجمهورية :

وتحاول صحيفة الجمهورية فى أسلوب ميسر ، وإن يكن غير علمى سليم - أن تقرب كتب التراث إلى جمهرة الشعب ، وهو مجهود يشكر وإن كان لا يساير أصول التحقيق العلمى ، فكيف تنشر كتاب تجريد الأغانى لابن واصل ، ثم تضع عليه عنوان « كتاب الأغانى » ؟ ! ومع ذلك لا ينكر لها فضلها فى نشر (كتاب الشعب) الذى ظهر منه صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وأساس البلاغة ، وحياة الحيوان للدميرى ، وغير ذلك . لكن هذه المجهودات كلها محتاجة إلى رقابة علمية صارمة .

دار العروبة :

وهى الآن فرع من فروع الدار القومية[1] ، وقد بدأت فى سنة ١٩٥٩م فى مشروع لإحياء التراث العربى سمته « كنوز العرب » قياساً على تسمية « ذخائر العرب » لدار المعارف ، وبدأت تلك السلسلة بكتاب (الإيضاح فى علل النحو للزجاجى) بتحقيق مازن المبارك . ومشروع آخر

---

(١) أما الآن فقد عادت إلى استقلالها ونشاطها

سمته « كنوز الشعر » نشرت فيه (شرح أشعار الهذليين) بتحقيق عبد الستار فراج .

وعسى أن تتابع الدار القومية الاستمرار فى هاتين السلسلتين اللتين بدأهما أصحابها الأولون .

دار الثقافة ببيروت :

لها سلسلة المخطوطات العربية ، وبين يدى منها (أشعار الحسين بن الضحاك) جمع وتحقيق عبد الستار فراج .

دار المعارف للتأليف والترجمة والنشر بالعراق :

ويبدو أنها قد راقتها فكرة « نوادر المخطوطات » التى قمت بنشرها من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٥٥م فشرعت فى نشر مجموعة مماثلة لتلك ، سمتها « نفائس المخطوطات » ابتدأت فى نشرها سنة ١٩٥٣م إلى سنة ١٩٥٥ ونشرت ١٨ كتاباً ورسالة منها كتاب الأضداد فى اللغة » لابن الدهان النحوى ، وديوان السموال صنعة نفطوية ، وديوان أبى الأسود الدوْلى . والمجموعة كلها بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين .

عود إلى دار الكُتب وأثرها :

ولقد كان للطابع المتميز الذى ظهرت به منشورات دار الكتب أثر بالغ فى اقتداء بعض الأفراد العلماء بذلك النهج السديد . ولقد أدركت عصراً طويلاً بعد وفاة أحمد زكى باشا إلى سنة ١٩٣٨ لم يكن فيه فى مصر من العلماء من يضع اسمه على كتاب محقق إلا (جماعة محدودة لا تكاد تعدهم أصابع اليدين) ، وهم سبعة على وجه التحديد : محب الدين الخطيب ، أحمد شاكر ، عبد السلام هارون ، محمد مصطفى زيادة ، مصطفى السقا ،

إبراهيم الأبيارى ، عبد الحفيظ شلبي . والأخيران من هذه الجماعة كانا ممن تمرس بالقسم الأدبى بدار الكتب . فكان القسم الأدبى مدرسة مباشرة وغير مباشرة لكل من مارس التحقيق العلمي من بعد ذلك .

وعلى ضوء مجهودات هذا القسم ومجهودات هذه الجماعة الأولى للمحققين ، وجدنا ثبت أسماء المحققين يزداد يوماً بعد يوم ، حتى أصبحوا الآن لا يعدون كثرة فى مصر وفى أنحاء العالم العربى ، نعرف منهم الأسماء التالية مقرونة بذكر أبرز أعمالهم ، ومنهم من حقق أكثر من عشرين كتاباً ، ومعظمهم ممن نشر أكثر من كتاب :

فى مصر :

إبراهيم مصطفى (المنصف ، لابن جنى) بالمشاركة .
أحمد أحمد بدوى (ديوان القاضى الفاضل) .
أحمد أمين (رسالة حى بن يقظان) .
أحمد يوسف نجاتى (المنهل الصافى ، لابن تغرى بردى) .
ثروت عكاشه (المعارف ، لابن قتيبة) .
جمال الدين الشيال (مفرج الكروب ، لابن واصل) .
حامد عبد المجيد (رفع الأصر عن قضاة مصر ، لابن حجر) .
حسن كامل الصيرفى (ديوان البحترى) .
حسين نصار (ديوان سراقة البارقى) .
خليل عساكر (تشحيذ الأذهان برحلة بلاد العرب والسودان ، لمحمد ابن عمر التونسى) .
زكى حسن (المغرب لابن سعيد) بالاشتراك مع غيره .
السيد أحمد صقر (إعجاز القرآن ، للباقلانى) .

سليمان دنيا (تهافت الفلاسفة ، الغزالى) .

شوقى ضيف (المغرب ، لابن سعيد) .

طه الحاجرى (البخلاء) .

طه حسين (إشراف ومشاركة فى نشر لزوم ما لا يلزم) .

عائشة عبد الرحمن ، بنت الشاطئ (رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى) .

عبد الحليم النجار (المحتسب ، لابن جنى) بالمشاركة .

عبد الخالق عضيمة (المقتضب ، للمبرد) .

عبد الرحمن بدوى (الإشارات الإلهية ، لأبى حيان التوحيدى) .

عبد الستار فراج (شرح أشعار الهذليين للسكرى) .

عبد العزيز أحمد (التصحيف والتحريف للعسكرى) .

عبد العزيز الأهوانى (المقتطف من أزاهير الطرف (لابن سعيد المغربى).

عبد العزيز مطر (تثقيف اللسان لأبى حفص الصقلى) .

عبد العليم الطحاوى (الفاخر ، للمفضل بن سلمة) .

عبد الفتاح الحلو (التمثيل والمحاضرة ، للثعالبى) .

عبد الفتاح شلبى (الإبانة ، لمكى بن أبى طالب) .

عبد القادر القط (الذخيرة لابن بسام) بالمشاركة .

عبد الله أمين (المنصف ، لابن جنى) بالمشاركة .

عبد الوهاب عزام (الورقة ، لابن الجراح) بالمشاركة .

أبو العلا عفيفى (نصوص الحكم ، لابن عربى) .

على سامى النشار (ديوان أبى الحسن الششترى) .

على عبد العظيم (ديوان ابن زيدون) .

على عبد الواحد وافى (مقدمة ابن خلدون) .

على محمد البجاوى (زهر الآداب ، للحصرى) .

فؤاد سيد (طبقات فقهاء اليمن ، لابن سمرة الجعدى) .

محمد أبو الفضل إبراهيم (أنباه الرواة ، للقفطى) .

محمد حفنى شرف (تحرير التحبير ، لابن أبى الأصبع) .

محمد خلف الله أحمد (ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للرمانى والخطابى والجرجانى) بالاشتراك .

محمد زغلول سلام (ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للرمانى والخطابى والجرجانى) بالاشتراك .

محمد عبد الجواد (شجر الدر ، لأبى الطيب اللغوى) .

محمد عبد الغنى حسن (حلية الفرسان ، لابن هذيل الأندلسى)

محمد عبد الله عنان (الإحاطة فى أخبار غرناطة ، للسان الدين الخطيب) .

محمد عبده عزام (ديوان أبى تمام) .

محمد على النجار (الخصائص ، لابن جنى) .

محمد محيي الدين عبد الحميد (شرح الحماسة للتبريزى) .

محمد مصطفى (بدائع الزهور ، لابن إياس) .

محمد مصطفى هدارة (سرقات أبى نواس ، لمهلهل بن يموت) .

محمود الطناحى (النهاية ، لابن الأثير) .

محمود محمد شاكر (طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام) .

فى سوريا :

إبراهيم الكيلانى (الصداقة والصديق لأبى حيان) .

أحمد راتب النفاخ (ديوان ابن الدمينة) .

خليل مردم (ديوان ابن عنين) .

سامى الدهان (ديوان أبى فراس) .

سعيد الأفغانى (شرح الأبيات المشكلة الإعراب ، للحسن بن أسد الفارقى) .

شكرى فيصل (الخريدة : قسم الشام) .

صالح الأشتر (أخبار البحترى ، للصولى) .

صلاح الدين المنجد (السير الكبير ، للسرخسى) .

عبد الكريم الأشتر (ديوان دعبل) .

عز الدين التنوخى (الإتباع والمزاوجة ، لأبى الطيب اللغوى) .

عزت حسن (ديوان تميم بن مقبل) .

محمد أسعد طلس (ديوان ابن أبى حصينة) .

محمد كرد على (الأشربة ، لابن قتيبة) .

فى فلسطين :

محمد يوسف نجم (ديوان أوس بن حجر) .

إحسان عباس (ديوان لبيد) .

فى الأردن :

ناصر الدين الأسد (ديوان قيس بن الخطيم) .

فى العراق :

أحمد مطلوب (التبيان فى إعجاز البيان ، لابن الزملكانى) .

أحمد ناجى القيسى (شرح أشعار هذيل ، لابن جنى) .

خضر الطائى (ديوان العرجى) بالمشاركة .

خليل إبراهيم العطية (ديوان مزرد بن ضرار) .

رشيد الصفار (ديوان الشريف المرتضى) .

رشيد العبيدى (ديوان العرجى) بالمشاركة .

عاتكة الخزرجية (ديوان العباس بن الأحنف) .

كوركيس عواد (الديارات للشابستى) .

محمد بهجة الأثرى (الخريدة : قسم العراق) .

محمد جبار المعيبد (ديوان عدى بن زيد العبادى) .

محمد حسن آل ياسين (نفائس المخطوطات) . ١٥ كتاباً ورسالة

مصطفى جواد (تلخيص مجمع الآداب ، لابن الفوطى) .

ميخائيل عواد (رسوم دار الخلافة) .

في السعودية :

أحمد عبد الغفور عطار (صحاح الجوهرى) بالمشاركة .

حمد الجاسر (تعقيبات واستدراكات لطائفة كتب التراث) .

في اليمن :

القاضى محمد الأكوع (قرة العيون ، في تاريخ اليمن الميمون لابن الديبع) .

في ليبيا :

طاهر بن أحمد الزاوى (التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، لابن غلبون) .

فى تونس :

حسن حسنى عبد الوهاب (رحلة التيجانى) .

الطاهر بن عاشور (ديوان بشار بن برد) .

فى الجزائر :

محمد بن شنب (الجمل للزجاجى) .

فى المغرب :

عبد الله جنون (أخبار الملوك الشرفا ، للمراكشى) .

علال الفاسى (الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون) .

محمد بن تاويت الطنجى (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً)

فى السودان :

عبد الله الطيب (شرح أربع قصائد لذى الرمة) .

فى إيران :

محمد غفرانى الخراسانى (الأدب الوجيز ، للولد الصغير ، لابن المقفع) .

فى الهند وباكستان :

السيد محمد يوسف (حماسة الخالديين) .

عبد الحق المدراسى (ديوان ابن سيناء الملك) .

عبد العزيز الميمنى الراجكونى (سمط اللآلىء ، لأبى عبيد البكرى) .

عبد القدوس الأنصارى (تلخيص مجمع الآداب ، لابن الفوطى) .

محمد بدر الدين العلوى (المختار من شعر بشار ، للخالديين مع شرحه لأبى الطاهر التجيبى) .

محمد حميد الله (أنساب الأشراف ، للبلاذرى) .

يوسف حسين (الاختياران ، للأصمعى) .

فى تركيا :

فؤاد سزكين (مجاز القرآن لأبى عبيدة) .

استمرار جهود المستشرقين :

وإلى جانب هذه الجهود العربية والشرقية ، لا نزال نلمس صنيع إخواننا المستشرقين المعاصرين فى خدمة التراث العربى ، ونذكر من أفاضلهم ـ وهم كثيرون :

١ ـ أ. ليفى . بروفنسال الفرنسى (توفى سنة ١٩٥٦م) . حقق طائفة من الكتب من ألمعها (كتاب نسب قريش لمصعب الزبيرى) .

٢ ـ أمبرتو رتزيتانو الإيطالى (ديوان الفنلوبى الصقلى) .

٣ ـ أنس خالدوف الروسى (المنازل والديار ، لأسامه بن منقذ) .

٤ ـ أوسكار لوفجرين السويدى (الإكليل للهمدانى ج ١ ، ٢) .

٥ ـ ايفان فاجنر الألمانى (ديوان أبى نواس) .

٦ ـ الآنسة ايلزة ليختن شتيتر الأمريكية (كتاب المحبر لابن حبيب) .

٧ ـ شارل بلات الفرنسى . له نشاط ظاهر فى نشر كتب للجاحظ ، منها (البغال) ، و (التربيع والتدوير) ، و (الجوارى والغلمان) .

٨ ـ شارل كوينس الفرنسى . يقوم الآن بتحقيق (كتاب الجيم لأبى عمرو الشيبانى) .

٩ ـ كراتشكوفسكى الروسى . المتوفى سنة ١٩٥١ له ما يربو على

أربعمائة وخمسين أثراً بين مصنفٍ ومترجم ومفسر ومنقود باللغات الروسية والفرنسية والألمانية والعربية ، ومن تحقيقاته (الأخبار الطوال للدينوري) ، و (طبقات الشعراء لابن المعتز) ، و (كتاب البديع لابن المعتز) .

١٠ – الأب هوبني الهولندي ، له (المجموع المحيط بالتكايف، للقاضي عبد الجبار) .

أثر النقد في استقامة منهج تحقيق التراث :

إن متابعة النقد لما يظهر محققاً من كتب التراث كانت ذات أثر فعال في تقويم منهج النشر . وهنا أنوه بالجهد البارع الذي بذلته الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن في نقد طائفة كبيرة من منشورات التراث نقداً منهجياً وموضوعياً وتوجيهياً ، اضمحل على أثره ذلك العبث الذي كان يمارسه بعض ناشري التراث .

كما أنوه بجهد الأساتذة : حمد الجاسر ، والسيد صقر ، ومحمد عبدالغني حسن ، وشوقي ضيف ، وعبد الستار فراج ، وعبد العزيز مطر ، وعبد الفتاح الحلو ، ومصطفى جواد ، ومحمد جبار المعيبد وغيرهم .

ولست أنسى أن أحيي ذكرى كل من الأب أنستاس ماري الكرملي ، والدكتور بشر فارس اللذين كانت لهما مشاركة فعالة في هذه الناحية .

ولئلا أغمط نفسي حقها أذكر أن كاتب هذه السطور كانت له جولات طويلة في هذه الحركة النقدية التي لا بد من استمرارها للإسهام في تقويم الأخطاء والمناهج المنحرفة ، والرقابة الواجبة للحفاظ على هذه الأمانة الغالية .

كلمة أخيرة :

هذه صورة موجزة جداً لتلك الحركة الدائبة التي لا تزال تخدم التراث.

العربى ، وتحاول مجتمعة حيناً ومفترقة أحياناً أن تنبش كنوز هذا التراث العربى الإسلامى الخالد ، وتستخرج اللؤلؤ من أصدافه .

ولا يزال محققو التراث ، وهم المجاهدون المكافحون حقاً ، فى حاجة ملحة إلى تيسير مهمتهم الشاقة الناصبة . فإنى أعلم تمام العلم وقد مارست هذا الفن أكثر من أربعين عاماً متتالية[1] ، تمكنت فيها بالخبرة والمعالجة من تأليف أول كتاب عربى فى هذا الفن ، وهو (تحقيق النصوص ونشرها) ، أقول : إنى أعلم مقدار الصعوبات التى تكتنف هذا الجهاد المضنى من عنت بعض الناشرين ، وعنت بعض الهيئات الرسمية وشبه الرسمية ، ومن صعوبة الحصول على المخطوطات ، أو مصوراتها التى ترهق تكاليفها هذه الطائفة المستبسلة ، كما ترهقهم إجراءات الحصول عليها من ندرة ورق التصوير وأفلامه ومضاعفة أثمان ذلك إلى أربعة أضعاف ما كان عليه إلى وقت قريب جداً ، هذا إلى العقبات الشديدة التى تعترض سبيل النشر من أزمات المطابع وندرة ورق الطبع وأدواته .

وهذا أمر جدير بأن يجد من أولى الأمر عناية عاجلة ، تزيل شكوى المحققين الذين جندوا أنفسهم فى هذا الميدان طوعاً ، لخدمة العروبة التى هى الرباط الأسمى بين الشعوب العربية ، ولمحاولة التحرر من إسار الاستعمار الثقافى الذى لا تزال بقايا منه جاثمة على عقول بعض المفتونين بالأفكار المستوردة من خارج الإطار العربى الأصيل .

وإن هناك أموراً أخرى لا يجد العلماء المحققون مجالاً لبسطها والإفصاح عنها إلا عند كبار المسئولين ، فإن هناك أخطاء وإساءات صارخة تجافى الذوق ، يتعرض لها هؤلاء السادة من أولئك الذين لا يحسنون تقدير العلماء . وإن هناك هضماً ظالماً لحقوق النشر فى كبريات دور النشر . ومنها (دار

(١) هى الآن بحمد الله أكثر من نصف قرن .

المعارف) ، (إدارة التأليف والترجمة والنشر) . وهناك أيضاً مشكلة الضرائب التى يأمل فى حلها المحققون والمؤلفون .

وإنى إذ أهدى هذا البحث التاريخى الذى يصور هذه الناحية الثقافية الخطيرة إلى الأستاذ الجليل وزير الثقافة (الدكتور سليمان حزين) ، وأنا أعلم عنه الكثير من الاهتمام بأمورنا الثقافية — أرجو أن يولى هذا الأمر الخطير ما هو جدير به من عون سريع يتيح لتلك الانطلاقة العارمة أن تجد مجراها مذللاً ميسراً ، محفوفاً بالإعزاز والتقدير ، فقد كاد غيرنا ممن لا يحسن هذا الأمر أن يحتل مكاننا هذا المرموق ، وأن ينتزع منا مجداً بنيناه بالكفاح الصادق ، والجهاد الطويل .

- ٣ -

احياء التراث العربى وأثره فى لغتنا المعاصرة(*)

هذه اللغة المعاصرة التى نقرؤها ونكتبها خضعت منذ حين لمؤثرات شتى ، وعوامل مختلفة ، نهضت بها وأقالتها من عثارها بعد الكبوة الفادحة التى منيت بها فى ظلام التيارات السياسية ، والغزوات العارمة ، والمحاولات المغرضة التى أرادت إحلال العامية محل الفصحى ، وألفت فيها الكتب التى وضعت للعامية قواعدها ، ومنها كتاب قواعد اللهجة العربية بمصر لشبيتا Spitta الألمانى سنة ١٨٨٠ ، كما ألف زميله الألمانى شتوم Stumm قواعد اللهجة العربية المستعملة فى تونس سنة ١٨٩٤م . ووضع المستشرق الإنجليزى سترلنج : Sterleng كتاب قواعد العربية العامية فى ٣٧٥ صفحة ونشره فى لندن سنة ١٩٠٤م، وألف زميله الإنجليزى دريفر Driver قواعد العربية العامية فى سوريا وفلسطين ونشره سنة ١٩٢٥م ، ولست أزعم أن هؤلاء العلماء قد وضعوا هذه الكتب فى محاولة منهم لوأد اللغة الفصيحة . ولكنه باب ظاهره الرحمة وباطنه من قبله العذاب ، هو باب من أبواب الدراسات اللغوية العامة التى تحاول أن تقنن هذه الظواهر وتضعها فى أطر معينة . لكن لو كان قدر لهذه الكتب رواج معين فى ذلك بين أنصار العامية ، وأصحاب الوطنية العصبية الضيقة ، لكانت النكبة مضاعفة ، والطامّة شاملة .

ومبلغ الظن أن لغة لم تصب بمثل ما منيت به العربية فى مصر والشام والعراق وسائر البلاد الناطقة بالضاد ، من تطفل العناصر الغريبة عليها . فنجد اللفظ التركى إلى المصرى ، واليونانى إلى الإيطالى والفرنسى والإنجليزى ، والفارسى والأسبانى والفينيقى إلى بعض اللهجات العربية الوضيعة . بل قد بلغ الأمر من سيطرة الغزو الاستعمارى ، أو بالأصح التخريبى ، أن يقضى على لغة التعليم العام قضاء مبرماً فى بعض بلادنا العربية ،

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة الثامنة من مؤتمر الدورة ٤٣ سنة ١٩٧٨م .

ويصبغها باللون التركى ، أو الفرنسى ، أو الإنجليزى ، لولا أن ولّى ذلك العهد لغير رجعة ، واسترد العرب كرامتهم وحريتهم ، ومحو هذا الليل الدامس إلا شيئاً من الغبش نأمل أن ينقشع انقشاعاً كاملاً بفضل الأمناء الأوفياء .

ولقد كان داء العجمة مستفحلاً فيما مضى . إذ لم تكن هناك وسائل جدية لمقاومته ، فلم تكن له بد من أن يستطير وينشر ظله الثقيل فى كل مكان يحل به . وأضف إلى ذلك ما طبع العربى عليه من كرم وتسامح ولين جانب ، أطمع فيه ضيفه فألقى بأحمال لغته فى تلك الساحة الكريمة ، ثم أبى فى الظلام أن يرحل عنها .

أما اليوم فقد ظهرت وسائل قاهرة . تعاونت جميعها فى مقاومة هذا الغزو اللغوى متمثلة فى المدارس العامة والجامعات المنتشرة فى ربوع بلادنا ، تحاول ما أمكنها الجهد أن تدعم الفصحى وتنقيها من أوشاب الدخيل الذى لا ضرورة فى وجوده . والأجنبى الذى يمكن اطّراحه والاستغناء عنه ، تعاونها فى ذلك المجامع اللغوية المباركة فى القاهرة ودمشق وبغداد . وسائر الهيئات اللغوية فى العواصم العربية .

وكان للصحف والمجلات مجاذا وسلطانها على المتكلمين بالعربية ، وتوجيههم نحو الفصحى بنشاطها الدائب وقدوتها الصالحة إلى حد ما . وتظهر فيها بين الفينة والأخرى دراسات ونقود لغوية تعاون فى رفع المستوى اللغوى والأسلوبى إلى ما تستطيع رفعه فى حدودها المعينة .

وإلى جانب هذا يتكاتف الإنتاج الأدبى والفنى . ووفرة المؤلفات ووسائل الإعلام ، والمجالس العلمية والسياسية أيضاً . فى تغذية اللغة المعاصرة ، وإمدادها بالكثير وبالجديد من صور الألفاظ والأساليب المنتقاة .

ولكننا نجد مع ذلك أن هذا التحول السريع من لغة الجبرتى وأضرابه إلى

لغة المنفلوطي والرافعي وطه حسين والعقاد ، إنما يرجع الفضل الأكبر فيه إلى الموْجة العاتية والهِزّة الكبرى التي نجمت عن حركة إحياء التراث العربي ونشر عيون بيانه الأصيل ...

وحركة الإحياء هذه جاءت وليدة الحاجة ، إثر نشاط حركة الترجمة التي بدأها محمد علي بعد عودة المبعوثين من البلاد الأوربية . فكانت مهمة الترجمة شاقة غاية المشقة وسوق الكتب مقفرة معتمدة على المخطوطات التي يعز الوصول إليها ، ويصعب استعمالها على نطاق واسع .

وقامت المطبعة الأميرية ببولاق بنشر كثير من أمهات اللغة والأدب والتاريخ والحديث ، كلسان العرب ، وصحاح الجوهري ، والقاموس المحيط ، والأغاني ، وخزانة الأدب ، وشرح الحماسة للتبريزي ، وشرح المقامات للشريشي ، وأمالي القالي ، وصحيح مسلم سنة ١٢٩٠ ، والبخاري سنة ١٣١٣ . وهي كتب أصيلة لها قدرها وأثرها الفعال ، ولا سيما كتب اللغة التي هي المرجع الأول في الاستفتاء اللغوي ، والحارس المتصدي لمن يريدها فوضى بغير نظام .

ولست أدري ماذا كان يحدث من الأوضاع لو لم تبكر هذه المطبعة بنشر تلك الكتب وإذاعتها في ذلك الحين ؟ ! إذن لتغيرّ وجه الثقافة العربية التي لا تزال مهتزة إزاء لطمات الاستعمار الثقافي المتوالية ، وإزاء الدس الثقافي الذي لا يزال طائفة من أبناء أمتنا العربية في دوار مريب من بريقه الكاذب .

ولعل نشاط الجانب الأوربي ، ودأبه على نبش الكنوز العربية والشرقية ، كانا من الحوافز التي زادت من يقظة إخواننا العرب ، وتحمسهم لهذا الإحياء ، إذ كانوا يرون أنهم أحق به وأجدر .

وقد ألفينا هؤلاء المستشرقين ينشرون عيوناً ثمينة من عيون التراث العربي قبل أن تظهر هنا في الشرق العربي بعشرات السنين ، في أمانة علمية

دقيقة اقتبسوها من أسلافنا ، مقرونة بعناية خاصة بالفهارس الفنية ، وهذا كان شأن جمهور أسلافنا أيضاً . فكُتب الرجال عندنا تنال ترتيباً فهرسياً ممتازاً مقروناً بالإحالات الذكية . كما أن مقابلة المخطوطات ومقارنتها ميزة عربية سباقة ، عرفها آباؤنا الأولون .

عرفوا منا كل شيء ثم عدنا نحن إليهم لنعرف ونتعلم ما عرّفناهم من قبل . والفضل لا ينكر . و « ما نبغى ، هذه بضاعتنا ردت إلينا » .

وإذا أحببت أن أنوّه بالقمة العايا من نوابغ هؤلاء المستشرقين فلن أستطيع إغفال كل من : وستنفلد الألمانى (٩١سنة) Ferdinand wstenfeld ١٨٠٨ — ١٨٩٩ الذى ألف وحقق نحو مائتى كتاب بين صغير وكبير منها كتاب سيرة ابن هشام ،ومعجم ما استعجم الذى نشره مكتوباً بخط يده مطبوعاً بمطبعة الحجر (ليتوجراف) وبيفان الهولندى (٧٥ سنة) Bevan ١٨٥٩ — ١٩٣٤ ناشر نقائض جرير والفرزدق مذيّلة بالفهارس المبتكرة والتعليقات ، ومنها تفسيره وفهرسته للألفاظ التى لم تذكر فى المعاجم المتداولة . وهو مما يذكر له بالتقدير .

وكذلك تشارلس لايل الإنجليزى (٧٥ سنة) Charles Lyall ١٨٤٥ — ١٩٢٠ محقق شرح المفضليات لابن الأنبارى مع ترجمة شعرية لها باللغة الإنجليزية . ومن عجب أنه استطاع أن ينظم هذه الأساليب والمعانى الجاهلية فى ثوب شعرى إنجليزى قشيب .

ولا نستطيع أن نغفل فضل المستشرق الألمانى المقعد رودلف جاير (٦٨ سنة) Rudolf Geyer ١٨٦١ — ١٩٢٩ محقق ديوان الأعشيين (٢٢ شاعراً) الذى أسماه : « الصبح المنير فى شعر أبى بصير » .

وتظهر عنايته الفائقة فى تخريج هذه الأشعار من ٥٦٩ مرجعاً مع مقابلات كاملة لرواية النصوص بيتاً بيتاً وكلمة كلمة .

ويتولى وليم رايت الإنجليزى : W. Wright تلميذ دوزى ١٨٣٠ – ١٨٨٩ يتولى نشر كامل المبرد لأول مرة فى حذق وإتقان ، فى أجزاء ثلاثة مع حواش وفهارس وافية تمام الوفاء ، وهو فى سن الرابعة والثلاثين . وذلك قبل أن تظهر الطبعة المصرية بنحو ربع قرن .

وأعجوبة الأعاجيب أن يقوم على إحياء كتاب سيبويه مستشرق فرنسى شاب هو هَرْتويغ دُرنبُرغ Hartwig Derenbourg ١٨٤٤– ١٩٠٨. وقد نشر الكتاب فى سنة ١٨٨١ أى قبل أن تظهر طبعة بولاق بعشرين سنة . ثم يتولى عبقرى آخر هو المستشرق الألمانى جوستاف يان Gustave Jahn ١٨٣٧ – ١٩١٧م . ترجمة نص الكتاب كاملاً إلى اللغة الألمانية مع إضافات وتعليقات بالعربية مقتبسة من شروح السيرافى والشنتمرى ومن خزانة الأدب وغيرها ...

وظهرت تلك الترجمة فى خمسة مجلدات من سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٩٠٠م

ولقد حاولت أن أختبر صحة هذه الترجمة فناولت النص الألمانى لأحد تلاميذى ممن يتقنون الألمانية ، وهو الآن أستاذ بالجامعة . وتناولت أنا النص العربى ، فكان تلميذى يترجم النص الألمانى ويقروه علىّ ، فأجد أمام عينى فى النص العربى ما يطابق الترجمة الألمانية تماماً وكأنما يقرأ هو ما أراه أنا أمام ناظرى .

وجوستاف يان هذا هو الذى أخرج شرح المفصل لابن يعيش مقابلاً بمخطوطات ليبزج وأكسفورد والآستانة فى سنة ١٨٨٢ وذلك قبل أن تظهر الطبعة المصرية لمحمد منير الدمشقى بنحو ٥٠ سنة أى نصف قرن . هذه صورة مشرفة لإخواننا الأعاجم الذين منحوا لغتنا العزيزة من الوفاء والإعزاز والصون ، ومن الخدمة الصادقة الشريفة ما يجب أن تخجل له بعض الزعانف العربية الذليلة . التى تحاول فى إصرار مزر أن تهدم أصولاً لا تعرفها وأن تشوه جمالاً عز على الدهر أن يستباح .

كناطح صخرة يوماً ليوهنها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

أقولها بسماحة هؤلاء الذين يحاولون هدم الأهرام : حاولوا ما استطعتم ، واجتهدوا ما وسعكم الجهد ، وأعملوا معا ولكم المتوالية المتتالية فى بنائها المتين الشامخ .. فستظل الأهرام هى الأهرام شامخة ساخرة ممن تخيلوا ثم خالوا .

وأعود فأقول : إنه قد بلغ مقدار هذه الكتب المحياة وتلك البحوث التى أديرت حولها ما يُربى على ٨٠٠٠ كتاب وبحث . ويظهر ذلك جلياً لمن تتبع كتاب « المستشرقون » للعالم الفاضل نجيب العقيقى . وإذا عدنا إلى الجانب العربى وجدنا جهوداً شعبية تساعد الجهود الرسمية فى كشف الغطاء عن كنوز الأسلاف . ووجدنا هيئات علمية تقوم هنا وهناك ، تجعل همها ووكدها نشر التراث على أوسع نطاق ... وتبدو إلى الوجود جمعية المعارف التى أسسها محمد عارف باشا أحد أعضاء مجلس الأحكام بمصر سنة ١٨٦٨ . وكانت هذه الجمعية مساهماً فيها ، ومكونة من ثلاثين ألف سهم ، وقيمة السهم ثلاثون قرشاً ـ لا خمسة جنيهات كما ذكر جورجى زيدان ـ وقد لقيت هذه الجمعية إقبالاً كبيراً واستجابة سريعة من المثقفين وغيرهم وكان لأعضائها ميزة فى أن يحصلوا على الكتب بثمن أقل مما يطلب من غيرهم . وقد نشرت الجمعية طائفة من الكتب القيمة فى اللغة والتاريخ والأدب منها تاج العروس للزبيدى ، وكتاب ألف باء للبلوى ، وهو كتاب فى علوم العربية صنعه مؤلفه ليكون مرجعاً لولده ، يتثقف به . وهو كتاب غزير الفائدة يقول فى مقدمته :

هذا كتاب ألف بـــــا صنعتــــه يــــا ألبــــا
من أجل نجلى المــــرجى إذا شــــدا أن يلبّــــا

ومنها كتاب أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، لابن الأثير . والفتح الوهبى

على تاريخ أبي نصر العتبي ، وهو من أعجب كتب التاريخ ، إذ هو شرح لكتاب تاريخي ألفه أبو نصر العتبي ليسرد فيه وقائع يمين الدولة محمود بن سبكتكين (٣٦٠–٤٢١) بأسلوب أدبي فني ، وسماه اليميني نسبة إلى يمين الدولة هذا . وقد تتابع عليه شراح كثيرون كان أبرزهم وأشهرهم هذا المؤلف ، وهو أحمد بن علي المنيني (١٠٨٩ — ١١٧٢) ، الذي سمى شرحه بالفتح الوهبي .

ومنها تاريخ ابن الوردي مذيلا بالحوادث التي جرت بعد وفاته ، أي من سنة ٥٧٠ إلى سنة طبعه وهي سنة ١٢٨٥ . وقد كتب في آخره ثَبَت بأسماء أعضاء هذه الجمعية وعدد أسهمها . وقد وهم جورجي زيدان هنا وهماً آخر حين ذكر في كتابه أن أسماء هؤلاء الأعضاء مذكورة في ذيل الفتح الوهبي ، والحق أنها مذكورة في تاريخ ابن الوردي ، وكم ذا له — كان الله له — من أوهام .

ومن الجمعيات التي قامت على إحياء التراث في ذلك العهد : شركة طبع الكتب العربية وقد ظهرت بعد تأسيس جمعية المعارف بثلاثين سنة أي سنة ١٨٩٨ م . وقد طبعت طائفة صالحة من كتب الفقه والتاريخ منها : الموجز في فقه الشافعي ، وفتوح البلدان للبلاذري ، والإحاطة في أخبار غرناطة ، وتاريخ دولة آل سلجوق .

كما ألفت جمعية خيرية من فضلاء المصريين وسراتهم ذوي الهمم العلية لنشر كتاب المخصص لابن سيده سنة ١٩٠٢ ؛ وكان من أعضائها الشيخ محمد عبده . وحسن عاصم ، وعبد الخالق ثروت ، ومحمد البخاري . ووكلوا تصحيح الكتاب إلى الإمام الشنقيطي بمعاونة الشيخ عبد الغني محمود أحد علماء الأزهر ... وفي ختام طبعه يقول رئيس التصحيح بالمطبعة الأميرية وهو طه بن محمود : « فوربّ الأرباب ، ومن علم الكتاب ، لو لم يكن لابن سيده إلا هذا الكتاب ، لكان فيه كل ما يزين ، وتبيض به الوجوه ، وترجح

الموازين، فستعلم يمين ضمته، ما تضمنته ، من اليسار ، الذى يصغر فى جنبه قدر الدرهم والدينار ».

ولقد كانت فكرة إحياء التراث والنشاط فيه فكرة قومية قبل أن تكون فكرة علمية ، فإن طغيان الثقافة الأوربية والنفوذ التركى وضغطه كاد أن يأخذ بمخنق العرب فى بلادهم ، فأرادوا أن يخرجوا إلى متنفس يحسون فيه بكيانهم المستمد من كيان أسلافهم ، فى الوقت الذى ألفوا فيه الغرباء من الأوربيين يتسابقون وينبشون كنوز الثقافة العربية فانطلقوا ... واهتم كثير من الكتاب والأدباء الذين لمعت أسماؤهم بالإسهام فى ذلك الإحياء . فنجد الإمام محمدعبده يرأس جمعية تسمى ، جمعية إحياء العلوم العربية » ويشرف على إحياء « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر الجرجانى ، كما يشرف على نشر « أسرار البلاغة » للجرجانى أيضاً مع تلميذه الكاتب الدينى المعروف الشيخ محمد رشيد رضا . ويقوم الشيخ الإمام بتدريس الكتابين فى الأزهر الشريف للطلبة والعلماء أيضاً ببراعته المعروفة ، حتى ليقول بعض من سمع دروسه من الأساتذة بعد حضوره للدرس الأول من أسرار البلاغة : « إنا اكتشفنا فى هذه الليلة معنى علم البيان » .

ووجدنا الإمام يهتم أيضاً بشرح مقامات بديع الزمان الهمذانى ، ويطبع هذا الشرح بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين فى وقت مبكر هو سنة ١٨٨٩

ونرى الشيخ إبراهيم اليازجى ينشر « رسالة الغفران » لأبى العلاء فى سنة ١٩٠٣م .

ويهتم طه حسين بإذاعة أدب أبى العلاء وشعره ، ويشرع فى شرح لزوم ما لا يلزم ، ويقوم بجهد كبير فى إحياء آثار أبى العلاء بعامة . فيسهم مع لجنة أبى العلاء وكنت أحد أفرادها فى إخراج ستة مجلدات من الآثار المتعلقة بكيانه الأدبى .

ونجد أمثال العقاد فى عبقرياته ، ومحمد حسين هيكل فى « حياة محمد». وفى كتابه « فى منزل الوحى » يعالجون نصوص التراث فى بحوثهم ومقالاتهم.

وإنى لأعتقد اعتقاداً جازماً : أن ليس إحياء التراث مقصوراً على إشاعته التقليدية بنشر كتبه وتحقيقها ، ولكنه يشمل مع ذلك إذاعة نصوصه واستخدامها فى غضون البحوث والتعليقات والدراسات فهذا نشر يأخذ الصفة العامة كما أن ذاك نشر تناله الصفة العامة أيضاً ، كلاهما يرى النور ويراه النور . لقد كان لتيسير الحصول على كتب التراث أثر ظاهر فى تطوير الأساليب الراكدة فى مناقع السجع والصنعة الركيكة ، وفى تطور لغة الكتّاب وذلك بإلحاح الأساليب الممتازة وقوة دفعها للزيوف . وبالكلمات المنتقاة التى تمتلئ بها كتب التراث . كما كان لاتساع نشر المصحف الشريف وكتب الحديث النبوى ومعاجم اللغة العربية صغيرها وكبيرها ، قديمها وحديثها . فضل كبير فى إسباغ القوة والشباب على أساليب الأدباء بعامة . من خطيب أو كاتب أو شاعر أو ناثر . وكان من خطباء العهد القريب رجل تخطى حدود التقليد المذهبى . فكان المصحف حليفه فى البيت وفى المكتب يستلهمه الفصاحة والاقتدار على القول . هو الخطيب المفوه وليم مكرم عبيد . . . وسمعت من أحد أقاربى . وهو المرحوم الأستاذ إبراهيم الجزيرى أن الزعيم الخالد سعد زغلول كان يضع إلى جانب سريره معجم أقرب الموارد . وأقول : إن نشر آثار كتّاب العرب أصحاب الأقلام أمثال الجاحظ وابن المقفع وأبى الفرج الأصبهانى وابن جرير الطبرى والحريرى والهمذانى وابن عبد ربه ، وكذا نشر الدواوين العربية الأصيلة أمثال ديوان حسان بن ثابت . وجرير والفرزدق والأخطل . والحسن بن هانئ . وأبى تمام . والبحترى . والمتنبى والشريف الرضى . وابن هانىء . وابن خفاجة وابن زيدون الأندلسيين . وغيرهم من شعراء الشرق والغرب كان رنحاً عظيماً لمن أراد أن يقوّم أسلوبه الكتابى ويحذو حذو الإبانة العربية الأصيلة .

ونلمح هذا جلياً فى كتابات المنفلوطى والرافعى والزيات وطه حسين الذين تأثروا تأثراً ظاهراً بأدب الجاحظ ، كما يبدو تأثر طه حسين بأسلوب ابن هشام ، فى كتابه « على هامش السيرة » .

ولو ذهبنا نبحث فى تأثر جمهرة كتابنا وشعرائنا الأصلاء بأثر من قبلهم لاستطعنا بعد الدراسة المبصرة أن نعيّن الأصل الأول من مواردهم ومستقياتهم فى كاتب قديم أو عدة كتب ، وفى شاعر قديم أو عدة شعراء . وأنا أعنى هنا التأثر اللغوى ، وأدع التأثر الفكرى إلى مزيج الثقافات القديمة والمعاصرة .. إذ تختلف موازينهم فى ذلك بمقدار ما يأخذون وما يذرون .

وأمامنا الآن مثل حىّ لقوة تأثير التراث بالوساطة . نلمسه فى تراث المنفلوطى نفسه ، من النظرات والعبرات والفضيلة وماجدولين والشاعر . فلا تكاد تجد بيتاً أهله ذوو فضل يخلو من كتاب أو أكثر من كتب هذا الرجل ذات التأثير الفعال . ولا أظن أن أحداً منا ونحن الشيوخ لم يقرأ له أو يفد منه .

وهكذا نجد أن المنفلوطى قد أدى إلينا عصارة من التراث عن طريق قلمه . كما نؤديه نحن إلى أبنائنا وهكذا دواليك .

ومثل آخر لتأثير التراث يتمثل فى مقدمة ابن خلدون التى ظلت ردحاً طويلاً من الزمان تتلى فى دار العلوم وتدرس دراسة دقيقة ، وتحقق ألفاظها وأساليبها ومعانيها ، فكانت بذلك مورداً وريًّا للدارسين ينطلقون من بعد ذلك لتغذية الطلاب بألفاظها وأساليبها ، وكان لتلك المقدمة فضلها فى رفع مستوى اللغة التى نعاصرها .

وغير هذه الأمثلة الفعالة من كتب التراث ، كثير حقاً .

وإنى لأدعو إلى مزيد من الدفع لتيار النشر والإحياء . والأمة العربية

الآن تزخر بهيئات كبيرة كثيرة العدد ، تحتضن نشر هذا التراث وتدعمه . كما أن أسرة التحقيق العلمي يزداد عدد أعضائها تزايداً مطرداً في ربوع المعمورة العربية وغير العربية ... وفقنا الله جميعاً لحمل أمانة اللغة ، ووقانا شر العقوق بها ، والعبث بفروعها ، والتنكر لأصولها وجذورها .

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

- ٤ -

مقتطفات من كتاب التراث العربى(*)

التراث :

لا نجد للتراث مادة معينة فى معاجم اللغة كبيرها وصغيرها ، فليس فى اللغة العربية من المواد المبدوءة بالتاء والمختومة بالثاء إلا ثلاث مواد :

١ – الأولى مادة (تفث) ، ومما ورد فيها ما جاء فى القرآن الكريم : « ثم ليقضوا تفثهم » . وقضاء التفث : إذهاب الشعر والدرن ، وهو ما يفعله المحرم إذا أحلّ ، كقص الشعر وتقلم الأظفار .

٢ – الثانية مادة (تلث) . وفيها التليث بوزن فعيل ، وهو ضرب من نجيل السباخ .

٣ – الثالثة مادة (توث) وقد ورد فيها التوث ، وهو لغة ضعيفة فى التوت كما ذكر بعض اللغويين .

إذن من أين جاءت كلمة (التراث) ؟

إنها مأخوذة من مادة (ورث) التى تدور معانيها حول حصول المتأخر على نصيب مادى أو معنوى ممن سبقه ، من والد ، أو قريب ، أو موصٍ أو نحو ذلك . وفى الكتاب العزيز : « وورث سليمان داود » .

وأجمع اللغويون على أن التراث ما يخلفه الرجل لورثته ، وأن تاءه أصلها الواو ، أى الوُراث . وله نظائر فى كلمات أخرى منها :

التُّجاه ، أصلها الوُجاه ، أى الجهة .

ومنها : التخمة : الأزمة الناشئة عن ثقل الطعام (الوُخَمة) .

(*) نشر فى سلسلة كتابك لدار المعارف ، العدد ٣٥ بتاريخ ١٩٧٨م .

ومنها : (التُّهمَه) وهى توهم الإنسان أن أخاه قد أساء أو تجاوز حداً من الحدود ، وأصلها (الوُهَمة) .

وكذلك التُّكْلان أصلها (الوُكلان) ، أى الاعتماد على وكيل .

وتَتْرى ، أصلها (وَتْرَى) من المواترة .

ومن هذه النظائر أيضاً . التُّقَى ، أصلها (الوُقَى) .

وهكذا يدور قلب الواو المتصدرة لهذه الكلمات تاء ، لأنها أجلد من الواو وأقوى ولا تتغير بتغير أحوال ما قبلها كما يقولون .

تاريخ الكلمة :

لعل من أقدم النصوص التى وردت فيها هذه الكلمة ما جاء فى القرآن الكريم من سورة الفجر : « وتأكلون التراث أكلا لمًّا » . كانوا فى جاهليتهم يمنعون توريث النساء وصغار الأولاد ، فيأكلون نصيبهم ويقولون : لا يأكل الميراث إلا من يقاتل ويحمى حوزة القوم . وكان يلُمّون جميع ما تركه الميت من حلال أو حرام ويسرفون فى إنفاقه .

ومما ورد فى الشعر القديم قول سعد بن ناشب ، وهو شاعر إسلامى كان بلال بن أبى بردة قد هدم داره ، لأنه أصاب دماً فى قوم :

فإن تهدموا بالغدر دارى فإنها
تراث كريم لا يبالى العواقبا

وظلت كلمة (التراث) محدودة الاستعمال ، تنوب عنها أختها (الميراث) فى كثير من الأمر إلى أن أطل علينا هذا العصر الحديث فوجدنا هذه الكلمة تشيع بشيوع البحث عن الماضى :

ماضى التاريخ ، وماضى الحضارة . والفن والآداب ، والعلم ، والقصص ، وكل ما يمت إلى القديم .

المعنى المعاصر :

والذى يعنينا فى هذا الذى قصدنا له هو التراث الفكرى ، المتمثل فى الآثار المكتوبة الموروثة التى حفظها التاريخ كاملة أو مبتورة فوصلت إلينا بأشخاصها .

وليست هناك حدود معينة لتاريخ أى تراث كان ، فكل ما خلفه مؤلف من إنتاج فكرى بعد حياته — طالت تلك الحياة أو قصرت — يعد تراثاً فكرياً .

ولقد أصبح شعر البارودى ، وشوقى ، وحافظ ، وحديث عيسى بن هشام ، وآثار المنفلوطى والمازنى ، والعقاد ، ، تراثاً له حرمته التاريخية وله مقداره الأثرى .

الإيمان بالتراث :

كما أن الوطن هو المهد الأول لجسم الإنسان يحن إليه كلما بعد به المطاف فى بلاد الله ، ويشعر فى قرارة نفسه بحبه وتفديته ، والاستهانة ببذل المال والنفس فى سبيل الحفاظ عليه ، ويدين له أبداً بالولاء والإعزاز مهما أغرته المغريات ، وباعدت بينه وبين أرضه ضرورات العيش ، كذلك يعد التراث الفكرى هو المهد الأول لتفكيره ولنفسه . وأى انفكاك بين المرء ووطنه ، أو بين المرء وتراثه — يخلق منه امرأ تتجاذبه أطراف الضياع وفقدان النفس . وضياع النفس مدعاة إلى التفكك والتخلخل ، والشعور بالبؤس والمذلة اللتين لا تطيب معهما الحياة .

وإذا ذهبت فى المقابلة بين جيلنا الذى نشأنا فيه وبين هذا الجيل الذى يعيشه أبناؤنا — وجدنا الفرق شاسعا بين شعورنا بكياننا العزيز الوثيق ، وكيان بعض أبنائنا الذين انفصلوا عن المتعة بالتراث العربى متمثلا فى ضروبه المختلفة .

فهناك التراث الديني فى كتبه التى كانت ميسرة لنا وكانت موضع اهتمامنا ، والتراث الأدبى واللغوى الذى كان لكل منا قدر وافر من الإطلاع عليه وتمثله حفظاً أو قراءة أو رواية . وكذلك التراث التاريخى الذى كنا نملأ به المجالس مذاكرة ومساجلة . والتراث القصصى متمثلاً فى قصص عنترة ابن شداد وألف ليلة وليلة ، وإعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس للإتليدى ونحوها . وهذا بالإضافة إلى دواوين فحول الشعراء كأبى تمام والبحترى والمتنبي وأبى العلاء ، والقصائد المعلقات .

ولم يكن فى جيلنا من لا يحفظ للحريرى أكثر من مقامة ثم ينظر بعد ذلك فى كامل المبرد وأمالى القالى ، وفى العقد الفريد وأغانى أبى الفرج . وكانت الكتب المدرسية حافلة بعيون التراث نستظهر منها جياد النصوص وحسان الخطب ، وكان بعضنا يحفظ ديوان شعر بأكمله ، أو يستظهر جمهوره .

كيف نستعيد هذا الإيمان :

وإنى لأعتقد أن هذه النكسة التى يحياها أبناؤنا اليوم هى فى سبيل الانقشاع ، بفضل الجهود المكثفة التى يتضافر عليها العلماء والمحققون الغُبُر الذين يتنادون فى مختلف أصقاع العالم العربى ، ويتكاتفون على إحياء تراثنا العربى لتقديمه إلى ناشئة اليوم وشيوخ الأمس. إن لنا لماضياً رائعاً ، حافلاً بألوان جميلة حقاً من فنون الأدب وضروبه ، وهو ماضٍ جدير بأن نفخر به ونعتز ، وأن نجيل النظر فيه فنظفر بالممتع العجيب .

إنه لم يتح للكثير منا اليوم أن يتصلوا بهذا الأدب العربى القديم اتصالاً صالحاً ، يفتح أعينهم على ما فيه من خير وما فيه من عجب . فهذه الاضطرابات السياسية ، وهذه الفوضى الفكرية التى ضربت أطنابها فى أرجاء الأمة العربية ، وباعدت بيننا وبين موارد الأدب العربى القديم – جعلت أبناءنا ينظرون إلى هذا اللون الثقافى نظرتهم إلى شىء غريب عنهم .

إننى أعنى بالأدب العربى القديم ، ذلك الإنتاجَ الخصب الذى بدأ من عهود الجاهلية ثم يترامى إلى آفاق القرن الرابع أو الخامس الهجرى . فإن ذلك العهد الإسلامى يمت بسبب وثيق إلى عهد الجاهلية ، ويحذو حذوه فى كثير من الأمر ، ويستمد أكثر ما يستمد من معينه ، وفيه حافظ الأدباء إلى حد ما على سلامة اللغة وسلامة الذوق العربى الذى ينسجم مع هذه اللغة انسجاماً ويلتئم بها التئاماً .

ولقد نقلت إلينا أمهات الكتب ذلك الأدب فى صدق وأمانة ، وساقت إلينا روائع كثيرة ، ولكنا نغمض أعيننا دونها ، لأنا نجد فيها الصعوبة ، ولا نجد اليسر واللين اللذين يجذباننا إلى قراءة الأدب المعاصر .

إن هذه الصعوبة ترجع إلى أمور شتى :

منها غرابة هذه اللغة التى تحتاج إلى ترجمان يفتح مغلقها ويجلو وجهها .

ومنها ما قد يظهر من إخفاق هذه المؤلفات فى طريقة العرض ، وعدم مسايرتها للأساليب الحديثة المؤسسة على جانب كثير من مقتضيات علم النفس ومناهج الترغيب .

ومن أسباب ذلك أيضاً تلك الجناية التاريخية التى يجلبها الناسخون والطابعون ، فيشوهون معالم هذا التراث ويزيدونه عسراً فوق عسر .

ومن علل هذه الصعوبة أيضاً بعد العهد بملابسات تلك الوقائع الأدبية وظروفها وأجوائها . وبدون معرفة هذه الظروف والأجواء قد يخفق القارئ فى فهم تلك النصوص ، ويقع فى لج من الحيرة والارتياب .

ومما حمل النشء أيضاً على هذا الرفض — ضعف الدعوة إلى هذا الأدب الرفيع فى الوقت التى ظهرت فيه دعاوة مغرضة متعمدة ، تقصد إلى توهين شأنه وتحقيره ورميه بالضعف ، كما رميت لغته من جانب آخر بعجزها عن

مطاوعة ما تقتضيه الحياة المعاصرة ، وقام بهذه الدعوة بعض ضعاف النفوس الذين يودون أن لو زالت هذه اللغة ، وضاع أدبها ، وامحت ثقافتها فى لمحة الطرف أو غمضة العين : إذ قالوا : إن الأدب العربى أدب ناقص ينقصه الكثير من مقومات الآداب .

أما صعوبة اللغة فليست ترجع إلى طبيعة اللغة ، وإنما ترجع إلى أمرين رئيسين :

أما أحدهما فهذه اللغات العامية التى تثير الاضطراب فيمن يقبل على تعلم العربية ، فتأخذه إلى هوة من الشك ما يدرى : أعربى ذلك اللفظ أم دخيل ، وما يدرى أيضاً أعربى هذا الأسلوب أم أعجمى ؟ ثم هو يجد نفسه فى عالم غريب من دنيا الألفاظ لأنه لا يتكلم فى بيته أو فى معهده أو فى ناديه إلا لغة عامية شتان ما بينها وبين فصيح اللغات .

وأما الآخر فهو هذا الداء العضال ، هو المدرسة . فهذه الأداة كان يظن بها أن تكون عاملاً على إنهاض اللغة وإقالتها من عثرتها ــ أصبحت هى حجر العثرة فى طريق نهضة اللغة ، لا بأساتذتها ومعلميها الذين لا يزالون يرتضخون لكنة عامية فحسب ، بل بقصور مناهجها وارتباك أساليبها فى تعليم هذه اللغة ، لأنا لم نصنع تلك المناهج بأيدينا ، بل ساقها إلينا الدخيل فى لفافة من السياسة الاستعمارية ، ثم كف يده ، وظللنا نحن لا نكف عن السير فى ذلك التيار الذى دُفعنا إليه دفعاً .

وهذا هو السر فى إخفاق كثير من الطلاب الذين اكتفوا بجهد المدرسة فحرموا أنفسهم المتاع الطيب بهذا الأدب ، على حين نجد من درسوا بأنفسهم وكان لهم ميل خاص ومجهود شخصى ــ قد فازوا بهذه المتعة ونجحوا نجاحاً ظاهراً : لأنهم لم يتقيدوا بالقيد المدرسى ، فاتسعت أمامهم آفاق المعرفة واحداً بعد الآخر . والعلم ولود كما يقولون :

وحين تتخلص اللغة من هذه القيود ، وتختص اللغة العربية بالعناية الواجبة ، حينئذ نمتلك لغتنا امتلاكاً خالصاً ، ونشعر باستقلالنا الروحى الثقافى ، الذى هو أعلى مقاماً وأعز شأناً من سائر مظاهر الاستقلال .

نماذج من كتب الرحلات :

وقد شارك العرب فى تأليف كتب الرحلات انطلاقاً وراء كتب الرحلات القديمة كرحلة هيرودوتس اليونانى .

ومن بين أقدم كتب الرحلات التى قام أصحابها بتصوير الشعوب ونقد أحوالها وشئونها الاجتماعية — نجد سابقة عريقة لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٨ قبل وفاة ابن جبير سنة ٦١٤ وعبد اللطيف البغدادى ٦٢٩ وابن بطوطة ٧٧٩ يقول فى مقدمة رحلته :

«كنت إبان عصر الشباب مونق . وغصن الصبا مورق

إذ لمتى مسودة ولماء وجهى رونق

ممن سامحه الدهر بغفلاته . وتجافى له عن غفوة من غفواته . فعاش آمن السرب ، سائغ الشرب . لا يفرغ من أدب يرود رياضه ، ويرد حياضه ، إلا إلى طرب يغمر ميدانه . ويسحب ذيوله وأردانه . ثم تلون لى فقلب لى ظهر مِجنّه ، وسقانى درديّ دَنّه . فتدارك ما أغفله ، واسترد ما بذله ، فاضطررت إلى مفارقة الوطن ، والخروج عن العطن ...

فجعلت استقرى البلاد لأ نيمم أوفقها للمقام وأعونها على مقارعة الأيام . فكانت مصر مما وقع عليه اختيارى ، وصدّقت حسن ظنى قبل اختبارى ...» .

ويقص لنا أبو الصلت قصة طبيب يعالج مرضاه بالعلاج النفسى ، وهو أحدث طرق العلاج وأعلاها فى عصرنا الحاضر فيقول :

«ومن طريف ما سمعته أنه كان بمصر منذ عهد قريب رجل ملازم

للمارستان ، يستدعى للمرضى كما يُستدعى الأطباء ، فيدخل على المريض فيحكى له حكايات مضحكة ، وخرافات مسلية ، ويخرج له وجوهاً مضحكة وكان مع ذلك لطيفاً فى إضحاكه ، وبه خبيراً ، وعليه قديراً .

فإذا انشرح صدر المريض وعادت إليه قوته تركه وانصرف . فإن احتاج إلى معاودة المريض عاده إلى أن يبرأ ، أو يكون منه ما شاء الله .

فليت أطباء عصرنا هذا بأسرهم قدروا على مثل هذا العلاج الذى لامضرة فيه ولا غائلة له ، ويقوى القوى الطبيعية ، ويقوى البدن على دفع الأخلاط الردية المؤذية والفضول ، مع الاستظهار بحفظ الأصول » .

نجده كذلك يفطن إلى ميل أهل مصر إلى استفتاء المنجمين . والركون إلى من يدعون معرفة الغيب ، وهو الأمر الذى لا تزال بقايا منه سائدة إلى وقتنا هذا فيقول :

« والمصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها ، وتعويلاً عليها ، وشغفاً بها وركوناً إليها ، حتى إنه بلغ من زيادة أمرهم فى ذلك ألا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التى لا تحصر فنونها ، ولا تحصل أجزاؤها ، ولا تضبط جهاتها ، ولا تقيد غاياتها ، ولا تعد ضروبها إلا فى طوالع يختارونها ونصب يعتمدونها .

ومن الحكايات العجيبة فى فرط استعمالهم لأحكام النجوم وعنايتهم بها ما شهدت بالصعيد الأعلى . وذلك أن بعض الولاة حبس رجلاً من بعض أهل تلك الناحية كان ينظر فى علوم النجوم ، فشفع إليه فيه من يكرم عليه فشفعه له ، وأمر بإطلاقه . وكان من الحبس فى عذاب واصب ، وجهد ناصب ، فلما أنجوه وقالوا له : انطلقْ لشأنك ! أخرج من كمه أسطرلاباً فنظر فيه . ثم أخذ طالع الوقت فنظر فيه ، فوجده مذموماً ، فسألهم أن يتركوه مكانه إلى أن يتفق وقت يصلح للخروج من السجن ، فعادوا إلى الوالى فأخبروه بخبره

فضحك منه وتعجب من جهله ، وفساد عقله ، وأجابه إلى سؤاله وتركه على حاله ، وأطال مدة اعتقاله ... » .

وفى كتاب « الإفادة والاعتبار ، فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر المعروف خطأ برحلة عبد اللطيف البغدادى ، وهو عبارة عن فصلين من ثلاثة عشر فصلاً من تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » ، وقد انتزع هذين الفصلين بعد اختصارهما وتهذيبهما ليكونا برسم الخليفة العباسى الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله يوسف (٥٢٢ ــ ٦٢٢) ....

فى هذا الكتاب المختصر حديث مسهب فى خصائص مصر وآثارها ومقابر قدماء المصريين وتوابيتهم وتماثيلهم المتقنة ، وكيف برع المصريون فى نحت جميع أجزائها ، يقول فى ذلك : « وأما حسن أوجهها وتناسبها ، فعلى أكمل ما فى القوى البشرية أن تفعله ، وأتم ما المواد الحجرية أن تقبله ، ولم يبق إلا صورة اللحم والدم » .

وأعجب ما فى هذا الكتاب تسجيله لما شاهده بعينه فى المجاعة التى حدثت بمصر سنة ٥٩٧ يقول فى ذلك :

« ودخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد ، وأشعر أهلُها البلاء ، وهرجوا من خوف الجوع ، ووقع المرض والموتان ، واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف ، والكلاب ، والبعر والأوراث ، ثم تعدّوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بنى آدم فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون ، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل .

ورأيت صغيراً مشوياً فى قفة ، وقد أحضر إلى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه ، فأمر بإحراقهما » .

وهذا الكتاب جدير بإعادة نشره والتعليق عليه والإفادة منه وإن كان المستشرق الفرنسى دى ساسى قد عنى بنشره متنا ، وترجمه سنة ١٨١١ : ومن قبله قام إدوارد بوكوك الإنجليزى (١٦٠٤ – ١٦٩١) بترجمته إلى اللاتينية ، ثم نشره توماس هايد متناً وترجمة فى أكسفورد سنة ١٧٠٢م .

— ٥ —

حضارتنا واحياء التراث(*)

إعداد وتقديم يوسف نوفل المحرر بمجلة الفيصل السعودية

ذخائر التراث وكنوزه ونفائسه ... كلمات وامضة تحتل مكانتها فى رصيدنا الثقافى والحضارى فى أصداء وجدانية بعيدة الجذور فى أعماق كل مسلم وكل عربى ، بل كل من اهتم بحضارتنا من مستشرقين وباحثين .

وسر هذا الوميض المتجدد والصدى الوجدانى البعيد يكمن فى أن هذا التراث محصلة رؤية حضارية لأجيال مضت تمثل لبنة من لبنات الحضارة المعاصرة بشكل مباشر أو غير مباشر .

وقد سهر على هذه الذخائر والكنوز والنفائس علماء أجلاء منذ مطلع عصر النهضة الثقافية فى تاريخها المعاصر فى بقاع شتى من أنحاء العالم الإسلامى ، بل فى عواصم العالم كله .. وتفاوتت قيمة تلك الجهود بقدر ما تنوعت وتباعدت

فى تلك المسيرة المباركة تبرز أسماء عديدة بلا جدال من بقاع شتى ، نلتقى — من بينها — بعالم فاضل أغنى وجدان أمتنا وأثراه بمتابعاته الجادة ، وحرصه الدؤوب ، وسهره المتواصل ، وحذقه لفن تحقيق المخطوطات ونشرها . ووقوفه على أسراره ...

دلكم هو العلامة الأستاذ « عبد السلام هارون » الذى حصل على جائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب لعام ١٤٠١ هـ .

فن تحقيق المخطوطات :

• • أسأل أستاذنا العلامة عبد السلام هارون عن المسيرة التى قطعها فن تحقيق المخطوطات ونشرها ؟

(*) مقابلة وحوار مع الأستاذ يوسف نوفل المحرر بمجلة الفيصل السعودية نشرت فى العدد ٥٥ من المجلة بتاريخ ذى الحجة سنة ١٤٠١هـ ، أكتوبر سنة ١٩٨١م .

إن ما تم تحقيقه ونشره من المخطوطات لا يعدو أن يكون فرعاً من شجرة باسقة ممتدة الفروع وارفة الظلال . فمنذ ظهرت الطباعة العربية فى إيطاليا فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى وقيام غدة مطابع فى الشرق العربى تتصدرها مطابع بولاق ودار الكتب المصرية فى مصر ، والمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين فى بيروت ، منذ ذلك الحين إلى الآن لم يستوعب التحقيق والنشر شيئاً يذكر بالنسبة إلى ما تزخر به مكتبة التراث العربى .

والملحوظ أن الكتب التى ظفرت بالنشر والإحياء معظمها من الكتب الصغيرة . أما الكتب ذوات المجلدات الكبيرة فإن عبء نشرها يحتاج إلى جهد علمى ومادىّ لا تقوى عليه دور النشر التى تسعى دائماً إلى الحصول على عائد مادى سريع ، والدول العربية مشغولة بقضاياها السياسية والاقتصادية عن الاهتمام بهذه الناحية العلمية . كما أن قلة عدد المحققين الأصلاء ، من العوامل التى تقف بعجلة الإنتاج عند هذا الموقف الرتيب .

معوقات التحقيق :

** وأسأل الأستاذ هارون عن أهم المشكلات التى تعترض مسيرة تحقيق المخطوطات ونشرها ؟ .

* أهم المشاكل التى تواجهها دنيا التراث العربى هو التنظيم الجماعى ؛ ونحن نرى أمام أعيننا معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، ودور الكتب العامة فى مصر وغيرها ، لا ترابط بينها ، وليس هناك مصب واحد يستوعب هذه الروافد ، فالباحث عن مخطوط معين لا يستطيع أن يهتدى إلى أماكن وجود نسخه إلا بصعوبة بالغة ، وبطريقة ظنية صرفة . ويجب أن يعالج هذا الأمر بتنظيم جماعى على نحو ما هو متبع فى نظام « اليونسكو » .

والمشكلة الثانية : هى صعوبة الحصول على مصوَّرات المخطوطات . فكثير من دور الكتب فى الشرق وفى الغرب يتبع الطريقة الاحتكارية التى تمنع خروج صور المخطوطات إلا فى حدود ضيقة وبشروط قاسية ،

والمفروض أن يُيَسر للباحثين – ولا سيما الذين ينتمون إلى هيئات علمية معترف بها – سبيل الوصول إلى صور المخطوطات بدون ما قيد ولا شرط .

والمشكلة الثالثة : ندرة المشتغلين بإحياء التراث ممن هم فى الطبقة العلمية والخلقية الجديرة بأن يعتمد عليها فى نشر التراث ، ولعل مرجع ذلك عدم تناسب المكافأة التى يحصل عليها المحقق مع الجهد الشاق الذى يبذله ، وهو الأمر الذى يثبط عزائم مَنْ يتصدون للتحقيق .

والمشكلة الرابعة : المطبعة : فإن دور النشر المعاصرة تجعل همها الأول والأخير هو الحصول السريع والمضاعف على العائد المادى الذى ينجم عن إخراج الكتاب ، ولا نستطيع قسر هذه الدور وإجبارها على نشر كتب التراث إلا بمعونة كبيرة ، كثيراً ما يتطرق إليها التلاعب .

أسس العمل :

. انطلاقاً من التعرف على المشاكل . . ما الأسس التى ينبغى أن تتحقق للعالم فى هذا المجال ؟

أول تلك الأسس هى إيمان مَنْ يتصدى لتحقيق التراث ، إيماناً كاملاً به ، مع احترامه له وتقديره : فإنى أعتقد أن التراث الفكرى بالنسبة إلى أى إنسان كان ، يُعَدّ بمثابة المهد الأول لتفكيره ولصوغ نفسه ،

وكما أن الوطن هو المهد الأول لجسم الإنسان ، يحنّ إليه كلما بعد به المطاف فى بلاد الله ، ويشعر فى قرارة نفسه دائماً بحبه وتفديته ، كذلك التراث الفكرى ، هو المهد الأول الذى يصنع تفكيره ويشكل نفسه . وأى انفكاك بين المرء ووطنه ، أو بين المرء وتراثه يخلق منه امرأ تتجاذبه أطراف الضياع وفقدان النفس .

ولقد كان التراث العربى بمختلف فروعه فى جيلنا الذى عشنا فيه موضع اهتمام . يتمثل فى التراث الذى كانت كتبه ميسرة لنا ، وكذلك التراث

الأدبي واللغوي الذي كان لكل منا قدر كبير من الاطلاع عليه ، ونمثله حفظاً أو قراءة أو رواية . وكذلك التراث التاريخي الذي كنا نملأ به المجالس مذاكرة ومساجلة ، والتراث القصصي متمثلاً في قصص عنترة بن شداد ، وسيف ابن ذي يزن ، وألف ليلة وليلة ، وإعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس للإتليدي ، ونحوها ، هذا مضافاً إليه دواوين فحول الشعراء كأبي تمام ، والبحتري ، والمتنبي ، وأبي العلاء ، ولم يكن في جيلنا من لا يحفظ للحريري أكثر من مقامة ، وكانت الكتب المدرسية حافلة بعيون التراث الأصيل نستظهر منه جياد القصص وحسان الخطب .

والأمر الثاني الذي يجب أن يتحقق في ناشر التراث . هو أن يكون على صلة وثيقة به في جميع فروعه ، فنحن لا نستطيع أن نضع في يد عالم كيميائي أو طبيب عبقري مخطوطاً أدبياً ليقوم بتحقيقه ، ولكننا نستطيع أن نضع في يد أديب مرموق هذا المخطوط مهما يكن نوعه ، ليعالج إخراجه على وجه مرضي ، ونستطيع أيضاً أن نقدم إليه مخطوطاً دينياً أو فلسفياً أو لغوياً ، أو تاريخياً ، أو جغرافياً ليقوم بنشره . ذلك لأن التراث العربي الإسلامي متواشج الأطراف متداخل الضروب والأنواع . فالصلة الوثيقة الواسعة بالتراث شرط ضروري لمن يتصدى للجهاد في هذا الميدان .

والأمر الثالث أمر خلُقي يتمثل في أمرين : الأمانة ، والصبر . فكما تشترط الأمانة فيمن تكلفه استثمار مالك والتصرف فيه ، تكون الأمانة شرطاً فيمن يعهد إليه أمر مخطوط ما ؛ كل كلمة منه وكل حرف بمثابة أجزاء الآثار ودقائقها التي يحافظ العلماء والمؤرخون على كل قطعة منها مهما يكن قدرها . وثمرة هذه الأمانة تأدية فكر المؤلف وأسلوبه ، وتأدية فكر عصره الذي عاش فيه ، والجو الذي لابس المادة العلمية أو الأدبية لهذا المخطوط

أما الصبر فهو من تمام الأمانة أيضاً ، فالتعجل في تحقيق المخطوط ينتهي

بلا ريب إلى الإخلال بالأمانة العلمية التى تقتضى التريث فى الحكم على الصورة الصحيحة التى ينبغى أن تمثل النص فى أوج سلامته ومطابقته للحقيقة .. هذا هو مجمل الأسس التى ينبغى أن تتحقق للعالم .

الموازنة بين صور التحقيق :

.. تعددت صور التحقيق لكثير من المخطوطات .. هل نستطيع أن نقف — من خلال موازناتنا بين صور التحقيق المختلفة — على أهم عيوب هذا الفن ؟

. فن التحقيق من الفنون الجمالية الأدبية . ونستطيع — لأول وهلة — أن نحكم على الكتاب الذى يقع بين أيدينا بأنه قد أخذ من الجمال نصيباً، قل ذلك أو كثر . كما نستطيع أن نحكم عليه بأنه فقد الجمال كله ، أو دخل فى منطقة السوء . وذلك على مقدار العيوب الفنية التى تتسرب إليه .

وقد أصبحت قواعد التحقيق معروفة ومتفقاً عليها . ولا سيما بعد كتابى الذى ظهرت طبعته الأولى سنة ١٣٧٤ هـ ، أى منذ نحو ربع قرن ، وهو كتاب (تحقيق النصوص ونشرها) . ومن تلك القواعد : كيف نرجح رواية على أخرى ؟ وكيف نصحح الأخطاء والتحريفات ؟ وكيف نضبط النصوص ؟ وكيف نعلق عليها ؟ وما مدى أهمية علامات الترقيم ؟ وما المكملات الحديثة التى ينبغى أن يظهر بها الكتاب ؟ وغير ذلك كثير .

ولعل أشنع ما يقع فى هذا الفن أن يخرج الكتاب مجرداً من الفهارس الفنية . أو توضع له فهارس غير ذات جدوى . أو يطيل المحقق فى تعليقاته وحواشيه . أو يتزيد فى تقديمه للمخطوطة بصورة تطغى على صورة الكتاب نفسه .

مقترحات فى سبيل تحقيق علمى :

من واقع ممارساتكم العلمية .. ما مقترحاتكم فى هذا الفن ؟

لا تزيد مقترحاتى فى هذا الفن على الأضواء الكاشفة التى سلطتها

عليه في كتابي (تحقيق النصوص) الذى وُلد ثمرة لتجاربى الشخصية التى ضممتُ إليها تجارب شيوخى وأقرانى وزملائى ، وذلك منذ أكثر من نصف قرن .

فالمهم — بصفة عامة — أن تخرج لنا النصوص التراثية فى صورة أقرب ما تكون إلى الصحة ، وفى ثوب مناسب من مجاراة العصر ، وعلى وجه تتحقق به أقصى فائدة يحصل عليها القارئ والباحث عند دراسته لهذا المخطوط .

الغائب فى مكتبة التراث :

** هناك وجوه غائبة فى مكتبة التراث .. وذخائره ... من هنا أسأل .. ما الوجه الغائب من مكتبة التراث ؟

* كنت أحب أن تقول : ما هى الوجوه الغائبة من مكتبة التراث ؟ إذ نستطيع أن نقول : إن هناك وجوهاً كثيرة غائبة من مكتبة التراث . ولقد حاول قدماء المستشرقين من قبل أن ينشروا كل كتاب أو جزء من كتاب يقع بين أيديهم ، ونظرة إلى كتاب (المستشرقون) للأستاذ نجيب العقيقى تظهرنا على مختلف الاهتمامات التى كانت تسترعى نظر هؤلاء العلماء ، فلم يكن عندهم إيثار لضرب من ضروب التراث على آخر ، بل كان همهم ، وهم المكفيون أمر معاشهم وحياتهم أن ينشروا كل شىء ، وذلك لتستكمل صورة التراث ، ولتبدو ظاهرة من مختلف جوانبها ونواحيها .

ولكن الذى نلحظ فى عصرنا هذا هو العناية بناحيتين اثنتين فقط ، هما الناحية الدينية ، والناحية الأدبية واللغوية ، أما النواحى العلمية أو الاجتماعية أو الفلسفية ، أو الحضارية الصرفة ، أو الفنون القديمة ، من فنون الحرب ، أو الصيد ، أو علم الحيل ، والآلات الحربية ، وآلات الرصد ، والبيزرة ، والبيطرة ، وتدبير المدن والمنازل ، والسياسة والصيدلة ، والطبخ ، وعقود الأبنية ، والفلاحة ، والمرايا المحرقة ، والموسيقى القديمة ، والنبات ،

والهندسة القديمة ، وغيرها ، فالمنشور منها معدوم ، أو لا يكاد يذكر ، ولا ريب أن فى نشر هذه الكنوز فائدة حضارية وفكرية .

ولقد كانت الفكرة الخيالية التى عالجها عباس بن فرناس فى الأندلس ، وحيّاً وإثارة لابتداع فن الطيران ، الذى حقق اليوم نجاحاً حضارياً عظيم القدر . ومن يدرى ؟

إعداد المحقق :

** .. وكيف نعد المحقق .؟

* لعل إجابتى عن السؤال الثالث تمتد فوق مساحة كبيرة من هذا السؤال . وهناك محاولة فى القاهرة فى دار الكتب المصرية ،هى فى الواقع إحياء لما كان يسمى فى الماضى « القسم الأدبى » وإن لم يبلغ فى مستواه الآن ما كان عليه هذا القسم الذى نهض بعبء كبير ناجح موفق كان له أثره العظيم ، والأمل معقود أن يضاعف الجهد فى (مركز إحياء التراث) بدار الكتب ، وأن يلقى عناية خاصة من المسؤولين .

وإنى لأرجو وأدعو برجاء صادق ، أن يكون فى كل بلد عربى مركز لإحياء التراث ينتظم فى سلكه من درسوا منهج تحقيق النصوص وكانوا على مستوى علمى وخلقى يؤهلهم لهذا العمل ، على أن يغدق عليهم من المكافآت ما يشجعهم على المضى قدماً فى هذا الميدان .

ومما يثلج صدرى حقاً أنى أرقب عن كثب مدى نجاح فكرة الدراسة لمنهج تحقيق النصوص ، وأثره الفعال فى ميل كثير من طلاب الدراسات العليا إلى صنع رسائلهم فى الماجستير والدكتوراه على ضوء (تحقيق النصوص) فى جميع أقسام اللغة العربية بالجامعات ، وكذلك أقسام الجغرافيا والتاريخ والفلسفة . وهو أمر دعوت إليه قديماً منذ ثلاثين سنة فى النشرة الأولى من

(نوادر المخطوطات) فى المجلد الأول (ص ٣) . وكذلك كتابى السابق ذكره .. وكان مما قلت :

« وعسى أن يأتى اليوم الذى يكون فيه هذا الأمر ضريبة علمية لا بد من أدائها » .

التحقيق . . والطباعة :

* كيف يفيد هذا الفن من المنجزات الفنية فى عالم الطباعة ؟

ـ الذى يقارن بين المنجزات الفنية الآن فى عالم الطباعة ، وما كانت عليه بالأمس يجد البون شاسعاً حقاً من حيث المظهر العام لإخراج الكتاب ، ونظام إخراجه . ونظرة إلى ما يسمى بالكتب الصفراء تعطينا الحكم القاطع بالوثبة السريعة ، والنهضة العالية لعالم الطباعة الحديث .

وقد جدّت أمور كثيرة وهامة فى الناحية الشكلية للكتاب ، فلم يعدْ مستساغاً ولا مقبولا أن يخرج كتاب لمؤلف محترم ، أو من دار نشر محترمة خالياً من الفهارس الفنية أو التحليلية ، أو أن يظهر فى ثوب قمىء من الورق ، أو مبعثر الأوراق خالياً من التغليف والتجليد المناسب . ونحن نرى بأعيننا كيف يخرج الأوروبيون ونحوهم كتباً توحى باحترام المؤلف كما توحى باحترام دار النشر التى أخرجت الكتاب .

ولعلك تذكر أنى حينما أخرجت كتابى (الميسر والأزلام) ـ وهو كتيب صغير ـ لا تتجاوز صفحاته ٩٦ صفحة لم أستطع أن أخرجه مجرداً من الفهارس ، فوضعت له خمسة فهارس فى عشر صفحات ، جرياً على ما ينبغى أن يكون عليه الكتاب المعاصر ، من تمكين القارئ والباحث أن ينتفع بالكتاب غاية النفع .

وقد ظهر فى عالم الطباعة أيضاً فن الطباعة بالتصوير ، وبذلك يتاح

للمؤلفين التمكن من تكرار طبعات الكتب الناجحة ، ولا ضير فى ذلك إذا التزم المؤلف والناشر برعاية الكتاب وتنقيحه طباعياً كلما طرأ تفكير فى إعادة نشره ، وبذلك تتسع رقعة انتشار الكتاب النافع .

نشاط العالم فى التأليف والتحقيق :

** هل نستطيع أن نسجل نبذة تاريخية موجزة عن نشاطكم فى عالم التأليف والتحقيق ؟

* أمامك ثبت (قائمة) بالإنتاج العلمى من سنة ١٣٥٥ - ١٤٠٠ ه ، (١٩٣٨ - ١٩٨٠ م) يتمثل فى ١١٤ عنواناً من التأليف والتحقيق ، وبعض تلك العناوين يشمل ثمانية مجلدات ، أو ستة مجلدات ، أو أربعة مجلدات ؛ وبلغ عدد صفحاتها ٤٢٧٧١ اثنين وأربعين ألفاً وسبعمائة وإحدى وسبعين صفحة أرجو أن تسمح لى أن أقول بكل اعتراز وفخر : إن هذا رقم قياسى فريد لم يتح لمؤلف معاصر عربى أو غربى .

الكتاب الأول :

** هل لنا أن نرجع إلى تاريخ بعيد ... فنعرف عنوان أول كتاب ظهر عليه اسم « عبد السلام هارون » ؟

* أول كتاب أخرجته المطبعة مقروناً باسم عبد السلام هارون هو كتاب (متن الغاية والتقريب للقاضى أبى شجاع أحمد بن الحسين بن أحمد الأصفهانى) وذلك فى سنة ١٣٤٥ه / ١٩٢٥م ، وكتب عليه ما نصه : « ضبط وتصحيح ومراجعة الشيخ عبد السلام محمد هارون » وذلك عندما كنت طالباً صغيراً بالأزهر بالسنة الثالثة الأولية ، فى سن السادسة عشرة ، وذلك قبل أن أتوجه بدراستى إلى (دار العلوم) . ومن عجب أن هذا الكتاب كان فى فقه الشافعية ، وكنت فى ذلك الحين أدرس الفقه على مذهب الحنفية .

ولك أن تتصور مدى فرحة طالب صغير بظهور اسمه على كتاب مقرر رسمياً على الطلاب فى ذلك الوقت المبكر .

كتاب يعتز به :

* * وإذا سألنا عن الكتاب الذى يحتل مكانته فى مسيرتك العلمية ، وتعتز به ؟

* كتبى بمثابة أبنائى لا أستطيع أن أوثر أحدهم أو أحدها على أخيه . فالجهد الصادق الذى بذلته فى كل كتاب لا يقل عن أخيه ، وقد ذكرت لك من قبل أنى بذلت جهداً غير عادى فى تأليفى لكتاب (الميسر والأزلام) وعنيت به وهو أصغر كتبى بالقدر الذى بذلته لكتاب (الحيوان) وهو أكبر كتبى . ولعل أشهر الكتب التى ذاعت بين الناس وعرفت بها بين الأدباء هو كتاب الحيوان للجاحظ ، وكتاب البيان والتبيين ، ومجالس ثعلب ، ومقاييس اللغة لابن فارس ، والألف المختارة من صحيح البخارى ، وتهذيب سيرة ابن هشام ، وشرح وتحقيق ديوان الحماسة للمرزوقى ، وكلها أعيد طبعه أكثر من مرة ولا سيما (تهذيب سيرة ابن هشام) الذى طبع أكثر من عشر مرات .

وأحب ــ بهذه المناسبة ــ أن أنبه على خطأ تاريخى ، فى نسبة تحقيق شرح الحماسة للمرزوقى . والناس يخطئون فيجعلون هذا التحقيق مشتركاً بينى وبين الأستاذ أحمد أمين . وإنما المشترك بينى وبين الأستاذ أحمد أمين هو عملية النشر والإعداد فقط ، كما هو ظاهر بارز ومكتوب على وجه الكتاب . وأما التحقيق فهو خاص بى باعتراف الأستاذ أحمد أمين فيما كتبه قلمه فى الصفحة الخامسة من المقدمة . وقد كان فى ذلك أميناً حقاً .

وأنا مع ما أسلفت أستطيع أن أعلن اعتزازى الخاص بكتابى (تحقيق النصوص ونشرها) لأنه حقق لى سبقاً تاريخياً ، وهو ابتداع علمى متكامل

لم يكن موجوداً من قبل . فكان هذا الكتاب أول كتاب كامل جامع فى هذا الفن يوضح مناهجه ويعالج مشكلاته . وهو يعد إلى الآن الدستور الوحيد فى هذا الفن .

وقد علمتُ بعد إخراجى لهذا الكتاب أن بعض المستشرقين تناول بالكتابة بعض أمور التحقيق ، ولكنى لم أعلم أن مستشرقاً أو غير مستشرق صنع كتاباً متكاملاً من قبل . وهذا ما حملنى أن أكتب فى مقدمة الطبعة الثانية من هذا الكتاب رداً على بعض الأدباء :

« هذه هى الطبعة الثانية من (تحقيق النصوص ونشرها) أقدّمها مغتبطاً بها وبما كان لسابقتها من صدى متواضع فى أرضنا العربية ، بله بلاد المستشرقين . الذين كتبوا إلىّ مهنئين . وإن كان بعض إخواننا الدمشقيين ممن كنا نتوسّم فيه النجابة ، زعم بضعف نفسه . وبما يشعر به أمثاله من ذلة علمية ، أنى لم أطلع على ما كتب المستشرقون فوضع بذلك على هامتى إكليلاً أعتز به ، إذ أمكننى — بعون الله وحده — أن أضع علماً متكاملاً لم أسبق إليه ، دون أن أتطفل على مائدة كثيراً ما وُضع فيها للعرب صحاف مسمومة ؛ وموائد العرب حافلة بالجهود الوثيقة ، والأمانة العلمية المرموقة » .

التبين . . والتبيين :

* * سمعتكم تقولون — فى حفل التكريم المنعقد فى فندق الكونتننتال — « البيان والتبين » ، كما رأيتكم الآن تكررون فى الإجابة السابقة عبارة « التبين » . . وقد كان المتداول لدى الكثيرين « التبيين » ... ما تفسيركم لذلك

* هذه ملاحظة وجيهة بلا ريب ... وأنا معك فى أن المعروف المتداول فى اسم هذا الكتاب هو «البيان والتبيين » — بياءين — ولكن طبيعة الأمور ترى أن هذه التسمية لا تتمشّى مع المنطق ، فإن البيان هو التبيين بعينه ، ونحن نربأ بالجاحظ أن يقع فى مثل هذا العيب فى تسمية أشهر كتبه وأسيرها .

والدارس لهذا الكتاب يرى أنه ذو شقين متداخلين : الشق الأول هو ما اختاره الجاحظ من النصوص والأخبار والأحاديث والخطب والوصايا ، وكلام الأعراب والزهّاد ونحو ذلك ، وهو ما يعنيه الجاحظ بكلمة « البيان » . والشق الثانى هو النقد الأدبى فى صورته المبكرة ، فللجاحظ فى هذا الكتاب نظرات فاحصة فى نقد نصوصه ، وفى الكلام بصفة عامة ، تسمى بعد ذلك بفن « النقد » فهذه النظرات وهذه القواعد التى ساقها الجاحظ هو ما عناه بكلمة « التبيُّن » .

هذا من ناحية ، وهناك ناحية أخرى تاريخية وثائقية فإن النسخ العتيقة من هذا الكتاب – وقد أثبتُّ صورتها فى تقديمى للكتاب – تقطع بأن عنوانه هو « البيان والتبيُّن » وهذا ما يجده القارئ بوضوح فى مصورة مخطوطة كوبريلى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٣٧٠ أدب) ، وتاريخ كتابتها هو سنة ٦٨٤هـ . وكذلك نقرأ هذا العنوان بوضوح فى مصورة مخطوطة مكتبة فيض الله ، وهى فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية تحت رقم (٨٨٧) وهناك بحمد الله صورة أخرى منها . وهذه النسخة مكتوبة بخط أبى عمرو محمد بن يوسف بن محمد بن حجاج اللخمى . وقد قرأها وراجعها على الإمام أبى ذر ابن محمد بن مسعود الخشنى فى سنة ٥٨٧هـ . وكتب هذا الناسخ أنه وجد فى آخر السفر الذى نسخ منه الثلث الثالث من هذا الكتاب ما نصه :

« كتب هذا السفر . وهو مشتمل على جميع كتاب البيان والتبيُّن نسخة أبى جعفر البغدادى . وهى النسخة الكاملة ، فتم بعون الله وتأييده فى غرة ربيع الآخر من سنة سبع وأربعين وثلثمائة » . أى بعد وفاة الجاحظ بمدة لا تزيد على ٩٢ سنة .

وسأعيد هذه التسمية الصحيحة إلى نصابها فى الطبعة الخامسة إن شاء الله .

المكونات الأدبية :

• • هناك مكونات بعيدة تؤتى ثمارها فى المحقق .. ما المكونات البعيدة فى حياتكم الأدبية ؟

• عن المؤثرات فى بدء نشاطى الثقافى والتأليفى أستطيع أن أسجل للتاريخ أن الفضل الأول فيه يرجع إلى عامل الوراثة وإلى شقيقى الأكبر الأستاذ محمد أبو الفضل محمد هارون مدَّ الله فى عمره .

فقد ولدت فى بيت كل أهله مؤلفون : جدى المغفور له الشيخ هارون عبد الرازق شيخ رواق الصعايدة بالأزهر ، خرجت إلى الدنيا ووجدت اسمه مقروناً بكتاب كان مشهوراً جداً فى ذلك الوقت ، ولا زال إلى الآن معروفاً متداولاً ، وهو كتاب (عنوان الظرف فى علم الصرف)، ومقروناً بكتاب آخر هو كتاب (المبادى النافعة فى تصحيح المطالعة) وهو كتاب نحوى موجز أتمنى أن يعاد طبعه لطلاب المدارس ، وبكتاب آخر يدعى (عنوان النجابة فى قواعد الكتابة) ، وآخر يدعى (حسن الصياغة فى علوم البلاغة) ، ومما هو مسجل معروف أنه قام بالإشراف على التحرير الكامل لكتاب (الخطط التوفيقية) للعالم المؤرخ على باشا مبارك .

ووالدى المغفور له الشيخ محمد هارون الذى كان قاضياً لقضاة السوذان. أقرأ من مؤلفاته (تلخيص الدروس الأولية فى السيرة المحمدية) فى جزأين كانا مقررين علينا فى السنتين الأولى والثانية الأوليتين فى جميع المعاهد العلمية الدينية ، وكنت أحفظهما عن ظهر قلب ، وله أيضاً كتاب (دروس فى آداب اللغة العربية) .

ومما استرعى نظرى بعد ما شدوت أنى وجدت له تحقيقاً سابقاً لأوان التحقيق ، وهو تحقيق كتاب (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) لابن أبى الديبع الشيبانى .

أما أخى الأكبر محمد أبو الفضل فقد قام بصنع حاشية لكتاب جدّى (عنوان الظرف) . .

هذا هو الفضل الروحى الذى أوحى إلىّ أن أقتدى بهؤلاء القوم . أما الفضل العملى فى انغماسى فى هذا التيار ، فهو فضل أخى (محمد أبو الفضل) الذى كانت له مكتبة فى المنزل جمع فيها مختارات جيدة من الكتب الأصيلة التى كانت تظهر فى ذلك الوقت ، وكان يشجعنى على قراءتها ويحملنى على حضور مجلسه للمذاكرة مع إخوانه ، وأذكر أنه كان قد رصد لى مكافأة (ساعة جيب) أحصل عليها إذا أتممت حفظ المعلقات. وفى تلك السن المبكرة حفظت المعلقات السبع مع شىء من شروحها فى نحو ثلاثة أشهر فقط حفظاً جيداً . وهذا فتح أمامى باب الولوع بالأدب وباللغة، وباب التفكير فى التأليف .

أما المؤثرات فى استمرارى فى عالم التأليف والتحقيق فهو النجاح الذى لقيته فى إخراج كتابى (الحيوان للجاحظ) و (مجالس ثعلب) حصلت بهما على الجائزة الأولى للتحقيق العلمى سنة ١٩٥٠م ، من مجمع اللغة العربية ، فكان هذا أمراً مشجعاً وحافزاً على أن أستمر فيما عزمت عليه من قبل ، وهو تحقيق ونشر «مكتبة الجاحظ» التى بلغ عدد مجلداتها ١٨ مجلداً، وهى الحيوان فى ثمانية ، والبيان فى أربعة ، والرسائل فى أربعة ، والعميان والبرصان فى مجلدين .

ومن هذه العوامل أيضاً قلة عدد الذين كانوا يشتغلون بالتحقيق اشتغالاً جاداً ، إذ كانوا فى جيلنا لا يتجاوزون أصابع اليدين ، وفى مقدمتهم المغفور له الشيخ أحمد محمد شاكر ، والأستاذ محمود محمد شاكر ، والأساتذة مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى، وعبد الحفيظ شلبى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، والسيد أحمد صقر ، فكنا جميعاً كالجنود الذين تركوا وحدهم فى

الميدان يدافعون عن الحوْزة ، وكنت ممن آثروا الصمود فى هذه الجبهة ، ولله الحمد .

خزانة الأدب :

** عن «خزانة الأدب» .. ماذا تم فى إكمال تحقيقه ؛ وقد حققتم الجزء الأول منه سنة ١٩٢٨م . وماذا فى نيتكم غير هذا المصدر ؟

* بين يدىّ الآن الجزء العاشر من خزانة الأدب للبغدادى أسعى جاهداً فى تحقيقه وإعداده للنشر ، وبظهوره إن شاء الله يبقى من الخزانة جزءان ، منهما نصف جزء لبقية النص ، والباقى للفهارس الفنية للخزانة ، كما أن بين يدى مطبوعاً نادراً لم أعثر على مخطوط له ، وهو كتاب (مجموعة المعانى) لمؤلف مجهول ، وقد طبع هذا الكتاب فى مطبعة الجوائب سنة ١٣٠١هـ ، أى منذ قرن كامل ، وهو يُعَدّ فى كتب الحماسات الجيّدة الاختيار النادرة النصوص .

وهذا كله غير الإشراف على إعادة الطبع لبعض كتبى التى تحتاج إلى الإعادة .

تحقيق لغوى فى مادة (تلمذ)(*)

لعلّ كلمة « تلميذ » من أكثر الكلمات دوراناً فى دور العلم ومعاهد الدراسة ، وهى من الكلمات التاريخية التى دخلت فى أطوار مختلفة من الدلالة حتّى استقرت الآن فى معنى طالب العلم . بيد أن تأصيل هذه الكلمة وبيان مشتقاتها وجموعها يحتاج إلى توضيح وتوقيف . وقد كنت قديماً على أن أكتب فيها تحقيقاً شاملاً ، ولكنى وجدت رسالة البغدادى فى هذا التحقيق من أوفى ما كتب فى هذه الناحية ، فآثرت أن أجعلها تحفة للأدباء من قراء « المقتطف » تغنيهم عن التطلع إلى ما وراءها .

والبغدادى هو عبد القادر بن عمر البغدادى ، صاحب خزانة الأدب ، المولود فى بغداد سنة ١٠٣٠ والمتوفى بمصر سنة ١٠٩٣

ورسالته تلك التى ننشرها ، منها نسخة بالخزانة التيمورية ، وثلاث أخرى بخزانة دار الكتب المصرية ، إحداها برقم ٦ مجاميع ش ، والثانية برقم ١٨١ مجاميع ، والثالثة برقم ١٢٢ مجاميع . وقد قابلت النسخ الثلاث الأخيرة بعضها ببعض ، ورمزت إليها بالرموز ا ، ب ، حـ على ترتيبها . وأصح هذه النسخ وأكملها نسخة ب . وكل ما أثبته بين علامتى الزيادة فهو منها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين .

(أما بعد) فهذه كلمات ذكرتها لمعنى التلميذ ، فإنى لم أجد هذه الكلمة

(*) نشر بمجلة المقتطف عدد مارس سنة ١٩٤٥ م .

مذكورة فى كتب اللغة المتداولة ، المدوَّنة (لبيان) الجليل والحقير ، وذكر النقير والقِطمير ، كالجمهرة لابن دريد ، والصّحاح للجوهرى ، والمحكم لابن سيده ، والعباب للصاغانى ، والقاموس لمجد الدين الفيروزابادى ، وغيرها ، إلّا فى لسان العرب لابن مكرم ، فإنه أورده فى مادة (تلمذ) وقال : « التلاميذ الخدم والأتباع ، واحدهم تلميذ » ، مع أنها كلمة متداولة بين العام والخاص . وكثيرة الاستعمال فى تآليف العلماء الأعلام .

وكان الباعث لهذا أنى لما قرأت كتاب مغنى اللبيب ، ووصلت إلى قوله فى الباب الخامس « حكى لى أن بعض مشايخ الإقراء أعرب لتلميذ له بيت المفصل »[1] رأيت شارحه الفاضل إبراهيم بن الملاّ الحلبى[2] قال : « التلميذ القارئ على الشيخ . ولم أقف عليه فى شىء من كتب اللغة المتداولة كالصحاح والقاموس وغيرهما » . اهـ .

فحينئذٍ تتبعت بطون الدفاتر ، من مصنفات الأوائل والأواخر ، حتى رأيته فى كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى ، فإنه ساق[3] فيه شعراً للبيد بن ربيعة العامرى الصحابى ، وفيه هذا البيت :

فالماء يجلو متونهنَّ كما
يجلو التلاميذ لؤلؤاً قشبا[4]

وقال بعد إنشاد الأبيات : « التلاميذ غلمان الصنَّاع . والقشِب والقشيب : الجديد ، والجمع القشُب » .

---

(١) المفصل للزمخشرى فى النحو . انظر شرح ابن يعيش (٢ : ٩٤) . والبيت هو :
لا يبعد الله التلبب والغا رات إذ قال الخميس : نعم

(٢) هو إبراهيم بن الملا محمد الحلبى المتوفى سنة ٩٧٩ . ذكره فى كشف الظنون . وفى ا ، حـ : « حلبى » موضع : « الحلبى » تحريف .

(٣) ا ، حـ : « سابق » والصواب فى ب .

(٤) البيت فى ديوانه ص ١٤١ بشرح الطوسى . وفيه : « التلاميذ غلمان الصاغة . . التلاميذ فارسى » .

ورأيته أيضاً فى شعر أمية بن أبى الصلت، وهو شاعر أدرك النبى – صلى الله عليه وسلم – ولم يوفق للإيمان به. وغالب شعره فى الوعظ وتذكير الآخرة وقصص الأنبياء، وهو مما لا يكاد يقضى العجب منه. قال فى قصيدة :

والأرض معقلُنا وكانت أمَّنا
فيها مقامتُنا وفيها نولدُ

وبها تلاميذ على قُذُفاتها
حُبسوا قياماً فالفرائص تُرْعَدُ[1]

قال شارح ديوانه : « التلاميذ الخدم، يعنى الملائكة ».

وقال أيضاً فى قصيدة أخرى :

صاغ السماء فلم يخفض مواضعَها
لم ينتقص علمَه جهلٌ ولا هرمُ

لاكشِّفت مرة عنا ولا بليت
فيها تلاميذ فى أقفائهم دعمُ

وأما قولهم فى جمعه « تلامذة » فعلى توهم أنه اسم أعجمى[2]، فإن الهاء فى الجمع تكون فى أحد ثلاثة مواضع : (أحدها) الاسم الأعجمى المعرب، سواء كانت للتعويض عن مدَّة[3] نحو أستاذ وأساتذة، أم لا نحو موزج وموازجة وكيلجة وكيالجة. (ثانيها) للتعويض عن ياء النسب فى المفرد نحو أشعثى وأشاعثة، ومهلبى ومهالبة، وأزرقى وأزارقة. (ثالثها) للتعويض

(١) القذفات : جمع قذفة، بالضم، وهى الناحية.
(٢) كأن البغدادى يذهب إلى أنه عربى.
(٣) ا، ح : « مدة ».

[إما] عن ألف خامسة جوازاً نحو حبنطى وحبانطة ، وعفرنى وعفارنة ، وإما عن [عينٍ][1] مضاعفة نحو جبار وجبابرة . وفى غير هذه المواضع الثلاثة قليل نادر كفحولة وحجارة .

قيل[2] : وقد يرخم التلاميذ فى الشعر على تلام ، كقول الطرماح :

تتّقى الشمس بمدريّةٍ كالحماليج بأيدى التلام

والحماليج : منافخ الصاغة الطوال ، واحدها حملوج ، شبه قرن البقرة الوحشية بها .

قال الجواليقى فى المعرّبات[3] : « التلام أعجمى[4] معرب ، قيل هم الصاغة ، وقيل غلمان الصاغة ، وقيل هم التلاميذ » وأنشد هذا البيت .

وأنشد ابن برى فى حاشية الصحاح قول غَيلان بن سلمة الثقفى[5] أيضاً :

وسربال مضاعفة دلاص قدَ احرز شكها صُنعُ التلام

وروى : « التلام » فى البيتين بفتح التاء وكسرها . أما الفتح فعلى أنه مرخم التلاميذ ضرورة . وقد اقتصر عليه صاحب الصحاح ، وقال : « التلام التلاميذ سقطت منه الذال » .

---

(١) كتبت كلمة « عين » فى ا ، حـ لكن جعل فوقها خط علامة على الخطأ . وإثباتها عين الصواب كما فى ب .

(٢) ا ، حـ : « قليل » وذلك على أنها متصلة بكلمة « حجارة » والوجه ما أثبت من ب كما يفهم من السياق .

(٣) المعرب للجواليقى طبع دار الكتب ص ٩١

(٤) ا ، حـ : « قيل معرب » وكلمة : « قيل » مقحمة .

(٥) شاعر مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام . ترجمته فى الإصابة ٦٩١٨ والأغانى (١٢ : ٤٣ — ٤٧) .

وصاحب الصحاح تابع فى هذا لأبى على ، قال فى المسائل العسكرية [١] :
«ومن قبيح الضرورة قول الشاعر :

* مثل الحماليج بأيدى التَّلام *

قالوا : يريد التلامذة ، فحذف . وقد أعلمتك أن ذلك لا يكون على الترخيم فيما تقدم . إلا أنه قد جاء من هذا النحو ما لا يكون فى الترخيم كقوله [٢] :

* دَرَس المنَا بمتالع فأبانِ *

قالوا : يريد : المنازل . ومثل ذلك ما أنشدوه لأبى دُوادٍ [٣] الإيادى :

فكأنما تُذكى سنابكها حُبَا [٤]

قيل يريد الحباحب ، أى نار الحباحب . وفى التنزيل : ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ . انتهى كلامه .

وأما الكسر فعلى أنه جمع « تلم » بكسر فسكون ، بمعنى الغلام . قال ابن مكرم [٥] : فن [٦] رواه : التلامى ، بفتح التاء وإثبات الياء ، أراد التلاميذ ، يعنى تلاميذ الصاغة . هكذا رواه أبو عمرو ، وقال : حذف الذال

---

(١) المسائل العسكرية لأبى على الفارسى المتوفى سنة ٣٧٧ . نقل منها البغدادى نصوصاً قيمة فى مواضع شتى من الخزانة . انظر (١/٩ : ١٤-٢/٦٢ ، ٢٧٥ ، ٤٠١ ، ٥٢٢ - ٣/٤٦ - ٤/٦٧ ، ٧٣ ، ٥٨٢) بولاق . ا ، حـ : « مسائل العسكرية » تحريف .

(٢) هو لبيد بن ربيعة . والبيت مطلع قصيدة له فى ديوانه ص ٦١ طبع فينا سنة ١٨٨٠

(٣) ا ، حـ : « أبو دؤاد » بالهمز .

(٤) روى البيت فى اللسان (١ : ٢٨٨) هكذا :

يذرين جندل حائر لجنوبها فكأنها تذكى سنابكها الحبا

(٥) فى لسان العرب مادة (تلم) .

(٦) فى الأصل : « ومن » وصوابه للنص من اللسان .

من آخرها[١] ومن رواه : التلام ، بكسر التاء ، فإن أبا سعيد قال : التلم الغلام . قال : وكل غلام تلم ، تلميذاً كان أو غير تلميذ . والجميع[٢] التلام . وقال ابن الأعرابى : التلام الصاغة ، والتلام الأكرة » . انتهى .

وأقول : « الصاغة » تصحيف من الصناع[٣] لوقوعه فى صحبه الحماليج . ويدفعه البيت الثانى[٤] .

وقال صاحب القاموس : « التلم ، بالكسر : الغلام ، والأكّار ، والصائغ ، أو منفخهُ الطويل[٥] . والجمع تلام . وكسحاب : التلاميذ ، حذفت ذاله . ولم يذكر الجوهرى غيرها ، وليس من هذه المادة [و] إنما هو من باب الذال » . انتهى .

أقول : أما قوله : « الأكار والصائغ » فقد أخذه من قول ابن الأعرابى ، على أن الصاغة والأكرة بالتحريك جمع صائغ وأكار .

وأما قوله : « أو منفخه[٦] » فقد أخذه من قول بعضهم ، وقد غلط فيه .

---

(١) أسقط البغدادى هنا قول ابن منظور : « كقول الآخر :

لها أشارير من لحم تتمره من الثعالى ووخز من أرانيها

أراد من الثعالب ، ومن أرانبها » وهذا البيت لأبى كاهل اليشكرى ، كما فى اللسان (٥ : ١٦١) .

(٢) فى الأصل : « والجمع » وأثبت ما فى اللسان .

(٣) حـ فقط : « فى الصناع » .

(٤) يشير إلى بيت غيلان بن سلمة . ا ، حـ « فى » مكان : « ويدفعه » محرف .

(٥) ا ، حـ : « والصانع » بالنون و « منفخة الطويل » صوابهما ما أثبت من ب .

(٦) ا ، ج : « أو منفخة » محرف .

نقل الأزهرى عن الليث أنّ بعضهم قال : التلام الحماليج التى ينفخ بها . قال : وهذا باطل[١] .

والعجب من صاحب القاموس ، أنه اعترض على صاحب الصحاح فى ذكره التلام فى باب الميم ، مع أنه أثبته مثله ، ولم يذكره فى باب الذال .

(١) فى اللسان : « قال أبو منصور – وهو الأزهرى – قال الليث : إن بعضهم قال : التلاميذ الحماليج التى ينفخ فيها . قال : وهذا باطل ما قاله أحد » .

- ٧ -

الابل وأثرها فى الفكر العربى والبيان العربى(*)

قد يبدو هذا العنوان غريباً فى أول الأمر ، ويقول بعض الناس : وما بال هذه الحيوانات العجم ؟ ! وكيف صار لها أثر فى لغة يتناقلها الناس ، ويزيدون فى حياتها ونمائها بما يتحاورون به ويتحادثون ؟ ؟

يقولون ذلك ، وفاتهم أن لغة كائنة ما كانت إنما تخضع لعوامل شتى ، أهمها : البيئة ، بيئة المتكلمين بها . فالبدوى الأول تفتحت عيناه لنور الدنيا على بيت من الشَّعر أو من أوبار الإبل فى صحراء مترامية الأطراف ، وكان طعامه وطعام أبويه من غيث السماء ، فإذا صوح النبت دفعه العيش إلى الرحلة على ظهور الإبل من بقعة إلى بقعة لينتجع مربعاً جديداً . . وكان صاحب حروب وغارات ، فإذا جد الجد اعتلى الإبل هو ورهطه ودفعوها إلى انتهاب العدو واستلاب أشيائه .

وكان ينظر إلى ما حوله من ضروب الحيوان فلا يعجبه شىء مثل ما تروقه الإبل ، فهى أجدى عليه من كل الحيوان وأعظم فائدة . ففضلاً عما كان يفيد من ألبانها ولحومها وشحومها وجلودها وأوبارها . كان يحمل عليها ما لا يستطيع غيرها من أثقال . . ولها مع ذلك الاحتمال الشديد والصبر البارع ، وإنها لتصبر على الظمأ الطويل لا تسوم صاحبها فى ذلك مشقة الرى الرتيب . ومن المعروف عندهم أنها تحتمل العطش ثمانية عشر يوماً . كما أن الإبل لا تشارك البدوى فيما يبتغى من ماء صاف نمير ، وإنما يعجبها الماء الكدر الذى يعزف عنه الإنسان . يقول الجاحظ : « الإبل لا تحبُّ من الماء إلا الغليظ » . هذا إلى استطابتهم ألبانها وتفضيلهم لها على ألبان سائر الحيوان ، واعتمادهم عليها فى الغذاء ، فقد كان التمر وألبان الإبل هما الغذاءان الرئيسان لمعظم القبائل العربية إلى يومنا هذا .

(*) مجلة البيان الكويتية عدد أبريل سنة ١٩٦٦ م

وهذه صورة ناطقة تدلنا على مبلغ إلف البدوى للابل وتفضيله لها على سائر الحيوان . يروون أن ميسون بنت بحدل الكلبية ــ وكانت بدوية ذاتَ جمال باهر ــ أعجب بها معاوية . فتزوجها وهيأ لها قصراً منيفاً مشرفاً على غُوطة دمشق . وزيّنه بأنواع الزخارف . ووضع فيه من أوانى الذهب والفضة ، ونقل إليه من الديباج الرومى الملون والموشى ما هو لائق به : ثم أسكنها مع وصائفَ لها ، فجلست فى رَوشنها يوماً وحولها الوصائف ، فنظرت إلى الغوطة وأشجارها ، وسمعت تجاوب الطير فى أوكارها : وتنسّمت نسيم الأزهار ورِوائح النُّوّار والرياحين ، فتذكرت نجداً وأهله ، وحنّت وقالت فيما قالت :

لَبيتٌ تخفُقُ الأرواح فيه
أحبُّ إلىَّ من قصر منيفِ

ولُبس عباءةٍ وتقرَّ عينى
أحب إلىَّ من لبس الشُّفوفِ

وأكل كُسَيرةٍ فى كِسْر بيتى
أحبُّ إلىَّ من أكل الرّغيف

وأصوات الرياح بكل فجّ
أحبُّ إلىَّ من نقر الدفوفِ

وكلبٌ ينبَحُ الطُّرّاق دونى
أحبُّ إلىّ من قِطّ ألوفِ

وبَكرٌ يتبع الأظعانَ صعبٌ
أحبُّ إلىّ من بغلٍ زَفوفِ

فهى تمجّد البَكر من الإبل وتنوه به ، وترى أنه آثر عندها وألصق

بنفسها من دوابِ أهل الحضر . وكان أحدهم إذا ضلَّ له بعير بكى عليه وأسرف في النحيب . ومما يروى في هذا الصدد أنَّ الأسود بن عبد يغوث كان له ثلاثة بنينَ ، كلهم قد قُتِل في وقعة بدر ، فلما ناحت قريش على قتلاها نهض عقلاؤها فيهم وقالوا : « لا تفعلوا فيبلغ ذلك محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم » . وكان الأسود هذا يحب أن يبكي بنيه ، فبينا هو كذلك إذ سمع نائحة في جوف الليل ، فقال لغلام له وقد ذهب بصره : « انظرْ هل أحِلَّ النحيب ، وهل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلّي أبكي على ولدي ، فإنَّ جوفي قد احترق » . فلما رجع إليه الغلام قال : إنّما هي امرأةٌ تبكي على بعيرٍ لها قد أضلَّته ! فقال الأسود عند ذلك من أبيات :

أتبكي أن يَضِلَّ لها بعيرٌ
ويمنعها من النوم السُّهُودُ

فلا تبكي على بَكْرٍ ولكن
على بدرٍ تقاصرت الجدود

ولحرص العرب على الإبل ومنحها شيئاً من القدسية . جعلوا لها نظاماً دينياً يحمونها به في بعض أحوالها من أن تنالها شفار الجازر مطلقاً ، أو يسمحون بنحرها أو عقرها بشروط خاصة ، أو يحرِّمون ألبانها أو ركوبها أو استخدامها في العمل ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ ماجَعَلَ الله من بَحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وَصيلةٍ ولا حامٍ ، ولكن الذين كفروا يفتَرُون على الله الكذبَ ﴾ . وليس هنا مَقام القول في تفسير هذه الكلمات : البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي . فقد فسرت هذه الكلمات على اثنين وثلاثين وجهاً ، ذكرها صاحب (بلوغ الأرب[1]) . .

---

(١) بلوغ الأرب ٣ : ٣٦ — ٤٠ .

فهذا التفكير الدينى ينبئ عن سيطرة الإبل على أذهان العرب فى جاهليتهم القديمة .

وفى المعجزات النبوية تنطلق الإبل لتحتل مكاناً مرموقاً ، ويقصّ علينا القرآن الكريم أن قبيلة ثمود طلبت من نبيها صالح عليه السلام معجزةً تكون دليلاً على صدق نبوّته واجتهدت مخيِّلتهم أن تبدع أقوى صور التعجيز ، فلم يجدوا فوقَ الناقة حيواناً أبدع آية وأشدَّ وأعظم ، فطلبوا خروج الناقة من الصخرة ، فأخرج الله لهم من جوف الصخرة الصماء ناقة ، وشرط عليهم شروطاً رضيَها المؤمنون منهم ، أمّا المستكبرون فعتَوْا عن أمر ربهم وعقروا الناقة — أى قطعوا قوائمها — فأخذتهم الرجفةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين .

وقد ورد ذكر هذه الناقة فى القرآن سبع مرات ، وضرب العربُ المثلَ فى الشؤم بعاقر تلك الناقة ، واسمهُ قُدَار ، فقالوا : « أشأم من قدار » .

وأمر آخر يلقى ضوءاً على أثر الإبل فى حياة العرب ، فلعظم شأنها عندهم جعلوا دية القتيل عددا خاصا من الإبل يتراوح بين العشر والمائة والمئات ، يُساق إلى أولياء القتيل ، إمّا بالنقد العاجل ، وإما بنظام التنجيم والتقسيط ، وهو ما سجله زهير بن أبى سلمى فى قوله :

تعفّى الكلومُ بالمئين فأصبحت
ينجّمها من ليس فيها بمجرمِ

ينجّمها قومٌ لقوم غرامة
ولم يُهَرِيقوا بينهم مِلءَ محجمِ

وجاء الإسلام بعد ذلك مؤيداً لقاعدة الدِّيَة من الإبل ، وضم إليها فى ذلك الذهب والفضة .

* * *

ومن عقائد العرب المتعلقة بالإبل أنهم كانوا يسمون « العَشَى » - أى عدم الإبصار ليلاً - « الهُدَبِد » ، فإذا أصاب أحدهم ذلك قصد إلى سنام البعير فقطع منه قطعة ، ومن الكبد قطعة أخرى وقلاهما وقال عند كل لقمة يأكلها ، بعد أن يمسح جفنه الأعلى بسبابته :

فيا سناماً وكَبِدْ ألاَ اذهَبَا بالهُدَبِدْ
ليس شفاءُ الهدبد إلاَّ السَّنامَ والكبدَ

وكان العرب إذا كثرت إبل أحدهم فبلغت الألف فقئوا عين الفحل ، فإن زادت على الألف فقئوا العين الأخرى ، وسموا الأول المفقَّأ ، والثانى المعمَّى .

وفى هذا يقول الفرزدق :

غلبتك بالمفقأ والمعمى وبيت المحتبي والخافقات

والناظر فى الشعر العربى يلمح ظاهرة جديرة بالتأمل ، هى استعمال الإبل فى القَسَم واليمين ، ولا يكادون يُقسِمون بغيرها من الحيوان . قال شاعرهم :

أما والرَّاقصات بذات عِرقٍ
ومن صلى بنُعمانِ الأراكِ
لقد أضمرت حبَّك فى فؤادى
وما أضمرت حباً من سواكِ

والراقصات هى الإبل التى تسير ضرباً من السير يسمَّى الرَّقَص . وذات عرق : موضع .

وقال آخر :

حلفتُ بهديٍ مُشْعَرٍ بكَراته

نخبٌ بصحراء الغَبيط درادقُه

البكرات : جمع بكرة ، وهى الفتية من الإبل . وإشعارها : أن يجعل لها شعاراً بأن تطعن فى سنامها تمييزاً لها ـ لئلا يُستولَى عليها ـ لأنها خاصة بالهَدْى .

ونحو هذا من القَسَم ـ كثير ـ كقول الآخر :

إنى وربِّ الراقصات إلى منىً

بجنوب مكّة هَديُهن مقلَّدُ

وقوله :

أما والذى حجّت له العيسُ ترتمى

لمرضاته شُعْثاً طويلاً ذميلها

وشىء آخر حمل العرب على القسم بالإبل وتمجيدها ، هو أنّهم كانوا جميعاً يعظّمون البيت الحرام ويحجون إليه ـ ويسوقون معهم فى ذلك هديهم الذى يتقربون به إلى أوثانهم المنصوبة حول الكعبة ، التى بلغ عددها حين فتح مكة ثلاثمائةٍ وستين صنماً ، وكانوا يحتفلون بذلك احتفالا ، ويرون فى الإبل أنها هى التى تُدنيهم إلى آلهتهم وتحملهم إليها ، فكأنها بذلك تشاركهم فى نُسكهم وتُعينهم عليه ، فكانت لذلك جديرةً بالتكرمة ـ حقيقة بأن تعرض فى معرض القسم واليمين .

وهكذا نجد أن الإبل سيطرت زماناً طويلا على تفكير البدوى . وفرضت نفسها أمام عينه وعقله ، وعاطفته النفسية والدينية .

ونجد فى القرآن الكريم آية تُشيد بالإبل إشادة عالية . وتستعلن عظم شأنها وعجيب خلقها ، وهى قول الله سبحانه : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت ﴾ ، فقدّم الإبل على السماء وهى ما هى ! لأنّ الإبل من أعجب الخلق فى طول أعناقها التى ترفعها فتنال بها أعالى الشجر ، وتخفضها فتجتث أصول العشب فى باطن الأرض . وهذا السنام الذى جُعل لها ذخيرة حين يَعزّ الطعام ويقلّ الغذاء ، وهذه العين الحالمة الحليمة المعبِّرة ، وذاك الخفّ الذى يتواءم مع رمال الصحراء التى لا تستطيعها الخيلُ ولا غيرها من الدوابّ فى السفر الطويل ، والرحلة المُسهبّة ، إلى الطاعة العجيبة والانقياد للصبيّ الصغير .

وحينما حثّ القرآن الكريم على الحجّ ، رسم الصورة الواضحة للإقبال على الحج وتجشُّم المشاقّ إليه ، فلمع جانبُ الإبل التى تخترق فِجاجَ الأرض العميقة ، أى مسالكها البعيدة الأعماق المترامية الآفاق ، وذلك قول الله عز وجل : ﴿ وأذّن فى النّاسِ بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كلّ فجٍ عميق ﴾ .

وإذا عرّجنا على البيان العربى فى ألفاظه وأساليبه ومعانيه ، وأمثاله وتشبيهاته ونصوصه ، فإنّ مجلدا أو مجلدين لا يكفيان لبسط القول فى ذلك . ومما يجدر ذكره أن المستشرق الألمانى : « دوهامر » جمع الألفاظ العربية المتعلقة بالإبل حسب طاقته هو ، فوصلت إلى خمسة آلاف وسبعمائة وأربع وأربعين كلمة . والناظر فى كتاب المخصص لابن سيده يجد مصداقاً مذهلاً لهذا القول الذى أعتقد أنه مع ذلك لا يبلغ الاستيعاب وإن كان قريباً منه . وهذه ظاهرة فريدة لا نكاد نجدها فى لغة أخرى .

فمن الألفاظ : القرين ، نفهمها بمعنى الصاحب والخليل ، ولا نكاد نفطن إلى أصل اشتقاقها ، وأصل القرين الجمل أو الناقة تكون فيهما خشونة ، فيربط أحدهما إلى الآخر حتى يلين أحدهما ، ويسمى الحبل الذى يجمع

بينهما القَرَن . وهذا يطلعنا من زاوية جانبية على سابقة نفسية للعرب فى سياسة الحيوان وتربيته . ومنها « الفَحل » يطلق على الذكر من النخيل وكذا قولهم : استفحل الأمر ، أى تفاقم واشتد ، وتفحَّل فلان أى تشبه بالفحل وأصل هذا كله من الفحل ، وهو الذكر من الإبل . ومن ذلك قولهم : تجمَّل فى المصيبة ، أى اشتمل بالصَّبر وتكلَّفَ العزاء . فصار بهذا شبيهاً بالجمل الصبور الذى لا ينزع إلى شكوى . ومنه قول امرئ القيس :

وقوفاً بها صَحبى عَـلىَّ مطَيهم
يقولون لا تهلكْ أسًى وتجمَّلِ

فهى نظير قولهم: تفحّل . من الفحل . وتنمر . من النمر . وتذأب . من الذئب .

ويقولون : « حرب ضروس » إذا كانت مُفظعة مهلكة وخيمة العاقبة ، قال قيس بن الخطيم :

وإنىِّ فى الحرب الضَّروس موكَّلٌ
بإقدام نفس ما أريد بقـــاءها

وأصله من الناقة الضَّروس التى تعضُّ بأضراسها مَنْ دنا منها : وذلك لسوء خلقها .

ومن ذلك : المُخضرم . وأصله الذى أدرك عصرى الجاهلية والإسلام . ثم أطلق من بعد على من أدرك عهدين متتاليين . واشتقاقه من الخضرمة ، وهى قطع طرف الأذن . وكان أهل الجاهلية لمّا دخلوا فى الإسلام خضرموا آذان إبلهم . أى قطعوا أطرافها لتكون علامة لإسلامهم إنْ أغير عليها أو حوربوا : فكانت هذه العلامة حماية لإبلهم أن تصبح غنيمة فى الحرب .

ولا نزال نقول للرجل : ما حدا بك إلى كذا . أو نقول : نحدوه إلى

ذلك غرض شريف . وأصله من حداء الإبل ، وهو سَوقها بالتنغيم والتطريب

ونقرأ في كثير من القصص العربية قولهم : « ساق إليها صداقها » أى قدّم إليها مهرها ، وهذه العبارة تمت إلى الإبل بصلة وثيقة ، وأصل معناه أن يَجعل مَهر المرأة من الإبل ثم يسوق ذلك الصّداقَ إليها. ثم استعملت من بعد فى تقديم أى ضرب من ضروبِ الصداق كائناً ما كان .

حتّى أسماؤهم كان للابل نصيب فيها ، فمنها الأعلم : اسم عالم أندلسى جليل ، وأصله من البعير ، سمى بذلك للشق الذى فى مشفره الأعلى ، قال الجاحظ ، « وكل بعير فهو أعلم » . هكذا خلقة البعير .

ومنها الزَّفَيان : اسم شاعر وأصل الزّفيان الناقة السريعة .

ومنها جِران العَوْد : اسم شاعر أيضاً . والعود : المسن من الإبل . وجِرانه : مقدم عنقه ، ومنها « بَكرُ » و « أبو بكر » فى الكنية . وأصل البكر الفتىّ من الإبل .

ومنها « جَرير » شاعر معروف . وأصل الجرير الحبل يكون فى عنق الدابة أو البعير .

و « دِعبل » الشاعر الرقيق ، أصل تسميته من الدعبل ، وهى الناقة القويّة ، وكذلك « مُصعَب » هو الفحل من الإبل . ومنه مصعب بن الزبير القائد القرشى المعروف ، الذى أجهدَ عبد الملك بن مروان زماناً طويلاً فى العراق .

ومن أعلام نسائهم « هند » ونحن نعبّر بهذا الاسم دون أن ننظر فى اشتقاقه أو ننظر فنظنّه يمت بصلة إلى أمّة الهند ، وإنما الهند والهنيدة اسم للمائة من الإبل خاصة . قال جرير :

أعطوا هنيــدة يحدوها ثمانية
ما فى عطائهمُ منٌّ ولا سَـــــرَفُ

فالعربىّ يسمى بنته هنداً ينظر إلى أنّها له بمثابة مائة من الإبل .

حتّى شوال ، اسم هذا الشهر للعربى ، سمى بذلك لأن الإبل كانت تشول ألبانها فيه ، أى ترتفع وتقلّ .

* * *

وهنا ننتقل إلى ينبوع فياض من ينابيع الثروة أهدتّها الإبل إلى اللغة العربية ، ذلك الينبوع الذى يفيض بالتشبيهات والأمثال .

فقد شبه العرب الشابّ القوىَّ الجسم بالفنيق ، وهو الفحل القوىّ من الإبل قال :

فيا ضَيعةَ الفِتيان إذ يَعتلونه

ببطن الشَّرَى مثلَ الفنيق المسدَّم

عتله يعتله : جرّه جرا عنيفاً فحملَه ، ومنه العتَّال . والمسدم من الإبل : المسدود فمه خوفاً من عضاضه .

ورأى عنترة أن انبثاق الدم من فرائص غريمهِ ، له صوتُ شبيه بصوت شِدق البعير ، فقال :

وحَليــــل غانيــة تركت مجدّلاً

تمكــو فريصــته كشــدق الأعلمِ

وحين أرادوا أن يشبّهوا رجلاً متعباً وجدوا له مثلاً فى البعير المحسَّر المجهَّد :

يعين نِساء الحىّ ما يَستعِنّــهُ

ويمسى طليحاً كالبعــير المحسَّر

* * *

وضربوا مثلاً لمن عظم جسمه وضعف عقله فقالوا :

لقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ
فلم يستغن بالعظم البعير

وقد مثل الله عزّ وجل للشرر الذى يتطاير من نار الجحيم بالجمال الصُّفر الألوان فقال : (إنّها ترمى بشَرَرٍ كالقصر * كأنّه جِمالةٌ صُفر) . شبّه الشرر بالجمال الصفر فى ألوانها ، وفى تتابعها واختلاطها حيناً آخر ، حين تنفرد وتشرد .

وإذا أراد العرب التسويةَ بين شخصين فى الشرف والفضل قالوا : « هما كرُكبتَىِ البعير » فإنّ إحدى ركبتيه لا تقع على الأرض قبل الأخرى .

وجعلوا مَنْ نبذه الناسُ وأولَوْه سُخطهم وجَفْوتهم شبيهاً بالجمل الأجرب الذى يُعالَجُ بالقار ، ومن ذلك قول النابغة الذبيانى للنعمان :

فلا تتركنّى بالوعيد كأننى
إلى الناس مطلىٌّ به القارُ أجربُ

وقالوا فى أمثالهم : « أحقد من جمل » و « أصوَل من جمل » . وهذا يفسِّر لنا تلك الدهشة العصبية التى لحقت أبا جهل عندما حمل الحجر الثقيل يريد أن يضرب به رسول الله وهو ساجد ، حتّى إذا دنا منه نكص على عقبيه منهزماً ، مذعوراً منتقعَ اللون ، قد يبست يداه على حَجرهِ حتّى قذف الحجر من يده . وقامت إليه رجال قريش فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : « قمت إليه لأفعل به ما قلت لكمُ البارحةَ ، فلمّا دنوت منه عرضَ لى دونه فحلٌ من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته وقَصرتهِ ولا أنيابه لفحل قط ، فهمّ بى أن يأكلنى ! » فأبو جهل لم يَعرض له جنّىٌّ ، ولا تعرضت له غُول تخيفه وتُرهبه ، وإنّما غلب على مخيّلته شىءٌ أقوى من ذلك : هو صورة الفحل الصائل قد فغر فاه ليأكله . ولا غرو فالعقل

الباطن يجتهد فى إظهار أقوى المؤثرات السالفة لدى الشخص عندما يتغلب على القوّة الواعية .

ومن أمثال العرب قولهم للرجل لا يُحكم أمره ولا يسير على هُدًى وحزم : « يخبط خبط العَشْواء » . والعشواء : الناقة لا تبصر ما أمامها . فهى تخبط ما مرّت به بيديها ، لأنها ترفع رأسها ولا تتعهّد مواضعَ أخفافها . فيقعن حيثما وقعن .

ومن أمثالهم الخالدة : « لا ناقة لى فى هذا ولا جمل » يريد أنّه برىء كلَّ البراءة بعيدٌ عن التّهمة ، وأنّه لا دَخْل له فيما وقع القوم فيه من شر وفتنة .

ويقولون : « ألقى حبله على غاربه » أى تركه يذهب حيث يشاء ، أو أهمله . كما يقولون : « هذا من باب إلقاء الحبل على الغارب » . وليس للرجل حبل يلقى على غاربه ، وإنما هو مأخوذ من الإبل ، إذا أرادوا إرسالها إلى المرعى ألقوا حبالها على غواربها ، ولم يَدَعوها ساقطةً على الأرض فتمنعها الرعى .

وغارب البعير : ما بين سنامه وعنقه .

* * *

ومن الكنايات التى كان يستعملها العرب فى ألفاظ الطلاق قولهم للمرأة : « حبلك على غاربك » أى اذهبى حيث شئت فأنت طالق ، وقد جعل الإسلام هذا النوع من الألفاظ موجباً للطلاق البائن .

* * *

وقد ضرب القرآن الكريم دخول الجمل فى سم الخياط مثلا للاستحالة والبُعد فقال : ﴿ إنّ الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتّحُ لهم أبوابُ السماء ولا يَدخُلونَ الجنّةَ حتّى يَلِجَ الجملُ فى سَمِّ الخِياط ﴾ ؛

وسمّ الخياط هو ثقب الإبرة . ودخولُ الجمل ، وهو ما هو فى العظم ، فى ذلك الحيّز الضيق هو منتهى الاستحالة .

* * *

ولم يتخلُ الحديث الشريف من التشبيهات المستمّدة من وحى الإبل ، فمن مشهور الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : « تجدون الناس بعدى كإبل مائةٍ ليس فيها راحلة » . والراحلة : البعير النجيب القويّ على الأسفار والأحمال . يريد أنه يندُر منهم المستوى الصالح الممتاز فى الخُلق والدين ، كما أنّ الراحلة النجيبة الممتازة تكون نادرة قليلةً فى الإبل الكثيرة .

* * *

وفى الخطب نلمح فى خطبة الحجاج فى أهل العراق ، كلماتٍ مستوحاةً من الإبل ، إذ يقول فى بعض القول : « أمَا والله لألحونّكم لحو العصا ، ولأعصبنّكم عَصْب السلمة ، ولأضربنّكم ضربَ غرائب الإبل » .

ويقول فى خطبة دير الجماجم : « إذ ولّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى أعطانها » .

* * *

وفى أغراض الشعر المختلفة كان للابل نصيب كبير . ولعل فى وصف طرَفة فى معلقته للناقة فى نحو ثلاثين بيتاً ، أى فى نحو ثلث معلقته ، شاهداً ينبئ عن إيغال العرب وعنايتهم العجيبة بالأخيلة والصُّور التى تتعلق بالإبل وتناول أعضائها بالتصوير الدقيق ، ومعلقة طرفة من الشهرة بحيث لا يجمل فى هذا الحديث الموجَز أن نذكر نماذج منها فى هذا الصدد . وليت شعرى إذا عمَدَ طرَفة إلى صفة إنسان أو إنسانة أكان يستغرق قوله مثل هذا العدد من الأبيات ؟ !

وفى فن المديح لم يكن للشاعر العربى القديم مندوحةٌ عن أن يصف الناقة

التى أمضى عليها الرحلة إلى الممدوح . وفى شعر الأعشى والنابغة من ذلك نماذج كثيرة معروفة .

وكان العرب يؤثرون الناقة على الجمل فى أسفارهم ، لأنّ الناقة بطبيعتها مِطواعة سَلِسة القياد ، وكانوا يستغلظون البعير ولا سيما فى السير الطويل ، لصلابة جسمه وصلابة سيره ، ومن شواهد ذلك ما رواه ابن إسحاق من قول أبى جهل لعيّاش بن أبى ربيعة ، وهما فى سفرهما : « والله يا أخى لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تُعْقبنى على ناقتك هذه » .

أمّا نساؤهم فكن يُحَملن على الجمال ، لأنّ السَّوق بهنّ يحتاج إلى الرفق ، فلا تلائمهن سرعة النوق الهَوجاء ، وكان الجمل أثبت وأضبط سيراً فخصّوهن بذلك حرصاً عليهنّ ، وهذا هو سرّ قول امرئ القيس :

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً
عقرت (بعيرى) ياامرأ القيس فانزل

حيث قال (بعيرى) ولم يقل « ناقتى » .

ودخلت الإبل فى الهجاء كما دخلت فى المديح ، يهجو أحدهم صاحبه بِسمَن إبله ، لأنّ الإبل لا يظهر سمنها إلا إذا بخل بها صاحبها فمنع لبنها ضيفَه وجاره :

لقــد سَمِنت قِعدانُكم آل حِذيمٍ
وأحسابكم فى الحى غــير سمانِ

ويهجو أحدهم قبيلةً بأنّها لا تسقى إبلها إلاّ بعد انصراف الناس عن سقى إبلهم ، وذلك لضعفها وقلة سطوتها ، وأنها لا تستطيع مدافعة الناس والخروج إلى الصفّ الأول . وذلك قوله :

ولا يَرِدون المــــاءَ إلاّ عشــــيةً
إذا صــدر الورّاد عن كل منهل

وفى الغزل نجد نماذج تُذكر فيها الإبل ، منها قول امرئ القيس :

تقولُ وقد مالَ الغبيطُ بنا معاً
عقرتَ بعيرى يا امرأ القيسِ فانزلِ

فقلت لها : سيرى وأرخِي زِمامَه
ولا تبعدينى من جناك المعلل

ويقول عروة بن حزام مسجلاً تَضاربَ ما بينَ هواه وهوى ناقته :

هوى ناقتى خلْفى وقدّامى الهوى
وإنى وإيَّاها لمختلفانِ

هواى إمامى ليس خلفى مُعرَّج
وشوق قلوصى بالغُدوّ يمانِ

وفى شعر الحنين نرى عمرو بن كلثوم يعلن أنّ وجده على رحلةِ صاحبته ومفارقتِها له فوق وجد الناقة التى فقدَت ولدَها ، فيقول :

فما وَجَدت كوجدى أمٌّ سقبٍ
أضلتــه فرجعت الحنينــا

ويقول آخر فى ذكر حنينه وحنين ناقته :

وحَنّت ناقتى طرباً وشوقاً
إلى مَنْ بالحنين تشوّقينى

ويقول آخر فى ذكر حنين ناقته ، وهو بلا ريب إشارة إلى حنينه هو أيضاً :

تَحِنّ إلى أهل الحجاز صبابةً
وقد بُتّ من أهل الحجاز قرينُها

فيا ربَّ أطلق قيدَها وجريرَهـــــا
فقد راع أهلَ المسجدين حنينُها

* * *

هذا قلٌّ من كثر ، وصورةٌ مصغرة نلمح بها أثر هذا الحيوان فى لغة العرب ، وهو أثر خالد سيبقى بقاء الدهر ، ما دامت الدنيا ، وما دامت الصحراء ؛ ولن يمحوه عجيج السيارات ولا أزيز الطائرات .

عبد السلام محمد هارون
جامعة الكويت

— ٨ —

الفصح بين اللغة والتاريخ(*)

الفصح كلمة براقة ، هى فى ظاهرها عربية النسج ، جارية على الوزن العَرَبى ، تنثر بين مئات الألفاظ العربية وآلافها فلا تحس لها بغرابة ، ولا تشعر بريبة فى عروبتها وأصالتها . ذلك لأن مادة (ف ص ح) من المواد الأصيلة الواسعة الاشتقاق .

فمنها : الفصاحة ، والإفصاح ، والتفاصح ، والفصيح من الناس ، ومن الدواب ومن الألبان . وأفصح الصبح ، وأفصح القمر ، وأفصحت الشاة ، وفَصَحك الصبح . وكذلك « الفِصْح » بمعنى اليوم الذى لا قُرٌّ فيه .

وأصل معنى المادة ، كما يقول ابن فارس فى مقاييس اللغة : أن يدل على خلوصٍ فى الشىء ونقاء من الشوب . من ذلك اللسان الفصيح : الطليق . والكلام الفصيح : العربى . وأفصح اللبن : سكنت رغوته . والرجل : تكلم بالعربية ... وفصح : جادت لغته حتى لا يلحن . وأفصح الصبح : بدا ضوؤه .

وهذا كله لا يترك مجالاً لدخول هذا الفصح فى نسيج المادة العربية ، التى قد ترفض هذا الخيط . وهذا هو الإحساس الصادق الذى جعل ابن فارس ، وهو من هو ، يقول فى هذه المادة « ومما ليس من هذا الباب : الفصح : عيد النصارى » .

وهذا مما يسمو بقدر ابن فارس ، ويدل على عمق نظرته ، التى قد يستهين بها بعض الباحثين ، فإحساسه هذا الذى انفرد به من بين اللغويين جميعاً ، يسجل له صفة العملاق فى الإدراك اللغوى والإحساس الدلالى .

(*) الدورة ٤٢ ج ١٠ للمجمع محاضر الجلسات ص ٣٤٧ سنة ١٩٧٧م .

وقد كنت على موعد من تحقيق هذه الكلمة وتأصيلها منذ ست وثلاثين سنة على وجه التحديد ، وأنا بصدد تحقيق الجزء الرابع من كتاب الحيوان للجاحظ حيث وردت كلمة « الفصح » فى الصفحة ٤٣٢ إذ أثبت أنها ليست عربية ، وقلت إنها معربة عن العبرية[1] من كلمة « پيسح » .

وهو تحقيق غاب أمره عن علماء اللغة وأصحاب المعجمات قاطبة . وذلك بتتبعى لقدر كبير من أمهاتها وأصولها ، تتبعاً تاريخياً يمتد من عهد ابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤ إلى سنة ١٣٦٠ ؛ فإننى لم أجد من نص على أنها معربة .

جاء فى إصلاح المنطق[2] ما نصه : « وهو فصح النصارى ، إذا أكلوا اللحم وأفطروا » . ذكر هذا فى باب المكسور مما فتحته العامة أو ضمته .

أما ابن دريد المتوفى سنة (٣٢١) فيقول : والفصح : عيد النصارى ، وقد عرفته العرب وتكامت به . وقد أفصح النصارى ، إذا دنا فصحهم . ويقصد بقوله : « عرفته العرب » أن الكلمة قديمة ليست بمستحدثة . واستشهد ابن دريد لذلك ببيت حسان الذى يقول فيه :

قد دنا الفصح فالولائد ينظمـــــــ
ـــن سراعاً أكلَّةَ المرجانِ[3]

والفارابى (٣٥٠) فى معجمه « ديوان الأدب ١ : ١٧٩ يقول : « وهو فصح النصارى » ، لا يزيد على هذا ولا ينقص .

وأما الأزهرى (٣٧٠) فليس فى معجمه تهذيب اللغة ٤ / ٢٥٣ إلا ما نقل عن الليث : « الفصح فطر النصارى » .

---

(١) الحيوان للجاحظ ٤ : ٤٤٩ .
(٢) إصلاح المنطق ص ١٧٥ .
(٣) جمهرة ابن دريد ٢ : ١٦٣ .

ثم نمشى ربع قرن إلى أن ندرك ابن فارس (٣٩٥) يقول فى مقاييس اللغة : « ومما ليس من هذا الباب – يعنى الاشتقاق السائد للمادة – الفصح عيد النصارى ، يقال أفصحوا : جاء فصحهم » .

والجوهرى المتوفى بعد ابن فارس بسنة واحدة أى (٣٩٦) وهو اللغوى المعروف بالدقة والتوثيق ، يقول فى الصحاح : « والفصح بالكسر : عيد للنصارى ، وذلك إذا أكلوا اللحم وأفطروا . وأفصح النصارى ، إذا جاء فصحهم » .

ويطل علينا من بعد ذلك الإمام محمود بن عمر الزمخشرى (٥٣٨) فى أساس البلاغة لينغم بنغمة جديدة لا تخرج عن نطاق اللحن الأول فيما يخص جوهر الكلمة ، وهو قوله : « وجاء فصح النصارى ، أى يومُ بروزهم إلى معيَّدهم » .

لكنه يزيد على ما قاله من سبقوه ، قوله : « وهذا مَفصحهم ، أى مكان بروزهم . قال ابن هرمة :

نصـــارى تأجـــل فى مَفْصَـــحٍ
ببيـــداءَ فى يـــوم سِـملاجها[1]

تأجَّل : تصير آجالا ، أى جماعات . ويوم السملاج : يوم الفطر ثم قال : « وأفصحوا : عيدوا » .

ثم نخطو خطوة واسعة إلى وفيات سنة ٧١١ فنجد ابن منظور فى لسان العرب يردد ما ذكره الجوهرى من قبل فيقول : « والفصح بالكسر : فطر النصارى ، وهو عيد لهم » .

---

(١) لم يرد هذا البيت فى ديوان ابن هرمة من تحقيق محمد جبار العيبد .

وأفصحوا : جاء فصحهم ، وهو إذا أفطروا وأكلوا اللحم » .

وفى وفيات سنة ٧٧٠ نلقى الإمام الفيُّومى صاحب المصباح يقول ما نصه : « فصح النصارى مثل الفِطر وزناً ومعنى ، وهو الذى يأكلون فيه اللحم بعد الصيام » . لا يردد فى هذا التفسير اللغوى إلا ما ذكره السابقون الأولون ، وإن كان قد ذكر لمعرفة وقته مقاييس حسابية دقيقة ، وضوابط منظومة وغير منظومة لصوم النصارى وإفطارهم . منها قوله :

إذا ما انقضى ست وعشرون ليلة
لشهرٍ هلالىٍّ شُباطُ به يــرى
فخذ يوم الاثنين الذى هو بعدَه
يكن مُبتدا صَومِ النصارى مقرَّرا

ونمضى نحو نصف قرن إلى صاحب القاموس (– ٨١٧) لنستمع إليه وهو يقول فى تفسير كلمة أفصح : « والنصارى – أى أفصح النصارى – جاء فصحهم ، بالكسر ، أى عِيدهم » .

أما شارح القاموس الزبيدى (– ١٢٠٥) فيعلق على ذلك بقوله : « وهو نوروزهم ومعَيَّدهم » . صواب هذا : وهو يوم بروزهم إلى معيدهم التى وردت فى نص الزمخشرى . ثم يقول الزبيدى : « وهو إذا أفطروا وأكلوا اللحم » .

وأما صاحب معيار اللغة . وهو ميرزا محمد على الشيرازى الذى فرغ من تأليف معجمه سنة ١٢٧٣ فإنه لا يخرج فى كلامه هنا عما ذكره صاحب القاموس .

وننتقل بعد هذا إلى الكتب المختصة بالتعريب كالمعرب للجواليقى (٥٤٠ القرن السادس) وشفاء الغليل للخفاجى (– ١٠٦٩ القرن الحادى عشر)

والألفاظ الفارسية لأدى شير (١٣٣٣ - ١٩١٦ القرن الرابع عشر) فلا نجد شيئاً منها يعرض لذكره أو يحوم حول حماه ، وهذا يعد اعترافاً ضمنياً بعروبة هذه الكلمة وأنها أصيلة فى اللغة العربية ، غير مستعارة ولا مجتلبة .

وأما « استنجاس » فى معجمه فقد جعل هذه الكلمة من الكلمات المنقولة إلى الفارسية من العربية ورمز لها بالرمز : A .

وهذا كله ما دفعنى أن أكشف عن حقيقة هذه الكلمة ، وأن أستعلن أصلها للمرة الأولى فى حياتها .

والنتيجة التى أدانى إليها البحث هى أن الكلمة عبرية الأصل ، دخلت فى العربية منذ عهد سحيق ، باستيطان اليهود ومن تبعهم فى الجزيرة العربية ، وممارستهم شعائرهم الدينية فى أرجائها ما بين العراق والحجاز .

فحسان بن ثابت الأنصارى ، الذى عاش فى الجاهلية ستين سنة وفى الإسلام ستين مثلها يقول فى قصيدة يمدح بها الملك الغسانى النصرانى جبَلَةَ ابن الأيهم ، آخر ملوك آل جفنة بالشام (ديوانه ٤١٥) .

قــد دنــا الفِصحُ فالولائد ينظِمـ
ـن سراعاً أكِلَّةَ المَرجـــانِ

يجتنــين الجــادىَّ فى نُقب الرَّيــ
ـط عليها مَجاســد الكتّـــانِ

ثم يقول :

ذاك مغنىً من آلِ جفنةَ فى الدهـ
ـر وحقٌّ تعاقُــب الأزمـــانِ

يعنى أنَّ ولائدهم إذا اقترب هذا العيد شغلن أنفسهن فى الإسراع بنظم الأكاليل ، وهى العصائب المزينة بالجواهر . . والمرجان هو هذا الجوهر

الأحمر المعروف ، أو هو صغار اللؤلؤ ، كما حققه ابن برى . بجتنين الجاديَّ : أى الزعفران ، كنايةٌ عن أنهنَّ يطلّين بالزعفران ، فكأنهن قد اجتَنَيْنَهُ . والريط هنا : الثياب اللينة الرقيقة البيض . والمجاسد : القمصان : ينعت ثيابهن .

والبيت الأول من هذه المقطوعة : « قد دنا الفصح » هو الشاهد الوحيد الذى تمخضت عنه معاجم اللغة المشهورة المنشورة .

ولكنى بالبحث وجدت شواهد أخرى للفصح فى خارج نطاق المعاجم أسجلها فيما يقول : يقول عدىّ بن زيد ، أشهر شعراء النصرانية فى الجاهلية (ديوانه ١١٧) :

بكروا علىَّ بسُحرةٍ فصبَحتُهُمْ
بإناء ذى كَرْم كقعب الحالبِ

بزجاجةٍ مِلء اليدين كأنّها
قنديلُ فِصحٍ فى كنيسة راهبِ

ويقول أيضاً (ديوانه ١١٨) :

دُمية شافها رجالٌ نصارَى
يوم فِصحٍ بماء كَنْزٍ مُذابِ

شافها : طلاها وجلاها . والكنز : الذهب .

والنَمر بن تولب ، الشاعر المخضرم المعمَّر الذى أدرك الإسلام فأسلم وحسُن إسلامه ، كما يقولون ، ونزل البصرة ، ينشد له سيبويه فى كتابه (٢ : ٢٩ — ٣ : ٢٥٥) .

صدَّت كما صدَّ عما لا يحِلُّ له
ساقى نَصارى قُبيلَ الفِصْح صوّامِ

والبيت فى ديوان النمر من تحقيق نورى القيسى ص ١١٤ برواية « قوّام » . وهو يصف ناقة عَرَضَ عليها الماءَ فعافَتْه .

ويقول إبراهيم بن هَرْمة ، من مخضرمى الدولتين ، وهو آخر من يحتجُّ بشعره كما فى الخزانة (١ : ٨ - ١ : ٥ بولاق) . يقول مُطلِقاً لفظ « المفصح » على المكان الذى يخرج إليه النصارى فى عيد الفصح :

نصارى تأجّـــــل فى مَفْصَـــــحٍ

ببيـــداء فى يـــوم سِملاجهـــــا

وقد انفرد الزمخشرى فى أساس البلاغة بهذا الشاهد الذى لم أعثر عليه فى ديوان ابن هرمة المنشور حديثاً ، فقد فات ناشرَه الفاضل .

أما كيف تسرَّبت هذه الكلمة فى خفاء إلى لغتنا العربية فإن البحث التاريخى سوف نهتدى به إلى هذا السر .

كان مفتاحُ اهتدائى إلى تحقيق هذه الكلمة ما ذا من معنىً دينىّ ومناسبات دينية ترتبط بالصِّيام والإفطار عند المسيحيين ، وليس فى المعجمات العربية ما يشير إلى أصل دينى غير الأصل المسيحى ، فلم تعرف هذه المعجمات عيد اليهود ، لكن كتب التاريخ والأدب تلقى ضوءاً على الفصح اليهودى .

ولعل أقدم من ذكر الفصح اليهودى من المؤرخين العلامة المسعودى المتوفى سنة ٣٤٥ : ذكر فى كتابه التنبيه والإشراف [١] فصح اليهود وفصح النصارى .

ونص على أن السنهودس الأول بمدينة نيقية [٢] من بلاد الروم ، اتفقوا

(١) التنبيه والإشراف ١٠٨ ، ١٢٣

(٢) من أعمال اسطنبول على البر الشرقى اجتمع بها آباء الملة المسيحية وكانوا ثلثمائة وثمان عشر أباً يزعمون أن المسيح عليه السلام كان معهم فى هذا المجمع ، ياقوت .

على أن يكون فصح النصارى يوم الأحد الذى يكون بعد فصح اليهود ، وألا يكون فصح اليهود مع فصح النصارى » .

وقد تكفل الآلوسى فى بلوغ الأرب ١ : ٣٦١ بذكر أعياد اليهود الخمسة نقلاً عن شهاب الدين الحموى فى كتابه عجائب المخلوقات ، وهذا الكتاب ومؤلفه غير كتاب عجائب المخلوقات المتداول من تأليف زكريا ابن محمد القزوينى . فذكر من أعيادهم « عيد الفصح » الذى يسمى أيضاً « عيد الفطير » أى الخبز الذى لم يختمر . وهو محرم عليهم أن يأكلوا فيه الخبز الخمير .

وبرجوعى إلى النسخة المترجمة من العهد القديم ، وجدت أول خيط لهذه الكلمة فى سفر الخروج (الإصحاح الثانى عشر العدد — ٢٧) : « إنكم تقولون : هى ذبيحة فصحٍ للرّب الذى عَبَر عن بيوت بنى إسرائيل فى مصر لمّا ضرب المِصريّين وخلّص بيوتنا » .

ورجعت إلى النسخة العبرية من سفر الخروج ، فوجدت المقابل لكلمة الفصح هو : « پيساح » كما أن المقابل لكلمة عبر هو « پاساح » : فكلمة الفصح عبرية النّسج ، واشتقاقها فيها من باساح بمعنى عَبَر :

وقصة العبور هذه يوضحها ما ورد فى سفر الخروج ، من أنّ الصراع الذى نَجَمَ بين فرعون مصر وموسى عليه السلام حينما أراد أن يُنقذ بنى إسرائيل من سوء العذاب ، أو أن يحملَ فرعون على الإيمان بالله فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ، وهى : العصا ، واليد البيضاء من غير سوء ، وانحلال عُقدة لسانه . وهذه الآيات الثلاث لم يهتز لها فرعون بل سخر منها . ثم خمس أخرى عانى منها فرعون وقومه دون الإسرائيليين ، وهى :

الطوفان والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . وقد تكفلت كتب التفسير بتبيانها فى تفسير الآية ١٢٣ من سورة الأعراف .

كما يقدم لنا سفر الخروج مراحل هذا الصراع مفصَّلة ، بدءاً من استجابة موسى عليه السلام للإسرائيلى الذى استغاثه على الذى من عدوّه ، وهو المصرىُّ الذى وكزه موسى من بعد فقضى عليه ، وانتهاء بخروج بنى إسرائيل وتعقُّب فرعون وجنوده لهم فى اليَمِّ بعد نجاتهم وإيمانه فى اللحظة الأخيرة حين أدركه الغرق ، فى الوقت الذى تمَّتْ وتحقَّقت فيه الآية التاسعة لموسى عليه السلام ، وهى انفلاق البحر لعبور موسى وقومه . كل هذا مفصل فى اثنى عشر إصحاحاً فى سفر الخروج من التوراة المشتمل على أربعين إصحاحاً .

والذى يعنينا هنا هو تاريخ هذا العيد وتقاليده عند الإسرائيليين ، ثم امتداده إلى المسيحية من بعد إلى يومنا هذا .

ويبدأ دخول بنى إسرائيل إلى مصر بدخول يوسف عليه السلام مع السيارة ، وهى القافلة التِّجارية المحمَّلة بالبضائع ، فى مُنطلَقها من أرض كنعان إلى مصر . حملت السيارة معها يوسف ، وباعته فى مصر بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودة ، لرئيس شرطة فرعون ، فوطيفار الخَصِىّ . فأظهر يوسف من النجابة ومن صدق تعبيره لرؤيا الفتَيَيْنِ اللذين سُجنا معه بعدَ مؤامرة امرأة العزيز ، ما حدا بفرعونَ أن يستدعيَه لتعبير رؤياه فى البَقرات والسنابل ، فَيعْبُر يوسف عليه السلام هذه الرؤيا أصدق تعبير ، ويمكِّن له فرعون فى بلاطه ويجعله على خزائن الأرض . وتأتى أعوام المجاعة ، وهى مجاعة عالمية كانت دفعت إخوة يوسف إلى أن يهاجروا إلى مصر طلباً للقمح .

وقد ظهرت حكمة يوسف وتجلى حسن تدبيره فى معالجة هذه الأزمة التى أخذت بمخنَّق العالم ، فأعطاهم يوسف كفايتهم من القمح وطالبهم بإحضار

أخيه ، وعادوا إلى أبيهم وقصوا عليه القَصَص ، ثم رجعوا إلى يوسف ومعهم بنيامين ، وكانت قصةّ الصاع واحتجاز بنيامين ، ثم عودتهم بقميص يوسف إلى يعقوب الذى نقلوا إليه دعوة فرعون له ولنسله للإقامة فى مصر إكراماً ليوسف ، فاستجاب يعقوب وهاجر مع أبنائه وعشيرته إلى مصر ، واستمر بهم المقام فيها ٤٣٠ سنة كان بعدها خروجُ بنى إسرائيل من مصر فِراراً من العذاب « يقتّلون أبناءكم ويستحيونَ نساءكم » خروجاً إلى الأرض التى تفيض لبناً وعسلاً .

وتشير التوراة فى الأصحاح الأول من سفر الخروج إلى أن الدافع إلى هذا التقتيل للأبناء الذكور والسكوت عن الإناث ، إنما كان منشؤه خشية المصريين من تزايد عدد الإسرائيليين فى أرض مصر واحتمال انضمامهم إلى صفوف أعداء فرعون حين تطرأ ظروف تدعو إلى الحرب .

وفى الإصحاح الأول من سفر الخروج : « ثم قام ملك جديد فى أرض لم يكن يعرف يوسف – أى فرعون غير الذى كان على عهد يوسف – فقال لشعبه : هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منّا . هلمّ نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا .. فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعُنف ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية ، فى الطين واللّبِن . وفى كل عمل فى الحقل ...

ونعود إلى قصة أنواع العذاب الإلهى التى عانى منها المصريون ، وكان آخرها ما تشير إليه التوراة فى السفر الثانى عشر من الخروج ، وهو الضربة الأخيرة من العذاب ، التى نجم عنها موت كل بكر فى أرض مصر ، من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن ، وكل بكر بهيمة . « وكان صراخ عظيم فى مصر لأنه لم يكن بيتٌ ليس فيه ميت . وهذا هو الرّجز الذى أشار إليه القرآن الكريم .

ويذكر أبو حيان فى تفسيره ٤ : ٤٧٣ أنه مات من المصريين فى ليلة واحدة سبعون ألف قبطى . وهذا ما دعا فرعون إلى أن ييأس من مناهضة العبرانيين ، وأن يبادر بدعوة موسى وهارون بالليل قائلاً : « اخرجوا من شعبى أنتما وبنو إسرائيل جميعاً » « سمح لهم بالخروج من أرض مصر إلى الأرض التى تفيض لبناً وعسلاً » .

وهذه هى الأمنية التى كان يتطلع إليها بنو إسرائيل .

فكان من التدبير الذى سبق هذه الضربة حسب نصوص التوراة : أن موسى عليه السلام أمر بنى إسرائيل قبلَ ليلة العذاب أن تعد كل أسرة منهم للفصح فى اليوم العاشر من شهر أبيب شاة صحيحة ذكراً ابن سنة : « تأخذونه من الخرفان أو من المواعز . ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر » (الأصحاح الثانى عشر) وأمرهم بذبح الفصح فى عشية ذاك اليوم ، وأن يأخذوا من الدم ويجعلوه على القائمتين والعتبة العليا فى البيوت التى يأكلون الفصح فيها وهم على أهبة الاستعداد . « أحذيتكم فى أرجلكم ، وعصيكم فى أيديكم ، وتأكلونه بعجلة » .

فهذا الدم الذى طُليت به أبواب بيوتهم جعل علامة واضحة ليعبر العذاب عنهم إلى بيوت المصريين . وهو ما أشرت إليه من قبل فى كلمة « پيسح » العبرية التى ترد بمعنى العبور ، أو القفز ، كما ترد بمعنى الذبيحة التى يضحى بها فى عيد العبور أو عيد الفصح . .

وتقدر التوراة عدد الذين خرجوا من مصر بستمائة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد ، وصعد معهم لفيف من الغنم والبقر ، مواش وافرة جداً . وخبزوا العجين الذى أخرجوه من مصر ملة فطيراً إذ لم تكن هناك فرصة لاختماره ، لأنهم طردوا من مصر على عجل ، فلم يستطيعوا تهيئة الزاد المعتاد ... وهذا هو السر فى أن الإسرائيليين فى هذا العيد محرم عليهم أن يأكلوا الخبز الخمير ، احتفاظاً بالذكرى لتلك الحال التى خرجوا عليها .

أما موعد هذا العيد فهو سبعة أيام تبدأ من مساء الرابع عشر من أبيب حينما يكتمل البدر منيراً وضّاء ، إلى مساء الحادى والعشرين منه . وفى الليلة الأولى يذبح الفصح ، فى تقاليد معينة مشدّدة تكفلت بها التوراة يأكلون قياماً لابسين نعالهم ، وعصيهم فى أيديهم ، ويسرعون فى تناول الطعام مشوياً « لا تأكلوا منه نيئاً أو طبيخاً مطبوخاً بالماء بل مشوياً بالنار ، رأسه مع أكارعه وجوفه ، ولا تبقوا منه إلى الصباح . والباقى منه إلى الصباح تحرقونه بالنــــار » .

ويعتقد اليهود أن النبى إيليا لم يمت ، بل هبت ريح عاصفة ورفعته إلى السماء ، وسينزل إلى الأرض لخلاصهم ، فى أول ليلة من ليالى العيد ، فهم يتركون له مكاناً خالياً على المائدة ويخصصون له كأساً مملوءة بالنبيذ الذى يتولى رب الأسرة صبه فى كئوس أفرادها وتقضى التقاليد عندهم أن يتولى أصغر أبناء الأسرة ملاحظة باب الحجرة ، يفتحه قليلاً فلعل النبى يكون واقفاً خلف الباب متهيئاً للدخول . . وإن كان يبدو أن هذا التفكير نابع من شدة الحرص اليهودى .

ومن عجب أن اللغويين العرب لا يعرفون الفصح إلا عيداً للنصارى ، مع أنه فى أساسه وأصله عيد لليهود . فما العلة فى هذا ؟

لقد اهتديت إلى شىء من السر فى هذا ، وهو أن الفصح اليهودى فى غالب الأمر ينتهى بالحج ، فوطنه الغالب أيضاً هو بيت المقدس ، فهو عيد غير ظاهر لدى جمهرة المسلمين . هذا بالإضافة إلى الانعزالية التى يحرص عليها اليهود . وأما فصح النصارى فليس له وطن خاص ، ناهيك بالمياسرة المسيحية . لهذا ظهر فصح النصارى ظهوراً وتعارفه العرب ... وفصح النصارى هو عيد قيامة المسيح فيما يعتقد النصارى .

والعرب قد شاركوا فى أعياد كثيرة ولا سيما أعياد الفرس كالنيروز والمهرجان .

والنيروز هو أول أيام السنة الفارسية ، وهى سنة شمسية ينتظم معها نظام الزراعة وتحصيل الخراج . فاستعاره العرب فى وقت مبكر جداً ينظمون به تحصيل الخراج .

وقبلهم استعاره المصريون منذ عهد دارا — فيما ذكره بعض المؤرخين (١) — استعاروه لرأس سنتهم الزراعية فى شهر توت، كما استعاروا بعض رسومه وتقاليده التى ظلت ممتدة إلى عصر القلقشندى .

وكذلك المهرجان الذى يقع فى اليوم السادس عشر من مهرماه المقابل لشهر أكتوبر الرومى فى زمان الشتاء . يذكر المسعودى فى التنبيه والإشراف ص ١٨٤ أن بينه وبين النوروز ستة أشهر ونصفاً ، تكون أياماً مائة وخمسة وتسعين يوماً .

وكتب الأدب العربى حافلة بالأخبار والأشعار التى قيلت فى هذين العيدين .

كما أن كتاب التحف والهدايا للخالديين مفعم بالنصوص المتضمنة لهدايا النيروز والمهرجان .

ومن الأعياد التى شارك فيها العرب غيرهم عيد عاشوراء الذى يوافق العاشر من المحرم ، يزعم القزوينى أنه عيد مشترك بين جميع الملل فيقول فى عجائب المخلوقات ص ٦٦ : لأنه تاب الله فيه على آدم عليه السلام ، واستوت السفينة على الجودى ، وولد الخليل وموسى وعيسى عليهم السلام ، وبردت النار على إبراهيم ، ورفع العذاب عن قوم يونس ، وكشف ضر أيوب ، ورُدَّ على يعقوب بصرُه ، وأخرج يوسفُ من الجب ، وأعطِيَ سليمان

(١) كتاب النوروز للدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد .

مُلكَه ، وأجيب زكريا حين استوهب يحي ، وهو يوم الزينة الذى غلب فيه موسى السحرة » .

ولا ريب أن هذه المزاعم لا تستند إلى أساس . ولكن الثابت المعتمد ما روى فى الأحاديث الصحيحة : أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة وجد يهودها يصومون عاشوراء فقال ما هذا ؟ قالوا : هذا يوم صالح . هذا يوم نجّى الله بنى إسرائيل من عدّوهم ، فصامه موسى .

فقال صلى الله عليه وسلم : « فأنا أحق بموسى منكم » فصامه .

أخرجه البخارى فى كتابى الصوم والأنبياء . كما أخرجه مسلم . وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه : أربعتُهم فى كتاب الصوم[١] .

ومن مظاهر المشاركة فى الأعياد ما نراه إلى اليوم من مشاركة المسلمين لإخوانهم المسيحيين فى الاحتفال بعيد مولد المسيح عليه السلام ، بل يكاد المترفون من المسلمين يسبقونهم فى ذلك .

ومن أعجب ما عثرت عليه فى كتاب التحف والهدايا للخالديين نص يدل على مشاركة المسلمين قديماً لإخوانهم المسيحيين فى الاحتفال بهذا العيد ، وهو ما كتب به الحسين بن الضحاك إلى أحمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون ، كتب إليه يستهديه شمعاً ليستصبح به ليلةَ هذا العيد ، كتب يقول :

وليلـــةُ ميـــلادِ عيسى المسيــ
ــحِ قــد طـــالبتْنى بميثاقهـــا
بهـــدْى قـــدورى عـــلى نارهـــا
وفاكهـــتى مِـــلء أطباقهـــا

(١) انظر الحديث وتخريجه فى الألف المختارة لكاتب هذا البحث - الحديث ٢٠٦

وبنت الدِّنان فقــــد أبــرزت
مــن الخــدر تُجْلَى لعشاقها

فكن مهدياً لى ، فدتك النفوس ،
فجــودك مُمســكُ أرماقِهـــا

نظائرَ صُفراً غــدت فتنـــــةً
بلطف أنامـــل حُذّاقهـــــــ

ومثــلَ الأفاعـــى إذا ألهبت
وللـــرُّوم زُرقـــةٌ أحداقهـــ

ولم أر من قبلهـــا أنفســـــاً
تذيب الْجســـومَ بإحراقهـــا

وإنْ مرِضت لم يكـــن بُرؤها
بشىء ســوى ضربِ أعناقهــــا

وأما بعد فعسى أن أكون قد أفصحت عن الفصح ، وأظهرت سماحة لغتنا الحبيبة حين يطرقها ضيفٌ نقىُّ الوجه سليم الإهاب . فتحتازه إلى ساحتها . وتضمُّه إلى عِترتها .

ونكـــرم جارنـــا ما دام فينــــــا
ونتبعــــه الكرامـــة حيث مـــالا

* * *

— ٩ —

الدعوة للصلاة .. فى أذان المؤذنين

كتاب مفتوح إلى وزير الأوقاف

السيد الجليل وزير الأوقاف المحترم :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته

وبعد . . فإنى أكتب إليك هذا إثر سماعى لأصوات جماعة من المؤذنين فى هدأة الفجر ، حاولت أن ألتقط صواب الآذان من بينهم فلم أحظ بطائل .

وجدتهم جميعاً يدعون إلى الصلاة فى صوت واضح ، ولحن غير مستساغ ، وقد ألفنا أن نسمع منهم هذا اللحن ، لايكاد يسلم منه واحد من صغار المؤذنين أو كبارهم . وهو لحن خفى يمر على الآذان مروراً خاطفاً ، بوضوح تارة ، وبخفاء فى أكثر الأمر .

وليس هذا من أخطائنا المحلية فحسب ، فإنى قد سمعته كما سمعه غيرى فى كثير من الأقطار الإسلامية التى زرتها .

إن العبارة الدينية التى يطلب بها الإقبال على الصلاة ، والتى هى لب الأذان هى عبارة : « حىَّ على الصلاة حىَّ على الصلاة، حىَّ على الفلاح حىَّ على الفلاح » وهذه العبارة ليست أمراً بإصدار التحية إلى الصلاة وإلى الفلاح كما يفهمها الجمهرة العظمى من الناس أو من المؤذنين ، فإن هذا فهم خاطىء لم يأت به كتاب أو سنة .

(*) نشرت بصحيفة الأخبار بتاريخ ١٩٨٧/١/٢ م

وأريد أن أوضح كما تعلم أن كلمة « حي » التي وردت مأثورة فى شعار الأذان إنما هى مفتوحة الياء المشددة كما تقضى به نصوص كتب الحديث الستة وغيرها ، وكتب اللغة جميعاً ولا سيما كتب لغة الحديث، بالإجماع .

وليست فعلاً من أفعال الأمر كما يتبادر لغير العارفين ، بل هى كما يقول اللغويون والنحاة اسم فعل أمر ، خاضعة للبناء على الفتح ، ومثلها فى ذلك مثل كلمة « هلمَّ » التى هى كذلك اسم فعل أمر خاضع للبناء على الفتح لا يجوز غيره .

وإذن فنطقها بكسر الياء كسراً ظاهراً أو كسراً خفياً ، كما هو المعهود والمسموع فى نطق المؤذنين ، يعد مخالفة شنيعة ، ولحنا غير مقبول لأنه يغير المقصود من معنى الكلمة التى إنما يراد بها الدعوة اللطيفة الفصيحة إلى الإقبال على أداء هذه الشعيرة الدينية ، وليست من قبيل طلب أداء التحية للصلاة أو للفلاح فى شىء .

قال ابن الأثير فى النهاية : « وفى حديث الأذان : حيَّ على الصلاة حيَّ على الفلاح ، أى هلموا إليها وأقبلوا وتعالوا مسرعين » .

ومثله فى سائر المعاجم .

لهذا أتوجه إليك مشاركاً لك فى وجوب إسداء النصح بصورة حازمة إلى السادة القائمين بشعيرة الأذان أن يتوخوا صواب اللغة وصواب الأداء ، بأن يظهروا فتحة الياء المشددة فى « حيَّ » إظهاراً صريحاً واضحاً ، جرياً على ما كان عليه السلف الصالح من الحرص على سلامة اللغة العربية ، لغة الكتاب » .

ولنا أمل أن يذاع هذا التنبيه إذاعة مكتوبة عامة شاملة .

وبحكم منصبكم الرسمى فى الوزارة نأمل كذلك أن تتكرموا بالاتصال بالسادة زملائكم فى جميع الأقطار الإسلامية ليقوموا بمثل ما ستقومون به خدمة خالصة للدين ، وللغة الكتاب الكريم .

والله يحفظكم ويكلؤكم بعنايته .

عبد السلام محمد هارون

الأمين العام لمجمع اللغة العربية

— ١٠ —

اللغة العربية

صراع للعجمة ـ وفوز فى المعركة(*)

إن التفاؤل الذى تسرى نشوته اليوم فى أنصار اللغة الفصيحة وحركات التطهير التى تنبعث من كل صوب ، تبغى القضاء على تلك الفوضى التى أصابت لغتنا الكريمة لمما يبشر بازدهار الفصحى وتفوقها على العامية .

لقد كنا لسنوات مضت يستحى منا المتكلم أن يدخل القاف العربية فى تضاعيف كلامه ، وهو إن تجاسر مرة ، وجهت إليه سهام السخرية ، ولكنه اليوم ينطق بها فخوراً ، وجرت القاف اليوم أيضاً على ألسنة الكريمات فزدها جمالاً ، واقترب حين القضاء على تلك العجمة الساخرة .

ومبلغ الظن أن لغة لم تصب بمثل ما منيت به اللغة العربية فى مصر ، من تطفل العناصر الغريبة عليها ، فتجد اللفظ التركى إلى المصرى واليونانى ، إلى الإيطالى والفرنسى والإنجليزى والفارسى والأسبانى والفينيقى ، وبعض اللهجات العربية الوضيعة .

ومرجع ذلك — فيما يظهر — إلى اضطراب حبل السياسة فى تلك العصور الغابرة ، وتواتر الغزوات والهجرات الطامعة فى خصب مصر ونعيمها .

وقد كان داء العجمة مستفحلاً فيما مضى ، إذ لم تكن هناك وسائل جدية لمقاومته ، فلم يكن له بد من أن يستطير وينشر ظله الثقيل فى كل مكان

(*) أول مقال منشور للمؤلف ، ظهر بصحيفة الأهرام بتاريخ ٢٢ من مايو سنة ١٩٣٥ ، أى منذ ٥٣ سنة . وهو يسجل ظاهرة تطور سريع فى لغة التخاطب المعتادة ، ولا سيما استعمال القاف ومعالجة كثير من الصحف للأخطاء الشائعة ، كما أن بالمقال تحية مبكرة لمجمع اللغة العربية فى بدء نشأته سنة ١٩٣٤ م .

يحل به ، وأضف إلى ذلك ما طبع عليه المصرى من كرم وتسامح ، ولين جانب ، أطمع فيه ضيفه فألقى بأحمال لغته فى تلك الساحة الكريمة ، ثم أبى أن يرحل بها !

أما الآن فهناك وسائل تتعاون جميعاً على تلك المقاومة ، وتبدو لنا فى تلك المدارس العامة المنتشرة فى أرجاء القطر . وهى لو جرت على النمط القويم فى معالجة ودائعها لنهض جيل يدور لسانه بلهجة طاهرة ، ومنطق سليم ، ولكن أمام المدرسة عقبات كأداء ، أهمها البيت .

فلغة البيت لها تأثيرها القوى فى أعصاب أطفالنا وفتياتنا ، والبيت هو المعهد الأول الذى يثقف فيه الصبى لغته وكلامه . لذلك كان من الواجب الوطنى والقومى أن نقضى على هذا المرض بأنفسنا فى بيوتنا ، وقد ذهب عصر الظلمة ، ونام أذناب العجمة العاجزون . ومما يؤذن بالنصر أن نرى البيت اليوم يطرح وراء جدرانه كثيراً من تلك الهمهمات المنقرضة ، ليفسح المجال لهذه اللغة الكريمة .

والصحف الذائعة مفخرة من مفاخر جيلنا ، ولها السلطان الأعظم على المتعلمين وتوجيههم نحو الفصحى ، بدعايتها المستمرة ، وقدوتها الصالحة ، وقد خصص بعض منها صفحات محترمة للانتقادات اللغوية ، وهى وإن سارت أحياناً إلى حد الإسراف ، فهى ذات أثر بين فى لغة الكاتبين . وقد كانت إلى عهد قريب تتسامح فى نشر الإعلانات باللغة العامية ، ولكنها اليوم قد أبعدت هذا التسامح ، وأبت عليها كرامتها ان تخط حرفاً عامياً إلا لضرورة قصوى . ومن دواعى الغبطة ان نشهد فلاحنا المصرى ذا الجلباب الأزرق ، قد ضم إليه صحيفة يومية أو مجلة مصورة ، وهو لا جرم ، يختلط لسانه بكلمة أو كلمات مما قرأ فينشرها بين عشيرته وذويه ، رسالة طاهرة مباركة .

ودور الخيالة والتمثيل سلاح ، ولكنه اليوم ذو حدين ، ونرجو فى

القريب أن يبقى على حد واحد يصرع تلك العجمة بما له من عظيم التأثير والمصريون من أصحاب تلك الدور لهم رقابة من أنفسهم على جهادهم الذى يكلل بالظفر . أما الأجانب فما على حكومتنا الرشيدة إلا أن تمدهم بتراجمة اختصاصيين يعملون على إبعاد تلك المزعجات ، من هذه الأساليب الهلهالة، والتعريب المضحاك المبكى ، فإن أعجزها ذلك فلا أقل من أن يكون انتخاب هؤلاء تحت إشرافها ورقابتها .

والمطابع وسيلة فعالة ، وإن ما تقوم به دار الكتب المصرية من إحياء الآثار العربية ، لمجهود مثمر ، لكنه تعوزه السرعة فى الإنتاج ، وذلك لا يكون إلا بكثرة الأشخاص العاملين ، والكفيل به أن تزيد وزارة التعليم فى مخصصات هذه الدار حتى تضطلع بمهمتها . أما أمر المطابع الأخرى فمن الخطل أن يسند أمرها إلى قوم لايعرفون الكتابة ، وهم إن عرفوها لم يتجاوز أحدهم بمعرفته أن يكتب سند التسلم والتسليم . ذلك شأن معظم أصحابها — وإن كان فيهم العالم الجليل ، والأديب الكبير ، والإمام الدينى — وفيه الضرر كل الضرر من تشويه معالم اللغة وتحريفها بحيث يخفى ذلك على الكثيرين .

فمن المستحسن إذن ألا تسمح الحكومة بإدارة مطبعة إلا لشخص حصل على ثقافة تؤهله لذلك . وكما تجتهد الحكومة فى محاربة المشعوذين والمحتالين يجب ألا تأذن بنشر تلك الكتب الوضيعة التى تفسد الخلق قبل أن تفسد اللغة ، وتلك النشرات التى تؤذى السمعة المصرية فى الخلق واللغة كذلك .

بقى أمران محدثان : أما أولهما فهو هذا (المذياع) الذى يطالعنا فى كل صباح ومساء بمحاولاته القيمة فى هذا الجهاد اللغوى ، وهو فتح جديد للغة الفصيحة وودنا لو عنى المحاضرون بفحص ألفاظهم وأساليبهم ، فحصاً دقيقاً قبل إلقائها ، فإن من المؤسف حقاً أن نصغى إلى كاتب من أكبر كتابنا ، أو أديب من أشهر أدبائنا فنرى الأخطاء تشيع فى كلامه . وهو هو القدوة المتبوع !

ومن الأمور الواجبة أن تؤلف لجنة فنية دائمة بمحطة الإذاعة ، تكون مهمتها الإشراف على لغة المحاضرات . أما مندوبو الحكومة فمن اليسير أن تختبر محاضراتهم فى إدارة المطبوعات ،وبها من جمهرة الأدباء من لا يستهان بشأنهم . وأما المذيعون بالمحطة وهم من صفوة الشبان ، فإنه لا يرضيهم أن يقال عنهم أنهم يخطئون فى الكلام المعتاد .

أما الأمر الثانى فهو ذلك الاتحاد الشرقى ، المتمثل فى المجمع اللغوى الملكى ، وهو سيف العربية القاطع فى تلك المعمعة ، وقائدها البصير ، وهذه تباشير فجره يهلل لها أنصار الفصيحة ، لكن دعايته إلى الآن لم تتجاوز إصدار الجزء الأول من مجلته ، ولم يعرفها إلا خاصة الخاصة وذلك لعسر طريقة الحصول عليها ، وأجدر بمجتمعنا أن يعمل على تذليل تلك العقبة . وفى اليقين أن هذه الدورة الثانية ستنتج إنتاجاً فعلياً له ما بعده ، وإن المجمع سوف لا يدع وسيلة من طرق الدعاية إلا تعلق بها .

هذه هى وسائل مقاومة العجمة ، التى تحد من أفكار الكثير من كتابنا ، وتذهب بمجهود أساتذة اللغة العربية أدراج الرياح . وإن يوم اليوم النصر لتخفق أعلامه الساعة فوق ربى النيل والفرات وبردى، وسائر الأقطار العربية الشقيقة

عبد السلام محمد هارون
المدرس
المتخرج فى دار العلوم

— ١١ —

حول التيسير(*)

حقاً إن دراسة النحو العربى دراسة صعبة ، كما أن من الحق أن دراسة قواعد كل لغة عالية أمر صعب عسير المنال ، وليس الذنب ذنب هذه القواعد ، وإنما هو علو اللغة وضخامة شأنها واتساع مراميها وتشعب أساليبها .

لكن أقول : هل انفرد النحو العربى من بين العلوم التى نقدمها إلى أبنائنا فى التعليم العام بهذه الصعوبة ؟ وألم يوجد له نظير أو مثيل يتسم بمثل هذه الصعوبة ؟ !

الذى نعلمه حق العلم ويشهد به الحق ، أن هناك علوماً أخرى مما نقدمه إلى التلميذ ، تفوق النحو فى جفائها وقسوتها . ومع ذلك لسنا نسمع من ينادى بتغيرها ، ويملأ الدنيا صياحاً وضجيجاً بضرورة هدم قواعدها ، أو تبديلها ، أو مسخها .

إليكم مثلاً دروس الحساب ، التى يتلقاها الناشىء الصغير فى غضاضة ومرارة لا نجد لهما مثيلاً . ومسائل الحساب المعقدة التى ليس لها ضابط معين فى حلها وفك رموزها التى تعصف بوقت التلميذ ، وتقتضيه زماناً هو أبعد مدى وأطول أمداً من تلك السويعات التى يقضيها التلميذ فى دراسة النحو ، وتستنزف صبره إن لم تستنزف دمه .

واللغات الأجنبية التى تستعصى على الجمهور الأعظم من أبنائنا ، وكثير غيرها من العلوم التى نلقنها أبناءنا ، نلمح فيها كذلك صعوبة . وما أنشئت هذه المدارس وشيدت هذه المعاهد إلا لتعالج مشاكل التعليم ، وتعاون

---

(١) نشرت فى مجلة البيان الكويتية فى عدد أكتوبر ١٩٦٧م

التلميذ فى التغلب على تلك المشاق ، وتذلل أمامه السبيل ليخطو بين صعابها فى كفاح مشترك بينه وبين أستاذه .

كل هذا يحملنا على التساؤل عن تهمة هذا القدر اليسير من النحو ، الذى يتلقاه تلاميذنا فى التعليم العام ، كيف لصقت به هذه التهمة دون غيره ، وكيف صور فى هذه الصورة البغيضة التى تعقد لها المؤتمرات تلو المؤتمرات .

إنها عقدة الأجيال الاستعمارية البائدة ، عقدة رجال العهد البائد ، عقدة الدم التركى والأجنبى ، الذى حاول أن يقضى على النحو تحت ستار الإصلاح ، بل حاول أن يقضى على اللغة الفصيحة ، بل حاول أن يقضى على الكتابة العربية بإحلال الكتابة اللاتينية ، وألح فى ذلك إلحاحاً ، وطال به العهد فلم ينل من ذلك منالاً وخاب مسعاه وخسرت صفقته . ونسينا نحن لطول العهد هذا المحرك الأول لهذه الحملة الظالمة التى أدركنا طرفاً من زمانها ، قضيناه فى ألم الخائف ، وخوف الشفيق ، حتى ذهب عهده وولى إلى غير رجعة .

ولقد كان المخلصون من أبناء هذا البلد يداورون تلك الرغبات الخفية ، ويقدمون من عصـ ـة أنفسهم وذوب عقولهم ما يلهـون به ذلك السلطان الغاشم ، ووجدنا فى المغفور له الأستاذ على الجارم مظهراً من مظاهر الإخلاص العميق لهذا النحو ، ومحاولة تيسيره فى منهج مرتضى ، وصورة من صور الوفاء لهذه البلاغة العربية ومحاولة تيسيرها فى أسلوب واضح .

ولكن كما قلت ، نسى الناس ذلك المحرك الأول وارتابوا فى أنفسهم وفى مقومات قوميتهم ، ووجدت تلك الصيحات البعيدة من يستجيب لها بعض الاستجابة ، واختلطت رغبة الإصلاح بتلك الرغبات القديمة ، حتى صار من العسير تخليص هذه من تلك ، وظن بعض الناس أن كل لمعة من لمعات التغيير والتبديل إنما هى إصلاح وتجديد .

وفى خلال هذه السنين الماضية صدرت قرارات فى سنة ١٩٤٥ رضى عنها السلطان ، تنحو بهذا النحو وجهة رآها الناس فى حينها متطرفة ، ولذلك لم تلبث أن وئدت فى مهدها ، ولم يجرؤ أحد على تنفيذها ، لأن التيار العلمى العام وسلطان التيار العلمى العام أقوى من أن تصده تيارات خاصة مهما بلغت هذه التيارات من القوة والسلطان .

هذه كانت كلمة السلطان فيما مضى ، وتلك كانت طريقة إرضائه فيما سلف من الزمان ، فمن أحدث حدثاً جديداً رضى السلطان عنه ورضوا عنه ، وعد نابغة من نوابغ هذا الدهر .

ولكن كلمة السلطان فى عهدنا هذا قد أساء فهمها قوم وظنوا أنه يرضيه ما كان يرضى سلطان العهد البائد ، وفاتهم أن سلطاننا اليوم عاقل مخلص لا يفرط فى حقوق قوميته ولا فى حقوق تراثه ، فلم يقل السلطان للعلماء إنه يسر بمسخ هذا التراث ، بل نادى السلطان بضرورة المحافظة على التراث الفكرى الإسلامى ، وتولت الدولة فى رغبة صادقة ونشاط واسع إحياء هذا التراث والمحافظة عليه ، بل تولت إحياء ذكرى علماء هذا التراث ، واعترفت لهم بفضلهم ونبوغهم ، لأن دولتنا هذه دولة عاقلة .

فليس معنى تيسير النحو فيما رأى السلطان أن نقضى على قواعده الأساسية . وعلى اصطلاحات جمهور النحاة التى تشربتها الأجيال وسرت فى العروق والدماء ، أعنى عروق التراث الإسلامى ودماء الثقافة العربية ، فالترابط وثيق شديد الصلة بين علم النحو ، والبلاغة ، والتفسير ، والحديث ، والفقه الإسلامى ، ونصوص الأدب العربى ، جاهلية وإسلامية ، وبين كثير غيرها من فروع الثقافة الإسلامية . فكيف نصل التلميذ الذى ربى ونشأ فى ظل هذا النحو الذى غيرت فيه المصطلحات ، وبدلت فيه الأصول المعترف بها ، كيف نصل هذا التلميذ بهذا التراث القديم إن شاء أن يتصل به ؟ ! إن لهذا التلميذ الحق كل الحق أن يتصل بهذا التراث ، فكيف نحرمه من هذه

الحرية العلمية ، وبأى سلطان نحرمه من حرية مزاولته لهذه العلوم القديمة التى وضعت كلها فى ظلال موحدة ، وفى جو مترابط متآزر ؟ ! كيف يفهم هذا الطالب علوم آبائه وقد حرمناه من المبادىء الأولية التى تقوده إلى هذا الفهم وتنير أمامه السبيل إلى تلك الكنوز الفكرية الغالية ؟ ! إن مدرسة المستشرقين إنما قامت على هذا النحو الأصيل ، وإن من المؤسف أن نجد المستشرقين قد سبقونا إلى رعاية علومنا وتقديرها ، وأن نلفيهم قد تقدّمونا بعشرات السنين ، وظهرت عيونهم على أمهات كتب النحو قبل أن تظهر عليها عيوننا . فكتاب سيبويه سبق إلى نشره المستشرق « ديرنبرج » مع تعليقات ومقدمة باللغة الفرنسية فى باريس سنة ١٨٨١م أى منذ ثمانين سنة على حين كانت طبعته المصرية سنة ١٩٠٠م أى منذ ستين سنة .

وشرح المفصل لابن يعيش نشره المستشرق « ياهن » فى ليبسك سنة ١٨٧٦م أى منذ ٨٤ سنة ، ولم تره المطبعة العربية إلا منذ ٣٠ سنة[١] .

ومن قبل ذلك . وفى العصور الإسلامية الأولى تسابق الموالى والأعاجم إلى تعلم النحو وتعليمه والتأليف فيه ، وتسابقوا كذلك إلى صونه وحفظه والغيرة عليه .

وها نحن أولاء لا نرى اليوم بأساً أن نباعد ما بين أبنائنا وبين هذا النحو الأصيل فنجعل فوق عيونهم غشاوة تحول بينهم وبين إبصاره ؛ ونحن فيما بين ذلك نتناسى حق عروبتنا وقوميتنا وتراثنا اللامع الضليع .

ماذا يفعل الطالب إذا أراد أن يتصل بهذا النحو الأصيل ، هل يمسك بإحدى يديه مسنداً وبالأخرى مسنداً إليه ليبحث عن الفاعل ونائبه ، ويتلمس أضواء التعرف على المبتدأ والخبر ، واسم كان وخبرها واسم إن

(١) مضت عشرون سنة أخرى بعد كتابتى لما تقدم

وخبرها . ثم تريه الكتبُ القديمة الضمير في زيد قام واضحاً مطرداً على حين قد نهاه أستاذه في دنيا التيسير أن يتلمس هذا الضمير أو يلقى إليه البال .

وهذا الطالب الذى استكمل التعليم العام ، ماذا يكون موقفه إزاء الدراسة الجامعية المتخصصة . كليات الآداب بالجامعات وكلية دار العلوم والمعاهد العليا ، كيف يواجه الطالب ما فيها من دراسة مباينة تمام المباينة لما درسه فى التعليم العام ، دراسة يتلقاها على أيدى أساتذة لا يعترفون بهذا التبديل ، وفى مراجع قد وضعت فيها المصطلحات النحوية وضعاً متعارفاً عليه ولا سبيل إلى محوه وإزالته .

قد يقال إن على الجامعة وأشباه الجامعة أن تدرس منهجين متوازيين : أحدهما المنهج الأصيل الذى تقوم عليه دراستها ناقدة ودارسة وباحثة ، والآخر هذا المنهج المبدل المشيأ . وهذا أمر مغرق فى الخيال . فإنه يجب على الجامعة أولاً أن تؤمن بصحة ما تكلفه لأن الجامعة لا تساق ، وهى إن فرضنا إيمانها به أو بأشباهه لن تجد من الوقت ما يمكنها من تنفيذ الدراستين ، لأن الوقت الذى انتزعته الجامعة إلى الآن لدراسة النحو لايكفى لتحقيق منهج واحد بل ربع منهج واحد على وجه الصحة . لضيق الوقت ولقلة الأساتذة المختصين ، فكيف تكلف الجامعة دراسة إضافية تتولى فيها ترجمة المصطلحات وإعادة الأوضاع إلى نصابها .

ثم متى يدرس هذا المنهج الجديد لطالب الجامعة وهو مكلف منذ اللحظة الأولى أن يدرس الكتب الأصيلة والنصوص العربية ، ويتولاها بالتحليل الأسلوبى على ضوء المصطلحات المتعارف عليها من قديم ، إلا أن يقال له : أمهلنا سنة أو سنتين حتى نصحح لك أوضاع النحو التى عرفتها من قبل وتعلم أن المسند هو الذى يقال له فاعل ويقال له اسم كان أيضاً وحيناً يقال له اسم إن ثم يقلب له نحو نصف أوضاع النحو رأساً على عقب .

ثم إن أمر متابعة الدراسة ليس مقصوراً على الجامعة وأشباهها . فقد

يريد بعض الدارسين أن يتابعوا دراستهم من تلقاء أنفسهم ، أو يستفتوا كتب النحو الأصيلة فى مشاكل التعبير ، أو يرجعوا إلى كتب التفسير أو الحديث ، ليشبعوا رغبتهم العلمية ، فكيف يتسنّى لهم ذلك وقد نشّأناهم تنشئة لاتمكنهم من الاتصال بهذا التراث الغنى .

الحق أن تغيير المصطلحات النحوية مهما تكن نية الداعين إليه مما يعد جناية على علم أصيل يتّسم بسمة دينية واضحة ، فإن من أهم الأغراض التى دعت إلى وضع هذا العلم ثم التبحر فيه وتشقيقه ، فهمَ كتاب الله وفهم حديث رسول الله ، واستنباط الأحكام الشرعية من كل منهما . فهو الوسيلة الأولى إلى فهمهما وإدراك أحكامهما . فالنحو يهم أمره كلَّ مسلم بل كلَّ عربى ، وليست المحافظة عليه إلاّ محافظة على أصول إسلامية وتراث إسلامى لا نظن أننا نستطيع التفريط فيهما أو نستطيع إغفالهما ، لأننا لانزال بحمد الله أمة مسلمة .

والحق أن القول بتبديل الاصطلاحات قول خطير . وبطلانه من الوضوح بمكان ، إلا أن يكابر مكابر ، أو يعاند معاند .

إننا نرحب بالتيسير المتّزن ، ونرحب بالإصلاح المعقول وندعو إلى كل منهما ، لكن من الظلم البين أن نسمى هذا الضرب من التبديل الذى رأيناه فى هذا النحو الجديد تيسيراً . لقد سيق إليه الطلابُ سَوقاً ، ودُفِعَ إليه الأساتذة والمدرسون دفعاً ، وأنت حين تسأل المدرسين خارج حجرات الدرس عن رأيهم فى هذا الذى سمى تيسيراً ، تراهم كارهين له ساخطين عليه ، بل إن الذى أعلمه يقيناً ويعلمه الناس يقيناً أن كثيراً منهم يلجأ إلى الطريقة السرية فى التعليم ، ليزاوج بين ما يرضى عنه ضميره العلمى وما تقتضيه الأمانة للأجيال الصاعدة ، وبين ما تحتمه عليه ما ينوء تحته من السلطان الوظيفى . وأجاهر فأقول : إن النحو الأصيل لا يزال يدرس حتى الآن وسيدرس بعد الآن على وجهه الذى ارتضاه العلماء ، وعلى الاصطلاح

الذى درجوا عليه، ولكنه يدرس الآن فى مصر فى الخفاء وعلى طريقة التهريب العلمى . .

وأنت تسأل الآباء وأولياء أمور التلاميذ عن رأيهم فى هذا الضرب من التيسير وهم ألصق الناس بأبنائهم وأعرفهم بما يعانون من اضطراب فى دراستهم لهذا النحو ، فترى منهم السخط الشديد والكراهية الصارمة .

وتسأل التلميذ فتراه فى حيرة المضطرب وجمجمة الجاهل الشديد الجهل بما يلقى عليه من قول غامض .

لقد أخفقت ناحية التيسير هذه فى زاوية المسند والمسند إليه إخفاقاً رائعاً ، وأفسدت بذلك جمهور النحو الذى يدرس فى المدارس اليوم .

إننا لا نفهم تيسير الصعب بالأصعب منه ، ولم يقل أحد فى قديم الزمان أو حديثه : إن اصطلاح المسند والمسند إليه مما يعيه عقل الصغير . لقد كنا كباراً فى معهد دار العلوم ، وكنا نجد شيئاً من العنت فى فهم المسند والمسند إليه وتبادرهما إلى الذهن ، وكنا نفكر شيئاً من التفكير حتى لا نخطئ فى الإجابة عن تعيينهما ، وكنا من قبل فى المدارس الأولية القديمة نفهم لأول وهلة الفاعل والمفعول من الدرس الأول .

ثم ما الحكمة فى أن نجمع أبواباً شتى من أبواب النحو لكل منها فى النحو الأصيل حكم خاص واضح كالفاعل ونائبه والمبتدأ وخبره ونسميها كلها باسم واحد ثم نعطى لهذا الاسم الواحد أحكاماً مختلفة يحار فيها التلميذ .

المسند يكون أحياناً مرفوعاً ويكون أحياناً منصوباً ، ويكون مرة فعلا ومرة اسماً وأخرى ظرفاً ، ويكون مرة جاراً ومجروراً . والمسند إليه يكون أحياناً مرفوعاً وأخرى منصوباً . فالتلميذ إن عرف المسند حار فى حكمه ، وإن وجد الحكم حار فى تمييز المسند من المسند إليه . وإن عرف السند إليه حار فى حكمه ، وإن عرف الحكم حار فى تمييز المسند من المسند إليه .

فأى خدمة قدمها هذا التيسير إلى هذا الصغير بإحلال هذا الاصطلاح المعقّد محل الاصطلاح السهل اللين .

لقد أخفقت ناحية التيسير كذلك فى موقفها من الضمائر المستترة ، لإخلالها بموازين النحو وطرق ضبطه ، وسوق قواعده المنضبطة المتساوقة التى تقول بأن لكل فعل فاعلاً ولكل مبتدأ خبراً ، ولكل موصول عائداً . وهى قواعد من اليسر والانضباط فى مكان مكين .

وأخفقت كذلك فى موقفها من الضمائر المتصلة وجعلها علامة لنوع المسند إليه . للأسباب التى ذكرتها من قبل .

وأما المكملات فهى إضافة عبء إلى عبء . فبدل أن يقال للتلميذ : هذا مفعول به ، قيل له : هذه تكملة بالمفعول به . وهكذا يساق القول فى سائر ما يسمى بالمكملات . ولم يرض التيسير باصطلاح المفعول المطلق ، أعنى بهاتين الكلمتين السهلتين فقال : تكملة لتوكيد الفعل مع أنها تأتى أحياناً لتوكيد الوصف من اسم الفاعل والمفعول ، وحينما طبق فى الكتاب الذى اعتمدته وزارة التربية أدخل فيه ما هو مبين للنوع .

ولم يعجب التيسير اصطلاح المفعول لأجله فرأى أن تكون تكملة لبيان السبب ، فأحل ثلاث كلمات محل كلمتين .

وأما الظرف فهو تكملة بالزمان والمكان ، والحال تكملة بالحال

ومن المؤسف حقاً أننا حين نطالع منهج اللغة العربية للمرحلة الإعدادية فى ص ٥٢ نجد هذين العنوانين :

(أ) الأسس العامة . (ب) أسس تيسير المنهج فى مصر .

ما هذا ؟ أيكون لمصر نحو خاص ولسوريا نحو خاص ؟ ! وما هى

الضرورة العقلية أو الاجتماعية التى تدفعنا هذا الدفع وتلح علينا هذا الإلحاح حتى نفصل هذا الفصل الثقافى بين بلاد شعب واحد وأمة متحدة ؟ !

نحن لا نشك فى أن واضعى هذا المنهج رجال فاضلون مخلصون للغتهم ولقوميتهم ولكن التوفيق والسداد كثيراً ما يجانب المخلص ، فقد تخشى الأم الرءوم على ولدها لتنحيه عن خطر الرمضاء فتوقعه بيدها فى خطر النار .

سبق فى التاريخ رجال فضلاء مخلصون أيضاً ، ولكن صحبهم كثير من التوفيق والسداد . وإن من درسوا النحو على كتب المغفور له حفنى ناصف طيب الله ثراه ، والمغفور له الأستاذ على الجارم أكرم الله مثواه ، لا يزالون يذكرون لهما فضلهما فى خدمة النحو العربى وتيسيره وإساغته للدارسين . لقد كنا طلبة فى هذه الدار : دار العلوم ، وكنا نعول أكثر ما نعول على هذين الكتابين النافعين . وأنا أعرف أن كثيراً من الدارسين لا يزالون يعتزون بهذين الكتابين اعتزازاً ويتخذونهما مرجعاً ميسراً .

إننا ننادى بتيسير النحو ، وبتيسير غير النحو ، بل بتيسير كل صعب فى هذا الوجود . ولكنا لا نغفر أن تمس أصول العربية استناداً إلى آراء بعض شذاذ النحويين ، وارتكاناً إلى آراء فردية لا تمت إلى مدارس ذات قدر موزون .

إن ابن مضاء الذى اتخذ إماماً فى هذا التيسير رجل لا يكاد يعى ما يقوله فى النحو . ونحن نقرأ كلامه حين يشن هجوماً عنيفاً على نظرية العامل ويتخيل أمامه ميدان حرب يصول فيه ويجول ليقضى على كلمة النحويين : إن العامل يعمل فى المعمول ، فنرى قولا متهالكاً . فأى فكاهة هذه التى نستخرجها من هذا الهجوم الذى يقول فيه :

« وأما القول بأن الألفاظ يحدث بعضها بعضاً فباطل عقلاً وشرعاً لا يقول به أحد من العقلاء لمعان يطول ذكرها فيما المقصد إيجازه . منها أن

شرط الفاعل أن يكون موجوداً حينما يفعل فعله ، ولا يحدث الإعراب فيما يحدث فيه إلا بعد عدم العامل ، فلا يُنصب زيد بعد إنّ في قولنا : إن زيداً إلا بعد إنّ .

فإن قيل : بم يردّ على من يعتقد أن معانى هذه الألفاظ هى العاملة ؟ قيل : الفاعل عند القائلين به إما أن يعمل بإرادة كالحيوان ، وإما أن يفعل بالطبع كما تحرق النار ويُبرد الماء ، ولا فاعل إلا الله عند أهل الحق . وفعل الإنسان وسائر الحيوان فعل الله تعالى ، كذلك الماء والنار وسائر ما يعمل . وقد تبين هذا فى موضعه — يعنى كتب الكلام — وأما العوامل النحوية فلم يقل بعملها عاقل لا ألفاظها ولا معانيها لأنها لا تفعل بإرادة ولا طبع » .

وهكذا نمط كلامه فى زوايا كتابه العجيب . أفنجعل من يفكر بهذه العقلية المنحرفة إماماً لنا فيما نحن بسبيله من تيسير .

إن مذهب ابن مضاء الظاهرى وعقيدته الدينية الخاصة أفسدت عليه تفكيره فى تعبير مجازى استعمله النحاة ليدلوا على أن العوامل دلائل تعيننا على ضبط ما يأتى بعدها أو قبلها من معمولات . لكنه خلّط وأخرج دينه وعقيدته الخاصة ليستخدمهما فى مهاجمة النحويين فى أقوى معاقلهم فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل !

فى استطاعة التيسير الصالح أن يقدم هذا النحو فى ثوب جديد من حسن الأداء ، أو فى ترتيب بديع من نظام العلم وأسلوب عصرى ملائم ، وأن يجارى المناهج الحديثة التربوية ويسير معها محتفظاً بأصوله وعناصره فلننظر :

أولاً : فى المناهج ، ومدى ما يؤخذ أو يترك ، وما يقدم وما يؤخر .

وثانياً : فى الطريقة ، على هدى الطرق التربوية الحديثة .

وثالثاً : فى الساعات المقررة لدراسة هذه المادة المظلومة فى جميع مدارس الوزارة ومعاهدها .

فالمشكلة الرئيسية أمامنا هي مشكلة المنهج لا مشكلة المصطلحات . إننا ننظر إلى هذه المناهج في التعليم الابتدائي والإعدادي فنرى أموراً جديرة بأن تدرس على ضوء النحو الأصيل ، ويعاد اختيارها وتوزيعها على مختلف سني الدراسة الابتدائية والإعدادية بوساطة لجنة تؤلف من رجال الهيئات العلمية الرسمية المسؤولة عن تعليم النحو في إقليمي الجمهورية .

وننظر إلى منهج التعليم الثانوي فنرى أمراً يدعو إلى الرثاء حقاً ، فإن من المؤلم أن يجرد هذا التعليم من دراسة النحو تجريداً ، فلا يدرس إلا في سنة واحدة ، دراسة هزيلة قوامها بابان من أبواب الصرف هما التصغير والنسب . أما السنتان الباقيتان من التعليم الثانوي فيسدل فيهما الستار على هذا العلم ، لأن الطالب زعموا قد وعاه واستوفاه .

إن هذه السنوات الثلاث هي الفرصة السانحة الملائمة للطالب العربي أن يتقن لغة بلاده ويتعرف قواعدها ، وفيها يُعدّ ويهيّأ لدخول الجامعة وكلياتها النظرية والعلمية . فليسلح بسلاح اللغة التي يتمكن بها من مواجهة دراسته في ثقة وطمأنينة . ويستطيع الطالب في هذه السنوات الثلاث أن يعيد دراسة النحو ويستكمل ما فاته من أبواب النحو والصرف المناسبة ، حتى إذا أتيحت له في الجامعة دراسة متخصصة في العربية وجد لها جذراً في دراسته ، وأساساً صالحاً يبنى عليه تعليمه . وإذا لم يتجه جهة التخصص العربي أسعده الحظ بأنه قد نال قسطاً اوفياً من لغة بلاده يهيئه لمزاولة أي عمل يزاوله بعد تخرجه ، في قوة وسلامة . فنحن في هذا العصر الحاضر الذي استكملنا فيه مقومات قوميتنا محتاجون إلى مضاعفة الجهد في تعلم لغته القومية ، وأن يحذقها أبناؤنا ليواجهوا ما يطوّقون به من مختلف الأعمال ومتنوع النشاط . لا يصح أن نخفف العبء اللغوي عن تلميذ اليوم إن كان قد صحّ في الماضي المتهافت أن نخففه . فإن العلوم اللغوية — وفي مقدمتها النحو — هي الأساس الأوّل للتعليم القومي .

إننا نستنجد بوزير التربية أن يسمع صيحتنا هذه ولا يسمع لصيحة غيرها فيعطى لعلوم اللغة القومية كل ما تحتاج إليه من زمن فى هذا التعليم الثانوى ، وأن يقضى على تلك التيارات الخبيثة التى قصد بها تهوين شأن معلم اللغة العربية قبل أن يقصد بها الخير الخالص .

إننا ننادى بتوسيع نطاق الدراسة اللغوية لا باختزاله ، وننادى بتيسير هذه الدراسة على الوجه المرتضى ، أعنى تيسير الطريقة وتيسير أدائها : تيسير الطريقة بإتقان التعليم ودقة الإشراف عليه ، وتيسير الأداء بزيادة الساعات المقررة لدراسة اللغة القومية . كما نرجو أن نكف عن الدعاوة التى تجعل من مادة النحو شبحاً مخيفاً . وفق الله القائمين على أمور التعليم فى بلادنا العربية إلى ما فيه الخير والصلاح .

عبد السلام محمد هارون

رئيس قسم الدراسات النحوية بكلية العلوم
جامعة القاهرة
ورئيس قسم اللغة العربية بجامعة الكويت

- ١٢ -

علاقة الاسلام باللغة العربية(*)

إجابة على استفتاء المكتب الدائم للتعريب بالرباط

لا ريب أن الإسلام – الذى نزل كتابه باللغة العربية ، ونطقت سنته باللغة العربية ، وانطلقت ألسنة صحابة رسوله بهذه اللغة ، وهى كلها فى مجموعها من أصول التشريع الإسلامى – لا ريب أنه كان العامل الأول فى انتشار اللغة العربية على نطاق واسع سريع فى أنحاء المعمورة قديماً وأنه لولا النكسات السياسية التى صنعتها الغارات التترية ، والنكسات الاجتماعية التى ساقتها التيارات الشعوبية ، لغطّت هذه اللغة مساحة تفوق المساحة التى استقرت فيها الآن .

واللغة العربية قبل القرآن والسنة لم تكن تدور إلا فى نطاق محدود بين العراق والحجاز شرقاً وغرباً ، وتخوم الروم وبلاد اليمن شمالا وجنوباً ، فإن تنقل العرب كان محدوداً بهذه الجزيرة العربية ، ولم يكن لها أثر يذكر فى البلاد المجاورة كالفرس والروم والأحباش . ولكن الوثبة الإسلامية ساقت هذه اللغة إلى بلاد الصين شرقاً ، والمحيط الأطلسى غرباً فى مدة لا تتجاوز القرن الأول الهجرى بمقتضى الفتوح والدعوة الإسلامية ، وهو انتشار قوى فى سرعته ، لم يعهد له نظير فى أى لغة أخرى .

وإذا أضفنا إلى الفتوح والدعوة الإسلامية ظاهرة التأليف باللغة العربية التى بدأت فى أول أمرها لتخدم القرآن الكريم والسنة النبوية ، فى سرعة مذهلة ، بأقلام المسلمين من العرب والأعاجم ، ثم تطورت إلى خدمة العلوم الكونية التى يحثّ الدين على تحصيلها ، بمقتضى الأمر الدينى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ؛ وإلى خدمة العلوم السياسية والتنظيمية والتاريخية التى

(*) نشر فى مجلة البيان الكويتية بالعدد ٤٨ بتاريخ يوليو سنة ١٩٦٨م

اقتضتها سياسة الحكم الإسلامى لتنظيم الإدارة وجباية الخراج ، وما استتبع ذلك من التأليف فى علوم الجغرافيا وتاريخ الشعوب التى أظلها الإسلام أقول : إن ظاهرة التأليف باللغة العربية التى يستطيع المطلع على كتب التصانيف ، مثل كتاب كشف الظنون لملا كاتب جلبى ، أن يدرك أنها جاوزت فى العدد مئات من فروع العلوم المختلفة ، تبارت فيها أقلام العرب والأعاجم ، وكانت عاملاً قوياً فى انتشار هذه اللغة الكريمة . ويكفى أن نذكر أن صاحب أول كتاب فى النحو العربى رجل أعجمى هو سيبويه . ولا ريب أنه لم يتوجه إلى ذلك إلا بالدافع الدينى الذى ساقه إلى خدمة القرآن والحديث. وكذلك نلمح هذا الدافع فى الكثرة الأعجمية من رجال الحديث ، والفقه الإسلامى والتفسير وعلوم العربية .

ولقد بلغ من السلطان الدينى للإسلام أن استطاع أن يمحو اللغة القبطية فى مصر ، التى كانت تطوراً من اللغة المصرية القديمة الحضارة ، فى زمن وجيز ، وأن يقضى كذلك على لغة القرطاجنيين وغيرهم فى شمالى إفريقية ، وعلى لغة النبط فى شمالى العراق ، وأن يقلص ظل اللغة الرومية من الأطراف الشمالية لبلاد الشام ، كما استطاع أن يغير وجه اللغة الفارسية بمنحها أكثر من ٣٠ ٪ من ألفاظها ، وكذلك أمكن هذا السلطان أن يترك فى جنوبى إيطاليا وصقلية وفى تركيا وأسبانيا وجنوب فرنسا أثراً ظاهراً دامغاً تتفاوت درجاته فى القلة والكثرة .

ولم تستطع أى لغة أخرى أن تترك أثراً ملموساً فى اللغة العربية الفصيحة التى حرصت على نقائها وصفائها ، ولا أثراً واضحاً فى لهجاتها العامية التى هى بطبيعتها أشد استجابة للغات الدخيلة .

أما القول بأن اللغة العربية كانت سبباً فى انتشار الإسلام فقول يحيطه التحفظ ، فالإسلام إنما انتشر بمبادئه وأصوله الفطرية السليمة . يدل على ذلك هذه الملايين المسلمة التى لا تعرف من العربية قليلاً ولا كثيراً ،

وهذه الآلاف التى تعتنق الدين الإسلامى من الأوروبيين والأمريكيين والأفريقيين والآسيويين لا عن وراثة ورثوها ، ولا عن أمة وجدوا عليها أباءهم ، بل بالقراءة والتدبر فى لغاتهم الأجنبية التى يطلعون بها على مبادىء هذا الدين الحنيف . على حين لا نجد هذه الأعداد فى المعاصرين من معتنقى الديانات الأخرى إلا بالإرغام السياسى أو التبشيرى المتطرف .

ومن الحق أيضاً أن أقول : إن اللغة العربية كانت سبباً فى انتشار الإسلام بين من كانوا يتكلمون باللغة العربية فى شبه جزيرة العرب ، ثم من جاء بعدهم من الأجيال التى درست العربية أو صارت العربية لغتها . ذلك أن إعجاز القرآن ، وهو مظهر التحدى الصريح الذى نطق به القرآن فى قوله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ كان هذا الإعجاز حقيقة واقعة ألجمت العرب أنفسهم ، وجعلتهم يدركون منطقياً أن مستوى بيان هذا الكتاب فوق مستوى البشر . ويسجل التاريخ عدة محاولات حاول أصحابها أن يباروا هذا القرآن أو أن ينسجوا على منواله ، فباؤوا بفشل واضح ، وكان هذا بمثابة الدليل القاطع على أنه كتاب سماوى يحق على البشر أن يدينوا بدينه ، وأن يؤمنوا به وبمن أنزل عليه .

ومن هنا نستطيع أن نقول : إن اللغة العربية من الأسباب الجوهرية لانتشار الإسلام بين من يتكلمون العربية أو يتعلمونها ، وليست هى كل الأسباب التى انتشر بها الإسلام .

وأما ارتباط الوعى الإسلامى والوازع الدينى بما يعترى لغة الضاد من قوة وضعف فيمكن الإجابة عليه مما سبق من القول ، وهو أن الإسلام ليس لغة وألفاظاً ، وإنما هو مبادئ ومثل عليا للبشرية جمعاء يستطيع المتدين أن يتمثلها فى أى لغة . وفى أية ألفاظ كانت ، ما دامت تعبر عن تلك المبادئ وتصور هاتيك المثل .

وهناك أمم إسلامية معاصرة لا تتكلم بالعربية ولا تفهم دين الإسلام بلغة العرب ، وإنما تستمد وعيها الإسلامى ووازعها الدينى من قبل لغاتها نفسها ، وفيها أئمة للدين يتعلمونه ويعلمونه بلغتهم كما هو الحال فى أندونيسيا والملايو والباكستان حيث ترجم عدد كبير من أمهات الكتب الدينية إلى تلك اللغات ، وألفت كذلك الكتب فى مختلف مراحل الثقافة الدينية بين صغار المتعلمين وكبارهم ، وقامت إلى جوار ذلك معاهد دينية وكليات إسلامية يدرس فيها الدين باللغات المحلية . ولكنا نستطيع أن نقول من زاوية أخرى : إن الوعى الإسلامى الكامل ، أى الإدراك السليم لمفاهيم الإسلام ، لا يتأتى إلا بفقه لغة الكتاب وفهمهما ، وذلك الفقه والفهم إنما يتسنى على وجهه الصحيح لمن كان له حظ فهم اللغة العربية نفسها ، وذلك لما يتطلبه النص العربى ولا سيما الدينى منه . من إحساس لغوى خاص . ومن دقة فى إدراك مرامى الأساليب العربية .

وأما الوازع الدينى فإنه لا يواكب اللغة العربية تلك المواكبة التى يجرى عليها الوعى الإسلامى فإنما يحكم هذا الوازع البيئة التى يعيش فيها المسلم . ونحن فى عصرنا الحاضر قد نجد الوازع الدينى فى بعض البلدان غير العربية ذا سلطان أعظم من سلطانه فى بلاد يتكلم أهلها بالعربية لأن الوازع يتأثر بالبيئة الاجتماعية والبيئة السياسية أكثر من تأثره بالبيئة الثقافية . لأن الوازع من الظواهر النفسية التى تكون نتيجة لتفاعل المجتمع . ومن البديهى أنه لا تلازم بين العلم بالدين والوازع الدينى . ففى الشعب الواحد نجد أن الوازع الدينى يتجلى بسلطانه فى الطبقات التى هى أقل ثقافة . وهذا أمر تقرره المشاهدة والعيان .

وأما تأثير اللهجة الإقليمية فى التعابير العربية المحلية فقد كان واضحاً بعض الوضوح فى العهد القريب الذى كانت وشائج العروبة فيه فى شبه تمزق بفعل الاستعمار ، وكانت لغة الصحافة ولغة المكاتبات متباينة فى بلادنا

العربية . وهذه الظاهرة الآن فى سبيل الاضمحلال بمقتضى تقارب الشعوب العربية وسهولة الانتقال بين أطرافها . ونحن الآن فى الكويت نجد صدى كبيراً للهجتنا المصرية بين المواطنين الكويتيين الذين درسوا فى مصر ، أو قام بالتدريس لهم فى الكويت مدرسون مصريون . أو الذين تفاعلوا مع وسائل الإعلام .

وكذلك نجد كثيراً من المصطلحات اللغوية السُّورية قد أخذت طريقها إلى مصر ورسخت فيها ولا سيما فى أيام الوحدة السياسية القريبة.ومهما يكن من تقارب بين شعوبنا العربية فإنى أعتقد أن لكل موطن من مواطن العروبة تراثاً لغوياً يسرى فى دمائه ولا يمكن التخلص منه ، إلا إذا أمكن التخلص من الفولكلور الشعبي .

وأما السؤال الأخير الخاص بالمكانة التى يجب أن تحتلها العربية فى موطنى مصر . بالنسبة للغات الأجنبية ، فإنى أعتقد أن إجابته موحدة بين كل مثقف عربى ، وهو أن يكون للغة العربية السلطان الأول فى اللغات الثقافية المحلية ، وأن تكون هى لغة العلم المحلية .

وأعتقد أن المحاولات التى بدأت فى الجامعات المصرية لتعريب التدريس الجامعى تتسم بكثير من النجاح وإن كانت الجمهورية السورية قد قطعت فى ذلك شوطاً أطول من شوط الجمهورية العربية المتحدة . والأمل معقود فى أن يتم تعريب التدريس الجامعى فى تؤدة وتنسيق حتى يصل إلى المستوى العالمى .

عبد السلام محمد هارون

- ١٣ -

الاذاعة ونشر الفصحى(*)

ألقيت فى احتفالات الإذاعة بالعيد الخمسينى لمجمع اللغة العربية

كان من يمن الطالع لهذه اللغة العربية الخالدة أن يقترن مولد مجمعها العتيد . بمولد مؤسسة الإذاعة المصرية ، فى عام واحد ، يتعاونان معاً ، ويتساندان معاً على النهوض بالفصحى والعمل على نصرتها وإشاعتها ، يسيران فى خطين متوازين : أحدهما علمى يرسم ويخطط ، ويضع القواعد والبحوث ، ويقضى رجاله الساعات والأيام والشهور والسنين ، فى جهاد علمى صادق ، يحدوه الحرص على كيان اللغة والنهوض بها فى تحفظ وأناة ، ولا يزالون بين الفينة والأخرى يظهر لهم معجم من المعاجم الخاصة أو العامة بين كبير ووسيط ووجيز ، وآخر لألفاظ القرآن الكريم ، وضروباً أخرى من معاجم ألفاظ الحضارة والفنون ، والجيولوجيا ، والفيزيقا النووية والفيزيقا الحديثة ، إلى المعجم الجغرافى ، والمعجم الفلسفى ، ومعاجم الطب والصيدلة ، والأحياء ، والزراعة .

وعلى الجانب الآخر يقوم رجال الإذاعة فى خدمة اللغة العربية خدمة عملية متواصلة تكاد تقضى الليل كله والنهار كله فى إذاعة الفصحى وإشاعتها بين الناطقين بالضاد فى سليقتهم ، والذين لا ينطقون بها ولكن يحدوهم حبها والتطلع إلى معرفتها فى شغف ولهفة . أن يستمعوا إليها ، وينعموا بها ، وَلوعاً بجمالها وفقه أسرارها .

ولا تزال برامج الإذاعة عندنا فى أقسامها المختلفة تذيع أنباء العالم فى كل ساعة باللغة الفصيحة التى تزداد نضجاً واستواء فى كل يوم عن سالفه ، إن لم يكن فى كل لحظة عن سابقتها . ويجتهد أولو الأمر فيها بانتقاء أطيب العناصر

(*) نشرت بالعدد ٤٩ من مجلة المجمع سنة ١٩٨٤م .

وأعلى المستويات فى اللغة ، استجابة لما يوصى به المجمع فى كل عام من دعوة وسائل الإعلام إلى الالتزام بتوصيات مؤتمر المجامع العربية .

وقد كان من بنوده هذا العام توصيتان خاصتان بوسائل الإعلام .

أولاهما : أن تعنى وسائل الإعلام جميعها بالتزام العربية الفصحى نطقاً وأداء ، مع وجوب تعيين مصححين متخصصين لكل ما يكتب فى الصحف والمجلات ، أو يذاع من أخبار ومواد مختلفة ، يقومون بتقويم الألفاظ وضبطها ضبطاً دقيقاً ، وأن يعنى فى الإذاعة والتليفزيون خاصة بتنمية المهارات والقدرات اللغوية ، بمحاضرات يلقيها على المذيعين متخصصون فى اللغة العربية .

والتوصية الثانية : يوصى المؤتمر بأن تقلل وسائل الإعلام من الاهتمام بالآداب الشعبية ، لتزيد من ناحية أخرى اهتمامها بالأعمال الأدبية الرفيعة التى تلقى الآن ترحيباً من مختلف الطبقات على امتداد العالم العربى .

هذا . ونلمح الآن تسابقاً ظاهراً ، وتواثباً جلياً فى البرنامج العام والبرنامج الثانى ، وصوت العرب ، والشرق الأوسط ، وإذاعة الشباب ، وإذاعات الأسكندرية وفلسطين والشعب ، وإذاعة السودان التى أصبحت الآن إذاعة وادى النيل .. نشاط متعدد الألوان والضروب ، ينقل إلى سمع الدنيا لغة العرب عزيزة قوية النبر ، مليحة اللفظ ، ويسكب فى آذانها أنغام الفصحى عذبة شجية .

وتنعقد الصلة وثيقة على مدى الأيام بين مجمع الخالدين والإذاعة ، ولسنا ننسى الأحاديث الأسبوعية التى كانت الإذاعة تحرص عليها وتدعو كبار رجال المجمع القدامى ، من أمثال طه حسين والعقاد والمازنى ، وأحمد أمين ، ومنصور فهمى ، وعبد الوهاب خلاف ، وعبدالعزيز البشرى وغيرهم وغيرهم ، كما لا يزال فى أسماعنا صدى صوت الأستاذ على الجارم فى جهوده

اللغوية التي كان يبغي من ورائها تنقية الفصحى من أوضار العامية واللغة الدخيلة . وتحفظ له الإذاعة قصيدة زهراء أنشدها فى مناسبة افتتاحها فى مايو من سنة ١٩٣٤م . ونحن نستمع الآن إلى برنامج عنوانه « مجمع الخالدين » مرتين فى كل شهر فى أيام الأربعاء ، كما نصغى إلى برنامج « صفحات من التراث العربى مرة فى كل أسبوع . ولا يزال صوت العرب يمدنا فى كل أحد ببرنامج عنوانه « شىء من الثقافة » ، ونستمع فى أمسيات كل ثلاثاء إلى مجلة الثقافة التى تخطو خطوات واسعة فى موادها ، وكذلك إلى برنامج « دراسات عربية » .

وتسعى الإذاعة أيضاً إلى الجامعات لينتقل برنامجها الثانى « من رحاب الجامعة تذيع فيه مناقشة بعض الرسائل الجامعية فى الماجستير والدكتوراه كل خميس من كل أسبوع . دع عنك أحاديث محطة القرآن الكريم ، واهتمامها بالقرآن الكريم وتلاوته وتفسيره ، والحديث النبوى ودراسته ، والفقه الإسلامى وفتاويه . كل أولئك فى لغة جزلة سمحة ، تغلب عليها الأصالة والسلامة . فإن كانت الصحافة تتسمح فى بعض الأحيان فى ألفاظها وأساليبها ، فنحن نشهد شهادة بأن الإذاعة تحاول ما استطاعت أن تسمو باللغة وترقى بها إلى المستوى الذى هى جديرة به .

على أن أهم البرامج وأجل الخدمات التى أسدتها وتسديها الإذاعة إلى لغة الضاد والنهوض بها ، والارتقاء بها إلى حيث العزة والنبوغ بين لغات العالم ، هو البرنامج اليومى الحبيب إلى القلوب والأسماع ، برنامج « لغتنا الجميلة » ، الذى يقدمه أديب ممتاز فى أدبه واختياره ، ممتاز فى ذوقه ورهافة حسه ، ممتاز فى خلقه وطبعه ، ممتاز فى لغته وأدائه ، هو الأديب « فاروق شوشة » الذى شهدت له دنيا العروبة بالبراعة ، وبإخلاصه للغة ، ودقته فى حسن عرضها وتحبيبها إلى الناشئة والفتيان والكهول . وهو فى جهاده اليومى الذى

استمر على مدى سبعة عشر عاماً ، فيما أذكر ، أو يزيد ، لا يزال وقع حديثه المحبب موضع حرص المستمعين فى أجواز الليل وأوساطه ، ليتموا رحلة اليوم على أنغامه . وإنى لأذكر أننى قرأت كلمة لكاتبنا أنيس منصور يسرد فيها أنه كان يُسأل فى كل بلد عربى يدخله عن « فاروق شوشة » معبرين عن إعجابهم بصنيعه ، وتقديرهم لفضله وعظيم أثره .

إنى لأعتز بتلميذى وصديقى فاروق شوشة ، وأعده موضع فخر لى بين تلاميذى الذين أعتز بهم من أمثال عبد العال سالم ، وأحمد مختار ، وعبده بدوى . وعبد الله شحاته ، ويوسف عز الدين ، ومصطفى الجوينى ، وعبد العزيز مطر وغيرهم من أساتذة الجامعات ، ومحمود الطناحى ، وعبد الفتاح الحلو ، وعبد الحميد قطامش . وحسين شرف ، من كبار رجال التحقيق التراثى ، وإبراهيم الترزى من الأصلاء فى فن القصة العربية الفصيحة .

أما فاروق فهو العلم البارز فى محراب الدعوة إلى الفصحى والهيام بها . وإنى لأدعو له من صميم قلبى باطراد النجاح فيما قد أخذ بسبيله منذ عهد طويل ، وبدوام اجتماع القلوب الخافقة بحب لغتها حول مائدته الحافلة بثمار العقول العربية الفارعة . كما أدعو له بالبركة فى حياته حتى يحتفل بعيده الخمسينى فى برنامجه الحبيب .

وإنه ليسعد مجمع اللغة العربية ، وقد قامت الإذاعة بمباركته فى عيده الخمسينى مشاركة واسعة مستفيضة ، وأبدت اهتماماً مرموقاً بتسجيل لحظاته السعيدة بكامل تفاصيلها – إنه ليسعد المجمع أن يشارك الإذاعة الحبيبة فى عيدها الخمسينى مشاركة نابعة من الحرص على تبادل التقدير والإكبار ، والسعى نحو هدف سام واحد ، ومرمى رفيع واحد .

ويسعدني في هذه المناسبة السعيدة أن أقدم باسمي وباسم المجمع الموقر إلى الإذاعة المصرية بمختلف هيئاتها وإلى رجالها الأفذاذ والعاملين فيها جميعاً، أطيب تهنئة وأزكى تحية ، وأسمى اعتزاز بكفاحها السرمدي وجهادها المتواصل في سبيل العربية ولغتها الفصحى .

عبد السلام محمد هارون

الأمين العام لمجمع اللغة العربية

— ١٤ —

مكتبة الجاحظ(*)

أعنى بها تلك الآثار التأليفية التى خلفها الجاحظ ، زعيم البيان العربى وشيخ كتاب العرب ، وأستاذهم الأول فيما يشهد الحق .

وقبل أن نتوغل فى هذا البحث ، الذى أردنا به التنويه بفضل هذا الرجل وإظهار ما طوته الأيام من براعة عبقريته نقدم له بترجمة يسيرة .

فهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، لقب بهذا اللقب لجحوظ عينيه جحوظاً ظاهراً . وقد أكسبه ذلك الجحوظ قبحاً ظريفاً ، جعله أداة صالحة للتندر والمفاكهة .

قال الجاحظ : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده . فلما رآنى استبشع منظرى فأمر لى بعشرة آلاف درهم . وصرفنى .

وقال الجاحظ أيضاً : ما أخجلنى أحد مثل امرأتين ، رأيت إحداهما فى العسكر وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام .. فأردت أن أمازحها فقلت : انزلى كلى معنا ! فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا .

وأما الأخرى فإنها أتتنى ، وأنا على باب دارى ، فقالت : لى إليك حاجة ، وأريد أن تمشىَ معى ! فقمت معها إلى أن أتت بى إلى صائغ يهودىّ فقالت له : مثلَ هذا ! وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إلى بفصٍّ وأمرتنى أن أنقش لها عليه صورة شيطان ، فقلت : يا سيدتى ، ما رأيت الشيطان ! فأتت بك لأنقش الفص على مثالك !

والجاحظ عربى ، فهو كنانى ينتمى إلى كنانة بن خزيمة . وهو حجة

(*) محاضرة ألقيت فى نادى دار العلوم فى ٤ من مارس سنة ١٩٤٣ ونشرت فى صحيفة دار العلوم فى أبريل سنة ١٩٤٣م .

ضد الشعوبية الذين يزعمون أن الأدب العربى واللغة العربية لم تنهض إلا على أكتاف الموالى والفرس .

ولد الجاحظ بالبصرة سنة خمسين ومائة . وتوفى بها سنة خمس وخمسين ومائتين . منحه الله عمراً طويلاً . استغله استغلالاً صالحاً فى نصرة البيان العربى ، وإذاعة الثقافة الإسلامية . فكان زعيم مدرسة أدبية تنتمى إلى الإسهاب ، ولطف الاحتجاج . ودقة التبيين . مع إشاعة الفكاهة والتهكم . وكان أيضاً زعيم مدرسة دينية . فكان رأس فرقة من فرق الاعتزال . عرفت بالفرقة الجاحظية .

التأليف فى عصر الجاحظ :

عاش الجاحظ فى دهر كان يزخر بالعلوم والآداب . هو العصر الذهبى للأمة العربية . عصر هارون والمأمون والمتوكل . حين كانت معاهد البصرة وبغداد والكوفة وقرطبة وسائر عواصم الإسلام . تفيض بالآداب والعلوم والفنون . وكان المعين فياضاً مترعاً . والتأليف والترجمة لهما دوى شديد فى كل صقع . والعلماء والأدباء فى نشاط عجيب . يصل الليل بالنهار والغدوّ بالآصال .

فعاصر الجاحظ من علماء العربية أبا عبيدة . والأصمعى . وأبا زيد الأنصارى وكانوا جميعاً شيوخه . وأخذ النحو عن أبى الحسن الأخفش . والكلام عن النظام . وشافه الجاحظ فصحاء العرب الذين كانوا يفدون إلى مربد البصرة . فلقن منهم كثيراً من فصاحتهم . وارتشف هذا البيان العربى الصافى . وهذه اللهجة الصحيحة. وتلك المعرفة الفطرية القوية .

ويعرف التاريخ فى عصر الجاحظ أربعة ممن ضربوا بسهم كبير فى وفارة الإنتاج الفكرى والتأليف . واستووا على غاية قصّر عنها من عداهم .

فالواحد : أبو عبيدة معمر بن المثنى ١١٠ — ٢٠٩ وكان من أهل البصرة

ولد وتوفى بها . قال صاحب الوَفيات : « وتصانيفه تقارب مائتى مصنف » . وقد سرد ابن النديم منها فى الفهرست مائة وخمسة ، وقال فيه الجاحظ : لم يكن فى الأرض خارجىٌّ ولا جماعى أعلم بجميع العلم منه » .

والثانى : أبو الحسن على بن محمد المدائنى ١٣٥ — ٢٢٥ له نحو من مائتين وأربعين مصنفاً على ما أحصيت فى فهرست ابن النديم . وقد روى عنه الجاحظ فى البيان وفى الحيوان روايات كثيرة .

والثالث : هشام بن محمد الكلبى الكوفىُّ المتوفى سنة ٢٠٦ عددت كتبه فى الفهرست فألفيتها نحو مائة وأربعين مؤلفاً .

والرابع : إمام العربية والدين : محمد بن إدريس الشافعى . ولد سنة ١٥٠ وهى سنة ولادة الجاحظ . وتوفى سنة ٢٠٤ .

وقلت : إمام العربية ؛ لأن كثيراً من الناس لا يعلم فضل الشافعى فى هذه الناحية. والحق أن الشافعى كان من أدق الناس خبرة بالعربية ، وأوسعهم فقهاً فيها ، واطلاعاً على أسرارها. وحسبك أن تعرف أن الأصمعى وهو الإمام الكبير — قرأ على الشافعى أشعار الهذليين وضبطها وصححها . وحسبك أيضاً أن تطلعَ على كتابيه العظيمين ، وهما الأم فى مسائل الفقه ، والرسالة وهى فى مسائل أصول الفقه ، فتعرف إلى أى مدى وصل هذا الرجل فى معرفة العربية ، ودقة التعبير العربى كذلك . وهذا ما حمل الجاحظ أن يقول فيه : « نظرت فى كتب هؤلاء النَّبَغة الذين نبغوا فى العلم فلم أر أحسن تأليفاً من المطلبى ، كأن لسانه ينظم الدر » .

وقد سرد ياقوت من كتب الشافعى مائة واثنين وأربعين كتاباً ، منها كتب تدخل فى كتاب الأم .

عاصر الجاحظ هذا الرهط ، وأدرك هذه الجماعة التى منحت الثقافة العربية ثراء وافراً ، فكان له بهم أسوة ، ونهج نهجهم الذى سلكوا . وكان

ذلك إلى ما وهبه الله من امتداد العمر ، وتملك الفصاحة ، من أقوى الأسباب التى تضافرت على إنشاء مكتبة الجاحظ . . الغنية بعددها ، وبقيمتها الأدبية والفكرية والدينية أيضاً .

ومن العوامل القوية التى أدت إلى إثراء مكتبة هذه الرجل ، شدة ولوعه بالقراءة وجلده عليها . قال أبو هفان : « فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنّه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر » .

وسائل النشر فى عصر الجاحظ :

ويعجب العاجب من وجود هذه الظاهرة الغريبة فى ذاك العصر . . أعنى كثرة المؤلفات لرجل واحد . يعجب العاجب لظهور ذلك فى عصر كانت وسائل النشر فيه غير متوافرة . فليست هناك مطبعة ، وليست هناك هيئات أدبية تعمل على إذاعة المؤلفات ونشرها . ولم يكن القراء حينئذ بالكثرة التى نراها الآن . . فما السر إذن فى ذلك ؟

لم تكن هناك مطبعة حقاً ، تستطيع إخراج الآلاف من الكتب فى وقت وجيز ، ولكن أمراً آخر له خطره وجليل شأنه ، كان يقوم مقام المطبعة ، وكان له نشاط لا يستهان به . ذلك هو النظام الذى كان يعرف بنظام الوراقة . يتخصص به أناس معروفون ، ينقلون الكتب ويكتبونها ، ويشترونها ويشرونها ويجلدونها ، ويصححونها أحياناً . . هؤلاء الوراقون كانوا بمثابة مطابع حية تنشر المعارف فى تلك العصور القديمة ، وكان لهم خطر عظيم لا يقل عن خطر هذه المطابع الحديدية فى عصرنا هذا .

والذى يتصفح معجم الأدباء لياقوت ، يستطيع أن يمس عظمة هذه الدولة ، أعنى دولة الوراقين ، الذين كان بينهم كثير من أعلام الأدباء والعلماء والشعراء . وبحسبك أن تعرف أن ياقوتاً نفسه كان وراقاً ينسخ

الكتب بالأجر كما يحدثنا بذلك ابن خلكان . وكان كذلك من كبار تجار الكتب . قال يتحدث عن نفسه فى أثناء ترجمة قابوس بن وشمكير : « توجهت إلى الشام وفى صحبتى كثير من كتب العلم أتجر فيها » .

وياقوت فى كتابه « معجم الأدباء » ناقد صيرفى لتلك الطائفة من الوراقين فيقول : « هذا مليح الخط ، متقن الضبط » ويقول : « هذا ردىء الكتابة سقيم الخط » . ومما قاله فى ترجمة من يدعى الفضل بن عمر بن منصور : « وخطه فى غاية الجودة ، على طريقة ابن هلال البواب . ولذا أوردناه فى هذا الكتاب » . فيجعل سبب ذكره فى هذا المعجم أنه وراق جيد الخط حسن الكتابة .

وحسبك أيضاً أن تعرف أن ابن النديم صاحب الفهرست كان أحد أولئك الوراقين الأعلام . وأن تعرف أن صناعته هذه الجليلة هى التى يسرت له أن يخرج لنا هذا الكتاب الخالد ، الذى نرجع إليه كلما أظلمت علينا مسالك البحث فى غيره من الكتب . فنظفر منه بما يروى الغلة ويعين على التحقيق .

وأما الهيئات الأدبية فكانت معروفة أيضاً . وإن لم تكن بمظهرها الحديث الذى نلمسه بين ظهرانينا . فهؤلاء الوراقون الألى ذكرت كانوا من أعضاء هذه الهيئة . وكان أيضاً من أشخاص الولاة والخلفاء هيئات أدبية تعمل على تشجيع نشر الكتب وإذاعتها وإجازة مؤلفيها بالمنح العظيمة . والعطايا الفاشية .

وكانوا ينفقون على التأليف وعلى الترجمة وسائر ضروب التثقيف العام والخاص مالا يستهان به من الأموال الطائلة . ويمتد بنا القول لو ذهبنا فى بيان ذلك الجود الحاتمى الذى كانت تسخو به أيدى الخلفاء والولاة والسراة . وأما أن القراء لم يكونوا كثيرين فى تلك العصور ، فليس ذلك بمؤثر فى ذيع الثقافة ، وانبلاج نورها بين الناس . بل نستطيع أن نقول : إن المثقفين فى ذلك العصر كان عددهم يفوق عدد المثقفين فى عصرنا هذا .

وقلت : « المثقفين » ولم أقل « المتعلمين » لأن نسبة المتعلمين فى عصرنا هذا أكثر عدداً بلا ريب من المتعلمين فى عصر الجاحظ . ولكن المثقفين أعنى من توغلوا فى مختلف نواحى العلم توغلا كبيراً ، كانوا فى عصر الجاحظ أكثر عدداً منهم فى عصرنا هذا ، فكان هناك صبيانٌ يفتون فى مسائل الفقه ، وكانت هناك جَوارٍ يفلن الشعر ويغشَيْن مجالس الأدب ، ويرون حديث الرسول . وكان أيضاً رجال كثيرون لا يحصيهم العد ، وتعرفهم كتب التراجم وكتب الرجال .

كان من أولئك المثقفين المنوَّرين مشجع قوى على إثراء المكتبة العربية ، وعلى كثرة إنتاج المؤلفين وكثرة إنتاج المؤلف الواحد أيضاً .

أسلوب الجاحظ فى التأليف :

سلك الجاحظ مسلكاً غريباً فى التأليف ، فطرق أبواباً عجيبة منه ، فهو يحدثنا عن البخلاء . وعن الحاسد والمحسود . وعن تفضيل النطق على الصمت . ويحدثنا عن حيل اللصوص . وعن غش الصناعات .

ويتكلم فى القيان ، وفى أخلاق الكتاب . وفى المعلمين والطفيليين والملوك والمغنين ، وأخلاق الفتيان ، وفضائل أهل البطالة .

ويتحدث عن جميع الأنواع البشرية من ترك ، وصقالبة ، وحمران ، وسودان ، وبيض ، وعرب وعجم ، وعرجان وبرصان وحول وعور .

وعن الطوائف الدينية ، كالشيعة ، والزيدية ، والمشبهة ، والجهمية والمعتزلة ، ويذكر لنا مذاهب اليهود والنصارى والمجوس .

يتحدث عن نقض مذاهب الأطباء ، وعن التفاح والنبيذ ، والقلم ، والكتب ، والنرد ، والشطرنج . يصنع فى كل من أولئك كتاباً .

فكأن الجاحظ لم يترك شيئاً مما يجول بخاطر إنسان ، أو يمر بذهنه ، إلا كتب فيه وأبدع إبداعاً وأوفى على الغاية .

وأذكر هنا قولاً صادقاً لأبى العيناء . وذلك أن سائلاً سأله وقال : ليت شعرى أى شيء كان الجاحظ يحسن ؟ فأجابه أبو العيناء : ليت شعرى أى شيء كان الجاحظ لا يحسن ؟ !

وشيء آخر امتاز به الجاحظ من بين جميع المؤلفين فى عصره . وهو إدمان الفكاهة . فهو لا يبرح يشيع الفكاهة فى تصانيفه . ولا يدع فرصة تصلح للمفاكهة والمطايبة إلا انتهزها انتهازاً . وأنت تستطيع أن تتصفح أى كتاب أو أية رسالة له . فتجد فى ذلك البرهان واضحاً . والدليل ساطعاً .

وتعد رسالة التربيع والتدوير . التى صنعها فى من يدعى أحمد بن عبد الوهاب . أبرعَ ما كتب الجاحظ فى فن الفكاهة .

وكان أحمد — فيما يقول الجاحظ — مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعاً وتحسبه مدوراً . وهو فى ذلك يدعى البساطة والرشاقة .

يقول له الجاحظ : « وهل غاية الجميل إلا وصفك . وهل زين البليغ إلا مدحك . وهل يأمل الشريف إلا اصطناعك . وهل يقدِّر الملهوف إلا غياثك . وهل للماتح رجزٌ إلا فيك ، وهل يحدو الحادى إلا بذكرك ؟ ! لا بل أينَ الحسن المُصمَت . والجمال المفرد . والقدّ العجيب . والكمال الغريب . والمِلح المنثور . والفضل المشهور . إلا لك وفيك . وهل على ظهرها جميل حسيب . أو عالم أديب إلا وظلك أكبر من شخصه . وظنّنا أكبر من علمه ؟ ! وهل أقلّت الخضراء ذا لهجة أصدق منك . وهل حملت النساء أجل منك » .

ويقول : « وما على ظهرها خَود إلا وهى تعبر باسمك ، ولا قينة إلا وهى تغنى بمدحك . ولا فتاة إلا وهى تشكو تباريح حبك . ولا محجوبة إلا وهى تنقب الخروق لممرّك . ولا عجوز إلا وهى تدعو لك » .

ويقول فى رسالة النساء : « وبعد فأيّما أحسن وأملح . وأشهى وأغنج

أن يغنّيك فحلٌ ملتف اللحية كثّ العارضين ، أو شيخ متخلّع الأسنان مغضّن الوجه ، ثم يغنيك إذا هو تغنى بشعر ورقاء بن زهير :

رأيت زهيرا تحت كلكل خالد
فأقبلت أسعى كالعجول أبادرُ

أم تغنّيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها خرطت من ياقوته أو من فضة مجلوة – بشعر عُكّاشة بن مِحصن :

من كف جارية كأن بنانها
من فضة قد طوّقت عنابا
وكأن يمناها إذا نقرت بها
تلقى على الكفّ الشمال حسابا

وللجاحظ في البيان والتبيين من حشو الفكاهة وجمع النوادر ما إذا سردنا بعض شواهده طال القول بنا . وفي كتاب الحيوان مطايبات شتى ، ومتعة طيبة للقارئ .

كان الجاحظ رجلاً مؤالفاً متصلا بجمهور الناس اتصالاً شديداً . فهو جليس الخلفاء والوزراء والكتاب . وهو أيضاً يجلس إلى الباعة والكناسين والحواة والموسوسين والمجانين . وكان يتعرف إلى بداة الأعراب ، كما كان مصادقاً للترك وللروم والسنديين ، وكان يجالس الشيوخ والمسنّين ، كما كان يجالس الصبيان .

روى ياقوت أن سلام بن يزيد قال يصف دخوله على الجاحظ مرة : قال سلام : « وسألت عن منزله – يعني منزل الجاحظ – فأرشدت ودخلت إليه فإذا هو جالس وحواليه عشرون صبياً ، ليس فيهم ذو لحية غيره » .

وواضح أن تلك المخالطة قد أكسبته معرفة كاملة بطبائع الناس ، وأطلعته على كثير من مصادر الفكاهة .

ونستطيع أيضاً أن نقول : إن الجاحظ كان صياداً ماهراً للظرفاء . وإليك مثلا من ذلك :

قال الجاحظ : كان يأتيني رجل فصيح من العجم . فقلت له : هذه الفصاحة وهذا البيان ! لو ادعيتَ في قبيلة من العرب لكنت لا تُنازَع فيها .

قال : فأجابني إلى ذلك فجعلت أحفِّظه نسباً حتى حفظه فقلت له : الآن لاتتَيهْ علينا ! فقال : سبحان الله إن فعلت ذلك فإنّى إذن لدعيّ !

وفي الحق أن نعد الجاحظ شيخ الفكاهة العربية في عصورها الأولى ، وهو أيضاً زعيم من زعماء التهكم . التهكم اللاذع الحار . قيل لأبى هِفّان : لم لا تهجو الجاحظ وقد ندّد بك ، وأخذ بمخنّقك ؟ ! فقال : أمثلى يخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة .

وشيء ثالث : هو من خصائص الجاحظ في فن التأليف ، يعرفه من مارس صناعة التعليم ، وعرف ما يتطلبه التلميذ أو المعلم من أستاذه : من كثرة التكرار والمعاودة وصوغ الدرس بصيغ مختلفة متنوعة ، كي تتأدى المعارف إلى ذهنه تأدياً صادقاً ، ولتثبت العلوم في ذهنه ثباتاً ، فلا تذهب مع الذاهبات .

فالجاحظ يلح على المعنى الواحد بمختلف صنوف التعبير ، ولا يترك قارئ كتابه حتى يتيقن هو أنه قد أوضح له المعرفة إيضاحاً ، وحتى يطمئن إلى أن القارئ قد وعى ما أراد إلقاءه إليه وعياً تاماً .

ولذلك نجد الجاحظ يذهب في الكتب إلى أنها أجدى نفعاً من المعلمين ، وأن عملها يجزئ عن عمل المعلمين ويغني غناءه .

وله فى صدر المصحف الأول من الحيوان كلام طويل فى هذا ، وتستطيع أن ترجع إليه .

ومن قوله فى شأن الكتاب : «وهو المعلم الذى إن افتقرت إليه لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك » .

ولذلك أيضاً لا نجد رجلا تأدب بأدب الجاحظ ، وتناول كتبه بالقراءة والدرس إلا خرج وقد سرى فيه عرق من أدب هذا الرجل سرياناً واضحاً ، أو نفحته نفحة ظاهرة من بيانه .

وفى عصرنا هذا جمهرة من الكتاب تتلمذوا للجاحظ فنالوا من بيانه قسطاً وافراً ، وأعداهم ذلك على جمال فنهم . ونضرة حديثهم ، وظهر عليهم فضل الجاحظ ظهوراً بيناً .

والأمر الرابع – الذى نلمحه فى كتب الجاحظ هو التنويع . وهذا راجع إلى طبيعة الأستاذية فى الجاحظ ، التى أشرت إليها قريباً . فأخص خصائص المعلم أن يتنقل بتلاميذه كلما طال عليهم الوقت فى معارف شتى ، حتى لا يملوا درسه ويسأموا ما يلقنهم إياه من مسائل العلم ، أو مسائل الأدب .

وهو يقول فى ذلك : « فإنى رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة ، والأغانى الحسنة ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال عليها ذلك . وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة » .

ويردد قول أبى الدرداء : « إنى لأجمّ نفسى ببعض الباطل ، كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يملها » .

ولذلك أيضاً نجد الجاحظ يصطنع الاستطراد . ويستعمل التعقيب ، وليس ذلك عجزاً منه ولا التفاتاً عن الغرض الذى نصب له نفسه ، وإنما ليروح عن القارئ ، ويستجلب نشاطه ، ويجدد انتباهه .

وأمر خامس هو من خصائص مكتبة الجاحظ . وهو تناولها كثيراً من الأمور التي تبدو أنها متناقضة . والتي تشعر القارئ لأول وهلة أن ذلك الرجل يناقض نفسه فيما يكتب فهو يمدح النبيذ حيناً ويذمه حيناً آخر . وهو يمدح الوراقين تارة ويذمهم أخرى .

ولكن المنصف يرى أن الرجل لم يناقض نفسه . بل نظر إلى الشيء الواحد نظرتين من ناحيتين مختلفتين . ولكل أمر من الأمور ما يقتضي مدحه حيناً وذمه حيناً آخر ، حتى الصدق وحتى الأمانة وهما الأساس الأول للفضائل .

وكلكم يذكر قول عمرو بن الأهتم « رضيت فقلت أحسن ما علمت وغضبت فقلت أقبح ماعلمت » وقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في ذلك : « إن من البيان لسحراً » وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الثانية »

وهذه الخاصة الجاحظية هي بلا ريب برهان ساطع على ذكاء روح هذا الرجل وقوة فنه وتمام اقتداره .

وأمر سادس — تمتاز به مكتبة الجاحظ . هو حرية الفكر . التي لا يفتأ ينادي بها عند كل مناسبة . فهو شديد التهكم حينما يتحدث عن حجة لا يسيغها العقل ، ولا يقرها الفكر الحر . وهو يحشد أقصى ما يستطيع من الحجج حين يعرض رأياً لأحد الجامدين أو المتعلقين بأذيال الخرافات والأساطير ، فإذا الأساطير والخرافات تتهالك في يديه . كما يتهالك الليل البهيم للصبح الطالع .

وهو كذلك يعترض كثيرين من العلماء وكبار الفلاسفة . وفي مقدمتهم أرسطو . وكذلك أستاذه أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام . وكتاب الحيوان ميدان فسيح يجول فيه صاحبنا ويصول . برأيه الحر . ويرفع علم الثورة على المتعنتين من المفسرين والقصاص والمتزمتين ، بل على المتحذلقين من اللغويين

والأدباء ، فهو يندد فى الجزء الأول من الحيوان بكتب أبى الحسن الأخفش واستغلاقها على الناس ، وهو يتهكم بالمفسرين وأصحاب الأخبار الذين زعموا أن أهل سفينة نوح كانوا قد تأذوا بالفأر فعطس الأسد عطسة فرمى من منخريه بزوج سنانير . فلذلك السنور أشبه شيء بالأسد . وأخرج الفيل زوج خنازير . فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل . ثم هو يروى سخرية أبى عبيدة من هذا الخبر ، وضحكه مما فيه من خرافة .

والجاحظ أيضاً يتهكم بالقصاص ، ويصور لنا صورةً طريفة منهم متمثّلة فى شخص « أبى كعب القاصّ » حين حمل المستمعين على التهليل والتكبير ، ليخفى أمراً مستنكراً ضاقت به نفسه ، ولم يستطع إمساكه .

ويروى أيضاً أن أبا كعب هذا أرسل رسولاً له إلى مجلس الوعظ فى مسجد عتاب ، ومعه هذه الرسالة : يقول لكم أبو كعب : انصرفوا ؛ فإنى قد أصبحت اليوم مخموراً !

وأمر سابع تمتاز به مكتبة الجاحظ ، هو كثرة تناول المسائل الكلامية ، والحرص على اقتناص مناسباتها فى أثناء الكتب . فبينا نرى الجاحظ يفيض فى الحديث عما قال العرب من شعر بديع فى النار إذا به يهجم على مسألة من مسائل الجوهر والعرض ، والثواب والعقاب ، والجزء الذى لا يتجزأ . حتى الفكاهة لا يخليها من هذه المناسبات الكلامية . فهو يروى فى الحيوان أن رجلا من أهل الكوفة قال لهشام بن الحكم ، صاحب مذهب الهشامية ، وهم فرقة من المشبهة : إنّ هذا الرجل قال لهشام : أترى الله عز وجل فى عدله وفضله كلفنا ما لا نطيق ثم يعذبنا ؟ قال هشام : قد والله فعل ، ولكنا لا نستطيع أن نتكلم به .

ويروى أيضاً أن بعض أصحابه سأل أبا لقمان الممرور عن الجزء الذى لا يتجزأ ما هو ؟ فأجاب : الجزء الذى لا يتجزأ هو على بن أبى طالب ! فسأله أبو العيناء قائلاً : أفليس فى الأرض جزء لا يتجزأ غيره ؟ قال : بلى ،

حمزة جزء لا يتجزأ ، وجعفر جزء لا يتجزأ . قال : فما تقول فى العباس ؟ قال : جزء يتجزأ . قال : فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ قال : أبو بكر يتجزأ ، وعمر يتجزأ . قال : فما تقول فى عثمان ؟ قال : يتجزأ مرتين ، والزبير يتجزأ مرتين .

وقد عقب الجاحظ على هذه الفكاهة بأن هذا الرجل الممرور لما سمع المتكلمين يذكرون « الجزء الذى لا يتجزأ » هاله ذلك ، وكبُر فى صدره . وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة ، وأن الشيء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذى لا يتجزأ .

وهذه الثروة الكلامية التى أودعها الجاحظ كتبه ، قد حفظت علينا كثيراً من مذاهب المعتزلة التى لا تستطيع تخليصها من كتب الفرق الإسلامية ، التى جرت على تسفيه آراء المعتزلة وأشباههم ورميهم بما هم منه براء .

ولعلك تسخر معى حين تسمع أنّ بعض هؤلاء الفضلاء — وهو صاحب الملل والنحل — يروى أن الجاحظ يقول فى القرآن : « القرآن جسد . يجوز أن يقلب مرة رجلا ومرة حيواناً » وقد ذكر مثل هذا القول الإيجى صاحب المواقف بلفظ : (يجوز أن يقلب مرّة رجلاً ومرة أنثى) . وليس هذا القول الذى يتبرأ من نفسه بمحتاج إلى تعليق ، فعقل الجاحظ هو ما علمت وما سمعت .

كتب الجاحظ إذن من أهم المصادر الحقيقة لمعرفة الاعتزال ، كما كان تفسير الزمخشرى من بعده مصدراً صالحاً أيضاً فى بيان مذهب المعتزلة ، وتطبيق آرائهم على نصوص كتاب الله .

وأمر ثامن : تمتاز به مكتبة الجاحظ ، هو حديثها عن كثير من الأشياء التى لم يخُضْ فيها أحد من قبل ، أو التى يحجم الناس عن الكتابة فيها ، استهانة بشأنها . أو فراراً من التهمة فيها . ولكن الجاحظ رجل جرىء .

رجل جرىء حقاً . فلم يحدثنا التاريخ أن رجلا ألف كتاباً فى ... فيماذا ؟ فى حيل اللصوص . ولكن الجاحظ يتكلم فى ذلك ويسهب فى القول ويأتى بالعجب العاجب . وقد ذكر من هذا الكتاب فصلاً فى الجزء الثانى من الحيوان . كما نقل الراغب الأصفهانى فى محاضراته بعض هذه الفصول ، فنعرف أن هؤلاء اللصوص كانت لهم مدرسة . وكان لهم أستاذ يدعى « عثمان الخياط » ، وكان زعيمهم . قالوا : سمى بالخياط ، لأنه نقب على أحذق الناس وأبعدهم فى صناعة التلصص وأخذ ما فى بيته. وخرج وسد النقب كأنه قد خاطه . فسمى بذلك .

ومن أقوال عثمان الخياط لبعض أتباعه ومريديه من اللصوص : « لم تزل الأمم يسبى بعضهم بعضاً . ويسمون ذلك غزواً . وما يأخذونه غنيمة . ويذكرون أن ذلك من أطيب الكسب . وأنتم فى أخذ مال الغُدْر والفَجَرة أعذر . فسموا أنفسكم غزاة . كما سمى الخوارج أنفسهم شراة ! » .

ومن مأثور قول عثمان الخياط : « اللص أحسن حالا من الحاكم المرتشى ، والقاضى الذى يأكل أموال اليتامى ! » .

وقد كتب الجاحظ أيضاً فى « غش الصناعات » . قال صاحب الفرق بين الفرق ، فى شأن هذا الكتاب الخطير : « وقد أفسد به على التجار سلعهم » .

وغير هذين فى هذا الفن كثير .

والأمر التاسع : أن هذه المجموعة القيمة من كتب هذا الرجل ، ترسم لنا صورة طويلة عريضة من صور الحياة فى العصر العباسى . هذه الصورة نرى فيها الثقافة الفكرية فى نواحيها المتعددة . وفروعها المتوشجة . وكأن هذا الرجل لم يترك علماً من العلوم التى عرفها القوم . ولا فناً من الفنون إلا اطلع عليه وأخذ منه بنصيب قليل أو كثير .

وهذه الصورة أيضاً ترى فيها الحياة السياسية التى كان يحياها القوم . فى

رسالته إلى الفتح بن خاقان ، التي تتضمن مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، يرينا مبلغ توغل الترك والفرس في سياسة الدولة العباسية ، ومقدار سلطانهم واعتزازهم بأنفسهم ، ويروى لنا طرفاً من أمر الخوارج ، ويصف لنا بأسهم .

وهذه الصورة أيضاً نرى فيها الحياة المدنية ، حتى لكأنما نعايش العباسيين ، فنرى منازلهم وحماماتهم ومصابيحهم ، وملابسهم ، ومطاعمهم ومشاربهم ، ومآدبهم ، وصناعاتهم ، ونظمهم الاجتماعية والصحية والعمرانية . وغير ذلك من دقائق الحياة التي انتبه الجاحظ إليها انتباهاً دقيقاً . ولا سيما في «كتاب البخلاء» . الذى يعتبر بحق أصدق مصورة راسمة للعصر العباسي . وأهم مرجع فيه .

ولا يقتصر الأمر على تصوير العراق . فهو يصور أيضاً أحوال سائر الأمم المعاصرة من الفرس والهند والصين وأهل مصر والمغرب .

لذلك كانت مكتبة الجاحظ سنداً قوياً لمن أراد أن يلم بدقائق العصر العباسي . وأن يتعرف إلى الحياة العامة فيه .

والأمر العاشر : هو اهتمام الجاحظ بتسجيل الحياة اليومية . وهو في ذلك قد ضرب الرقم القياسي — كما يقولون . فغيره من المؤلفين إنما كان جل همه أن يذكر الأخبار القديمة ، والآثار المروية ، كما كان يفعل المدائني وابن قتيبة ومن أتى بعدهم من رواة الأخبار . فهم لا يولون الأخبار المعاصرة إلا الجانب اليسير من اهتمامهم ولكن الجاحظ كان لا يفتأ يذكر أسماء معاصريه . ويروى نوادرهم . ويتندر بهم إذا شاء . وهو لا يدع شيخاً أو شاباً ، ولا عاقلا أو مجنوناً . ممن تقع له النادرة . أو تصدر عنه الفكاهة ، أو يتصل به الخبر إلا عرض ذلك بين يدى قارئه ، وأطلعه عليه إطلاعاً فهو بلا ريب صحفي العباسيين ، وهو بلا ريب شيخ الصحافة العربية ، وأول من حاول إنشاء الصحف والمجلات العربية .

ذيوع كتب الجاحظ :

كانت كتبه تذيع وتشيع ، وتطير إلى الآفاق البعيدة في حياته ، للرغبة الملحَّة فيها ولحرص الناس على ما فيها من خير كثير .

وإليك صورة تنبيك عن مبلغ هذا الذيع ، وتقف بك على مقداره :

روى صاحب تاريخ بغداد عن يحيى بن على أنه قال : « حدثني أبي قال : قلت للجاحظ : إني قرأت في فصل من كتابك المسمى كتاب البيان والتبيين : إن مما يُستحسن من النساء اللحن في الكلام ، واستشهدت ببيتَي مالك ابن أسماء :

وحديث ألذه هو مما
ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا
نا وخير الحديث ما كان لحنا

قال : هو كذاك . قلت : أفما سمعت بخبر هند بنت أسماء — وهي أخت صاحب هذين البيتين — مع الحجاج حين لحنت في كلامها فعاب ذلك عليها فاحتجت ببيت أخيها ، فقال لها الحجاج : إن أخاك أراد أن المرأة فطنة فهي تلحن بالكلام إلى غير المعنى في الظاهر . لتستر معناه وتورِّى عنه ، وتُفهمه من أرادت بالتعريض ، كما قال الله تعالى : ﴿ ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ ولم يرد الخطأ من الكلام ، والخطأ لا يستحسن من أحد . فوجَم الجاحظ ساعة ثم قال : « لو سقط إلى هذا الخبر لما قلت ما تقدم ! فقلت له : فأصلحه . فقال : الآنَ وقد سار الكتاب في الآفاق ، هذا لا يصلح !

فهذه صورة من صور ذيع كتب الجاحظ .

تقدير القدماء لكتب الجاحظ :

نترك القول لياقوت يحدثنا عجباً فى هذه الناحية ، فهو يروى أن أبا حيان قال : « ومن عجيب الحديث فى كتبه ما حدثنا به على بن عيسى النحوى الشيخ الصالح قال : سمعت ابن الأخشاد شيخنا أبا بكر يقول : ذكر أبو عثمان فى أول كتاب الحيوان أسماء كتبه ليكون ذلك كالفهرست ، ومر بى فى جملتها : الفرق بين النبي والمتنبي ، وكتاب دلائل النبوة ... فأحببت أن أرى الكتابين ولم أقدر على واحد منهما وهو كتاب دلائل النبوة ... فهمّنى ذلك وساءنى فى سوء ظفرى به . فلما شخصت من مصر ودخلت مكة — حرسها الله — حاجا أقمت منادياً بعرفات ينادى — والناس حضور من الآفاق على اختلاف بلدانهم وتنازح أوطانهم ، وتباين قبائلهم وأجناسهم من المشرق إلى المغرب ، ومن مهبّ الشمال إلى مهبّ الجنوب ، وهو المنظر الذى لا يشابهه منظر — : رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبي والمتنبي لأبى عثمان الجاحظ على أى وجه كان !

قال : فطاف المنادى فى ترابيع عرفات وعاد بالخيبة وقال : حجّت الناس مِنىً ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترفوا به .

قال ابن الأخشاد : وإنما أردت بهذا أن أبلغ نفسى عذرها . قال ياقوت : « وحسبك بها فضيلة لأبى عثمان أن يكون مثل ابن الأخشاد وهو من هو فى معرفة علوم الحكمة ، وهو رأس عظيم من رءوس المعتزلة يُستهام بكتب الجاحظ حتى ينادىَ عليها بعرفات والبيت الحرام .

قال ياقوت : وهذا الكتب موجود فى أيدى الناس اليوم لا تكاد تخلو خزانة منه . ولقد رأيت أنا منه نحو مائة نسخة أو أكثر .

ثم نعود إلى المسعودى — وهو ممن يعد فى خصوم الجاحظ — فنجده يقول فى نعت كتب الجاحظ : « وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صدا الأذهان . وتكشف واضح البرهان : لأنه نَظَمها أحسنَ نظم ، ورصفها

أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارئ ، وسآمة السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة . وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين وهو أشرفها ؛ لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ، ومستحسن الأخبار . وبليغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به . وكتاب الحيوان . وكتاب الطفيليين ، والبخلاء . وسائر كتبه فى نهاية الكمال ، ما لم يقصد منها إلى نصب أو إلى دفع حق » .

ثم نتراجع إلى الوراء ونسأل الجاحظ نفسه أن يحدثنا حديث الصدق عن كتبه ونظرة الناس إليها ، فإذا هو يجيبنا فى ثقة ويقين واعتزاز بالنفس . قال فى الجزء الثانى من البيان :

« ولما قرأ المأمون كتبى فى الإمامة فوجدها على ما أمر به ، وصرت إليه — وكان قد أمر الزيدى بالنظر فيها ليخبره عنها — قال لى : قد كان بعض من نرتضى عقله ونصدق خبره ، خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة . فقلت : قد تربى الصفة على العيان . فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة . فلما فليتها أربى الفلى على العيان ، كما أربى العيان على الصفة » .

وهذه شهادة تاريخية جليلة . لها قيمتها ولها قدرها .

عدد كتب الجاحظ :

والآن ننتقل إلى الحديث عن عدد كتب الجاحظ . فنجد أن هذا الرجل قد خرج عن زهاء ثلثمائة وستين مؤلفاً . فى ألوان شتى من المعرفة . رأى أكثرها فى مشهد أبى حنيفة النعمان ببغداد سبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤

قال في كتابه : « مرآة الزمان » ، عند ذكر الجاحظ : « أما مصنفاته فثلثمائة وستون مصنفاً . ووقفت على أكثرها في مشهد الإمام أبي حنيفة » .

هذا أقصى تقدير عددي وصلت إليه كتب الجاحظ . على أن أدنى ما تنزل إليه أن تكون مائة ونيفاً وسبعين كتاباً . قال ابن حجر في لسان الميزان : « وسرد ابن النديم كتبه ، وهي مائة ونيّف وسبعون كتاباً » ، هذا آخر كلام ابن حجر .

ووجدت ياقوتاً في معجم الأدباء قد سرد منها مائة وثمانية وعشرين مصنفاً .

وليس يمكننا القطع برقم خاص لعدد كتب الجاحظ . ولكن نستطيع أن نقول : إن الجاحظ كان من أخصب علماء عصره وأدبائه إنتاجاً إن لم نقل إنه أخصبهم وأغزرهم فيضاً !

ويسأل السائل : أين طوح الدهر بهذه المجموعة الجاحظية الهائلة ؟ وكيف لم يظهر للناس منها إلا مقدار يسير تعده أصابع اليد ؟

فالحق أن كثيراً من كتب الجاحظ قد ضاع فيما ضاع من آثار السلف ، وعدت عليه عوادي الأيام والناس أيضاً .

فالفوضى السياسية التي منيت بها الأمم الإسلامية في مسائها الأول والتي كانت قائمة في أكثر ما تقوم على التدمير والتخريب والانتقام من غزوات السلاجقة والتتار وغيرهم — جعلت تهدم في هذا الصرح الفكري حتى أتت على الكثير من قواعده . ولم تُبق إلا وشلا من محيط .

وكذلك كان لجمود الهمم وضعف العزائم . أثر كبير في ضياع هذه النفائس وفقدها .

ومهما يكن فقد أبقت الأيام لنا من آثار هذا الرجل مقداراً صالحاً ،

سار بعضه بين الأدباء ، فكان له فضل عظيم فى تقويم ألسنتهم وتأدبهم ، وحمت بعضه الآخر خزائن متناثرة فى أنحاء المعمورة ، أشار إليه المستشرق الكبير « بروكلمان » فى معجمه . وهى أكثر من سبعين كتاباً ، تزدان بها خزائن المتحف البريطانى ، وداماد إبراهيم ، وكوبريلى ، والفاتح والموصل ، وجوتا ، وميلانو ، وغيرها .

وقد أخذت على نفسى عهداً أن أقوم بخدمة هذه المكتبة وبدأت منها بكتاب الحيوان . وعسى الله أن يهب لى من سعة الوقت والحال ما يسعفى باستحضار هذه الكتب ونشرها بين أبناء العربية نشراً علمياً صالحاً ، وفاء لهذا الرجل العالمى العظيم ، ووفاء لهذه الدار التى حبب إلىَّ أساتذتُها أدب الجاحظ ، فصرت إلى أن أولَع به وَلوعاً ، وأغرَمَ به غراماً .

وأشكر جماعة دار العلوم لما أتاحت لى من هذه الفرصة السعيدة ، وأهنئها بهذه النهضة الثقافية فى عهدها الجديد ، الذى يذكى شعلته سعادة رئيسها ، وحضرات أعضائها الأجلاء .

عبد السلام محمد هارون

المدرس بمدرسة الظاهر الابتدائية

- ١٥ -

الجاحظ والمعلمون(*)

يزعم بعض الأدباء أن الجاحظ كان خصماً عنيداً للمعلمين ، يطلقون ذلك القول إطلاقاً على ما فيه من إجحاف وضعف ، وعلى ما فيه من خطأ فى القضاء وظلم فى الحكومة .

والحق أن الجاحظ لم يكن خصماً للمعلمين ، ولا شاغباً عليهم ، ولا مجحفاً بحقهم ، أو مستهيناً بمكانتهم بين الناس ، بل كان الجاحظ ممدِّرهاً للمعلمين ، ولساناً ناطقاً بفضلهم ، ومشيداً بما لهم من أثر صالح وفضل عظيم .

وقد كان المعلمون فى القرنين الثانى والثالث على طوائف شتّى :

أولاها : طبقة صغار المعلمين ، الذين كانوا يتولون تعليم الصبيان القراءة والكتابة ، يتخذون لذلك مكاتب خاصة ، أو يجعلون من المساجد مدارس لهم ، ويتكسبون بتلك الصناعة وينالون بذلك دراهم معدودة ، وقد تدعوهم الحال أن يجعلوا أجرهم ما يحمل الصبيان إليهم من الخبز على اختلاف ضروبه . ويروون أن الحجاج بن يوسف كان معلماً بالطائف ، وكان أبوه يوسف معلماً أيضاً . وفى الحجاج يقول القائل[1] :

فماذا عسى الحجّاج يبلغ جهده
إذا نحن جاوزنا حفير زيادِ

(*) نشر بمجلة الكتاب بالعدد العاشر من السنة الأولى رمضان ١٣٦٥هـ ، أغسطس سنة ١٩٤٦م .

(١) هو مالك بن الريب . انظر المعارف لابن قتيبة – ٢٣٨ ، ٢٣٩ . والشعراء له أيضاً : ١ : ٣١٤ طبعة الحلبى .

فلولا بنو مروان كان ابن يوسفٍ
كما كان ، عبداً من عبيد إيادِ
زمانَ هو العبد المقرُّ بذلةٍ
يُراوح غلمانَ القرى ويُغادى

وفيه أيضاً يقول القائل ــ وكان الحجاج يدعى كليباً ــ :

أينسى كليبٌ زمان الهزالِ
وتعليمَه سورة الكوثرِ
رغيفٌ له فَلْكةٌ ما ترى
وآخر كالقمر الأزهر(١)

ومن هذه الطبقة أيضاً : الكميت الشاعر . قال خلف الأحمر : « رأيت الكميت فى مسجد الكوفة يعلم الصبيان » .

والطبقة الثانية : طبقة المؤدبين لأبناء الخاصة والخلفاء ، وهؤلاء كانوا يختارون من ذوى الأقدار ، ومن الأئمة ذوى الشأن . وقد كان الخلفاء والولاة يرسمون مناهج لهؤلاء المؤدبين كى يحذوا حذوها ، ويترسموا خطاها .

فمن ذلك وصية عتبة بن أبى سفيان ــ وهو أخو معاوية ــ أوصى بها عبد الصمد مؤدب ولده ، قال(٢) : « ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بَنِىَّ إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسَن عندهم مااستحسنت ، والقبيح عندهم مااستقبحت ، وعلمهم كتاب الله ، ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه . ثم روِّهم من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم . وتهدّدهم بى وأدّبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى

(١) الفلكة ، بالفتح : كل شىء مستدير .
(٢) البيان والتبيين (٢ : ٦٦) .

لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء . وجنّبهم محادثة النساء . وروّهم سير الحكماء ، وزد فى تأديبهم أزدك فى برى » .

ومن ذلك أيضاً وصية الرشيد التى أوصى بها خلفاً الأحمر قال[1] : « إن أمير المؤمنين دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه . وصيّر يدك عليه مبسوطة . ومقالتك فيه مصدقة ، وطاعتك عليه واجبة . فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : أقرئه القرآن . وعلمه الآثار والأخبار والسنن . وروّه الأشعار وبصره بمواقع الكلام ، ومره بالرزانة فى مجلسه ، والاقتصاد فى نظره وسمعه ، فلا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها ، وكلمة نافعة يعيها ويحفظها ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلىَ الفراغ ويألفه ، وقوّمه بالتقريب والملاينة ، فإن أبَى فبالشدة » .

وأما الحجاج فإنه كان يوصى مؤدّب بنيه بقوله[2] : « علمهم السباحة قبل الكتابة ، فإنهم يجدون من يكتب عنهم ولا يجدون من يسبح عنهم » .

وأما شريح القاضى فكان له ولد يكثر البطالة ، فنظر إليه شريح يوماً وهو يهارش بكاب له ، فكتب له رقعة إلى معلمه وفيها هذا الشعر[3] :

ترك الصلاة لأكلُبٍ يسعَى بهـــا
طلبَ الهِراش مع الغُواة الرّجَّس

فإذا أتاك فعضّه بملامـــةٍ
أو عِظه موعظةَ الـــرفيق الأكيس

وإذا هممت بضربه فبدِرّةٍ
وإذا ضربتَ بها ثلاثاً فاحبس

(١) المحاسن والمساوى للبيهقى (٢ : ٢١٣) .
(٢) عيون الأخبار (٢ : ١٦٦) .
(٣) الحيوان (٢ : ٢٤) وثمار القلوب ١٧٣ وعيون الأخبار (٢ : ١٦٧) والعقد (١ : ٣٦٣) .

وليحملنْ منى إليك صحيفةً
نكراء مثل صحيفة المتلمسِ
واعلم بأنك ما أتيت فنفسهُ
مع ما يجرعنى أعزُّ الأنفسِ

قالوا : فضربه المعلم عشراً وعشراً ، فقال له شريح : لم ثنيت عليه الضرب ؟ فقال : العشر الأولى للبطالة ، والثانية للبلادة حيث لا يدرى ما يحمل .

هذه أمثلة من الوصايا التى كان الولاة والخلفاء يوصون بها المؤدبين ، وهى تطلعنا على مدى النظام الذى كان يوضع للتعليم ، وعلى تباين الخطط التى كانت توحى بها النظم السياسية والاجتماعية والخلقية فى تلك العصور الأولى .

وهذه الطبقة من المعلمين كانت على جانب عظيم من التوقير والتبجيل . قالوا : سأل الرشيد يوماً من أكرم الناس خدماً؟ قيل : أمير المؤمنين . قال : لا ، بل أكرمهم خدماً الكسائى ، فقد رأيته يخدمه ولياً عهد المسلمين ، وليس لى من الخدم مثلهما .

وكان الولاة والخلفاء يطلقون لهم اليد فى عقاب أبنائهم ، فكان معلم الرشيد يضربه على الخطأ واحداً وعلى اللحن سبعاً . وكان بعضهم يقدر للمؤدب مقداراً للضرب لا يعدوه ، كما سبق فى حديث شريح القاضى .

والطبقة الثالثة من طبقات المعلمين : هم جماعة المُحدِّثين الذين كانوا يتصدون لرواية الحديث ، وعنهم كان يتلقى الرواة والمثقفون أحاديث الرسول والصحابة . وكانت هذه الطبقة كثيرة العدد ، نافقة السوق ، وكتب الرِّجال تطلعنا على مدى النشاط العظيم الذى ظهرت فيه هذه الطائفة . وكان

من هؤلاء جماعة كبيرة تعتز بكرامة العلم وفضل العلماء . قالوا[*] : وجه الرشيد إلى مالك بن أنس ليأتيه فيحدثه ، فقال مالك : « إن العلم يؤتى » . فصار الرشيد إلى منزله فاستند معه إلى الجدار . فقال : ياأمير المؤمنين : « من إجلال الله تعالى إجلال العلم » .

فقام وجلس بين يديه .

وبعث الرشيد إلى سفيان بن عيينة فأتاه وقعد بين يديه وحدثه ، فقال الرشيد بعد ذلك : « يا مالك ، تواضعنا لعلمك فانتفعنا به ، وتواضع لنا علم سفيان فلم ننتفع به » .

والطبقة الرابعة من المعلمين : طبقة الشيوخ والفقهاء ، وهؤلاء القوم كانوا ذوى كرامة ظاهرة . كان الإمام أبو حنيفة إذا أخذته هزة المسائل يقول : « أين لذة الملوك من لذة ما نحن فيه . لو فطنوا لقاتلونا عليه ! » .

وهذه الطبقة والتى قبلها لم تكن لتتكسب بالتعليم أو تتعمد نيل أجر عليه ، بل كان المحدثون والفقهاء إما من ذوى اليسار والنعمة ، أو يكون لأحدهم صناعة أخرى يتكسب بها ، فمنهم كان القزاز والخزاز والدباغ والرفاء والكواء والخفاف والجرار والجزار والصيرفى والإسكافى والحريرى والنحاس والنقاش ، وغير أولئك ممن تغص بهم كتب الرجال .

وإلى جانب هذه الطبقات تجد طائفة القصاص وجماعة المفسرين والنحاة ، وأنماطاً أخرى كثيرة ، منهم طائفة كانت تعلم الفتيان الخطابة[1] .

* * *

ننتقل بعد هذا العرض إلى التهمة الموجهة إلى الجاحظ فى خصومة المعلمين ، حكى عن الجاحظ أنه قال[2] : ألفت كتاباً فى نوادر المعلمين

(*) محاضرات الراغب الأصفهانى (١ : ١٤) .

(١) البيان والتبيين (١ : ١٠٤) .

(٢) المستطرف للأبشيهى (٢ : ٢٤١ — ٢٤٣) .

وما هم عليه من الغفلة ، ثم رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع ذلك الكتاب . فدخلت يوماً قرية فوجدت فيها معلماً فى هيئة حسنة ، فسلمت عليه فرد علىّ أحسن رد ورحب بى ، فجلست عنده وباحثته فى القرآن فإذا هو ماهر فيه . ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب، فإذا هو كامل الأدوات ، فقلت : هذا والله مما يقوى عزمى على تقطيع الكتاب . قال : فكنت اختلف إليه وأزوره، فجئت يوماً لزيارته ، وطرقت الباب فخرجتْ إلى جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيدك . فدخلت وخرجت وقالت : باسم الله . فدخلت إليه وإذا به جالس ، فقلت : عظم الله أجرك ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر . ثم قلت له : هذا الذى توفى ولدك ؟ قال : لا . قلت : فوالدك ؟ قال : لا . قلت : فأخوك ؟ قال : لا . قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتى ! فقلت فى نفسى : هذه أول المناحس ! فقلت : سبحان الله ، النساء كثير ، وستجد غيرها . فقال : أتظن أنى رأيتها ؟ قلت : وهذه منحسة ثانية ! ثم قلت : وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال : اعلم أنى كنت جالساً فى هذا المكان وأنا أنظر من الطاق ، إذ رأيت رجلاً عليه برد وهو يقول :

يا أمّ عمرو جزاكِ الله مكرمةً
ردّى علىّ فؤادى أينما كانا

فقلت فى نفسى : لولا أن أمّ عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

لقد ذهب الحمار بأمّ عمرٍو
فلا رجعتْ ولا رجع الحمارُ

فعلمت أنها ماتت ، فحزنت عليها وأغلقت المكتب وجلست في الدار . فقلت : يا هذا ، إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قويت عزمي على إبقائه . وأول ما أبدأ بك إن شاء الله .

ويروون عن الجاحظ أيضاً أنه قال : مررت بمعلم صبيان وعنده عصاً طويلة ، وعصاً قصيرة ، وصولجان ، وكرة ، وطبل ، وبوق ، فقلت : ما هذه ؟ فقال : عندي صغار أوباش ، فأقول لأحدهم : اقرأ لوحك . فيصفر لي فأضربه بالعصا القصيرة ، فيتأخر فأضربه بالعصا الطويلة ، فيفر من بين يدي فأضع الكرة في الصولجان فأضربه وأشجه ، فيقوم إليّ الصغار كلهم بالألواح ، فأجعل الطبل في عنقي ، والبوق في فمي ، وأضرب الطبل وأنفخ في البوق ، فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إلي ويخلصونني .

ويروون عنه أيضاً أنه قال[1] : مررت بمعلم وهو يقرئ صبياً : وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً وأكيد كيداً . فقلت له : ويحك ، قد أدخلت سورة في سورة ، فقال : نعم ، عافاك الله ! إذا كان أبوه يدخل شهراً في شهر ، فأنا أيضاً أدخل سورة في سورة ، ولا آخذ شيئاً ، ولا ابنه يتعلم شيئاً !

* * *

هذه هي بعض الصور التهكمية التي تسند إلى الجاحظ فيما يمس المعلمين ، وهي وإن تكن تبعد شيئاً عن أسلوب الجاحظ في التعبير فإنها لا تبعد عنه في روح الفكاهة التي عرف بها ، وروح الضحك الذي يتردد في اثنائها .

(١) ثمرات الأوراق بهامش المستطرف (١ : ١٧٣ - ١٧٤) .

فإن تكن حقاً فإنها ترديد منه لما كان يدور فى عصره من التهكم بصغار المعلمين الذين اتخذوا من التعليم صناعة تقيم أودهم وتمسك رمقهم . قال الجاحظ [١] : « من أمثال العامة : أحمق من معلم كتّاب » . وقد ذكرهم صقلاب فقال :

وكيف يرجَّى العقلُ والرأىُ عند من
يروح على أنثى ويغدو على طِفلِ

وفى قول بعض الحكماء : « لا تستشيروا معلماً ولا راعىَ غنم » .

وكان القوم فى عصر الجاحظ لا يزالون على إرث من آبائهم الذين ينفرون من التكسب بالصناعات الصرفة التى لا تعتمد على رأس المال والثروة ، وكانوا يكرمون العلمَ أن تنفق فيه دريهمات معدودة تذهب بجماله وشرفه . وكانت الطبقة التى تتولىّ تعليم أبناء العامة ترضى بالقليل ، ولا تذهب إلى المحافظة على كيانها الاجتماعى ، فدفعت الناس أن يضربوا المثل بها ، فيقولوا للشىء قد اضطرب نظمه واضطربت أوصاله : « هو كرغفان المعلم » . يعنون أنها تهبط من هاهنا وهاهنا فإذا هى مشيأة مختلفة النَّجر ، تتعدد فيها الضروب والأشكال .

وروى الجاحظ أن ابن عتاب كان يقول [٢] : « يكون الرجل نحوياً عروضياً ، وقسّاماً فرضياً ، وحسن الكتابة جيد الحساب حافظاً للقرآن . وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهماً ، ولو أن رجلاً كان حسن البيان . حسن التخريج للمعانى ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم » .

ومن عجيب ما روى الجاحظ فى أمر هذه الطائفة أنها كانت تُستخدم

---

(١) البيان (١ : ١٧٣) .
(٢) البيان (١ : ٢٥٣) .

أحياناً فى بعض الجرائم التى كانت فى عصره من الكثرة بمكان ، وهى جرائم الحناقين الذين يخنقون الناس ، قال فى شأن هؤلاء القوم[1] :

« ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلم كتّاب منهم ، فإذا خنق أهل دار منهم إنساناً ضرب النساء بالدفوف ، وضرب بعضهم الكلاب ، فسمع المعلم فصاح بالصبيان : انبحوا . وأجاب أهل كل دار بالدفوف والصنوج كما يفعل نساء أهل القرى ، وهيجوا الكلاب ، فلو كان المخنوق حماراً لما شعر بمكانه أحد » .

أضف إلى ذلك أيضاً أن المهمة الثقيلة التى كانت تلقى على معلم الكتّاب فى ظل ذلك النظام الساذج ، بل قل تلك الفوضى البدائية ، وفى ظل تلك الحاجة إلى القليل اليسير من المال ، كانت تعرض بعض أفراد هذه الطائفة من المعلمين لأزمات نفسية تخرج بهم من حد الاعتدال إلى ما يدعى غفلة وحمقاً .

على أن مما دفع بالجاحظ إلى التندر بتلك الطائفة ، ذلك الأسلوب الذى امتاز به وكاد ينفرد به ، هو أسلوب السخرية بالناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم . فالجاحظ لم يتهكم بتلك الطائفة من الناس فحسب ، بل هو يسخر بالقصاص ، ويسخر بالمفسرين والمحدثين ، وبالقضاة وبالحكام وبطائفة المتكلمين أيضاً ، لا يكاد يسلم من لاذع سخريته إلا « المعتزلة » ، فهؤلاء عنده كانوا أعقل الناس وأحزم الناس ، وأهدى الناس إلى المعرفة والتبين وإصابة الحكم .

فمن سخريته بالقصاص ما رواه عن أبى أحمد التمار أنه كان يقول فى قصصه :

---

(١) الحيوان (٢ : ٢٦٥) .

« لقد عظم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حق الجار وقال فيه قولا أستحي والله من ذكره[١] » !

ومن سخريته بالمحدثين ما روى أن الأعمش كان سيئ الخلق غلقاً ، وكان أصحاب الحديث يضجرونه ويسومونه نشر ما يحبُّ طيه عنهم ، وتكرار ما يحدثهم به . ويتعنتونه ، فيحلف لا يحدثهم الشهر والأكثر والأقل ، فإذا فعل ذلك ضاق صدره بما فيه ، وتطلعت الأخبار إلى الخروج منه ، فيقبل على شاة كانت له فى منزله فيحدثها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول . ليت أنى كنت شاة الأعمش[٢] !

ومن سخريته بالقضاة ما روى أن رجلا قال لعبيد الله بن الحسن القاضى : إن أبى أوصى بثلث ماله فى الحصون . قال : اذهب فاشتر به خيلاً . فقال الرجل : إنه إنما ذكر الحصون . قال : أما سمعت قول الأسعر الجعفى :

ولقد علمت على تجنبي الردى
أن الحصونَ الخَيل لا مَدَرُ القرى[٣]

ومن سخريته بالمتكلمين ما روى أن هشام بن الحكم صاحب الهشامية ، سأله رجل فقال : أترى الله عز وجل فى عدله وفضله كلفنا ما لا نطيق ثم يعذبنا ؟ قال : قد والله فعل . ولكنا لا نستطيع أن نتكلم به[٤] !

ونحن إذا قلّبنا كتب الجاحظ لا نجد فيها إلا تبجيلا ظاهراً للمعلمين ، ومنافحة ودفاعاً عنهم . فهو فى البيان والتبيين يسهب التعليق على قولهم فى المثل : « أحمق من معلم كتّاب » فيقول[٥] : « والمعلمون عندى على

(١) الحيوان (٣ : ٢٩٧) .
(٢) رسائل الجاحظ ٤٢ نشرة كراوس والحاجرى .
(٣) الحيوان (١ : ٣٥٤ — ٣٥٥) .
(٤) الحيوان (٣ : ١١) .
(٥) البيان (١ : ١٧٤ ، ١٧٥) .

ضربين ، منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة . فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل على بن حمزة الكسائى ، ومحمد بن المستنير الذى يقال له قطرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى ... ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ، ولا على الطبقة التى دونهم . فإن ذهبوا إلى معلمى كتاتيب القرى فإن لكل قوم حاشية وسفلة ، فما هم فى ذلك إلا كغيرهم » .

فالجاحظ لا يعمّ أيضاً معلمى الكتاتيب بالحمق ، بل هو ينصفهم أصدق الإنصاف ، ويحتج لهم بأنهم كسائر الأقوام . فيهم الغث والسمين ، والصالح وغيره .

ونجده يعتب على من كتب إليه رسالة « الوكلاء » بقوله[1] : « وقد رأيتك حفظك الله خونت جميع الوكلاء وفجرّتهم ، وشنعت على جميع الوراقين وظلمتهم ، وجمعت جميع المعلمين وهجوتهم ، وحفظت مساويهم وتناسيت محاسنهم . واقتصرت على ذكر مثالب الأعلام الجلة » ، فهو هنا كذلك لا يرضى بتعميم الحكم . ويذهب مذهباً عادلا فى التقدير .

وقد بحثت ما أبقت الأيام من رسالة الجاحظ فى « المعلمين » وهى فى مختارات عبد الله بن حسان . فوجدته يتحدث فى تمجيد المعلمين والانتصار لهم ، والاعتراف بفضلهم ويقول[2] : « وليس علينا لأحد فى ذلك من المنة بعد الله .... ما للمعلمين الذين سخرهم لنا ، ووصل حاجتهم إلى ما فى أيدينا ... والمعلمون أشقّ بالصبيان من رعاة الضأن وروّاض المهارة .

---

(١) رسائل الجاحظ ١٧١ طبع الساسى

(٢) الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان بهامش كامل المبرد (١ : ١٨) .

ولو نظرت من جهة النظر علمت أن النعمة فيهم عظيمة سابغة ، والشكر عليهم لازم واجب » .

* * *

هذه نظرات الجاحظ إلى المعلمين ، وهي ناطقة بإنصاف الرجل ، وعدله في حكومته، وحسن وضعه طبقتهم في موضعها اللائق بها ، من الإجلال والتكريم .

عبد السلام محمد هارون
المدرس بجامعة فاروق الاول

— ١٦ —

من التراث اللغوى(*)

معجم مقاييس اللغة

مفخرة من مفاخر التأليف العربى ، بل يكاد يكون الفذ فى نوعه من بين المؤلفات اللغوية فى المحيط العربى إن لم يكن فى المحيط اللغوى العالمى . فنحن لم نعلم إلى الآن أن مؤلفاً لغوياً آخر حاول أن يدرس مواد اللغة فى ظل القياس المطرد فى معظم تلك المواد .

ولا غرو ، فإن مؤلفه أحمد بن فارس يعد فى طليعة العلماء الذين أخذوا من كل فن بسهم وافر ، وكان لمعجمه اللغوى الآخر « المجمل » سيطرة علمية ظلت زماناً تتحكم فى الدراسات اللغوية والمعجمية ، كما اشتهر كتابه « الصاحبى » شهرة الصاحب بن عباد .

١ — وقد ظل هذا الكتاب — أعنى مقاييس اللغة — مطموراً فى زوايا النسيان ، لا يكاد يعرفه أحد من العلماء ولا من قدامى المؤرخين ، إلا ما أشار إليه ياقوت فى « معجم الأدباء » فإنه ذكره فى ثبت مصنفاته وقال : « كتاب مقاييس اللغة ، وهو كتاب جليل لم يصنف مثله » .

والذى وجه النظر إليه حديثاً هو دائرة معارف حيدرأباد بالهند ، إذ وضعته فى ثبت الكتب التى انتوت نشرها فى سنة ١٣٤٥هـ أى منذ سبعة وثلاثين عاماً ، كما أشار إلى ذلك بروكلمان فى كتابه . ثم اعتزمت نشره وزارة المعارف المصرية فى سنة ١٣٦٢هـ ولكنها لم تحقق العزم ، إلى أن أتيحت لى فرصة سعيدة إذ عالجت تحقيقه ونشره من سنة ١٣٦٦هـ إلى سنة ١٣٧١ وأخرجته مع فهارسه الفنية فى ستة مجلدات عن صورة مأخوذة من نسخة المدرسة المروية فى إيران .

(*) نشرت بمجلة المجمع ج١٥ ص ١٠١ سنة ١٩٥١م .

٢ — ولا يساورنى شك فى أن المقاييس من أواخر مؤلفات ابن فارس ، فإن هذا النضج اللغوى الذى يتجلى فى أثنائه ، دليل واضح . كما أن خمول ذكر هذا الكتاب بين العلماء والمؤلفين ، دليل كذلك . ولو أنه أتيح له أن يحيا طويلا فى زمان مؤلفه لاستولى على بعض الشهرة التى نالها صنوه « المجمل » .

٣ — وأستطيع أن أذهب أيضاً إلى أنه ألف المقاييس بعد تأليفه « المجمل » فإن دارس الكتابين يلمس القوة فى الأول ، ويجد ابن فارس فى المجمل إذا حاول الكلام فى الاشتقاق فإنما يحاوله فى ضعف وتهيب ، فهو فى مادة (جن) من المجمل يقول : « وسميت الجن لأنها تتقى ولا ترى . وهذا حسن » . فهو يعجبه أن يهتدى إلى اشتقاق كلمة واحدة من مادة واحدة ، وليس يكون هذا شأن رجل قد وضع من قبل كتاباً فيه آلاف من ضروب الاشتقاق وصنوفه ، بل هو كلام رجل لم يكن قد أوغل من قبل فى هذا الفن .

وهو فى « المجمل » يترك بعض مسائل اللغة على علاتها ، على حين ينقدها فى « المقاييس » نقداً ظاهراً . فى المجمل : « ويقال : الأترور الغلام الصغير فى قوله :

* من عامل الشرطة والأترور *

وفى المقاييس : « وكذلك قولهم إن الأترور الغلام الصغير ، ولولا وجداننا ذلك فى كتبهم لكان الإعراض عنه أصوب . وكيف يصح شىء يكون شاهده مثل هذا الشعر :

أعـــوذ بالله وبالأمـــــير من عامل الشرطة والأترور

٤ — وابن فارس يعنى بكلمة « المقاييس » ما يسميه بعض اللغويين « الاشتقاق الكبير » الذى يرجع مفردات كل مادة إلى معنى واحد أو عدة معان تشترك فيها هذه المفردات . قال فى الصاحبى [1] : « أجمع أهل اللغة

(١) الصاحبى ص ٣٣ .

إلا من شذ منهم أن للغة العرب قياساً . وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض ، وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان » .

٥ — وهو لا يؤمن باطراد القياس فى جميع مواد اللغة . بل هو ينبه على كثير من المواد التى لا يطرد فيها القياس [1] . كما يذهب إلى أن الألفاظ التى تدل على الأصوات ليست مما يجرى عليه القياس .

وهذا مذهب حسن لابن فارس ، وتعليله فيما أرى هو اختلاف المصادر التى يحاكى الإنسان صوتها من حيوان أو جماد أو نبات ، وهن جميعاً ليست لهنّ إرادة ما ، أو توجيه لما يصدر عنهن من أصوات يحاكيها الإنسان . فليس يتصور فيها القياس اللغوى أصلاً .

ويذهب كذلك إلى أن هناك جمهرة كبيرة من أسماء البلدان ليست مما يجرى عليه القياس . وهو كذلك يأخذ لنفسه الحذر حين يعالج المواد ذوات الإبدال ، فلا يجعل للمبدلة معنى قياسياً جديداً ، بل يردها إلى ما أبدلت منه [2] . وكذلك يصنع فى أسماء النبات .

وقد نفهم لتعليل ذلك أن كثيراً من أسماء النبات ما يكون أصله مأخوذاً من لغات أخرى ذات خصب وريف ، وأن منها ما يرتجل اسمه ارتجالاً كما أن أسماءها ليست من قبيل عنصر الحدث الذى يسرى فى معظم الكلمات الاشتقاقية .

٦ — وقد يظن ظان أن ابن فارس قد سيطرت عليه فكرة الاشتقاق وحملته على تكلف القياس كما فعل ياقوت فى « معجم البلدان » إذ حاول أن يطرد القياس الاشتقاقى فى معظم أسماء البلدان ومنها ما هو فارسى ، وما هو رومى أو تركى ، أو بابلى أو مصرى .

---

(١) انظر للمثال مادة (تبن) ، و (جمل) .

(٢) انظر مادة (جر ، جخ ، جهف ، حجم ، سجر) .

وليس كذلك ، فإن الرجل كان أميناً لمذهبه ، يديره فى المواد التى يرى فيها القياس واضحاً له وللدارس معاً . ثم هو ينأى عن مزالق التكلف والتأويل ، ومن أمثلة ذلك ما صنع فى مادة (دوى) ، فحينما وجد مفرداتها متخالفة متضاربة ، كل منها يضرب إلى معنى غير المعنى الذى يضرب إليه الآخر ، أغفل القياس فيها وساقها سوقاً عابراً ، ففيها : « الدوىّ دوىّ النحل ، وهو ما يسمع منه إذا تجمع » . وفيها : « الدواء ، وهو معروف » . وفيها « الدواة التى يكتب منها » . و « الداء بمعنى المرض » . و « دوّى الطائر إذا دار فى الهواء ولم يحرك جناحيه » . وفيها « الدُّوَاية ، وهى الجليدة التى تعلو اللبن الرائب » .

فكل من هذه الألفاظ لا يمت بسبب إلى الآخر ، وليس فى الإمكان إيجاد جامعة قريبة أو بعيدة بينها .

لكنه فى جمهور المواد يجد اليسر واطراد الاشتقاق ، فى مادة (خلق) يرجع مفرداتها إلى قياسين اثنين : أحدهما تقدير الشىء ، والآخر الملاسة .

فأما الأول فقولهم : خلقت الأديم للسقاء ، إذا قدَّرته . قال زهير :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ

ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

ومن ذلك الخُلق ، وهو السجية ، لأن صاحبه قد قدِّر عليه ذلك . وفلان خليق بكذا ، وأخلق به ، أى ما أخلقه ، أى هو ممن يقدَّر عليه ذلك . والخلاَقَ : النصيب ، لأنه قد قدِّر لكل أحد نصيبه . ومن الباب رجل مختلق : تام الخلق . والخَلق ، أى خلق الكذب ، وهو اختلاقه واختراعه وتقديره فى النفس . قال تعالى : « وتَخلُقون إفكاً » .

وأما الأصل الثانى فى معانى مادة (خلق) ، وهو الملاسة ، فقولهم : صخرة خلقاء ، أى ملساء . قال :

قد يترك الدهرُ فى خلقاءَ راسيةٍ
وهياً وينزلُ منها الأعصمَ الصدَعا

ويقال اخلولق السحاب : استوى . ورسم مخلولق ، إذا استوى بالأرض . والمخلَّق : السهم المصلح ، لأنه يصير أملس . ومن الباب : أخلق الشيء وخلَق ، إذا املاَسَّ وذهب زئبره .

وفى مادة (حفل) يرى أن أصلها واحد ، وهو معنى الجمع .

يقال : حفل الناس واحتفلوا ، إذا اجتمعوا فى مجلسهم . والمجلس يسمّى محفِلا . والمحفَّلة : الشاة قد حفِّلت ، أى جمع اللبن فى ضرعها . ويقال : لا تحفِل به ، أى لا تباله ، أى لا تتجمع له . وذلك أن من عراه أمر تجمع له . ومنه قولهم : رجل ذو حفلة ؛ إذا كان مبالغاً فيما أخذ فيه ، وذلك أنه يتجمع له رأياً وفعلاً . وقد احتفل لهم ، إذا أحسن القيام بأمرهم . ويقال تحفَّل، إذا تزين ، فكأنه يجمع لنفسه المحاسن . ومنه حفَلت الشيء ؛ إذا جلوته . وقياسه صحيح أيضاً ؛ وذلك أنه يجمع ضوأه ونوره بما ينفيه من صدئه .

٧ ــ فمعظم اللغويين حين يفسرون هذه الألفاظ التى سبق سردها لا ينظرون إلى تلك الأقدار المشتركة بينها من المعانى بل يفسرون الكلمات أقرب تفسير وأوجزه ، ولا يحاولون إيجاد العلاقة بين المتماثلات إلا نادراً أو عرضاً . ولكن ابن فارس يسوق هذا المذهب فى جمهور مواد اللغة مقتدراً بارعاً ، لا تتهيبه صعوبة الربط بين معانى الألفاظ والتماس العلاقة بين بعضها وبعض ، بل هو يمضى فى ذلك قدماً . فإذا التوفيق حليفه . والإصابة رائده . وبذلك يضع الباحث أمام المعنى الدقيق المحكم ، ويجلو ظلام التفسيرات والجمجمات المبهمة التى وقعت لمن سبقه من علماء اللغة .

فهو كذلك يستخدم مقاييس اللغة فى تصحيح تفسيرات كبار اللغويين ،

فقد ذكر فى تأصيل مادة (دمع) أن المادة لها أصل واحد يدل على ماء أو عَبرة . وبعد أن ساق شيئاً من مفردات المادة قال :

« ويقال شجة دامعة : تسيل دماً . كذا هو فى كتاب الخليل » . وعقب على ذلك بقوله : « والأصح من هذا أن التى تسيل دماً هى الدامية ، فأما الدامعة – بالعين – فأمرها دون ذلك ، لأنها التى كأنها يخرج منها ماء أحمر رقيق » .

٨ – ومع ذلك الفضلِ الواسع والنجاح الغنىّ ، لا نجد ابن فارس ذاهباً بنفسه فى غرور ، بل هو يحاول أبداً أن يشرك من سبقه من علماء اللغة فى الفضل الذى تهدى إليه . فهو يقول فى مادة (خدع) :

« الخاء والدال والعين أصل واحد ذكر الخليل قياسه ، قال الخليل . الإخداع : إخفاء الشىء . قال : وبذلك سميت الخزانة المُخدع » .

وفى مادة (خيل) بعد أن ذكر أن أصلها يدل على حركة فى تلون ، يروى ابن فارس عن الأصمعى أنه قال : كنت عند أبى عمرو بن العلاء . وعنده غلام أعرابى ، فسئل أبو عمرو : لم سميت الخيل خيلاً ؟ فقال : لا أدرى . فقال الأعرابى : لاختيالها . فقال أبو عمرو : اكتبوا .

وعقب ابن فارس على ذلك بقوله : « وهذا صحيح ؛ لأن المختال فى مشيته يتلون فى حركته ألواناً » .

وفى مادة (خذف) يذكر أن المادة تدل على الرمى ، ثم يقول : « ويقال أتان خذوف ، أى سمينة . قال أبو حاتم : قال الأصمعى : يراد بذلك أنها لو خذفت بحصاة لدخلت فى بطنها من كثرة الشحم » . ثم يقول : « وهذا الذى يحكيه عن هؤلاء الأئمة – وإن قلّ – فهو يدل على صحة ما نذهب إليه من هذه المقايسات » .

٩ – ولا ريب أن هذه النظرات واللفتات المتقطعة التى كانت تظهر بين

الحين والآخر فى إجراء القياس الاشتقاقى فى مفردات المادة اللغوية الواحدة ، قد أخذت سبيلها إلى التجمع شيئاً فشيئاً ، فنجد لغوياً مثل أبى منصور الأزهرى صاحب التهذيب (٢٨ — ٣٧٠) يعترف بهذا القياس فى قوله فى نهاية مادة (قطع) من الجزء الأول ويقول : « قلت : وكل ما مر فى هذا الباب من هذه الألفاظ واختلاف معانيها فالأصل واحد والمعانى متقاربة وإن اختلفت الألفاظ . وكلام العرب آخذ بعضه برقاب بعض » .

١٠ — ونجد ابن دريد (٢٢٣ — ٣٢١) من قبل الأزهرى يؤلف كتاب « الاشتقاق » وهو — فيما أعتقد — صاحب الفضل فى الإيحاء إلى ابن فارس بهذه الفكرة العبقرية وإمكان تطبيقها ؛ إذ حاول ابن دريد فى كتابه هذا أن يرد أسماء قبائل العرب وعمائرها ، وأفخاذها وبطونها ، وأسماء ساداتها وثُنيانها وشعرائها ، وفرسانها وحكامها ، إلى أصول لغوية اشتقت منها هذه الأسماء ويقول فى مقدمة الاشتقاق : « ولم نتعد ذلك إلى اشتقاق أسماء صنوف النامى من نبات الأرض نجمها وشجرها وأعشابها ، ولا إلى الجماد من صخرها ومدرها وحَزْنها وسهلها ؛ لأنا إن رمنا ذلك احتجنا إلى اشتقاق الأصول التى تشتق منها . وهذا ما لا نهاية له » .

ولكن ابن فارس استطاع أن يقارب هذه النهاية التى تهيبها ابن دريد ، وحاول أن يقوم بما عجز عنه أو نكص دونه ، فألف كتابه هذا « المقاييس » يطرد فيه قاعدة الاشتقاق فيما صح لديه من كلام العرب .

١١ — والكلام فى الاشتقاق قديم ، يرجع العهد به إلى زمان الأصمعى وقطرب وأبى الحسن الأخفش ، وكلهم قد ألف فى هذا الفن وحاول ، ولكن ابن دريد بدأ النجاح الكبير لهذه الفكرة ، وتَمَّمَاه ابن فارس بتأليف المقاييس . فنجاح فكرة الاشتقاق فى نطاقها الواسع ، قد ظفر به فى العربية هذان العالمان . وإن كان لابن دريد فضل الإيحاء والسبق ، فإن لابن فارس فضل القوة البارزة والاقتدار العارم .

١٢ — ولقد حاول معاصران لابن فارس المتوفى سنة (٣٩٥) . وهما : أبو على الفارسى (٢٨٦ — ٣٧٧)، وتلميذه أبو الفتح عثمان بن جنى (٣٢١ — ٣٩٢) أن يصعدا درجة فوق هذا بإذاعة قاعدة الاشتقاق الأكبر التى تجعل للمادة الواحدة وجميع تقاليبها أصلا أو أصولا ترجع إليها فأخفقا فى ذلك ، ولم يستطيعا أن يشيعا هذا المذهب فى جمهرة مواد اللغة .

وقد عقد ابن جنى فى صدر كتابه « خصائص اللغة » فصلا لتفسير هذا المذهب جعل من أمثلته مادة (ق و ل) التى ذهب إلى أنها أين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره إنما هى للخفوف والحركة . يعنى (ق و ل) ، (ق ل و) ، (و ق ل) ، (و ل ق) ، (ل و ق) .

وقد أصاب فى هذه المحاولة الساذجة نجاحاً ، ولكننى أحسب أنه كان يحس فى قرارة نفسه أن الفكرة ليست من الاطراد فى منزلة يبنى عليها مذهباً لغوياً قائماً، إذ لو كان قد شعر بهذا الاطراد وهذا القياس لمارسه وعالجه فى نطاق واسع من حقول التجارب اللغوية . ولكنه صاح بها ثم أسكت ، صنيع من لا يؤمن بما يدعو إليه ، ومن لا يستطيع الدعوة إلى ما هو موضع الشك والريبة .

هذا كله يجعلنا نحنى الرأس إجلالاً لهذا العالم اللغوى الجليل ، أحمد بن فارس بن زكرياً ، الذى توج التأليف العربى بتاج لا نجد له نظيراً فى تألقه ، ولا شبيهاً له فى أرجاء الثقافة العالمية وفى زواياها . فلم نعلم — بعد الاستقصاء والبحث — أن لغة من لغات العالم ، كائنة ما كانت ، ظفرت بمثل هذا التأليف المبتدع ، فى قديم الزمان ولا فى حديثه على كثرة ما نرى ونسمع من تعدد النشاط اللغوى واختلاف وجوهه .

إن ابن فارس رجل خالد ، خلّده علمه . وخلّده خلقه قبل علمه ؟

عبد السلام محمد هارون

- ١٧ -

كان عالمـا جليلا(*)

[الصديق الخالد المغفور له الأستاذ عبد الرحيم محمود]

خلق للعلم ، وعاش للعلم ، حتى إذا ما أدى واجبه كاملاً غير منقوص ، راح إلى جوار ربه قرير العين ، مثلج الصدر ، مرتاح الضمير ، وراح صديقه إلى قبره ساخن العين ، حران الصدر ، حزنان الضمير ! !

شيعناه بالأمس إلى قبره ، وكنا نحسب أننا سنلتقى بجنازة حافلة تتلاطم فيها أمواج الأصدقاء ، وتتلاقى فيها عيون الصفوة المختارة من كبار الأدباء والعلماء ، ولكن الذى نعى العالم الجليل « عبد الرحيم محمود » لم يحسن النعى ولم يوفق فيه ، ولم ينشر خبر وفاته كما ينبغى أن يذاع . وهو هو الأديب الكبير الذى شمل فضله جمهرة الأدباء ، وانتفع بعلمه كبار العلماء .

فإنى لأعلم يقيناً أن « عبد الرحيم » كان أستاذاً لكبار أدباء هذا الجيل ومرشداً لهم ، وأعلم يقيناً أنهم كانوا يعترفون له بهذه الأستاذية ويفخرون بها فى مجالسهم وأحاديثهم ، وأنهم كانوا يحاولون بقدر الإمكان أن يجزلوا ثوابه على هذا الفضل البارع ، ولكن سوء حظ الأديب يأبى إلا أن يخالفه حتى الممات !

كانت جنازته جنازة صغيرة . ولكنها كانت على صغرها تضم نخبة مختارة من المثقفين ، فكان فيها كاتب واحد كبير ، وأستاذ واحد من أساتيذ الجامعة ، ومؤرخ واحد من كبار المؤرخين ، وشيخ واحد من أعضاء الشيوخ ، وقاض واحد من القضاء الوطنيين ، وصحفى واحد من خيرة الصحفيين ، وموظف واحد من كبار موظفى المجمع اللغوى ، وآخر من كبار موظفى وزارة

(*) نشرت بالعدد ٦٢٥ من مجلة الثقافة فى ١٦ من يوليو سنة ١٩٥١ م .

المعارف ، فكان هؤلاء إلى لفيف من زملائه بدار الكتب المصرية هم الذين أسعدهم الحظ بشرف السير في جنازته . وإني لأرى أن ذلك جاء طبقاً لرغبته وسنته في العيش . سنة التواضع العميق ، والبعد عن زخارف الحياة وتهاويلها .

كان عبد الرحيم عالماً جليلاً نافذ البصر ، وأديباً فحلاً ناقد النظر ، وكان ملجأنا وموئلنا حين تظلم شبهات العلم ، وتختلط موازين النقد ، فيجلى عن تلك ، ويفصل بين هذه بما آتاه الله من مقدرة عالية ، ومن اتزان علمي بلغ الغاية أو أوفى على النهاية .

كان عبد الرحيم مصباح القسم الأدبي بدار الكتب منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، وإليه يرجع الفضل في كثير مما ظهر من محققات الدار .

وكان نبراس لجنة إحياء آثار أبي العلاء ، وإليه يرجع كثير من الفضل فيما ظهر من آثار أبي العلاء ، وأشهد لقد كان أستاذنا ومرشدنا في هذه اللجنة ، وكثيراً ما كنا نختصم اختصاماً شديداً ونراه المخطئ الذي لا ريب في خطئه ، فإذا هو يصابرنا ويصابرنا في ثقة الأستاذ وإيمانه حتى يلمع الحق في جانبه ، فنهرع إليه معترفين له به ، ثم نشد على يده إعجاباً بفضله وخلقه العلمي .

كان عبد الرحيم أستاذاً للتحقيق العلمي ، يتأتى لمجاهيل العلم من حيث تخيب ظنون الناس ، ويتهدى إلى مشاكله من حيث تضل الأقوام ، وكان صبوراً على التحقيق والتنقيب ، مجانباً للتسرع والاندفاع ، وقد تمكث الكراسة الواحدة من تجارب الطبع تحت يده زهاء الأسبوع ، وهو يبدئ النظر فيها ويعيد ، ولا يتركها حتى يجلوها سليمة من الخطأ ، بريئة من العيب ، كل ذلك في أمانة بالغة ، وحرص علمي كبير .

وكان حجة عظيماً في مسائل العربية ولغات العرب ، فكانت فتواه القول الفصل ، والبرهان الساطع .

وكان قوى الذاكرة يعلم العلم فيحتفظ به سليماً كما هو لا تغيير ولا تبديل. ولقد زرته فينات فى حجرته المتواضعة ، ولست أجد لديه من الكتب والمراجع إلا لسان العرب لابن منظور ثم شفعه أخيراً بمعجم مقاييس اللغة لابن فارس ، لأنه كان يعتمد على ذاكرة عبقرية ، تعى من أعماق الماضى ما لا يعيه المحدثون من سطوح الحاضر !

وكان عبد الرحيم صديقاً وفياً خالص الوفاء . وكان ذا مروءة فياضة ، وكان على ضيق ذات يده مفرط الجود ، لا يضن أن يتبرع بجاهه ، إذ كان له جاه عظيم لدى كبار رجال الدولة . وكثيراً ما جلب إلى أصدقائه ومواطنيه من أبناء الصعيد خيراً كثيراً ، ودافع عنهم أذى كبيراً . وأعلم لقد جلب الخير إلى كثير ممن وصلوا إلى السلطان .

كان عبد الرحيم ظل الصيف : كان ذا دعابة وفكاهة يصدران عن أدب جم ، وخلق سمح ، وذكاء جميل . وكان مجلسه سروراً ومتعة عالية . وكأنى بجميع أندية القاهرة تعرف عبد الرحيم ، إذ كان يتردد عليها منذ صباه ، وله فى كل منها أصدقاء ومريدون . كان عبد الرحيم صديقاً للقاهرة وعلمت فى جنازته بالأمس أنه آثر أن يدفن فى القاهرة على أن يدفن فى مسقط رأسه ، وأوصى بذلك إلى أحد أصدقائه المختارين . الذى اختار له مثوى كريماً فى مقبرة أسرته فى حى الإمام الشافعى . فليرحمه الله وليسكب عليه شآبيب رحمته ورضوانه ! !

لقد ترك عبد الرحيم فى قلوب أصدقائه كلوماً لا تبرأ وجراحاً لا تندمل . وفى صفوف تلاميذه والمعجبين به فراغاً لا يسد ، وثلمة لا ترأب ، ولكنه ترك للعلم جهاداً صالحاً . وللوفاء والبر مثالا عالياً . وللمروءة والكرم مناراً واضحاً ، وللصبر وقوة الاحتمال علماً شامخاً ! !

عليك سلام الله قيسَ بنَ عاصمٍ
ورحمتُه ما شاء أن يترحَّما

تحيةَ من غادرته غرضَ الردى
إذا زار عن شحطٍ بلادَك سلَّما

وما كان قيسٌ هلكُه هلكَ واحدٍ
ولكنه بنيان قوم تهدَّما

عبد السلام محمد هارون

الباب الثاني

بيني وبين الأدباء والعلماء

كليلة ودمنة

نقد وتعليق

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

— ١ —

« كتابٌ دَهريُّ الصَّنعة ، متقادم الميلاد » ، أفرغت فيه حكم الدنيا ومواعظ الأجيال ، وكان عجباً عاجباً ، وأدباً خالداً ! !

وكان اختيار مطبعة المعارف لهذا السِّفر الجليل أن يكون تذكاراً لعيدها الخمسيني — اختياراً موفَّقاً كل التوفيق ، فبرهنت بذلك أنها تحسن هذا الأمر وتجيده .

وأما الرجل الذى وكِلَ إليه الاضطلاع بعبء نشر الكتاب وتحقيق مواضع الشُّبه فيه والحكم عليها ، فرجل َهدَّكَ مِنْ رجل !

فالدكتور عبد الوهاب عزام قطب من أقطاب الثقافة العربية كما هو من الثقافة الفارسية . فكان بذلك خير من يتصدَّى لمثل « كليلة ودمنة » ، لينشره على الناس فى هذا الثوب الرائع الفائق ، وليجهد نفسه فيه هذا الإجهاد المثمر الطيب .

وإنى لأبادر فأهنئ الأستاذ عزام تهنئة صادقة ، لما أحيا « كليلة ودمنة » على نحو يغتبط له ابن المقفع فى مثواه ، ويغتبط له أيضاً ذلك الجندى المجهول الذى صنع للناس هذا الكتاب فى أصله الهندى ، ثم تركه يسير فى الدنيا كريماً عزيزاً ، تتهاداه اللغات ، وتتنازعه اللهجات ، ويغتبط له كذلك أنصار الأدب العربى فى المشرقين والمغربين .

---

(١) نشرت بمجلة الرسالة العدد ٤٢٥ بتاريخ أغسطس ١٩٤١ م .

كما أزجى تهنئتى إلى رجال مطبعة المعارف ، منوّهاً بهذا الفن العجيب الذى أبرز الكتاب تحفة تاريخية ناطقة . وإن كان للنشر أدب خاص ، فهذا الكتاب منه قطعة أدبية عالية ؛ وإن للألواح الثلاثة عشر التى رسمها المصور « رومان ستريكالفسكى » لأثراً كبيراً فى إحداث هذا الجو الفنى البهيج .

وقد صنع الأستاذ عزام لهذا الكتاب مقدمة بلغت من النفاسة مبلغاً ، وحوت من الفوائد الكثير ؛ فهو قد عرض لتاريخ الكتاب ، وبيّن أن النسخة العربية « أصل لكل ما فى اللغات الأخرى ، حاشا الترجمة السريانية الأولى ، فقد فُقِد الأصل الفهلوى الذى أخذت عنه الترجمة العربية ، وفُقد بعض الأصل الهندى الذى أخذت عنه الترجمة الفهلوية واضطرب بعضه ، فصارت النسخة العربية أُمّاً يرجع إليها من يريد إحداث ترجمة أو تصحيح ترجمة قديمة ، بل يرجع إليها من يريد جمع الأصل الهندى وتصحيحه » .

ثم تحدّث عن طبعات الكتاب ، فذكر :

١ — طبعة المستشرق دى ساسى الذى كانت طبعته أصلاً من أصول الطبعات المصرية الكثيرة ؛ وهى نسخة ملفقة من عدة نسخ .

٢ — ثم طبعتى اليازجى وطبارة ، وهما ملفقتان من طبعة دى ساسى ومخطوطات ومصورات أخرى .

٣ — ثم طبعة شيخو ، وهى أول طبعة فى اللغة العربية تقدم للقراء نصاً كاملاً غير ملفق من كتاب « كليلة ودمنة » وأصلها مخطوط سنة ٧٣٩ هـ ؛ وقد طبعه شيخو كما هو لم يصحح أغلاطه ولم يوضح غامضه ، ليكون أمام المستشرقين صالحاً للمقارنة والنقد .

ثم تحدث عن النسخة التى نقلت عنها الطبعة الحديثة ، وهى فى مكتبة أيا صوفيا بإسطنبول كتبت سنة ٦١٨ ، فهى أقدم من كل المخطوطات التى وصفها المستشرقون ، وأقدم من نسخة شيخو المكتوبة سنة ٧٣٩ .

وهذه النسخة مفعمة بالتحريف والتصحيف والأسقاط وخطأ الرسم ؛ وتستطيع أن تعد فى النموذج المصور من الصفحة الأولى فقط [١] نحو اثنى عشر تحريفاً وتصحيفاً .

وهذا يدل على مقدار الجهد الهائل الذى بذله الأستاذ عزام فى تحقيق هذه النسخة وتقريبها إلى السلامة .

ونحن فى هذا الصدد نأخذ على الأستاذ أنه لم يتوخ فى هذه الناحية ما يقتضيه النشر العلمى من إثبات الأصل والتنبيه عليه ؛ فقد يكون للقارئ وجه فى التصحيح غير الذى ارتضى . نعم ، إن الأستاذ قد أثبت بعض كلمات الأصل فى التعليقات التى ألحقها بالكتاب ، لكنها من القلة بحيث لا تغنى شيئاً فى معرفة أصل الكتاب والوقوف عليه .

وأمامنا جهود المستشرقين ناطقة بمدى تقديرهم لهذه الناحية التاريخية الفنية . فلا تكاد تجد كتاباً نشروه إلا وقد أثبتوا أصله أو أصوله إن كان ذا نسخ مختلفة .

وكتاب مثل كتابنا هذا ، لَبِسَ من جلال التاريخ ما لَبِس ، جدير بما ذكرت من وجوب بيان أصله للرجوع إليه ، ووجوب مقارنة نسخه بعضها ببعض .

ولغة ابن المقفع فى « كليلة ودمنة » لغة عالية ، تعلو على المتأدب والأديب أيضاً ، فهى محتاجة إلى توضيح وتقييد وبيان . فكان من المستحسن أن يصنع الأستاذ لها شرحاً أو معجماً يلحقه بنهاية الكتاب ، كما فعل من قبل

---

(١) ص ٢٣ من المقدمة .

الخورى نعمة الله الأسمر ، حينما نشر ترجمة ابن الهبارية لكليلة ودمنة ، مع أن لغة هذا النظم فى مستوًى دون مستوى ترجمة ابن المقفع .

على أن الأستاذ قد أحسن صنعاً بما حقق من الأعلام الفارسية والهندية ، مما يشهد له بتمام البراعة فى ذلك .

* * *

قرأت نسخة الأستاذ عزام ، ونعمت – كما نعم غيرى – بما فيها من دقة وجمال ، فطالعنى فيها خير كثير ومقدرة فنية عظيمة ، كما ظهرت لى بعض هنات أحببت أن أنبه عليها ، وبدا لى بعض الرأى فى عبارات الكتاب ، فآثرت أن أنشره راجياً أن يباعدنى العَنَتُ ، ويفارقنى التكلف ، وأن يسعفنى فى ذلك الحق .

١ – فى الضبط اللغوى :

١ – ص ٣٦ س ٦ : (كالعظم المتعرِّق) بكسر الراء ، صوابه : (المتعرَّق) بفتح الراء المشددة . يقال عرق العظم يعرقه عرقاً ، وتعرَّقه ، واعترقه : أكل ما عليه من اللحم .

٢ – ٨١ : ٥ ، ٦ : (ولكن النفس الواحدة يفتدِى بها أهلُ البيت ، وأهل البيت تفتدِى بهم القبيلة ، والقبيلة يفتدى بها المصر) . الوجه : (يُفتَدَى) و (تُفتَدَى) بالبناء للمجهول فيهما . فأهل البيت ، وكذا القبيلة والمصر لا يفعلون الافتداء ، وإنما يفعل بهم ذلك غيرهم فهم مفتدَوْن . ومن ذلك ما قال كعب بن سعد الغنوى (١) :

فلو كان حىٌّ يُفتَدَى لفديتُه بما لم تكن عنه النفوس تطيبُ

---

(١) أمالى القالى (٢ : ١٤٩) .

٣ ـ ٨٧ : ٦ : (ولا تغترّ إليه) ، ولا يقال (اغترّ إليه) بل (اغترّ به) على أن جو العبارة يؤذن بأن صحتها : (ولا تقترب إليه) فليس فيما سبقها من الكلام ما يشعر بأن « شترَبة » قد يتعرض للاغترار أو يقع فيه .

٤ ـ ٩١ : ١٢ : (وندفن بقيتها مكاناً حريزاً) . وهذه عبارة غير صحيحة . والصواب : (فى مكان حريز) فإن الفعل (دفن) لا يتعدى إلى ثان إلا بالحرف (فى) . وليس هذا أيضاً من المواضع التى يكون فيها لفظ (مكان) ظرفاً من الظروف المكانية ؛ فإن اسم المكان الصالح للظرفية إما أن يشتق من حدث بمعنى الاستقرار والكون فى مكان ، أوْلا . والثانى لا ينتصب على الظرفية إلا بالفعل الذى ينتصب به على الظرفية المختص من المكان كدخلت ونزلت وسكنت . وذلك نحو المضرب والمقتل والمأكل والمشرب .

والأول (ومنه لفظ مكان) إنما ينصبه على الظرفية أمران : أحدهما الفعل المشتق مما اشتق منه اسم المكان نحو قمت مقامه ، وجلست مجلسه ، وأويت مأواهُ ؛ وثانيهما كل ما فيه معنى الاستقرار وإن لم يشتق مما اشتق منه ، نحو قعدت موضعك ، ومكان زيد ، وجلست منزلَ فلان ، ونمت مبيته ، وأقمت مشتاه . وما ليس فيه معنى الاستقرار لا ينصبه فلا يقال كتبت الكتاب مكانك ، وقتلته مكان القراءة ، وشتمتك منزل فلان[1] .

وليس « الدفن » من الاستقرار فى شئ ، فلا ينصب لفظ « المكان » على الظرفية المكانية .

وقد جاء فى نسخة بولاق[2] ص ٤٩ : « وندفن الباقى فى أصل هذه الشجرة . فهو مكان « حريز » .

---

(١) انظر همع الهوامع (١ : ١٩٩) وشرح الرضى للكافية (١ : ١٦٩ ـ ١٧٠) .
(٢) كليلة ودمنة طبع بولاق سنة ١٢٥١ .

٥ – ٩٥ : ١٣ « وبلاء يضيَّع عند من لا شكر له » البلاء هنا بمعنى الإنعام . وفى ترجمة ابن الهبّارية ص ٩٥ :

ما أضيع النعمة عند الكافر وأقبح الخلّة عند الهـاجر

وبين اللغويين خلاف فى أن يكون البلاء بمعنى الإنعام ؛ فقال بعضهم : « الإبلاء : الإنعام . والبلاء : الإشقاء والإتعاس » . أما الإبلاء بمعنى الإنعام فلا خلاف فيه . ومنه قول زهير [1] :

رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

أى صنع بهما خير الصنيع . والحق أن الإنعام إنما هو الإبلاء لا البلاء . ومنه الحديث : « من أُبلىَ فذكر فقد شكر » وحديث كعب بن مالك : « ما علمت أحداً أبلاه الله خيراً مما أبلانى [2] » .

وقد احتج من زعم أن « البلاء » يكون أيضاً بمعنى الإنعام بقوله تعالى : « وآتيناهم من الآياتِ ما فيه بلاء مبين » وقوله : « ونبلوكم بالشرِّ والخير فتنةً » ورُدَّ عليه بأن البلاء فى الآية الأولى بمعنى الاختبار لا الإنعام . وكذلك « نبلوكم » أريد بها : « نختبركم » .

وجاء فى نسخة بولاق ص ٥١ : « وحِباء يصطنع عند من لا شكر له » . والحِباء ، بالكسر : العطاء .

٦ – ٢٢١ : ١٥ : « ولكن إيش الفائدة فيها » بكسر الهمزة ، وهذا ضبط عامى ؛ والصواب : (أَيْشٍ) بفتح الهمزة وتنوين الشين المكسورة ، وأصلها : (أىُّ شىءٍ ؟) خفّفت بحذف الياء الثانية من (أىّ) وحذف همزة

(١) فى ديوانه ٢١ .
(٢) نهاية ابن الأثير ، ولسان العرب .

(شيء) بعد أن نقلت حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، ثم أُعِلَّت إعلال المنقوص . ونحوها فى ذلك (وَيْلُمِّهِ) ، أصلها : (ويلٌ لأمه) ، حذفت لام (ويل) وهمزة (أمّ) . قال المتنخل الهذلى[1] :

ويلمه رجلاً تأتى به غبناً إذا تجرّد لا خال ولا بخلُ

وقال ذو الرمّة[2] :

ويلمّها روحةً والريحُ مُعصفةٌ والغيث مرتجزٌ والليل مقتربُ

وقال علقمة بن عبَدة[3] :

ويلمِّ أيامِ الشباب معيشةً
مع الكُثْر يُعطاه الفتى المتلِفُ النَّدِى

قال ابن السِّيد فى الاقتضاب[4] : «حذف لام ويل وهمزة أمٍّ ، كما قالوا أيشٍ لك ، يريدون : أى شىءٍ ؟» . وقال الخفاجى فى شفاء الغليل : «أيش بمعنى أى شىءٍ، خفف منه . نص عليه ابن السيد فى شرح أدب الكاتب ، وصرحوا بأنه سمع من العرب . وقال بعض الأئمة : جنّبونا أيش ؛ فذهب إلى أنها مولدة . وقول الشريف فى حواشى الرضى أنها كلمة مستقلة[5]

(١) أدب الكاتب ١٨٣ سلفية والاقتضاب ٣٦٣ .

(٢) خزانة الأدب (٣ : ٢٤٨ سلفية) .

(٣) الخزانة (٣ : ٢٥٣ سلفية) .

(٤) الاقتضاب ٣٦٥ ؛ وانظر أيضاً تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة للجواليقى ص ٤٧ .

(٥) فى الأصل : «مستعملة» .

بمعنى أى شئ وليست مخففة منها ، ليس بشىء . ووقع فى شعر قديم[١] أنشدوه فى السير :

* من آل قحطان وآل أيش *

قال السهيلى فى تفسيره : « وأما آل أيش فيحتمل أن تكون قبيلة من الجن المؤمنين ينسبون إلى أيش . فإن يكن هذا وإلا فله معنى فى المدح غريب . تقول : فلان أيش هو ، وابن أيش ! ومعناه : أى شيء عظيم ؛ فكأنه أراد من آل قحطان ومن المهاجرين الذين يقال فيهم مثل هذا ، كما تقول : هم وما هم ! وزيد ومازيد ، وأى شيء زيد ! وأيش فى معنى أى شيء كما يقال ويلمه فى معنى ويل أمه ، على الحذف وكثرة الاستعمال . وهذا كما قال هو : فى جيش وأى جيش ! »

* * *

— ٢ —[*]

٧ — ١٧٩ : ٤ : (فأسعفنى بطِلبتى) بكسر الطاء وهى صحيحة . لكن العرب يختارون فى مثل هذا « الطَّلِبة » بفتح الطاء وكسر اللام . ومنه حديث نقادة الأسدى : « قلت : يا رسول الله ، اطلب إلىّ طَلِبة ، فإنى أحب أن أطلِبَكها » .

٨ — ٢٦١ : ٤ : « إن الملوك وغيرهم جُدُرٌ أن يأتوا الخير إلى أهله » . وقد أفسد هذه العبارة أمران : أما الواحد ، فأن (جُدُر) جمع (جِدار)

---

(١) هذا وهم . والصواب أنه سجع كاهن . وقد ذكره السهيلى فى (١ : ١٣٨) . وهو قول خطر بن مالك الكاهن : « والحياة والعيش ، إنه لمن قريش ؛ ما فى حلمه طيش ، ولا فى خلقه هيش ، يكون فى جيش وأى جيش ، من آل قحطان وآل أيش » .

(*) نشرت بمجلة الرسالة العدد ٤٢٦ ، سبتمبر ١٩٤١ .

بالكسر ، وهو الحائط ؛ والصواب : (جُدَراء) ، أو (جديرون) ، وهما الجمعان اللذان يجمع عليهما (جدير[١]) ؛ وجمع (فَعيل) صفة على (فُعُل) بضمتين نادر سمع منه : نذير ونذُر ، وجديد وجُدُد (بدالين) ، وسديس وسُدُس[٢] .

وأما الثانى ، فإن (أتى) إذا تعدّى إلى المفعول لا يكون بمعنى الإعطاء ، بل يكون بمعان أخر . منها الفَعْل : أتى الأمرَ والذنبَ : فَعَلَه ؛ ومنها الهدم والقلع ، قال الله تعالى : « فأتى اللهُ بنيانهم من القواعد[٣] » . ومنها الانتساب ، أتى الرجل القوم : انتسب إليهم وليس منهم ، فهو أتِىٌّ .

وأما الذى هو بمعنى الإعطاء ، فهو الفعل (آتى) على زنة أفعلَ . ومنه قول الله تعالى : ﴿ آتِنا غداءَنا[٤] ﴾ ، وقوله : ﴿ وآتيناهُ الحكمَ صبيًّا[٥] ﴾ ؛ ومضارعه (يؤْتى) على يُفعِل . وفى كتاب الله تعالى : « يُؤْتى . يؤتون ، يؤتين . يؤتيه . سيؤتينا . يؤتكم . يؤتيهم . تؤتونهن . وتؤتوها . نؤتيه . نؤته . نؤتها . يؤتهم . سنؤتيهم[٦] » ؛ وإنما سقت هذه الشواهد لأنبه على أن ما ورد فى اللسان من قوله[٧] : « والإيتاء : الإعطاء . آتى يُؤاتى إيتاءً ، وآتاه إيتاءً أى أعطاه » وهمٌ أو تصحيف ؛ والصواب : آتى يُؤتِى .

فوجه عبارة ابن المقفع إذن : « جُدراءُ أن يُؤتوا الخير إلى أهله » .

ولعل السر فى هذا التحريف أن طائفة من علماء الرسم الأقدمين كانوا يرسمون الهمزة ألفاً فى كل حالة . وزعيمهم فى ذلك أبو زكريا الفراء المتوفى

---

(١) اللسان والقاموس وكتاب سيبويه (٢ : ٢٠٧ — ٢٠٨) .
(٢) سيبويه ، وهمع الهوامع (٢ : ١٧٥ طبع ١٣٢٧) .
(٣) سورة النحل ٢٦ .
(٤) سورة الكهف ٦٢ .
(٥) سورة مريم ١٢ .
(٦) انظر فلوجل Flugel ص ٣ ، أو مصباح الإخوان ص ٩ .
(٧) لسان العرب (١٨ : ١٧ س ١٦) .

سنة ٢٠٧ ، وجمهور علماء الرسم يُسمُّون أولئك: «أصحاب التحقيق» ، أى تحقيق الهمزة ؛ وأما الكتابة الغالبة التى نأخذ نحن بها الآن ، فيسمى أصحابها : « أصحاب مذهب التخفيف والتسهيل » ، وهم يجرون على لغة أهل الحجاز فى تخفيف الهمزة وتسهيلها ، ويعبرون عنها بصور تسهيلها : من الألف والواو والياء[1] . فلعل هذه بقية من بقايا رسم التحقيق .

٢ ـ فى الضبط النحوى :

١ — ص ١٤ س ٧ : (ولكل علّة مَجرَى) ، صوابه : (مجرًى) بالتنوين ، وهو تحريف طبع .

٢ — ١٨ : ١١ : (فيعلم سرَّ نفسه وما يضمر عليه قلبَه) بنصب (قلبه) وجعلها مفعولاً ليُضمر ، وأضمر يُضمر بمعنى أخفى يخفى ، فما يكون المعنى فى أن يخفى قلبَه عليه ؟ الصواب : (قلبُه) بالرفع على الفاعلية ؛ لأن القلب هو الذى يضمر الأسرار والنوايا .

٣ — ٤١ : ١٤ : (وشبِّهت الجرذين بالليل والنهار ، وقرضُهما دأبُهما فى إنفاد الآجال) يصح أن تقرأ : (وقرضَهما دأبَهما) باستمرار التشبيه ؛ و(شبَّه) من الأفعال التى تتعدى إلى مفعولين . وفى اللسان : (شبَّهَهُ إياه وبه) . ومنه قول الشمردل[2] :

يُشبَّهُون مُلوكاً فى تجِلَّتهم وطول أَنْضية الأعناق والأممِ

وقول عبد بنى الحسحاس[3] :

(١) المطالع النصرية ٦٤ — ٦٥ ، ٨٩ ، ١٤٩ طبع ١٢٧٥ وهمع الهوامع (٢ : ٢٣٩) وأدب الكاتب ١٩٧ .

(٢) الحيوان (٣ : ٩٢) والكامل ٣٥ ليبسك والقالى (١ : ٢٣٨) .

(٣) الحيوان (١ : ٢٥٥) .

فشبّهنى كلباً ولست بفوقه ولا دونه إن كان غير قليل

وقد سبق استعمال ابن المقفع لهذه اللغة فى ٣٥ س ٤ : (وشبهتهما الُجنَّةَ الحريزةَ) . وعلى ذلك يسوغ أيضاً أن تضبط كلمة (العسل) فى السطر بعدها بالنصب .

٤ — ٦٨ : ١٤ — ١٦ : (قال دمنة : حدَّثنى الأمين الصادق عندى أن شتربة خلا برءوس جندك فقال لهم : قد عجمت الأسد ، وبلوت رأيه ومكيدته وقوته ، فاستبان لى فى كل ذلك ضعف ؛ وإنه — بكسر الهمزة — كائن لى وله شأن . وأنه — بفتح الهمزة — لما بلغنى هذا عرفتُ ... الخ) ، يصح أيضاً : (وأنه كائن) بفتح أن . عطف على فاعل (استبان) . ويتَعَيَّن : (وإنه لما بلغنى) بكسر الهمزة . عطف على مقول دمنة . أى وقال دمنة : إنه لما بلغنى ... الخ .

٥ — ٩٦ : ٣ (وكذلك الُجهَّال لم يزالوا يستثقلون عقلاءهم واللؤماء كرامهم) . صوابه : (واللؤماءُ) بالرفع . وهذا تحريف طبع .

٦ — ١٢٨ : ٤ (فأعادت ذلك عليه مراراً — كلُّ ذلك لا يلتفت إلى قولها) . ولا وجه للرفع هنا . والوجه (كلَّ ذلك) بالنصب على الظرفية الزمانية . ولا يصح أن تكون : (كل) مبتدأ . وذلك لأن الضمير العائد عليها محذوف تقديره (فيه) . والبصريون يمنعون حذف الضمير العائد على لفظ (كل) إذا كان مبتدأ[١] ولذلك حكموا بشذوذ قراءة ابن عامر فى سورة الحديد[٢] : (وكُلٌّ وَعَدَ الله الحُسنى) . وقراءة باقى السبعة : (وكُلاًّ) بالنصب[٣] . وابن عامر قرأ نظير هذه الآية من سورة النساء ٩٥ (وكُلا وعدَ الله الحسنى) بالنصب كالجماعة[٤] .

(١) الصبان (١ : ٢٠٩ بولاق ١٢٨٧) .

(٢) سورة الحديد ١٠ .

(٣) ابن القاصح ٢٣٨ وغيث النفع ٣٢١ .

(٤) انظر المغنى (كل) وكذا المصدرين السابقين .

٧ — ١٦٠ : ٢ (إلى مكان كذا وكذا) . تكرار (كذا) مع العطف أحد استعمالين صحيحين . والوجه الآخر الإفراد ، أى (مكان كذا) . وبهذا وردت فى ص ٨٣ من طبعة بولاق .

قال ابن هشام فى رسالته التى صنفها فى معنى هذه الكلمة : كذا وكذا يكنى بها عن غير العدد . وفيها حينئذ الإفراد والعطف ، نحو مررت بمكان كذا ، ومررت بمكان كذا وكذا . ويكنى بها عن العدد وليس فيها إلا العطف ... وقال ابن مالك : سمع فيها العطف وعدمه كالأولى ، لكنه قليل(١) .

وفى شرح الأشمونى : « تأتى كذا هذه — أعنى المركبة — كناية عن غير العدد وهو الحديث مفردة ومعطوفة » .

ففُهم من هذين النصين أن الإفراد فى المكنى بها عن غير العدد مقدم على العطف . لكن الرضى قدم العطف على الإفراد فى الحالين .

قال(٢) : « وورود كذا كذا مكرراً مع واو نحو كذا وكذا أكثر من إفراده ومن تكرره بلا واو . ويكنى بها عن العدد نحو عندى كذا درهماً ، وعن الحديث نحو قال فلان كذا » .

وقد التزم ابن المقفع لغة العطف . فقد جاء فى ١٦٨ س١٤ (إن اليوم بمكان كذا وكذا) وفى ٢٢٤ س٨ : (فى يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا) ، وفى ٢٥٨ س١٣ (فقال كذا وكذا) .

٨ — ١٧٩ : ٢ (ولم أذكر ما ذكرت ألا أكون أعرف منك الكرم والسعة) . الوجه : (إلا لكونى أعرف منك) إلخ .

---

(١) شرح درة الغواص ١٤٣ .

(٢) فى شرح الكافية (٢ : ٥٩) .

٩ ــ ١٩٩ : ٣ : (لم تدر أيُّهما تأخذ) برفع (أيُّهما) والصواب (أيَّهما) بالنصب ؛ فإنها مفعول مقدم لتأخذ ؛ وليس من باب الاشتغال و (أى) هنا استفهامية ، ولذا علقت الفعل القلبي قبلها عن العمل فيها . ولا يجوز أن تكون (أى) هنا موصولة بنيت على الضم ، ولو فرضنا أنها موصولة فإنها لا تبنى عليه إلا فى حالة واحدة ، وهى إذا ما أضيفت وحذف صدر الصلة . وليس فى الكلام صدر صلة محذوف؛ فإنها جملة فعلية .

قال الرضى [١] : « صلتها إما اسمية [٢] أو فعلية . والفعلية لا يحذف منها شيء [٣] ، فلا تبنى أى معها . والاسمية قد يحذف صدرها . فلا بناء مع الصلة الفعلية .

١٠ ــ ٢٦٨ : ٩ : (من غُدْوَةَ إلى الليل) ، بمنع (غدوة) من الصرف . وهذا ضبط جيد ؛ فإن (غدوة) هنا معرفة من قبيل أعلام الأجناس ، بدليل قرنها بالليل وهو معرفة . وغدوة حين تعدها معرفة تمنعها الصرف فتجرها بالفتحة [٤] .

وزعم الخليل أنه يجوز أن تقول : آتيك اليوم غدوةً وبكرةً [٥] . فهذا يدل على جواز الصرف مع إرادة المعرفة .

٣ ــ فى تحقيق النص :

١ ــ ٢٦ : ١٠ : (مثل الحراث الذى يثير أرضه ويعمرها ابتغاء الزرع

(١) فى شرح الكافية (٢ : ٥٣) .
(٢) النسبة إلى « اسم » : « اسمى » همزته وصل ، ويوهم من يجعلها فى النسبة همزة قطع . انظر سيبويه (٢ : ٨١) .
(٣) يعنى صدر الصلة .
(٤) الرضى (١ : ١٧٣) وسيبويه (٢ : ٤٨) .
(٥) سيبويه (٢ : ٤٨ س ٢٤) .

لا العشب) فما وجه العمارة فى طلب الزرع ؟ ! الصواب (يغمرها) بالغين المعجمة ، أى بالماء .

٢ — ٣٨ : ٣ فى الحديث عن الجنين : (منوط قمع سرته إلى مرىء بأمعائها) . وهو كلام متهالك مضطرب . فما العلاقة بين سرة الجنين وأمعاء الأم ؟ ! وإنما الجنين موطنه الرحم ، لا يعدوه ولا يتصل بغيره من الأعضاء . والصواب : (منوط بمعى [من] سرته) كما ورد فى نسخة بولاق ص ٢٨ . والمعى ، بالفتح ، وكإلى : واحد الأمعاء . والمراد به هنا ما يسمى : « الحبل السُّرِّى » : Umbilical cord .

أما كلمة (مرىء) فعجيبة أيضاً ؛ فإن المرىء بفتح الميم وكسر الراء : هو رأس المعدة اللاحق بالحلقوم ، وهو مجرى الطعام والشراب إلى المعدة ؛ لا يكون إلا ذلك ، فكيف يكون المرىء بالأمعاء ؟ ! ووجه سائر العبارة عندى : (إلى مَرَاقٍّ رحِمها) . وأصل المراقّ للبطن ، وهى ما رقّ منه ولانَ .

٣ — ٤٠ : ٦ : (والرضا مجهوداً مفقوداً) هى (مجهولاً) باللام . جاء فى نسخة بولاق[1] : (وكان الرضى أصبح مجهولاً) ، وفى نسخة شيخو ٤٢ : (وأصبح الرضى مفقوداً مجهولاً) . وعند ابن الهبارية[2] :

من بعد ما عاد الحجا مجهولا والشر قد سامى السماء طولا

والحجا بالكسر : العقل والفطنة .

٤ — ٤٤ : ٧ : (كالكحل الذى لا يؤخذ منه إلا مثل الغبار) . صوابه : (إلا مثل غبار الميل[3]) . وقد جاء فى نسخة بولاق ص ٣٠ (إلا غبار الميل) . وفى نظم ابن الهبارية ص ٢٢ :

---

(١) من كليلة ودمنة ص ٢٩ .

(٢) نظم كليلة ودمنة ص ٢٨ .

(٣) الميل ، بالكسر : المرود الذى يكتحل به .

أوشك أن يبقى بغير مال فالكحل لا يبقى على الأميال

الأميال : جمع ميل بالكسر .

٥ — ٥٢ : ٢ : (كالشعلة من النار التى يصونها) . وفى التذييل ص ٢٩٠ : أنها كذلك فى الأصل وفى نسخة شيخو ، وأنها فى النسخ الأخرى (يضربها) وأن قريباً من هذا فى السريانية الحديثة .

أضيف إلى هذا التذييل أن فى نسخة بولاق ص ٣٤ (يضرمها) بالميم . وهذه محرفة بلا ريب . فليس المراد تقوية النار وإضرامها وتذكيتها ، بل المراد سترها ومحاولة إضعافها .

٦ — ٥٨ : ١ : (فأحسن الأسد مسئلة شتربة) المسألة هنا بمعنى السؤال ، مصدر ميمى من سأل ؛ والكتابة المعروفة (مسألة) برسم الهمزة فوق الألف .

٧ — ٧٥ : ١٢ (مثل المكارى[1] ، كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه) هى فى الأصل ونسخة شيخو : (مثل البنىّ كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه) . وفى نسخة بولاق : (كمثل البغىّ كلما فقدت واحداً جاء آخر) وتغيير الأصل هنا لا مبرر له . والأستاذ الجليل يعرف أنه لا يجوز لناشر كتاب تاريخى عالمى أن يبدل ما يراه غير ملائم لأذواق معاصريه وميولهم . ويعلم أن ذلك قد يعد جَوراً على حق مؤلف الكتاب ، فإن تسويغ التبديل يسلب الكتاب شخصيته ، وربما نكَّره على مرور الزمان فعاد آخر غير الأول .

ولعل ما حدا بالأستاذ على ذلك أن قد وجد ابن الهبارية قد صنع مثله (فى ترجمته ص ٦٩) إذ يقول :

---

(١) المكارى بضم الميم وكسر الراء : من يكرى الناس دابته . والكراء ، بالكسر : الأجرة.

شبيه خان فاعلمن ومكتبٍ من فر[1] يوماً عنهما لم يطلب
لا يحفلان أبداً بمن رحــل لكل من يمضى من الناس بدل

ومهما يكن فإن لفظ (المكارى) قلق نابٍ فى موضعه ، لا يتوجه إلى المعنى إلا مع الجهد والعسر . وإن فيما أثبته الأستاذ من التنبيه على ذلك التبديل فى التعليقات لما يحمد عليه ، وإن كان لا يعد عذراً صالحاً للناشر .

ونسأل : ما الحكمة فى أن يرفع الأستاذ هذا اللفظ من صلب الكتاب ثم يثبته وينبه عليه فى التعليقات ؟ ! وكيف تسخَّط هذه الكلمة وغفر لنظائر لها وأشباه متفرقات فى ثنايا الكتاب[2] ؟ !

— ٣ —[*]

٨ — ٨٠ : ١ — ٥ « فلبث الذئب وابن آوى والغراب أياماً لا يصبن شيئاً مما كن يعشن به من فضول الأسد . وأصابهم جوع وهزال شديد . فعرف الأسد ذلك منهم فقال : جُهدتن واحتجتن إلى ما تأكلن . فقلن : ليس همنا أنفسنا ونحن نرى بالملك ما نرى . ولسنا نجد للملك بعض ما يصلحه . قال الأسد : ما أشك فى مودتكم وصحبتكم » .

وهذه صورة عجيبة من التعبير لم أدر لها سراً ، وكان أولى بابن المقفع أن يجعل الضمائر العائدة إلى هذه الجماعة من الحيوان على طراز واحد . كما

---

(١) فى الأصل : « مر » بالميم . وليس يتجه .

(٢) منها ماف ٥٩ س ٩ ، ١١٧ س ٧ ، ١٢١ س ١٠ ، ١٣٨ س ١٥ ، ١٨٢ س ١٣ — ١٥ .

(*) نشرت بالعدد ٤٢٨ من مجلة الرسالة ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤١ .

هو الأصل فى إرجاع الضمائر . أما أن يجعلها للمؤنثات ثم لجماعة العاقلين ثم للمؤنثات أخرى ثم لجماعة العاقلين رابعة ، فهذا عجب لم نره لكاتب غيره

وقد ينزل العرب غير العاقل منزلة العاقل ، وابن المقفع جعل هذه الجماعة مرتين من غير العاقلين ومرتين من العاقلين. فأسرف فيما أجازه القوم إسرافاً .

وألفيته يعاود هذا المذهب ويراجعه . فنى ٨٦ س٧ « فلنأت سائر الطير فلنذكر ذلك لهم . فأجابوه إلى ذلك وأعلمهن ما أصابه وحلّ به » الضميران فى « لهم » و « أعلمهن » عائدان إلى سائر الطير . وفى ٩١ س ٤ « ودنا منهن ليبصرهن ، فتناوله بعضهم وضرب به الأرض » الضمائر راجعة إلى : « جماعة من القردة » فى الصفحة السابقة . وفى ١٥٢ – ١٥٣ « فبينما هم فى ذلك إذ وقع لهم غراب فقال بعضهم : انتظرن حتى يأتينا هذا الغراب » الضمائر مرجعها « جماعة من الطير » . وغير ذلك كثير .

٩ – ٧٤ : ٥ : « فلما فرغ دمنة من تضريب الأسد على الثور » . التضريب هنا : التحريض ، وفى اللسان[1] : « والتضريب تحريض للشجاع فى الحرب . يقال ضرَّبه وحرضه » والتضريب أيضاً : الإغراء ، وفى اللسان[2] : « والتضريب بين القوم : الإغراء » ، وفى نسخة بولاق ص ٤٣ « من تحميل الأسد على الثور » . وهى الرواية الجيدة ؛ لأنها لغة ابن المقفع ، ولازمة من لوازمه الكتابية . فقد جاء فى ص ١٠١ س ٧ « ولكن قتل لتحميل الأشرار » . وفى س ١١ من الصفحة عينها « من تحميله إياك عليه . وفى ص ٢٤٩ س٨ : « تحميل الملك على » . وفى س ١٤ من الصفحة نفسها : « ليحملوا عليه الأسد » فهذا هذا .

---

(١) لسان العرب (٢ : ٣٩) .

(٢) لسان لعرب (٢ : ٣٦) .

وقد أراد ابن المقفع بكلمة « التحميل » الإغراء . ومن العجب أن ابن منظور وصاحب القاموس لم يذكرا هذا اللفظ فى مادته ، بل ذكرا فى هذا المعنى « حمله على الأمر يحمله حملاً فانحمل: أغراه به[١] » ، ثم انفرد ابن منظور[٢] بقوله « وحملت على بنى فلان إذا أرشت بينهم » ، والتأريش : التحريش والإغراء .

١٠ — ٨٦ : ٤ : « فأعينونى وظافرونى » وبدلهما فى نسخة بولاق ص ٤٨ : « فأعنى » ، و « ظافره » بمعنى أعانه وظاهره لم يذكرها صاحبا اللسان والقاموس ، وقاربها ابن منظور بقوله[٣] « وتظافر القوم عليه وتظاهروا بمعنى واحد » فنستطيع أن نزيد فى معجمنا المنتظر هذه الكلمة ، وابن المقفع ثقة يحتج بقوله . وهو دليل أن المعاجم المتداولة لم تستوف ولم تستوعب كل أصول اللغة وفروعها إلا ما نبهت على عدم وروده . فذا مرجعه إلى استيثاق الرواة الأولين واستقصائهم .

١١ — ٩٥ : ٧ : « ليس بمستكبر لها أن تختطف بُزاتها الفيلة » ابن المقفع — فيما أشعر — لا يقول هذه الكلمة بل يقول « بمستنكر » .

ومما يجدر ذكره أن استكبر الشىء بمعنى رآه كبيراً وعظم عنده ، قولٌ منسوب إلى الإمام ابن جِنّى[٤] ، ولم يقله عامة اللغويين . واتفقوا أن استكبر بمعنى تكبّر ؛ وفى كتاب الله : « إنه لا يحب المستكبرين[٥] » . « يصدّون وهم مُستكْبِرُون[٦] » .

---

(١) القاموس ولسان العرب (١٣ : ١٨٥) .
(٢) فى لسان العرب (١٣ : ١٩٢) .
(٣) فى لسان العرب (٦ : ١٩٢ س ٥ — ٦) .
(٤) لسان العرب (٦ : ٤٣٩ س ٢٢) .
(٥) النحل ٢٣ .
(٦) المنافقون ٥ .

وقد رجعت إلى نسخة شيخو (ص ٩٩) ، فوجدت : « ما أرضا (كذا) يأكل جرذها مئة مَنٍّ من حديد بمستنكر لبزاتها أن تختطف غلاماً » .

١٢ — ١٠٧ : ٦ : (إذا جئتنى بالليل من غير نداء ولا رمى ولا شىء يرتاب به) . فما ذلك الرمى ؟ !

الصواب : (ولا رمز) — أى إشارة وعلامة ؛ وقد جاء بدلها فى نسخة بولاق (٥٣) : (ولا إيماء) ، وهو والرمز والإشارة بمعنى .

١٣ — ١١٥ : ١٣ ، ١٦ و ص ١١٦ : ١ و ص ١١٧ : ١ ، ١٦ و ص ١١٨ : ٢ ، ٦ : (رأس الخنازير) و (سيد الخنازير) . عندى أنها : (رأس الخبَّازين) و (سيد الخبازين) .

يؤيد ذلك ما جاء بدلها فى نسخة شيخو السريانية : (فتكلم صاحب المائدة) ، وما هو عند ابن الهبارية (١١٥) :

فأخـــذ الخبَّـــاز كفَّ دمنه وقال : لله العظيم المنَّه

وكذلك ص ١١٨ :

فأطرق الخباز لمـــا سمعا ذلك من مقاله وخضَعا

وكما يفهم من قول ابن المقفع عنه ١١٧ : ١٢ : (ثم أنت تجترئُ أن تقوم بين يدى الملك وتلى طعامه) .

١٤ — ١١٦ : ١١ : (ولا مسىء وإن أذنبه بضائره ذنبه) تطبيع ، صوابه : (وإن أذنب) .

١٥ — ١٢٠ : ٩ : (فأقرَّ بذنبك وبؤ بإساءتك) : باء بإثمه فهو يبوء به بوءا : إذا أقرَّ به ؛ وفى الكتاب : (إنى أريد أن تَبوء بإثمى وإثمك) ؛ وفى الحديث : « أبوء بنعمتك علىَّ وأبوء بذنبى » — أى أقر ؛ وقال لبيد :

أنكرت باطلها وبؤت بحقّها عندى ولم تفخر علىّ كرامُها

وأصل البوء الرجوع ، فمن باء فكأنه رجع إلى الإقرار بعد الإنكار والسكوت(١) .

وبهذا أيضاً يفسر قول ابن المقفع فى س ١٥ : (وأن أبوء بما لم أجْنِ) .

١٦ – ١٢١ : ١١ ، ١٢ (فحفظ الفُرخانُ ذلك بلسان البلخية) البلخية : أهل بلخ ، بفتح الباء : مدينة مشهورة بخراسان(٢) والتاء فيه للدلالة على الجمع . وهى عند التحقيق علامة للتأنيث بتقدير الجماعة أو الطائفة كأنك تقول : الجماعة البلخية ، فلما حذفت الموصوف وأقمت صفته مقامه ألحقت بها تاء التأنيث المنبهة على الجمع أيضاً(٣) . ومثلها فى ذلك : الإباضية ، والإسماعيلية ، والأشعرية ، والباطنية ، والجبائية . ونحو ذلك كثير من أسماء الفرق الدينية والسياسية .

١٧ – ١٢٧ : ١٤ (وأخفت على الشبكة حتى لَججْت فيها وصويحباتى) . لج فلان فى الأمر تمادى عليه وأبى أن ينصرف . فهو فعل اختيارى لا دخل للقسر فيه . والمعنى لا يتجه بهذا وإنما هو (لحِجْت) بالحاء المكسورة المهملة بعدها جيم . لحج السيف وغيره بالكسر يلحج لحجاً : أى نشب فى الغمد فلم يخرج . وفى حديث على يوم بدر « فوقع سيفه فلحج » أى نشب فيه . ويقال لحج فى الأمر يلحج إذا دخل فيه ونشب(٤) . ومن البيّن أن المراد نشوب الطير فى الشبكة . مما أعماهن القدر وأعشى أبصارهن .

---

(١) نهاية ابن الأثير ولسان العرب : (١ : ٢٨) ؛ ومشارق الأنوار : (١ : ٨٩)

(٢) معجم البلدان .

(٣) انظر الرضى (٢ : ١٥٢) تجد هذا التحقيق النادر .

(٤) نهاية ابن الأثير ، واللسان .

١٨ ــ ١٢٨ : ١ (ويستنزل الطير من الهواء ، إذا قضى ذلك عليهم) أجرى (الطير) مجرى العاقل فجعل لها ضميره . وهو معروف عند العرب . وفى كتاب الله : « لا الشمسُ يَنبغي لها أن تُدْرِكَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكلٌّ فى فلك يسبحون » . وفيه : « إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » ، « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده » . وقال عَبْدة بن الطيب :

إذْ أشرف الديك يدعو بعض أسرته لدى الصباح وهم قوم معازيلُ

جعل للديك أسرة وسماهم قوماً .

١٩ ــ ١٣٠ : ١ (منها عداوة من يجتزيان على ذلك ، كعداوة الأسد والفيل) . وفى نسخة بولاق ٦٢ : (منها ما هو متكافئ كعداوة الفيل والأسد) وعند ابن الهبارية ١٢٩ :

* وهو التجازى لا سواهْ إنما *

الاجتزاء : طلب الجزاء . قال :

* يجزون بالقرض إذا ما يُجْتزى[1] *

وفى ذلك معنى التكافؤ . والتجازى ــ كما فى ترجمة ابن الهبارية أصل معناه التقاضى[2] والمراد به المقاصة ، فهو كذلك فى معنى التكافؤ .

٢٠ ــ ١٣٣ : ١٥ (وكان الضيف رجلاً قد جال الآفاق ورأى الأعاجيب) . والفعل (جال) لا يتعدى بنفسه . والوجه (جال [فى] الآفاق) . وسُمع جوّل الأرض : جال فيها ، وجوّل فى البلاد أى طوّف[3] .

(١) لسان العرب (١٨ : ١٥٦) .
(٢) لسان العرب (١٨ : ١٥٧) .
(٣) لسان العرب (١٣ : ١٣٩) .

فهذا المضعف ورد بالوجهين . وفى القاموس أنّ جال الشيء : اختاره . وهذا معنى لا يراد هنا .

٢١ — ١٣٩ : ٨ (وانقلبتُ ظهراً لبطن : وانجررت حتى دخلت جُحرى) فماذا جرّه حتى انجرّ ؟ ! إنما هى (وانحدرت) أى نزلت فى سرعة إلى الجُحر .

٢٢ — ١٥٠ : ٧ (إن كان بعيداً لم يأمن من معاودته ، وإن كان متكشفاً لم يأمن استطراده ، وإن كان قريباً لم يأمن مواثبته) . متكشفاً أى بادياً ظاهراً ، وهى لا تساير الكلام . والصواب (مُكْثِباً) أى دانياً . أكثبك الصيد والرمى وأكثب لك : دنا منك . وعلى هذا الوجه الذى أثبتُّ وردت الكلمة فى نسخة بولاق ٦٩ ، ويؤيد هذا التصحيح ترجمة ابن الهبارية ١٤٨ :

لأنه إن كان منه نازحا أعاد مثل فعله مشايحا
أو كان منه دانياً أو حاضرا واثبه مبادراً مشاورا

فكلمة (دانياً) فى النظم تقابل كلمة (مُكثباً) التى ذكرت .

٢٣ — ١٦٥ : ١٦ (فإن الغراب ذو أدب ومكر ومكيدة) . لا وجه لورود كلمة (أدب) بالدال فى هذا المعرض . والصواب (أرب) بالراء ؛ ليصح اقترانها بأختيها : المكر والمكيدة . والمقام مقام ذم وتهجين . والإرب بالكسر ، أو بالتحريك : الدهاء والخبث والنُّكر . وفى نسخة شيخو ١٥٨ (فإن الغراب ذا أرب ومكائد[1]) .

٢٤ — ١٦٦ : ١٥ (فإن الشر يدور حيثما دارت) . وهى (حيثما دُرْتَ) .

٢٥ — ١٧١ : ٤ (فابتُليتْ ببلاء حُرّمت علىَّ الضفادع) والجملة بهذا

(١) كذا فى أصل نسخة شيخو . والصواب « ذو أرب ومكايد » .

الوضع مبتورة ناقصة . وتمامها (حرمت عليَّ الضفادع [من أجله]) أى من أجل البلاء . وذلك كما فى ص ٧٧ من طبعة بولاق .

٢٦ — ١٧٣ : ١ (بل برأيك وعقلك كان هذا ، فإن الرجل الواحد أبلغ فى إهلاك العدد من كثير العدد من ذوى البأس) . وفى هذه العبارة نقص كسابقتها . وتمامها كما فى نسخة بولاق ٧٨ : (فإن الرجل الواحد [العاقل الحازم]) . . . الخ . وعند ابن الهبارية ص ١٧٤ :

فالرجل اللبيب فى الأعداء أبلغ من ألف ذوى فتَاء[1]

و (اللبيب) هو العاقل ذو اللب .

٢٧ — ١٩٠ : ١٢ قول البرهميين للملك حين سألهم تعبير الرؤيا : « فلعلنا — إن استطعنا — أن ندفع ما نتخوف منه » . الوجه (تتخوف) بالخطاب ؛ إذ ليس من شأنهم أن يحكموا فى تعبير الرؤيا بهذا الحكم قبل أن يجتمعوا للتشاور والتآمر . وهم قد استمهلوا الملك (ستة أيام) ليتمكنوا من ذلك . والملك هو الذى كان متخوفاً . لأنه (رأى ثمانية أحلام يستيقظ عند كل منها) .

٢٨ — ١٩١ : ٦ « لنجعل دماءهم فى أبْزَنٍ ثم نقعدك فيه » . كلمة (الأبزن) معربة عن الفارسية ، بفتح الهمزة بعدها باء موحدة ساكنة ثم زاى مفتوحة . وهو الحوض من نحاس يستنقع فيه الرجل ؛ ويعرف فى ألفاظنا الدخيلة باسم (البانيو) . وبالفرنسية : Baignoire . وبالإنجليزية : Bathing-tub . و (أبزن) أصله فى الفارسية : (آبزَن) بمد الهمزة ؛ وتكتب أحياناً (آب زن) ؛ وفسرت فى معجم استينجاس[2] بأنها حوض

(١) الفتاء ، بالفتح : الشباب والقوة . وفى الأصل : (عناء) بالعين المهملة والنون .

(٢) معجم Steingass الفارسى الإنجليزى ص ٨ .

للاستحمام من نحاس أو حديد بطول جسم الإنسان يملأ بماء فاتر طبي يجلس فيه المريض أو يتمدّد .

وقد أهمل هذا اللفظ كثير من اللغويين ، منهم الليث ، والجواليقى ، وابن دريد ، والزمخشرى [١] ، مع أنه مستعمل قديماً. وجاء فى شعر أبى دُوَاد الإيادى ، يصف فرساً وصفه بانتفاخ جنبيه [٢] :

أجوف الجوف فهو منه هواء مثلُ ما جافَ أبزَناً نجّارُ

وأبو دواد جاهليٌّ [٣] . ويفهم من هذا الشعر أنه يصنع أحياناً من الخشب ، لمّا جعل صانعه النجار . وكأن بعض العرب كانوا يجتزون بالخشب عن النحاس ، قال ابن برى : « الأبزن شيء يعمله النجار مثل التابوت » ، وأنشد بيت أبى دواد . وروى البخارى أن أنس بن مالك قال : « إن لى أبزناً أتقحّم فيه وأنا صائم [٤] » .

وقد فسِّر (الأبزن) فى هذا الحديث بأنه الحوض الصغير ، أو حجر منقور كالحوض ، أو شيء يتبرد فيه وهو صائم ، يستعين بذلك على صومه من الحر والعطش [٥] .

— ٤ — (*)

٢٩ — ١٩٥ : ١٥ (أرادوا إدخال النقص عليك فى ملكك) كلمة (النقص) ركيكة فى هذا المعرض لا يقولها مثل ابن المقفع . وإنما هى

---

(١) نص صاحب اللسان على إغفال الليث . وأما الجواليقى فلم يذكره فى المعرب ، وكذا ابن دريد فى الجمهرة ، والزمخشرى فى الفائق والأساس .

(٢) لسان العرب (١٦ : ١٩٦) .

(٣) الأغانى (١٥ : ٩١ ساسى) .

(٤) صحيح البخارى (٣ : ٣٠ س ٢٠ طبع ١٣١٤) .

(٥) عمدة القارى (١١ : ١٣) ومشارق الأنوار وشفاء الغليل ١٤ .

(*) نشرت بالعدد ٤٢٩ من مجلة الرسالة سبتمبر سنة ١٩٤١ .

(النقض) بالضاد المعجمة. والنقض : الإفساد وحل العقد . وهى سائرة فى لغة الجاحظ وأضرابه من أمراء البيان العربى .

٣٠ — ١٩٩ : ٥ (وكانت شارته إليها أن غمزها بعينه) . الشارة : الحسن والهيئة واللباس . وليست مرادة . بل هى (إشارته) . وقبل هذا (وأشار عليها بأخذها فأخذتها) .

٣١ — ١٩٩ : ١٥ (فأضاء كل ما حولها فاشتاف إليها ، وقال لإيراخت) . فاعل (أضاء) هو (كل) . وأما فاعل (اشتاف) فهو الملك ، فالجملتان محتاجتان إلى فاصل بينهما ، واشتاف بالفاء . إذا تطاول ونظر . واشتاف البرق أى شامه . ومنه قول العجّاج :

* واشتافَ من نحو سهيل بَرْقا *

٣٢ — ٢٠٠ : ٩ (فإنها امرأة عاقلة لبيبة ، حريصة على الخير . سعيدة من الملكات ، ليس لها فى النساء عديل) . وكيف تكون (سعيدة) مع أن الملك أمر بقتلها وأوشك أن ينفذ أمره ؟ ثم هو فى معرض التنويه بخصالها . وليست السعادة خصلة أو خلقاً من الأخلاق . والوجه (سديدة [الرأى] من الملكات [التى] ليس لها فى النساء عديل[1]) .

٣٣ — ٢٠٨ : ١١ ، ١٢ (الذى يصنع الطعام وينظفه لسيده ثم يقدمه إليه فى إبانه) . ليست كذلك، وإنما هى : (وينضجه لسيده) تصحفت على الناسخ فشوهها بما رأيت .

٣٤ — ٢١٠ : ٥ (والجرىء الجاهل المقدم على ما ليس له وإن أتلف نفسه ونفس غيره فى طلب حاجته وشحه) . صوابه : (ونجحه) والنجح بالضم : النجاح وإدراك البغية .

---

(١) انظر كليلة ودمنة طبع بولاق ص ٩٧ .

٣٥ — ٢٢٣ : ١٣ (إن أنا واخذته)،هي لغة في (آخذته) بالهمز . قال صاحب القاموس (وآخذه بذنبه مؤاخذة . ولا تقل واخذه) . وفي اللسان[1] :(والعامة تقول واخذه) والحق أن الكلمة عربية ، وأنها لغة لبعض العرب . وفي المصباح : وتبدل واواً في لغة اليمن فيقال : واخذه مواخذة . وقرأ بعض السبعة[2] : « لا يواخذكم الله » بالواو ، على هذه اللغة. والأمر منه واخِذْ) .

وقال العرب في مثل ذلك (واخيته) لغة في (آخيته)[3] ، و (واسيته مواساة) لغة في (آسيته مؤاساة)[4] ، و (واكلته) لغة في (آكلته) ، و (وامرته) لغة في (آمرته)[5] .

والهمز في كل ذلك أكثر وأجود .

٣٦ — ٢٢٤ : ١٥ (الحيوانات) جمع حيوان . زعم بعضهم أن العرب لم تنطق بها . ومجيئها هنا شاهد على صحتها وعلى استعمالها . وقد استعملها (الجاحظ) في كتاب الحيوان (٣ : ٢٦٥ س ١) قال : « والنسيم الذي يحي جميع الحيوانات » وكذا الثعالبي في فقه اللغة ص ٢٤ طبع الحلبي ، قال « فصل في طبقات الناس وذكر سائر الحيوانات » . وكذا البغدادي صاحب (الفرق بين الفرق) المتوفى ٤٢٩ قال في ص ١١٨ : « وأصناف الحيوانات » وقال في الصفحة ، نفسها « ولا نوعاً من الحيوان » فأجاز بذلك الاستعمالين . واستعمله أصحاب (رسائل إخوان الصفاء) في الجزء الثاني من طبعة التجارية ، استعمالاً كثيراً ، يدل على ذيع هذه الكلمة وإقرار العلماء لها .

---

(١) لسان العرب .

(٢) هو ورش : أبدل الهمزة واواً وصلا ووقفاً . وأبدلها كذلك حمزة وقفاً لا وصلا . غيث النفع ٦٧ .

(٣) بحر العوام لابن الحنبلي ١٠٢ .

(٤) لسان العرب (١٨ : ٣٧) .

(٥) لسان العرب (أكل ، أمر) .

(٦) الحيوان (٧ : ٥٣ ساسي) .

٣٧ ــ ٢٣٤ : ٩ : (وقع موقع من يركب ناب الفيل المغتلم ثم يغلبه النعاس) . كثر ما ورد اسم (الفيل) فى هذا الكتاب وذاك راجع بالطبع إلى الجو الهندى الذى يَشيع فيه . وتجده أيضاً مقروناً بكلمة (المغتلم) ، كما ورد فى ٤٧ س ١١ ، ٧١ س ١٣ ، ٧٩ س ١ . ٢٥٥ س ٥ ، فهو مضرِب المثل عندهم بالقوة وشدة البأس . قال الجاحظ فى ذلك :

« وإذا اغتلم الفيل قتل الفيلة والفيالين ، وكل من لقيه من سائر الناس ولم يقم له شىء ، حتى لا يكون لسوّاسه همٌّ إلا الهرب وإلا الاحتيال لأنفسهم » ، ثم ذكر قصة كان يتداولها الفرس من مصارعة كسرى لفيل مغتلم تمكن من ضربه والفتك به .

٣٨ ــ ٢٥٠ : ٣ : (فلما رأوا الأسد قد احتشد فى طلب اللحم وغضب) : أرى أنها (احتدَّ) والحدة تقارن الغضب .

٣٩ ــ ٢٤٧ : ٤ : (فما الذى يشبه كفَّك عن الدماء وتركك اللحم) . وكلمة (يشبه) مقحمة ، لعلها زيادة من المملى للناسخ حين تردُّده فى الكلمة بعدها ؛ وصواب العبارة : (فما الذى كفَّك عن الدماء وأكلِك اللحم) .

٤٠ ــ ٢٥٦ : ٤ : (واللهج بالزنا) : لا تجوز كتابتها بالألف إلا لمن نظر إلى أنها مقصورة من الممدودة (الزناء) وهى لغة بنى تميم ، ولغة أهل الحجاز القصر [١] ، ومن ذهب إلى قصرها لم يكتبها إلا بالياء ؛ لأنها يائية الأصل .

٤١ ــ ٢٧١ : ١١ : (وعلمنا أنك كنت لما ساق الله إليك من ذلك أهلاً بفضلٍ قسَمَه لك ، وتابَع نعمه عليك) . فعلى أى فعل عطف الفعل (وتابع) ؟ !

إن عطف على (قسَمه) استركَّ المعنى وعاد الضمير فى (نعمه) إلى

(١) لسان العرب (١٩ : ٧٩) .

(فضل) أى نعَم الفضل ، وليس ذلك شيئاً ، والوجه : (بفضل [ما] قسمه) . . . الخ . أو (بفضل قسَمه لك ، ونعمة تابع عليك) — أى تابعها — أو (بفضل قسمه لك ، وسابغ نعمه عليك) .

٤٢ — ٥٢ : ٢ : (كالشعلة من النار التى يصونها صاحبها وتأبى إلا ضياء وارتفاعاً) . سبق الحديث عن هذه الفقرة فى رقم (٥) ، وكنت على شك من صحة كلمة (يصونها) . إلى أن ظهر لى وجهها فيما قرأت من عيون الأخبار [١] : « ذو الهمة إن حُطّ ، فنفسه تأبى إلا عُلوّا ، كالشعلة من النار (يُصوِّبها) صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً » ، والتصويب : الخفض والتنكيس ؛ وفى التهذيب : « صوَّبت الإناء ورأس الخشبة تصويباً ، إذا خفضته » . فصاحب النار يخفض رأس الخشبة المشتعلة . فلا يمنع ذلك النارَ أن ترتفع وتأخذ طريقها فى العلو .

٤٣ — ٢٧٦ : ١٣ (ولم تجدى من الأسف والحزن على شبليك شيئاً إلا وقد كان من كنت تفعلين بأحبابه ما تفعلين يجد مثله أو أفضل منه) . وليس يقال حزن فلان حزناً أفضل من حزن فلان ، أو أسف أسفاً أفضل من أسفه . والوجه (أمثل) كما ورد فى أصل النسخة . و (أمثل) هنا تفضيل من مَثَل بالرجل يمثُل مَثْلا ومُثْلة : نكَّل به [٢] . فالمعنى أشد تنكيلاً منه .

٤٤ — ٢٧٩ : ٤ (ويبقى حيران متلدداً) . وفى نسخة بولاق ١٠١ (متردداً) وعند ابن الهبارية ٢٦٧ :

عاد إلى طلاب ما قد تركا فضلَ عنه وبقى مرتبكا

والمتلدد والمتردد بمعنى . وهو من أسرار العربية : أن يختلف اللفظان

(١) عيون الأخبار (١ : ٢٣١ س ١٨ — ١٩) .

(٢) لسان العرب (١٨ : ١٣٦ س ٢٣) .

فى حرفين متقاربى المخرج فإذا المعنى واحد أو كالواحد . وفى اللسان : «تلدد : تلفت يميناً وشمالاً ، وتحير متبلداً » . وجاءت هذه الكلمة بالراء فى ٢٨٠ : ١٢ (فبقى حيران متردداً) .

٤ – فى التعليقات :

١ – أورد الأستاذ فى شواهده على أثر الأسلوب الفارسى فى هذه النسخة ما جاء فى صفحة ٢٧٠ (فسأله رجل فقال) وقال فى المقدمة ٢٦ (تشبه هذه الجملة التعبير الفارسى) : (برسيده كفت) وفى التعليقات ٣٠٠ (هذه الجملة تذكر بالتعبير الفارسى (برسيده كفت[1]) .

وليس للأسلوب الفارسى أى أثر فى هذه العبارة ، بل هى عربية خالصة جرى عليها العرب فى الغابر ، واستفاضت فى كلامهم .

وبين يدىّ أحد الصحاح الستة . وهو صحيح أبى عبد الله البخارى[2] . ففى ١ : ٢ س ٦ (أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟) . وفى ١ : ١٦٢ س ٣ (أن زيد بن خالد الجهنى أخبره أنه سأل عثمان بن عفان فقال : أرأيت) . وفى ٢ : ١٦١ س ٣ (سألت أنس بن مالك رضى الله عنه قلت : أخبرنى بشىء عقلتَه عن النبى صلى الله عليه وسلم) . وفى ٣ : ٤١ س (عن عمران بن حصين رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سأله – أو سأل رجلاً ، وعمران يسمع – فقال : يا أبا فلان) . وغير ذلك كثير .

٢ – ٢٨٧ تعليقاً على ما ورد فى الأصل ص ١٦ (آدر هرير) قال الأستاذ : (نظنها محرفة عن آزر هربد ، أى سادن النار) ، ولست أدرى

(١) هى بالكاف الفارسية التى تنطق كالجيم المصرية . ورسمت بالكاف العربية فى التعليقات لضرورة الطبع .

(٢) طبع بولاق ١٣١٤ .

لم عدل عن لفظ (آدر) بالدال إلى (آذر) بالذال المعجمة مع أنهما بالفارسية في معنى واحد ، وهو النار[١]؟ !

٣ — وفي الصفحة نفسها تعليقاً على ما ورد في ص ٢١ س٤ (ما أتذمم لذلك منك) أن (ذلك) وضع موضع الضمير والمعنى ما أتذمم له . قال الأستاذ (وضع الإشارة موضع الضمير هنا يشبه التعبير الفارسي) . وقال نحو هذا القول في تعليقه في المقدمة ص ٢٦ على قول ابن المقفع (تجرى أمورهم فنوناً يغلب على أكثر ذلك الخطأ) . حين استشهد على أثر اللغة الفارسية في ترجمة ابن المقفع .

والحق أن هذا أثر من آثار اللغة العربية لا الفارسية ؛ فإن العرب يضعون الإشارة موضع الضمير في كثير من عباراتهم . ويطرد ذلك في ربط الجمل الخبرية ، والأصل في ذلك الضمير . وفي الكتاب (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار) أي هم . وفيه (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) أي كله .

٤ — ٢٨٨ تعليقاً على ما ورد في الأصل ص ٣٠ (أكن كالمصدق المخدوع الذي زعموا أن جماعة من اللصوص) أن كلمة الذي هنا تشبه أن تكون ترجمة الكلمة الفارسية (كِهْ) وهي تكون بمعنى الذي . وتأتي للتعليل والتفريع . أي إن ابن المقفع ترجم كلمة (كه) بكلمة (الذي) مع أنها هنا للتعليل والتفريع ، أي بمعنى (فقدته) فلا نحتاج إلى ضمير عائد . على حين أن كلمة (الذي) في استعمالها العربي تحتاج إلى عائد .

وهذه شبهة طيبة . واستنتاج حسن . ولكن الضمير العائد إلى الموصول يحذف كثيراً[٢] . وجاء حذف العائد حين يتصل بحرف الجر في قول الله

---

(١) معجم استينجاس ص ٢٨ ، ٣٠ .

(٢) شرح درة الغواص ٢٠٩ وحواشي الحيوان (ج ٤ : ٣٠٠) .

تعالى : ﴿ ذلك الذى يبشر الله عباده[١] ﴾ أى به . وفى قوله : (فاصدع بما تؤمر[٢]) فى أحد وجهى تخريجه . وقول حاتم الطائى :

ومِنْ حسدٍ يجورُ علىّ قومى وأىُّ الدهر ذو لم يحسدونى

أى فيه . وذو موصول عند طيىء . وقال الجاحظ[٣] : (فالحمد لله الذى كان هذا مقدار عقولهم) أى كان هذا منه . فهذا الحذف فى كلامهم جائز وإن كان قليلاً جداً[٤] . وهو أولى فى التخريج مما ذهب إليه الأستاذ من تأثير اللغة الفارسية . وابن المقفع أيقظ من أن يؤثر فى بيانه العربى هجنة فارسية . أو يلتاث فى ترجمته هذه اللُّوثة .

د - ٢٩٥ تعليقاً على ما ورد فى ١٧٤ من قوله (وأكيس الأقوام من لم يكن يلتمس الأمر بالقتال ما وجد إلى غير القتال سبيلاً) : « هممنا أن نحذف (يكن) من هذه الجملة ثم رأينا أنها تُشبه أن تكون من أثر الترجمة الفارسية ؛ فإن استعمال الفعل يكون . مألوف فى مثل هذا التركيب بالفارسية » .

هذا نص ما ورد فى التعليق. والحق أن التعبير عربى خالص ، لم تَشُبْه شائبة فارسية ولم تقربه ، وأنْ (يكن) هنا قد جردت من معنى المضى ، وألزمت معنى الثبوت واتصال الزمان من غير انقطاع . وفى كتاب الله من ذلك كثير : « وكان الله شاكراً عليماً » ، « وكان الله سميعاً عليماً » ، « فإن الله كان عفواً قديراً » ، « وكان الله غفوراً رحيماً » ، « وكان الله عزيزاً حكيماً[٥] » . ومنه قول المتلمس[٦] :

---

(١) الشورى ٢٣ .
(٢) الحجر ٩٤ .
(٣) الحيوان (٤ : ٣٠٠ س ٦) .
(٤) أمالى ابن الشجرى (١ : ٧ حيدر أباد) .
(٥) فى الآيات ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٨ من سورة النساء .
(٦) لسان العرب (١٧ : ٢٤٩) .

وكنـا إذا الجبار صَعَّرَ خـده أقمنـا له من دَرْئِه فتقوّما

وقول الفرزدق (١) :

وكنا إذا الجبار نَبَّ عَتُودُه ضربناه فوق الأنثيين على الكَرِدِ

وقول قيس بن الخطيم :

وكنت امرأ لا أسمع الدهر سُبَّةً أسبُّ بها إلا كشفت غطاءها (٢)

فليس فى الكلام هجنة فارسية كما رأيت .

* * *

هذه نظراتٌ فى بعض مواضع من هذا الكتاب الجليل ، ولم أشأ أن أطنب فى سرد محاسن النشر وجودة العرض ؛ فذلك أمرٌ يبادر الناظر فى هذه النسخة ويبدهه فى أول ما ينظر .

وليس يفوتنى فى هذه الفرصة أن أكرر تهنئتى للأستاذ الكبير « عبد الوهاب عزام » بهذا العمل العظيم الخالد على الزمان ، وأن أزجى مثلها إلى الأخ المحترم « الأستاذ شفيق مترى » صاحب مطبعة المعارف ، بما أنفق من جهد ومال ، فى الاحتفال الناجح بمرور خمسين عاماً على جهاد مثمر ، بدأه والده ، وسهر هو على إتمامه ورعايته .

---

(١) الديوان (١ : ٢١٠) ولسان العرب والمعرب للجواليقى ص ٢٧٩ . طبع دار الكتب ١٣٦٠ .

(٢) ديوان قيس ص ٣ طبع ليبسك ولسان العرب (١٧ : ٢٤٩) .

كليلة ودمنة (*)

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

قرأت ما كتبه فى الرسالة (العدد ٤٢٥) الأستاذ عبد السلام محمد هارون فشكرت للكاتب الفاضل حسن رأيه، وجميل ثنائه. وأعجبت بتدقيقه وتحقيقه. وتلقيت بالقبول والسرور نقده الذى يُبَيِّن عن صدق النية. وخلوص القصد فى طلب الحق. وكلنا طلاب علم، نسأل الله الهداية والتسديد !

وقد أخذ الأستاذ على الكتاب مآخذ وهذا بيان رأيى فيها :

قال بعد أن ذكر كثرة التحريف فى النسخة المخطوطة. والجهد الذى بذل فى تصحيحها :

« ونحن فى هذا الصدد نأخذ على الأستاذ أنه لم يتوخ النشر العلمى من إثبات الأصل والتنبيه عليه فقد يكون للقارئ وجه فى التصحيح غير الذى ارتضى . . . وكتاب مثل كتابنا لَبِسَ من جلال التاريخ ما لبس جدير بما ذكرت من وجوب بيان أصله للرجوع إليه. ووجوب مقارنة نسخه بعضها ببعض » .

والجواب أن مذهبى فى النشر ألا أخالف النسخة التى اتخذتها أصلا إلا حين يتضح غلطها. وإن كان هذا الغلط فى مواضع قليلة أثبته فى مواضع. أثبته فى الحاشية ليعرف القارئ ما وقع فى أصل الكتاب ؛ ولكن

(*) نشرت بالعدد ٤٢٦ من مجلة الرسالة سبتمبر سنة ١٩٤١ .

نسخة كليلة ودمنة التى أنشرها مملوءة بأغلاط واضحة كثيرة لا ينال الناشر والقارئ من إثباتها إلا العنت .

وأما مقارنة النسخ المختلفة فقد بينت فى المقدمة أن النسخ المطبوعة ، إلا نسخة شيخو . ملفقة مغيرة تصرف فيها الناشرون كما شاءوا على غير خطة معروفة . ثم بين هذه النسخ كلها بعضها وبعض ، وبينها وبين نسختنا ونسخة شيخو ، ثم بين هاتين النسختين من الاختلاف ما لا يمكن إثباته فى الحواشى بل يختلف السياق أحياناً حتى يحسب القارئ أن أمامه كتباً مختلفة .

ثم يرى الأستاذ أن « لغة ابن المقفع فى كليلة ودمنة لغة عالية تعلو على المتأدب والأديب أيضاً فهى محتاجة إلى توضيح وتقييد وبيان . . . إلخ » .

وليس هذا رأياً فى هذه الطبعة التى أريد بها أن تكون فى الأغلب هدية للعلماء والأدباء لا أن تكون كتاباً مدرسياً يؤدب به الناشئون . نعم ربما يستعان بهذا الكتاب على درس أساليب ابن المقفع وأساليب النثر فى عصره ، ولكن هذا بحث آخر لا يتعلق بمقصدنا من نشر الكتاب .

ثم أخذ الأستاذ ألفاظاً رأى أنها خالفت الصواب . وقد بينت رأيى فيها على الترتيب الذى ساقه فى مقاله :

١ — ص ٣٦ س ٦ : كالعظم المتعرِّق ، والصواب المتعرَّق بفتح الراء كما قال الأستاذ ، وهى زلة مطبعية فاتت عناية المصحح واجتهاده .

٢ — ٨١ : ٥ و ٦ : « ولكن النفس الواحدة يفتدِى بها أهل البيت . وأهل البيت تفتدِى بهم القبيلة . . . الخ » . قال الأستاذ : الوجه يُفتدَى .

وعلل هذا بقوله : فأهل البيت لا يفعلون الافتداء . وإنما يفعل ذلك غيرهم . . . الخ .

ولست أرى هذا الرأى ، فأهل البيت يفتدون أنفسهم : وفى القرآن الكريم : « ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به » . ومثلها آيات أخرى ، فلا وجه للعدول عن المعلوم إلى المجهول . ويؤكد هذا أن اللزوم فى افتدى هو الأصل ؛ وقد عرضت لها التعدية ، ولم ترد فى القرآن إلا لازمة . فالعدول إلى البناء للمجهول عدول عن الأصل لغير سبب .

٣ – ٨٧ : ٦ : يقول دمنة للثور : « إن أنت رأيت الأسد حين تدخل إليه ينتصب مقعياً ويرفع صدره . . . إلخ . فاعلم أنه يريد قتلك ، فاحذره ولا تغتر إليه » . يقول الأستاذ : لا يقال اغتر إليه ، بل اغترَّ به ، ويرى أن الصواب لا تقترب إليه . وقد بينتُ فى المقدمة أن كثيراً مما وقع فى الكتاب من تحريف سببه تغيير العبارات غير الشائعة إلى العبارات الشائعة . وأرى أن كل فعل يعدّى بإلى إذا أريد الانتهاء إلى ما بعده ، أو الركون إليه . فلذلك يقال : استمع إليه ، وجلس إليه ، وسكن إليه . وفى القرآن : « إلى ربك يومئذ المستقر » . . . فما رأى الأستاذ فى أن يقال استقرّ إليه ؟ . . . فالتعدية : بإلى وعلى ونحوهما جائزة إن كان فى الفعل ما يدل على الانتهاء أو العلو صراحة أو ضمناً . وإنما الكلام فى تعدية الفعل إلى المفعول به ، أيتعدى فيها الفعل بنفسه أو بالباء . . . الخ . ومعنى اغترّ إليه هنا سكن إليه أو ركن أو نحو ذلك مما يتضمنه معنى الانتهاء أو الركون .

٤ – ٩١ : ١٢ (وندفن بقيتها مكاناً حريزاً) . قال الأستاذ : وهذه عبارة غير صحيحة والصواب فى مكان حريز . ونقل عن همع الهوامع وشرح الكافية كلاماً فى اسم المكان ، وانتهى إلى قوله : « وليس الدفن من الاستقرار فى شىء فلا ينصب لفظ المكان على الظرفية المكانية » وهذه الجملة تبطل الاحتجاج الطويل الذى نقل له ما نقل عن كتب النحو . فى الدفن إقرار واستقرار ولا ريب . وأنا أعرف أن فى النسخ الأخرى : « وندفن الباقى فى أصل هذه الشجرة فهو مكان حريز ، أو ندفن بقيتها فى مكان حريز »

ولكنى لا أغير نص الكتاب ولو كان غيره أرجح منه حتى يكون غلطاً واضحاً لا شبهة فيه ، فكيف وليس فيه غلط ولا شبهة الغلط ؟

٥ — ٩٥ : ١٣ « وبلاء يضيع عند من لا شكر له » قال الأستاذ وبين اللغويين خلاف فى أن يكون البلاء بمعنى الإنعام ونقل فى هذا كلاماً عن نهاية ابن الأثير ولسان العرب .

وليس لازماً أن يكون البلاء هنا بمعنى الإنعام ، بل الأرجح أن يكون بمعنى الاختبار ، والبلاء اختبار بالخير والشر . فكل معروف تصطنعه عند إنسان هو بلاء عنده .

٦ — ٢٢١ : ١٥ : (ولكن إيش الفائدة) قال الأستاذ : (وهذا ضبط عامى والصواب : أيْش) . وقد بينت فى المقدمة رأيى فى هذا الباب ولغته وقلت : « بل أرى فيه من الركاكة ومقاربة العامية الخ المقدمة ص ٥٠ » ولم أتبعه إلا اتباعاً لنسخة الأصل واستيفاء للبحث .

وبعد . فالأستاذ مشكور على نقده ، ولعل فيما أجبت به ما يزيل شبهته .

• • •

— ٢ —(*)

كتب الأستاذ عبد السلام هارون مقالات أربعاً فى كتاب « كليلة ودمنة » كما نشرته . وقد عجلت جواب المقالة الأولى فى العدد ٤٢٦ من (الرسالة) ، ثم بدا لى أن أنتظر فراغ الأستاذ من بحثه . فلما فرغ شغلتنى شواغل عن البدار إلى الإجابة ، فأرجو أن يقبل الأستاذ الناقد والقراء عذرى فى تأخير الإجابة التى انتظروها .

(*) نشرت بالعدد ٤٣٣ من الرسالة أكتوبر سنة ١٩٤١ .

وإجمال الكلام فى المقالات الثلاث أن كلام الأستاذ فيها ضروب ، منها ما هو تفسير لكلمة غامضة ، أو توجيه للفظ يبدو فى السياق غريباً ؛ ومنها ما هو إجازة لوجه آخر غير الوجه الذى جرى عليه الكلام فى الكتاب . وهذه الأضرب من التفسير والتوضيح والتجويز يشكر عليها الأستاذ وأوافقه عليها . ومنها بحث فى أساليب ابن المقفع ، وهو موضوع يحتاج إلى مقدمات فى كتاب « كليلة ودمنة » لم تستوف كلها ، وللأستاذ رأيه فيه واجتهاده .

وأما الضرب الذى يقتضينى الجواب ، فهو ما أخذه الناقد على كلمات أو جمل جاءت فى الكتاب وعدها غلطاً ، أو ظن غيرها أقرب منها إلى الصواب . وأنا أعرض على القراء آرائى فى مآخذ الأستاذ على النسق الذى أجرى عليه الكلام :

٨ — ٢٦١ : ٤ : (إن الملوك وغيرهم جُدُر أن يأتوا الخير إلى أهله) . أخذ الأستاذ على هذه الجملة أن جُدُر جمع جِدار لا جمع جدير قال : « وجمع فعيل صفة على فعُل نادر سمع منه نذير ونذر وجديد وجدد وسديس وسُدُس .

والجواب أنه يجوز أن يكون الكاتب قد أجرى جدير مجرى نذير وغيره . والأولى مع هذا أن يتبع الكثير المعروف فيجمع جدير على جدراء .

والمأخذ الثانى فى هذه الجملة أن الأستاذ ظن أن يأتوا فى الجملة بمعنى يعطون فقال : « الصواب يؤتون من آتى » . وليس هذا من الصواب فى شىء . والمراد فى الجملة إتيان الخير بمعنى فعله . ولو غُيِّرت الجملة برأى الأستاذ إلى (يؤتوا الخير إلى أهله) ، لكان فيها مأخذان : الأول تعدية آتى بإلى وهى متعدية بنفسها كما فى القرآن : وآتوا اليتامى أموالهم — ولا تؤتوا السفهاء أموالكم — والثانى : أن يعدل بالجملة من أتى الخير بمعنى فعله ، وهو استعمال شائع ، إلى آتَى الخير بمعنى أعطاه وهو استعمال غير معروف فى

الكلام الفصيح . فعبارة الكتاب صحيحة واضحة لا يكون تغييرها إلا إفساداً لها .

الضبط النحوى

عدّد الأستاذ تحت هذا العنوان مآخذ :

ص ١٨ س١١ (فيعلم سر نفسه وما يضمر عليه قلبَه) : قال وأضمر يضمر بمعنى أخفى يخفى فما يكون المعنى فى أن يخفى قلبَه عليه ؟ الصواب قلبُه بالرفع لأن القلب هو الذى يضمر الأسرار والنوايا : « والجواب أن من اليسير أن يضمن الكاتب « يضمر » معنى يطوى أو يطبق أو نحوه . وتحويل قلبه من المفعولية إلى الفاعلية يجعل معنى الجملة « يخفى عليه قلبُه » فهل يرى الأستاذ أن هذه العبارة أسد من الأولى ؟

٤١ : ١٤ (وشبهت الجرذين بالليل والنهار ، وقرضُهما دأبُهما فى إنفاد الآجال) قال : يصح أن تقرأ وقرضَهما دأبَهما باستمرار التشبيه الخ . والجواب أنى رجحت الرفع لأن فى النصب إخلالاً بنسق الجملة ، بتعدية الفعل (شبهت) بالباء فى المفعولين الأولين « الجرذين بالليل والنهار » وتعديته بغير حرف فى المفعولين الآخرين (وقرضهمادأبَهما) فالاستئناف برفع قرضُهما أرجح .

١٢٨ : ٤ (فأعادت ذلك عليه مراراً كلُّ ذلك لا يلتفت إلى قولها) . وقال الأستاذ : ولا وجه للرفع هنا ؛ والوجه كلَّ ذلك على الظرفية الزمانية ولا يصح أن يكون كل مبتدأ . وذلك لأن الضمير العائد عليها محذوف تقديره (فيه) ، والبصريون يمنعون حذف الضمير العائد على لفظ كل إذا كان مبتدأ . ولذلك حكموا بشذوذ قراءة ابن عامر (وكلٌّ وعد الله الحسنى).

وليست الظرفية هنا حتماً ، بل يجوز أن يكون المعنى : كل ذلك القول لا يلتفت إليه ، فالإشارة للقول لا للزمان . وقد وضع الكاتب الاسم الظاهر

موضع الضمير فقال : (إلى قولها) بدل (إليه) والجملة على الوجهين ليست من الأساليب العربية المختارة .

ص ١٧٩ : ٢ (ولم أذكر ما ذكرت ألا أكون أعرف منك الكرم والسعة فى الخلق) قال : الوجه إلا لكونى أعرِف منك . وأقول ليس هذا وجهاً . فإن المعنى : لم أذكر ما ذكرت جهلاً بكرمك . فهو اعتذار عن الكلام السابق الذى يشعر بأن الغيلم يشك فى كرم القرد . ويؤيد هذا أن بعد هذه الجملة : (ولكن أحببت أن تزورنى فى منزلى) وهو استدراك حسن فى الجملة التى أثبتناها فى الكتاب ، وهو إثبات بعد نفى : لم أجهل كرمك ولكنى أحببت . ولا يحسن هذا الاستدراك إذا أجرينا الكلام على الوجه الذى رآه الأستاذ فجعلناه : (ولم أذكر ما ذكرت إلا لكونى أعرف منك الكرم ولكن أحببت الخ) والتأمل فى سياق الكلام يبين أن لا وجه إلا ما جاء فى متن الكتاب .

١٩٩ : ٣ (لم تدر أيُّهما تأخذ) . قال : والصواب أيَّهما بالنصب وصدق ، فالنصب أقر وأرجح وإن يكن للرفع وجه فما قصدته .

فى تحقيق النص

أورد الأستاذ تحت هذا العنوان مآخذ :

ص ٢٦ س ١٠ : (مثل الحراث الذى يثير الأرض ويعمرها ابتغاء الزرع لا العشب) . قال : (فما وجه العمارة فى طلب الزرع ؟ الصواب يغمرها أى بالماء) . وأقول : (إن الزرع ضرب من عمارة الأرض لا ريب) وما أحسب الكاتب إلا حاكى الآية القرآنية : (وأثاروا الأرض وعمروها) . ولا يعبِّر عن سقى الأرض بغمرها ؛ فكلمة يغمرها بعيدة من سياق الكلام هنا .

ص ٣٨ س ٣ : فى الحديث عن الجنين : (منوط قمع سرَّته إلى مرىء

بأمعائها) . قال الناقد : وهو كلام متهالك مضطرب ؛ فما العلاقة بين سرة الجنين وأمعاء الأم ؟ إلى أن قال : (أما كلمة مرىء فعجيبة أيضاً) . وانتهى إلى أن صواب الجملة : (منوط بمِعىً من سرته إلى مراقّ رحمها) .

إن كان الأستاذ يريد أن يغلِّط الكاتب الذى كتب باب برزويه فليجادله فى التشريح كما يشاء ؛ وإن كان يريد أن فى الكتاب تحريفاً لم نهتد إلى صوابه فلست أرى رأيه . عبارة الكتاب : (منوط فمع سرّته إلى مرىء بأمعائها يمصّ به من طعامها وشرابها وبذلك يعيش ويحيا) وظاهر أن الكاتب يرى أن الجنين يصل بين سرته وأمعاء أمه مرىء أى مجرى للطعام كالمرىء الذى بين حلق الإنسان ومعدته ؛ وأنه يتغذى من طعامها بهذه الصلة . فالكلام بيِّنٌ معرب عن مراد الكاتب صواباً أم خطأ . وفى نسخة شيخو (منوط من سرته إلى سرة أمه وسلك السرة يمصُّ من طعامها وشرابها) . وفى نسخة طبارة (منوط بمعى من سرته إلى سرة أمه ومن ذلك المعى يمصّ ويقتبس الطعام) فالفرق بين نسختنا وهاتين النسختين أن سرة الجنين تفضى بهذا المعى أو المرىء إلى سُرَّة الأم أو أمعائها . وعبارة الطعام والشراب تدل على أن الاتصال بواسطة سرة الأم أو بغير واسطتها ينتهى إلى الأمعاء . وهذا الذى تدل عليه عبارة نسختنا . وأما فرض الأستاذ أن أصل العبارة (منوط بمعىً من سرته إلى مراق رحمها) فندع الكلام فى صحته للأطباء . ومهما يكن رأى الأطباء فيه فلن يجيز الأدباء الأمناء على نشر الكتب أن يحولوا نص الكتاب إلى العبارة التى يقترحها الأستاذ مع بعدها عما فى النسخ كلها . ولو أبحت لنفسى التصرف فى متن الكتاب لما تركت به عبارة تقبل اعتراض النقاد .

٤٠ : ٦ (وأصبح الرضا مجهوداً مفقوداً) يرى الأستاذ أن كلمة مجهود محرفة عن مجهول ويستشهد النسخ الأخرى . وله الحق ؛ فكلمة مجهول أقرب إلى ظن القارئ من كلمة مجهود ؛ ولكنى لم أستحسن تغيير الكلمة لسببين : الأول أن مجهوداً تفيد معنى فى الجملة غير الذى تفيده كلمة

مفقوداً ، وأن كلمتى مجهول ومفقود تؤولان إلى معنى واحد . والثانى أن الكاتب فى هذا الفصل وصف الأمور المعنوية بأوصاف تجعل القارئ لا يستغرب أن يوصف الرضا بأنه مجهود كما قال : وكأن القدر أصبح مستيقظاً والوفاء نائماً ، وكأن الكذب أصبح غضاً والصدق قاحلاً ، وكأن الحق ولّى عاثراً والإنصاف بائساً الخ .

٤٤ : ٧ (كالكحل الذى لا يؤخذ منه إلا مثل الغبار) قال: صوابه إلا مثل غبار الميل . وأقول لا يكون هذا صواباً لأن الذى يؤخذ من الكحل ليس غباراً ولكنه يشبه الغبار . وإذا قلنا مثل غبار الميل فقد جعلنا ما على الميل غباراً ، والغرض أن يشبه بالغبار ، ثم جعلنا ما يؤخذ من الكحل مثل غبار الميل وهو غبار الميل نفسه فكلمة مثل لغو . والظاهر أن النسخ الأخرى زادت كلمة الميل توضيحاً للعبارة لأن الكحل يؤخذ من المكحلة بالميل . ونسخة شيخو توافق نسختنا . وفى النسخ الأخرى إلا غبار الميل . فالعبارة (مثل غبار الميل) لا توافق العقل ولا النقل .

٧٥ ، ١٢ (مثل المكارى كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه) قال الأستاذ هى فى الأصل ونسخة شيخو ونسخة بولاق : (مثل البغى كلما . . . الخ) . ثم أخذ على الناشر تغيير الأصل واشتد فى هذه المؤاخذة .

وأنا قد بينت الأصل فى التعليق ويكون القارئ على بينة مما فعلت ، وأما حكمة التغيير التى سأل عنها الأستاذ فيدركها من تأمل فعرف المشبه فى هذه الجملة وتبين أنه لا يليق أن يجمع بين طرفى التشبيه هذين فى كتاب كهذا الكتاب ينشر فى مثل هذه الأحوال .

* * *

– ٣ –(*)

ص ٩٥ س٧ : (إن أرضاً يأكل جُرذانها مائة منٍّ من حديد ليس بمستكبر لها أن تختطف بُزاتها الفيَلة) ، قال الناقد الفاضل : (ابن المقفع – فيما أشعر – لا يقول هذه الكلمة ، بل يقول بمستنكر) . ومما يجدر ذكره أن استكبر الشيء بمعنى رآه كبيراً وعظم عنده . قولٌ منسوب إلى الإمام ابن جنى ولم يقله عامة اللغويين . . . الخ .

أقول : هذا القول جاء فى كتب اللغة كثيراً منسوباً إلى ابن جنى وغير منسوب ، وهو مقيس مسموع . وأرى أن (مستكبر) أولى بهذا الموضع من (مستنكر) ، لأن الاستنكار أن يعدّ الأمر نُكراً ، والاستكبار أن يعدّه كبيراً ، ومرجع المعنى فى هذه الجملة إلى أنه مستكبر للبزاة أن تختطف الفيلة لا إلى استنكار هذا . ثم استعمال كلمة (لها) دون (عليها) أقرب إلى الاستكبار . فإن جاز أن توضع مستنكر هنا فستكبر فى رأيى أقرب إلى سياق الحديث وأخصّ فى المعنى .

ص ١٠٧ س ٦ (إذا جئتنى بالليل من غير نداء ولا رمى ولا شيء يرتاب به) قال الناقد : فما ذلك الرمى ؟ الصواب : « ولا رمز » وأقول إن الرمى هو الصواب لأن الرمز فى أغلب معانيه إشارة باليد أو غمز بالعين أو الحاجب . وهذا مما لا يبين بالليل وإنما أراد الكاتب أن ينبذ إليها شيئاً تعرف به حضوره .

ص ١١٥ س ١٣ وصفحات أخرى (رأس الخنازير وسيِّد الخنازير) قال : عندى أنها رأس الخبَّازين وسيِّد الخبَّازين . واستدل ببعض النسخ . وأرى أن الخنازير أقرب إلى الصواب لأن دمنة وصف هذا الرئيس بصفات الخنازير . وليس فى وصفه بأنه صاحب المائدة ما يجعله خبازاً ، ثم تسمية رئيس الجماعة سيدهم كما يقال سيِّد الخنازير أقرب من أن يسمى رئيس الصناع

(*) نشرت بالعدد ٤٣٤ من الرسالة ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٤١ .

سيدهم فيقال سيد الخبازين . وقد بينت اختلاف النسخ فى هذه الكلمة فى التعليق الحادى عشر من باب الفحص عن أمر دمنة . وعن هذا التعليق أخذ الناقد روايات النسخ التى استدل بها . ومن غريب ما وقع فى هذا النقل أنى قلت فى التعليق (وفى نسخة شيخو والسريانية) أعنى النسخة السريانية الحديثة فقال الأستاذ فى النقد : (وفى نسخة شيخو السريانية) . وليس لشيخو نسخة سريانية .

ص ١٢٧ س ١٤ : (وأخفت علىّ الشبكة حتى لجحت فيها وصويحباتى)؛ قال الناقد : إنما هو لحج – أى نشب – وقوله فى هذا سديد جيد ، أرجو أن يكون ابن المقفع أراده .

ص ١٣٣ س ١٥ : (وكان الضيف رجلاً قد جال الآفاق) قال : والفعل جال لا يتعدّى بنفسه ، والوجه جال فى الآفاق . أقول : والأمر فى هذا هين ، فقد قيل جوّل البلاد وجوّل فيها ولا يبعد أن يُعَدّى جال بالتضمين أو ضرب من التوسع .

ص ١٣٩ س ٨ : (وانقلبت ظهراً لبطنٍ وانجررت حتى دخلت جحرى) . قال : وإنما هى انحدرت – أى نزلت فى سرعة إلى الجحر – أقول : كان هذا وجهاً لو كانت الجملة « وانجررت فى جحرى » ، ولكنها : « انجررت حتى دخلت فى جحرى » ، فقد جرّ الجرذ نفسه حتى بلغ الجحر . ولا يلزم أن نتصور الجحر فى مكان منخفض ، فنضع انحدر مكان انجرّ .

ص ١٥٠ س ٧ (إن كان) العدو (بعيداً لم يأمن من معاودته وإن كان متكشفاً لم يأمن استطراده) .

قال : متكشفاً أى بادياً ظاهراً وهى لا تساير الكلام ، والصواب مكثباً أى دانياً الخ .

ورأيى أن هذا ليس صواباً . فإن الاستطراد أن ينهزم المقاتل أمام قرنه ليكر عليه ، فهو ضرب من المكيدة يراد به إبعاد القِرن قرينه أو نحو هذا . ومعنى الكلام هنا أن الإنسان ينبغى أن يكون على حذر من عدوّه فى كل حال ولا ينخدع بالحالات التى يظن فيها العدو بعيداً أو مهزوماً ، فإن رأى عدوه متكشفاً ظاهراً له غير ممنوع منه ،أومتظاهراً بالهزيمة ، فلا يأمَنَنّ أن يكون هذا استطراداً يريد أن يخدعه به ليكر عليه . فإن وضعنا كلمة « مكثباً » أى دانياً موضع « متكشفاً » اختل الكلام اختلالاً وكان معناه إن رأيت العدوّ قريباً فلا تغترّ بقربه فلعله يريد أن يستطرد لك . وهو كلام متهافت ، لأن اقتراب العدو ليس من أحوال الخداع التى يغترّ بها عدوه ، فيقال له : لا تغترّ بقربه ، فإنه يستطرد لك . ثم حالة القرب مذكورة بعد هذه الجملة : (وإن كان متكشفاً لم يأمن استطراده ، وإن كان قريباً لم يأمن مواثيقه) .

١٦٦ : ١٥ (فإن الشر يدور حيثما دارت) . قال : هى حيثما دُرتَ — وليست كذلك فالضمير راجع إلى الطبائع المذكورة فى الجملة (أرأيتك لو أحرقناك بالنار كان جوهرك وطباعك تحترق معك ؟ فإن الشر يدور حيثما دارت) .

١٧١ : ٤ (فابتليت ببلاء حرمت على الضفادع) : قال والجملة بهذا الوضع مبتورة ناقصة وتمامها (حرمت على الضفادع من أجله) أى من أجل البلاء . وذلك كما فى صفحة ٧٧ عن طبعة بولاق .

أقول هذا الاعتراض وأشباهه يسيرُ على من يريد أن يغير أسلوب الكتاب إلى الأسلوب المألوف المعروف كما فعل الكتّاب بنسخ الكتاب الأخرى : ولكنى أزعم أن أمامنا نصاً آخر جديراً بالبحث وأن أسلوب ابن المقفع

لا يخلو من أثر الفارسية، ولعل هذه الجملة من شواهد هذا التأثير فليس فى الجملة الفارسية عائد على الموصول أو الموصوف . لهذا أثبتها كما وجدتها غير عادل عنها إلى روايات النسخ الأخرى .

هذا إجمال الجواب عما يحتاج إلى جواب مما جاء فى المقال الثالث من مقالات الناقد الفاضل ، وموعدنا بالجواب عن المقال الأخير العدد الآتى إن شاء الله .

— ٤ —

ص ١٩٥ س ١٥ : (أرادوا إدخال النقص عليك فى ملكك) قال الأستاذ : « كلمة النقص ركيكة فى هذا المعرض لا يقولها مثل ابن المقفع وإنما هى النقض بالضاد المعجمة» ولست أرى فى النقص هنا ركاكة . وما كان لى أن أغير الذى أمامى فى أمر لا دليل فيه . وهذا دأبى فى تصحيح الكتاب ، ولو كان الأمر إلى اختيارى لما اخترت إحدى الكلمتين ضربة لازب .

ص ٢٠٠ س ٩ : (فإنها امرأة عاقلة لبيبة حريصة على الخير ، سعيدة من الملكات ليس لها فى النساء عديل) قال الأستاذ : « وكيف تكون سعيدة مع أن الملك أمر بقتلها الخ . . . ثم هو فى معرض التنويه بخصالها ، وليست السعادة خصلة أو خلقاً من الأخلاق. والوجه: سديدة الرأى من الملكات التى ليس لها فى النساء عديل » ؛ وقال فى الحاشية : انظر كليلة ودمنة طبع بولاق — والجواب أنه ما كان لمصحح أمين أن يغير برأيه سعيدة من الملكات إلى سديدة الرأى من الملكات التى الخ . . . وطبعة بولاق وغيرها شواهد على ما جناه الناشرون المتصرفون بآرائهم فى متن الكتاب . ومعنى سعادة الملكة هنا أنها مباركة ميمونة كان عهدها مع الملك عهد سعادة وغبطة .

(*) نشرت بمجلة الرسالة بالعدد ٤٣٦ شوال سنة ١٣٦٠هـ نوفمبر ١٩٤١م .

ص ٢٠٨ س ١١ ، ١٢ (الذى يصنع الطعام وينظفه لسيده) قال الأستاذ أن الكلمة « ينضجه » حرفها الناسخ إلى « ينظفه » . وهو رأى سديد ، وكان ينبغى أن يشار إلى هذا التعليق إن لم يجز تغيير المتن .

ص ٢١٠ س ٥ : (والجرىء الجاهل المقدم على ما ليس له وإن أتلف نفس غيره فى طلب حاجة وشحه) قال : صوابه : ونجحه . وأرى أن الصواب « شحه » يعنى حرصه على ما يطلب . وليس الشح الحرص على ما فى اليد فقط بل منه الحرص على أخذ ما ليس فى اليد وفى حديث ابن مسعود والشح أن تأخذ مال أخيك بغير حقه . وفى حديث ابن عمر : إن كان شحك لا يحملك على أن تأخذ ما ليس لك فليس بشحك بأس .

ص ٢٥٠ س٣ : (فلما رأوا الأسد قد احتشد فى طلب اللحم وغضب) قال : أرى أنها احتدّ والحدّة تقارن الغضب . أقول بل هى احتشد وكذلك وقعت فى نسخة شيخو . واحتشد الإنسان فى الأمر إذا اجتهد وبذل وسعه فيه .

ص ٢٤٧ س ٤ : (فما الذى يشبه كفَّك عن الدماء وتركك اللحم) : كلمة يشبه مقحمة ، ولعلها زيادة من المملى للناسخ حين تردده فى الكلمة بعدها — وقد وقفت عند هذه الجملة حين التصحيح وهممت أن أضع مكانها ما فى شيخو : (فما الذى يمسك كفَّك عن الدماء) ولكنى وجدت فى آخر الجملة (وتركك اللحم) .وفى شيخو وترك اللحم .وهذا لا يستقيم مع كلمة يمسك . ورأيتها فى نسخة طبارة « فأى شىء يشبه كفك عن الدماء إلخ ... » فآثرت الإبقاء على ما فى نسختنا . وكان يسيراً أن أغيرها كما غيرتها النسخ الأخرى . ومعنى الجملة : أى سيرة هذه التى لا نرى لها شبيهاً ؟

٢٧١ : ١١ (بفضل قسّمه لك وتابعَ نعمَه عليك) قال : فعلى أى شىء عطف الفعل (تابع) ؟ — رأى أن تصحح الجملة على وجوه مختلفة —

وأرى أن فى الجملة نظراً ولكن معناها بَيِّن، وتابع معطوف على قسمه والضمير فى تابع يرجع إلى الله وليست جملة تابع وصفاً لفضل وإن كانت عطفاً على الوصف .

٢٧٥ : ٢ (كالشعلة من النار التى يصونها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً) قال الأستاذ إنه وجدها فى عيون الأخبار (يصوبها) أى يخفضها — وأقول : هو وجه حسن جيد ولكن لم يقع فى نسخة من نسخ الكتاب فلم يتوجه الرأى إليه . وهو حرىٌّ أن يؤخذ به ، وللناقد الشكر .

٢٧٦ : ١٣ (ولم تجدى من الأسف والحزن على شبليك شيئاً إلا وقد كان من كنت تفعلين بأحبابه ما تفعلين يجد مثله أو أفضل منه) قال الأستاذ : وليس يقال حزن فلان حزناً أفضل من حزن فلان . . . والوجه أمثل الخ . ولا أرى هذا وجهاً . وقد بيَّنت فى التعليق أن الفضل معناه الزيادة . وعندى أن كلمة أفضل أقرب من أمثل فى هذا السياق . وإن فسرت أمثل بأنها من مثَل بمعنى نكَّل كما فسرها الناقد .

فى التعليقات

جادل الناقد الفاضل فى جمل رأيت أن بها أثراً من الفارسية . وقلت إن ابن المقفع لم يسلم من تأثير الفارسية حين الترجمة — وقد رأى الأستاذ أن هذه الجمل أوجهاً فى العربية الصحيحة . ولست أريد أن أتناول هذه الجمل بالتفصيل ، وحسبى أن أقول إن هذه الصيَغ أشيع فى الفارسية وأقرب إلى أساليبها ، وقد ذكرتنى بالفارسية حين قرأتها . ولعل الذى حفز الأستاذ إلى الجدال فى هذه الجمل أنه يرى « ابن المقفع أيقظ من أن يؤثر فى بيانه العربى الخالص هجنة فارسية ، أو يلتاث فى ترجمته هذه اللوثة » . ولست أشاركه هذا الرأى ، فلا ريب عندى أن أثر الفارسية يظهر أحياناً فى أساليب ابن المقفع وهو أمر يحتاج إلى تفصيل وتبيين ، وعسى أن تتاح فرصة للكلام فيه .

وبعد ، فقد آثرت الإيجاز فى الرد على الناقد الأديب توفيراً للوقت وعلماً بأن قليلاً من القراء من يحمل نفسه على تتبع الجدال فى جزئيات كهذه .

ثم للأستاذ عبد السلام الشكر بما قرأ وبحث ، ودقّق ونقد . وقد دل نقده على علم وأدب ، نسأل الله له منهما المزيد ، كما نسأله أن يهدينا إلى السداد فى الرأى والقول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

مجموع رسائل الجاحظ(*)

نشره : باول كراوس ، ومحمد طه الحاجرى

بقلم : عبد السلام محمد هارون

هذا المجموع النفيس يشتمل على أربع رسائل :

أولها : (رسالة المعاد والمعاش) فى الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم . كتب بها الجاحظ إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد . وهى رسالة كبيرة تقع فى ٣٦ صفحة يقول فى صدرها : « ولم أزل – أبقاك الله – بالموضع الذى قد علمتَ : من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها . . فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش ، أصف لك فيه علل الأشياء ، وأخبرك بأسبابها . . . » .

ثم يمضى فى رسم سياسة حكيمة لمن صنع له هذه الرسالة . وتتجلى لنا دقة الجاحظ واستكناهه لخفايا الغرائز فى فرقه بين الغضب والحزن . ثم يحمل حملة شعواء على تلك الخلة التى فرّقت بين الأمم والأجيال فى كل العصور ، وهى المفاخرة بالأنساب . ويسلك بعد ذلك مسلكاً دقيقاً إلى خطاءٍ خلقى آخر يقع فيه كثير من الناس ، فيقول :

« ألاَّ يحدث لك انحطاط من حطّت الدنيا من إخوانك استهانة بهِ ، ولا لحقّه إضاعة ، ولما كنت تعلم من قدره استصغاراً . بل إن زدته قليلاً كان أشرف لك ، وأعطف للقلوب عليكَ . . ولا يحدث لك ارتفاع من

(*) مجلة المقتطف يوليو ١٩٤٤م .

رفعت الدنيا منهم تذللا ، وإيثاراً لهُ على نظرائه فى الحفظ والإكرام . بل لو انقبضت عنه كان مادحك أكثر من ذامّك ، وكان هو أولى بالتعطف عليك » .

وثانيها : (رسالة كتمان السر وحفظ اللسان) ، وتقع فى ٢٤ صفحة ، ولا تقل فى الروعة عن سابقتها ، ويتجلى فيها اقتدار الجاحظ على الاحتجاج لما هو بسبيله .

هو يتحدث مثلاً عن الدوافع الملحة التى تدفع بعض الناس أن يستعلنوا ما انطوت صدورهم عليه من السر ، ويصور ذلك فى لباقة القصصى الماهر ، إذ يقول « وكان الأعمش سيئ الخلق غلقاً ، وكان أصحاب الحديث يُضجِرونه ويُسومونه نشرَ ما يحِبُّ طيَّه عنهم ، فيقبل على شاةٍ كانت له فى منزله ، فيحدثها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول : ليت أنى كنت شاة الأعمش[1] . »

وثالثها : (رسالة فى الجد والهزل) وهى فى ٣٨ صفحة ، يسوقها إلى محمد بن عبد الملك بن الزيات . وهى كعنوانها أمشاج من فنون فى الجد وأخرى فى الهزل . ويسرى فيها مثل الروح التى سرت فى رسالة التربيع والتدوير .

ومما فيها من الطرائف عقده موازنة بين قراءة المستلقى وقراءة الجالس ، ويحتج للأولى بقوله فى الكتب : « ورأيت أن أنظر فيها وأنا مستلقٍ ، ولا أنظر فيها وأنا منتصب ، استظهاراً على تعب البدن ، إذ كانت الأسافل مثقلة بالأعالى ، وإذ كان الانتصاب يسرع فى إدخال الوهن على الأصلاب ولأن ذلك أبقى على نور البصر . . . » .

ورابعها : (رسالة فصل ما بين العداوة والحسد) . تقع فى ٢٦ صفحة .

(١) انظر ثمار القلوب للثعالبى ص ١٣٤ .

يقول فى أولها : « أصحب الله مدتك بالسعادة والسلامة ، وقرنها بالعافية والسرور ، ووصلها بالنعمة التى لا تزول ، والكرامة التى لا تحول . هذا كتاب – أطال الله بقاءك – نبيل بارع فصل فيه بين الحسد والعداوة . لم يسبقنى إليه أحد » .

وصدق الجاحظ ، فإن أحداً لم يسبقه إلى هذه الدقة البالغة فى تمييز هذين الطبعين ، وإن أحداً لم يكتب بعده هذا المعنى . فى مثل تلك القوة والبراعة .

١ – هذه الرسائل الأربع لم يسبق نشرها من قبل . فللأستاذين الناشرين فضل السبق إلى نشرها ، وتمكين الأدباء من تناول ما فيها من فضل بارع وخير وفير .

٢ – وقد سلك الناشران منهج النشر العلمى الصحيح . وحرصا أشد الحرص على أمانة النقل وصدق الرواية عما بأيديهما من أصول . وهذا مبعث رضا ومثار تقدير لكل من يطالع هذا المجموع من رسائل الجاحظ .

٣ – وقد استعمل الناشران طريقة استحدثاها فى التعليق على النصوص . وأعدَّا لذلك أهبة لا يستهان بها من الأقواس والمعقفات ، والنقط ، والرموز . والنجوم ، والاصطلاحات . وهى بلا ريب ضرورية للتعليق والتحقيق . ولكنهما ربطا الجواد خلف المركب . فظهر فى طريقتهما (ولا سيما النجوم) كثير من العسر الذى لا يتغلب عليه إلاَّ حشد قوى الدُّربة والرياضة . كما خالفا فى ذلك الطريقة المألوفة التى جرى الناشرون عليها ، واستساغها جمهور القارئين والباحثين . ولعلَّ من عذرهما فى ذلك رغبة التغلب على مشكلة الورق ، ولكن ذلك لا يقوم عذراً إزاء ما ابتدعا من صعوبة .

٤ — خلت هذه الرسائل من الشرح ، ولغة الجاحظ الذى كان يتنسَّم هواء القرن الثالث الهجرى ، فيها إشارات وعبارات ومثل وشعر يخفى كثير منهُ على القارئ من الخاصة ، فما بالك بالوسط ؟ الحق أننا فى عصر يفتقر أهله أشد الافتقار إلى من يحسن صلتهم بتراثهم القديم ، وينهج لهم السبيل إليه .

٥ — فى الرسائل كثير من الأعلام ، أعلام الناس والبلدان . وهى بحاجة إلى تحقيق وترجمة توضح الجو للقارئ ، وتسعفهُ بفهم النصوص فهماً كاملاً . ومع ذلك لم يظفر علم من أولئك بترجمة أو بتحقيق . ومما جاء محرفاً منها : « غيلان بن خرشة الضبي » ، (ص ١١٧) إذ كتب محرفاً برسم : « خرشنة » . وغيلان هذا كان أعرابياً جافياً به لوثة ، وكان فى أيام زياد ، وله معه حديث طويل سرده ابن قتيبة(١) . وروى أبو الفرج(٢) أن غيلان ابن خرشة الضبي دخل إلى قوم من إخوانه وعندهم قينة ، فجلس معهم وهو لا يدرى فيمَ هم حتى غنَّت القينة :

طبيبىَّ داويتما ظاهراً فمن ذا يداوى جوى باطنا

فغضب ووثب وهو يقول : السوط — وربِّ غيلان — يداوى ذلك الجوى ! وخرج من عندهم .

و « خرشة » بالتحريك . أما خرشنة فاسم لبلد قرب ملطية من بلاد الروم . غزاه سيف الدولة ، وذكره المتنبي وغيره فى شعره .

٦ — خلت هذه النشرة من الفهارس . ولسنا بصدد أن نبين قيمة الفهارس بعد ما وضح للباحثين ضرورتها ، وشدة الحاجة إليها . وليست المائة والأربعون صفحة بالقدر الهين الذى يستغنى فيه عن الفهارس .

---

(١) عيون الأخبار (٣ : ٢٤٤ — ٢٤٦) .
(٢) الأغانى (١٢ : ٩٢ طبع الساسى) .

٧ – تضمنت الرسائل آيات قرآنية كثيرة . وقد جرى الناشرون المحدثون تبعاً للسلف على تمييزها عن غيرها من النصوص بمميّز يظهرها . ولكننا وجدنا الآيات الكريمة تجرى مع النص لا يفصلها منهُ فاصل . بل إن بعض الآيات قد جاء متداخلاً فى البعض الآخر ، كما فى ص ١٨ س ١٤ – ١٥ : « خذوا حذركم » . « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ، رسمت هاتان الآيتان على هذا الوضع : خذوا حذركم ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . مع أنهما من سورتين مختلفتين . وكان أولى من التنبيه فى أسفل الصفحة أن يفرق بينهما فى الرسم . وقد وردت هذه الآية التالية محرفة : « وتحبون المال حبّاً جمّاً » إذ رسمت بلفظ « ويحبون » بالياء التحتية . وهو سهو عظيم ما كان أجدر بالناشرين ألاّ يقعا فيه. وقد أجمع القراء على لفظ التاء الفوقية المثنّاة لم يشذ منهم أحد[1] .

بذل الناشران جهداً موفقاً فى تصحيح النصوص . ونترك الكلام لهما يقولان : « ومع ذلك بقيت فى هذه الرسالة مواضع على فسادها ونقصها ، لم نوفق إلى تصحيحها . ولم نجد العون على إقامة عوجها فى أصل آخر ، أو قراءة أخرى ، ولكنا آثرنا أن نظهر هذه الرسائل على ما فيها مما فات طوقنا ، فذلك خير من أن تظل حبيسة مقيدة . وما يزال أملنا كبيراً فى أن يتاح لنا من الوسائل ما يمهد السبيل إلى تصحيحها ، أو أن تجد من نقد الناقدين ما عسى أن يجاو هذه المواضع المغشاة فيها »[2] .

وهذه المواضع التى أشارا إليها كثيرة حقّاً ، ولعلى استطعت أن أجلو بعضها :

ص ٦ س ٥ : « اتفقت عليه محاسن الأمم » والصواب : « محاب » جمع « محبة » ويؤكد هذا التصحيح قول الجاحظ فى ص ١١ س ١٦ :

---

(١) انظر سورة الفجر فى إتحاف فضلاء البشر ، والقراءات الشاذة لابن خالويه .
(٢) انظر صفحة (ى) من المقدمة .

« وهاتان خَلَّتان داخل فيهما جميع محاب العباد ومكارههم » .

ص ١٣ س ٦ : « لموافقتها » صوابه : « لموافقتهما » .

ص ٢٧ س ١٤ : « أنفس العقدة » وجهه : « العُقَد » جمع عقدة . وهو ما يعتقده المرء من مال ونحوه .

ص ٣٢ س ١٦ : « فلا تستقبلها بالتضجع وتغبين الرأى » أما التضجع فهو التقعد فى الأمر وعدم القيام به . وأما « تغبين » فتحريف ، صوابه : « تغبيب » والمراد به الإمهال والتأخير ، مأخوذ من غب الورد : أن تشرب الإبل يوماً ، ويوماً لا . والمغببة : الشاة تحلب يوماً وتترك يوماً . أما « التغبين » بالنون فى الآخر ، فلم تعرفه اللغة .

ص ٣٢ س ١٨ : « فإن الاعتذار يكسر حمَّى اللائمة » . لا يقال كذلك . وإنما هى « حمياً اللائمة » وحميا كل شيء : شدته وحدته . وانظر ص ٢ س ٥ .

ص ٣٥ س ١٠ : « إن ضبطت ذلك وقومت عليك نفسك » ، الصواب « قومت عليه » .

وفى ص ٣٥ س ١٤ : « والمولَّى لكل إحسان » بتشديد لام المولى . الوجه « المُولى » من : أولاه أنعم عليه . ومنه قول أبى الطيب :

وكل امرئ يولى الجميلَ محببٌ وكل مكان يُنبت العزَّ طيبُ

ص ٣٧ س ٨ : « ولا يأنف شريف أن يقصر دونك . ولا يخشع عالم أن يأخذ عنك » . صوابه : « ولا يخشى عالم » .

ص ٣٨ س ١٩ : « لأنه يزمّ اللسان ويخطمه . ويشكله ويزبنه » ليس للزَّبن هنا وجه فالزبن : الدفع . وإنما المراد هنا التقييد والحبس . والوجه : « يربثه » ربثه يربُثه . بالضم : حبسه .

ص ٣٩ س ٩ : « واستعمل فضول النظر فدعت إلى فضول القول » ليس كذلك ، إنما هو تعقيب على ما قبله ، صوابه : « واستعمال فضول النظر يدعو إلى فضول القول » وانظر ما فى ص ٥٣ س ٧ .

ص ٣٩ س ١١ : « وجشّمه مؤونة الصبر على ستر الحلم والحكمة » الحلم لا يُتكلف ستره ، وإنما هو : « العلم » . ومما يؤيد هذا التصحيح قوله فى الصفحة نفسها س ٤ : « وتنتجه الحكمة والعلم » .

ص ٣٩ س ١٩ : « ثم صرفه فى أبواب الباطل والفسق ، فوجب عليه إثم الإنفاق منها » الصواب : « فيها » أى فى أبواب الباطل والفسق .

ص ٤٨ ــ س ٣ ــ ٤ : « الوُلوع بكل ممنوع ، والضجر بكل محصول » . ضبطت واو « الولوع » بالضم ، وصوبها الفتح . كما أن كلمة « محصول » محرفة ، والوجه : « مبذول » .

ص ٤٩ س ٥ : « وقضى ذلك الأرب وطر » ، وصوابه : « وقضى من ذلك الأرب وطرا » .

ص ٥١ س١٤ : « تنقب العوام عن أسرار الملوك » وضبطت : « تنقُّب » بتشديد القاف المضمومة . صوابه : « تنقيب » مصدر « نقب عن الأخبار وغيرها : بحث أو أخبر بها[1] » .

ص ٥٥ س ١١ : « ولو حاجَّه فيما ادعى ، ووقفه لانقطع » . إنما هى : « وواقفه » . والموافقة : أن يقف معه فى حرب أو خصومة[2] .

ص ٥٩ س ١٢ : « كلمة غارت فجنت حربا عوانا » الصواب :

---

(١) انظر اللسان (٢ : ٢٢٦ — ٢٢٧) .

(٢) انظر الحيوان (١ : ٩٢ س ٨ — ٤ : ٩٢ س ١٠) .

« عارت » بالعين المهملة . وفى حديث عثمان « أنه كان يشترى العير حُكرة ثم يقول : من يربحنى عقلها » ،قال ابن منظور : « العير الإبل بأحمالها . فعل من عار يعير إذا سار » . وقال أيضاً : « وقصيدة عائرة سائرة » و « رجل عيار : كثير المجيء والذهاب فى الأرض » .

ص ٦٣ س ٧ : « يحذرك مُصارع البغى » ، الوجه : « مَصارع » بفتح الميم .

ص ٦٩ س ٣ : « وتقريظ الثمر » ، صوابه : « التمر » بالمثناة : ومبنى الكلام كله على الزرع والنخل [١] .

ص ٦٩ س ٣ : « تميزوا هذا التمييز » إنما هو : « التميز » .

ص ٦٩ س ٥ : « ومتى صار الحكم للنعجة نسباً وللكرمة صهراً » . ليس للنعجة هنا مقام ، إنما هى : « للنخلة » والكلام فى المفاضلة بين الزروع [٢] .

ص ٦٩ س ١٣ : « وليس هذا أول شرك نصبته ، ولا أول كيد أرغنه » . ليس كذلك بل هو : « ولا أول صيد أرغته » أراغ الصيد يريغه : طلبه .

ص ٧٠ س ١٥ : « وربت كلمة تدور مع خلتها ، وتتقلب مع جارتها ، وبإرادة صاحبتها » . إنما يقول الجاحظ : « وبإزاء صاحبتها » .

ص ٧٥ س ١٠ — ١١ : « وإذا تطاول الكد رسخ الزُّهد » ، الصواب : « رُتج الذهن » أى أغلق . ولا وجه للزهد فى هذا المقام .

ص ٨١ س ١٥ : « فلعلّى كنت أعيش بالرفق . وأتبلغ بحشاشة النفس »

---

(١) انظر السطر الأول من هذه الرسالة ص ٦١ .

(٢) انظر السطر الأول من هذه الرسالة ص ٦١ .

الصواب : « بالرَّمق » . والرمق ، بالتحريك : بقية الحياة . كما أن الحشاشة أيضاً بقية الحياة . ومنهُ قول امرئ القيس [(١)] :

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آلِ

ص ٨٣ س ١٤ : « والغضبان يشغلهُ الغضب ، ويغلى بهِ الغيظ » . الصواب : « يُشعله » من الإشعال. اعتبر هذا بقوله ص ٨٤ س ١ : « واحترق حتى لا يفهم » وقوله س ٧ منها : « وأذكى ناره واشتعل » .

ص ٨٤ س ٤ : « وليس يصارع الغضب أيام شبابه وغرب نابه شيء إلاّ صرعه » . ليس يقولها الجاحظ ، إنما هي : « إبان » أي وقت .

ص ٨٧ س ٧ — ٨ : « فإني لا أعرف إلا مجازها فى الجملة ، ولا أحق خاصتها على التحصيل » . الوجه : « على التفصيل » وهو ما يقابل : « الجملة » .

ص ٩١ س ١٥ : « وطبيعتك هى المسكنة » صوابه « المسكة » ، والمسكة ، بالضم : ما يتمسك به . وتقابل بها : « الحجة » فى السطر السابق .

ص ٩٢ س ٢ : « بما يشيع لك من اسم المتسرع ، وبما تضاف إليهِ من سخف المتبرع » إنما هى « سخف المترع » بتاءين ، وفى اللسان : « ترع إلى الشىء : تسرع . وترّع إلينا بالشر : تسرع . والمترع : الشرير المسارع إلى ما لا ينبغى لهُ » .

ص ٩٢ س ٣ : « تكذب قولى ، وتفسد خبرى » ، الوجه : « وتفند خبرى » والتفنيد : التكذيب . وفى قول الله: « إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » .

(١) ديوانه ص ١٧ طبع هندية ١٣٢٤ .

ص ٩٢ س ١١ : « لاستواء الخواطر . ولإيقافها على الإرادة » . إنما هي : « ولاتفاقها » .

ص ١٠٣ س ٥ : « فغلق المأمون واحتدم » . الصواب : « فقلق » بقافين ، كما في الأصل . والقلق : الانزعاج ، وهو يجرى مع الهياج والاضطرام الواردَين في النص . وكلمة : « فغلق » التي جاء بها الأستاذان جميلة ، وهي بمعنى غضب واحتد . ولكن ليس ما يدعو إلى اجتلابها .

ص ١٠٣ س ٧ : « يدب عن كتابي » . هي : « يذب » بالمعجمة .

ص ١٠٥ س ١٤ : « والعداوة تخلق وتمل » . إنما هي : « وتبلى » .

ص ١٠٧ س ١ : « وجبه بلخ » بإهمال الكلمة الأولى كما في الأصل ، هي : « وناحية بلخ » .

ص ١٠٧ س ٤ : « وانتفض انتفاض المعلَّس الممطور » صوابه : « المغلَّس » والتغليس السير في الغلس أو ورود الماء فيه . وما يمطر فيه من الحيوان والطير يكون ذلك أشد لبرده وانتفاضه .

ص ١٠٧ س ٣ : « أخذته الأرَباء وتنفس الصعداء » إنما هي « الأرْباء » جمع ربو . والربو : البُهر والنَّهَج وتواتر النفَس .

ص ١٠٨ س ٢ — ٣ عند ذكر الكتب : « ولا يبلغ أقصى علمه أمانيها » . الصواب : « ما فيها » وليس للكتب أماني .

ص ١١٠ س ١٠ : « وسبباً يستدعى بهِ ألبابهم » . لا يقال كذلك . هي : « يسترعى » بالراء . وجاء في س ١٣ : « استدعى » صوابها : « استرعى » . وهو مثل قولهم : أرْعِني سمعك وراعِني سمعك .

ص ١١١ س ١٥ : « من لطيف ما يستدعى به الصدْق » . صوابه : « يسترعى به الصديق » .

ص ١١١ – ١١٢ : « لما ساغ له فى الناس وانتشر منه » . إنما هى : « لما شاع له فى الناس » .

ص ١١٧ س ١٤ : « وإن اكتسى ثوباً نسيساً » : وليس للنسيس هنا وجه . والصواب : « ثوباً نفيساً » .

ص ١١٧ س ١٥ : « وإذا تخرق فى غناه وقرته » كذا وردت بالقاف ، وإنما هى : « وفرته » بالفاء بمعنى تركته ولم أتعرض له .

ص ١١٨ س ٥ قول النابغة الجعدى :

وليس بمعروف لنا أن نردها صحاحاً ولا مستنكراً أن نعفَّرا

جاءت « نعفرا » بالنون بعدها عين وفاء . وهو تحريف . والصواب : « أن تعقَّرا » بالتاء بعدها عين وقاف . وقد ورد البيت فى مراجع كثيرة[1] .

ص ١١٨ س ١٨ (للفِنْد الزِّمّانى) :

فلمـــا صرخ الشر وأمسى وهو غرثـــان

وهو تصحيف عجيب ، إنما هو :

فلما صرَّح الشر فأمسى وهو عريـــان

صرح الشر : بدا وانكشف ، وعريه مثل لظهوره ووضوحه والبيت من مقطوعة حماسية مشهورة . هى ثانى مقطوعة فى حماسة أبى تمام[2] .

---

(١) انظر منها جمهرة أشعار العرب ١٤٨ طبع بولاق ، والإصابة ٨٦٣٣ ، والخزانة ٣ : ١٥٢ طبع السلفية ، وأمالى المرتضى ١ : ١٩٤ .

(٢) حماسة أبى تمام ١ : ٦ ، وانظر حماسة البحترى ٧٤ وأمالى القالى (١ : ٢٦٠) . والأغانى (٢٠ : ١٤٣) .

ص ١١٨ س ٢١ : « كفم الزق وها » ، الصواب : « وهى » بالياء

ص ١١٩ س ١٥ قول الراجز : « ومن عداء يتقى بالراح » ، هذا تحريف . والصواب : « ومن عديد » كما رواه الجاحظ نفسه فى الحيوان وفى البيان (١) .

ص ١١٩ س ١٩ : « بقافية تقرى العروق فتحمم »،إنما هى : « تفرى » بالفاء ، أى تقطع .

ص ١٢٠ س ٩ : « وتتابعوا علىّ تتابع الدبر على مشتار العسل » . الصواب : « تتايعوا» و « تتايع » بالياء المثناة التحتية قبل العين . وفى الحديث (٢) : « ما يحملكم على أن « تتَايعوا » فى الكذب كما يتتايع الفراش فى النار » . والتتايع : التهافت والإسراع .

ص ١٢١ س ٤ :

أما الحوادث من خليـــــلك مثل جندلة المراجم

إنما هى : « أبقى الحوادث » . والأبيات قالها معاوية أو تمثَّل بها فى قصة طريفة رواها ابن قتيبة ، والقالى ، والحُصرى (٣) .

هذا بعض ما بدا لى من غوامض هذه المجموعة . ومنعتنى خشية الإطالة أن أتم استيعابه .

---

(١) الحيوان (١ : ٣٥١ — ٣ : ٧٩ — ٨٠) ، والبيان (٣ : ١٩٠) طبع ١٣٤٥ .

(٢) اللسان (٩ : ٣٨٧) .

(٣) عيون الأخبار (٣ : ٥٠) والأمالى (٢ : ٣١١) وزهر الآداب (١ : ٤٦) .

مجلة الأديب(*)

العدد الخاص بأبي العلاء

يقرأ الباحث فى كثير من الكتب التى تطرق موضوعاً خاصّاً ، فلا يجد فيها تلك اللذة ولا تلك الأصداء المتجاوبة التى تتردد فى ثنايا مجلة تنتظم موضوعاً واحداً . ولعل ذلك لتعدد الأقلام التى تتناول بأفكارها وقراءاتها المتباينة ذلك الموضوع وتنظر إليه من زوايا متعددة . وقد جمعت مجلة « الأديب » البيروتية أبحاثاً طريفة حقّاً ، منها : « أبو العلاء المعلم » ، و « سر أبى العلاء » و « القرامطة وأثرهم فى أدب المعرى » و « أبو العلاء المفكر الحر » و « لغة المعرى » و « رسالة الغفران ومنابعها » و « فصل من كتاب الأيك والغصون » .

وكان الدكتور إسحاق الحسينى موفقاً فى إظهار الرسالة التى اضطلع بها أبو العلاء المعلم ،والنشاط الذى كان يشيعه فيمن حوله من الطلاب والمريدين وأما « سر أبى العلاء » فهو فرض ساقه الأستاذ الحولى ، يذهب إلىأن أباالعلاء إنما منعه من الزواج مانع العجز الطبيعى ، وأن السر إنما يرد « إلى سبب مادى طبيعى لا لزهد ولا لفلسفة » . ولكن كيف نتصور تلك العبقرية المتدافعة المتراحمة ، فى تلك الرجولة الناقصة ؟ إن العبقريات الممتازة لم تكن يوماً فى ضعاف الرجال . بل إنى لأذهب إلى أن أبا العلاء كان من قوة طبيعة الرجل بالمكان الذى يحمله على التقلل من المطعم والمشرب ، ليكفّ عوارم هذا الميل ، ويصير إلى حال من العفة وضبط النفس . وليس فيما ذكره الأستاذ من شواهد اللزوم ما ينهض حجة صالحة لدعواه الطريفة .

(*) نشرت بمجلة المقتطف عدد يناير سنة ١٩٤٥ م .

وقال الدكتور أسعد طلس فى مقاله القيم « القرامطة » : « وأنا مؤمن أننا حين نعثر على كتاب المجالس للمؤيد فى الدين أبى النصر (هو أبو نصر) ابن أبى عمران داعى الدعاة . . . » . وكتاب المجالس المؤيدية لم يفقد ، فمنه نسخة بالهند أخذت منها صورة مودعة بخزانة جامعة فؤاد الأول . وقد اقتبست لجنة أبى العلاء بالقاهرة نصاً منه فى كتابها « تعريف القدماء بأبى العلاء » (القاهرة ١٩٤٤ ص ٣٨٧) .

إنا لنهنئ « الأديب » بمجهودها البارع ، وندعو أدباء مصر أن يوثقوا من صلتهم بمجلات الأمم الشقيقة ، ليتحقق بذلك ما نأمل من توطيد العلاقة بين الأمم العربية وتدعيم التقارب .

عبد السلام محمد هارون

قواعد الهرمونى : علم توافق الأصوات(*)

كتاب جديد يضيف ثروة قيمة إلى خزانة المكتبة العربية ، فإن المؤلفات الموسيقية العربية هى من الندرة بمكان . ولستُ موسيقياً ولا ممن يمتّ إلى الموسيقى بسبب ، إلاّ ما تولع النفس به من حب السماع والشغف به . ولكن هذا الجهد الحى الذى استطاع به الأستاذ بيومى فى إخراج هذا الكتاب يقتضينى تنويهاً بتلك البراعة التى نسج بها كتابه ، وتلك الروح التى أوحت إليه أن يضع هذا الكتاب ليغذو الفن الشرقى . وليضيف إلى كنوز العربية نفائس لا يستهان بها ، من المصطلحات الفنية التى وضعها أو أحياها . وهو إذ يقدّم هذا الكتاب بتقديم حسن ، يأبى إلاّ أن يجعل للعرب سابقة فى هذا الفن الحديث ، وهو علم توافق الأصوات (Harmony) فينقل عن ابن سينا قوله : « التركيب هو مايحدث بنقرة واحدة تستمر على وترين النغمة المطلوبة والتى معها ، على الذى بالكل ، أو الذى بالأربعة ، أو الذى بالخمسة وعلى غير ذلك ، كأنهما يقعان فى زمان واحد » . ويذكر من تاريخ هذا الفن عند الأوربيين أن الناس قديماً كانوا « يؤمون ساحة البابوات فى الأعياد والمواسم يرتلون وينشدون الأدعية والتهانى ، فى جماعات تجمع بين أسنان مختلفة وأجناس متباينة ، وأصوات تتفاوت علواً وانخفاضاً ، وليناً وقوة ، ومرونة وصلابة . وعن هذا الجمع المختلط كان يصدر ما يصدر ، فيسمعه السامع فيحسّ فيه انسجاماً ، ويلمس معه توافقاً . ومن هنا عنّ للأستاذ هوكبالد فى القرن العاشر أن يوجه نظر المشتغلين بفن الموسيقى إلى هذه الظاهرة والانتفاع بها ، فكانت نشأة علم الهرمونى . وكان مبدأ الانتفاع بالأصوات المختلفة التى تكوّن مجتمعةً أنغاماً فيها توافق وانسجام » .

(*) نشرت بمجلة المقتطف بعدد أبريل سنة ١٩٤٥م .

وقد أتمَّ الأستاذ المؤلف الجزء الأول من الكتاب فى ١٦٢ صفحة تتخللها الرسوم الموسيقية، وعقّب على فصول الكتاب بمسائل فى الموسيقى التطبيقية . وقد لحظت أنه يبدأ هذه المسائل من يسار الكتاب إلى يمينه جرياً على ما هو متبع فى المذكرة (النوتة) الأوربية ، وكان أولى به أن يعرب هذه الطريقة بأن يبدأ باليمين ، إذ ليست هناك أية ضرورة فنية لإيثار الطريقة الأوربية .

إن جهاد المؤلف فى هذا الكتاب حقيق بكل حفاوة وتكريم وتهنئة ، كما أنه يستوجب شكر كل من يخدم اللغة العزيزة ويرعاها .

عبد السلام محمد هارون

فلسفة الأخلاق فى الاسلام(*)

وصلاتها بالفلسلفة الاغربقية

تأليف الأستاذ محمد يوسف موسى – مطبعة الرسالة – ٣٠٤ صفحة من القطع الوسط الطبعة الثانية – نشر دار الكتب الأهلية .

بحث طريف يستهويك حقاً إذ تقبل على قراءته ، فأنت تمضى فيه مضياً ، لأنه عجب ، وأنه يجرى فى سهولة ويسر ، امتاز بهما المؤلف فى كتابته وما يطالع به جمهور قارئيه . وقد وَجدَت الطبعةُ الأولى من إقبال القراء ما دفعه أن يصدر هذه الثانية متضمنة زيادات وتعديلات وتحقيقات قيمة .

وقد بدأ الأستاذ كتابه بفصل إضافى يؤرخ فيه الأخلاق فى الجاهلية والإسلام قبل عصر الفلسفة ، واستطاع أن يجد توافقاً بين نظرية سقراط فى أن « الفضيلة المعرفة » وبين قول زهير :

ومن يوف لا يذمم ومن يُهْدَ قلبه ... إلى مطمئن البر لا يتجمجمِ

ثم هو يعرض أخلاق العرب مستشهداً بشعرهم وحكمهم ووصاياهم ، وذلك فى إيجاز يود القارئ لو طال ، ولكن طبيعة الكتاب لا تحتمل الإسهاب فى هذا الوجه ، فعسى أن يوفق المؤلف إليه فى كتاب خاص يقرن فيه بين فلسفة البداوة العربية وبين الفلسفات الخلقية الأخرى .

وقد استشهد المؤلف فى الكلام على معرفة الخير والشر بقول زهير :

الستر دون الفاحشات ولا ... يلقاك دون الخير من سترِ

وفهم منه أنه « يريد أن يجعل استحياء المرء من أمر ، ورغبته فى ستره ،

(*) مجلة المقتطف عدد يونية سنة ١٩٤٥م .

أمارة أنه شر » والحق أن زهيراً لم يرد ذلك ، وإنما عنى أن بين الممدوح وبين الفاحشات ستراً من الحياء ، ولا ستر بينه وبين الخير [(١)] ، ولم يقصد به تقرير مبدأ ، أو تنويهاً بمذهب خلقى .

وقد اختار الأستاذ ثلاثة من فلاسفة الإسلام يمثلون ثلاث مذاهب مختلفة فى المبادئ الأخلاقية ، فمسكويه ممثل للأخلاق الفلسفية الصريحة ، والغزالى ممثل للأخلاق الفلسفية الدينية ، وابن عربى ممثل للأخلاق المبنية على التصوف . ورسم صورة عاجلة للحالة العامة فى عصور هؤلاء الفلاسفة .

بيد أن جعل « مسكويه » ممثلا للأخلاق الفلسفية الصريحة قد يتضاءل بعض الشىء حينما يتكلم المؤلف على « نزعته التوفيقية » بين ما يختار من آراء وبين ما يناسبها من حكم الدين والشريعة ، لأنها كما يقول مسكويه ص ١٠٩ « هى التى تقوّم الأحداث ، وتعوّدهم الأفعال المرضية ، وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل والبلوغ للسعادة ».فمسكويه لا يمثل الأخلاق الفلسفية الصريحة بكل ما يدل عليه هذا التعبير . بل هو ينظر دائماً إلى الدين فى الوقت الذى ينظر فيه إلى الفلسفة .

وقد وفق الأستاذ أيما توفيق فى الرد على من زعم « أن الضمير لا وجود له فى ذاته » وأن الغزالى أغفله فيما أغفل . وساق لذلك أدلة قوية فى ص ١٣٨ — ١٤٢ . ولكنه لم يوفق فى التعبير عن الغزالى فى ص ١٩٤ بأنه يعمل على « انتهاب آراء غيره » فإن للإمام الغزالى احترامه بين المفكرين والباحثين . فليس يصلح أن يقال فيه حين يرتضى رأى غيره أن يقال إنه انتهبه واغتصبه ، أو سرقه ، كما يفهم من التلميح فى ص١٩٩ وذلك لأن الرأى مشاع مشترك بين الناس . ولأن استعمال الغزالى ألفاظ غيره كلها أو بعضها لا يعد سرقة وانتهاباً ، فإن ذلك إنما يصح أن ينسب إلى صغار المفكرين

---

(١) انظر ديوان زهير بشرح الشنتمرى ص ٦٤ .

المتسولين ، لا إلى من لهم دنيا عريضة من الآراء والمبادئ . وكثيراً ما يشتد الوعي والحفظ عند المفكر حتى يكتب الصفحات العديدة من آراء غيره وكلامه . ناسياً أنه كلام هذا المفكر أو ذاك ، وذلك لشدة التباس هـــذه الآراء بنفسه وتمكنها من قلبه .

وفى كلامه على التفسير المنسوب لابن عربى يقول فى ص ٢٢٣ : « على أن فى نفس هذا التفسير دليلا ماديًّا يجعله لغير ابن عربى (قطعاً) ذلك أنه فى تفسير قول الله تعالى فى سورة القصص : « واضْمُمْ إليْكَ جَنَاحَكَ مِن الرَّهْب » يذكر المؤلف نقلاً عمن سمعه عن شيخه المولى نور الدين عبد الصمد . ولا يعنينا هنا ذكر هذا النقل ، إنما الذى يعنينا أن نور الدين عبد الصمد هذا توفى فى حدود عام ٦٩٠ هـ فلا يمكن أن يكون شيخاً لابن عربى الذى توفى عام ٦٣٨ . والأمر بعد هذا لا يحتاج إلى دليل آخر .

وليس هذا دليلاً قطعياً كما ذكر الأستاذ ، فإن المتتبع للمخطوطات العربية يلفى كثيراً من الحواشى التى أدخلت فى أصلاب الكتب الأصيلة وخفيت على بعض القارئين . ولست أذهب بذلك إلى أن التفسير لابن عربى ، بل أقول : إن هذا النوع من الاستدلال استئناسى ظنى ، لا قطعى يقينى .

كما أن الأستاذ فى رده على مسكويه ص ٩٢ فى قوله ان التفضل لم يخرج عن شرط العدالة التى هى وسط بين طرفيها المعلومين ، وإنما هو « احتياط حازم من صاحبه ليأمن التقصير ويصيب الوسط » قال ناقداً ذلك : « . . وأعتقد أنه لم يصب المحز . قد يكون التفضل احتياطاً فيما يشتبه فيـــه العدل . أما فى الأمور التى هى كمسائل الحساب فى دقتها وضبطها ، أو التى هى من قبيل الحساب ، كشريكين ربحا مائة من الجنيهات – يريد الدنانير – فرضى أحدهما أن يأخذ لنفسه أربعين فقط ، فلا أدرى كيف ولماذا يكون الاحتياط ؟ ! » .

وهذا المثل الذى ساقه ليس من الدقة بمكان ، فإن الشركة أيضاً مظنة للاحتياط حين القسمة ، فقد يظن أحد الشريكين أن زميله أولى بالزيادة لما بذل من جهد ذاتى أو معنوى فيما عاد على الشركة من أرباح .

وذكر الأستاذ فى ص ٨٢ تعليقاً على قول مسكويه « فيعف ويشجع ويحكم » بقوله « لعلها من حكم بضم الكاف إذا صار حكيماً ». ولا ريب فى هذا التفسير الذى ذكره ، حتى يستدعى « لعل » وأشباهها .

وفى ص ١٠٨ ذكر من كلام مسكويه : « والشره والخمود » صوابها « الشِّرَّة » بكسر الشين وتشديد الراء المفتوحة ، وهى النشاط . وفى الحديث : « إن لهذا القرآن شِرَّة، ثم إن للناس عنه فترة»، وهى التى تقابل الخمود ، لا الشَّرَه .

وذكر الأستاذ فى ص ١٠٧ المثل العامى : « صديقك يمضغ لك الزلط ». وليس أولى بهذا المقام من المثل الفصيح : « وعين الرضا عن كل عيب كليلة » .

وذكر أيضاً فى ختام كتابه فهرس المراجع الهامة ، مرتبة حسب ورودها فى البحث ، ومما يسترعى النظر أنه جرى على هذه الطريقة أيضاً فى كتابه القيم : « ابن رشد الفيلسوف » . وترتيب هذه المراجع حسب ورودها فى البحث ليس له قيمة فهرسية خاصة ، وكان أولى به أن يرتبها على حروف المعجم ، وهو فاعل إن شاء الله .

وقد ذكر فى ص ٨٧ من مراجعه « الإمتاع » نشر الأستاذ السندوبى ولا ريب أنه يريد « المقابسات » لا الإمتاع .

ثم نعود أدراجنا إلى عنوان الكتاب فنجد فيه كلمة « الفلسفة الإغريقية » وليس كذلك يقولها العرب . والأجدر أن تجعل « الفلسفة اليونانية » .

وبعد فالأستاذ الجليل محمد يوسف موسى حقيق بأن يهنأ بهذه (الطبعة الثانية) من كتابه ، حرِىّ بكل تقدير وتكريم .

الهوامل والشوامل

لأبي حيان ومسكويه (*)

نشرة الأستاذين الدكتور أحمد أمين بك ، والسيد أحمد صقر

— ١ —

من الكتب ما تطالع وجهه فتجدك ماضياً فى قراءته مشوقاً أن تتوغل فيه ، وتطوى الصفحة إثر الصفحة حتى تبلغ الغاية .

وكتاب « الهوامل والشوامل » من هذا الطراز الممتع الذى يجتذب أوساط القراء كما يجتذب الخاصة من العلماء ، ولقد شرعت فى قراءة الصفحة الأولى منه فوجدتنى فى مجلسى هذا قد طالعت زهاء ستين صفحة فى متعة جميلة ، وإعجاب عميق :

إعجاب بموضوع الكتاب وأسلوبه : فالكتاب من كتب الحياة الخالدة التى تعالج مشاكل النفس والاجتماع والأخلاق ، تلك المشاكل التى تعرض للإنسان من حيث هو إنسان ، لا تتقيد بزمان ولا بمكان . وكأن تلك المسائل التى سألها أبو حيان فى « الهوامل » وأجاب عنها مسكويه فى « الشوامل » هى أسئلة الأمس . وهى أسئلة اليوم ، وهى الأسئلة التى ستعرض للإنسان فى القرون التالية إن قدر لهذا الإنسان أن يعمّر بعد اليوم قروناً .

وإعجاب بأسلوب الكتاب : أسلوبه العلمى الذى بنى على الصراحة والتفكير الحر وانطلاق العقل : فالسائل لا يمسكه الخجل أن يعترف على نفسه بأخطائه النفسية والخلقية . والمجيب يستجيب لذلك ويشركه فى هذا

---

(١) نشرت فى العدد ٦٤٤ ، ٧ من مايو سنة ١٩٥١ من مجلة الثقافة .

الاعتراف ؛لأن كلاً منهما إنسان يخطئ ويصيب ، وينال من الخير مثل ما ينال من الشر .

وإعجاب بالأسلوب البياني ، وناهيك بأبي حيان كاتباً هو أشبه كتاب العربية بأبي عثمان الجاحظ في نصاعة بيانه ، وقدرته على معالجة توافه الأمور في إسهاب جميل وعرض بارع ، حتى ليخيل إليك أن ذلك التافه من الأمر قد عاد فيما ترى العين نبيلاً جليلاً . وحسبك بمسكويه صاحبَ بيان واضح يجمع إلى الوضوح دقة وإحكاماً .

ونظرت في إخراج هذا الكتاب ، فوجدت الناشرَين قد بذلا فيه غاية الجهد من العناية والاتصال بالقارئ حتى يتأدى إليه النص أقرب ما يكون إلى السلامة .

وهذه هي المهمة الأولى من مهمات الناشر الذي يكدح ويسعى غاية السعي ليحرر كتابه من رِقّ التصحيف والتحريف ، ومن ربقة الاستغلاق والغموض .

وقد قلتها بالأمس وأقولها اليوم : إن الناشر الذي يستطيع أن يخرج كتاباً مبرأ من العيب ، سليماً من الخطأ ، لم يخلق بعد ، وما أحوجنا نحن الناشرين أن نتبادل الأنوار في هذا الطريق المظلم ، وأن نتلقى برحابة صدر وإخلاص للعلم ، هذه النقدات التي يقصد بها خدمة العلم ، وخدمة الثقافة . على أن يكون ذلك فيما بيننا بأسلوب مهذب عفّ بعيد عن أدب العامة ، قريب من أدب العلماء . فهذا هو النقد الذي يرجى نفعه ويخلق جوًّا صالحاً يقارب بين العلماء ، لا كذلك الأسلوب العتيق البغيض الذي يحاول أن يجعل من العلم ساحة حرب وميدان نضال .

ولست أذيع سراً حين أذكر للقارئ أن الذي أشار عليّ بكتابة هذا

النقد لكتاب « الهوامل والشوامل » هو الأستاذ الكبير الدكتور أحمد أمين ؛ فقد سألنى — حفظه الله — عن رأيى فى إخراج الكتاب فأثنيت على الجهد والعناية التى ظفر بها هذا الكتاب ، وذكرت أن هناك بعض هنات يفوت أمثالها كل ناشر ؛ فطلب إلىّ أن أطلعه على بعضها ففعلت ؛ فعزم علىّ فى سرور العالم المخلص للعلم أن أنشرها ، إيماناً منه بعظم فائدة النقد وشدة حاجة الناشر والقارئ إليه .

ظهر لى فى أثناء قراءتى — وهى قراءة سريعة ساقنى إليها جمال الكتاب — بعض هنات لا تغض من قيمة العمل فيه ، وإليك بعضها :

١ — ص ٧ : ١٦ جاء فى الأصل : (وهذه الألفاظ الخمس) فجعلها الناشر « الخمسة » ، وليس ما يقتضى العدول عن الأصل ؛ فإنه إنما يعكس العدد مع المعدود إذا تأخر المعدود ، وذلك فى الأعداد من الثلاثة إلى التسعة ، أما إذا تقدم المعدود فى ذلك وتأخر العدد فإنه يجوز فيه الأمران : المطابقة وعدمها . جاء فى حاشية الصبان على الأشمونى فى أوائل (باب العدد) « فلو قدم — أى المعدود — وجعل اسم العدد صفة جاز إجراء القاعدة وتركها كما لو حذف . تقول : مسائل تسع ورجال تسعة . وبالعكس . نقله الإمام النووى عن النحاة ؛ فاحفظها فإنها عزيزة ! » .

٢ — ص ٢٢ : ٧ (ومثال ذلك مزمار فيه ثقب . متى أطلق الإنسان فيه النفس وخرق موضعاً بإصبع إصبع اختلفت الأصوات فى السمع بحسب قربه وبعده) . فى هذه العبارة نقص وتحريف . والوجه « وخرق موضعاً موضعاً» . وقد ورد فى س١٩من الصفحة نفسها «كخرق الصوت بالمزمار فى موضع بعد موضع » . وبقرن العبارتين يفهم النقص فى العبارة الأولى .

٣ — ٢٤ : ٥ (والأصوات المستكرهة التى ليس لها قبول فى النفس كثيرة . ولا عناية للناس بها فتؤلَف . وإنما تجدها مفردة بالاتفاق ،

كصرير الباب). الصواب : « فتؤَلَّف » ، يدل عليه مقابلته بكلمة « مفردة» فنى الأصوات ما هو مركب مؤلف ، وفيها ما هو مفرد . وقد جاء فى ص ٢٣ : « سوى أن للتركيب والتأليف تعلقاً بالصناعة كما ضربنا به المثل فى نظم الخرز ونظم الأصوات فى الموسيقى ، لأن الموسيقار ليس يعمل أكثر من تأليف هذه الأصوات بعضها إلى بعض » .

٤ — وفى الصفحة نفسها س ١٤ — ١٥ (حتى إنك لا تجد على أديمها إلا متلفتاً إلى فانيها حزيناً ، أو هائماً على حاضرها مفتوناً ، أو متمنياً لها فى المستقبل معنى) . وفى هذه العبارة أخطاء وإهمال ضبط يؤدى إلى لبس . أما الخطأ فنى كلمة « فانيها » والصواب « فائتها » أى ماضيها ، فهو يقرن بين الماضى الفائت ، والحاضر ، والمستقبل . كما أن وجه الكلام فيما بعد « أو متيماً بها فى المستقبل » ، وهو ما تقتضيه المزاوجة بكلمة « معنى » ، وأما الإهمال فإهمال « معنى » لأن تركها بهذه الصورة يؤدى إلى أنها واحدة المعانى ، وليس ذلك مراداً ، فالوجه أن تضبط « معنًّى » . والعرب كثيراً ما يقرنون المتيم بالمُعَنَّى ، أى الذى تيمه الحب وعنّاه .

٥ — ٢٦ : ١٠ — ١٢ (فخطرت خطران الفحل ، ومشيت العِرَضنة ومررت فى خيلائك . ومضيت على غلوائك حتى أشفقت أن تعثر فى فضل خطابك) . فهو يشبه بالفحل المختال النشيط الذى قد خُلِّيَ وشأنه، لا يرده راد ولا يكبح جماحه خطام ، فهو يعثر فى فضل ذلك الخطام . فالصواب المتعين إن شاء الله : « فى فضل خطامك » .

٦ — ٣٣ : ١٧ (من ضعفت غريزته ، وساء أدبه ، وجروْ مَقدمه) ، وإنما هى عبارة عن التهجم والاندفاع فى الحكم . فالصواب « وجروْ مُقدمه » بضم الميم ، وهو مصدر ميمى بمعنى الإقدام والجرأة ، وهى مبالغة نظير قولهم : جد جِدُّهُ .

٧ — ٣٩ فى نهاية الصفحة (تعرض للجهال الذين غايتهم الانهماك فى الطبيعة والحواس ، وطلب ملاذها الكاذبة لا التماسَ الصحة ، ولا بلوغَ السعادة) . لا وجه لنصب الكلمتين ، ولا لبنائهما على الفتح . فليست « لا » هذه لا التبرئة ، وإنما هى « لا » العاطفة ، والكلمتان معطوفتان على الانهماك، فالوجه فيهما الرفع .

٨ — ٤٥ : ١٣ (وغرض فاعل ذلك احترّاز مودة صاحبه إلى نفسه بإظهار مودته له ، ومحبته إياه) ، إنما يقال احترزت من كذا ، أى توقيته ، وكلمة « احترّاز » بمعنى التوقى لا وجه لها هنا ، كما أنها لم تسمع بمعنى الإحراز ، ولو افترضنا صحتها اللغوية لوقفت عقبة أخرى ، هى كلمة : « إلى نفسه » التى توحى بأن صوابها « اجترّار مودة صاحبه إلى نفسه » ، أى جرها واجتلابها .

٩ — ٤٧ : ١٧ جاء فى سؤال أبى حيان : (لم حُمِّق الشاب إذا تشايخ ، وأخذ نفسه بالزماتة والمتانة) ، والمتانة : الشدة والقوة ، وليست من صفة الشيوخ ، ولو أراد بها متانة الخلق لصرح وقال : « ومتانة الخلق » ، فليس من المألوف أن يقال شيخ ذو متانة ، وإنما يقال « ذو تألُّه » أى ذو تنسك وعبادة ، وهى من أخص خصائص الشيوخ ، فالوجه « بالزماتة والتأله » ، وكلمة « التأله » وردت فى بعض مواضع من كلام أبى حيان ، انظر منها ص ١٤٨ .

١٠ — ٥٦ : ٧ — ٨ (هيهات هيهات ! اشتد اللغط وكثر الغلط ، ورجع كلٌّ إلى الشطط ، وفات الله الفهمَ والفاهم ، والوهمَ والواهمُ) . وفى هذه العبارة أربعة أخطاء . وصوابها : « وفات واللهِ الفهمُ الفاهمَ ، والوهمُ الواهمَ » ، أى أدرك الناس الغباء فى معرفة الحق أو تصوره ، وفاتهم الفهم الصحيح والتصور الصادق .

١١ - ٥٩ : ١٦ (وليس يمكن أن يتكلم فيه إلا بعد تحصيل جميع المقدمات التى قُدِّمت له ومُهِّدت له) . والمعروف فى المقدمات أنها هى التى تمهد لما بعدها ، وتكون بين يديه تيسيراً وتسهيلا .

فوجه الضبط : « التى قَدَّمت له ، ومَهَّدت لأجله » .

١٢ - ٦٠ : ٣ (ولو كان إلى معرفة هذا الموضع طريق غير ما ذكرناه لسلكه القدماء وأهل الحرص على إشاعة الحكمة وإذاعتها ، فإنهم - رضى الله عنهم - ما أسِفوا ولا بخلوا ، ولكن لم يجدوا إلى هذا المطلوب إلا طريقاً واحداً فسلكوه وسهلوه بغاية جهدهم) . وليس لعدم الأسف هاهنا وجه ، بل المراد أنهم لم ينقصوا شيئاً من جهدهم ، ولم يبخلوا ببذل مجهودهم فى سبيل العثور على الحقيقة . فالوجه إن شاء الله « ما أشَفوا » أى ما نقصوا . وفى اللسان : « يقال شفّ الدرهم يشِفّ ، إذا زاد وإذا نقص . وأشفّه غيره يُشِفّه » .

١٣ : ٦٦ : ١٣ (فإذا اختلفت الجماعة التى تتعاون فيه ، ولم تُصدِر عن رأيِ واحدٍ ظهر فيه من الخلل والوهن والتفاوت ما يظهر فى غيره) .

الصواب « ولم تَصْدُر » أى لم يكن منها صدور عن رأى واحد .

١٤ : ٧٤ : ٣ (فإن الحياة المحبوبة والعيش المضبوط) وليست كذلك تقال ، إنما هى « والعيش المغبوط » أى الذى يتمنى مثله لطيبه ونَعمته .

١٥ - ٨٤ : ٥ (وما حد الظلم أولاً ؟ فإن المتكلمين ينفكّون فى هذه المواضيع كثيراً) . جاء فى الحاشية : (٢) استعمل (ينفلك هنا فى موضع انطلق وأفاض) . وهذا التفسير لا يستقيم ، فإن « ينفكون » هنا مستعملة فى معناها الطبيعى ، أى يختلفون وينفصلون وتتباين آراؤهم ولا تتّحد . وبهذا المعنى فسر بعضهم قوله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب

والمشركين منفكين » . انظر تفسير أبي حيان ٨ : ٤٨٩ . قال : « والظاهر أن المعنى لم يكونوا منفكين ، أي منفصلاً بعضهم من بعض ، بل كان كل منهم مقر الآخر على ما هو عليه » .

١٦ — ٩٧ : ١٣ (فأما الشجاعة فهي استعمال قوة العَصَب بقدر ما ينبغي) . وليس يقول الحكماء في اصطلاحهم (قوة العصب) ولا (القوة العصبية) وإنما يقولون (قوة الغضب) و (القوة الغضبية) .

وفي ص ١٥٤ : « وقد ذكرنا أن قوة الغضب ربما كلَّت ونقصت عما ينبغي فتكون رذيلة ومنقصة . ولا تسمى شجاعة » وفي ص ٣٢٧ « لأنه يستعمل فيه قوة الغضب والشجاعة » . وجاء في تهذيب الأخلاق لمسكويه ص ١٩ : « وأنت تكتفي في تعلم الأخلاق بأنها قوًى ثلاث متباينة ، تقوى إحداها وتضعف بحسب المزاج ، أو العادة ، أو التأديب . فالقوة الناطقة هي التي تسمى الملَكية ، وآلتها التي تستعملها من البدن الدماغ . والقوة الشهوية هي التي تسمى بالبهيمية ، وآلتها التي تستعملها من البدن الكبد . والقوة الغضبية هي التي تسمى السبعية . وآلتها التي تستعملها في البدن القلب » .

* * *

— ٢ —

١٧ — ٤٤ : ٩ وردت كلمة (المساوئ) مهموزة . والصواب : « المساوى » بالتخفيف . وفي اللسان : « قال : وسألته عن مسائية فقال : هي مقلوبة ، وإنما حدها مساوئة . فكرهوا الواو مع الهمز لأنهما حرفان مستثقلان ... وقولهم : الحيل على مساويها . أي إنها وإن كانت بها أوصاب

(*) نشرت بالعدد ٦٤٧ من مجلة الثقافة ٢٠ من مايو سنة ١٩٥١ م .

وعيوب فإن كرمها يحملها على الجرى » . وورد نحوه فى القاموس . وجاء فى المصباح : « والمساءة : نقيض المسرة ، وأصلها مسوأة على مفعلة بفتح الميم والعين ، ولهذا يرد الواو فى الجمع ، فيقال هى المساوى ، لكن استعمل الجمع مخففاً . وبدت مساويه ، أى نقائصه ومعايبه » .

١٨ — ١٢٠ : ١٠ — ١٢ (وفى مثل للعامة : « فلان مقدد العرس » كناية عن الذى يبخل على نفسه) . والعبارة تنطق بتحريفها ، وفى مثل هذا يجدر بالناشر أن ينبه على ارتيابه فى النص وألا يدعه يمر بهذه السهولة . وهذه العبارة تحتاج إلى تحقيق طويل ، ولا سيما أن مسكويه أشار إلى أن هذه الكناية بنفسها نطق بها أرسطاليس . فهى كناية مشتركة بين العامة من العرب وبين اليونانيين .

١٩ — ١٢٧ : ٦— ٨ (إن النفس ترى عند غيبة المرئيّات ما تراه من حضورها . وذلك بحصول صورها فى الحاسّ المشترك . وهذه حال يجدها الإنسان من نفسه ضرورة لا يمكنه أن يدفعنى عنها) . وهذا تحريف عجيب حقًّا . ولا يستقيم عند الفهم. وما الذى يجعل مسكويه يتحدّى الناس جميعاً فى هذه المسألة بهذا الأسلوب الثائر فيقول لهم : إنكم لا تستطيعون أن تدفعونى عنها ؟ ! . الصواب المتعين إن شاء الله : « وضرورة لا يمكنه أن يستغنى عنها » ، أى إن استحضار صور المغيبات من الأمور الضرورية التى لا يمكن الإنسان أن يستغنى عنها لينعم بذاكرته . وليتم له تفكيره وتصح له أحكامه . وفاقد الذاكرة والتخيل يعدّ فاقد الحياة .

٢٠ — ١٤٣ : ١٧ — ١٨ (لم صار الحصيف المتمكن واللبيب المبرز ، يشاوَر فيأتى بالفلق والداهية حتى يدع الشّعرَ مشقوقاً . والغيثَ مرهوقاً . فإذا انفرد بشأنه وانتصر لنفسه وتعقب غاية منافعه عاد كسراب بقيعة لا يحلى ولا يمر) . فهو يتحدث فى شأن الرجل الذى تظهر منه قوةُ العقل وحصافة

الرأى حينما يستشيره غيره فيجد عنده رأياً سديداً عبقرياً ، وحكماً صالحاً ، ولكنه إذا فكر لنفسه أساء الحكم وأفسد التدبير . والمراد أنه فى الحالة الأولى يتغلغل إلى بواطن الأمور وأسرارها فينكشف له من خبيء العواقب ومستور النتائج ما يخفى على غيره . فكأنما هو ينظر بعين الغيب . وهل من الحصافة وعبقرية الرأى أن يشاوَر الرجل فيخدع مستشيره ويحمله على أن يكره الغيث ويعيبه ؟ ! فصواب العبارة « حتى يدع السرّ مشقوقاً ، والغيب مرموقاً » كما أن الصواب فى سائر العبارة « وانتصب لنفسه » .

٢١ — ١٦٠ : ٨ — ١١ (وسأضرب لذلك مثلا . وهو أن مزاج الإنسان لما كان مقارباً لمزاج الفرس وكان بينهما مناسبة ، حصل بينهما قبول من تلك الجهة . فإذا تباعد المزاج حتى يكون منه الغبار والدود والجُعل والذباب نفر منه الإنسان وتكرّهه) . وأنا على ممارستى لهذا الحيوان دهراً طويلا . وطول ما قلبت من أجله الدفاتر والطروس لم أجد من ذكر « الغبار » . فالكلمة محرفة لا ريب يقصد بها ضرب من الحيوان دنىء محقّر يناظر الدود والجعل والذباب ويماثلها . وهو « النِّبار » : جمع نبر بالكسر . جاء فى اللسان : « والنبر : القُراد . وقيل النبر بالكسر دويبة شبيهة بالقراد إذا دبّت على البعير تورّم مدبّها . وقيل النبر دويبة أصغر من القراد تلسع فينتبر موضع لسعتها ويَرِم ، وقيل هو الحرقوص . والجمع نبار وأنبار » .

٢٢ — ١٧٥ : ٨ (وما الذى يَحْلَى به إذا استقصى وما الذى يتخوّفه إذا جنح إلى الهوينى) ، وجاء فى الحاشية فى تفسير كلمة « يحلى » : (فى اللسان : « وحلى بقلبى وعينى يحلى . وحلى يحلو حلاوة وحلوانا ، إذا أعجبك ، وهو من المقلوب ، والمعنى يحلى بالعين ») . وهذا التفسير لا يستقيم ، فإن المراد ما الذى يظفر به ويفيده ويحصل عليه إذ استقصى ؟ وليس من الحلاوة فى شىء ، وإنما هو من قولهم : « لم يحلَ بطائل » . وفى

اللسان : « ويقال ما حليت منه حلياً ، أى ما أصبت . قال ابن برى : وقولهم لم يحلَ بطائل ، أى لم يظفر ولم يستفد كبير فائدة » .

على أن فى العبارة التى نقلها الشارح عن اللسان خطأً فى النقل ، والصواب « وحلا يحلو » .

٢٣ — ١٨٢ : ٥ — ٤ (كما يفعل بالخل إذا تركب مع العسل أو السكر فيسمَّى سكَنْجَبِيناً) . ولست أدرى أوردَت الكلمة على هذه الصورة المخطئة فى الأصل أم هى خطأ مطبعى ، فإنى بحثت فى قائمة الخطأ والصواب — وهى طويلة قد جاوزت المائة — فلم أجد لها ذكراً . ومهما يكن فإن صوابها « سكنجبينا » . وقد أشار الشارح إلى صفحة ١٠٥ من مفاتيح العلوم ، وقد رجعت إلى هذه الصفحة فلم أجد شيئاً يتعلق بالكلمة ، وإنما وجدت إشارة يسيرة إليها فى صفحة ١٠٤ .

والسكنجبين معرب من الفارسية ، وأصله فيها (سِكنكَبين أو (سرْكنكبين) كما فى المعجم الفارسى الإنجليزى لاستينجاس .

وقد أشار إلى المأخذ الثانى داود (فى تذكرة أولى الألباب)، وإلى الأول أدى شير (فى الألفاظ الفارسية المعربة) ، والأول مركب من (سيكى) و (أنكَبين) ، والثانى من (سِرْكا) و (أنكَبين) .

و (سيكى) و (سركا) معناهما الخل ، و (أنكَبين) معناه العسل .

ويراد به كل شراب حلو حامض يتخذ دواء للصفراء ، وهو فى لغة الأطباء من الغربيين : (Oxymel) . وانظر صنعته فى مادة (شراب) من التذكرة ، ومنهاج الدكان ص ٣١ — ٣٢ ، ٣٨ — ٣٩ .

وهذا اللفظ لم يذكره صاحب اللسان ، وذكر صاحب القاموس

(السَّكبينج) ، وقال : « دواء معروف » ، وليس هذا بالسكنجبين ، بل هو نبات له صمغ يتداوى به ، ولم يشر إليه الجواليقى ، ولا تكلم فيه صاحب شفاء الغليل . ولكنه ورد استعماله قديماً فى كلام الجاحظ ، انظر الحيوان (٥ : ١٤٦) بتحقيق كاتب المقال .

٢٤ ــ ١٩٦ : ١٦ (حتى تُصْدِر عن أمره) ، هذا ضبط غريب ، والوجه (تَصدُر) فإنها من صدر عن الورد وعن الماء وعن البلاد . وفى الحديث : « يهلكون مهلكاً واحداً ويَصدُرون مصادر شتى » ، قال صاحب اللسان : « يصدرون بعد الهلكة مصادر متفرقة على قدر أعمالهم ونياتهم ؛ ففريق فى الجنة وفريق فى السعير » ، وأما الإصدار فإنما يستعمل استعمالاً خاصاً فى مجاز قولهم للذى يبتدئ أمراً ثم لا يتمه : فلان يورد ولا يصدر . فإذا أتمه قيل أورد وأصدر ، وقد سبق نظير هذا فى التنبيه رقم ١٣ .

٢٥ ــ ١٩٨ : ٢٠ (فما يتبع النبوة من التعظيم والتشريف ، ونجوع الناس لها بالطبع ، والتماس أهل بيتها مرتبة الإمامة والتمليك ــ أمر خارج عن حكم العادة) وعقب عليها الشارح بقوله : (فى اللسان: « النجعة عند العرب : المذهب فى طلب الكلأ فى موضعه ») .

وإنما يصح هذا التفسير إذا كان النص سليماً ، ولكن النص بعيد عن الصواب ، ويتجه الصواب حينما نتجه بالنقطة العليا من الكلمة إلى جهة اليسار ، وبالنقطة السفلى إلى نحو اليمين لتكون قراءتها «بُخُوع» . والبخوع : الخضوع والطاعة ، وهما المناسبان للتعظيم والتشريف ، وفى اللسان : « وبخع لى بالطاعة بخوعاً كذلك ، وبخعت له : تذللت وأطعت وأقررت ، وفى حديث عمر رضى الله عنه : فأصبحت بجنبى الناس ، ومن لم يكن يبخع لنا بطاعة » .

٢٦ — ٢٢٦ : ٧ (فَقَهتَ الشيء) إنما هى « فَقِهت » بكسر القاف ، كما فى اللسان والقاموس ، وأما « فَقَه » فهو فعل الغلبة ، من قولهم : فاقَهه فى العلم ففَقَهه ، أى باحثه فى العلم فغلبه فيه .

٢٧ — ٢٧٥ : ٣ (أو للقبه ونَبْزِه) كذا وردت بسكون الباء . والصواب « نَبَزه » بفتحها ، والنبز نظير اللقب فى وزنه ومعناه ، وضبط هذه الكلمة يخفى على كثير من الأدباء . وأما النبز بالسكون فهو مصدر نبزه نبزاً كلقّبه تلقيباً . وقد تكرر هذا الخطأ فى الكتاب قبل ذلك فى ٢٥٢ : ٢ و ٢٧٣ : ٢١

٢٨ — ٢٧٥ : ٩ (قد مرّ فى صور هذه المسائل مستقصى) الصواب « فى صدر » .

٢٩ — ٢٩٠ : ١٣ — ١٤ (كما تفعله الفرس بأول يوم من شهرهم المسمى « هرمز » ، وبآخرِ يوم المسمى « بانيران ») .

وهرمز اسم لأول يوم من أيام الشهر . وأما « بانيران » بهذا الوضع فليس بصواب . والصواب « أنيران » ، كما فى مروج الذهب للمسعودى ٢ : ٢٠٣ طبع ١٩٤٨ فى باب (ذكر أيام الفرس) .

وذكره أيضاً استينجاس فى المعجم الفارسى الإنجليزى ص ١١٦ . فليست « بانيران » كلمة واحدة ، فالوجه أن تكتب (بـ « أنيران ») ، ومما هو جدير بالذكر أن الفرس يجعلون لكل يوم من أيام الشهر الثلاثين اسماً خاصاً ، فهى ثلاثون اسماً ذكرها المسعودى ، وليست سبعة تتكرر فى كل أسبوع كما هو المعهود عند كثير من الأمم .

٣٠ — ٣٠٥ : ٥ — ٦ (فإنما يدرِك المبصَر بآلة ذات طبقات ورطوبات وقصبة مجوّفة ذاتيةٍ من بطن الدماغ) . الصواب « دانية » أى قريبة ،

ولا وجه لكلمة « ذاتية » هنا ، وليس لورودها فى جو آخر فى سطر ١٢ من الصفحة علاقة بهذا الموضع .

٣١ — ٣١٠ : ٥ (وكذا الأمر إذا ورد أخذ بالِمخْنَق وسدّ الكَظَم) . وهذا ضبط لم يقل به أحد ، إنما هو « بالمُخنَّق » . والمخنَّق بضم الميم وفتح الخاء وتشديد النون المفتوحة : موضع الخناق ، وهو الحبل الذى يخنق به . وفى اللسان : « وموضعه من العنق مخنق بالتشديد ، يقال بلغ منه المخنق ، وأخذت بمخنّقه ، أى موضع الخناق » . وأنشد صاحب اللسان لأبى النجم :

* والنفس قد طارت إلى المخنَّقِ *

وأنشد الجاحظ فى الحيوان ٣ : ١٣٥ لجابر بن حنى التغلبى :

لعمرك ما عمرُو بن هند وقد دعا
لتخدمَ ليلى أمَّه بموفّق
فقام ابنُ كلثوم إلى السيفِ مغضباً
فأمسك من ندمانه بالمخنّقِ

٣٢ — ٣٣١ : ٢ — ٣ (لأن غرضَه كان فى ذلك الأمر نفسُ الحركة والرياضة) الصواب « نفسَ الحركة » .

٣٣ — ٣٥٤ : ٦ (إن منافع الجبال ووضعَها على بسيط من الأرض كثيرة جداً) . الصواب « ووضعِها » أى ومنافع وضعها ، أما عطفها على « منافع » فلا يستقيم .

٣٤ — ٣٦١ : ١ — ٢ (وهذه جهات لكل مطلوب فإذا عرفت جهةٌ جُهلت أخرى . وليس يغنى العلم بأحدها عن الأخرى) . الصواب : « بإحداها » . أى بإحدى الجهات .

٣٥ – ٣٦٣ – ٣٦٤ (فيحصل من القسمة أربعة) . وهي :

حيٌّ ناطق مائتٌ .

وحيٌّ غير ناطق غير مائتٍ .

وحيٌّ ناطق غير مائتٍ .

(وحيٌّ غير ناطق مائتٍ) . الصواب : « مائتٌ » بالرفع .

٣٦ – ٢٦٧ : ٩ (وهيهات . ذلك العلم عميق البحر عالى الفلك) .

وقد أشير فى الحاشية إلى أنها فى الأصل « على الفلك » ولا وجه للعدول عن الأصل ، و « على » هنا ليست حرف جر ، وإنما هى صفة مشبهة على وزن فعيل ، مثل غنىّ وشقىّ ، والعلىّ هو العالى الرفيع ، ومنه مأخذ « علىّ » العلَم المشهور .

٣٧ – ٣٣٩ : ١٧ – ١٨ (ما الفرق بين العرافة والكهانة ، والتنجيم والطرق ، والعيافة والزّجْر ؟) ، وقد نبه فى الحاشية إلى أن الكلمة فى أصلها « والجزو » . وتصحيح الجزو بالزجر بعيد جداً فى فن التصحيف ، والصواب « والحَزْو » بنزع نقطة الجيم فقط لتصير حاء مهملة . فهذا هو التصحيح المتعين ، وفى اللسان : « أبو زيد : حزَونا الطير نحزوُها حَزْواً : زجرناها زجراً » .

٣٨ – ٣٤٢ : ٣ (لأن هذه الأشياء الأربعة) هى فى الأصل : « الأربعة الأشياء » ، ولا وجه للعدول عن الأصل ما دام مستقيماً صالحاً .

هذه بعض تحقيقات وتصحيحات واستدراكات لقراءة هذا النص النادر الممتع . الذى يهنأ الناشران الكريمان عظيم التهنئة بما أحسنا تقديمه إلى الأدباء .

ولست أدع القلم قبل أن أشيد كما أشاد الأدباء جميعاً بهذه الروح الرياضية العلمية التى دعا إليها أستاذنا الجليل الدكتور أحمد أمين بك ، الذى لبيت دعوته فى إعجاب لأنقد كتابه فى المجلة التى يشرف على تحريرها، كما أنوه بتركه لى الحرية كاملة أن أكتب ما أشاء ، فى حدود هذه الروح الرياضية العلمية التى يجب أن تسود منذ اليوم نقادنا المعاصرين .

فلم يُعد النقد الأدبى كما كان بالأمس تجريحاً وتشهيراً بالمنقود ، بل آن أن نصطنع الجد فيما يمس أقدار الأدباء وكرامتهم العلمية ، فإن العثار أمر يعرض للأدباء جميعاً ، لا يرتاب فى ذلك إلا مغتر ، أو ذاهب العقل ، أو متهافت النفس . وأمر النقد لا يعدو أن يكون معاونة ومجادلة فى الرأى ، أو مشاركة فى التهدّى إلى الصواب . والنقد أبداً خادم للعلم ، وليس ضرباً هيناً من فنون الهجاء . وإنما هو فن رفيع يتأتّى إليه الأديب فى خلق سمح ، وخطاب كريم .

حول ديوان الشريف المرتضى

٣٥٥ – ٤٣٦

تحقيق وشرح الأستاذ رشيد الصفار المحامى

بقلم عبد السلام محمد هارون

الأستاذ بكلية دار العلوم

– ١ –(*)

كنت ممن تأدب قديماً بأدب المرتضى . وكنت أصطحب أماليه المسماة بالغرر والدرر ، وأرجع إليها بين الفينة والأخرى ، ولا تزال هذه الأمالى منى على طرف الثمام ، مرجعاً هاماً من أصول الأدب واللغة والتفسير والحديث ، وسائر ألوان الثقافة العربية الخالدة .

وكنت أقرأ شيئاً من شعره منثوراً بين شتّى المراجع ، وهو نادر قليل ، ولم أكن أعلم باليوم الذى يظهر فيه ديوانه الجبار على يد عالم أديب فاضل من أدباء العراق ، هو الأستاذ رشيد الصفار . والأستاذ الصفار جدير بكل تقدير . لأنه بذل جهداً صادقاً فى أن يرى النورَ هذا الديوانُ الكبير . ولم أكن أتوقع أن ينهض بهذا العبء الأدبى رجل هو فى زمرة المحامين فيستقل به ولا ينوء بحمله . ولكنى ألفيته فيما بعد يضطلع بحمله ويظهره عملا هو أقرب ما يكون إلى الكمال .

والشريف المرتضى هو أبو القاسم على بن أبى أحمد الحسين بن موسى

(*) مجلة رسالة الإسلام عدد أبريل سنة ١٩٥٩م .

ابن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين عليه السلام .

وأخوه الشاعر الشريف أبو الحسن محمد الرضى (٣٥٩ – ٤٠٦) .

وأبوهما أبو أحمد الحسين الملقب بالطاهر ذى المناقب . لقبه بذلك الملك بهاء الدولة البويهى . وكان أبو أحمد زعيم الطالبيين وإمامهم وزعيمهم . وهو الذى رثاه أبو العلاء المعرى بقصيدته :

أودى فليتَ الحادثات كَفافِ مالُ المسيف وعنبرُ المستافِ

يقول فيها :

ويحق فى رزء الحسين تغيُّر الـ حرسين بله الدرَّ فى الأصداف

وقد عاصر الشريف المرتضى أربعة من الخلفاء ، وهم : المطيع وقد توفى هذا الخليفة والمرتضى لم يتجاوز الثامنة . ثم الطائع الذى استمرت خلافته إلى سنة ٣٧١ ، ثم القادر الذى استمر فيها إلى سنة ٤٢٢ . ثم ابنه القائم وهو آخر من عاصره المرتضى منهم .

كما عاصر من دولة البويهيين بهاء الدولة ، وأبناءه : شرف الدولة ، وسلطان الدولة ، وركن الدين جلال الدولة ، ثم أبو كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة . وكان المرتضى وثيق الصلة ببهاء الدولة البويهى . وكان شعره وشعر أخيه الرضىّ ينشدان فى مجالس بهاء الدولة . وليس يخاف أن دولة البويهيين كانت موئلا للشعراء والأدباء ، ومجالاً فسيحاً لنتاجهم الفنى الذى يلقى عندهم كل إكبار وإعزاز وتقدير .

وعاصر الشريف المرتضى من العلماء الأدباء أستاذه العلامة المفيد[1]

(١) هو الفقيه محمد بن محمد بن النعمان العكبرى البغدادى ، الملقب بالشيخ المفيد ، المكنى بأبى عبد الله ، وابن المعلم ، وقد لقبه شيخه على بن عيسى الرمانى بالشيخ المفيد .

الذى قرأ عليه هو وأخوه الرضى الفقه والأصول ، وكذلك الشاعر ابن نباتة السعدى ، وهو أبو نصر عبد العزيز بن عمر السعدى وقد درسا عليه اللغة ، كما تتلمذ المرتضى على أبى عبيد الله المرزبانى فى الشعر والأدب ، وأكثر من الرواية عنه فى الأمالى .

وممن عاصره :أبو إسحاق الصابى ، وهلال بن المحسِّن التنوخى ، وعلى ابن المحسِّن التنوخى ، وأبو الحسن السمسمى تلميذ أبى على الفارسى .

وكانت وفاة المرتضى لخمسٍ بقين من ربيع الأول سنة ٣٤٦ هـ ببغداد حيث صلى عليه ابنه فى داره ودفن بها . ويروى أنه قال عند وفاته :

لئن كان حظى عاقنى عن سعادتى
فإن رجائى واثق بحلمِ
وإن كنت فى زاد التقية والتقى
فقيراً فقد أمسيتُ ضيفَ كريمِ

حياته العلمية :

وللمرتضى مؤلفات ومصنفات أربت على السبعين مؤلفاً فى فنون شتى من فروع الثقافة الإسلامية . وقد اختلف الناس فى نهج البلاغة ، أهو من جمعه ، أم من جمع أخيه الرضى [1] ؟ .

ومما يجدر ذكره أن الشريف المرتضى كان من القُوّام بأمور دار العلم فى بغداد التى كانت تعد أعظم مدرسة للعلوم والآداب ، وكان فى مدرسته الخاصة نحو ثلاثين ألف جزء .

---

(١) ابن خلكان ١ : ٣٣٦ .

وكانت له فى داره مدرسة خاصة تعهّد بكفاية طلابها مئونة العيش ومطالب الحياة ، إذ وقف عليها قريةً من قراه تنفق مواردها على قراطيس الفقهاء والتلاميذ الذين كانت تجرى عليهم الجرايات الشهرية ، كالشيخ الطوسى الذى كان يجرى عليه اثنى عشر ديناراً فى كل شهر .

ولا غرو فى ذلك ، فقد قدر المؤرخون دخله من أملاكه الخاصة بأربعة وعشرين ألف دينار فى العام ، كما ذكروا أنه كان يمتلك من القرى والضياع نحو ثمانين قرية بين بغداد وكربلاء ، ينساب فيما بينها نهر حُفَّ بالأشجار وارفة الظلال ، ما بين مزهرة ومثمرة ، وقد أبيحت للسابلين والعابرين ثمارها وقطوفها .

وكان المرتضى يذهب مذهب الشيعة الإمامية ، فى قولهم بتوحيد الله عز وجل وعدله ، وامتناع صدور الظلم منه ، وأن الخلود فى النار إنما هو للكفار خاصة ، وأن ارتكاب الكبيرة من أهل المعرفة والإقرار لا يخرج من الإسلام . وأن الأئمة اثنا عشر ، أولهم : على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وآخرهم : محمد بن الحسن المهدى المنتظر ، وهم جميعاً معصومون .

وليس بصحيح أن المرتضى كان معتزلياً أو رأساً فى الاعتزال ، كما يتضح عند التحقيق ، إذ لا يمكن الجمع بين كثير من الآراء التى تقال هنا وهناك .

وكان رحمه الله عَلماً فى المناظرة متكلماً ، يسترعى إعجاب حاضرى مجلسه . وقد سئل عنه أبو العلاء المعرى بعد أن حضر مجلساً من مجالسه ، فأجاب :

يا سائلى عنه لما جئت أسأله
فإنه الرجل العارى عن العار

لو جئته لرأيت الناس في رجلٍ
والدهرَ في ساعةٍ .والأرضَ في دارِ

وذكر بعض الإمامية أن المرتضى أول من بسط كلام الإمامية في الفقه ، وناظرَ الخصوم ، واستخرج الغوامض ، وقيّد المسائل ، وفي ذلك يقول :

كان لولاى غائصاً مكرع الفقـ ـهِ سحيقَ المدى بحرَّ الكلام
ومعان تشطّ لطفاً عن الأفـ ـهام قربتها من الأفهامِ
ودقيق ألحقتُـه بجليـلٍ وحلال خلّصتُه من حرام

وكان المرتضى رجلَ دين . يضع الدين في المقام الأول . وأنت تلمح في أماليه أنه يضع مسائل التفسير والحديث في صدر كل مجلس من مجالسه ، ثم يستطرد منها إلى الأدب والشعر واللغة ومسائل العربية والنقد ، وبهذه الخاصة تمتاز أماليه عن نظائرها من أمالي العلماء والأدباء .

جانب من أخلاقه :

كان المرتضى سمحاً جواداً . مبسوط اليد فائض الكرم . ويذكرون أن يهودياً أفلسَ في مجاعة شديدة . فاحتال ليحصل على القوت ، فحضر يوماً مجلسَ المرتضى . فاستأذنه أن يقرأ عليه شيئاً من علم النجوم ، فأذن له وأمر له بجائزة تجرى عليه كل يوم . فقرأ عليه برهة ثم أسلم على يده .

ومن مشهور القصص في ذلك ما رواه التبريزى : أن أبا الحسن على ابن أحمد الفالى[1] كانت له نسخة من جمهرة ابن دريد غاية في الجودة ، فدعته الحاجة إلى بيعها . فاشتراها الشريف المرتضى بستين ديناراً ، وتصفحها فوجد بها أبياتاً بخط الفالى المذكور :

---

(١) نسبة إلى فالة (بالفاء) . من بلاد خوزستان .

أنِستُ بها عشرين حولا وبعتُها
لقد طالَ وَجدى بَعدها وحنينى
وما كان ظنى أننى سأبيعها
ولو خلدتنى فى السجون ديونى
ولكن لضعفٍ وافتقار وصِبية
صِغارٍ عليهم تستهلُّ شئونى
فقلت ولم أملك سوابق عبرةٍ
مقالة مكوىّ الفــؤاد حزينِ :
« وقد تخرج الحاجات يا أم مالك
كرائم من ربٍ بهن ضنينِ »[1]

فرجَع النسخة إليه وترك الدنانير .

وعلى حين نجد أخاه الشريف الرضى طموحاً نزّاعاً إلى الخلافة ممنياً نفسه بها ، ويقول فى ذلك مخاطباً نفسه :

هذا أمير المؤمنين محمد كرمت مغارسه وطاب المولد
أوَ ما كفاك بأن أمك فاطم وأبوك حيدرة وجدك أحمد

نلقى الشريف المرتضى مصروفاً عن هذا المطمع ، مشغولاً بالعلم والدرس ، زاهداً فى بهرج السلطان وزيف السياسة ، ذامّاً للدنيا راغباً عنها :

وحبُّ بنى الدنيا الحياةَ مسيئةً
بهم ، ثلمةٌ فى النفس أعوز سدُّها

(١) البيت قديم ، وقد ضمنه شعره كما ضمنه قبله كثيرون . انظر سمط اللآلى ٣ : ٨٩

تخفَّفَ من أزوادها ملءَ طوقه
فهان عليه عند ذلك فقدها

ويقول :

قل للذى راح بعزٍّ واغتدى ... يسحب منه مُطرَفاً مورّدا
صنيعَ من يطمع أن يخلدا ... جَمَّعتَ ما لا بد أن يبدّدا
إن لم يزُلْ فى يومه زال غدا ... يا جامعاً لغيره محتشدا
نضَدتَ مالاً هل نضدت أملا ... سيّانِ من سار يجرُّ العددا
ومن يَخِلُّ واحداً منفردا ... كلاهما مفارقٌ ما وجدا

المرتضى الشاعر :

لم يحظ المرتضى فى الشعر بمثل شهرة أخيه الشريف الرضى ، فقد عرف الرضى بالشعر ، وارتضاه الأدباء ورووا له . وسارت قصائده ، ونبغ منها الكثير ، ولا كذلك الشريف المرتضى . الذى لم يواته الحظ فى الشهرة .

ولعل مرجع ذلك إلى كثرة أعدائه وحساده ، ولعل مرجعه أيضاً إلى أنه كان مكثراً ، والإكثار قد تفارقه الجودة . كما يظهر لمتصفح ديوانه ، أن الطابع العلمى والحرص على إظهار المقدرة اللغوية واتساع الأفق العلمى . كل ذلك جعل شعره فى مستوى لا يستهوى جمهرة الأدباء مثل ما يستهويهم شعر أخيه الرضى .

كما أن سمات الحزن ، ومظاهر الشكوى والتبرم التى تسود شعره ، مما كان يتعرض له من فتن العامة والطغام ، أفقدت شعره ضوء البهجة التى يطلبها الناس فى الإنتاج الفنى .

وكذلك إجلال تلاميذه له ، وحرصهم على رواية آثاره الدينية والعلمية ؛ لما له من إمامة دينية مرموقة ، صرفهم ذلك عن أن ينشطوا لرواية شعره فأصابه بعض الخمول .

وليس معنى ذلك أن يخرج المرتضى من جلة فحول الشعراء ، فهو لا جرم شاعر فحل له وزنه ومقداره .

وكان الشريف المرتضى حريصاً على إظهار براعته فى النظم واقتداره ، متوجهاً إلى إبراز سيطرته على القوافى الصعاب غير المألوفة ، فهو يقول فى قافية الثاء :

قفا بى على تلك الطلول الرثائث
مُحيينَ بنسج المعصِرات المواكثِ
ولا تسألا عن اصطبارٍ عهدتما
فقد بانَ عنى بانتهاك الحوادث
كأن فؤادى بالنوى لعبت به
نيوب ليوثٍ أو مخالب ضابث
أجولُ فى الأطلال نظرة عابثٍ
وما أنا حزناً واشتياقاً بعابث
كأنى وقد سارت مطىُّ حدوجهم
ألاطمُ موجَ اللجـــة المتلاطثِ

وفى قافية الخاء :

أبِى يَعصِبُ الغاوون ما فى عيابهم
ويَلطَخنى بالشر مَن هو مُلَطخ

ولو شئتُ أضحى بين داري وبينهم
بَساطٌ بعيد للمطايا وبرزخُ
كأنى مقيم بين قومٍ أذلة
أميمُ رزايا ، بالجنادل يشدخُ
ولى مهجة لم يبق إلا طلولها
ترشٌ بأنواع الهموم وتُرضخُ

وفى قافية الزاى :

إن كنت ترغب فى الثوا ء بهذه الدنيا عزيزا
فاحذر مُنَى الأطماع أن تُعنى بها أو أن تحوزا
لا تُرعِها سمعاً فإ نَّ لها القعاقعَ والأزيزا
كم آمنٍ أضحى المُط حَ بها وقد أمسى الحريزا
أين الذين على التلا عِ تبوءوا الوطنَ الحجيزا
سحبوا وراءهم الجيو شَ وطالما سحبوا الخزوزا

وفى قافية الغين :

أقولُ لها لما التقينا على منًى وأبرزَها ذاك الخِمار المصبَّغُ
وأبدت صدودا لم يكن عادة لها وقد يتجنى فى الهوى المتمرِّغ
لقد خان من أدّى المحال إليكم ومانَ علينا فى المقال المبلِّغِ
شُغلنا وأنتم فارغون ولم يعُجْ على ذى اشتغالٍ دهرَه المتفرغ
كأنى أشكو الحب شكوى مجمجمٍ
فتىً ضل عن وادى البلاغة ألثغ

وشعر المرتضى ذو قيمة تاريخية عظيمة ، فقد كان المرتضى على صلة برجال دهره ، وكان معنياً بتسجيل كثير من المناسبات التاريخية ، فبذلك يعد شعره سجلا فسيح الجنبات ، مرآة صادقة للعصر الذى كان يحياه .

وللشريف المرتضى مجال واسع فى مدح الخلفاء والوزراء والأشراف ، ولم يكن يسترفد أو يستجدى بشعره . فقد كان ذا ثراء عريض وسعة فى العيش .

وهو حين يمدح الخلفاء ويمجدهم يذكر فى شعره أنه من عشيرة الخليفة ، وأن الأرومة الهاشمية جمعت بينهما ، فكأنه إنما يمدح الخليفة ليفخر بنفسه . يقول فى مدح الخليفة القادر :

وأنا الذى ينمى إليك ولاؤه ... أبدا كما ينمى إليكم مولدى

ويقول فى تعزيته له عن ولده :

فخراً بنى عم الرسول فأنتم
أزكى المغارس فى الأنام وأطيبُ
إرث النبي لكم ودار مقامة
والوحى يتلى بينكم أو يكتب
والبُرد فيكم والقضيب وأنتم الا
أدنَوْنَ من أغصانه والأقرب

وأخوه الشريف الرضى كان ينهج هذا المنهج فى مدح الخلفاء ، إذ يقول للخليفة القادر :

عطفاً أمير المؤمنين فإننا ... فى دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوتٌ ... أبداً كلانا فى المعالى مُعرق
إلا الخلافة ميّزتْك فإننى ... أنا عاطل منها وأنت مَطوّق

— ٢ —

المراثي في شعر المرتضى :

ونستطيع أن نتبين من ثنايا شعره أنه كان رجلاً جمّ الوفاء ، يدلّ على ذلك كثرة المراثي التي رثى بها أهله وأصدقاءه ، ومن تربطه بهم صلة القرابة أو النسب ، بل نجد له مراثي في أقوام مجهولين ، كقوله يرثي صديقاً له لم يذكر اسمه :

نادِ امرأ غيِّب خلف النقا
فكم فتىً ناديتَه ما وعى
وقل لمن ليس يرى قائلاً
بأي عهد دبّ فيك البِلى
وكيف دُلّيت إلى حفرة
يمحوك محو الطِّرس فيها الثرى

يقول فيها :

وكيف أسلاه وبي صبوة
أم كيف أنساه وفيه الهوى
كان كنارٍ أضرمت وانطفت
أو بارقٍ ، ما لاح حتى انجلى
أو كوكب ما لحظت نورَه
في أفقه العينان حتى خوى

(*) رسالة الإسلام عدد سبتمبر سنة ١٩٥٩ م .

وقوله يرثى صديقاً آخر :

ألا يا لقومى لاعتنان النوائب
وللغصنِ يُرمى كلَّ يومٍ بشاذب

وللناس : إما ظاعن حان يومه
وإما مقيم لاجتراع المصائب

يقول فيها :

خليلى قومـا فاندبا من بقُربِهِ
لهوّتُ زماناً عن سماع النوادب

ويا لهفَى منه على ذى مودّة
برىء الأديم من قروف المعايب

نسيبىَ بالودّ الصحيح وأقربَى
وصاحبىَ الأدنى إذا ازورّ صاحبى

ويبدو أن الشريف كان قد نصب نفسه شاعراً اجتماعياً يقول الشعر فى المناسبات الخاصة والعامة . واستمعْ إليه يعزّى القاضى أبا القاسم العسكرى عن ولدٍ له توفّى غريقاً ، إذ يقول :

إنّ هـذا الزمان يأخذ منّا
كلّ يومٍ خيارنا والخيـارا

وأعزاوُنا إذا لم يفـوتو
نا صغاراً فاتوا وماتوا كبارا

وفيها :

إنما المرء طائر سكن الوكـ
ر قليلاً مهجّرا ثم طـارا

فطوال السنينَ بعد تقصٍ
ونفـــادٍ ما كنّ إلا قصارا
أيُّ بدر لم ينتقص بمحاقٍ
بعد أن كان للعيون استدارا
وظلام ما جاء غبّ صباح
ملأ الأرض كلها واستنارا

ثم هو يسلك إلى تعزيته سبيل الدين ، ويذكره في ذلك بخشية الله ، ويرجيه ثوابه :

واصطبر مؤثرا تفزْ بثوابٍ
لا تُضعه بأن صبرت اضطرارا
لا تشكّنّ بالذى قسم الأع
مار فالله قسّم الأعمـــارا
واصحُ كى تدرك الثواب فكل ا
لناس في هذه الخطوب سكارى

وهذا ولد آخر لعميد الرؤساء أبى طالب يسقط عليه السقف فيقضي صريعاً ، فلا يجد الشريف مندوحة عن رثائه ، إذ يُحسن عزاءه بقوله :

ما أساء الزمان فيك الصنيعا فاشكر الله سامعاً ومطيعا
أخذ الله واحداً ثم أبقى لك ممن تهوى وترجو جميعا
فهب الحزنَ للسرور ولاتُذ رِ على ما مضى وفاتَ دموعا
ما لنا تجزع ولو أنه كا ن لحُوشيتَ أن تكونَ جزوعا
قد شكرنا يداً تجافتْ عن الأص ل وإن جثّت الغصون فروعا

وقوله :

والمصيبات لا يصبن سوى الأخـ
يار منّا إذا ولجن الـربوعا
وإذا لم يكن سوى الموت فالما
ضى بطيئا كمن يموت سريعا

ويموت مؤدب ولده فيرى من الحقَ عليه أن يرثيه بقوله :

إن كان غيبك التراب الأحمر
وحللت مرتا لا يزورك زُوَّر
فلقد جزعتْ على فراقك بعد ما
ظنُّوا بأنّى عنك جهلاً أصبر

ثم ينساق فى تيار الزهد والتصوف إذ يقول :

خذ بالبنان من الحياة فإنمـــا
هو عارض متكشف متحسِّرُ
ودع الكثير فإنمـــا لهمومه
جمعَ النُّضارَ إلى النضار مبدِّر (١)
وكأنمـــا ظل الحياة على الفتى
ظـــل أتاه فى الهجير مهجِّر

ثم يذكر أن حرمة الأدب تقوم مقام حرمة النسب ، وأن أصله الأعجمىّ

(١) النضار : الذهب . والمبدر : الذى يجمع المال بدراً . والبدرة : مقدار من المال يوضع فى كيس ، قيل عشرة آلاف درهم ، وقيل غير ذلك .

لا يُزرى به ؛ فإن للأعاجم المثقفين فضلاً يعلو بهم على كثير من العرب الذين لم ينهلوا من معين العلم :

إن لم تكن من عنصرى وأرومتى
فلحرمة الآداب فينـــا عنصرُ
أو لم تكن للعرب فيك ولادة
فالمعربون كلامَهم بك بصِّروا
ما ضر شيئاً مَن نَمته أعاجم
ولديه آداب الأعارب تسطرُ
ولكم لنا عرب الأصول تراهم
عُميا عن الإعراب لم يستبصروا

ومن أشهر مراثيه رثاؤه لأخيه الرضى ، وكان الرضى أصغر سنًّا منه بأربع سنوات ، وقد جزع المرتضى لوفاته جزعاً شديداً ، لم يستطع أن ينظر إلى أخيه فى السياق ، ولا محمولا على أعناق الرجال ، أو يشهده وقد دلِّىَ فى قبره وأهيل عليه التراب ؛ لم يطاوعه قلبه ، ولم يطاوعه شديد حبه لأخيه ، ففرّ من كل أولئك إلى مشهد موسى بن جعفر ، وتكفل بالصلاة عليه ودفنه الوزير فخرُ الملك .

وقد ذكر المرتضى هذا الوزير فى هذه المرثية التى يستعلن فيها انكساره وضعفه ، وحيرته القاتلة ، وإظلام الدنيا فى عينيه ، وتراكم الهموم عليه فى قسوة وعنف :

قُدنى إليك فقد أمنت شِماسى
وكفيتَ منّى اليومَ صِدقَ مراسى

ولقيتني متخشعاً لا يرتجى
نفعي ولا يُخشَى العشيةَ باسي

أسري بلا هادٍ بكل مَضلّةٍ
وأجوب مظلمةً بـلا مقباس

وأذود عن قلبي الهمومَ كأنني
أحمي أسود شرى عن الأخياس

ويذكر أنه كان يخشى قديماً ذلك اليوم الذى يشهد فيه مصرع أخيه ، وأن فجيعته به أفقدته الصبر والعزاء ، ولم يستطع معهما المصابرة والمجالدة :

ما زلت أحذر وردها حتى أتت
فحسَوتها فى بعض ما أنا حاسِ

راديتها فلقيتُ منها صخـرةً
صماءَ من جبل أشمّ الرّاس

ومطلتها زمناً ولمّا صممت
لم يَثنها مطلى وطول مِكاسى

ومنعتها دمعى فلمـا لم تجدْ
دمعاً تحدّر أوقدَتْ أنفـاسى

ثم يأبى أن يترك فخره بأرومته الشريفة ، واعتزازه بدوحته العريقة :

ومصيبة وَلَجت على سُرُج الهدى
آل النبي حفائرَ الأرماسِ

ثُلموا بها بعد التمـام كأنّما
ثُلموا بجدع الأنف يوم عُطاسِ

ويسجل أن أخاه مات قصير العمر ، إذ لم يتجاوز السابعة والأربعين :

واهاً لعمرك من قصير طاهرٍ
ولربَّ عمرٍ طال بالأرجاسِ

ثم يذكر ما كان من وفاء فخر الملك ، ومن نيابته عنه فى القيام بحق أخيه الذى لم تمكنه رقة قلبه من أن يقوم به :

من مبلغ فخر الملوك بأننى
للفضل من نعماه لست بناس
شرّدت عنّى كربها من غمة
وعدلت لى الإيحاشِ بالإيناس
إن كان فرعى قد مضى وبقيتَ لى
فالفرع مسدول على الآساس
ولئن رُزيتُ فقد محوتَ رزيتى
بيديك محوَ النِّقْس من قرطاس

وهو لا ينسى أن يرثى فخر الملك نفسه بمرثية يقول فيها :

فجعت بمشبع السَّغبات جوداً
وناقع غلة الهيم العطاش
ووهّاب اللُّهى فى يوم سلم
وضرّابِ الكلى يوم الهراش
تغلغل حبه فى أمّ رأسى
وخاض وداده منّى مُشاشى

وأفرشني القتادَ أسًى عليه
فليت لغيره كان افتراشي

وكما رثى أخاه الرضى رثى أختاً له بمرثية تنطق بأنها قيلت فى عقيلة من العقائل ، يقول فيها :

فلله أعوادٌ حملن عشيةً
خبيئة بيت لا يرى السوء طارقُه
على الكرم الفضفاض لُطِّمت ستوره
وبالبر والمعروف سدّت مخارقُه
وليس به إلا العفاف وما انطوت
على غير ما يرضى الإله نمارقُه
قيام سواد الليل يَندى ظلامه
وصوم بياض اليوم تحمَى ودائقُه
فدتنى كما شاءت . وما شئت أنها
فَدَتنى ، ولا كان الذى حُمّ سابقُه
ولو أننى أنصفتُها من رعايتى
وقابلته رزءا بما هو لائقُه
لأكرعت نفسى بعدها مُكرعَ الردى
تُصابحه حزناً لها وتُغابقه

ولتلاميذ المرتضى كذلك نصيب من شعر المناسبات ، فهو يقول فى رثاء تلميذ له يدعى التبانى :

قد كنت فينا جدلاً محققّا مدققا

ما فاتك العـــلم ولا ضللت فيـــه الطرقا
لحقت ما طلبتَـــه كم طالبٍ ما لحقـــا

مراثى الحسين عليه السلام :

أما الوفاء الكبير الذى كان يحيط بمشاعره إحاطة تامة ، ويستثير كوامن لواعجه ، الوفاءُ المقرون بالصدق ، فقد صاغه غُرراً من قصائده يقولها الفينةَ بعد الفينة ، يبثّ فيها كامن حزنه ، وكامل إجلاله لجده الحسين بن على رضى الله عنهما ، وهو الأصل الذى انبثقت منه الدوحة الكبرى للعلويين :

وتعد هذه المراثى من أصدق شعره وأروعه ، إن لم تكن أصدقَه وأروعه :

أأسقَى نَميرَ الماء ثم يلذّ لى
ودورُكم آلَ الرسول خـــلاءُ
وأنتمْ كما شاء الشتاتُ ، ولستم
كما شئتم فى عيشة وأشاءُ
تذادون عن ماء الفرات وكارعٌ
به إبلٌ للغـــادرين وشاءُ
تنشَّر منكم فى القَواء مَعاشرٌ
كأنهمُ للمبصرين مـــلاءُ
ألا إنّ يوم الطفّ أدمى محاجراً
وأدوى قلوباً ما لهنّ دواء

هذه اللوعة الصارخة تتبعها لوعة أخرى ، وغضبة مدوّية لآل البيت :

وهل لى سُلوانٌ وآلُ محمد
شريدهم ما حانَ منه ثَواءُ

تُصَدّ عن الرّوحات أيدى مطيهم
ويُزْوَى عطاءٌ دونهم وحِباءُ
كأنهم نسلٌ لغــــير محمدٍ
ومن شَعبه أو حِزبه بعــداءُ

ثم يفيض دمعُه ويثور ما كان ساكناً من حزنه فيقول :

دُعوا قلبىَ المحزون فيكم يَهيجه
صَــباحٌ على أخراكم ومَساءُ
فليس دموعى من جفونى وإنما
تقاطرن من قلبى فهنّ دماءُ

وفى يوم (عاشوراء) ، وهو اليوم المشئوم الذى شهد مصرع الحسين[1] ، تعاوده الذكريات ، التى يسجّلها شعره فى روائع الكلم ؛ ويستعلن الحداد فى قوله[2] :

إنّ يوم الطفّ يوم كان للــدين عصيبا
إنه يومُ نحيبٍ فالــتزمْ فيه النحيبا
عطّ تامورك واتركْ معشراً عَطّوا الجيوبا[3]
واهجر الّطيب فلم يتـ ـرك لنا عاشور طِيبا
لعــن الله رجــالاً أترعوا الدنيــا غصوبا
سالمــوا عجزاً فلمّــا قــدروا شنّوا الحروبا
ركبــوا أعوادنــا ظلمــاً وما زلنــا رَكــوبا

(١) كان مصرع الحسين فى يوم عاشوراء سنة ٦١ وهو ابن ٥٨ سنة .
(٢) صنع هذه القصيدة سنة ٤٢٩ .
(٣) العط : الشق . والتامور : القلب ، أو حبة القلب .

ثم يصبُّ جام غضبه على قاتليه ، ويتكهّن بالعاقبة الطوبى لآلِ البيت :

طلبوا أوتار بــــــدر عندنا ظلمـــاً وحُوبا
ورأوا فى ساحَة الطَّـ ـفِّ وقد فات ، القليبا (١)
قد رأيتم فأرونـــا منكم فـــرداً نجيبا
أو تقيـــاً لا يرائى بتقـــاه أو لبيبـــا
كلّمـــا كنـــا رءوساً للـــورى ، كنتم عُجوبا
فى غـــدٍ ينصب تيـــارٌ لكم فينا نضوبا
ويعـــود الخلْق الـــرثُّ من الأمر قشيبا
والذى أضحى وأمسى ناكبـــاً يُضحِى نكيبا

وفى يوم عاشوراء من السنة التالية للعام الذى قال فيه هذه المرثية نجده يقول مرثية أخرى مطلعها :

يا خليلى ومُعينى كلما رمت النهوضا
داوِ دائى أو فعُدنى مع عوّادى مريضا

يقول فيها :

قد أتى من يوم عاشو راء ما كان بغيضا
دع نشيجى فيه يعلو ودموعى أن تفيضا
إنه يومٌ سُقينـــا من نواحيه مضيضا
هُزِل الدين ومن فيـ ـه وقد كان نحيضا (٢)

---

(١) القليب : البئر ، أراد بها قليب بدر ، إشارة إلى هزيمة أسلافهم فى غزوة بدر .
(٢) النحيض : الكثير اللحم . والنحض : اللحم نفسه . والقطعة الضخمة منه تسمى نحضة .

وهو فى ذلك لا يزال يتوعد المغتصبين :

قل لقوم لم يزالوا فى الجهالات رُبوضا
غرّهم أنهم سـا دوا وما شادوا بعوضا
فى غدٍ بالرّغم منكم سترُدّون القروضا
سوف تلقون بناءً لكم طال نقيضا
وقبـاباً أنتمُ فيـ ـها وهاداً وحضيضا

ولا تزال ذكرى عاشوراء ماثلة له بكل سبيل ، إذ يقول فى مرثية أخرى :

يا يوم عاشوراء كم أطردت لى أملاً
قد كان قبلك عندى غير مطرودِ
أنت المرنّق عيشى بعد صفوته
ومولج البيض من شيبى على السّودِ

ويقول فى يوم عاشوراء فى السنة الخامسة والثلاثين بعد الأربعمائة ، مصوّراً غدر القاتلين :

قد غدرتم كما علمتم بقومٍ لم يكن فيهمُ فتىً غدّارا
ودعوتم منهم إليكم مجيباً كرماً منهمُ وعودا نضارا
أمنوكم فما وفيتم وكم ذا آمنٌ ، من وفائنا ، الغدّارا
وأتوكم كما أردتم فلما عاينوا عسكراً لهم جرّارا
وسيوفاً طووا عليها أكفّاً وقناً فى يمينكم خطّارا
علموا أنكم خدعتم وقد يخـ ـدع مكراً من لم يكن مكارا

ويقول ناعياً على عمر بن سعد بن أبى وقاص ، الذى قاد الحملة ضد أصحاب الحسين عليه السلام فى كربلاء ، بأمر عبيد الله بن زياد :

ويح ابن سعدٍ عمرٍ أنه باع رسول الله بالنزّر
بغى عليه فى بنى بنتِـــه واستلّ منهم أنصل المكر

وتلح عليه الذكرى فى قصيدة أخرى يقول فيها :

فكم أجرى لنا عاشورُ دمعاً وقطّع من جوانحنا النّياطا
وكم بتنا به والليــل داجٍ نُميط من الأذى ما لن يماطا
يسقّينا تذكّره سمـــاماً ويولجنـــا توجعـه الوِراطا

وهو فى رثائه الحسين عليه السلام ما يبرح يندّد ببنى أمية ويقذفهم بعبارات التهديد والإيعاد :

فقل لبنى حربٍ وفى القلب منهمْ
دفائن تبدو عن قليل وتظهرُ
ظننتم ، وبعض الظن عجزٌ وغفلة
بأنّ الذى أسلفتمُ ليس يذكر
وهيهات تأبى الخيل والبيض والقنا
مجارى دمٍ للفاطميين تُهدر
ولستم سواءً والذين غلبتم
ولكنّها الأقدار فى القوم تقدر
وإن نلتموها دولة عجرفيّة
فقد نال ما قد نال كسرى وقيصر

ويدعو عليهم فى قصيدة أخرى :

فلا حُدِيتْ بكم أبداً ركاب
ولا رفَعَت لكم أيدٍ سياطا

ولا رَقَع الزمان لكم أديماً
ولا ازددتم به إلا انحطاطا
ولا عرفت رءوسكم ارتفاعاً
ولا ألفت قلوبكم اغتباطا
ولا غفر الإله لكم ذنوباً
ولا جزتم هنالكمُ الصِّراطا

ويفخر عليهم فى قوله :

فقل لبنى حربٍ وإن كان بيننا
من النسب الدانى مرائر تُحصَفُ(١)
أفى الحق أنا مخرجوكم إلى الهدى
وأنتم بلا نَهْجٍ إلى الحق يعرفُ
وإنا شَبَبنا فى عراص دياركم
ضياء . وليل الكفر فيهنّ مسدفُ
وإنا رفعناكم فأشرفَ منكم
بنا فوق هامات الأعزّة مُشرِفُ
وها أنتمُ ترموننا بجنادلٍ
لها سحبٌ ظلماؤها لا تكشّف
لنا منكمُ فى كل يوم وليلة
قتيلٌ صريع أو شريد مخوّف
فخرتم بما ملّكتموه وأنتم
سِمانٌ من الأموال إذ نحن شُسَّف

---

(١) المرائر : الحبال . تحصف : تفتل . كناية عن القرابة الوثيقة .

وما الفخر يا من يجهل الفخرَ للفتى
قميصٌ موشًّى أو رداءٌ مفوّف

وما فخرنا إلا الذى هبطت به الـ
ـملائك أو ما قد حوى منه مصحف

* * *

هذه هى أهم المعالم البارزة فى شعر الشريف المرتضى . وهى أصدق شعره تعبيراً عن قلبه ، وما يضطرم فى زواياه من مشبوب العواطف . وما يختلج فيه من تيارات نفسية عارمة .

أما شعره فى الشيب والشباب فهو مما يذكره له النقاد والمؤرخون ، حتى ليصح أن يذكر فى الرعيل الأول من الشعراء الذين عالجوا القول فى هذه المعانى ، وأسهبوا فى تقديم الصور البيانية لهاتين الظاهرتين الرائعتين .

ولسنا بحاجة إلى عرض شىء من هذه الصور ، فقد تضمنها كثير من مطاوى ديوانه ، كما ساق جمهرتها فى كتابه « الشهاب ، فى الشيب والشباب » الذى طبع فى الجوائب سنة ١٣٠٢ .

وللشريف شهرة خاصة فى ذكر الطيف ، وفى ذلك يقول ابن خلكان : « وإذا وصف الطيف أجاد فيه ، وقد استعمله فى كثير من المواضع » .

وهو مع ذلك لم يسرف فى تناوله بصوره الشعرية مثلما صنع فى الشيب والشباب . وقد ضمّن كثيراً منه كتابه « طيف الخيال » الذى طبع فى القاهرة سنة ١٣٧٤ وفى بغداد سنة ١٣٧٧ .

وموعدنا للكلام على تحقيق هذا الديوان فى المقال التالى إن شاء الله .

- ٣ -

قصة نشر الديوان :

لم يكن نشر ديوان الشريف المرتضى — فيما يرى الناشر — بالأمر المعتاد ، بل هو أمر تسبقه مقدمات ، ويتقدمه خيال وطيف أحلام .

يقول الأستاذ الصفار فى مقدمته الطريفة :

« قبل عشر سنوات ، وفى إحدى الليالى الحالمات طاف علىَّ طائف فى منامى لا زلت أتخيّله ، شخصاً رَبْع القامة ، نحيف الجسم أبيضه ، مشرباً بسمرة خفيفة مستملحة ، ذا لحية كثة وخط الشيب أكثرها ، وعمامة سوداء حسن متعجرها ، وقلنسوة فى اللون مثلها . جللّته الهيبة العلوية ، ووسمته السمات الهاشمية ، فأضْفَت عليه حشمة ووقارا .

أقبل علىَّ ثم قعد إلى جنبى — وأرانى فى مكتبتى أترقب شيئاً أو أتوقع أمراً — ناولنى كتاباً لف فى منديل ، كأنّه مهدى إلىّ ، أخذته مبتهجاً فرحاً . ولشدّ ما يبهجنى ويسرنى اقتناء الكتب ومطالعتها ، وبالأخص المخطوط منها .

لم تمض على صبيحة تلك الليلة الحالمة الممتعة بضعُ ساعات ، حتى وافانى أحد معارفى — وأنا فى مكتبتى — وهو رجل عرف بمعاطاة الكتب النادرة والتحف النفيسة ، فناولنى كتاباً لف بمنديل كما رأيته فى رؤياى وقال لى : خذ ضالتك . فتحته فإذا مكتوب على أول صفحة فى طغرائه . . » .

ثم يمضى السيد الصفار فى صفة تحقيق تلك الرؤيا التى رأى ؛ ويمضى فى مقدمته ذاكراً أنه عرض عمله على العلامة الدكتور مصطفى جواد الذى كان له فضل أى فضل فى أن يخرج الديوان على هذا الوضع الذى ظهر للناس . . .

(*) رسالة الإسلام عدد مارس سنة ١٩٦٠ م .

وقد صُدِّر هذا الديوان بثلاث مقدمات ، أولاها للسيد العالم العراقى الأستاذ محمد رضا الشبيبي . وقد تضمنت هذه المقدمة بحوثاً عميقة تنم عن علم غزير واطلاع واسع ، تناولت سيرة المرتضى من شعره ، حيث وضّح السيد فيها سيرة المرتضى مع معاصريه من رجال الدولة على اختلاف منازعهم وتباين مشاربهم ، كما تناول مأساة الخليفة الطائع الذى أجبر على التنازل عن الخلافة ، وأخذ خطّه بذلك التنازل ليستخلف بعده القادر بالله ، وذلك فى أيام بهاء الدولة الديلمى . وتناول كذلك الشريف المرتضى (الشاعر العالم) .

وتلى هذه المقدمة مقدمة الدكتور مصطفى جواد ، ينوه فيها بالديوان . ثم تغلبه طبيعة المؤرخ فيكتب تحقيقاً فى مدفن المرتضى ، ذهب فيه إلى أن الشريف المرتضى دفن فى داره . وأن التربة المجاورة لمشهد الإمام موسى ابن جعفر المعزوة إلى الشريف ليست له ألبتة . ثم يكتب تحقيقاً دقيقاً فى تعيين الموضع الذى كانت فيه دار الشريف .

والمقدمة الثالثة لمحقق الديوان ، وفيها ترجمة مستفيضة للشاعر ولأسرته ، وذكر سماته الخُلقية والخَلقيَّة ، وكلمة فى خزانة كتبه الخاصة وولوعه بجمع الكتب ، وبيان شيوخه ، وعقيدته ومذهبه الكلامى ، ومذهبه فى الفقه والأصول ، واجتهاده ومسلكه فى تعليل الأخبار وتأويلها ، وبراعته فى المناظرة وعلم الكلام ، وعلمه باللغة وغريبها ، وبيان فلسفته ، ورأيه فى النفس وعدم تجردها ، وقوله فى المنامات والأحلام ونفيه نسبتها إلى النفس ، ورأيه فى المنجمين . وذكر ما كان بينه وبين أبى العلاء المعرى من محاورة فلسفية عميقة ، وبيان منزلته الاجتماعية والسياسية ، وبيان معاصريه وأصحابه من الخلفاء والملوك ، والوزراء والنقباء والأمراء والعلماء ، ثم ذكر تلاميذه ، ثم وفاته ومدفنه ، وبيان عقبه ونسله ، ثم بيان مؤلفاته وفهرس كتبه التى أربت على السبعين ، والقول فى شاعرية المرتضى وديوان شعره ، ثم الكلام نسخ الديوان .

وهذه المقدمة الأخيرة كما ترى ، تعد دراسة جامعة للشريف المرتضى ، تتضح بها شتى جوانب حياته الاجتماعية والسياسية والعلمية ، وهى جديرة بالثناء العظيم . لما بذل المحقق فيها من جهد ، وما أظهره من قدرة على البحث والتحقيق .

وقد اعتمد المحقق فى إخراج ديوانه على مخطوطات ثلاث : هى نسخة السماوى ؛ ونسخة الشبيبى ، والنسخة الهندية . وقد وصف هذه النسخ فى دقة وعناية كاملة .

ولكن الذى يؤخذ على الأستاذ الناشر ، أنه خرج على المألوف فى التحقيق ، وجانب الأصول المرعية فى النشر .

١ — فهو قد ضم إلى الديوان الأصيل وفى أثنائه ، جميعَ ما عثر عليه من شعر المرتضى فى المراجع المختلفة ، أعنى كتب الشريف المرتضى نفسه ، كالشهاب فى الشيب والشباب ، وطيف الخيال ، وكذا ما عثر عليه فى كتب أخرى ، مثل مناقب ابن شهر آشوب ، وكشكول البهائى (١) ، وأنوار الربيع ، وغيرها مما لم يذكر فى أصول الديوان .

وهذا بلا ريب عدوان على الديوان ، فإن ديوان أى شاعر من الشعراء إنما هو الكمية المعينة التى رواها الرواة له إن كان هو لم يُعن بجمع شعره ؛ أو التى ارتضاها الشاعر من شعره وأجاز روايتها إن كان قد عنى بجمع شعره .

ونحن نعلم أن كثيراً من الشعراء المعاصرين وغير المعاصرين لا يثبتون فى دواوينهم من الشعر إلا ما ترضاه أنفسهم وتطمئن إليه قلوبهم . ولذلك نجد ديوان شوقى ليس هو كل شعره ، بل إنه طرح منه كثيراً ولم يعترف بالبعض الآخر .

(١) كذا . يريد كشكول البهاء العاملى ، وهو محمد بهاء الدين العاملى . انظر الكشكول مثل ص ٣٣٥ — ٣٣٦ وغيرها طبع سنة ١٣٠٢ .

ونعلم أيضاً أن الشريف المرتضى قد صنع ديوانه بنفسه ، وقرئ شعره عليه كما يفهم من دراسة الأصول المخطوطة التي وصلت إلينا . ومعنى ذلك أن ديوان المرتضى صار محدوداً بما رسم ، لا يجوز أن يضاف إليه إضافة لم يرتضيها .

ونحن إذا أخذنا بروح التسامح إضافة بعض الأشعار المنثورة فى كتابيه : الشهاب ، وطيف الخيال ، على ما فى ذلك من مخالفة فنية ، فإنا نرى فى إضافة ما وجد من الشعر فى غيرهما من الكتب عدواناً علمياً على الديوان ؛ إذ أن هذا الضرب من الشعر هو فى موضع الريبة لا يصح أن يطمئن إليه الناشر اطمئناناً علمياً كاملا ، وكان أجدر به أن يفرده فى نهاية الديوان باباً مستقلا .

٢ – كما أن الناشر قد جانب الترتيب الأصيل للديوان ، الذى يظهر أنه روعى فيه التدرج التاريخى ، فعمد الناشر إلى ترتيب القوافى على حروف الهجاء غير مقيد بترتيبه الأول ، ذلك – كما يقول – « تسهيلا للمراجعة وتشويقاً للمطالعة » .

وكان يستطيع أن يبقى الترتيب الأصيل كما هو ، ويترك هذا التسهيل الذى يعنيه لمهمة الفهرس . كما يفعل الناشرون فى إخراج الدواوين القديمة ، فهم لا يتصرفون هذا التصرف الذى يخالف الطريقة العلمية فى النشر .

ثم هو نفسه قد اعترف بأن هناك فرقاً بين ما قاله المرتضى فى الصبا وما نظمه فى الكهولة والكبر ، ولكنه فرق غير كبير (١) . فمهما يكن من فرق فإنه موجب للمحافظة على نظام الأصل وترتيبه .

هذا مجمل ما يلمحه المتتبع لمنهج النشر ، وهناك أخطاء أخرى فى المنهج فى تحقيق النص وأدائه وتفسيره نذكر بعضاً منها :

---

(١) المقدمة ص ١٤٢ .

١ – فى المقدمة :

فى ص ٤٧ : « ولعل قوله كاثرته مصحّف عن كاشرته (بالشين) ، والمكاشرة هى المجاورة ، تقول جارى مكاشرى أو بحذائى يكاشرنى » !

وصوابه « مصحف عن كاسرته بالسين والمكاسرة هى المجاورة .. إلخ » .

يقال هو جارى مكاسرى ، أى كِسر بيتى إلى جنب كسر بيته[1] .

وفى ص ٨٩ : « يتولد منها دابة بجلدها تمس الأيدى (كذا) » . وقد ارتاب الأستاذ الصفار بحق فى كلمة « تمس » ولم يعرف وجهها .

ووجه قراءتها « تُمَشّ » بالشين ، أى تمسح . ومنه المَشُوس للمنديل الذى تمسح به الأيدى . ومنه قوله امرئ القيس :

نَمشّ بأعراف الجيـاد أكفَّنا
إذا نحن قمنا عن شواء مضَهَّبِ

٢ – فى الجزء الأول :

فى باب الهمزة المفتوحة رسم المحقق كل همزة مفتوحة بعد ألف متلوة بالألف فيكتب مثلا بكاءَ (بكاءا) ، وشاء (شاءا) ، وإخاء (إخاءا) . وهذا مخالف تمام المخالفة للكتابة المألوفة .

فى ص ١٧ : « أنت أولى بهم بناحية الفضل » . صوابه : « أولى منهم بناصية الفضل » .

وفى ص ٢٣ : « طِوال هذا التدانى » . وهذا من الأخطاء الشائعة . صوابه « طَوال » بفتح الطاء ، أى طول مدته ، وقد تكرر هذا الخطأ فى ص ٣٠٠ من الجزء الثالث .

(١) انظر اللسان (كسر) .

وفى ص ٣٢ :

وبها على أكوار ناجيـــة نصّ المنازل عُنّيَ الركبْ

هى فى أصل الديوان « تطس الجنادل » فجعلها المحقق اعتماداً على مصطفى جواد « نص المنازل » وقال فى تخريج هذا : نصصت فلاناً ، إذا استقصيت مسألته عن الشيء حتّى تستخرج ما عنده . فالركب قد نص أهل المنازل عن الكلمة » .

وهو تفسير عجيب ، والقدرة على فهمه أعجب . وما فى الأصل أقرب إلى الصحة ، وصوابه « تَطِس الجنادل » ، من وطَس الشيء يطِسُه وطْساً : دقّه . ومنه الوطيس : المعركة ، لأن الخيل تطِسُها بحوافرها . ومنه قول عنترة :

خطارة غبَّ السرى موارة
تطِس الإكام بوخد خُفٍ ميثَمِ

وفى ص ٣٣ فسر المحقق قول المرتضى :

حيث استرثّت كل محكمة من عَقده وتزايل الشّعبْ

بأن الشّعب هو الصدع ، والوجه أن يفسّر بأنه الاجتماع والصلاح والشعب من ألفاظ الأضداد . وما ذكرته هو المناسب لما فى صدر البيت ومثله قول الطرماح :

شتّ شعبُ الحيّ بعد التئـــام وشجاك اليوم ربع المُقـــامْ

وفى ص ٤٣ :

إن يكن شَخصُك اِستمر به النأ ى . . . فى الفـــؤاد قريبْ

وجاء فى التعليق أن موضع النقط كلمة محرفة لم يهتد إلى معناها ، وهى

« فحبيك » ، وكلمة « فحبُبِّيكِ » واضحة المعنى ، أى فحيي إياكِ . وليس فى الأمر تحريف ولا كلمة محرفة .

وفى ص ٦٠ :

شربت خليط الود منهم ومحضَه
فلست أبالى أن سَقوا غيرى الضَّرْبا

وفسر الضَّرْب بأنه العسل الأبيض . ووجهه « الصَّربا » بالصاد المهملة ، وهو اللبن الحقين الحامض .

وفى ص ٦١ : « لا يكهَمُ الدهرُ غربَها » ، صوابه « الدَّهرَ غربُها » ، أى لايكهم طول الدهر .

وفى ص ٦٤ : « تخال بهن من كلَب ذآبا » وفسر الذآب بقوله : « أشبه بأن يكون مصدر ذئب يذأب إذا صار كالذئب دهاء وافتراساً » . ووجهُه « ذئاباً » جمع ذئب ، وهو من أساليب التجريد البلاغية المعروفة .

وفى ص ٧١ قول المرتضى :

وهـو فى الفردوس لما قيـل قـد حل الجُبوبا

وفسر الجُبوب بأنه جمع الجب . وهو الحفرة . والصواب فى ضبطه « الجَبوبا » بفتح الجيم ، وهى لفظ مفرد ، معناه الأرض والتراب ، وليس فى اللغة « جُبوب » بضم الجيم جمعاً للجب ، والميت إنما يجعل فى حفرة واحدة.

وفى ص ٨١ : « خرَوق إلى الارداء كل حجاب » صوابه : «الإرداء» ، أى الإهلاك . من أرْداه يرديه .

٣ ــ فى الجزء الثانى :

ص ٣٥ : « يرْكوا طريق الدين فينا مقمراً » ، صوابه « تركوا » .

وفى ص ٦٩ :

وإنى ممن لا تحطُّ ركابُه على البلد النابى المُجَلَّه بِالحَسْرِ

وسِيقَ لهذا البيت فى الشرح أعاجيبُ من التفسير . وأن المجلّه من الجَلَه . وأن الحسر الانكشاف كانحسار الماء عن الأرض وانحسار الشعر عن الرأس . مع أن تقويم البيت من واقع الأصل — كما يقولون — هو من اليسر بمكان . والصواب كما يفهم من الجمع بين نسخ الديوان : « على البلد النابى المَحَلّة بالحُرّ » أى لا تحط ركابه على البلد الذى ينبو بالرجل الحُرّ ، وهو معنى مألوف فى أشعارهم .

وفى ص ٨٦ عنوان هو « وقال فى الغزل » وذلك لأبيات « فى الحكم » أولها :

لا تكشفنّ عيوبَ الناس ماستَرت

فكاشفُ العيبِ — من هم على خطر

وفى ص ١١٤ :

طواها السُّرى طى الحرير على البلى

فهنّ قسِيٌّ ما لهنّ معاجِس

والحرير فى هذا الوضع لا وجه له . وإنما هو « الجرير » أى الحبل . عنىَ أنها صارت ضامرة كالحبال المفتولة .

وفى ص ١١٤ أيضاً :

بضرب كما اختارت شفار مَناصل

وطعن كما شاء الكَمِىّ المداعسْ

وقد فسر « مناصل » فى الأصل بأنه جمع منصل ، وهو السيف .

مع أن الكلمة فى الأصول المخطوطة « شفار مناصل » والمُناصل : المحارب المقاتل . وهو الذى يساير ويناسب « الكمىَّ المَداعس » . فلا وجه لتغيير ما فى الأصل ، بل لو كان فى الأصل : « قناصل » لوجب تصحيحه بمناصل فهذا من التصحيح الذى جانبه التوفيق .

وفى ص ١٣٠ :

وتصدَّعوا وهـو المـنى عن فيره صَدْعَ السُّدوس

وجاء فى تفسيره : والسدوس أصله السديس أى المؤلف من ستة أجزاء فيكون وصفاً للجفنة المركبة من ستة أجزاء » . وهو تخريج عجيب وتكلف مجهد وتحميل للألفاظ ما لا تحتمل . وإنما هى « السُّدوس » بعينه ، وليس أصلها السديس ولا غيره . ومعنى السدوس الطيلسان . وشق الطيلسان وشق البرد ونحوهما من الثياب . من التعابير الشائعة فى الشعر العربى .

وفى ص ١٤٧ :

إلى كم ذا التتابعُ والتمادى وكم هذا التصامُ والتغاشى

وفسر « التغاشى » بأنه التستّر ! وإنما هو « التعاشى » بالعين المهملة ، أى تكلف العَشا . وهو ضعف البصر ، يُرِى المتعاشى من نفسه أنه أعشى وليس به . وذلك ليتوافق مع « التصامم » . وهو تكلف الصمم . ومن نظائره قول الحارث بن حلزة فى معلقته :

فاتركوا الطيخ والتعاشى وإما تتعاشَوا ففى التعاشى الداء

وفى ص ١٤٨ :

فُجِعتُ بمشبع السَّغَبات جوداً
وناقِعِ غُلّة الهِيم العطِـاشِ

وضبطت « السَّغَبات » بفتح السين والعين ، وقيدت فى التفسير بأن السَّغَبات الجوعات . وإنما هى « السَّغِبات » جمع سَغِبة ، وهى الجائعة .

وفى ص ١٧٨ :

فلا حُدِيَتْ بكم أبداً ركابٌ
ولا رُفعت لكم أبداً سياطا

والوجه فيه : « ولا رَفعت لكم أيد سياطاً » ليستقيم إعراب البيت .

وفى ص ١٩٧ :

فلا معصم فيه سوارٌ معطَّنٌ
ولا مفرق يعلوه تاجٌ مرصّع

وفسّر تفسيراً عجيباً بأن « المعَطَّن » هنا معناه المبوس . وأصل العطن مبرك الإبل ومربض الغنم . وهو تخريج ساذج ، والصواب فيه إن شاء الله « سوارٌ معطّفٌ » . وعطف السوار والسوار المعطّف من الألفاظ الكثيرة التداول فى الشعر العربى يصفون به انحناء النهر وتقوس الذنب ونحو ذلك .

وفى ص ٢١٦ :

فى غُلمة نبذوا الفرار وهاجروا
فى مطمع العليـــاء كل تودُّع

ضبطت « غُلمة » بالضم . وفسرت بأنها شهوة الضراب والقتال ! وأين هذا الضراب من ذاك الضراب ! وإنما هى « فى غِلمة » جمع غلام ، كما يقال « فى فِتية » . فهذا خطأ فى الضبط وفى التفسير . وضبطت أيضاً كلمة « تودّع » بأنها « وداع البعض للبعض الآخر » ، والصواب معناه أنهم تركوا الدَّعة والرفاهية ، لانغماسهم فى الحروب وخوضهم للغمار . فالتودع هنا من الدعة لا من الوداع .

٤ ــ فى الجزء الثالث :

فى ص ٣٦ :

من اللاتى يُسغِبن النِّطاقَ هضامةً

ويمشين بالبطحاء خِرشاً جحولها

وفى هذا البيت أخطاء : أولها : « من اللاتى » صوابه « من اللاء » وذلك ليستقيم الوزن . و « خِرشاً » صوابه « خُرساً » جمع أخرس وخرساء . و « جحولها » صوابه « حجولها » جمع حجل بالكسر . وهو الخلخال . وخرس الحجل كناية عن ضيقه لضخامة الرِّجل . وهو كناية عن البدانة . ومثله قول الآخر :

* براقة الجِيد صموت الخَلخَل *

أى الخلخال . ومن العجب أن الكلمة كانت فى الأصل « خرساً » ورجح المحقق أنها مصحفة عن خِرشاً التى أثبتها مكان الصواب وقال فى تفسيرها : « خرشاً جوفاء من الخرشاء بكسر الخاء وهو كل شىء أجوف فيه انتفاخ » ! !

وفى ص ١٦٩ :

« وخير تلادِىَّ الذى لا أُجُمُّه » صوابه « تلادَىّ » لأنه من المثنى المضاف إلى ياء المتكلم كما تقول أبوَىّ وأخوَىّ . والصواب أيضاً « لا أجِمُّه » من أجَمّ المال : جمعه وكثّره .

وفى ص ١٩١ :

يهتز فوقهم . وقد طرحوا . ثُغام أو بَشَامُ

صوابه « ثَغَام » والثغام . كسحاب : نبت . ومثله البشام .

وفى ص ٢٧٣ :

ولم تلك إلا مثل قبسة قابسٍ

ونغبة كُدْرٍ ما ارتوت من أوامها

وقد فسر الكدر بأنه الذى فى لونه كدرة . وهو تفسير غير مباشر ، وإنما يقول الشعراء « الكُدر » يعنون بها القطا . وحسو القطا مثل للقلة .

وفى ص ٢٧٥ :

فى فتيـــــة جابوا الدجى إلى الضحى جـوبَ الأدُم

وجاء فى الحواشى : « والأدم من الإبل التى شربت جلودها بسمرة » . وليس الأمر كذلك وإنما هى الأدم بالتحريك ، أو الأدم بضمتين ، جمع أديم وهو الجلد . يعنى أنهم يشقون أديم الليل حتى يتكشف لهم عن الضحى مشرقاً ، كما يشق جلد الدابة فيتكشف عما تحته من حمرة اللحم والدم . وهذا معنى لهم يتداولونه . وهو بالغ غاية الروعة فيما قال المفسرون فى قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » كأن الليل دابة يشق جلدها ويسلخ عنها فتبدو حمرة الشفق بعد ذلك كما يبدو ما تحت الجلد من حمرة قانية .

وفى ص ٣٣٠ :

قل للذى رقَّت أموالَه يدُه

يُغْنى مُوَيللك مُغنِى مال قارونِ

صوابه « يـفْنى مُوَيلَلَك » أى مالك القليل .

وفى ص ٣٦٠ :

أرِنى العجـــــائب يا أباها فكبَخْصِ عينى أن أراها

فسر البخص بأنه لحم نائى تحت الجفن . وهو تفسير غير موفق . وإنما

البخص هنا مصدر ، يقال بخص عينه يبخصها بخصاً ، إذا قلعها مع شحمتها : يقول : رؤيتها والعمى سيّان . فهذا هو وجه التفسير .

وفى ص ٣٧٥ قصيدة أولها :

يا حامل الكأس ناولِنى مُشَعْشعَةً
لم تَـقْرِ همّاً ولا بخلا بواديها

وإثبات هذه القصيدة فى قافية الياء خطأ محض ، وإنما موضعها قافية الهاء . والذى قرره علماء القافية أنه إذا سكن ما قبل الهاء أصلية كانت أو زائدة أو مضاعفة لم تكن إلا روياً (1) . فالأصلية كوجْه وشبْه ، والزائدة نحو :سجاياها ، وفيه ، وعليه ، ولديه ، والفتاة ، والحياة . والمضاعفة نحو : مياهها وجباهها . فهذا كله رويّه الهاء .

وفى ص ٣٧٨ تكرر هذا الخطأ بإثبات نحو هذه القصيدة فى قافية الياء ، وهى الأبيات التى أولها :

يا خليلى أراك من شغف الحـ ـب خليا وأنت تلحى عليه

فهذه فى قافية الهاء لا قافية الياء .

هذه تصحيحات ظهرت لى إثر قراءة سريعة عابرة ، أحببت أن أسهم بها فى تقويم ديوان الشريف المرتضى . وفى الديوان كثير أمثال هذه . ومن زعم الكمال لنفسه فقد ظلم نفسه . وجلّ من لا يسهو ومن له العصمة وحده .

ومع هذا إن القارئ لهذا الديوان يرى نفسه إزاء عمل ضخم ومجهود نبيل ، يستوجب صاحبه الحمد والثناء ، ويستأهل الإجلال والتقدير ، ، ،

---

(1) انظر حاشية الدمنهورى على الكافى ص ٨٩ .

دراسة نقدية حول تحقيق كتاب التمثيل والمحاضرة

تحقيق الاستاذ الدكتور عبد الفتاح الحلو

بقلم : عبد السلام محمد هارون

أما أبو منصور الثعالبي : فهو : عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ، الأديب المعروف بوفارة الإنتاج وخصب التأليف ، وعظم قدر مؤلفاته التي جاوزت الثمانين ، وطبع منها : « كتاب الإعجاز والايجاز » سنة ١٨٩٧م ، و « والأمثال والتشبيهات » سنة ١٣٢٧هـ ، و « ثمار القلوب » سنة ١٣٢٦هـ ، و « خاص الخاص » سنة ١٩٠٨م ، و « سحر البلاغة وسر البراعة » سنة ١٣٠١هـ . و « رسالة فيما جرى بين المتنبي وسيف الدولة » في ليبسك سنة ١٨٤٧م ، و « سر الأدب في مجارى كلام العرب » في إيران سنة ١٢٩٤هـ و « الفرائد والقلائد » في دمشق سنة ١٣٠١هـ ومصر سنة ١٣٠١هـ . و « غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم » في باريس سنة ١٩٠٠م ، و « فقه اللغة وسر العربية » ، وقد طبع في باريس ومصر وبيروت ، و « الكناية والتعريض » في مصر سنة ١٣٢٦هـ ، و « لطائف المعارف » في مصر سنة ١٩٦٠م ، و « اللطائف والظرائف » في بولاق سنة ١٢٩٦هـ ، و « المبهج » في مصر سنة ١٣٢٢هـ ، و « مرآة المروءات » في دمشق سنة ١٨٩٨م ، و « مكارم الأخلاق » في بيروت سنة ١٩٠٠م ، و « من غاب عنه المطرب » في بيروت سنة ١٩٠٠ ، و « المنتحل » في الإسكندرية سنة ١٣٢١هـ ، و « نثر النظم وحل العقد » في دمشق سنة ١٣٠٠هـ ومصر

(*) نشرت في مجلة المجلة عدد يونية سنة ١٩٦٢م .

١٣١٧هـ ، و « يتيمة الدهر » وهو أشهر كتبه . وقد طبع في دمشق سنة ١٣٠٣هـ ، ثم في القاهرة عدة طبعات . و « يواقيت المواقيت » في بولاق سنة ١٢٩٦هـ .

وقد أحسن محقق الكتاب صنعاً بسرد أسماء كتبه المخطوط منها والمطبوع ، والذى لم يبق منها إلا اسمها التاريخي ، مبيناً المراجع التي سجلتها والمطابع التي أخرجت بعضها ، وإن كان قد فاته بعض ما ذكرت فيما سبق .

وكان الثعالبي من بيت اشتغل أهله بحرفة خياطة جلود الثعالب ، فنسبوا إلى تلك الصناعة . وعمل في أول دهره معلماً للصبيان ، فأكسبته تلك الحرفة صبراً وأناة ، كما دلتنا على ما كانت عليه حاله في بدء الأمر من رقة وعسر .

ولكنه استطاع بذكائه وطموحه أن يستظل بظل ولاة عصره وملوكهم ، فضمه بلاط الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير أمير الجبل وخراسان ، وألف له كتابه « المبهج » .

واتصل بكهف الأدباء في عصره — كما يقولون — الصاحب ابن عباد ، وله ألف كتابه « لطائف المعارف » ، كما مد بسبب إلى الأمير خوارزم شاه ، وصنف له كتابه « الملوكى » ، وبسبب آخرَ إلى وزيره أبي عبد الله الحمدونيّ وصنف له كتابه « تحفة الوزراء » .

وعقد صلته بالبيت الميكالى ، فكان صديقاً للأمير أبي الفضل الميكالى ، الذى أتاح له أن يقتحم دار كتبه ، وأن ينتفع بكل ما فيها ليتمكن من تأليف كتابه المشهور « فقه اللغة » . فاستطاع بفضله وحذقه أن ينتفع بهؤلاء القوم في تشييد ذلك الصرح العلمى ، وأن يفتح لنفسه وللعلم دنيا عريضة فسيحة الجنبات .

وشهد له بالفضل من معاصريه أبو اسحاق إبراهيم بن على الحصرى

صاحب « زهر الآداب » و « جمع الجواهر » . وانتفع بآثاره ومؤلفاته . وكذلك تلميذه أبو الحسن الباخرزى صاحب « دمية القصر » ، كما شهد له بعد ذلك أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى « ٥٥٧ » ؛ وأحمد بن محمد بن خلكان « ٦٨١ » وأبو الفداء « ٧٣٢ » . وابن شاكر الكتبى « ٧٦٤ » . وابن كثير « ٧٧٤ » . وابن العماد الحنبلى « ١٠٨٩ » .

أما كتابه « التمثيل والمحاضرة » فهو رائعة من روائعه . قدمه إلى الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير . بعد أن كان قدم له من قبله كتابه « المبهج » . فلقى المبهج من الرواج والاستنساخ ما طار به فى الآفاق . يقول الثعالبى فى مقدمة التمثيل :

« وما زال العبد يريد أن يشفع ذلك الكتاب — يعنى المبهج — بما يخفظ معه عادة الخدمة ، ويقضى به حق ولى النعمة . . إلى أن استظهر بشعار الدولة — أنماها الله تعالى — على عمل ما يتشرف بالاسم العالى ، من كتاب فى التمثيل والمحاضرة . إسلامى جاهلى ، وعربى عجمى . وملوكى سوقى . وخاصى عامى ، يشتمل على أمثال الجميع . ويضم نشر ما يجرى مجراها من ألفاظهم ، ويتضمن ما يأخذ مأخذها من فرائد النثر وقلائد النظم ، وفوائد الجد ونوادر الهزل » .

ولا يعرف قدر هذا الكتاب إلا من اطلع فيه . وعرف مقدار الجهد الذى أنفقه الثعالبى فى جمعه وتصنيفه . فقد جمع « عيون الأمثال من القرآن والتوراة والإنجيل والزبور . وجوامع كلم الرسول والصحابة والتابعين . وعيون أمثال العرب والعجم . ونتف الخلفاء . وفقر الملوك والوزراء . ونكت الزهاد والحكماء . ولمع المحدثين والفقهاء . وحكم الفلاسفة والأطباء . وغرر البلغاء والشعراء . وملح المجان والظرفاء . وطرف السؤال والغوغاء . وما تختص به كل طبقة من هؤلاء . وما تنفرد به كل فرقة من الدهاقين

والتجار . وسائر أهل الصناعات المتباينة الأقدار . وما يُتمثَّل به من الشمس والقمر والنجوم والآثار العُلوية . والدهر والدنيا . وضروب الجمادات وأنواع الحيوانات . وصنوف الأدوات والآلات » .

فالكتاب ضخم المادة ، غزير الفائدة . لا يكاد يستغنى عنه أديب . والفرصة التى أتاحها الأستاذ المحقق « عبد الفتاح محمد الحلو » لقراء العربية ، بإخراجه هذا الكتاب فى هذا الثوب السابغ . تستوجب شكره والثناء عليه ؛ بعد أن تنتزع الإعجاب الصادق بالجهد الذى بذله فى تحقيق الكتاب على مخطوطاته الثلاثة ومقابلة نصوصها . وتخريج تلك النصوص تخريجاً معقولاً على مراجع أصيلة كثيرة . وترجمة ما يحتاج إلى ترجمة من الأعلام الكثيرة الواقعة فيه ، ترجمة موجزة مشفوعة ببيان مصادرها . ثم القيام بعمل الفهارس الفنية التى تكشف الزوايا المتعددة لهذا الكتاب الضخم الذى بلغت صفحاته ٦٠٠ صفحة .

وحينما تفضلت « المجلة » بأن طلبت منى كتابة نقدية لبعض ما يظهر من كنوز التراث العربى أحجمت بادئ الأمر واعتذرت إليها . لأننى لا أجد من الوقت ما يسمح لى بهذا العمل الجليل . لأن وقتى مبذول فى عمل آخر مثله . وهو معاناة الكشف عن كثير من هذا التراث .

ولكن « المجلة » عاودت الكرَّة علىّ . فكتبت « اليوم » هذا التقديم والنقد لأحيي به زميلاً جديداً فى فن نشر التراث ، أعتقد أن هذا العمل الذى بدأ به هو باكورة طيبة تبشر حقاً بمستقبل مرموق .

وأستميح الأخ الأستاذ « عبد الفتاح الحلو » لأعرض عليه هذه التصويبات السريعة التى نتجت عن قراءة سريعة لم تتجاوز ليلة واحدة .

١ — ص ٩ س ٨ ورد هذا الشطر :

• قد يصلح الله أمام السارى •

وأشير فى الحاشية إلى أنه فى نسخة « قد يصبح » . وهذه الأخيرة هى الرواية الصحيحة . وهو من رجز مشهور أوله :

لن يُسبَق الله عــلى حمارِ ولا على ذى مَيعة مُطّارِ

أو يأتىَ الحَيْنُ على مقدارِ

الحيوان ٣ : ٤٦١ . والبيان ٣ : ٢٧٨ . وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ١٢٥ . وزهر الآداب ٩٩٥ . ومحاضرات الراغب ٢ : ٢٢٥ .

٢ — ص ٤٢ س ٢ « لقيه بدهن أبى أيوب . وهو المرزبانى » وكذا ورد « المرزبانى » فى فهرس الكتاب ٥٦٨ . وصوابه « الموريانى » نسبة إلى قرية « موريان » من نواحى خوزستان . قال ياقوت : « إليها ينسب أبو أيوب الموريانى وزير المنصور . واسمه سليمان بن أبى سليمان بن أبى مجالد . وقتله المنصور » . وقد أجمعت على هذه النسبة كتب التاريخ .

٣ — ص ٥١ س ٧ ورد بيت الأفوه الأودى :

وصروف الدهر فى إطباقها خلقة فيها ارتفاع وانحدار

وأشير فى التخريج بهامش الصفحة إلى نهاية الأرب ٣ : ٦٢ . صوابها ٣ : ٦٣ . وقد ورد فى نهاية الأرب « حلقة » وكلاهما خطأ . والصواب « خِلفة » بالفاء كما فى ملحق نسخة الشنقيطى من ديوان الأفوه ص ٩ نقلاً عن الحماسة البصرية . والمراد بالخلفة ما يَخلف غيره . وبه فسر قوله تعالى : ﴿ جعَلَ اللّيلَ والنّهارَ خِلفةً ﴾ . أى هذا خلَفٌ من هذا . يذهب هذا ويجىء هذا . وكل شىء يجىء بعد شىء فهو خِلفة . انظر اللسان (خلف ٤٣٤) .

٤ ــ ص ٥٩ س ٣ ورد « المثقَّب العبدى » مضبوطاً بفتح القاف المشددة . وهذا خطأ يقع فيه كثير من الناس ، وصوابه « المثقِّب » بكسر القاف . وقالوا : إنما سمِّىَ بذلك لقوله :

ظهرن بكِلّةٍ وسدَلن أخرى وثقّبن الوَصاوص للعيونِ

انظر له الاشتقاق لابن دريد ٣٢٩ بتحقيق كاتبه وابن سلام ٢٢٩ والخزانة ٤ : ٤٢٩ والشعر والشعراء ٣٥٦

٥ ــ ص ٧٨ س ٢ ورد هذا البيت لصالح بن عبد القدوس :

فإذا ارعوَى عاد إلى جهله كذى الضَّنَى عاد إلى نكسه

صوابه « إذا ارعوى » كما فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٩٠ ، وتاريخ بغداد ٩ : ٣٠٣ ، ونهاية الأرب ٣ : ٨٢ لا ص ٧٩ كما ورد خطأ فى الحاشية .

٦ ــ ص ٨٢ س ١ ورد هذا الشطر بهذا الضبط :

* شغل الحلىَ أهله أن يعارا *

وصوابه ضبطه « شغل الحلىُ أهلَه » . قال الميدانى فى مجمع الأمثال : « أهل الحلى . احتاجوا أن يعلقوه على أنفسهم ، لذلك لا يُعيرونه » .

٧ ــ ص ٩٢ س ٥ :

ولا ذنب للعود الذمارى إنما يحرق من دلت عليه لوائحه

مبدلاً عما فى الأصل . وهو « للعود القِمارى . . إن دلَّت » . وما فى الأصل هو الصواب . أى « القمارى » نسبة إلى « قمار » بفتح القاف ويروى بكسرها . قال ياقوت : « موضع بالهند ينسب إليه العود » . وفى القاموس مادة « قمر » : « وكقطام : موضع منه العود القمارى » . وقد جاء البيت على الصواب فى ٢٨٧ .

٨ — ص ٩٨ س ٧ ورد هذا البيت للبحتري :

والأرض لولا العداةُ واحدة والناس لولا الفعـــال أمثال

وورد في ص ٢٥٢ س ١٥ « لولا العِداةُ » . وصوابهما « العَذاء » كما في ديوان البحتري ٢ : ٩٢ ؛ يقال عذِيت الأرض تعذَى عذَاء : طابت تربتها وكرمت . ويقال أرض عذية وعذاة ، أي طيبة التربة كريمة المنبت ليست بسبخة .

٩ — ص ١٣٧ س ١٠ « بهرام كور » . صواب كتابته بالعربية « بهرام جور » كما في نسخة ب . وهو بهرام جور بن يزدجرد ، الملك الرابع عشر من الملوك الساسانية ؛ قال المسعودي في التنبيه والإشراف ص ٨٨ : « وهو الذي نشأ عند ملوك الحيرة ، وبُنِيَ له الخورنق . وكان فصيحاً بالعربية ، وله بها شعر صالح » . وانظر الحيوان ١ : ١٤٠ ؛ وكتابته بالجاف الفارسية غير مألوف في كتابة علماء العرب .

١٠ — ص ١٥٨ س ٢ « الكلام الحسن من مصائد القلوب » . الهمز في مصائد ليس بصحيح ، إذ لم يسمع الهمز في جمع مفعلة إلا في كلمتين : هما « معائش » وقد قرأ بها نافع من السبعة ، والكلمة الثانية « مصائب » . انظر اللسان « عيش » . وجاء في اللسان (صيد) : « وجمعها مصايد بلا همز ، مثل معايش جمع معيشة » .

١١ — ص ١٨٤ س ١٥ ورد قول جرير : « أنا لا أبتدي ولكن أقتدي » . وفي نسختين من الأصول : « ولكن أعتدي » . وهذا الأخير هو الصواب كما في الحيوان ٣ : ٩٩ ، ٤٧٠ ، والبيان ٣ : ١٦٥ . يقول : إنه لا يبتدئ بالهجاء ، ولكنه إذا رد على هاجيه هجاءه اعتدى عليه إرهاباً له . وربما نظر في ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ فاعتَدُوا عَلَيهِ بمثلِ ما اعتَدَى عَلَيْكُم ﴾ .

وكذا ورد فى العقد الفريد ٥ : ٢٩٦ برواية : « ولكنى معتد ». قال ابن عبدربه : « يريد أنه يسرف فى القصاص » .

١٢ — ص ٢١٤ س ١١ ورد قول العرب : « كل شىء مهة ومهاة ما خلا النساء وذكرهن » أى إن الحر يحتمل كل شىء حتى يأتى ذكر حرمه . ومعنى المهة اليسير » .

وصوابه « مَهَهٌ ومَهَاهٌ » بالهاء فى كل منهما كما فى اللسان « مه » . قال ابن منظور : « والهاء من مهه ومهاه أصلية ثابتة . كالهاء من مياه وشفاه » .

١٣ — ص ٢١٤ س ٧ ورد هذا النص : « أدبه الليل والنهار من لم يؤدبه والداه » .

وليس هكذا . إنما هو بيت مشهور فى حكمة سائرة معروفة :

من لم يؤدبه والداهُ   أدَّبه اللّيلُ والنهارُ

١٤ — ص ٢٥٣ س ١٢ ورد هذا النص فى صورة النثر « إذا قطعنا علماً بدا علم » . وإنما هو شطر من رجز معروف فى ديوان جرير ص ٥٢٠ . وأنشده المبرد فى الكامل ٣٠١ ، ٤٥٦ . ٥٤٦ . ٧٣٨ من طبعة ليبسك ، وقبله :

أقبلن من ثهلان أو وادى خِيَمْ

على قِلاصٍ مثلِ خِيطان السَّلَمْ

قد طُوِيتْ بطونُها طىَّ الأدَمْ

بعد انفضاخ البُدْنِ واللَّحمِ الزِّيَمْ

١٥ — ص ٢٥٤ س ١٢ ورد هذا النص على أنه شطر بيت :

* جد فقد تنفجر الصخرة بالماء الزلال *

وإنما هو بيت كامل من مجزو الرمل للعباس بن الأحنف . أنشده ابن الشجرى فى حماسته ص ٢٦٤ . وقبله :

يا شبيـــــه البـــــدر فى الحسـ ـــن وفى بُـعـدِ المنال

١٦ – ص ٢٥٥ س ٢ – ٣ ورد قول العرب : « إن ترد الماء بماء أكيس » . صوابه « أن ترد » بفتح همزة « أن » . ولا عبرة بضبطه فى أمثال الميدانى ١ : ٢٩ بكسر الهمزة . فإن إعرابه لا يستقيم .

١٧ – ص ٢٦٦ س ٦ ورد قول أبى نواس :

أيةُ نار قدح القـــادح وأىُّ جـد بلـغ المازح

صوابه « أيةَ نار » . و « أىَّ جد » . بالنصب فيهما .

١٨ – ص ٢٩٣ س ٣ « الرمح رشأ المنية » . والرشأ : الظبي . ولا وجه له . وصوابه « رِشاء » . والرِّشاء : الحبل الذى يتوصل به إلى الماء . وفى نحو هذا المعنى قول عنترة :

يدعون عنترَ والرماحُ كأنها أشطان بئرٍ فى لبان الأدهم

١٩ – ص ٣٠٤ س ٧ « صَفِرتُ لهم وطابى » . صوابه « صَفِرت » . وجاء فى اللسان فى تفسير قول امرئ القيس :

وأفلتهنَّ عِلبـــــاء جريضاً ولو أدركْنَهُ صَفِرَ الوطاب

وقيل : معناه أن الخيل لو أدركته قتل فصفرت وطابه التى كان يَقرى منها ، وِطاب لبنـِه . صَفِر الوطب من اللبن ، أى خلا .

٢٠ – ص ٣٠٦ س ٨ ورد هذا النص على أنه نثر . وهو « كل امرئٍ فى شأنه ساع » . وإنما هو شطر بيت لأبى قيس بن الأسلت الأنصارى ، من قصيدة فى المفضليات ٢٨٤ مطلعها :

قالت ولم تَقصِد لِقِيلِ الخَنَا مهلاً فقد أبلغتَ أسماعى

وصدره :

* أسعى على جُلِّ بنى مالك *

٢١ — ص ٣٢٠ س ٤ ضبط هذا النص بهذه الصورة : « لا تُكايلْ بالدم » . وصوابه « لا تَكَايُلَ بالدم » ، وهو جزء من بيت لبنت بهدل ابن قِرفة الطائى . من أبيات فى الحماسة ٢١١ — ٢١٣ بشرح المرزوقى . وتمامه :

فيقتل جبرا بامرئ لم يكن له بواء ولكن لا تكايلَ بالدم

أى سقطت المكايلة فى الدماء منذ جاء الإسلام . فلا يقتل بدل الواحد إلا واحد . شريفاً كان أو وضيعاً . وورد هذا البيت فى اللسان « كيل » محرفاً .

٢٢ — ص ٣٢٠ س ٨ — ١٠ « إلى حتفى مشى قدمى . العامة : أرى قدمى أراق دمى . فلان يغسل دماً بدم » على أنه نثر . وكلمة « العامة » يجب أن تؤخر بعد البيت . لتكون عنواناً لقولهم فيما بعد « فلان يغسل دماً بدم » . والبيت معروف فى أمثلة علماء البلاغة للجناس . وهو لأبى الفتح البستى فى معاهد التنصيص ٢ : ٧٥ . وينشدون بعده أخاً له :

فكم أنفقتُ من ندمِ وليس بنافعى ندمى

٢٣ — ص ٣٢١ س ١٦ : « أتتك بخائن رجلاه » . صوابه « بحائن » بالحاء المهملة . والحائن الهالك .

٢٤ — ص ٣٣٦ س ١ « لكل أناس فى بعيرهم خبر » صوابه « خُبر » والخبر . بالضم : المعرفة والعلم . وهو مثل يضرب فى معرفة كل قوم

بصاحبهم . انظر البيان للجاحظ ١ : ٢٣٨ و ٣ : ٣٠٠ . واللسان « جمل » ، وأمثال الميداني ٢ : ١١٤ — ١١٥

٢٥ — ص ٣٣٦ س ١٩ « صّدقني سنّ بكره » ، صوابه « صَدَقَني » بتخفيف الدال . يقال صدقت القوم ، أي قلت لهم صدقاً . ويروى : « سنّ » بالنصب وبالرفع أيضاً . وانظر أصل المثل في أول باب الصاد من أمثال الميداني ، وكذا في اللسان « صدق » .

٢٦ — ص ٣٣٧ س ٣ « كانت عليه كراعية البكر » بالعين المهملة . صوابه « كانت عليهم كراغية البكر » كما في ثمار القلوب للثعالبي نفسه ص ٢٨٢ وأمثال الميداني ٢ : ٧٨ .

ويقال أيضاً « كراغية السقب » يعنون رغاء بَكر ثمود حين عقر الناقة قُدار بن سالف . والراغية هنا بمعنى الرغاء . يضرب في التشاؤم بالشيء .

٢٧ — ص ٣٤٣ س ١٣ « هما كحمارَى العبّادى » ، صوابه « العِبادى » بكسر العين وتخفيف الباء ، نسبة إلى العباد ، وهم قوم من أفناء العرب نزلوا الحيرة ، وكانوا نصارى . منهم عدى بن زَيد العباديّ . قالوا : كان للعِباديّ حماران فقيل له : أيُّ حماريْك شر ؟ قال : هذا ثم هذا ! ! انظر ثمار القلوب للثعالبي ٢٩٢ والميداني ٢ : ٩٧ ؛

٢٨ — ص ٣٥٥ س ٧ « أحبُّ أهل العلم إلى كلبهم الظاعن » وكلمة « العلم » هنا مقحمة . وصوابه « أحب أهلي » كما في الحيوان ١ : ٢٥٩ ؛ وفي عيون الأخبار ٢ : ٨١ « الكلب أحب أهله إليه الظاعن » . وفي أمثال الميداني ١ : ١٨٣ « أحب أهل الكلب إليه الظاعن » . قال : وذلك أنه إذا سافر ربما عطبت راحلته فصارت طعاماً للكلب ، يضرب للقليل الحفاظ كالكلب يخرج مع كل ظاعن .

٢٩ – ص ٣٥٧ س ١ « روّعى جعارُ وانظرى أين المفر » وورد فى اللسان « جعر » : « روعى جعار » ، وكلاهما محرف ، صوابه : « رُوغِى جَعارِ » كما فى اللسان « روغ » وأمثال الميدانى ١ : ٢٦٤؛ وجعار كقطام : اسم للضبع .

٣٠ – ص ٣٧٠ س ٩ « ليس قطا مثل قطا ، ولا المرعى فى الأقوام كالراعى » وإنما هو بيت من الشعر لأبى قيس بن الأسلت الأنصارى فى المفضليات ٢٨٥ وأمثال الميدانى ٢ : ١١٦ واللسان « قطا » . وصواب إنشاده :

ليس قطاً مثل قُطَىٍّ ولا الـ ـمَرعِىُّ فى الأقوام كالراعى

هذه عجالة لبعض ما عن لى من صواب بعض الأخطاء أقدمها مشاركة فى تصحيح هذا الكتاب .

وقد فات الأستاذ المحقق – ولعل له عذراً فى تحرج بعض الناشرين من إلحاق بيان للأخطاء المطبعية الواقعة فى الكتاب ، وهو تحرج لا يقره العلم ولا دقة الأداء – أقول : فاته أن ينبه على الأخطاء المطبعية الواقعة فى الكتاب . وليس هذا من المغتفر فى كتاب كهذا الكتاب مفعم بالنصوص والضبط .

وأما فهارس الكتاب فهى وافية حقاً ، ولكن بعضها عولج معالجة غير منظمة . وهو فهرس القوافى . ومن رجع إلى طريقتى الأخيرة فى إخراج فهرس القوافى أمكنه أن يدرك منهجها التنظيمى الميسر ، الذى أشرت إليه فى كتاب « تحقيق النصوص » ص ٧٧ .

وأما فهرس « أنصاف الأبيات » فقد اختلطت فيه أنصاف الأبيات بأشطار الرجز . وأصبح الباحث حائراً بين الفهرسين ، وكان من الميسور

عزل هذه عن تلك . كما أن من المألوف أن ما عرفت قافيته ألحق بفهرس القوافى ومزج به ، فيصبح مدار تلك الفهارس منحصراً بين فهرس قوافى الشعر وفهرس قوافى الرجز ، وفهرس الصدور التى لم تعرف أعجازها ، وهو ما نظن الأستاذ المحقق فاعله إن شاء الله فى الطبعة المقبلة .

كما أن فهرس الموضوعات كان من المستحسن أن يرتب ترتيباً هجائياً مفصلا ، وهو أمر ليس بالعسير أيضاً .

إنى لأمد يدى مصافحاً للزميل الأستاذ « عبد الفتاح الحلو » الذى لم يسعدنى الحظ بلقياه حتى اليوم ، مهنئاً له بعمله هذا العظيم ، راجياً له دوام التوفيق فيما هو بسبيله من جهاد صادق ، وكفاح نبيل .

حول ديوان البحترى

بقلم : عبد السلام محمد هارون

تقـديم :

عندما ظهر « ديوان البحترى » فى أحدث طبعاته بتحقيق الأخ الأستاذ حسن كامل الصيرفى ، أعجبنى ذلك ، ودفعنى إلى أن أقرأه فى عناية وحرص ، وأحببت كذلك أن أنال شرف المشاركة فى خدمة هذا الديوان الذى لم يحظ من قبل بمثل هذه العناية الفائقة التى اضطلع بها الأستاذ الصيرفى .

فكتبت فى ذلك طائفة من المقالات فى مجلّة « المجلة » التى يشرف عليها صديقى الأستاذ الكبير : يحيى حقى .

وقد أفسح لى الأستاذ حقى مجالاً واسعاً لأقدم بعض نماذج من التصحيحات والتحقيقات . فظهرت فى خمس مقالات صدرت فى خمسة أعداد متتالية من نوفمبر سنة ١٩٦٣ إلى مارس سنة ١٩٦٤ . وكان فى النية حينئذ أن يتصل القول . لكن عوائق وشواغل جمة منعتنى من استكمال ما كنت بسبيله .

وقد أعجبت بالروح العلمية التى بدت من الأخ الأستاذ الصيرفى عندما ظهر المقال الأول . وسجلت ذلك فى صدر المقال الثانى .

والذى فاتنى تسجيله هو مبادرة الأخ الصيرفى عند انتهاء المقالات الخمس إلى مخاطبتى مكرراً إعلانه للرضا عما كتبت ، والاغتباط بما قدمت لأنه يعلم تمام العلم أنى لم أرد بما كتبت إلا الخير ، ويعلم أيضاً أنى شريك له فى خدمة هذا التراث . وأن كل الناس يخطئ ويصيب . والعصمة لله وحده .

وقد طلب إلى كثير من الأدباء . أن أنشر هذه المقالات فى رسالة خاصة تيسيراً للانتفاع بها والرجوع إليها . فأجبت ملتمسهم بجمعها فى هذه الرسالة ، وأضفت إليها مقالاً سادساً . ذكرت فيه ما عنّ لى بعد ذلك من استدراكات وتصحيحات لم تنشر من قبل ، وهذا كله فى نطاق الجزء الأول من الديوان .

ومن الله التوفيق ؟

مصر الجديدة { فى ٢٩ من المحرم سنة ١٣٨٤
١٠ من يونية سنة ١٩٦٤

— ١ —(*)

لعلّ أقدرَ الناس على فهم الشعراء هم الشعراء أنفسهم ، لأنهم يجرون معهم فى مضمار واحد ، ويسبحون فى محيط تتحد مياهه وإن اختلفت أغواره .

وكان مما صنع الله للبحترى أن يتولى أمر شعره رجلٌ شاعر بالفطرة وبالصناعة ، وهو الأخ الفاضل حسن كامل الصيرفى . وقد قرأت له من شعره قديماً وتلوت له حديثاً ، فما شئتَ من ديباجة صافية الأديم ، وقول يسلُس فى الإنشاد ، ويسرى كالماء سهولة ويسراً .

وعلمت قديماً أنه معنىّ بشعر البحترى ، يرصد له المخطوطات ، ويعالج من أجله الأسفار والمجلدات ليجلوَ من شعره ، ويكشف من إشاراته التاريخية والأدبية ، ويبذل من الجهد ما عبّر عنه بقوله :

« وقطعت من عمرى سنوات حرمت نفسى خلالها من الراحة ، يصحبنى

(*) مجلة « المجلة » عدد نوفمبر سنة ١٩٦٤م . ص ٩٨ — ١٠٧ .

حين أصطاف ، ويلازمنى حين أشتو ، ويقضّ على ليلاتٍ غموضٌ فى بعض شعره أريد أن أزيح خفاءه أو بعض خفائه ، ويشغلُ فكرى أياماً تحريفٌ فيه ، فأغدو وأروح مقلباً الرأى على كل وجه ، لأقيم عوجه وأرده إلى استوائه » .

وقد رجع الأستاذ الصيرفى فى تحقيق نسخته إلى ثمانية عشر مخطوطاً ومطبوعاً من نسخ الديوان ، منها ثلاث نسخ مطبوعة ، إحداها بالجوائب سنة ١٨٧٢ والثانية فى بيروت سنة ١٩١١ بشرح الشيخ رشيد عطية ، والثالثة فى القاهرة بمطبعة هندية سنة ١٩١١ بتصحيح الشيخ عبد الرحمن البرقوقى . وقد ذكر أوصاف المخطوطات الخمسة عشر فى مقدمة الديوان.

وهذا عمل مرهق مضن . وإذا عرف القارئ أن تلك النسخ تختلف اختلافاً بيناً فى ترتيب القصائد وعددها ، وعدد أبياتها ، واختلاف رواياتها ، وهو الأمر الذى يحتاج إلى جهد مضن ويقظة ناصبة ، علم مقدار العنت الذى لاقاه ، والصعوبة التى ذللها بصبره وجلده .

وقد قام الأستاذ الصيرفى بترجمة أعلام الديوان ، وبيان إشاراته التاريخية ، وتعيين تاريخ كل قصيدة ومقطوعة بما يستحق معه كامل الإعجاب وعظيم التقدير .

وحينما ظهر هذا الجزءُ الأول من الديوان بتحقيق الأخ الصيرفى بادرت إلى اقتنائه وقراءته ، فقد كنت دهراً من المولعين بشعر البحترى وإدمان قراءته . فكانت تلك الجلوة التى ظهر فيها حافزاً لى على معاودة قراءته ودراسة شعره فى ظل هذا التحقيق العلمى . هذا التحقيق الذى حالفه الصبر والدأب والأمانة ، ومحاولة الوصول إلى الكمال .

وأشهد لقد وفق الأخ الصيرفى أيما توفيق . وأشهد لقد بذل أقصى وسعه ولم يضن بشىء منه .

وقد لمحت فى أثناء قراءتى بعض المآخذ التى لا يكاد يسلم منها محقق، فأحببت أن أضيف إلى تحقيقه جانباً من جهدى المتواضع . لأشاركه شرف الإسهام فى خدمة شعر البحترى .

وأعلم تمام العلم أن صدره أرحب من أن يضيق بإسداء بعض إشارات وتنبيهات من أخ مخلص لأخيه . عسى أن يكون فيها استدراك لما مضى، ونفع لما يستقبل من بقية أجزاء الديوان إن شاء الله .

بعض المآخذ فى المقدمة

ص ٢٢ س ٩ وكذا ص ٢٣ س ١ وردت كلمة « البحاثى » . بفتح الحاء وإهمال تشديدها ، والصواب تشديد الحاء كما فى أنساب السمعانى الورقة ٦٦ قال : « هذه النسبة إلى البحّاث . وهو لقب لبعض أجداد المنتسب إليه ، وفيهم كثرة . منهم أبوجعفر محمد بن إسحاق بن على البحّاثى » وهو العلَم الذى تصدى له الأستاذ المحقق .

ص ٣١ س ٥ نجد أن المحقق يرجع جميع القصائد الغزلية للبحترى إلى مرحلة الصبا . وهى الحقبة التى جعل نهايتها سنة ٢٢٠هـ . أى حين كان الشاعر فى السادسة عشرة من عمره . على أساس أن ميلاده كان فى عام ٢٠٤هـ ونجده فى أثناء الديوان يطبق هذه القاعدة على كل قصيدة غزلية فيجعل تاريخها سنة ٢٢٠هـ . وكأنّ البحترى لم ينطق لسانه بالغزل إلا فى هذه السنة السعيدة وهو أمر عجيب حقاً لم نسمع بمثله . فلم يحدثنا التاريخ أن شاعراً لم ينطق بشعر فى الغزل إلا فى سنة معينة من سنى صباه . بل سمعنا وشهدنا شعراء كثيرين استفاض غزلهم وتشبيبهم فى جميع سنى حياتهم . بل فى عصر الشيخوخة والفناء . وقد تغزل شوقى وتغزل الجارم وهما فى سن عالية، وفى عمر متقدم .

ص ٥٢ س ٧ يذكر الأستاذ أنه جمع بين طريقة المستشرقين فى مراجعة النصوص وإثبات اختلاف الروايات ، وطريقة العرب الأقدمين فى الشرح والتعليق .

ولم يقل أحد إن مراجعة نصوص المخطوطات ، وإثبات اختلاف الروايات طريقة ابتدعها المستشرقون ، وإنما هى عربية صميمة ولدت مع التأليف العربى ، ولازمته إلى عصوره المتأخرة . ولعله أراد طريقة المستشرقين فى نشر النصوص عن طريق المطبعة ، فإن كان قد أراد ذلك ، ولا إخاله يعنى غيره ، فإنه كان من الأجدر به أن ينص على ذلك ، لئلا يظن من به مرض أن للمستشرقين كل الفضل فى ذلك ، كما يبدو من عموم عبارته .

بعض المآخذ فى الديوان وشرحه

وهى ضروب ، منها ما هو فى متن الديوان ، ومنها ما هو فى تفسيره ، ومنها ما هو فى منهج الطباعة .

١ — ص ٥ البيت ٣ :

لا تأمرنّى بالعزاء وقد ترى   أثرَ الخليطِ ، ولات حين عزاء

ورد فى تفسيره أن الخليط هو « الشريك » . وهذا معنى من معانى الخليط ولكن ليس مراداً هنا . فليس المراد به الشريك فى ملك أو سكن ، أو شرب أو تجارة ، بل المراد بالخليط القوم الذين خالطهم وعاشرهم ، وفيهم من يهواه ويَصَبُّ به ، كما تفهمه لغة الشعر .

٢ — ص ١٩ البيت ٥٥ :

فإذا ما رياحُ جودك هبَّت ص   ار قولُ العذّال فيها هباء

ووجه كتابته أن ينتهى الشطر الأول من البيت بكلمة « هبَّت » وتكون « صار » كلها فى الشطر الثانى . والقصيدة من بحر الخفيف .

٣ — ص ٢٩ البيت ١٥ : « والجود أجمعُ ساعةً من وائه » كان ينبغى أن يفسر « الواء » لغرابته . والواء هو الوأى ، وهو الوعد . ومثله الراء بمعنى الرأى . وقد أولع البحترى بالقلب فى كثير من ألفاظ شعره .

٤ — ص ٣٠ البيت ٤ و ص ٨٤ البيت ١٤ وردت كلمة « سؤدَد » بفتح الدال الأولى . والوجه فى مهموز هذه الكلمة هو ضم الدال « سؤدُد » كما فى اللسان والقاموس . فإن أردتَ فتح الدال لم تهمز فقلت « سودَد » ، ولك فى هذه الثانية ضم الدال أيضاً « سودُد » . وأما المهموزة فيتعين ضم دالها .

٥ — ص ٣١ البيت ٩ :

بأبى أنت كم تُرامِى بأمرى خِلفةُ الدهر صبحُه ومَساوُه

والوجه « كم تَرَامَى » بفتح التاء والميم ، يعنى أن الدهر يختلف عليه بأحداثه ورزاياه ويترامى بأمره ، وهو لا يجد معيناً له على الدهر سوى ممدوحه . وما ورد فى الشرح من قوله « رامى الشىء : دافعه » لا وجه له فى هذا المجال .

٦ — ص ٣٢ البيت ٣ : « وطال ثواؤه فى دِمنتيها »، فسر الثواء بأنه « البقاء » .

وصواب التفسير أن يقال : الثواء : إطالة الإقامة .

ومنه قول الحارث بن حلزة :

« رب ثاوٍ يمل منه الثواء »

٧ — ص ٣٧ البيت ٣ : وردت كلمة « المدبر » عارية عن ضبط الباء بالتشديد والكسر ، كما وردت « سماوك » غير مهموزة ، وبذلك صار البيت ناقص الضبط مشوَّه الكتابة .

٨ ــ ص ٤١ البيت ١٥ ورد فى تفسيره أن مهلهل بن ربيعة زوّج إحدى بناته لمعاوية بن عمر .

وصوابه « بن عمرو » كما فى جمهرة الأنساب لابن حزم ص ٤١٣ من تحقيق كاتبه .

٩ ــ ص ٤٤ البيت ٥ جاء فى قوله « ما أنْ يكون لديك» ، وصوابها « ما إنْ » وهى إن الزائدة لتوكيد النفى .

١٠ ــ ص ٤٧ البيت ٢٥ : « هو البحر الذى حُدِّثْتُ عنه » . ما هكذا يقولها الشعراء ، ووجه ضبطها « حدِّثْتَ عنه » بتوجيه الخطاب إلى عموم المخاطبين كما ورد فى قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

وذا البُرَة الذى حُدِّثْتَ عنه به نُحمَى ونحمى الملجئينا

وضبط العرب لهذا التعبير بالخطاب . إشارة إلى أن أمر الممدوح معروف متعالم . يتحدث به الناس ويفضى به بعضهم إلى بعض ، فلا يكاد أحد من المخاطبين يَجْهله .

١١ ــ ص ٤٧ البيت ٢٧ :

أبا بكر بنيتَ بناءَ طُولٍ من الإحسان ليس من البناء

وصوابه « طَوْل » بفتح الطاء . وهو الفضل والقدرة ، والعلوّ على الأعداء .

وفى الحديث : « اللهم بك أحاول وبك أطاول»: مفاعلة من الطَّوْل بالفتح . وهو الفضل والعلو على الأعداء .

١٢ ــ ص ٤٧ البيت ٢٨ : « على رغم الحواسد والعَدَاء » . ضبطت « العَداء » بفتح العين ، ولا وجه له بهذا الضبط ، وإنما هو « العِدَاء » بكسر العين أو ضمها . فهو مما مدّه الشاعر .

١٣ — ص ٤٧ البيت ٣٥ : ورد كلمة « سُنُوك » بضم السين . وصوابها « سِنوك » بكسر السين ، جمع سنة بفتح السين ، لا يكون غير ذلك . وتغيرُ حركةِ السين من الفتح فى المفرد إلى الكسر فى الجمع مما جعل النحويين يعدونه ملحقا بجمع المذكر السالم .

١٤ — ص ٤٧ البيت ٣٦ :

وإنَّ وسيلتى وأجَلَّ مَنِّى إليك بحقٌ أصحاب الإساء

و « مَنِّى » تحريف ، صوابه « مَتِّى » بالتاء من قولهم : متَّ إليه بحق القرابة ، أى توسَّل إليه به . وفى القاموس فى تفسير المت أنه « التوَسُّل بقرابة » .

١٥ — ص ٤٨ البيت ٣٨ ، ٣٩ « الإعتلاءُ » و « الإبتداءُ » . لاتكتب الهمزة بالقطع ، وإنما تقطع فى النطق فقط عند الضرورة . والوجه أن يشار إلى ذلك بوضع الكسرة بدلَهَا . وقد تكرر هذا فى مواضع كثيرة من الديوان ، منها ص ٨٣ البيت ٤ و ص ٨٤ البيت ٨ و ص ٨٨ البيت ٥ ؛

١٦ — ٥٤ البيت ٥ :

وكنت وأروى والشبابُ علالةٌ

لِنَشوان من سكر الصبابة أو نشوى

وهو بيت مستقلُّ المعنى ، وصوابه « كنشوان » بالكاف . ونحوه قول البحترى نفسه فى القصيدة التالية لهذه القصيدة :

وكنت وكانت ، والشباب علالةٌ :

كنشوانَ من خمر الصَّبابة أو سكرى

١٧ — ص ٥٥ البيت ١٨ : « له سطواتٌ ما تُهرُ وما تعوَى » ،

وصواب ضبطه « ماتُهَرُّ وماتُعوَى » أى لا يجرؤ أحد على مقاومتها ، كما يفهم من إشارة عبث الوليد ص ٢٩ ، وإن كان صاحب اللسان قد ذكر فى مادة (نبح ص ٤٤٩) : « ويقال فى مثل : فلان لا يُعوَى ولا يُنبح ، يقول : من ضعفه لا يعتدُّ به ولا يكلَّم بخير ولا شر » . فكأنَّ هذه العبارة من عبارات الأضداد ، تقال للقويِّ المقتدر ، كما تقال للضعيف المستضعف .

١٨ — ص ٥٦ البيت ٢٢ :

نُمثلُ بين البَدْر سعْداً وبينَهُ

إذا ارتاح للإحسان أيُّهما أضوا

و « تمثل » لا وجه لها هنا ، وصوابها « نُمَيِّل » بالنون ، وبالياء بعد الميم كما ورد فى نسخة ا من الديوان وكما فى طبعة مصر ١ : ١١ و ٢ : ٣٢٦ (إذ وردت هذه القصيدة مكررة فى طبعة مصر) . يقال : ميل بين الأمرين تمييلا أى رجَّح بينهما ووازن . وفى اللسان (ميل) : « والتمييل بين الشيئين كالترجيح بينهما » . وتقول العرب : إنى لأميِّل وأمايل بينهما أيهما أفضل .

١٩ — ص ٥٦ أيضاً البيت ٢٥ :

سُقينا بِسَجليه وكان خليفةً

من الغَيث ، إن أسقَى بريِّقهِ «أرْوَى»

وجعلت « أروى » بين أقواس ، إشارة إلى أنها علم من الأعلام . وليس كذلك ، وإنما « أروى » هنا فعل ماض هو جواب الشرط قبله ، أى إن سَقيه سَقيٌ مشبع مرو . ولعل سبب هذا السهو أن « أروى » وردت فى مطلع هذه القصيدة ، وهو :

لنـــا أبدا بثٌّ نعانيه من « أروى »

و « حُزوى » وكم أدنتكَ من لوعة «حزوى »

٢٠ – ص ٥٧ البيت ٣٧ :

أسِفْتُ لغَضَّات من الحُسْنِ شارفَتْ
لِذُعر الفراق أن تَغَيَّر أو تَذْوَى

وصواب الضبط « أن تَغيَّرَ » أى أن تتغير ، بحذف إحدى التاءين .

٢١ – ص ٥٨ البيت ٢ :

فواد هو الحرَان مِن لاعِج الجوَى
إلى كبِدٍ جَمٌ تباريحهـــا حرَى

هكذا ورد ضبط البيت دون زيادة ولا نقصان ، وهو يشيع فيه النقص الذى يحمل على الشك فى القراءة . والوجه أن ترسم كلمة « فؤاد » بالهمز ، و « الحرَّان » و « حرَّى » بتشديد الراء .

٢٢ – فى ص ٥٨ البيت ٣ : « فلا دمعةُ تُرقَا ، ولا مقلة تكرى » . ووجه ضبطه « تَرقا » بفتح التاء لتتلاءم مع أختها « تَكرى » ، وإن كانت « تُرقا » بضم التاء صحيحة سليمة . ولكن للشعر لغة ينبغى رعايتها . يقال رقأ الدمع رقئا : جفَّ ، وأرقأه الله تعالى .

٢٣ – ص ٦٠ البيت ١١ :

فوارس صَرعَى من تؤامٍ وفارد
وأرسالُ خيل فى شكائمها عَفْرَى

وصوابها « عَقرى » بالقاف ، كما ورد فى النسخ : ح،ى ، ل . وهو جمع عقير . يقال عقر الفرسَ والبعير بالسيف عقراً : قطع قوائمه . وفرس عقير : معقور . وخيل عقرى . وأنشد فى اللسان (عقر ٢٦٩) ومعجم البلدان (سلَّى) :

بسِلّى وسِلّيرَى مصارع فتية
كرام وعقرى من كُميت ومن وردِ

٢٤ ــ ص ٦٠ أيضاً البيت ١٣ « تولّت خطوب الحرب مقبلة تترى » وفى هذا القول تناقض ، فإن التولى معناه الإدبار ، كما فى قول الله : « عبَس وتولى » . وكيف يجتمع التولى مع الإقبال ؟ ! إنما هى « توالت » أى تتابعت . توالت الخطوب تواليا : تتابعت .

٢٥ ــ وفى ص ٦١ البيت ٢ :

المؤثر العُليـــــــا على حظّه
والحظُّ كل الحظ فى العُليــا

ولغة الشعر ولغة البحترى هى « العَليا » تقال بالمد وبالقصر ، ومنه شعر العباس بن عبد المطلب :

حتّى احتوى بيتُك المهيمنُ من
خندفَ علْيــاءَ تحتها النُّطقُ

وقول البحترى نفسه فى الديوان ٤٤٤ :

يسمو بكفٌ على العافين حانية
تهمى وطرف إلى العَلْياء طماحِ

وقوله أيضاً فى الديوان ٥٣٣ :

وشيَّدها حتى استحقَّ تراثها ولا يرث العَلْياءَ من لا يشيدها

وقول البارودى أخيراً :

ومن تكن العَلياءُ همــةَ نفسه فكل الذى يلقاه فيها محبب

وفى اللسان (علا) : « والعَلياء : كل مكان مشرف » . وفيه أيضاً : « والعَليا اسم للمكان العالى ، وللفعلة العالية على المَثل » .

٢٦ — وفى ص ٦٣ البيت ٨ :

وكم لطخ الأحبّة من ثجير تبيت صُحاتهم عنه سكارى

وفى تفسيره : « الثجير مكان التراب المختلط بالسبخ » .

ولا أدرى من أين جاء هذا التفسير . والمعروف فى « الثجير » أنه ما بقى من عصارة العنب ، أو هو ثفل كل شيء يعصر .

٢٧ — وفى ص ٦٨ البيت ٤ : « جمعت خُلَّتين : حسناً وليناً » بضم الخاء فى « خلتين » . والخلة بالضم : الصداقة والمحبة ، وهى الصديق والحبيب أيضاً ؛ ومنه فى الكتاب العزيز « لا بَيعٌ فيه ولا خُلَّة ولا شفاعة » . وليس هذا مراداً ، وإنما هى « الخلة » بفتح الخاء بمعنى الخصلة تكون فى الرجل ، يقال : فيه خلة صالحة وخَلة سيئة ، والجمع خلال ، ومنه فلان كريم الخلال ، أى الخصال .

٢٨ — وفى ص ٧٣ البيت ١٤ :

وتركته « بالحبـــل » ثم طلبته

« بخليج بارق » حيث عزَّ المطلب

وليس هذا فى مألوف الكتابة ، والمألوف : بـ « الحبل » ، وبـ « خَليج بارق » ، بوضع الباء فى خارج الأقواس .

٢٩ — وفى ص ٧٤ البيت ٢٧ :

ولحربة « الإسلام » حين يهــزّها

هول يُراع له النِّفاق ويُرْهَبُ

وصواب ضبطه « ويَرْهب » بالبناء للمعلوم . كما أنه لا وجه لوضع كلمة « الإسلام » بين الأقواس .

٣٠ – وفى ص ٧٥ البيت ٣٧ :

ما إن ترى إلا توقُّد كوكب

فى « قَومِسٍ » قد غار فيه كوكبُ

وقال الشارح : « والأصول أجمعت كلها على أنها قونس بالنون ولكن الثابت فى معجم البلدان قومس بكسر الميم ، وهو كورة كبيرة واسعة فى ذيل جبل طبرستان ، اجتاز بها أبو تمام فى طريقه إلى نيسابور » .

وهذا كله تخيل يرمى إلى أن « قومس » اسم بلد . وهو غير صحيح . إنما هو « قَونَس » كما ورد فى جميع أصول الديوان . والقَونَس : أعلى بيضة الحديد التى يلبسها الفارس فوق رأسه . شبه لمعان السيوف واضطرابها وهويّها فوق قوانس الحديد بتوقد الكواكب وانطفائها. وهو نحو قول بشار:

كأنَّ مُثار النقع فوق رءوسنا

وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُه

هذا إلى أن ضبط « قومس » اسماً للبلد بفتح القاف خطأ أيضاً ، والصواب ضمها مع كسر الميم . كما أن كلمة « جبل طبرستان » غير سليمة أيضاً . وصوابها « جبال طبرستان » كما فى معجم البلدان الذى نقل الأستاذ المحقق منه النص .

٣١ – ص ٨٢ البيت ٣٣ :

* ينسيك جودُ الغيث جودُهم *

والوجه ضبط « جود » الأولى بالنصب .

٣٢ — ص ٨٦ البيت ٣٠ :

ثرة من أنامــل ظلن يجريـ ن على الخابطين جرْىَ الشعابِ

جاء فى تفسيره أن الخابط السائر فى الليل على غير هدى . وهو معنى صحيح ولكنه ليس مراداً ، بل المراد بالخابط هنا طالب المعروف . والخبط : طلب المعروف ، يقال خبطه يخبطه خبطاً ، واختبطه ، ومنه قول زهير فى ديوانه ٥٣ واللسان (خبط) :

وليس مانع ذى قربى ولا نسبِ
يوماً ولا خابطاً من ماله ورقا

كما يقال لمعطى المعروف خابط أيضاً وإن يكن غير مرادٍ هنا ، ومنه قول علقمة :

وفى كل حيٍّ قد خبطتَ بنعمةٍ
فحقٌّ لشأسٍ من ندَاك ذَنُوبُ

وجاء فى تفسير الشعاب أنها الطرق والمعاطف ، والطرق والمعاطف لا تجرى ، بل يقال فى تفسيره إن الشعاب جمع شعب . وهو مسيل الماء فى بطن الأرض ، كما ورد فى القاموس وغيره .

٣٣ — ص ٨٧ البيت ٣٦ :

مِن جعاد الأكف غير جعادٍ وغضاب الوجوه غير غضابِ

ورد فى تفسيره « جعد اليد . أى بخيل . غير جعاد ، أى غير منقبضين على المساوئ والمقابح » .

والناظر فى البيت يرى أن البحترى جمع بين نعتين خِلقيين ونعتين آخرين من نعوت الأخلاق . أما الخِلقيان فقد وضع « جعاد الأكف » إزاء

« غضاب الوجوه » وهذا يقتضي أن تفسر الجعاد بأنها القصيرة ، وقصرها يستدعي وصفها بالبخل ، كما أراد بغضاب الوجوه كراهة المنظر وبشاعة الخلقة .

وأما الوصفان الآخران فهما قوله « غير جعاد » ، وهو يعني بذلك غير الأسخياء الأجواد . فالمراد بالجعد في لفظه الثاني هو السخي الجواد . ومنه قول كثيِّر يمدح بعض الخلفاء :

إلى الأبيض الجعد ابن عاتكة الذي
له فضلُ ملكٍ في البرية غالبُ

ويقابله « غير غضاب » ، أي هم لا يقدرون على السطوة والغضب ، لضعفهم وتهافتهم .

وأحب أن أنبه هنا إلى أنّ كلمة « المساوئ » الواردة في الشرح مما يخطئ فيه كثير من الأدباء ، وصوابها « المساوى » بدون همز ؛ فإن العرب لم تهمز هذا الجمع ، كما في اللسان والقاموس والمعجم الوسيط (سوأ) . ومنه قول العرب : « الخيل تجرى على مساويها » يضرب للرجل يستمتع به وفيه من الخصال المكروه . وجاء في المعجم الوسيط ص ٤٦٢ : « المساوى المعايب والنقائص . لا تهمز ، قيل لا واحد لها ، وقيل واحدها سوء على غير قياس » .

٣٤ – وفي ص ٩٥ البيت ٣٤ وردت كلمة « العُليا » بضم العين ، وصوابها بفتح العين كما سبق في التنبيه بالرقم (٢٥) .

٣٥ – وفي ص ١٠٠ البيت ١٥ :

صريح الخيل والأبطالِ أغْنَى عن الهُجُنات والخِلْط المشوبِ

فسرت « الهجنات » بأنها القبيحات المعيبات . ووجه التفسير أن يقال

إن الهجنات جمع هجنة . بضم الهاء وسكون الجيم ، وهى اللؤم ودناءة الأصل . والهجين : اللئيم ، والعربى وُلد من أمَة . وقد هجن ، ككرم ، هجنة وهَجانة وهُجونة .

* * *

أخطاء مطبعية

هذا بعض ما ظهر لى من المآخذ فى المائة الصفحة الأولى من الجزء الأول من الديوان . وهذا الجزء فى ٦٣٨ صفحة غير المقدمة .

كما أن هناك بعض أخطاء مطبعية أشير إلى أهمها فيما يلى :

ص ١١ فى تفسير البيت ٤٨ « أى يسرها بالدرع » . صوابه « يسترها »

ص ٤٩ فى تفسير البيت ٤ « وعد بن الرعلاء » . صوابها « عدى »

ص ٦٥ البيت ٥ « بقاء نفسى » هى « بقائه نفسى » .

ص ٨٠ فى تفسير البيت ٢٠ « أدبن طانخة » . صوابه « طابخة » .

ص ٨٢ فى تفسير البيت ٢٢ « جندب » : « هز وجندب » . صوابه « هو جندب » .

ص ٨٦ البيت ٣٣ « اقتِيسَّام » ، هى « اقتسام » .

ص ٨٨ فى تفسير البيت ٧ « أنه ودد » . صوابها « أنه ردد » .

ص ٩٠ البيت ٣ « وحزم خَؤول » . صوابه «خُؤول» بضم الخاء

ص ٩٧ فى تفسير البيت ٣٤ « صدور البيوب » صوابها « صدور البيوت » .

ص ٩٧ فى تفسير البيت ٣٨ « احتبطت » . هى « احتطبت » .

ص ١٠٠ فى تفسير البيت ١٦ « جمعه قوارح » . هى « جمعه قوادح » .

— ٢ —(*)

كنت على إشفاق وحذر حينما تناولت القلم لأكتب مقالى السابق ؛ فإنى أعرف أن القيام على العلم يقتضى صاحبه أن يهذِّب من نفسه ويصقلها ، ما استطاع التهذيب وما استطاع الصقل . ومما عرفناه فيما قرأنا أن يكون القائم على العلم حريصاً أشد الحرص ألا يصل منه إلى غيره فى مجال العلم ، صديقاً كان أو غير صديق ، ما يؤذى نفسه أو يلمس شعوره ، فخشيت ألا أكون مستولياً على هذا الخلق ، وقالت لى النفس : إنه مهما يكن لك من ثقة بصديق فقد تجد الصديق فى بعض القول الصالح ما يتأوَّله على غير القصد الذى عنيتَ ، وقالت لى النفس : لا عليك أن تترك القول لغيرك ليتولى هو ما أردت أن تتولاه .

ويبدو أن نفسى لم تصدُقنى فى ذلك تمام الصدق ، ويبدو أن نفس صديقى الأستاذ « حسن كامل الصيرفى » تسمو فوق القمة التى رأيته فيها ، فقد بادر حينما علم بوصول مقالى الأول إلى « المجلة » إلى مخاطبتى ، معلناً غبطته وسعادته . شاكراً ما عدَّه هو صنيعاً أقدمه إليه وأخصه به ، طالباً مزيداً من القول فيما بدأت .

ولا يسعنى الآن إلا أن أضعف له الشكر إضعافاً ، وأن أنوه بفضله البارع ، وخلقه العلمى الفاضل .

وهأنذا أتابع بيان بعض التصحيحات والتنبيهات لما جاء فى طبعة الديوان :

٣٦ — ص ١٠١ البيت ٢٤ :

تصوَّبُ فوقَهم خِرَق العَوالى
وغاب « الخطِّ » مَهزوزَ الكعوبِ

(*) مجلة « المجلة » عدد ديسمبر سنة ١٩٦٣ من ص ١٠٣ — ١١٣ .

وخرق العوالى ، وهى أعالى الرماح أو أسنتها . يحار فيها الفهم : فليس من المعروف أن تصوب المقاتلة خرقاً تجعلها فى رماحها ، وماذا عست أن تفعل تلك الخرق ؟ ! وإنما هى « حِزَق العوالى » بالحاء والزاى . وهى جمع حِزقة ، وهى الجماعة من كل شىء حتى الريح .

وأنشد فى اللسان :

غَيَّرَ الجِـــدَّةَ من عِرفانهـــا
حِزَقُ الرِّيح وطُوفانُ المطَرْ

ومنه بيت عنترة المشهور :

تأوِى له حِزَق النَّعام كما أوتْ
حِزَق يمـــانيَةٌ لأعجمَ طِمطِمِ

أى جماعات النعام . وقد وردت هذه الرواية الصحيحة فى نسختى ب ، ك من أصول الديوان .

٣٧ – ص ١٠١ البيت ٢٩ :

إذا آدَ البلاءُ تحمَّـــــلاهُ على دَفَّىْ موقَّعةٍ رَكوبِ

فسرت « الموقَّعة » بأنها الخفيفة الوطء ، ولا أدرى من أين هذا التفسير ، وإنما هذا التفسير للموقِّعة بكسر القاف المشددة ، وليس هذا اللفظ مراداً ، كما ليس معناه مراداً . أما « الموقَّعة » المرادة ، وهى بفتح القاف المشددة ، فهى الدابة بظهرها آثار الدبر ، لكثرة ما حمل عليها وما رُكبت ، فهى ذلول مجرَّبة ركوب .

٣٨ – ص ١٠٢ البيت ٣٣ :

أخافُ عليهِما إمرارَ مَرْعىً
من الكلأ الذى عِلَفاه مُوبِى

و « عِلْفاه » لا وجه لها . وإنما هى « عَلْقاه » بفتح العين لا كسرها .
بالقاف لا بالفاء ، كما ورد فى نسخة ا فى حواشى الديوان .

و « العَلْقى » : شجر تدوم خضرته فى القيظ ، وله أفنان طوال دقاق ،
ولا خير فيه ، كما فى المخصص لابن سيده ١١ : ١٦٤ .

والعلقى مذكر . فإن الألف فيه للإلحاق كما يقول أهل العربية .

٣٩ — ١٠٣ البيت ٤٢ :

فلَلسَّهمُ السَّديدُ أحبُّ غِبًّا
إلى الرَّامى من السَّهم المُصيبِ

والسديد والمصيب سيانِ . فلا وجه للمفاضلة بين متماثلين ومتكافئين ،
والوجه هو « الشريد » . كما جاء فى رواية مروج الذهب ٤ : ٢٤ ؛ وهذا
المعنى هو المناسب للبيت الذى قبله . وهو :

تَناسَ ذنوب قومك إنَّ حفظ ال
ذُّنُوب إذا قَدُمْن من الذُّنوبِ

٤٠ — ص ١٠٥ البيت ١٠ وردت فيه كلمة « ويُحزِننى » ، والضَّبط
الأعلى « ويَحزُننى » من الثلاثى ، وبه قرأ جمهور السبعة فى قوله تعالى :
« إنى ليَحزُننى أن تذهبوا به » . وانفرد نافع بقراءة « ليُحزِننى » . انظر
إتحاف فضلاء البشر ٢٦٣ .

٤١ — ص ١٠٥ البيت ١٦ :

لقيتُ به حـدَّ الزَّمان فَفلّه
وقد يتَثلَّمُ العضبُ المهنَّدُ فى العضبِ

جاء فى تفسيره : « العضب : السيف . والعضب الثانية : الضرب .
يثلم : يتكسر حرفه » .

ووجه تفسيره أن العضب السيف القاطع فى الموضع الأول وفى الموضع الثانى أيضاً . ولا يسمى السيف عضباً حتّى يكون قاطعاً . جعل البحترى ممدوحه أقوى من الدهر ومن سطواته ، فهو قهار لما يأتى به الدهر من أحداثه . وضرب لذلك مثلا بالسيف القاطع الذى يكسِر مثيلَه من السيوف القاطعة إذا تلاقيا فى الضرب .

فصواب التفسير فى « يثلم » هو « يكسر غيره » لا « يتكسر حرفه » .

٤٢ – ص ١١٤ البيت ١٦ « حين خلُّوا مداه » . صوابه « خَلَّوا » أى تركوا مَداه وتجاوزوه .

٤٣ – ص ١١٤ البيت ٢٢ فى نعت ممدوح :

يُشهَدُ الأنسُ حين يُشْهَدُ فينا
ويغيب السُّرورُ حين يغيبْ

صوابه « يَشْهَد الأنس حين يَشْهَد فينا » ، أى يحضر الأنس حين يحضر فينا . يقال شهد يشهد ، أى حضر ، وهو ما يقابل غاب يغيب . فهو يقرن حضور الأنس والسرور وغيابهما بحضور ذلك الممدوح وغيابه . وهذه لغة مطردة للبحترى ، منها قوله فى ص ٢٠٣ :

وعبدكَ أحظَتْه لديك نصيحةٌ
وأرضاك منه مَشْهَدٌ ومَغيبُ

وقوله فى ص ٢٠٣ :

فعاد بنو العبَّاس عمِّ محمد
وشاهدُ عزّ الناس فيهم وغائبه

وقوله فى ص ٢٢٦ :

إذا اقتصرتَ على حكم الزمان فقد
أراك شاهدُ أمرٍ كيف غائبه

وقوله فى ص ٢٤٤ :

تزداد أكرومةً أبوّتُه إذا اعتزى شاهداً إلى غَيَبه

وقوله فى ص ٢٥٤ :

أوحشتَ مذ غبتَ قوماً كنت أنسهمُ
إذا شُهِدتَهم فاشْهَدْ ولا تَغِبِ

وفى ص ٣٧٢ :

لئن خسّ حظُّ الغائبين لقد زكت
حظُوظُ الشُّهود من نداك وجدّت

وفى ص ٦٠٢ :

إن غار فهو من النباهة مُنْجِدٌ
أو غابَ فهو من المهابة شاهد

٤٤ — ص ١٢٣ البيت ٦ « حُسن الأَسَى » فسرت الأسى بأنها « التأسى والتعزى » . وصواب التفسير أن يقال : « الأسى : جمع أسوة ، وهو ما يتأسى به الحزين . أى يتعزى » .

٤٥ — ص ١٣٠ البيت ٢ :

وموتُ الُحقوقِ فــلا يائسٌ
يَرُدُّ غــلامى ولا راغبٌ

وصواب ضبطه « وموتِ الحقوق » بالجرّ ، عطفاً على « غَنَوِىٍّ » فى البيت قبله ، وكذا « فلا يائسٌ » بالتنوين . وقبل البيت :

لعمــــرك ما العَجَبُ العاجبُ
سِــــوى غَنَوِىٍّ له حاجبُ

٤٦ – ص ١٣٣ البيت الأول : ورد اسم القرية « جُلُلْتا » بضمتين : وصواب ضبطها « جَلُلْتا » بفتح الجيم وضم اللام الأولى ، كما فى معجم البلدان والقاموس (جلل) حيث نصا على هذا الضبط بالحروف . لا بالقلم .

وورد فى آخر هذه الصفحة أن الحجام هو الحلاق . وهو سهو ، وسأقول فيه بتفصيل فى التنبيه رقم (٥٣) .

٤٧ – ١٣٧ البيت ٢١ : « عند جَدِّ الحادثات » صوابه « جِدِّ الحادثات » بكسر الجيم ، أى اشتدادها . كما سقطت ألف « الذى » الواردة فى هذا البيت .

٤٨ ص ١٣٩ البيت ٣ :

وما كان مَوْلاهُ وقد سامَهُ الرَّدَى
بمتَّئِدِ البُقْيا ولا لــيِّنِ القَلْبِ

وسرت البُقْيا بأنها ما يبقى من الشىء . وأنا لا أحق هذا التفسير ، ولو صحّ لما كان مراداً ، فإنّ المراد بالبقيا هنا الإبقاء على غيرك ورحمتك إياه . ومثله الرعيا من الإرعاء على الشىء . يقال : أبقيت على فلان ، إذا أرعيت عليه ورحمته . والاسم البقيا . قال اللّعين المنقرى :

فــ بُقْيَا علىَّ تركتمانى
ولــكن خِفْتما صَرَدَ النبالِ

٤٩ ـ ص ١٤٢ البيت ٢ :

فقُلْتُ لمَّا أتَى دَهْيَاءَ مُعْضِلَةً
أبْلِ وجَدِّدْ مَتى أحْدَثْتَ ذَا النَّسَبا

أدركت الريبة الشارح فى عجز هذا البيت وقال « ولعل وجهه الصحيح : أبن وحدد » . وهذا الوجه الذى ذكر ، أسلوبه ينتمى إلى عصرنا هذا ، ولا إخال البحترى يسبق عصرَه هذا السبق الظاهر . ولا غبار على نص هذا البيت ، فإنَّه تهكم ضاحك بهذا المهجو الذى ادعى نسبته فى قضاعة ، يقول له البحترى : أنفق وأخلف من هذا النسب المزعوم ما استطعت ، فلن تجد من يرى صدقك فى هذا الزيف ، ولن تحصل منه على طائل ، فإنّه كخيال النائم الذى يرى نفسه ذا ثراء عريض ، ينفق منه ذات اليمين وذاتَ الشمال ، وهو لا حقيقة فيه .

ونحو هذا التعبير مألوف عند الشعراء ، ومنه قول ابن مقبل فى اللسان (عور) :

فأخْلِفْ وأتلفْ إنمــا المــالُ عارةٌ
وكُلْهُ مع الدهر الذى هو آكِلُه

٥٠ ـ ص ١٥٩ البيت ٩ : « ولم تجد لمعزل » ، صوابه « لمعذَل » من العذل ، وهو اللوم .

٥١ ـ ص ١٦٧ البيت الأول :

قِصَّةُ التَلِّ فاسمعوها . عُجَابَهْ
إنَّ فى مِثْلِها تَطولُ الخِطَابَهْ

فيه مأخذان : المأخذ المطبعى تحوير الباء فى « الخطابة » إلى ياء والقصيدة بائية ، وأما اللغوى فإن « الخطابة » بفتح الخاء لا غير .

٥٢ — ص ١٦٧ البيت ٤ :

أحْفِروا التَّلَّ يا « يا بنى عَبْدِ الأعْ
لى » : وأثيروا صُخورَه وترابَهْ

وصواب كتابته :

احفِرُوا التَّلَّ يا « بنى عبد الاعلى »
وأثيروا صُخُـــــورَه وتُرابَهْ

بحذف « يا » المكررة ، ووصل همزة الأعلى لا قطعها ، لضرورة الوزن ، وكتابة « الأعلى » جميعها فى الشطر الأول من البيت . وهو من بحر الخفيف .

٥٣ — ص ١٦٨ البيت ٦ ورد فى تفسير « المحاجم » أنها أدوات الحلاقة ، ومثله ما ورد فى ص ١٤٣ « وقد كان حجاماً ، أى حلاقاً » .

والصواب أن « المحاجم » أدوات الحجامة ، وهى القوارير التى يجمع فيها الدم بعد أن يمتصه الحجَّام بفمه أو نحوه . وفى حديث الصوم : « أفطر الحاجمُ والمحجوم » أى تعرَّضا للإفطار . أما المحجوم فللضعف الذى يلحقه من خروج دمه فربما أعجزه عن الصوم . وأما الحاجم فإنه لا يأمن أن يصل إلى حلقه شىء من الدم فيبتلعه . ومنه المثل : « أفرغ من حَجَّام ساباط » قالوا : كان يعبر الأسبوعُ والأسبوعان فلا يدنو منه أحد ، فعندها يخرج أمه فيحجمها ليرى الناس أنه غير فارغ . وما زال ذلك دأبه حتى أنزف دمها فماتت فجأة .

والمحاجم أيضاً : المشارط التى يجرح بها المحجوم ليمتص دمه .

والحلاق غير الحجام . فالأول لتحليق الشعر ، والآخر لاستنزاف الدم . وإضافة عمل الحلاق إلى الحجام لا يصح معه أن يقال لما يستعمله الحلاق من

أدواته « محاجم » . بل هى مسميات خاصة لها أسماؤها . فلا يقال للمقص محجم . كما لا يصح أن يقال للمشط محجم . لكن الحلاق إذا زاول الحجامة مع عمله صح أن يقال له حجام . وإن قصر عمله على الحلق لم يصح أن يدعى حجاماً . وكذلك الحجام إن لم يزاول الحلق لم يصح تسميته حلاقاً . فالتعميم فى تفسير الحجام بالحلاق لا سند له فى اللغة ولا فى الاستعمال .

٥٤ – ص ١٦٨ البيت ٨ :

خالدٌ لا ســـقى الإله صداهُ

فبنُوهُ اللئامُ شانُوا الـكِتَابَه

ورد فى تفسير الصدى أنه العطش ، وهو تفسير صحيح ولكنه ليس مراداً. فالصدى هنا طائر تزعم العرب أنه يخرج من رأس الميت فيصيح على قبره : اسقونى اسقونى ! ! وهو الهامة أيضاً . ومنه قول ذى الإصبع :

يا عمرو إلاَّ تَدَعْ شتمى ومنقصتى

أضْرِبْكَ حيثُ تقول الهامةُ اسقونى

والذى يعين هذا المعنى الجاهلى قصة الأبيات التى ورد فيها . وذلك أن هؤلاء المهجوين – وهم بنو ثوابة وكان جدهم حجاماً . وبنو عبد الأعلى وكانوا من نسل صائد سمك – تنازعوا على ميراث تلٍّ من التلال وتلاحَوْا فى ذلك . فصوَّر البحترى تنازعهم والحكم بينهم فى هذا النزاع بهذه الصورة الساخرة :

قصةُ التلِّ فاسمعوها عُجابه

إنَّ فى مِثلِها تطولُ الخَطابه

ادَّعى التلَّ فرقتان تلاحَوْا

آل عبد الأعلى وآل ثوابه

حَـــكَمَ الحاكمُ الجنيدىُّ فيهم
بصوابٍ ، فلا عدِمنا صوابه

احفروا التل يا بنى عبد الاعلى
وأثيروا صخـــــوره وترابه

إنْ وجـــدتم فيه شِباك أبيكم
كنتمُ دونَ غـــيركم أربابه

أو وجدتم محاجما إذ حفرتم
زال شكُّ العصـــابة المرتابه

فبَدَتْ جُونة من الخوصِ فيها
آلة الشيـــخ وهو جدُّ لبابه

خالد لا سقى الإله صـــداه
فبنوه اللئامُ شانوا الكتابه

٥٥ — ص ١٧٠ البيت ٦ « جَذمها » . وضبطها بالفتح صحيح ، ولكن الأوفق أن تضبط بالكسر وهو الضبط المشهور . أو أن نجمع بين الضبطين .

٥٦ — ص ١٧١ البيت ٧ « ما كان إلا مُكافاة وتكرُمة » ، ضبطت راء « تكرمة » بالضم . وصوابها : « تكرِمة » بكسر الراء كما هو فى المعاجم ، وكما هو قياس المصادر فى نحو التجربة والتذكرة ، وقد كثر تنبيه العلماء على خطأ التجرُبة والتجارُب بضم الراء . وقال ابن خالويه فى ليس من كلام العرب ص ٥٢ : « ليس فى كلام العرب مصدر على وزن تفعُلة — يعنى بضم العين — إلا حرفاً واحداً ، قال الله تعالى : ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلُكة » .

٥٧ – ص ١٧٢ البيت ٢٤ فى قصيدة مديح :

فـلا تَهِمَّ بتقصيرٍ ولا طبَعٍ

ولو هممتَ نَهاكَ الدِّينُ والحسبُ

وضبط « تهمَّ » بهذا الضبط معناه النهى لذلك الممدوح . وهو لايتناسب مع مقام المدح ، والوجه « فلا تهمُّ » بالرفع ، بصيغة الإخبار لا بصيغة الإنشاء ، أى فأنت لا تهم بذلك ولا يجول بخَلَدك .

٥٨ – ص ١٧٦ البيت الأول « وعقلك المستهتِر الذاهب » وضبط « المستهتِر » بكسر التاء خطأ شائع . والصواب فتح التاء ، من قولهم : استُهتِر فلان بالشىء ، إذا ذهب عقله فيه وانصرفت همه إليه حتى أكثر القول فيه بالباطل . انظر اللسان (هتر) .

٥٩ – ص ١٨١ البيت ٢٩ :

ويَحجَب فيكم عَبْدُه وهو بارزٌ

تُناجُونه بالعِىِّ من غير حاجبِ

وكلمة « بالعىِّ » لا وجه لها فى هذا المجال . ويتعين أن تكون « بالعين » لتتم الصناعة فى البيت فى انضمام الحاجب إليها على ما فى « الحاجب » من التورية . فإن المراد به واحد الحجَّاب الذين يحجبون الولاة والأمراء . أى تناجون ذلك الممدوح بأعينكم لا يحجبكم حاجب . يذكر سهولةَ الإذن على ذلك الممدوح . وأنه ليس ممن يحتجب .

٦٠ – ص ١٨٣ البيت ٥٠ :

يَحرِّق تحريق الصواعق أَهِبَتْ

برعْدٍ ويَنقضُّ انقضاضَ الكواكبِ

فسرت « ألهبت » بمعنى تتابعت . والتتابع إنما يكون معنى لألهب بالبناء للفاعل . يقال ألهب الفرس : اجتهد فى عدوه وتابع جريه . ويقال أيضاً ألهب البرقُ : تتابع . وإلهابُه : تداركه بحيث لا يكون بين البَرقتين فُرجة . والإلهاب فى قول البحترى من ألهبه المتعدى . أى استحثه وزاد من اشتعاله وضرامه . يشير إلى أن الرعد يثير الصواعق ويضاعف من وقعها .

٦١ — ص ١٨٧ البيت ٢٧ « متقسِّم الأحشاء » . صوابه « متقسَّم الأحشاء » كناية عن اضطرابه . وهو كقولهم : متقسَّم القلب . وكأن البحترى أراده فلم يمكنه الشعر . ويقال أيضاً : أصبح فلان متقسَّما : أى مشترَك الخواطر بالهموم . وقد تقسَّمته الهموم . انظر أساس البلاغة (قسم) .

٦٢ — ص ١٨٧ البيت ٢٩ :

ثكلتْكَ كافرةٌ أتتْ بك فَجرَةٌ

إلاَّ اجتنبْتَ العارضَ المجنوبِ

وصوابه « أتت بك فجرةً » أى عن سبيل الفجور . ينعت أمَّ هذا الرجل بالفجور . كما أن « إلاّ » صوابها « ألاّ » بالفتح . أى هلاّ . وهى للتحضيض مثلها . و « ألاَّ » هذه تخفى على كثير من الأدباء مع كثرة استعمالها فى النصوص القديمة بمعنى التحضيض . أما « إلا » الاستثنائية الواقعة فى نحو هذا الأسلوب فإنما ترد بعد أفعال القسم الطلبى والاستعطافى . نحو أقسمت عليك إلا ما فعلت كذا . ونشدتك الله . وعمَّرتك الله . ومنه قول الأحوص :

عمَّرتُكِ اللهَ إلاّ ما ذكرتِ لنا

هل كنتِ جارتَنا أيّامَ ذى سَلَمِ

فالفعل قبلها فى صورة الموجب وهو منفى فى المعنى . والمعنى : ما أسالك إلا كذا . فهو من قبيل الاستثناء المفرغ . انظر الخزانة ١ : ٢٣ بولاق .

وفيها أيضاً أن الفارسى كان يضبط « إلا » فى بيت الأحوص بالفتح ، يجعلها للتحضيض . فهذا هذا .

٦٣ — ص ١٩٢ البيت ٢٣ :

فـــاذا يَغُرُّ الحائنينَ وقد رأوْا
ضرائب ذاك المشْرَفىّ المُجـــرَّبِ

فسر « الحائن » بأنه الأحمق . ولا بأس به ، والأوفق أن يفسر بالهالك ؛ فهؤلاء الأعداءُ هلكى لا جرم ، ما دام سيف الممدوح مُصلتاً فوق رقابهم . وفى أمثالهم : « أتتك بحائنٍ رجلاه » . والحَيْن : الهلاك . وأنشد :

وما كان إلاّ الحَين يوم لقائها
وقطعُ جديدِ حبلها من حبالكا

وكأنّ البحترى ينظر بعين إلى قول الحارث بن حلزة :

وفعلنا بهم كما عـــلم اللـــ
ـــهُ وما إنْ للحائنين دماءُ

قال ابن الأنبارى : « معناه من عصى فقد حان أجله ، وذلك أنه يجئ بغير فيخاطر بنفسه ، وإذا قُتل فليس له من يطلب بدمه » .

وفسرت « الضرائب » بأنها جمع الضريبة ، وهى حد السيف ، وليس هذا مراداً أيضاً . فإنه يحذرهم ما حاق بأمثالهم ممن تناوله سيفه بالضرب . فالضريبة : المضروب بالسيف ، ومنه قول جرير فى ديوانه ٢٩١ :

فإذا هززتَ قطعتَ كلَّ ضريبةٍ
ومضيتَ لا طَبِعا ولا مبهورا

وقبله ما قال طرفة :

أخي ثقةٍ لا ينثني عن ضريبةٍ
إذا قيل مَهلاً قال حاجزه قد

وجاء في ديوان البحتري نفسه ص ٢٠١ :

وكنت متى تجمع يمينيك تهتك الـ
ضَّريبةَ أو لا تُبق للسيف مَضرِبا

وفي ص ٢٢٣ :

ولم يلفَ عضوٌ منه إلا ضريبةً
لأبيضَ مأثورٍ تُهاب مضاربه

هذا بعض ما عنَّ لي من تصحيح لما وقع من سهو في المائة الثانية من صفحات الديوان ، وجل من لا يسهو . وقد اقتضتني دقة أسلوب البحتري أن أبسط القول في ذلك بسطاً ، ليشترك معي القارئ في تضوىء الصواب وتعزيزه .

وفيما يلي تصحيح لبعض أخطاء الطبع :

ص ١٠١ البيت ٢٧ « الشَّرّثار » ، صوابها « الشَّرْثار » .

ص ١٠٥ الحاشية (١٥) « خفيف الهمزة » ، هي « خفف الهمزة »

ص ١١١ البيت ٣٢ « تأنَّيتهُ » ، هي « تأتَّيته » .

ص ١١٢ البيت الأول « سكَّنْتْ » ، هي « سكَّنتْ » .

ص ١١٢ الحاشية (١) « الترّيا » ، هي « الثُّريا » .

ص ١١٤ البيت ١٩ « حقٌ » ، هي « حقٌ » .

ص ١١٨ البيت ٦ « والكُتْب » ، هى « والكُثْب » بالثاء .

ص ١٢٧ فى مقدمة القصيدة « أحد أبنيتها » هى « أحد أبياتها » .

ص ١٣٦ البيت ١٦ « وأرس العَين » ، هى « ورأس العين » .

ص ١٣٨ الحاشية (٣٥) « موهبا » ، هى « مواهبا » .

ص ١٥٢ البيت ٢٦ « الوادع » ، هى « الوداع » .

ص ١٥٥ البيت ١٤ « أنظر » ، هى « انظر » .

ص ١٥٧ البيت ٥ « جَمُ » ، هى « جَمٌّ » .

ص ١٦٠ الحاشية (٢٥) « بن أود » ، هى « بن أدد » .

ص ١٧١ البيت ٢٣ « منكِر بدع » ، هى « منكَر بدع » .

— ٣ —(*)

٦٤ — ٢٠١ البيت ٣٩ :

وكنتَ متى تجمعْ يمينيك تَهتِك الـ
ضَّريبةَ ، أو لا تُبقِ للسَّيف مَضربا

فسرت « الضريبة » بأنها موقع الضرب من الجسد . والوجه أن الضريبة كل ما يضرب بالسيف كما سبق فى التنبيه رقم ٦٣ . ثم فسر الشارح اليمينين بقوله : « يمينيك : يدك وسيفك . ولعله يريد جعل يديه يميناً » .

وصدر هذا التفسير لا قائل به ، وعجزه صواب ولكنه منقوص فى عبارته . صوابه « جعل كلتا يديه يميناً » ، أى إن يمينه كيساره فى القوّة

(*) مجلة « المجلة » عدد يناير ١٩٦٤م من ص ١٠٢ — ١٠٩ .

والفتك . وهذا التفسير الأخير متعين ، وليس تفسيراً احتمالياً ، وله إشارة تاريخية دقيقة إلى « ذى اليمينين » طاهر بن الحسين ، والى المأمون على خراسان ، قالوا : سمى بذلك لأنه ضرب شخصاً فى وقعته مع على بن ماهان قائدِ الأمين فقدَّه نصفين ، وكانت الضربة بيساره ، فقال فيه بعض الشعراء :

• كلتا يديك يمينٌ حين تضربه

وقد أشار إلى ذلك الأستاذ المحقق فى حواشى ص ٢٠٨ . وانظر له تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤١ ، ١٥٥ .

وفى طاهر هذا يقول عمرو بن بانة :

ياذا اليمينين وعــينٍ واحـــــده

نقصـــــان عين ويمينٌ زائده

٦٥ — ص ٢٠٢ البيت الأول :

تُخَطَّى الليالى مَعشراً لا تُعِلُّهم

بشكوٍ ويعتلُ الأمـــير وكاتبَه

وضبط الكلمة الأولى لا يستقيم ، فليس فى العربية خطَّاه يخطِّيه بمعنى تجاوزه وإن كان مألوفاً فى عاميتنا المعاصرة . وإنما يقال تخطاه ، واختطاه فوجه ضبطه « تَخَطَّى » أى تتخطى ، بحذف إحدى التاءين . وصواب الكلمة الأخيرة « وكاتبه » بضم الباء .

٦٦ — ص ٢١٠ البيت ٢٧ :

فحائن الزنـــج مُجمعٌ هربـــا

إن كان ينجو بحائنٍ هربه

فسر الحائن بأنه الأحمق ، والصواب أنه الهالك . وانظر التنبيه رقم (٦٣).

٦٧ – ص ٢١٠ البيت ٢٨ :

لا يأمن البَرَّ مُفْضياً كنَفٌ
منه . ولا البحرَ طَامياً حدَبُه

فسر الكَنَف بأنه الظل . وإنما الكنف الناحية والجانب . وأكناف الجبال والوديان : نواحيها . أراد البحترى : لا يأمن الهاربُ البرَّ على اتساع نواحيه وجوانبه . وتفسير الكنف بمعنى الظل لا يكون إلا فى المجاز ، تقول . هو فى كنف الله وفى كنف فلان ، أى فى ظلٍّ رعايته وحفظه . فليس الظل ظلاً مادياً كما يقولون ، وإنما هو ظلٌّ معنوى . وفى اللسان : « وفلان يعيش فى كَنَف فلانٍ ، أى فى ظله » . وفى أساس البلاغة ، فى المجاز : « وتقول فى حفظ الله وكنفه » .

٦٨ – ص ٢١٣ البيت ٣ :

أفى كلٍّ يومٍ كاشحٌ متكلِّفٌ
يصُبُّ علينا أو رقيبٌ نُراقبه

وضبط « يَصُبُّ » ضبط واهن . والأوجه « يُصَبُّ » إشارة إلى أنه مصيبة يرمى بها . وفى التنزيل العزيز : « فصَبَّ عليهم ربُّك سوطَ عذابٍ » ، ومنه قول القائل :

صببنا عليها ظالمين سياطنـا
فطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرجلُ

وفى أساس البلاغة : صُبَّ الذئب على الغنم . قال أبو النجم يعنى الصقر

• مرَّ القطاصُبَّ عليه أجدلُه •

٦٩ — ص ٢١٥ البيت ٢ :

إذا نكّر الفرّاش ينشو حديثه
تضاءل مُطريه وأطنب عائبه

فسر الفرّاش بأنه الذى يبسط الأمر ويكشفه . وهذا إبعاد فى التفسير ، ولعل سببه عدم نص المعاجم المتداولة على هذه الكلمة بمعنى الخادم الذى يتعهّد فِراش البيت وأثاثه . وهذا معروف فى لغة الحضارة العربية قديماً . وجاء فى رسالة ذم القواد للجاحظ — وهى مما أقوم بنشره الآن — : « وسألتُ أطال الله بقاءكَ محمد بن داود الطوسى عن مثل ذلك ، وكان فراشاً ، فقال : لقيناهم فى مثل صحن بساط ، فما كان إلا بقدر ما يفرش الرجل بيتاً حتى تركناهم فى أضيق من منصّة . فقتلناهم ، فلو سقطت مخدّةٌ ما وقعت إلا على رأس رجل » .

ويريد البحترىُّ التشنيع فى هجو المستعين . فيذكر أن مساويه متعارَفة مشهورة بين من يلوذ بخدمته ، وهم أدرى الناس بمباذله ومجونه .

وما لنا نذهب بعيداً والبحترى نفسه يقول الكلمة بهذا المعنى فى هجاء مماثل لهذا ، وهو هجاء كاتب ابن حميد فى ص ٢٨٨ من الديوان :

إذا غِلْمة الفرّاش شكّت عجانه
بكينا لذلّ الدِّين والكُفر راكبه

٧٠ — ص ٢١٦ البيت ٢٥ :

وقد سرّنى أن قيل وُجّهَ مُسرعاً
إلى الشّوق تُحدَى سُفْنُه وركائبه

ويبدو لأول وهلة أن هذا الضبط لكلمة « وجه » ضبط صحيح ، ولكن ليس كل صحيح صالحاً ، فإن ملابسات هذا البيت وتاليه ، وهو قوله :

إلى كَسْكَرٍ خلفَ الدجاج ولم تكن
لتنشب إلاَّ فى الدجاجِ مخالبُه .

يدل على أنه هو الذى اختار لنفسه هذا الاتجاه ، وأنه لم يوجِّهه أحد ، وإنما آثر فى فراره ذلك السريعِ أن يلجأ إلى مواطن الدجاج ليقضى نَهْمته فى المآكل التى صورها البحترى فى قوله فى هذه القصيدة :

ثقيل على جَنْب الثريد ، مراقبٌ
لشخص الخِوانِ يبتدى فيواثبُه

والوجه فى هذا الضبط « وَجَّهَ » بالبناء للفاعل . وفى اللسان : وتقول « وَجَّهوا إليك وتوَجَّهوا » . وجاء فى أمثالهم : « أينما أوجِّهْ ألقَ سعداً » ، معناه أين أتوجَّه . وجاء فى سيرة ابن هشام ٧١٩ جوتنجن : « سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول حين وَجَّهَ راجعاً : آيبون تائبون » . ونظير هذا الفعل قولهم : قَدَّمَ بمعنى تقدَّم ، وبَيَّنَ بمعنى تبين .

٧١ – ص ٢٢٠ البيت ١٤ :

فلا أرض إلاَّ ما أفاءت رماحُه
ولا غُنْمَ إلاَّ ما أفاءت مَقَانبُه

وفى الشرح : « أفاءت : أظلت » .

وهذا التفسير لا وجود له ، والمعروف فى معنى الظلّ فاء ، وفيئاً وتفيئاً ولم يرد « أفاء » فى معنى الظلّ ، والصواب أنّ « أفاءت » هنا بمعنى أتت به غنيمةً ، كأنّ أموالَ الأعداء وأرَضيهم كانت فى الأصل ملكاً له ثم رجعت إليه ، ردتها رماحُه إليه . وعبارة القصر هنا تفيد اتساع رقعة الأرض التى يملكها الممدوح حتى كأنها الدنيا بأسرها ، فلا أرضَ إلا وهو مستول عليها وفى الكتاب العزيز : « ما أفاءَ الله عَلى رَسُوله مِنْ أهلِ القُرَى » ، وفيه أيضاً : « وما أفاء الله عَلى رَسُولِه منهمْ » .

٧٢ — ص ٢٣٠ البيت ٢ :

وفى الربيع إذا استَمتَعتَ منه غِنىً
عن حاكةٍ فى طِراز السُّوس والطِّيبِ

جاء فى تفسيره : « الحاكة : النسيج » . وإخال المراد « عمَّال النسيج » . فإن كان هذا هو المرادَ كان خطأً أيضاً ؛ لأن النسيج لا يكون مصدراً لنسج ، وإنما مصدرها النسْج ، أما النسيج فهو الثوب المنسوج . فالصواب أن الحاكة هنا جمع الحائك ، كالباعة جمع البائع . والحائك : النساج ، ويقال فى جمعه أيضاً « حَوَكة » بترك الإعلال ، كما فى اللسان .

٧٣ — ص ٢٣١ البيت الأول والثانى :

مُعـــاد من الأيام تعذيبُنا بهـــا
وإبعادُها بالإلف بعد اقترابها
وما تُملأُ الآماقُ من فَيض عَبرة
وليس الهوى البادى لفَيض انسكابها

فهو يشكو الأيامَ وما تفعله ، فوجهُ الضبط فى البيت الثانى : « وما تَملأُ الآماقَ » ، أى وملؤها الآماق بالعبرات .

٧٤ — ص ٢٣٢ البيت ١٣ :

سيُرديك أو يُنْويك أنَّك مُخلسٌ
إلى شُقّةٍ يُبليك بُعْدُ مآبِهـــا

وموضع الكلام هنا كلمة « مُخْلِس » إذ فسرت بأنها من « أخلس الرأس ، أى ابيضَّ شعره ، ولعله يشير إلى أن بياض الشعر سبيل إلى السفر البعيد ، وهو الموت . أو لعله اشتقه من المخالسة ، وهى التعجيل » .

فكأننا لو قلنا فى تفسير بيت البحترى : سيهلكك أنك أشيب إلى شقة ، صح هذا الأسلوب وهذا المعنى ! لكنَّ هذا لا يستقيم ، لأنا لا نجد على هذا المعنى متعلَّقاً للجار والمجرور ، وهو « إلى شقة » . كما أن المخالسة بمعنى التعجيل أو الإخلاس بمعنى التعجيل ، لا وجود له فى اللغة .

ووجه الرواية « مُحْلِسٌ » بالحاء المهملة . وقد تكفَّل الآمدىُّ بتفسيره فى قوله الذى نقله الأستاذ المحقق ، ونصُّه : « والمعنى أنك متهيئٌ للرحيل ، ومتخِذ حلسا يوضع تحت الرحل » .

كما أن الأستاذ المحقق قد أطال القول فى البيت التالى لهذا ، وهو :

وهل أنت فى مَرموسةٍ طال أخذُها
من الأرضِ إلاَّ حُفْنةٌ من ترابها

وأشار إلى مقابر ملوك المصريين ، وإلى ابن طولون . وليست المرموسة إلا المقبرة مطلقاً ، لأنها تُرمَس أى تُغطَّى بالتراب .

٧٥ — ص ٢٣٣ البيت ٩ :

وعَى مجدَها عن أن يَضيع سِوامُه
وحفظٌ على الماضين مثل اكتسابها

وردت كلمة « سوامه » مكسورة السين ، والصواب فتحها . وصواب ضبط سائر البيت « وحفظ علَى الماضين مثلُ اكتسابها » بإضافة حفظ إلى « علَى » ، وهى من إضافة المصدر إلى مفعوله كما يقولون . والعلَى : جمع العُلْيا ، أى الصفة العُليا .

٧٦ — ص ٢٣٩ البيت ٢ وهو فى هجاء :

بُغاء يعود على نفسه
وشؤمٌ يَعودُ على صاحبه

وصواب ضبطه « بِغـاء » بكسر البـاء . وفى التنزيلِ العزيز : « ولا تُكْرِهوا فتَيَاتِكم على البِغاء » . أما البغاء بالضم ، فهو مصدر بغى الرجل ضالَّتَه ، أى طلبها . وأنشد الجوهرى :

لا يمنعنَّـك من بُغَـا
ء الخير تَعقادُ التمائمْ

ومن الواضح أن هذا المعنى ليس مراداً .

٧٧ — ص ٢٤٠ البيت ٣ :

لا تَنفُذُ القُوتَ إلى غيره
كأنَّما نُضْمرَ للحلبه

صوابه « لا ينفُذُ القوتُ » بدليل الرواية الأخرى : « لا يصلُ القوت » . وقبل البيت ، وهو فى هجاء أبى خالد :

ونحن أضياف أبى خالدٍ
نَهيمُ بين القصر والرَّحْبه

يقول : لا يتعداه القوت إلى غيره ، يخصُّ نفسه بالطعام ويمنعه ضيوفَه ، بُخلاً منه عليهم .

٧٨ — ص ٢٤١ البيت ٧ :

رأيَك فى قاربٍ يُريدك أن
تنصر أحشاءه على قَرَبِه

جاء فى تفسيره : « القارب : الطالب الماء ليلاً » : وهذا لا غُبار عليه . ثم جاء بعده : « القرب بالفتح : البئر القريبة الماء . وكذلك سير الليل يورد الغد » . وصدر هذا التفسير لا داعى له ولا دخل له فى توضيح المعنى ، كما أن صواب « بالفتح » هو « بالتحريك » و « يورد » هو « لورد » .

٧٩ – ص ٢٤٣ البيت ٢٤ :

يُنزِل أهلَ الآداب منزلةَ الـــــ

أكفاء إن شاركوه فى أدبـِه

صوابه: «أن شاركوه» أى لمشاركتهم إياه فى أدبه . وليس المراد هنا الشرط ، بل التعليل وبيان السبب .

٨٠ – ص ١٤٥ السطر الأول . وردت كلمة « نوبُخْت » بضم باء « بخت » وكذا تكرر هذا السَّهو فى ص ٢٤٩ و ٢٥٢ . وصوابه « بَخْت » بفتح الباء ، كما هو فى لفظه الفارسى ، وكما أدخلته العرب فى كلامها بلفظه وبمعناه فى جميع استعمالاته . وهو الحظّ . وانظر وفيات الأعيان ١ : ٣٥٨ فى ترجمة (على بن أحمد بن نوبخت) حيث نصَّ على ضبطه .

٨١ – ص ٢٤٦ البيت ٦ :

أو تُدنينَّهمُ نَوازِعُ فى البُرَى

عُجُل كواردة القطا المسروبِ

جاء فى تفسيره : « البرى : جمع البرة : كل حلقةٍ من سوار وقراط – صوابه قرط – وخلخال . والبرة بالفتح : التراب » .

وهذا التفسير لا يستقيم ، فليس لتلك الإبل أسورة ولا قِرَطة ولا خَلاخيل ،فهذا إنما يكون تفسيراً للبرة إذا كانت فى نعت المرأة ، أما برة الإبل فهى حلقة من فضة أو نحاس تجعل فى أنف البعير ، ويُجعل فى تلك الحلقة زمام البعير ، وبذلك يتحكم راكبه فى ضبط قياده ، لشدة إحساس البعير بجذب أنفه بالزمام . يقال من ذلك ناقة مُبْراة ، أى جُعل فى أنفها البُرَة . وفى حديث سلمة بن سحيم : « إن صاحباً لنا ركب ناقة ليست بمُبراةٍ فسقط » ، يعنى ليس فى أنفها برة . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « غَرَّرَ

بنفسه » ، أى خاطر بها ، إذ لم يجعل لناقته برة تضبط سيرها . فالبحترى يقول : إنها إبل تامّة الأداة .

كما أن « البرة » الواردة فى ختام التفسير صوابها « البَرَى » بالتحريك ، وهى التى تفسَّر بالتراب ، ومنه فى الدعاء على الرجل : بفيه البَرَى ! !

ثم جاء فى التفسير : « النوازع : النجائب التى تجلب إلى غير بلادها » . وهذا إنما يصح تفسيراً للنزائع لا للنوازع ، فإن النوازع من الإبل هى التى تنزع إلى وطنها فى شوق وحنين . وليس هذا المعنى ولا ما قبله مراداً بصرف النظر عن صحة مطابقة تلك المعانى لتلك الألفاظ . بل المراد بالنوازع هنا التى تنزع أى تسرع فى سيرها . يقال : نزعت الخيلُ : جرت طَلَقاً . وأنشدوا فى هذا قول النابغة :

والخيل تنزع قُبُّاً فى أعنَّتها
كالطير تنجو من الشُّؤبوب ذى البَرَدِ

ويروى « تَمْزَع » أى تمر مراً سريعاً . على أنه يحتمل أن يكون معناه فى بيت البحترى أنها من سرعتها كأنها تنزع براها من كثرة جذبها .

وفى الشرح أيضاً : « عُجُل : جمع عجلاء » ولا يصح هذا ، فإن « عَجْلاء » لا تقولها العرب ، وإنما تقول « عجلى » ، وهى لا تجمع على عجل أيضاً . وإنما العُجُل هنا : جمع عَجُول ، وهى من الإبل التى تَعجَل فى جيئتها وذهابها جزعاً ، كما فى اللسان والقاموس .

٨٢ — ص ٢٤٨ البيت ٢٥ :

نُشرت عطاياه فصِرن قبائلاً
لقبائل — من زَوْرِه — وشعوبِ

وقد جعل الأستاذ الشارح كلمة « زَوْره » بين خطين ، كأنها اعتراض لبيان السبب ، وقال فى تفسيرها : « الزور : الزيارة » . والصواب أن « زوره » ليس اعتراضاً ، وإنما هو متصل بما قبله تمام الاتصال على سبيل الوصف له ، أى لقبائل من زواره ، فإن الزور هنا ليس مصدراً بمعنى الزيارة كما ورد فى تفسير الشارح ، وإنما هو مصدر سمى به الزُّوَّار ، والزور بمعنى الزائر يقال للواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث ، بلفظ واحد . قال الطرمّاح :

حُبَّ بالزَّور الذى لا يُرى
منـه إلاّ صفحةٌ أو لمـامْ

وقال الآخر فى نسوة زور :

ومشيهنَّ بالكثـيبِ مَـورُ
كما تهـادَى الفتَيَـاتُ الزَّوْرُ

٨٣ — ٢٥١ البيت ١٠ فسر « المثيب » بأنه « المجزى على العمل » ولا يقال أجزاه على عمله ، وإنما يقال جزاه جزاء ، وجازاه مجازاة . قال تعالى : « ليَجزِىَ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ » . وقال : « وهل نُجازِى إلا الكَفُور » . وأما الإجزاء فإنما يكون فى قيام شىء مقام آخر وإغنائه عنه . يقال : أجزى كذا عن كذا ، وأجزى عنه مُجزَى فلان ومُجزَاته .

٨٤ — ص ٢٥٤ البيت ١٢ :

وإن فصدتَ ابتغاءَ البُرء مِن سَقَمٍ
فقد أرقتَ دماً يشفى من الكَلَبِ

وقبله :

إلاّ تـكن ملـكاً تُثنَى تحيتُه
فإنك ابنُ ملوكٍ سادةٍ نُجُبِ

قال الشارح : « الكلب : الأذى والشر » . ولم أجد هذا التفسير ، وإذا وجد ولو على سبيل المجاز فإنه ليس مراداً . وإنما الكلب هنا هو داء الكَلَب الذى يعترى الكلْب ويعترى من يعضُّه من الناس . وفيه إشارة إلى ما يزعم قدامى العرب من أن دماء الملوك تشفى من داء الكلب . وقد وردت فى ذلك نصوص كثيرة ، سرد بعضها الجاحظ فى صدر الجزء الثانى من الحيوان ، منها قول أبى البرج :

بُنـــاة مكارم وأساة كلم
دماؤهمُ من الكَلَبِ الشفـــاءُ

وقول ابن قيس الرقيات :

عادنى النـــكس فاشتفيت كما
تَشْفِى دماءُ المـــلوك من كَلَبِ

وقول الكميت :

أحلامكم لسَقام الجهـــل شافيةٌ
كما دماؤكمُ يُشفَى بهـــا الكَلَبُ

٥٨ — ص ٢٥٥ البيت ٦ فى صفة الموتى :

هُجُودٌ لم يَسَلْ بهم حفىٌّ
ولم تُقلَبْ لضَجعتهِمْ جُنوبُ

ورد فى الشرح : « ولعله أراد لم يتقرب ، من وسل يسل » . وهذا من وجهة الصحة اللغوية لا بأس به إن قرئت « يَسِلْ » ، فقد جاء فى المعجم الوسيط : « وسل فلان إلى الله يسِل وسلا : رغب وتقرب » . ولكن هذا المعنى ليس مراداً ، بل المراد السؤال ، كما فى التفسير الآخر للشارح حين لم يجزم بأحد المعنيين مع وجوب الجزم بمعنى السؤال . ويرشحه لذلك نظرة

البحترى قارئ القرآن إلى قوله تعالى : « يسألونك كأنك حفى عنها » . والحفى : المعنىُّ بالشيء المستقصى فى السؤال عنه . كما فى اللسان وغيره فى تأويل الآية الكريمة . وقال الجوهرى : « الحفى : العالم الذى يتعلم الشيء باستقصاء » . وورود الباء موضع « عن » بعد سأل مألوف معهود . وفى الكتاب العزيز : « فاسأل به خبيراً » . « سأل سائل بعذابٍ واقع » أى عنه . وفى اللسان أيضاً : « يقال خرجنا نسأل عن فلان ، وبفلان » .

٨٦ — ٢٥٦ البيت ١٤ :

وأصفَحُ للبِلى عن ضَوء وجهٍ
غنِيتُ يَرُوعُنى منه الشُّحوبُ

ورد البيت مجرداً من التفسير . مع ما له من قدر ، فإنه جُعِل أصلا أخذ منه المتنبي قوله :

ومُغضٍ كان لا يُغضِى لخطبٍ
وبالٍ كانَ يُفكِر فى الهُزالِ

وذلك فى صفة الموتى . يقول البحترى فى رثاء ذلك الغلام : كيف يتفق أن أسمح للبلى أن يمتد إلى وجه ذلك الغلام فى مماته ، مع أنى بقيت زماناً أرتاع أن أرى بادرةً من بادرات الشُّحوب تمتد إليه فى حياته . يَعْجَب لذلك التناقض ، كما أن المتنبي يعجب لحال الميت البالى كيف رضى بالبلى مع أنه كان يرتاع من الهزال الذى هو أخفُّ وقعاً من الموت .

فلفظ « غَنيتُ » معناه عشت دهراً وأقمت . ومنه قوله تعالى : « كَأنْ لم يَغْنَوْا فيها » أى لم يقيموا فيها .

وجاء فى شرح العكبرى للمتنبى : « غدوت يروعنى » ، وهى رواية فاسدة على ما بها من بريقٍ لامع . فإنها بذلك لا تكون مأخذاً للمتنبي أخذ منه معناه ، كما لا تتساوق مع البيت قبله ، وهو :

أأنسى مَن يُذَكِّرُنيه أن لا
نديدَ ينوبُ عنه ولا ضريبُ

وأترك للثرى مَن كنتُ أخشَى
عليه العَينَ تُومئُ أو تَرِيبُ

فإنه يصوِّر شعوره بعد موت المرثيّ ، وما كان من شُعوره قبل موته :

– ٤ –(*)

٨٧ – ص ٢٥٧ البيت ١٧ :

مُلِطٌّ بالطريق وليس يُصغِي
لأنجية الطريقِ ولا يجيب

جاء فى تفسيره : « ملط ، من ألط قبره ، أى لزقه بالأرض » .

وهذا التفسير من القاموس ، وصواب نصه « ألزقه » . وإذا صح هذا المعنى مراداً للبحترى يجب أن يضبط « ملطّ » بفتح اللام لا بكسرها . على أنى أخشى أن يكون فى بعض نسخ الديوان « مُلِظّ » من الإلظاظ ، وهو اللزوم والإقامة . يقال : ألظَّ بالمكان وألظَّ عليه : أقام . وكثيراً ما توصف القبور وسكانها بالإقامة،لأنها لا تفارق مكانها . ومن ذلك قول مُتَمِّم بن نويرة :

فقال أتبكى كلَّ قبرٍ رأيتَه
لقبرٍ ثوى بين اللِّوى والدكادكِ

(*) مجلة « المجلة » عدد فبراير ١٩٦٤ من ص ٩٥ – ١٠١ .

وقول بعض بنى أسد فى الحماسة ٨٦٥ بشرح المرزوقى :

بكّى على قتلى العِدانِ فإنّهم
طالت إقامتُهم ببطن بَرَامِ

وقول النابغة فى الحماسة بشرح المرزوقى ٩٠ :

بعد ابن عاتكة الثاوِى على أبَوَى
أمسى ببلدةِ لا عمٍّ ولا خالِ

وقول قُرَاد بن غُوَيَّة فى الحماسة ١٠٠٥ :

ودُلِّيت فى زوراءَ يُسفَى تُرابُها
علىَّ ، طويلاً فى ثراها إقامتى

٨٨ — ص ٢٦٠ البيت ٤ :

نَشَدتكما اللهَ أن تدفعا
ذِمامى ، وأن تنسيا واجبى

وفسَّره الشارح بقوله : « وأن تنسيا بمعنى ألاَّ ، إذْ يجوز حذف لا » .

وهذا تفسير صحيح وواجب ، ولكن كان من الأولى أن يوجه هذا التفسير إلى قوله « أن تدفعا » ، لأنها هى السابقة ، ومعناها على حذف « لا » أيضاً ، أى أن لا تدفعا ذمامى . ويكون فى تفسيرها اكتفاء عن تفسير تاليتها ؛ لأن المعطوف يتبع المعطوف عليه لا العكس . وذكر صاحب المغنى ٢ : ١٧١ أن حذف « لا النافية » يطرد فى جواب القسم إذا كان المنفى مضارعاً ، نحو « تالله تفتَؤ تذكرُ يوسفَ » ، ويقلُّ مع الماضى .

ونشدتك هنا بمعنى سألتك بالله واستحلفتك به .

٨٩ – ص ٢٦١ البيت ٢ :

وأيامُ الشَّباب معقَّباتٌ
على إبداء آثام المشيبِ

وقبله :

أمردودٌ لنا زمَنُ الكثيبِ
وغُرَّةُ ذلك الرَّشأ الرَّبيبِ

وصوابه « معقِّباتٍ » بالنصب على الحال وبكسر القاف المشددة لا فتحها ؛ فليس « أيامُ الشباب معقبات » كلاماً مستأنفاً ، وإنما « أيام » معطوفة بالرفع على « زمَنُ » ، و « معقبات » فى موضع الحال من أيام لا مرفوعة على الخبر .

والمعقِّبات ، بكسر القاف المشددة : التاليات . يقال : ذهب فلان وعقب فلان بعده ، كما يقال عقَّب عليه : كرَّ ورجع . وفى التنزيل العزيز : « ولّى مدبِراً ولم يعقِّبْ » . وعقب تعقيباً ، إذا أغير عليه فحُرِب – أى سُلب ماله – فأغار على الذى كان أغار عليه فاستردَّ ماله .

فهذا هذا . وأما « إبداء » فصوابها « أبداء » بفتح الهمزة ، وهو جمع بدء . وأبداء من لغة البحترى ، انظره يقول فى ديوانه ٢٧٩ :

مثل ابن بسطام الذى شرُفَت
أبداؤه ثم تُمِّمتْ عُقَبُه

والأبداء : الأوائل كما رأيت ، يعنى جدوده . وآثام المشيب : منها بياض الرأس ، والضعف ، ووهن الجسد .

٩٠ – ص ٢٦١ البيت ٣ :

إذَا ابتسَمَتْ تــألَّق عارِضاها
على ضَرَبٍ يُصفـَّق فى ضـَرِيبِ

وقال الشارح : « يصفق : يحول الشراب من إناء إلى غيره ليصفو » . وهذا التفسير هو الذى اقتصر عليه صاحب القاموس . ولكن المراد بالتصفيق هنا المزج ، كما فى اللسان . وبه فسِّر قول حسان المشهورُ :

يَسقُون من وَرَدَ البَرِيصَ عليهمُ
بَرَدَى يصفـَّق بالرحيقِ السلسلِ

ونحوه قول المرَّار فى المفضليات ص ٩٠ :

لو تطعَّمتَ به شَبَّهتَـــــه
عَسَلاً شِيبَ به ثلجٌ خَصِرْ

وليس يصح معنى التحويل فى مثل قول حسان ومثلِ قول البحترى . فالمراد فى قول البحترى أن رُضابَها كأنه العسل ممزوجاً بالضريب ، أى الثلج . وفى قول حسان : يسقونهم ماءَ بردى ممزوجاً بالرحيق السلسل . ولا تحويل من إناء إلى إناء فيهما كما رأيت .

٩١ — ص ٢٦١ البيت ٤ :

متى يُوشِكْ غروبُ الشمس يُردَدْ
سَناهَا من سنا تلك الغروبِ

وقبــله :

إذا ابتسمت تألَّق عارضــاها
على ضَرَبٍ يصفـَّق فى ضريبِ

فسرت « الغروب » الأخيرة بأنها الدموع ، مع أنه لم يسبق لها ذكر ، كما أن الجوَّ كله جو ابتسام وفرح وبشر . ولم نجد من شعراء العرب من يجعل

الدموع مثلا فى الإضاءة والإشراق . وإنما الغروب ها هنا غروب الأسنان ، وهى ماؤها ولمعانها ، وهو المثَل المعروف فى الإضاءة والإشراق . ومنه قول سُويد بن أبى كاهل فى المفضليات ١٩١ :

حُــرَّةٌ تجلو شتيتاً واضحــا
كشُعاع الشمس فى الغيم سطَعْ

يعنى ثغرها تجلوه بالسواك . وقال آخر :

أحاذِر فى الظَّلماء أن يستشفَّنى
عيُون الغَيارَى فى وميض المَضَاحِكِ

وقال غيره :

كأنَّ ابتسامَ البرقِ بينى وبينهــا
إذا لاحَ فى بعض البيوتِ ابتسامُها

٩٢ – ص ٢٦٢ البيت ١١ :

إلى ابن أبى محمــدٍ استقلّت
بنا قَصْدَ السُّرى، مَيْلَ السُّروبِ

وفى تفسيره : « السروب : ذهاب الرجل على وجهه،وتوجه الإبل للرعى » .

وصوابه: « مِيل السُّروب » بدليل قوله « استقلت » ، أى ارتحلت . والميل ، بالكسر : جمع أميل ومَيلاء . والميلاء من الإبل : المائلة السنام ، كما فى اللسان . والسروب : جمع سرب بالفتح ، وهى الإبل . وفى اللسان : « السَّرب : المال الراعى ، أعنى بالمال الإبل . وقال ابن الأعرابى : السرب الماشية كلها . وجمع كل ذلك سُروب » . وفى القاموس : « السرب :

الماشية كلها » فالمراد بالقصد الإرادة ، وإن كان ظاهر لفظها يوحى بالقصد بمعنى الاستقامة . ليشاكل فى الصنعة بين الاستقامة والميل .

٩٣ – ص ٢٦٢ البيت ١٥ ، ١٦ :

وكان ، وكنتُ ، والحالانِ شتَّى
بمـثنٍ بالإثابة أو مُنيبِ
غَريبُ سجيةٍ ، وغريبُ أرض
فما أكدَى الغريبُ على الغريبِ

وصواب « منيب » هو « مثيب » كما هو ظاهر . فالمثنى بالإثابة هو البحترى ، والمثيب الذى أثنى عليه هو الممدوح . وصواب ضبط « غريب » هو « غريبَ » بالنصب فى الموضعين ، على الخبر لكان وكنت فى البيت قبله . فكان الممدوح غريباً فى سجاياه التى لا يدانيه فيها غيره فى كرمه وجوده ، وكان الممدوح غريباً عن أرضه وأهله .

٩٤ – ص ٢٦٣ البيت ٢٤ :

له فى مارج النـار انتسابٌ
بأمَّـاتٍ نقيَّـات الُجيـوبِ
سراةُ الإنس والِجنَّـانِ أدّتْ
إلى « جُوذَرْزَ » نجدتُها و « بِيبِ »

و « جوذرز » و « بيب » : جدان من أجداد الممدوح . وصواب « نجدتُها » هو « نَجْدَتَها » بالنصب ، أى أدّت إليهما النجدةَ والشجاعةَ والمضى ، أى أورثتهما منهما ذاك .

٩٥ – ص ٢٦٤ البيت ٣ بقوله لصديقٍ له جفاه وتغيّر عليه :

زرتَ رِفْهاً فأخلق الوصلُ بالوصـ
لِ كما يُخلِقُ الرداءُ القشيبُ

وفسَّر « الرفْه » بأنه « لين العيش وطيبه » . وأيُّ معنىً فى هذا يناسب الجفاءَ والتَّغيُّرَ والاستغناءَ ؟ ! وإنما تستوجب الصداقة طول الزيارة والحرصَ على المطاولة فيها. وأصل الرِّفْه أقصر الوِرد وأسرعُه ، يقال : شربت الإبلُ رِفهاً ، أى شرباً قصيراً . قال لبيد يصف نخلاً نابتة على الماء :

يشربن رِفهاً عراكاً غيرَ صادية
فكلها كارعٌ فى الماء مغتمرُ

أى يشربن قليلاً قليلاً ، لاستغنائهن عن الماء ، لنباتها عليه . وجاء فى قول البحترى فى سينيته المشهورة :

وبعيــدٌ ما بين واردِ رِفهٍ
عَلَلٍ شُربُه ووارِدِ خِمسِ

ووارد الخِمس يشرب كثيراً لشدّة عطشه بعد أيامه الثلاثة التى انقضت بعد شرب اليوم الأول ، وليتزوّد فى يومه الخامس لما يَستقبِل من الأيام .

٩٦ — ص ٢٩٦ البيت ٧ فى مدح رجل :

أبيضُ ، لاقوله بمفتعَـــدٍ
فينا ولا فِعلـــه بمجنوبِ

جاءَ فى تفسيره : « المقتعد : المحتبس . والمجنوب : المبعد » . وليس أحد من هذين المعنيين مراداً ، وإنما المقتعد المركوب ، يقال اقتعد الدابة ونحوها : اتخذها مركباً له . وأما المجنوب فهو الدابة التى تساق إلى جنب الراكب . وهذا كناية بارعة عن سرعة قول الممدوح وفعله ، بحيث لا يستطاع اللحاقُ بهمُ فيُركبُا أو يُجنبا .

٩٧ — ص ٢٦٨ فى ديباجة القصيدة رقم ٩٠ :

« وقال يمازح أبا عمران الحلبي ، وكان ممضياً إلى رجل من المراوزة فى قطيعة الربيع فاحتبسَهما » .

صوابه : « وكانا مضيّا » .

٩٨ — ص ١٧٥ البيت ١٣ :

فداؤك مُقرِفٌ من آل زيدٍ
مُوَلّىٌ الخير مُقتَبلَ الشبابِ

ووجهه « مقتبلُ الشباب » بالرفع ، لتتم المقابلة بين التولى والإقبال . والنصب على الظرفية ، أى فى اقتبال شبابه ، لا بأس به أيضاً ، فالأولى أن يضبط بالوجهين أو يهمل الضبط ، دفعاً للتحكم فى النص .

١٠٠ — ص ٢٧٥ البيت ١٥ وهو بيت فيه فحش أضربت عن إيراده هنا ، ولكن جاء فى تفسير « الترائب » فيه أن التريبة « العظمة من الصدر وأعلاه » ولم ترد « العظمة » بمعنى الواحدة من العظم فى معاجم اللغة صغيرها وكبيرها ، قديمها ومحدثها ، وإنما يقال « العظم » للواحد والجمع ، فهو اسم جنس كالتراب لا يقال فى واحدة ترابة . وانظر المعجم الوسيط.

١٠١ — ص ٢٧٦ البيت الثانى . وردت الكلمة الأولى فيه ناقصة النون المفتوحة فى أولها ! !

١٠٢ — ص ٢٧٩ البيت ٢٦ :

ينقاد طوعاً له إذا حشَدتْ
عليه تلك الأشياهُ تَجتذِبُه

ولا أدرى معنىً للأشياه . وجاء فى الحاشية أنها فى نسخةٍ : « الأشباه » . وهذا هو المتعين فى النص ، كما فى طبعة مصر .

١٠٣ – ص ٢٧٩ البيت ٢٩ :

من يتصرَّع في إثر سكرُمةٍ
فـدأبه في ابتغائهـا دأبُه

وفي التفسير : « يتصرع : يتواضع » . وصواب لفظهما « يتضرع » بالضاد المعجمة . وتفسير التضرع بالتواضع لم يقل به أحد ، وإنما التضرع التذلل والتعرض لطلب الحاجة ، والمبالغة في السؤال والرغبة ، كما في اللسان والقاموس . وفي الكتاب العزيز : « ادعوا ربَّكم تضرعاً وخُفية » ، وفي الحديث : « خرج متبذّلاً متضرّعاً » .

١٠٤ ص ٢٨١ البيت ٤٩ :

يتْبَعُ تأميلَه الثراءُ كمـــا
أتبعَ غُزْراً من ديمةٍ عُشُبُه

فالعشب الناجم عن غُزْر الديمة وكثْرة وبْلها مقابل للثراء الناجم عن تأميل الممدوح ، فغُزر الديمة وتأمِيلُ الممدوح كلاهما سريع في إحداث أثره . وفي الكتاب العزيز من صورة ذلك : « فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزّت وربَت وأنبتت من كل زوج بهيج » . فكان ينبغي توحيد الفعلين في الضبط ، فيقال في الأول « يُتبِع » من أتْبعه بمعنى تبعه وأدركه . وليس هذا الضبط بغريب على لغة العرب ، فهو ظاهرٌ في عجز بيت البحترى نفسه ، ومنه قوله تعالى : « فأتْبعَهُ شِهابٌ ثاقبٌ » ، أي تبِعه فأدركه . ومثله : « ثم أتْبَعَ سبباً » .

١٠٥ – ص ٢٨٢ في ديباجة القصيدة « يمدح أبو صالح » وهي « أبا صالح » .

١٠٦ – ص ٢٩٠ البيت ١٢ :

غضبان تجْلِى عن وقائع سيفه
عكراتُ حُمْسِ فى الحديد غضابِ

أما « تجلِى » فصوابها « تُجلَى » من الإجلاء . وقد فسِّرت « العكرات » بأنّها « الكرَّات فى الحرب بعد الفرار » ، والأوفق أن تفسَّر العكرات بالجماعات العظيمة . وأصل العكَرة : القطيع الضخم من الإبل . والعرب تشبّه الأبطال بالفحول ، ومنه قول ربيعة بن مقروم فى المفضليات ١٨٣ :

بنو الحرب يوماً إذا استلأموا
حسبتهمُ فى الحـديد القروما

جمع قَرم ، وهو الفحل من الإبل . وقول عمرو بن الأسود فى الأصمعيات ٧٩ :

والجمع من ذُهْل كأنّ زُهاءهم
جُرْبُ الجمال يقودها ابنا شعثمِ

وفى حديث الحارث بن الصمّة : « وعليه عَكَرٌ من المشركين » ، قال فى اللسان : « أى جماعة » .

و « حُمس » صوابها « حُمْسٍ » بالتنوين .

١٠٧ — ص ٢٩١ البيت ١٩ :

وأبيتَ إعطاءَ الدنيئةِ دونهم
إنّ الأبىّ لأن يُعيَّرَ آبِ

المألوف فى « الدنيئة » أن تقال بالتسهيل ، أى « الدنيّة » . ولم تقع عينى عليها فيما قرأت فى مثل هذا الأسلوب إلا مسهلة ، ومن أقدم نصوصها قول

عمر فى حديث الحديبية : « علَامَ نُعطى الدَّنيَّةَ فى ديننا » ، أى الخصلة المذمومة . على أنها وردت بالتسهيل فى طبعة مصر من الديوان . وكان ينبغى أن ينبه على روايتها فى نسخ الديوان .

١٠٨ — ص ٢٩٢ البيت ٣٠ :

شهِدتْه يومَ الهَنْدُوَانِ ولم تــكن
لتبيعَــــه باليوم فى دولابِ

وجاء فى تفسيره : « الهندوان : السيف الهندوانى المنسوب إلى الهند ، وهى نسبة شاذة . والهندوان : نهر بين خوزستان وأرجان » .

ولم أجد أحداً يقول إن الهندوان هو السيف الهندوانى ، ولا علاقة بين الكلمتين ، كما أنه لا وجه لإثبات صدر هذا الكلام على افتراض صحته ، لأن كلمة « الهندوان » فى بيت البحترى لا تعنى إلا هذا النهر الذى بين خوزستان وأرَّجان . ثم إن الأصح فى ضبط اسم هذا النهر هو « هِنْدُوان » بكسر الهاء لا بضمها كما ذكر صاحب القاموس ، فإنَّ ياقوتاً ، وهو البُلدانىُّ الحُجّة ، أوردَها بعد « هِندمند » التى نصَّ على كسر هائها ، ثم أورد « هِندوان » وقال « بضم الدال وآخره نون » فاكتفى بضبط الهاء فى السابقة عن ضبطها فى اللاحقة ، كما هو دأبه ، ثم أورد بعدَهما « هِنديجان » و « هِنزيط » كلاهما بكسر الهاء .

١٠٩ — ص ٢٩٤ البيت ٧ :

رفَعتْ من السّجف المُنيفِ ، وسلّمتْ
بأناملٍ فيهنَّ دَرْسُ خِضــــابِ

جاءَ فى تفسيره : « الدرس : الطريق الخفىّ » .

وليس من هذا مأخذه ، وإنما أصله من الدَّرس والدِّرس ، بمعنى

الثوب الخَلَق . أى سلَّمت بأناملَ فيهن بقايا خضاب قد درس وأخلق كما يخلق الثوب . وهو كما يقولون من إضافة الصفة إلى الموصوف .

١١٠ — ص ٢٩٥ البيت ١٧ :

نَصَرَ السَّمَاحَ على التِّلاد ولم يقف
دونَ المكارم وَقْفَة المرتابِ

ووجه ضبط « وِقْفة المرتابِ » بكسر الواو ، على إرادة الهيئة لا المرَّة .

١١١ — ص ٢٩٧ البيت ٣٢ :

فكأنما البحرُ استجاشَ يمينَه
فقضى بها أربًا الآرابِ

وواضح سقوط : « من » قبل « الآرابِ » .

١١٢ — ص ٣٠١ البيت الأول :

يا أُمَّتا أبصرنى راكبُ
يسير فى مُسحنفِرٍ لاحبِ

ولست أذكر هذا البيت لأنصَّ على خطأ فيه ، بل لأعزِّزَ صواب ضبطه ، أعنى ضبط « راكبُ » بمنع التنوين ، بناءً على أن البيت مصرَّع ، تبعت فيه العروض الضرب . والتصريع : جعل عروض البيت فى مثل وزن ضربه وقافيته ويقع فيه من الإقواء والإكفاء والإيطاء والسناد والتضمين مايقع فى القافية . كما فى العمدة لابن رشيق ١ : ١١٦ .

ويجب فى عروض البيت المصرع أن تمنع من التنوين ، كما فى قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسِقط اللوى بين الدَّخول فحومَلِ

وبيت البحترى هذا فيه مع التَّصريع إقواء باختلاف الحركات ، ونظيره من المصرَّع الذى فيه إقواء ما أنشده الزجاجى من قول بعضهم :

ما بال عينك منهـــا الدمـــع مُهراقُ
سحًّا فـــلا غاربٌ منهـــا ولا راقِى

— ٥ —(*)

١١٣ — ص ٣٠١ البيت ٢ حكاية لقول امرأة عفيفة تعرّض لها رجل :

مازلت أحثو التُّرْبَ فى وجهه
طوراً ، وأحْمِى حَوزةَ الغائبِ

جاء فى تفسيره ما معناه : وتعنى بالغائب هَنَـها .

وهذا تفسير غير صالح ، وإنما تعنى بالغائب هنا زوجَها ، الذى تأبى عليها عفتُـها وتصوّنُـها أن تخونه فى غيبته .

١١٤ — ص٣٠٤ البيت الأول فى هجاء رجلين « صوتُ العرُوب » . وفى تفسيره : « العروب : كالعربات مفردها : عربة ، وهى سفن رواكد كانت فى دجلة ، وكانت عبارة عن طواحين قائمة على هذه السفن » ! !

ولست أتكلم فى غرابة هذا التفسير ، وإنما الغريب حقاً أن تجمع العربة على العروب ، فإن هذا لا يكون . وصواب الكلمة « الغروب » بالغين المعجمة المضمومة وهى الدِّلاء العظيمة ، واحدها غَرْب . شبّه الصوت

(*) مجلة « المجلة » عدد مارس ١٩٦٤ من ص ٩٢ — ٩٧ .

الذى يخرج من هذا المهجو بصوت الدلاء حين يفيض ماؤها فى صوت متقطع متتال شنيع .

١١٥ — ٣١١ البيت ٩ :

ولو زُرتُكم فى اليوم سَبعـين مرَّةً
لكنتُ كذى فرخٍ على الفرخ غائبِ

ومن الواضح أن صوابه « عن الفرخ غائب » ، أى كذى فرخ غائبٍ عن فرخِه ، فهو يشعُر أبداً بالحنين إليه .

١١٦ — ص ٣١٢ البيت ٢٥ :

فـما أنْ له إلاّ إلىّ مـذَاهبٌ
تَـكون ولا إلاَّ إليـه مذاهِبِى

صوابه « فما إنْ له » بالكسر . و « إنْ » هذه هى الزائدة لتأكيد النفى مثلها فى قول النابغة :

ما إنْ أتيتُ بشىء أنت تـكرهه
إذن فلا رَفعتْ سـوطى إلىَّ يدى

وصواب ضبط « مذاهبٌ » بحذف التنوين من هذه العروض المصرَّعة التى اعتراها الإقواء كما سبق القول فى التصحيح رقم ١١٣.

١١٧ — ٣٣٤ البيت ٤٧ :

ولو سِمع الدَّهرَ العتَاب بمنطق
لأوجعتُه منّى بحـدِّ المعاتبِ

فيفهم من هذا أن « الدَّهر » منصوب على الظرفية . وصوابه « الدهرُ » على أنه فاعل ، أى لو كان الدهر مما يَسمع العتاب بالمنطق أى الكلام ، لعاتبتُه عتاباً موجعاً .

١١٨ — ص ٣٣٦ البيت ٦٩ فيه « وُلُوا حرمَ الله » . صوابه « وَلُوا » بفتح الواو .

١١٩ - ص ٣٣٩ البيت ١١ :

فما تزيدُ على إلمـامةٍ خُلُسٍ
بأحمـد بن عليٍّ ثم تنقلبُ

صوابه : « خُلَس » جمع خُلْسة بالضم ، وهي النُّهزة والفرصة .

١٢٠ - ص ٣٤٢ البيت ٣٢ :

هـذا ولُيِّـك مستجيراً عائـذا
بِذُراك من زمنٍ حديد المِخلبِ

صوابه : « بذَراك » بالفتح . وفي اللسان : « الذَّرى بالفتح : كل ما استترت به . يقال أنا في ظل فلانٍ وفي ذَراه ، أي في كنفه وستره ودَفئه » . وفي أساس البلاغة : « وأنا في ذَرَى فلانٍ وفي أذرائه » .

١٢١ - ص ٣٤٣ س ٧ - ٨ في كتاب البحتري إلى صديق له : ولولاَ أن تركَ في موضع المعاتبة جفاءٌ وداعية إلى القطيعة » .

من الواضح أن هناك كلمة ساقطة بين « تركَ » و « في موضع » ، ولعلها « العتاب » أو « المعاتبة » .

١٢٢ - ص ٣٤٤ البيت ١٤ :

إذْ أنا في عُنفوانِ منزلةٍ
تُـكرمني مرّة لهـا العربُ

جاء في تفسيره : « العنفوان : حدّة الشيء » .

ولست أحقُّ هذا التفسير . وفي القاموس : « وعنفوان الشيء بالضم وعُنْفُوُّه ، مشدّدة : أوّله أو أوّل بهجته » . ومثله في اللسان : « عنفوان

الشيء : أول بهجته ، وكذلك عنفوان الشباب » . وفيه أيضاً : « وفى حديث معاوية : عُنفُوان المكرع ، أى أوَّله » .

أما ما جاءَ فى اللسان من قوله : « وعنفوان فُعلُوان من العنف ضد الرفق » فهو تفسير صرفى ، لا لغوى ، وذلك لتعيين أصل المادة التى أخذ منها هذا الوزن ، لا أنه تفسير معنوى للكلمة ، بدليل أنه قال بعد ذلك : « ويجوز أن يكون الأصل فيه أنفُوان ، من ائتنفت الشيء واستأنفته إذا اقتبلته » . وجاءَ فى مقاييس اللغة لابن فارس : « فأما العنفوان فأول الشيء ، يقال عنفوان الشباب ، وهو أوله . فهذا ليس من الأول — يعنى العنف الذى هو خلاف الرفق — إنما هذا من الإبدال وهو أن العين مبدلةٌ من همزة ، والأصل الأنفُ ، وأنف كلّ شيء : أوّله » .

وعلى هذا فليس العنفوان من معنى العنف والحدّة فى شيء ، كما يفهم من كلام الأقدمين . فالمراد بالكلمة فى قول البحترى هو أول بهجة المنزلة وطيبها ، لاحدّة المنزلة وعنفها .

١٢٣ — ص ٣٤٥ البيت ١٧ :

حتّى إذا ما الزمانُ أعْوصَ بى

والدهرُ فينـــا لصرفـه نُوبُ

وفى تفسيره : « أعوص بى : أدخل علىَّ من الحجج ما يعسر الخروج منه » .

فأىُّ حجّة يدخلها الزمان على المرء فيعسر عليه الخروج منها ؟ وما هى المحاجّة بين الإنسان وزمانه ؟ وإنما هو من قولهم : أعوص به أى أنزل به ما يعتاص عليه ، أى يصعب عليه الخلاص منه ، يعنى نوائب الدهر ونوازله التى لا مخلّص منها .

١٢٤ — ص ٣٤٥ البيت ٢٨ :

تمنعُنى نبعـــةٌ مغرّســـــةٌ
لا قـــادحٌ شَانَهـــا ولا قَلَبُ

وفى تفسيره « القادح : الدودة التى تنخر الشجر ، وقد جعلها صفة للشجرة . القلب هى القلب بسكون اللام ، وهو نزع قلب الشجرة . وقد حرك الشاعر اللام » .

وعبارة « وقد جعلها صفة للشجرة » لا تؤدى معنى واضحاً . ثم إن الدودة لا يقال لها « القادح » ، وإنما هى « القادحة » بالتاء ، كما فى اللسان والقاموس. وأما « القادح » فمعناه الأكال يقع فى الشجر ، أى التأكل . والقادح أيضاً : الصدع والشق فى العود . فهذا هذا . وأما القَلَب بالتحريك فهو جمع قَلَبَة ، وهى العلّة والدَّاء ، وأصلها العِلّة تُقْلَب لها الدابّة فيُنظر إليها .

١٢٥ — ص ٣٥١ البيت ٩ :

ولـــكنْ مقـــلةٍ لذاتِ دلالٍ
مقَلَتْنى بالـــودّ وهى غروبُ

وفى تفسيره : « الغروب : النازحة » .

ولم أجد هذا التفسير ، وصوابها « عَذُوب » . يقال عذَب عن الشيء : كفّ وأضرب ، فهو عاذبٌ وعَذوب . ومنه قول حميد بن ثور :

إلى شجرٍ ألمى الظلالِ كأنَّها
رَواهبُ أحْرَمنَ الشرابَ عُذوبُ

والعُذوب فى هذا البيت جمع عاذب ، ويقال أعذَبَه عنه : منعه . وفى حديث علىّ : « أعذبوا عن ذكر النساء أنفسكم » ، أى : امنعوها .

١٢٦ – ص ٣٥٢ البيت ٢٦ ، ٢٧ :

نفحاتٌ يُعِدْنَ بعدَ شِماسٍ
ريِّضَ الدّهر وهو عَوْدٌ رَكوبُ

لعيون الخطوبِ « بعدَ شماسٍ »
ولقلب الزمان منها وجيبُ

وفى الشرح : « ما بين القوسين ظاهر أنه تكرار من البيت السابق ، والمقابلة فى البيت تقتضى أن يكون : لعيون الخطوب منها خشوع ، أو ما فى معناه » .

وفى الحق أنه تكرار ولكنه بصورة أخرى ، وهو تكرار متعمَّد من البحترى ، إيغالاً منه فى الصنعة التى يحرص عليها كما حرص عليها شيخه أبو تمام . وصواب ضبط ما فى البيت الثانى « بَعْدُ شِماسٌ » أى لعيون الخطوب بعد ذلك شماسٌ ، فهى نافرة هاربة بعد الذى رأت من نفحات الممدوح وفيض معروفه ، فالخطوب لا تَطُور طَوارَ من مسَّه الممدوح بنفحةٍ منه .

١٢٧ – ص ٣٥٢ البيت ٣٠ :

وذُراه فيه الحميمُ سواءٌ
حين يعفوه والنَّزيعُ الجنيب

وصوابه « ذَرَاه » بفتح الذال أى جانبه وكنفه ، كما سبق الكلام عليه فى التنبيه رقم ١٢٠ . ولذا قال بعده « فيه » ولم يقل « فيها » . فهذا واضح .

١٢٨ – ص ٣٥٤ البيت ٤٢ :

تَفْرِ هاتى وتلك هَبَّةُ رأيٍ
يُخْطِئُ المشرفىُّ وهى تصيبُ

صوابه « تَفر » بالفاء ، من الفَرى ، وهو القطع . يصفه بالرأى القاطع المصيب .

١٢٩ — ص ٣٥٧ البيت ٣٢ :

مع شوقٍ إليك تقدح فى القلـ
ـب عقابيـــلُ بثّةٍ وندوبُ

وإنما هى « بثّهِ » بالإضافة . والبث : الحزن ، والمرض الشديد . والعقابيل : بقايا العلّةِ والعداوةِ والعشق ، جمع عُقبول وعُقبولة أيضاً .

١٣٠ — ص ٣٦٥ البيت ٢٠ : « أصادقى وعِداتى » ، صوابه « عُداتى » جمع عاد ، وهو العدّو ، مثل قاض وقضاة . أما العِدات فجمعُ للعِدَة بمعنى الوعد . فإن أردت كسر العين قلت عِدًى بالقصر لا غير ، وإن أردت إدخال الهاء قلت عُداة فى وِزانِ قضاة .

١٣١ — ص ٣٦٤ البيت ٢٤ :

فالآنَ إذْ ناصبتُ أعنانَ العُـــلا
ورقيتُ منها أرفعَ الدرجاتِ

و « ناصبت » تحريف طبع ، صوابه « ناصيت » . وجاء فى الشرح : « ناصيت الشيءَ : جذبته وقبضت ناصيته » ، ولا يقال قبضَه إلا فى أخذ المال ونحوه ، أو فى معنى خلاف البسط . يقال قبضت المال ، ويقال أيضاً : قبضت يدى . وأما الإمساك بالأشياء فيقال قَبض عليها وبها . فهذا هذا .

والمأخذ الآخر أن هذا تفسير أوّلىّ لا يقال إلاَّ فيما جاءَ على الحقيقة . وأما فى هذا البيت فهو مجاز ، فوجه تفسيره أن يقال ناصيتُ بمعنى باريتُ وساميت كما جاء فى حديث عائشة رضى الله عنها : « لم تكن واحدة من نساء

النبي صلى الله عليه وسلم تناصيني غير زينب » ، فإذا قيل في تفسيره : تناصيني تقبض على ناصيتى ، كان هذا قولاً فاسداً محالا .

١٣٢ – ص ٣٦٦ البيت ٣١ :

ومن المَعَاشر أقدمونَ ومُحدِثٌ
طَرِفُ النَّباهة ريِّضُ المسعاةِ

والصواب ضبط « محدَثٌ » بفتح الدال . بمعنى الحديث . والبحترى يفخر في هذه القصيدة بجدِّهِ الذى رفع الأذان بمنبج ، والآخرِ الذى قاد طيئا للروم ، وغيره الذى قاد وقعه الجسر . فيعنى البحترى أن من النَّاس من هو على عرق من المجد ونباهة الشأن ، سرَى إليه ذلك من قديم عن آبائه وأسلافه ، ومنهم محدَث المجد والنباهة . وشتان ما بينهما .

ومن الحقِّ أنَّ المعاجم لم تذكر الكلمة بهذا الضبط لهذا المعنى ، ولكن الفتح هو الضبط المعروف فى هذه الكلمة لكل جديد أو طريف ، ومنه قولهم « الشعراء المحدَثون » .

ولعل أقدم ما عرف من نصوصه حديث : « إياكم ومحدَثات الأمور » وهو ما لم يكن معروفاً فى كتاب ولا سنة ولا إجماع . وأما « المحدِث » بالكسر فيشتمل على معانى سوء يكاد يكون أكثرها إسلامياً : فهو الزانى ، وهو من فعل أمراً يستوجب الوضوء أو الغُسل ، وهو فاعل الجرم العظيم . وهكذا .

١٣٣ – ص ٣٧٦ البيت ٣ « فتنكحُ » ، صوابه « فتنكحَ » بالنصب لتقدم النفى عليها ، والفاءُ للسببية .

١٣٤ – ص ٣٧٧ البيت ٣ :

إذا لُبنى ألامت فى صَنيعٍ
أحالت بالمَلاَم على الوُشــاةِ

فسرت « ألام » بمعنى لام ، وهو معنىً صحيح ، ولكنه ليس مراداً هنا ، بل ألام هنا بمعنى فعل ما يستحق من أجله اللوم . ومنه فى الكتاب العزيز : « فالتقَـمَـهُ الحوتُ وهو مُـلِيمُ » . وفى المثل : « ربَّ لائم مُـليمٌ » . أى مستحق لِـلَّوم بسوء ما صنع . وقال الآخر :

تُعدَّ معاذرا لا عــذر فيهــا
ومن يخــذل أخاه فقد ألاما

وفيما يلى صواب بعض أخطاء الطبع :

ص ٢٧٥ الحاشية (١١) « والثقال » صوابه « والثفال » .

ص ٢٧٨ البيت ١٥ « يُسرِى » ، وهى « يُسرِى » .

ص ٢٧٨ البيت ١٨ « مذمَـمَة » ، وهى « مُذمَّـمَة » .

ص ٢٧٩ البيت ٢٥ « قَـطُبُـهُ » ، هى « قُـطُبُـهُ » .

ص ٢٨٢ البيت الأول « أو أبَـه » ، هى « أو آبه » .

ص ٢٨٤ البيت ١٦ « وحزمٍ مجرب » ، هى « وحزمِ مجربِ » .

ص ٣٣٦ البيت ٦١ « سِنام » ، هى « سَنام » .

ص ٣٣٨ الحاشية (٢) « إتأب » ، هى « اتّأب » .

ص ٣٥١ البيت ١٦ « وأخلاءُ : عزمتى عنتريسُ » هى « وأخلاءُ عزمتى عنتريسُ » .

٣٥٣ البيت ٣٤ « الجنُـُوب » ، هى « الجَنُوب » .

ص ٣٥٥ البيت ٦ « نية عزبة » ، هى « نية غـَربة » .

ص ٣٦٤ الحاشية ١٦ « عسرت » ، هى « تحسرت » .

ص ٣٧١ الحاشية (١٧) « أزمت سنن الطريق » هى « لزمت سنن الطريق » .

* * *

هذه بعض تصويبات وتعليقات عنَّت لى إثر قراءتى لهذا العمل الضخم الذى قام به أخى وصديقى الأستاذ المحقق حسن كامل الصيرفى ، لم أشأ أن أسترسل فى سرد جميعها ؛ لأنها نماذج لأمثالها ، ولأن إطالة القول مهما يكن فيها من متاع ونفع فهى بعرض إملال .

* * *

وإن أكن قد بدأت المقال باستعلان إعجابى بهذا الجهد الموفق ، وبهذا الخلق العلمى النادر ، فإنى أختمه كذلك بتهنئتى للعالم الفاضل الأستاذ الصيرفى ، زاده الله توفيقاً وعوناً فيما هو بسبيله من هذه الخدمة الجليلة للتراث العربى .

— ٦ —

(هذا المقال السادس لم يسبق نشره)

١٣٥ — ص ٣٧٧ البيت ٤ :

وما وعدَتْ وشيكاً من نوال

فنطلبُ عندها نُجح العِداتِ

وصوابه « فنطلبَ » بالنصب أيضاً ، كما سبق فى التنبيه رقم ١٣٣ .

١٣٦ — ص ٣٧٨ البيت ١٠ :

لقد صَدَقَ المنقَّبُ عن حديثي
بُـــدوّي للأعـــادي وانصلاتي

صوابه « المنقِّبَ » بالنصب . يعني أن بدوَّه وانكشافه للأعادي قد صدقَ المنقِّبَ عن حديثه . يقال صَدَقَه ، أي قال له الصدق ، كما يقال صدقَه الخبرَ . ومنه المثل السائر : « صَدَقَني سِنَّ بَكرِهِ » .

١٣٧ — ص ٣٧٨ البيت ١٥ :

سَوَائر من سِهام الشِّعر تُصمِي
إذا جَعَلتْ تَشِيدُ بها رُواتي

صوابه « تُشِيد » من أشادَ الرباعيّ . يقال أشاده ، وأشاد به ، أي أشاعَه ورفَع ذِكره . وأمّا شاد يشيد ، فمعناه طلاه بالشِّيد ، وهو الجصّ والمِلاط .

١٣٨ — ص ٣٧٨ البيت ٢٠ :

* لإذلال الأعزَّة من عِـــداتي *

صوابه « عُداتي » كما سبق في التنبيه رقم ١٣٠ .

١٣٩ — ص ٣٧٩ البيت الأول :

سُقياً لمجلسِنا الذى آنستَه
واهـــاً لمجلسنا الذى أوحشتَه

والسُّقيا بضم السين صحيحةٌ ذاتُها . يقال سَقاه يَسقيه سَقْيا ، والاسم السُّقيا . ولكن العرب لم يستعملوا في الدعاء إلاّ المصدر المفتوح السين ، يقولون : سَقياً له ورَعياً ! ! أي سقاه الله ورعاه . ويقولون من فِعله : سقّاه ورعّاه ، بالتضعيف ، أي قال له : سَقياً ورَعيا .

وأمَّا ما ورد فى قول البحترى نفسه ص ٤٧١ فى البيت ٥ :

بنى قُشيرٍ ألا سُقيا لمضطهَدٍ ؟

بنى قشـير ألاَ سُقياً للمتاحِ

فهو بالضم صحيح ، لأنه ليس دعاء ، بل المراد به اسم المصدر ، أى ما يُستَقى ، يقول : أليس للمُضطهَد والمتاح ما يُسقاه ! ! فهو طلب على طريقة التمنّى ، وليس دعاء كالضرب السابق الذى التزم العربُ فى سِينه الفتح ، لأنّه مصدر نائب عن الفعل كما يقولون .

١٤٠ — ص ٣٨٢ البيت ٢ :

يُضاعِفُ فيه الإلـهُ الثوا

بَ للصّابرين للصـابراتِ

وينبغى إثبات الواو بين الكلمتين الأخيرتين من البيت .

١٤١ — ص ٤٠١ البيت ١٠ :

لا يحسبون قبورَهم فى غُرْبةٍ

ولوَ أنَّها مضروحةُ بالزَّأبَجِ

جاء فى تفسيره : « الزابج (غير مهموز) : جزيرة . . . إلخ » .

وكان الأوفق أن يقال : « الزأبج هنا مهموز ، وأصله بغير الهمز » فقد همزه البحترى للقافية ، ليفرّ من ألف التأسيس التى إذا قرئ بها البيت عابته بسناد التأسيس ، لأنّ قافية القصيدة غير مؤسسة . ومطلع هذه القصيدة :

لم يبقَ فى تلك الرسومِ بمنعجِ

إمّا سألتَ معرَّجٌ لمعـرِّجِ

١٤٢ — ص ٤٠٤ البيت ٤ : « كالسِّمْع » . جاء فى تفسير السِّمع أنه « سبع إفريقى بين الذئب والضبع » .

أما أنه بين الذئب والضبع ، فلا غُبار عليه . وأما أنّه إفريقى فهذه متابعة لخطأ ظاهر . فالسِّمع يعرفه العربُ من قديم الزمان فى باديتهم الأسيوية ، ويتناولونه فى أشعارهم تناولاً ظاهراً . وفى صفحتين من صفحات كتاب الحيوان للجاحظ نجد هذه النصوص :

قال سَهم بن حنظلة :

كالسِّمع لم ينقُب البَيطارُ سُرَّتَه
ولم يَدِجْه ولم يغمِزْ له عَصَبا

وقال سُؤر الذّئب :

هو سِمْع إذا تمطّرَ شيئاً
وعُقابٌ يحثُّها عِسبارُ

وقال تأبّط شرا :

مُسبلٌ بالحىّ أحوى رِفَلٌ
وإذا يَعْدُو فسِمعٌ أزلُّ

وقال آخر :

* تَلْقى بها السِّمعَ الأزلَّ الأطلسا *

يصف باديةً من بواديهم .

واشتقاق اسمه فى العربية واضحُ تمام الوضوح ، قالوا فى أمثالهم : « أسمَعُ مِن سِمْع » . وقال الشاعر :

تَراه حديدَ الطَّرف أبلجَ واضحاً
أغرَّ طويلَ الباع أسمعَ مِن سِمعِ

فالقول بأنه إفريقى قولٌ غير صحيح ، تبع فيه الشارح معجم المعلوف ، وكم ذا بهِ — على جلالة قدره — من الأخطاء .

١٤٣ — ص ٤٠٦ البيت ٥ فى مدح البحترى لشعره :

قوافٍ كالسِّلام تفــوقُ حُسناً
نجــومَ اللّيل تُوقدها الدَّيلجى

وفى تفسيره : السِّلام بكسر السين : شجر مر . واحدته سلامة . وهو كذلك جمع السلمة ، وهى الحجارة » .

وهذا المعنى الأخير هو المتعيِّن ، وكان ينبغى أن يقتصر عليه فى الشرح ، لأنَّ القوافى المتينة تشبَّه بالصخر المنحوت . لا بالشجرِ المرّ . ومن ذلك ما جاء فى طبقات ابن سلام ٤٠٨ فى قصة الأخطل حين حمله بشر ابن مروان أن يحكم بين جرير والفرزدق . فقال الأخطل : « الفرزدق ينحت من صَخر ، وجريرٌ يغرِف من بحر » .

ومن هذا المعنى قوله :

علَىَّ نحتُ القوافى من معادنها
وما علىَّ إذا لم تَفهم البقرُ

كما تشبَّه القافية بالسِّنان فى متانته واستواء حدّه أيضاً . ومنه قول عبيد ابن معاوية فى الحماسة ٦٧ بشرح المرزوقى :

وقافيةٍ مثل حـــدٍّ السنا
نِ تبقَى ويَذهب من قالهـــا

١٤٤ — ص ٤٠٧ البيت ٤ :

وعنـــدى عُصيْبيَةٌ مُحلونَ
من الرَّاحِ صِرفاً ومُمـــزوجَهْ

وفيه فسادٌ فى اللفظ . إذ لا يستقيم أن يقال « عُصَيبِيَة » فإنه لا يُعرف

لها مكبَّر تصغَّر عليه هذا التصغير الذى لا يكون إلا لاسم على فاعلة معتل اللام كما قالوا فى تصغير داهية : دويهيَة .

وصوابة « عُصَيِّبة » كما هو واضح فى طبعة هندية ، وهى تصغير « عصابة » بمعنى الجماعة ، لا « عُصْبة » ؛ فإن العُصبة إنما تصغَّر على « عُصَيْبَة » بتخفيف الياء .

ومن هنا يجب تصحيح ما جاء فى شرح الديوان أيضاً ؛ إذ فيه « عصيبية : تصغير عصبة ، أى جماعة » . فصوابه « عصيِّبة ، بتشديد الياء : تصغير عصابة أى جماعة » ٥

١٤٥ — ص ٤١٠ البيت ١٨ :

وفىَ علىٌّ بمواعيده
ولم ينقِّصْها بأخراجِ

وجاء فى تفسيره أنّ الأخراج : « جمع الخراج » .

ومن الحقّ أن الخراج قد سمع جمعه على أخراج ، كما سمع جمعه على أخاريجَ وأخرجة ، كما فى لسان العرب . ولكن كيف يُتصوَّر أن ممدوحاً يفى بما وَعد من عطاياه ثم ينقص ما أعطى عن طريق جباية الخراج ؟ ! والمملوح هنا قائد حرب لا علاقة له بجباية الخراج .

فالأوفق ما ورد فى أصلين من أصول الديوان — هما : ح ، ل — « بإخداج » فإن الإخداج هو النقص ، وهو الذى يتناسب مع قوله « لم ينقصها » أراد أنه أدّى إليه مواعيده كاملة لم يتناولها بأىّ نقص كان . ومنه قولهم : أخدج الرجل صلاته ، أى نقصَها . وفى الحديث : « كل صلاة ليست فيها قراءة فهى خِداج » ، أى ناقصة . وجاء فى قول البحترى ص ٤١٧ :

أخو العَزم لم تَصدر عزيمة رأيه
بمقتضَب من عاثرِ الرأى مُخدَجِ

١٤٦ — ٤١٢ البيت ١٣ :

لمّا تضاربَ بالزّحفين قُطرُهما
فضاربٌ بغِرار السَّيفِ أو واجِ

جاء فى تفسيره : « الواجى : الرجل لا نفع به » .

وهذا تفسير منتزع من مادة (وجى) انتزاعاً . وإنما « واج » هنا من مادة (وجأ) المهموزة ، من قولهم : وجأه بالسكين وغيرها « وجئا » ، إذا ضربه . وهو المناسب هنا للضرب بِغِرار السيف ، ومنه قول عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت :

فكنتَ أذلَّ من وتدٍ بقاعٍ
يشجِّج رأسَــه بالفهرِ واجى

أصله « واجئٌ » كما فى اللسان (وجأ) .

١٤٧ — ص ٤١٧ البيت ١٤ :

أخو العزم لم تَصدر عزيمةُ رأيه
بمقتضَبٍ من عاثر الرّأى مُخدَجِ

فسر « المقتضب » بأنه الشىء المقتطع .

وهذا هو أصل معنى المادّة ، ولكن المراد بالمقتضَب هنا هو الرأى المرتجَل الذى لم ينجُم عن إعدادٍ وتهيئة ، من قولهم : اقتضبَ الحديثَ والشعرَ والخطبة : تكلم به من غير تهيئةٍ وإعداد له .

١٤٨ — ص ١٤٧ البيت ١٨ :

قنِعتُ على كُرْهٍ وطأطأت ناظرى

إلى رَنْقٍ مطروقٍ من العيش حَشْرَجِ

و « كُره » يصح أن تضبط أيضاً بفتح الكاف بمعنى الإكراه ، ولو ترك ضبطها أو ضبطت بالضبطين معاً لكان أوفق وأبعد عن التحكمُّ فى الضبط .

وفسّر « الحشرج » بأنه كوز رقيق يبرد فيه الماء ، والنقرة فى الجبل يصفو فيها الماء » .

ولا وجه لإيراد المعنى الأوّل لاستحالته هنا ، كما لا وجه لإيراد الثانى لعدم ملاءمته ؛ فإنّ المطروق الماءُ الذى طُرق وكدّره الشاربةُ ، والبحترى يعنى الماء الكدر ، لا ريب فى ذلك .

وإنما المراد بالحشرج هنا شبه حِسْيٍ تجتمع فيه المياه .

١٤٩ — ص ٤٢٠ البيت ٨ :

تأبّى قُوَيقُ لتَدْويرها

فنكّبَ عن قَصدِها وانعرَجْ

وفى تفسيره « تأبى : تلبث على المكان وتأنى » .

وبالجمع بين النص وتفسيره نقطع بأن هناك تحريفاً مطبعياً فى « تأبّى » وأنها محرفة عن « تأيّى » . لكن صواب كتابته مع ذلك « تَأَيّا » بالألف فى آخره ؛ لأن هذا هو المتّبع فى كل فعل قبل ألفه الأخيرة ياء ، كما فى : يحيا ، استحيا ، تزيّا ، أعيا . لا يصح كتابتها بالياء ، اتباعاً للقاعدة التى ذكرتها . وانظر المطالع النصرية ١١٨ .

١٥٠ — ص ٤٢٧ البيت ١٠ :

مَليُّون أن تُسقى البِلادُ غِياثَها

بأوجههم حتّى تسيلَ فجاجُها

وجاء فى شرحه : « مليون : مليئو ن ، جمع الملىء ، وهو الغنى المقتدر » .

وإنما المراد بالملىّ هنا الثقة الجدير بالشىء . تقول : هو ملىّ بكذا ، أى جديرٌ به .

١٥١ ــ ص ٢٢٧ البيت ١٢ :

تربَّعتُها فازداد ظاهر حسنها
وأضعفَ فى لحظ العيون ابتهاجُها

صوابه : « تربَّعتَها » بتوجيه الخطاب إلى الممدوح .

١٥٢ ــ ص ٤٣٠ البيت ٣ :

ما أنسَ لا أنسَ ما عُمِّرتُ قولتَها
والنَّقصُ بالرَّحل والأنساع محدوجُ

ثم زاد الشارح : « ولعل الصحة فى رواية البيت : والنص بالرحل والأنساع محدوج . يقال نص المتاع جعل بعضه فوق بعض » .

وكلاهما غير متَّجِه ، ويتعيَّن أن يكون صوابه « والنِّقْض » بالنون المكسورة فى أوله والضاد المعجمة فى آخره . والنِّقْض : البعير الذى أنضاه السفر . كأنّ السفر قد نقضَ قوَّتَه فأهزله . والأنثى منه نِقضة . قال رؤبة :

* إذا مَطَونا نِقْضةً أو نِقضَا *

والمحدوج : الذى وُضِع عليه الحِدْج . وهو مركب من مراكب النساء نحو الهَودج والمِحفَّة . وكان العرب يؤثرون حمل نسائهم على ضعاف الإبل وإناثها ، إشفاقاً منهم عليهنّ .

١٥٣ ــ ص ٤٤٣ البيت ٦ :

أثنِي عليكِ فإنّني لم أخفْ أحدًا

يلْحِي عليكِ وماذا يزعمُ اللاحِي

والسّهو في « يلحِي » ؛ فإن العربَ لا تعرف هذا الفعل ، إنما تقول لحاه يلحوه لحواً فهو ملحوٌّ ، إذا شتمه . وهذا واويّ . وتقول أيضاً لحاه يلحاه لحياً فهو ملحيٌّ . إذا شتمه أو لامه وعنّفه . وهذا يائي .

فوجه ضبط الفعل « يلْحَى » لا « يلْحِي » .

١٥٤ — ص ٤٤٨ البيت ١٠ ، ١١ :

فإلاّ نَهاهمْ عن توردُّ نفسه

تقلُّبُ غادٍ في رضاهم ورائحِ

وإلاّ أعدّوا بأسه وانتقامه

لكبش العدوِّ المستميتِ المناطِحِ

وصوابهما : « فألاّ » و « وألاّ » . وهي ألاّ التحضيضية بمعنى هلاّ . وقد سبق نظير هذا التصحيح في التنبيه رقم ٦٢ .

١٥٥ — ص ٤٥٧ البيت ٧ :

وأرتْنا خداً يُراحُ له الورْ

دُ . ويشتمُّه جنَى التفّاحِ

وما هكذا تقال . إنما هي « يَراحُ له الوردُ » . يقال راحَ للأمر يَراح رَوحًا وراحاً وراحةً ورِياحةً . إذا أشرق له وفرِح به . وأخذتْه له خفّة وأريحيّة .

ومنه قوله :

إنّ البخيل إذا سألتَ بَهرْتَه

وتَرى الكريمَ يَراحُ كالمختالِ

وقول الآخر :

وزعمتَ أنّك لا تَرَاح إلى النِّسا
وسمِعتَ قِيلَ الكاشح المُردِّدِ

وقول أمية بن أبى عائذ الهذلىّ :

تَـــرَاح يــــداهُ بمحشورةٍ
خواظى القِداحِ عِجاف النِّصالِ

١٥٦ — ص ٤٦٤ البيت ٧ :

فكان يُريد نصحاً وهو مُصْبٍ
على غشٍّ كأطراف الرماحِ

و « مُصْبٍ » على هذا من أصبَى . ولا يقال أصبى على الشيء ، إنما يقال أصبتِ المرأةُ ، إذا كان لها صبىٌّ ، وأصبتَه المرأة : دعته إلى الصِّبا ، وأصبى فلانٌ عِرس فلانٍ ، إذا استمالها . وأصبَى القومُ : دخلوا فى الصَّبا .

وهذا كلّه بعيدُ عن المراد ، والصواب : « مُضْبٍ » بالضاد المعجمة ، من قولهم : أضبَى فلانٌ على داهية وأضبأ ، أى أسرَّها وكتمها . يقال من المهموز ويقال من المنقوص .

١٥٧ — ص ٤٧٦ البيت ٢ :

وإذا بَرَزْنَ من الخُدور سَفِرْنَ عن
هَيْكَ من وردٍ ومن تُفَّاحِ

صوابه : « سَفَرْنَ » بفتح الفاء . يقال سفَرت المرأة تَسْفِر ، وأسفرت تُسفِر : كشفت عن وجهها .

١٥٨ — ص ٤٧٦ البيت ٨ :

لأُخبِرَنَّكَ عن بني الجَرَّاحِ
وعِتادهم من سُؤدَدٍ وسَماحِ

وفى هذا الضبط سهوان :

أحدهما أنَّ العَتَاد ، إنما هو بفتح العين لا كسرها . وهو العُدَّة والشيء الذى تعِدُّه لأمرٍ ما وتهيّئه له ، لا يقال إلا بالفتح . وفى حديث صفته عليه السلام : « لكل حالٍ عنده عَتادٌ » : أى ما يصلح لكل ما يقع من الأمور .

والآخر : أن السؤدُدَ المهموز لا يقال إلا بضم الدال ، كما سبق فى التنبيه رقم (٤) .

١٥٩ — ٤٩٢ البيت ٦ فى هجاء الخاقانى :

جمَادٌ من البَرد لم يَنْحلِلْ
ونِيءٌ من البُلْه لم يَنطبِخْ

وجاء فى تفسيره : « البله : جمع بلهاء : الناقة لا تنحاش من ثقل كأنها حمقاء » .

وفى رواية « البله » . وفى تفسيرها هذا التفسيرَ مجال للقول : فإنَّ البحترى يقول فى الشطر الأول من البيت : إنَّ ذلك المهجوّ بسبب بَردِه لم ينحلَّ ما به من جمود . فماذا يتوقع منه فى الشطر الثانى من البيت ؟

المتوقَّع أن يقول : إنه نِيء لم ينطبخ ، وذلك لعلة أخرى مماثلة للعلة الأولى . وهى ما جبل عليه ذلك المهجوّ من بلادة وثقل . فصواب رواية البيت « من البَلْد » . وهى الرواية التى أوردها أبو العلاء المعرى فى عبث الوليد ص ٧٧ وقال فى تفسيرها : « البَلْد قليل فى الاستعمال الأول ولكنه فى

القياس مطَّرد ؛ يقال بليد بيِّنُ البُلْد ، كما يقال عظيم بيِّن العُظْم ، وقريب بيِّن القرب » . فهذا هذا .

وأما رواية « البُلْه » فلا تستقيم ، وتفسير البُله بأنه جمع بلهاء على فرض صحة رواية البُله ، بعيد جدًّا ؛ فإن البحترى يتحدَّث فى هجاء رجل ، فالأولى أن يكون جمع « أبله » على ما يكون فى تلك الرواية من إخلالٍ بنسج البيت وتلاؤم بُنيانه .

١٦٠ — ص ٤٩٢ البيت ٦ :

غدًا يَحرُم الماءُ القُراحُ وتَنتَوِى

وجوهٌ من اللذَّات مُشجِية الفَقدِ

و « القُراح » بضم الحاء من أخطاء الخاصة ، وصوابه « القَرَاح » بفتح القاف كسحاب ، وهو الماء الخالص . وفى اللسان : « وفى الحديث : جِلْف الخبز والماء القَراح . هو بالفتح : الماء الذى لم يخالطه شىء يطيَّب به ، كالعسل والتمر والزبيب » .

ورواية « تَنتوِى » بعيدة المجاز .

على أن الرواية الغالبة التى أثبتها المحقق فى الحواشى ، وهى رواية « وتغتدى » رواية سليمة لا غبار عليها ، على أن تضبط « مشجيةً » بالنصب .

والبيت تصوير لما يحدث فى شهر رمضان من إمساك عن الرغائب واللذات . وقبله :

وممَّــا دَهَى الفتيانَ أنَّهمُ غَدَوْا

بآخر شعبانٍ على آخر الوِردِ

١٦١ — ٤٩٩ البيت ١١ فى مدح الحسن بن مخلد :

المُفْتدِى ومُلوكُ العجم خاضعةٌ

لفرعِه المعتلِى فيهم ومَحتِدِه

وما هكذا يقال فى صفة الممدوح ، إنما هو « المُفتدَى » ، أى الذى يفديه الناس إعزازاً له وحبًّا .

ونصب « خاضعةً » لا وجه له ، إنما هى « خاضعةٌ » بالرفع .

ومما يذكر أن الحسن بن مخلد كان من أصل فارسىّ .

١٦٢ — ص ٥٠٠ البيت ٢٠ :

يأيُّهـــا السيِّد المجرِى خلائقَه

على سوابِقِ عَلياه وسُؤدَدِه

صوابه « عَلْياهُ وسُؤْدُدِه » . انظر للكلمة الأولى التنبيه رقم ٢٥ وللثانية التنبيه رقم ٤ ، و١٥٨ .

١٦٣ — ص ٥٠١ البيت ٢ :

وأبيها وإن تَفاحشَ وَهْىٌ

فى هَواها ، واحتلّ منها جديدُ

وكذا وقعت الرواية فى طبعة هندية ص ٢٠٨ وغيرها من النسخ .

والجديد لا يحتلّ ، وإنما يختلّ : أى يلحقه الوهن والخلل . فالوجه رواية سائر النسخ : « واختل منه جديد » ، أى وهَنَ جديدُ الهوى وأدركه الضعف والانحلال . وقبل البيت ، وهو مطلع القصيدة :

نفِستَتْ قُربَها عليك كنُودُ

والقريب الممنوعُ منك بعيدُ

١٦٤ — ص ٥٠٦ البيت ٤٢ :

وإذا قيات القوافى تهاوَى
رجزٌ من بيوتهـا وقصيدْ

وجاء فى تفسيره : « الرجز بحر من بحور الشعر » .

والمقابلة فى البيت تقتضى أن يكون الرجزُ هذا اللونَ من الشعر الذى يقابل القصيد . وهذا الضرب يأتى من مشطور الرجز ومنهوكه ، ومن مشطور السريع ، ومن منهوك المنسرح .

فمثال مشطور الرجز قول العجاج :

الحمـــد لله الذى استقلّتِ
بإذنـــه السماءُ واطمـــأنَّتِ

ومثال منهوكه :

ياليتنى فيهـــا جـــذَعْ
أخُبُّ فيهـــا وأضَـــعْ
أقـــودُ وطفاءَ الزَّمَع

ومن مشطور السريع قول رؤبة :

ونحن أبقَى من جبال الأوتادْ
على مُلمَّـــات الزَّمانِ الهَدَّادْ

ومن منهوك المنسرح قول هند بنت عتبة يوم أحد :

صـــبراً بنى عبد الدارْ
صـــبراً حمـــاةَ الأدبارْ
ضربـــاً بكلِّ بتّارْ

وليس من المتعينِ أن يكون ما صنع من بحر الرجز رجزاً ، فقد يكون قصيدا ، فمن ذلك مثال العروضيين :

دار لسلمى إذ سليمى جارةٌ
قَفراً ترى آياتِها مثلَ الزُّبُرْ

وقوله :

القلب منها مستريحٌ سالمٌ
والقلب منّي جاهدٌ مجهودُ

١٦٥ — ص ٥٠٨ البيت ٧ :

كفّى فقد ألهاه عن حَرِّ الهوى
حدثٌ أطَلّ من الهواء البارِدِ

ولست أنفي صواب كلمة « أطَلّ » . ولكنها ليست أولى بالإثبات ، فإن الحدث الشديد لا يُطِلّ ، فِعْلَ مَن يحدِّث نفسَه بشيء ثم يرجع عنه ، ولكنّ الأحداث الشديدة تُظِلُّ إظلالاً وتشمل . وتكتنف مَن تنزل به من كل جانبٍ وتحيط به . وهي الرواية التي حملتها نسخة «ل» .

والعرب تقول : أظلّني الشيء ، أي غشيني . وبه فسّر ثعلب قوله تعالى : « إلى ظلٍّ ذي ثلاث شُعَب » ، قال : معناه أن النار غشيتهم . وفي التنزيل العزيز : « فأخذَهم عذابُ يومِ الظُّلَّةِ » لأن الله تعالى بعث غمامةً حارّة فأطبقت عليهم وهلكوا تحتها . وأروع العبارات الموجّهة لهذا المعنى قوله تعالى : « لهم من فوقهم ظللٌ من النارِ ومن تحتهم ظُلَلٌ » .

١٦٦ — ٥٠٨ البيت ٩ :

ضحكَتْ فأبكتْ عينَ كلِّ مموّهٍ
متجمّلٍ تحت الضريب الجامد

وفسَّر « المموَّه » بأنه موضع ذو ماء .

والمموَّه فى البيت ليس موضعاً ، بل هو السحاب تَبكى عيونهُ ، وصواب ضبطه أيضاً « مموِّه » بكسر الواو المشددة . يقال موَّهت السماءُ : أسالت ماء كثيراً ، كما يقال موَّهَ السحابُ الوقائع ، انظر اللسان (موه) .

ويقال موَّه الموضعُ : صار فيه الماء . قال ذو الرمة :

تميميَّة نجـــديَّة دار أهلها
إذا مَوَّه الصَّمَّانُ من سَبَل القَطرِ

فضبط « المموَّه » بفتح الواو لا وجه له ، وتفسيره بتلك العبارة كذلك .

وأما « مُتجمَّل » فرواية عجيبة ، وصوابها « متحمِّل » بالحاء المهملة وكسر الميم المشدّدة ، أى متحمِّل للماء .

١٦٧ — ص ٥٠٩ البيت ٣ :

ومَعَاض المشِيبِ يَغْدُو فيستخ
لقُ مِن عَيشنا الذى نَستجدُّ

وفى بعض النسخ : « ومَعاص » .

وكلاهما غير مستقيم . وصوابهما « مَغَاض » بالغين المعجمة . يقال غاض الماء يغيض غيضاً ومَغَاضاً ، أى نقص ، أو غار وذهب . يعنى النَّقصَ والتغيُّر الذى يكون عند المشيب ، وهو نَقص الشباب وغَوره وتولِّيه .

١٦٨ — ص ٥١٥ البيت ١٤ :

إنْ تَقرِضا فقضاءٌ لا يَريث وإنْ
وَهَبتما فَقَبولُ الرِّفدِ والصَّفَدِ

و « القُبول » بضم القاف لا بأس به ، وإن كان الأعلىَ فى الضبط « القَبول » بفتح القاف . ولقد ذكر عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : « لم نسمع العرب تضم القاف فى قبول ، وكان القياس الضم لأنه مصدر مثل الدُّخول والخروج » . ثم قال أبو عمرو : « ولم أسمع بحرفٍ آخر فى كلام العرب يشبهه » . انظر الطبرى ٦ : ٣٤٤ فى تفسير قوله تعالى : « فتقبَّلها ربُّها بقَبولٍ حَسَنٍ » . وأجاز الفراء والزجاجُ ضم القاف ، كما فى تفسير أبى حيان ٢ : ٤٤١ .

وحكى فى اللسان عن ابن الأعرابى : « قبلت الهدية أقبلها قَبولاً وقُبولا » .

١٦٩ — ص ٥١٩ البيت ١٧ :

سَما بالخيـــــل أرسالاً لِسيمَا
فمِن شُوسٍ إلى الداعى وقُـــودِ

وجاء فى تفسيره : « الشوس : جمع الأشوس ، وهو الجرىء على القتال . القود : السهلة القياد » .

أما تفسير الشُّوس بهذا فلم أره من قبل ، والمعروف أن الأشوس هو الذى ينظر بمؤخر العين تكبراً واستعلاء ، أو غيظاً ، أو الذى يرفع رأسه تكبراً ٥

وكذلك تفسير القود على هذا الوجه ليس صحيحاً ، وإنما هو جمع أقود وقوداء ، وهو من الخيل : الطويل العنق ؛ وقد قوِدَ قَوَداً .

وأما ضبط « وَقود » فى مثل هذا التعبير ، فالذى استقرَّ عليه الوضع فى الكتابة المعاصرة التى لا تضبط فيها الكلمات ضبطاً كاملا أن يهمل ضبط واو العطف ، لأنها كلمة مستقلة معروفة الضبط . وأما الواو التى من صلب الكلمة نحو « وَقودُ النار » فضبطها مستحسن إن لم يكن واجباً .

١٧٠ ــ ص ٥٣٤ فى البيت ٣٥ :

* غماغِمُ أصواتٍ وجَرس تَقارُعِ *

وقد فسّر « التقارع » بأنه « التطاعُن بالرماح » .

وليس كذلك فإن التقارع هو المضاربة بالسيوف يقرع بعضها بعضاً .

وجمهور مادة (قرع) يرجع إلى الضرب .

وفى مقاييس اللغة لابن فارس : « القاف والراء والعين . معظم الباب ضرب الشىء . يقال قرعت الشىء أقرعه : ضربته . ومقارعة الأبطال : قرع بعضهم بعضا . . . » إلخ .

وفى اللسان : « والقراع والمقارعة : المضاربة بالسيوف ، وقيل مضاربة القوم فى الحرب . وقد تقارعوا » . ولم يقل أحد من اللغويين إن التقارع التطاعن بالرماح .

والرماح لا يضرب بها ، وإنما يطعن بها . وقالوا : الضريبة : المضروب بالسيف . وقالوا أيضاً : الضريبة : كل شىء ضربته بسيفك من حى أو ميت . وقالوا فى فروقهم اللغوية : الطعن بالرمح ، والطَّعَنانُ بالقول . وبعضهم يقول : يطْعُن بالرمح ، ويطْعَن بالقول .

١٧٢ ــ ص ٥٣٤ البيت ٤٣ :

هُمُ عوّضوا من نعمتى إذ وَتَرْتُها

بأيدٍ يردُّ الفائتاتِ مديدُها

وصوابه « وُتِرْتُهَا » بالبناء للمجهول ، وهى بمعنى سُلِبتُها أو نُقِصتُها .

١٧٣ ــ ص ٥٣٥ البيت ٥ :

إذا ساد شيبانَ بن ثعلبةَ ارتضَتْ

رئاسة عالى البيتِ يَفرَعُها مجدا

و « الرئاسة » بكسر الراء والهمز لا تعرفها اللغة ، وإنما تعرف « الرياسة » بالتسهيل ، و « الرَّآسة » بفتح الراء والهمز لا غير ، كما هو ثابت فى المعاجم الأصيلة .

وقد ورد هذا السهو أيضاً فى ص ٥٨٥ فى البيت ١٩ فليصحح .

١٧٤ — ص ٥٣٥ جاء فى التعليق على البيت الثانى وهو :

جَرَى فحوى سَبْقَ المجيدِّينَ وادعا
وأعطى فما أعطى قليلاً ولا أكدَى

عبارة « الذى بخل فى العطاء » ، وصوابها : « أكدى : بخل فى العطاء » . وقد جاءت على هذا الصواب عند التعليق على البيت الثالث ، وهو :

ولم يُبْدِ إفضالاً على متطلّبِ
فواضلَه إلاّ أعاد الذى أبدَى

وليس فى هذا البيت الثالث ما يقتضى هذا التعليق الذى أثبت فى حواشيه . والوجه فى كتابة « أبدى » هذه أن تكتب « أبْدَا » كما فى المطالع النصرية ١٢٢ لأنها مسهلة عن أبدأ . وفى الكتاب العزيز : (إنّه يُبدئ ويُعيد) .

١٧٥ — ص ٥٣٨ : « وقال يهجو بنى جعفر النَّمِرِيِّين » هكذا ورد ضبط كلمة « النَّمِرِيِّين » ، وإنّما النسبة الصحيحة إلى قبيلة النَّمِر : « نَمَرىّ » بفتح الميم كما جاء فى نص اللسان . وجاء فى همع الهوامع ٢ : ١٩٥ : « إذا نسبت إلى فَعِل بفتح الفاء وكسر العين ، أو فِعِل بكسر الفاء والعين ، أو فُعِل بضم الفاء وكسر العين فتحتَ العين من الثلاثة ، كنَمِر و نَمَرىّ ، وإبِلِ وإبَلىّ ، ودُئِل ودُؤَلىّ » . ثم نقل عن أبى حيان قوله : « ولا أعلم خلافاً فى وجوب فتح العين فى نحو نمر وإبل ودئل ، إلاّ ما ذكره طاهر القزوينى فى مقدمة له أنّ ذلك على جهة الجواز ، وأنه يجوز فيه الوجهان » .

وفى هذا يقول ابن مالك :

وأولِ ذا القلب انفتاحا ، وفَعِل
وفِعِلٌ عينَهما افتحْ وفُعِلْ

١٧٦ ــ ص ٥٤٥ البيت ٦ :

ما كان لى جَلَدٌ فيودَى إنّما
أودَى غداةَ الظاعنين تجلُّدِى

صوابه « فيُودِيَ » بكسر الدال وفتح الياء . وأودى معناه هلك وفنى . يقول : لم أخلَق ذا جلد حتى يقول الناس : قد أودى جلده ، وإنما تجلّدت ، أى تصنّعت الجَلَدَ وتكلفته ، فأخفقتُ فيما تصنَّعتُه وحاولتُ قَسرَ نفسى عليه .

١٧٧ ــ ص ٥٦٩ البيت ٢ :

أُقسِمُ الظنَّ فيه أنّى تخطّى الـ
رَّملَ من « عالجٍ » وأنّى تَهدَّى

وصوابه « أُقسِّمُ » من القَسْم لا من الإقسام . كما ينبغى ضبط « الظنّ » بالنصب « الظنَّ » فإن الكلمة مهملة الضبط فى النسخة وعدم ضبطها يوقع فى لبس . يقول : أضحت ظنونه مقسَّمةً ، ممّا ساوره من الشك فى ذلك . وتقول العرب : قسّم فلانٌ أمره : لم يدر كيف يصنع فيه . وقال عدىّ ابن زيد :

طِبنة شُبِّهتْ فأمكنها القَسْـ
ـم فأعدَتْه والخبيرُ خبيرُ

١٧٨ — ص ٥٧٠ البيت ١٣ :

وإذا القومُ لم يُرَاحُــوا لقُربى
كان لى عنهُم مَرَاحٌ ومغْــدَى

ووجهه « لم يَرَاحوا » بفتح الياء ، كما سبق توضيحه فى التنبيه رقم ١٥٥ :

١٧٩ — ص ٥٧٨ البيت ٢٤ :

وأشكرُ نعمةً لك باطِّلاعى
على أنَّ الوفاءَ اليومَ مُودِ

جاء فى تفسيره : « المودى : المهلك » ، وصوابه « المودى الهالك » ، من قولهم : أودى ، أى هلك . ومنه قول أبى ذؤيب :

أودَى بَنِىَّ فأعقَبونى حسرةً
بعد الرُّقاد وعبرةً لا تُقلِعُ

وقول أبى العلاء :

أودَى فليتَ الحادثاتِ كَفافِ
مالُ المُسيفِ وعنبرُ المستافِ

١٨٠ — ص ٥٨٠ البيت ٥ :

وبالسَّاجور من ثعَلِ بن عمرو
صناديدٌ من الفتيانِ صِيــدِ

وضبط « ثعَلِ » بكسر اللام ضبط صحيح ، فإنه ليس ممنوعاً من الصرف . وفى اللسان : « وبنو ثُعَلٍ : بطن ، وليس بمعدول ، إذ لو كان معدولاً لم يصرف » . فلا يحسب الحاسب أن الشارح أخطأ فى هذا ، بل هو على الصواب وإنما السهو فى ضبط « صِيدِ » . فإنَّ روى القصيدة مضموم . وأولها :

أشرِّق أم أغرِّب يا سعيدُ
وأنقُص من زَماعى أم أزيدُ

١٨١ – ص ٥٨٨ البيت ٤ :

بئس المُرجى للفتاةِ يصُونُها
والمُرْتَجِى لِصلاحِ أمْرٍ فاسدِ

ينبغى ضبط « المرجَّى » بتشديد الجيم المفتوحة ، وأما « المرتَجِى » فصوابه « المرتَجَى » بفتح الجيم .

١٨٢ – ص ٥٩١ البيت ١٢ :

فهىَ الشَّمْسُ بهجَةً . والقضيبُ ال
غضُّ ليناً ، والرِّئمُ طوقاً وجيـدا

صوابه « طَرْفاً وجيدا » ، فإن المرأة تشبه بالظبى فى عينه وجيده . وليس للظبْى طوق كما لحمام فتشبه به المرأة . على أنه قد ورد فى كلام الشارح : « الطرف العين » . وجاء بهذا اللفظ الصحيح فى طبعة مصر من الديو ن .

١٨٣ – ص ٥٩٥ البيت ٣٧ :

عبد شمسٍ شمسُ العَرِيبِ أبونا
مَلَكَ الناسَ واصطفاهم عبيـدا

هكذا ورد ضبط « العَرِيب » ولم ترد « العَرِيب » بمعى العرب ، وإنما ورد « العُرَيب » بهيئة التصغير للعَرَب . وفى اللسان : « الجوهرى : العُرَيب : تصغير العَرَب » . وأنشد لأبى الهندىّ :

ومَكْنُ الضِّبابِ طعامُ العُرَيـ
ـبِ لا تشتهيه نفوسُ العَجَمْ

ثم قال : « صغّرهم تعظيماً ، كما قال : أنا جُذَيلها المحكَّك ، وعُذَيقُها المرجَّب » .

١٨٤ — ص ٦٠٢ البيت ٥ :

أسقَى محلتَّكَ الغمامُ ، ولا يزَلْ
روضٌ بها خضِرٌ ونَورٌ جاسدُ

وفى تفسيره : « الجاسد : اللاصق » .

وأىُّ حُسنٍ فى هذا ؟ ! إنما الجاسد : المشبه بالجاسد ، وهو الدم اليابس ، شبَّهه به فى حمرته .

وقد تكرر هذا الخطأ فى تفسير البيت ٩ من صفحة ٦٢٣ .

١٨٥ — ص ٦٠٤ البيت ٥ :

مِن كلِّ أهيفَ مُرهَفٍ
أو أجْيَدِ اللَّبَتَيْنِ أغْيَدْ

وفى تفسيره : « اللبب واللبة : المنحر . وموضع القلادة من الصدر » .

ولا وجه لهذا التفسير هنا ، ونص البيت محرَّف ، صوابه « اللِّيتَيْنِ » مثنّى لِيت . واللِّيتانِ : صفحتا العنق . وهما اللتان توصَفان بالجَيَد ، أى الطُّول .

وأما اللَّبب وموضع القلادة من الصدر فليس يصفه العرب ولا غير العرب بالطُّول .

ومما ورد فى ذلك قول ابن دريد ، وأنشده الزجاجى . فى أماليه ٧٠ من تحقيق كاتبه :

أعن الشمس عِشاءً كشَفت تلك السُّجوفْ
أم عن البدر تَسرَّى مَوهِناً ذاك النَّصيفُ

أم على ليتَىْ غزالٍ عُلِّقت تلك الشُّنوفُ

١٨٦ — ص ٦٠٧ البيت ٧ :

غادتك منها غداةُ السَّبتِ مؤذنةٌ
بنيَّةٍ ، وأشَقُّ الـكرهِ ما غادَى

وفى البيت ما يسمى فى مصطلح علماء البلاغة « التجريد » . يقول : غادتك منها ، أى من تلك الحبيبة ، فى تلك الغداة ، مؤذنةٌ بنيّة . والنيّة والنَّوى : الوجه الذى ينويه المسافر من قُرب أو من بُعد .

فصواب ضبطه « غداةَ السبتِ مؤذنةٌ » . وقبل البيت :

ما حقُّنا من سليمى أن تَقيضَ لنا
بالبذل منعاً وبالإدناء إيعـادا

١٨٧ — ص ٦١٢ البيت الأول :

تمادى اللائمون وفى فـؤادى
جوَى حُبٍّ يلُجُّ به التمادى

وضبط « يلُجُّ » لا يستقيم ، وله صوابان : « يَلِجُّ » بكسر اللام ، فيكون فعله من باب ضرب يضرب ؛ و « يَلَجُّ » بفتح اللام ، فيكون من باب سمع يسمع . والضبط الأخير ورد فيما أنشده صاحب اللسان :

وما العفـو إلاّ لامرئٍ ذى حفيظة
متى يعفُ عن ذنب امرئ السَّوءِ يَلجَجِ

وأما « يلُجُّ » بضم اللام فلم تُسمَع ولم تُقَس ؛ لأن قياس المضاعف اللازم أن يكون مضارعه مكسور العين كقولهم : شذّ يشِذّ ، وفرّ يفِرّ ، ورقّ يرِقّ .

١٨٨ — ص ٦١٥ البيت ٢٢ :

كالسَّيف يكسر متنُـــــه

قَصَرَ العِدَى ويُبير حــدُّه

وفى تفسيره : « القصر : أصل العنق » .

والقصر جمع لا مفرد . فالصواب أن يقال : « القصر : جمع قصرة ، وهى أصل العنق » . ويشبَّه بالقصر بمعنى أصول الأعناق ما غلظ من أصول أجذاع النخل فيقال لها قَصَرَ أيضاً . وبه فسَّر ابن عباس قوله تعالى : « إنّها ترمِي بشررٍ كالقَصَرِ » فيمن قرأ هذه القراءة .

١٨٩ — ص ٦١٩ البيت ٣ :

فوقفنا على الطلول يفيض اللُّؤ

لؤ الرطبُ مِن عيونٍ صوادِ

صواب كتابته : « يفيض اللُّؤْلؤ » .

١٩٠ — ص ٦٢٠ البيت ٩ :

كلَّم الخِضْرُ لى فصيَّرنى بعـ

ـدكِ عَيناً على عِيارِ البلادِ

ليلةٌ بالشآمِ ، ثُمَّتَ بالأهـ

ـواز يوماً ، وليلةٌ بالسَّوادِ

وفسَّر « العِيار » فى البيت الأول بما نصُّه : « عِيار الشىء : ما جُعل نظاماً له يقاس به ويسوَّى » .

وليس هناك مدخل للخضر عليه السلام فى هذا العِيار . وإذا لحظنا أن

الخضر كان معروفاً بكثرة التجوال ، يضرب به المثل فى ذلك . وللعامّة فى ذلك خرافات وأكاذيب ، يزعمون أنه جوّالٌ فى الأرض مغيَّب الشخص عن الأبصار ، حتى إنه ليكون فى أقصى المشرق وعند منتهى العمارة ، وفى منقطع الترب ومسقط الشمس من آخر المغرب ، فى وقتٍ واحد ، كما فى ثمار القلوب للثعالبى ٤١ — ٤٢ .

أقول : إذا لحظنا ذلك تعيَّن أن يكون المراد بالعِيار هنا مصدرَ عار يَعير عِياراً : ذهب فى الأرض منفلتاً هائماً. ومن ذلك ما قالوا: رجلٌ عيّار : كثير المجىء والذهاب فى الأرض . وربّما سمّى الأسد بذلك لتردّده ومجيئه وذهابه فى طلب الصيد . قال أوس بن حجر :

ليثٌ عليه من البَردِىِّ هِبرِيَةٌ
كالمرزُبانىِّ عيّـــارٌ بأوصالِ

وهذا المعنى يفسِّره البيت التالى : أنه ينطلق ما بين الشام والأهواز والسواد .

وفى البيت الثانى ينبغى أن تضبط « ليلةً » بالنصب على الظرفية فى موضعَيها ، بدليل نصبه « يوماً » مثيلتَها على الظرفية .

١٩١ — ص ٦٢٢ البيت ٧ :

وما الناسُ إلاّ واجدٌ غير مالكٍ
لما ينبغى ، أو مالك غير واجدِ

وإنما يقال ينبغى فيما يحسن بالمرء ويستَحبُّ له . يقال ينبغى لك أن تفعل كذا . وما ينبغى لك أن تفعل كذا . وفى الكتاب : « ما كان ينبغِى لنا أن نتَّخذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أولياءَ » .

فصوابه : « لما يبتغى » . وابتغى الشىء : طلبه ، قال تعالى : « يبتغونَ فضلاً مِّن اللهِ ورِضواناً » ، « لقد ابتغَوُا الفِتنةَ من قبلُ » .

وهذه الرواية الصحيحة ثابتة فى طبعة مصر من الديوان .

١٩٢ – ص ٦٢٩ البيت ٢٢ :

خضِلِ اليدين إذا تَفَرّق فى النّدَى
جَمَعَ العُلاَ فيما يُفيد ويُنفِدُ

وساقَ الشارح أنه فى بعض النسخ « خَطِلِ اليدين » أى بالطاء ، وفسّر هذا بقوله : « يقال رجل خطل اليدين ، أى خشِنهما » .

ومن الحق أنّ هذا التفسير مستمدٌّ من نصّ القاموس فى معانى « الخَطَلِ » ، إذ يقول : « ومن الثياب والبدن : ما خشُن وغلظ » . لكن اللغويِّين يفسّرون « خَطِلِ اليدين » حينما يكون نعتاً للكريم تفسيراً خاصًّا ، لأنه كناية خاصّة ، ففى اللسان : « ويقال للجواد من الرجال خطل اليدين بالمعروف ، أى عجِلٌ عند الإعطاء . الجوهرى : رجل جواد خَطِلٌ ، أى سريع الإعطاء » .

فالخطل هنا مأخوذ من الخطل بمعنى الخفّة والسرعة ، لا من الخَطَل بمعنى الخشونة والغلظ . وشتان ما بينهما .

١٩٣ – ص٦٣٦ البيت ٣١ وما بعده :

لتفنّنتَ فى الـــكتابة حتى
عطّلَ الناس فَنّ عبد الحميدِ
فى نظامٍ من البلاغة ما شـــ
ـــكّ امرؤٌ أنّهُ نظامُ فريـــدِ
وبديعٌ كأنه الزّهَرُ الضـــا
حكُ فى رَونقِ الربيعِ الجديدِ

مشرقٌ فى جوانبِ السَّمع ما يُخـ
لِقُه عَــوده على المستعيدِ

صوابه « وبديعٍ » عطفاً على « نظام » . و « مشرقٍ » بالجرِّ نعتاً للبديع . فإن البحترىَّ يتكلم فى معارض كتابة الممدوح – وهو محمد بن عبد الملك الزيات – ما بين نظامها ، وبديعها ، ومعانيها التى نعتها بقوله فى البيت ٣٨ :

ومعانٍ لو فصّلتْها القوافى
هجّنتْ شِعرَ جَرْوَلٍ ولبيدِ

فهذا كله معطوف على « نِظام » .

١٩٤ – ص ٦٣٧ البيت ٣٦ :

مُستميل سَمْعَ الطَّرُوبِ المعنَّى
عن أغانىَّ « زُرزُر » و « عَقيدِ »

وإنما هى « أغانىِّ » بكسر الياء ، لأنه مع منعه من الصرف قد أضيف إلى ما بعده . والممنوع من الصرف إذا أضيف أو حلّى بأل لم يجر بالفتحة ، وإنما يجر بالكسرة ، كما هو معروف .

* * *

وأما بعد فإنى أرجو أن يكون فيما أثبت فى هذا الكتاب نفعٌ لمن أراد ، وتنبيه لمن طلب مجانبة الزلل . وأكثر ما ذكرته فى هذا الكتاب من تصحيحات وتوجيهات ، إنما هو علاج لأخطاء كثيراً ما يقع فيها الخاصّة من الأدباء ، مهما توقّوا مزالق السهو ، وتجنبوا مواقع الخطأ .

والعصمة لله وحده . . . .

حول ديوان البحترى

للأستاذ : حسن كامل الصيرفى (*)

الحمدلله العلىّ القدير ؛ الذى قدّر لى أن أشهد من مظاهر التقدير الخالص. يوجَّه إلىّ فى كل مكان من كل بلد للعمل الذى قمتُ به فى تحقيق هذا الديوان، والمنهج الذى ارتضيتُه فى هذا التحقيق ، ما عوّضنى عما بذلتُ من جهد وما أنفقتُ من عمر لأنهض بهذا الواجب .

والشكر بعد الله ، الذى أعاننى على ذلك جلّت قدرته ، إلى العلماء الأجلاّء الذين أشادوا بما صنعت فى هذا الباب ، والذين أبدَوْا من سديد الرأى ما استلهمتُ منه الصواب . وإنى لأشكر بخاصة الأخ الكريم العالم المحقق الأستاذ عبد السلام محمد هارون على ما قدَّم إلىَّ فى مقالاته التى نشرها منذ سنوات فى « المجلة » وجمعها بعد ذلك فى كتابه « حول ديوان البحترى » من ثناء أرجو أن أكون دائماً أهلاً له ، وماعَنّى به نفسه من استقصاء الجزء الأول من الديوان .

وأشهد أنى قد أفدت كثيراً من ملاحظاته وتوجيهاته — وهو الرجل الذى تمرّس بهذا الفنّ قرابة الأربعين عاماً — فكان لهذه الطبعة حظٌّ من التصويب على ضوء ما أثار نقده .

على أننى قد احتفظت برأيى فى بعض ما نقده الأستاذ الجليل من مثل :

١ — قول الشاعر فى صفحة ٢٧٦ « من يتصرّع » وقول الأستاذ هارون : صوابه « يتضرع » .

(*) نشر الأخ الجليل حسن كامل الصيرفى ردد هذا على نقدى له فى إيجاز ، وذلك فى مقدمة الطبعة الثانية من ديوان البحترى التى بدأ فى إصدارها سنة ١٩٧٢ .

والشاعر قد استعمل هذه الصيغة أكثر من مرَّة فى قوله فى البيت ٩ من القصيدة ٥٠٠ (صفحة ١٢٤٦) والكلمة الأخيرة فيه تؤكدها :

أمِنّاً أنْ تَصَرَّعَ عن سَمَاحٍ
وللآمَالِ فى يَدِكَ اصْطِرَاعُ

وفى البيت ٢٢ من القصيدة ٥٠٥ (صفحة ١٢٦٥) :

لَمَرَّ عَلَيْنَا غَيْمُهُ وهو مُثْقَلُ
فعَرَّجَ فِينَا وَبْلُهُ وتَصَرَّعَا

وفى البيت ١٤ من القصيدة ٧٠٣ (صفحة ١٨٤٣) :

يَتَصَرَّعْنَ للرَّجَاء دُنُوَّ الْـ
غَيْمِ ، والوَدْقُ خارِجٌ مِنْ خِلاَلِهْ

ولقد فسرناها جميعها بمعنى التواضع والتساقط . وانظر كلام الآمدىّ فى الموازنة (١ : ٣٨٤ طبعة دار المعارف) .

٢ – لفظة « العُروب » : جمع « عَرَبَة » ، وهى سفنٌ رواكد كانت فى دجلة ، وكانت عبارةً عن طواحين قائمة على هذه السفن .

قال الأستاذ هارون : « ولست أتكلم فى غرابة هذا التفسير . وإنما الغريب حقّاً أن تُجمع العربةُ على العُروب ، فإنّ هذا لا يكون . وصواب الكلمة « الغُروب » بالغين المعجمة المضمومة وهى الدِّلاء العظيمة . . » .

ونقول إن هذا الجمع للعروب قد كان متداولاً ، ذكره الشابشتى فى « الديارات » (٤٥ طبعة أولى) حيث قال وهو يتكلم على « دير مر جرجس » على شاطئٌ دجلة : « والعُروب بين يديه » .

وهذه الصيغة ذكرها ابن الرُّومى فى شعره أيضاً (ديوانه ١ : ٥٤٨) :

وجاوَزْنا قُرَى بَغْدادَ حتَّى
دَلَلْنَ عَلَيْكَ أصْوَاتُ العُروبِ

وإن كان محقّق الديوان المرحوم الشيخ محمد شريف سليم قد جعلها « الغُروب » وقال : « وفى الأصل العُروب بالعين المهملة ولا معنى له . فأصلحناه (الغروب) » وقال فى تفسيره : « حتى دللن عليك أصوات الغروب ، أى إلى أن أرشدنا إليك الأصوات التى تعلو عند مغيب الشمس (أى أذان المغرب) أو الأصوات التى تحدث من الدلاء العظيمة التى يستقى بها الماء على السانية (الشادوف) . ولعلّ ذلك كان يفعل على شطوط دجلة عند سامرّا » .

ويذكر الأستاذ كوركيس عوّاد فى شرحه للديارات أن « العروب » أى الطواحين كانت شائعةً فى العراق والجزيرة وبعض ما جاورها من البلدان ، ويرتقى استعمالها إلى ما قبل الإسلام ، وظلّت معروفةً حتى المائة السادسة للهجرة ، ثم قلّ استعمالها . مُحيلاً إلى مقال للأستاذ ميخائيل عوّاد عن « العُروب فى العراق » نشر فى «الرسالة» مجلد ٨ سنة ١٩٤٠ العدد ٣٦٠ ص ٨٩٤ – ٨٩٦ .

٣ – أخذ علينا تفسيرنا فى صفحة ١٤٣ للحجّام بأنه الحلاّق . وقال : « والحلاق غير الحجّام ، فالأول لتحليق الشعر ، والآخر لاستنزاف الدم ، وإضافة عمل الحلاق إلى الحجام لا يصح معه أن يقال لما يستعمله الحلاق من أدواته محاجم . . . » ثم قال : « فالتعميم فى تفسير الحجام بالحلاق لا سند له فى اللغة ولا الاستعمال » .

ونقول : إن البحترىَّ نفسه قد استعمل ذلك فى هجوه لصاحب بريد مُضَر فقال فى القصيدة ٨٠٩ (صفحة ١٢٣٥) :

الآنَ أيْقَنْتُ أنَّ الرِّزْقَ أقْسَامُ
لَمَّا تَقَلَّدَ أمْرَ البُرْدِ حَجَّامُ

ثم قال :

فجاءَهُ بتَقَاريضٍ ومُرْهَفَةٍ
من المَوَاسِي لها فى الحَلْقِ إحْكَامُ

والحَلْق : هو إزالة الشَّعر . والتقاريض : المقصّات .

ونجد فى كتاب « لباب الآداب » (٨٥) خبراً أن الحسن بن علىّ دعا « حجَّامه ليسوِّى من شاربه » .

وجاء ذكر « أبى حرملة الحجَّام » فى تاريخ الطبرى بهذه الصيغة (٩ : ٤٥٣ دار المعارف) . وورد فى كتاب « الذخائر والتحف » وفى كتاب « الديارات » باسم « أبى حرملة المزيِّن » .

وكلّنا يذكر حتى الثلاثينات من هذا القرن ما كان يؤديه حلاق الصحة من أعمال الفصد وخلع الأسنان .

٤ — أخذ علينا عند ذكر بيت البحترى فى (صفحة ٥١٩) :

سَمَا بالخَيْلِ أرْسَالا لِسِيمَا
فمِنْ شُوسٍ إلَى الدَّاعى وقُودِ

تفسيرنا للشُّوس بأنه جمع الأشوس . وهو الجرىء على القتال الشديد . والقُود بأنها السهلة القياد .

وقال : « أمَّا تفسير الشوس بهذا فلم أره من قبل . والمعروف أن الأشوس هو الذى ينظر بمؤخر العين تكبُّراً واستعلاء أو غيظاً ، أو الذى يرفع رأسه تكبراً » .

وقال : « وكذلك تفسير القود على هذا الوجه ليس صحيحاً ، وإنما هو جمع أقْوَد وقَوْداء ، وهو من الخيل : الطويل العنق » .

ونقول إن تفسير الأشوس كما ذكرناه منقول عن اللسان (٧ : ٤٢٢ سطر ٧ طبعة بولاق) .

والتفسير الذى جاء به الأستاذ الجليل لكلمتىْ « الشوس » و « القُود » صحيح لا غبار عليه ، ولكنَّه لا يناسب الموقف هنا ، وإنما الذى يناسبه تفسيرنا ؛ حيث يذكر البحترى أن ممدوحه كان يرقى بخَيله فى أرسال متتابعة إلى مقرّ قيادة سيما الطويل حاكم أنطاكية لينقض بها عليه . فلو أن الخيل كانت تنظر بمؤخر العين تكبراً لتدهورت من هذا الجبل إلى سفحه ، ثم هو يصفها بأنها كانت سهلة القيادة تجيب دعوة الداعى إلى القتال فلا تحرن .

ولعلَّ الأخ الكريم يوافقنى على أن التفسير الآخر ينطبق على الخيل إذا كانت فى موقف عرْض لا موقف حرب .

* * *

هذا بعض مما أردتُ أن أذكره فى مناسبة الطبعة الثانية . أما ملاحظات أخى العالم المحقق الحجّة فقد كانت هادياً لى صَوَّبتُ ما جانبنى التوفيق فيه على ضوئها — والعصمة لله وحده — شاكراً للأخ الكريم جميل عنايته وتفضله بما قدَّم ؛ حفظه الله ، ومستزيداً منه ومن غيره من العلماء الأجلاء ما يهدينا إلى وجه الحق .

وبعد . فهذه هى الطبعة الثانية أقدمها ، وأنا أرجو أن يقدر الله لى أن أقدّم طبعة ثالثة بإذنه تعالى تكون أقرب إلى الكمال الذى أحاول أن أبلغ أعتابه .

* * *

ثم كتب فى ص ٢٧٤٥ من الديوان وهو الجزء الخامس مصدراً (الملاحظات) كتب يقول :

« أخذ علينا الأخ العلامة الأستاذ عبد السلام هارون فى كتابه « حول ديوان البحترى » ص ٤٤ ضبطنا لاسم نوبخت بضم الباء فى تقديم القصيدة ٨١ ص ٢٤٥ : وذكر أن الصواب فتح الباء . وقال : « تكرر هذا السهو فى ص ٢٤٩ ، ٢٥٢ » .

ونقول : إن الضبط الذى أثبتناه من واقع النسخة (أ) التى بدأ كتابتها بمدينة تبريز فى شهر رمضان سنة ٤٢٤هـ على بن عبد الله الشيرازى ، وختمها فى صفر سنة ٤٢٥ وهو رجل فارسى دقيق الضبط . فهو يضبط « نوبخت » فى كل المواضع التى جاءت منها فى الديوان بضم الباء .

وبهذا الضبط جاء هذا الاسم فى « شرح ديوان ابن الرومى » الذى اعتمد محققه المرحوم الأستاذ الشيخ محمد شريف سليم » على رجل فارسى اسمه ذبيح أفندى بهروز . وقد أشرنا إلى هذا فى تعليقنا على القصيدة ٧٠٢ ص ١٨٣٨ .

ونعود فنكرر هنا شكرنا الذى أثبتناه فى مقدمة الطبعة الثانية للأخ الكريم على ما أفدناه كثيراً من ملاحظاته وتوجيهاته . وهو الذى تمرس بهذا الفن من التحقيق لتراثنا الخالد وأدى له أعظم الأيادى ، وبلغ به القمة .

مما هو جدير بالتسجيل أن الأستاذ العلامة حسن كامل الصيرفى أهدى إلى طبعته الثانية لديوان البحترى بعبارة يقول فيها : « يسعدنى أن أقدم إلى . . . الأستاذ عبد السلام محمد هارون هذه الطبعة الجديدة من هذا الديوان التى هيأ لها نقده المهذب الرصين صحة وقوة ، مع خالص محبتى » .

البَابُ الثَّالِثِ

بَيْنَ ٱلْأُدَبَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَبَيْنِي

نظرة فى كتاب الحيوان للجاحظ(*)

رد على نقد

بقلم شارح الحيوان

اطلعت على ما كتب الأستاذ الأديب حسن السندوبى فى العدد ٤٤٧ من صحيفة الدستور .

وفى الحق أن الأستاذ السندوبى قد درب بأدب الجاحظ ، ولقن كثيراً منه وأنه أمضى فى ذلك سنين طويلة ، أفاد فيها خبرة وعلماً ، واكتسب فضلا ومعرفة .

وما أردت بكلمة « رد » غرضاً فيه معنى الشخصية أو المناجزة ، فلست أجعل ذلك من دأبى ، ولست أراه من الأدب ولا من خلق العلم فى شىء .

ولقد سرنى من الأستاذ أن يقول فى شأنى : « فقلت مالى ولصاحب هذا الاسم فما على إلا أن أنظر فى عمله ... » الخ . فقد أعجبنى هذا التجرد الذى يدل دلالة بينة على أنه كان مخلصاً فى قوله ونقده وأنه لم ينظر إلى الشخص بل نظر إلى العمل ، وذلك ما حدا بى إلى أن أتبين معه وجه الحق ، فيما أشار إليه فى مقاله .

— ١ —

قال الأستاذ : « فمن ذلك ما جاء فى ج١ ص ٣٩ وهو يصف الكتاب حيث يقول : ومن لك بروى هندى ، وبفارسى يونانى ، وبقديم مولد ،

(*) نشرت فى صحيفة الدستور المصرية بتاريخ ١٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٨هـ وأول يونية سنة ١٩٣٩م .

وبميت ممتَّع . فلقد ضبط — يعنيني — كلمة (ممتع) بتشديد التاء المفتوحة . وهذا ليس بصواب . والحق أنها بكسر التاء ليكون ممتِعاً ... » الخ .

وقد تجنى الأستاذ السندوبى على كلمة « صواب » فحمَّلها ما لا تستطيع حمله . ولو أنه قال « الأوجه » أو « الأوفق » لكان بذلك مرضياً للحق الذى يريده .

والأستاذ تمرس بكلام الجاحظ ، وعرف طريقه فى المزاوجة والمقارنة بين الألفاظ والعبارات . وهو هنا أراد المقابلة بين النقيضين : فالرومى الأحمر يقابله الهندى الأسود ، واليونانى ذو الفلسفة العقلية . أمامه الفارسى ذو الفلسفة الروحية ، والقديم يواجهه المولد المستحدث ، وكذا أراد بكلمة « ممتَّع » بفتح التاء المشددة ، ذلك الذى متع بالحياة الذى له أجل خصالها ، وهو الإفهام والحديث إلى الناس .

فردا يحدثنى الموتى وتنطق لى
عن علم ما غاب عنى منهم الكتب

* * *

تعلمَنْ أنَّ الـدواة والقلمْ
(تبقَى) ويفنى حادث الدهر الغنم

انظر الجزء الأول ص ٩٥ ، ٩٦ .

— ٢ —

قال الأستاذ : « وفى هذه الصفحة ضبط كلمة الشكل بكسر الشين المشددة والصواب فتحها . وكذلك ضبطها بهذا الخطأ فى صفحات عدة » .

وأنا أعرف أن الأستاذ الجليل من أصحاب المكتبات العامرة ، وأن أمامه على مكتبه « القاموس المحيط » وأنه يستطيع أن يحرك دفتى الجزء الثالث فيرى

فى مادة (ش ك ل) أن الشكل بكسر الشين ليس خطأ ولا تحريفاً ، بل هو فى أسطّم الصواب وصميمه .

وفى قول الأستاذ إنّ الشين مشددة خروج عن المألوف فى ضبط الكلمات ، إذ ليس تشديد الشين إلا أمراً عرضياً استدعاه دخول (أل) .

والأعرف أن يقول : « بكسر الشين » .

— ٣ —

ووجه الأستاذ نقداً إلىّ فى بيت تأبط شراً ص ٦٣ .

لتقرعَنّ على السن من ندم
إذا تذكرتَ يوماً بعض أخلاقى

أخذ على أنى ضبطت الفعلين فى هذا البيت بصيغة المخاطب المذكر ، أى بفتح عين « لتقرعن » وتاء « تذكرت » . وقال : « والصحيح أنّ الخطاب موجه إلى مؤنث ، فيجب أن يضبط بكسر العين والتاء من الكلمتين » . وأشار إلى ما فى المفضليات ص ٣ .

وإنى لأرجو الأستاذ — حفظه الله — أن يتدارك ذلك الضبط الذى أشار به ، وأن يرجع إلى فتح العين والتاء فى طبعته المقبلة للمفضليات . وفق ما صنعت أنا فى ضبط البيت ، فإنّ قبله :

تقول أهلكت مالا لو قنعت به
من ثوب صدق ومن بز وأعلاق

عاذلتى إنّ بعض اللوم معنفة
وهل متاع وإن أبقيته باق

إننى زعيم لئن لم تتركوا عذلى
أن يسأل الحى عنى أهل آفاق
إن يسأل القوم عنى أهل معرفة
فلا يخبرهم عن ثابت لاق
سدد خلالك من مال تجمعه
حتى تلاقى الذى كل امرىء لاق

فهو قد قال : « لئن لم تتركوا عذلى » وقال : سدد خلالك » ولم يقل : « لئن لم تتركى عذلى » ولا « سددى خلالك من مال تجمعينه » .

فواضح أنه توجه بعد البيت الأول إلى مخاطبة الذكور وأفرادهم . فما يقال من أنه بعد ذلك رجع إلى خطاب « العاذلة » أمر ينفر منه ذوق الأديب وتأباه جزالة الشعر ، ويضيع معه حلاوة النظم .

— ٤ —

قال الأستاذ : وفى ص ٧٠ قال الجاحظ : « واللسان يصنع فى جوبة الفم وفى خارجه » فجعل المصحح كلمة جوبة بالياء بدل الباء ثم قال : والصواب جوبة بالجيم والباء » .

وفى هذا الاعتراض شيئان . أما أحدهما فإنى لم أجعل كلمة « جوبة » بالياء بل هى جاءت فى الأصل « جوية » بالياء التحتية ولم أحدث فيها تبديلا ، وتركتها كما هى ، واعتورنى الشك فقلت فى أسفل الصفحة : لعلها « حوية » بمعنى الاستدارة .

والآخر أن التصحيح الذى أشار به الأستاذ ضعيف الساقين . فهو يريد أن يجعلها (جوبة) بالموحدة ، بمعنى الحفرة . فما يقول الآن إذا قلت له :

إن الكلمة فى أصلها سليمة لا تحتاج إلى تصحيح ، وإن (جُوِّية) بالياء التحتية (تصغير الجوة ، والجوة هى — كما فى اللسان — بطن الشىء وداخله ؟! فالجوية بالتصغير . بمعنى بطن الشىء أليق بقول الجاحظ : (وفى خارجه) .

— ٥ —

قال الأستاذ : وفى ص ٨٠ يقول الجاحظ :

(وها هنا كتب هى بيننا وبينكم ، مثل كتاب إقليدس ، ومثل كتاب جالينوس ومثل المجسطى ، مما تولاه الِحجاج) .

ثم أخذ علىّ أنى ضبطت كلمة (الحجاج) بكسر الحاء بمعنى المحاجة والمجادلة . وقال : (الصحيح أن المراد بكلمة (الحجّاج) هنا هو الحجّاج ابن يوسف بن مطر ، من أكابر النقلة والمترجمين فى عهد هارون والمأمون .

وأقول للأستاذ : ما ذكرت جائز . وليس ما يدفعه . ولكنه لا يمنع صحة ما ذهبت إليه . وفرق بين أن يكون للكلمة وجه واحد لا تحتمل غيره ، وبين أن يكون لها وجهان تصح بهذا وتصح بذاك . وخاصة إذا تقاربت الأسباب والعلل .

فللأستاذ السندونى وجه جيد فى أن يكون المراد بكلمة (الحجاج) ذلك الترجمان العظيم الذى كان أحد جماعة وكل إليهم الخليفة المأمون جلب كتب من بلاد الروم ثم أمرهم بنقلها إلى اللسان العربى . ثانيهم وثالثهم ابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة .

ولكن هذه الكتب التى ترجمت لم يتركها العرب كما هى . ولم يقبلوا ما فيها دون أن يحتكموا فيها إلى روحهم الشرقية وعقلهم العربى . فكان جدال وكان حِجاج ، وكان انتصار وكان توهين ، وكانت مذاهب تنشر ومذاهب تطوى ، وكان القوم من نشاط فكرى ونَهَم عقلى . وكانوا أمام

العامة مضطرين إلى أن يبرروا ما فى تلك الكتب من مخالفة ظاهرية أو حقيقية لروح الدين :

فكتاب المجسطى الذى ألفه بطليموس ، وترجم إلى العربية ، صحح المأمون كثيراً من حسابه وأقيسته لمحيط الأرض والدرجة الأرضية ، وناقشه مناقشة دقيقة ولم يتركه كما هو :

وكتاب إقليدس يقول القفطى فى شأنه :

(وقد عنى به جماعة رياضيِّى يونان والروم والإسلام . فمن بين شارح له ومشكل عليه ، ومخرج لفوائده) .

وكذلك كثير من الكتب اليونانية كان يشرحها القوم ويتجادلون فيها ويتخاصمون .

أليس يكون هذا حجاجاً ومجادلة ؟ ! وفى أى شىء يكثر الحجاج والمجادلة . إن لم يكن فى كتب الفلسفة وشبهها ؟ !

— ٦ —

وقال الأستاذ : وفى ص ١٣٠ جاءت كلمة معاوية :

(مااستهتر به أحد إلا رأيت ذلك فى مُنّته) أى قوته . قال :

(فجعل المصحح كلمة ما استهتر : مااشتهر . والصواب ما أثبتناه . لأن الاستهتار الولوع بالشىء) .

وأقول لحضرته ثانياً : إنى لم أجعلها « اشتهر » بل هكذا جاءت فى الأصل ، وليس ما يمنع صحتها ، وليس هناك ضرورة ملحة تدفعنا إلى التبديل ما كان المعنى مستقيماً واضحاً . ولو أنحناهذه القاعدة فى كثير من التوسع ، لتنكرت معالم الكتب وضاعت أصولها . وجنَينا بذلك على المكتبة العربية ، وعلى الأمانة التاريخية .

وما شوّه كثيراً من الكتب المطبوعة إلا جرأة ناشريها على التغيير ، واستجابتهم إلى كل فكرة سريعة طارئة ، تخيل إليهم أن الصواب كل الصواب فى التغيير والتبديل .

― ٧ ―

وفى ص ١٤٧ يقول الأستاذ : إنى جعلت قول الجاحظ : « ولا يقبض عليه بفكه » : « ولا يقبض عليه بكفه » . وأقول له ثالثة : إنى ما جعلتُها كتلك ، بل كذا جاءت بالأصل « بكفه » ولم أحدث فيها تغييراً . ولا مانع يمنع من صحتها ووجاهتها أيضاً . والقبض بالكف أولى وأعرف من القبض بالفك . فالجاحظ يريد أن يقول : إن كل عظم يقع فى كف الكلب فعند الكلب ثقة بأنه سوف يفته ويرضه بقوة أنيابه وشدة فكيه .

وهى عبارة قوية تدل على ثقة الكلب بمقدرته أكثر من الكلمة التى أراد الأستاذ أن يوجه العبارة بها .

― ٨ ―

وقال الأستاذ فيما وجهت به العبارة التى وردت فى ص ٣٥٨ : « فلا يستطيعون الرجوع حمية واتقاء » والتى نبهت فى أسفل الصفحة أن الكلمة الأخيرة منها لعلها « إبقاء » . إن هذه المحاولة منى محاولة خاطئة ، وإن الصواب (أنفا) .

وأقول للأستاذ : إن « أنفا » وجيهة جيدة . و (إبقاء) أيضاً وجيهة جيدة . والمراد بها أن يبقوا على أنفسهم وعلى كرامتهم أن تذل وتمتهن برجوعهم إلى بنى عمهم وتعرضهم لظلمهم وعدوانهم .

وفى توجيهى أيضاً الحرص على الهمزة الأخيرة فى الكلمة أن تضيع ، مع ثبوتها فى النسخ المطبوع عنها الكتاب .

— ٩ —

ومهما يكن من نقد الأستاذ السندوبى وهو الأديب الكبير ، فلا جرم أنه أملاه عليه خلوص الطوية ، وصدق الغيرة وحب الإنصاف .

وإنى لأشكره صادقاً مخلصاً على حسن ظنه ، وما أولانى من تقدير وعلى تنبيهه القيم فى ضبط كلمة « رخص » بضم الراء ، فإن هذا مما غاب ويغيب عن كثير من الأدباء .

وأملى أن أقرأ نقده للجزء الثانى ثم ما بعده وأتمكن من الانتفاع به ، فذاك أحب الأشياء إلى نفسى . وقد سبقت إلى توضيح هذه الرغبة ، أى رغبة النقد والإصلاح ، وطالبت بها كبار الأدباء فى ص ٤٠٣ من الجزء الثانى من الحيوان .

وقد كتب إلى حضرة العلامة شيخ المحققين الأب انستاس مارى الكرملى طائفة من التوضيحات القيمة ، نشرت بعضها فى صلب الكتاب ، كما سيكون فى المستدرك العام الذى سيلحق بالجزء السابع مجال لتصحيحات كبار الأدباء وتوضيحاتهم مضافة إلى توضيحاتى الخاصة واستدراكاتى ليقرب هذا الكتاب ، الذى عبثت به عوادى الأيام ، أشد القرب من الصحة والوضوح .

وإنى أحب فى الإصلاح أن يكون إصلاحاً قاطعاً . فأما الاحتمالات والتوقعات فميدان يجرى فيه الدخيل والأصيل ، والواغل والكريم .

وفى سبيل الحق تتسع الصدور وتنسى الأشخاص ، ويذكر العدل والإنصاف .

عبد السلام محمد هارون

كتاب الحيوان للجاحظ

(الجزء الرابع) بتحقيق عبد السلام محمد هارون

نظرات فيه للتحقيق(*)

بقلم الأب أنستاس ماری الكرملي

— ١ —

بلغني كتابك (الجزء الرابع من كتاب الحيوان (مع رسالتك الكريمة ، فدهشت مما رأيت ووقفت عليه ، إذ رأيتك تسعى سعياً حثيثاً فى التحقيق والإمعان فيه ، على وجه لا يقاربك فيه أحد من المشتغلين بمثل شغلك من أبناء هذا الشرق الأدنى . فأهنئك بهذا الفوز العظيم المبين ، وبالقصبة التى انتزعتها فى حلبتك وأنت بهذا الإهاب الغض .

والإنسان — مهما بلغ من التفوق فى الدراية والعرفان — يحتاج إلى الإيغال فى ذلك التفوّق ، لأن آفاق العلم تمتد وتتسع بقدر ما يُمعَن فى مناحيها . وأنا أبوّب ملاحظاتى أبواباً على الأوجه الآتية :

١ — أغلاط الطبع

ورد فى صفحة ٢٠٦ س ٥ ما يصلح بهذا الوجه : وعفّى عليها . — وفى ٢٥٦ : ٩ من جُحره — و ٢٥٢ : ٣ أرْقَم — و ١٣٥ : ٢٥ والزُّهَا

(*) نشرت هذه البحوث فى مجلة (الثقافة) السنة الثانية سنة ١٣٥٩هـ ت ١٩٤٠م فى خمسة أعداد هى : العدد ٩٥ (٢٠ رمضان= ٢٣ أكتوبر) . والعدد ٩٨ (١٢ من شوال = ١٢ نوفبر) . والعدد ١٠٠ (٢٦ منشوال = ٢٦ نوفبر) . والعدد ١٠٢ (٦ منذى القعدة = ١٠ من نوفبر) . والعدد ١٠٣ (١٧ من ذى القعدة ١٧ من ديسمبر) .

أو والرهاء وتسمّى اليوم أرْفَا ، والترك يكتبون خطأ : أورفَا . — ٣٧٨ : الألاعيب ٣٣٧ : ش ٢ راجز آمن ساكني — ٤٣٥ الحجّاج — ٤٢٤ ساطع الغُبَار ، ٢٤٦ الدهّان . — ٢٨ : ١٣ بهامش — ٨٩ — ٩ أصحاب ابن النواحة (راجع ص ٣٧٨ : ٩) — ٤٠٣ قَلَيَ مكانه لأنه كرَمَى .

٢ — أغلاط الضبط

١٠١ الأسبور ، وفيها لغات قديمة . الأشبور بالشين المعجمة ، والصبور بالصاد ، والأصْبُور وهي اللغة الشائعة اليوم في البصرة . وراجع ما كتبناه في المشرق ٢ : ٩٢٧ . — التَرَسْتُوج . الأصل فيها الطرستوج بالطاء كما في البرهان القاطع ، وهو معجم فارسي ونُقِل إلى التركية أيضاً ؛ ويسمّى بالتركية تكور بالغي وسماه ابن البيطار الطرستوج ، وفي نسخة الترستوج بالتاء المثناة الفَوْقِيَّة ، وفي نسخة أخرى سرستوج ، وباليونانية طريغلا Trigla ، ووردت مطبوعة طريفلا بالفاء وهو غلط ، وبعجمية الأندلس المُل ، والصواب المُول ، وصحفت الكلمة تصحيفات عدة مختلفة ، ففي محيط المحيط للبستاني يَرَشْتُوك ، وقد نقلها عن فريتغ الألماني ولم ينبه عليه كما هي مألوف عادته . وقال النافقي : الطَرَسْتُوج . ويقال تَرَسْتُوج (وراجع معجم دوزى في ترستوج) . ووردت في كتاب البلدان لابن الفقيه طبع أوربة ١٠ : بَرَسْتوج . وفي حياة الحيوان : طرستوج أو طرسوج . وراجع ما كتبتُهُ في المشرق قبل ٤٢ سنة ، أي في المشرق ١ : ٤٤١ . وفي معجم كتب البلدان لابن الفقيه بحث دقيق نفيس في اسم هذا السمك ، فليراجع فإنه لا يَسْتَغْنِي عنه الباحث المتروّي في ما يكتب .

١٠٢ والبرد . ليس بالبزّ لعدم وجودهِ البتة في البصرة لأنهُ ليس من القواطع . والصواب البَرْزَم لوجودهِ في نهر البصرة ، ومعروف بهذا الاسم إلى يومنا هذا وإنْ لم تذكره كُتُبُ القوم . والبَرْزَم من السمك القواطع .

١٠٣ : ١٢ تشرين . اختلف اللغويون فى ضبطه ، فمنهم من فتح الأول لاعتبارهم إياها على وزن تفعيل من المصادر العربية ، ومنهم من كسرها كما فى محيط المحيط ولسان العرب (فى تشر) ، وفى القاموس : تِشرين بالكسر ، اسم شهر بالرومية (كذا . والكلمة إرَمية) وهما « تشرينان . » وكذلك فى التهذيب للأزهرى ، فالكسر أشهر من الفتح . — وفى ١٠٦ : ٩ الخُلْد . — وفى ١٢٩ مارماهى . ضَبْطُهَا بكسر الراء كما فى معجم بالمر خطأ . والفرس جميعهم ضبطوها بإسكان الراء وهى من (مار) أى حيَّة ، و (ما هى) أى سمكة . والاسم المشهور اليوم فى بغداد بل فى العراق كله (مَرْمَرِيج) وذكرها ابن البيطار (مَارْماهيج) وضبطت فى نسخة باريس بإسكان الراء ، وفى طبعة مصر : « مارماهيج هو السليناج المعروف بالنون » قلتُ : وصواب هذه السِلِنْبَاح ، بحاء مهملة فى الآخر وهو من أسمائه فى العراق ، أى بسين ولام ونون وباء موحدة تحتية وألف وحاء مهملة . — وراجع ما كتبناه فى المشرق ٣ : ٦٣ إلى ص ٦٥ . وفى ص ٤٤٥ : صارت لهم خراطيمَ (لا خراطيمُ بالرفع) ، لأنَّ معناها تحوَّلت الآنُفُ فصارت خراطيمَ . — و ص ١٨٥ ، قولهُ : وإذا كان ذلك ، لا غبار عليه ، ولا حاجة إلى (كذلك) . والمعنى هو : إذا كان الأمرُ ذلك — . وفيها : ويتبخر بالُّلبان كَدُخَان ، بالضم ، وبالكسر خطأ . — ٣١٣ الذئب (بالهمز وبالياء لغة ضعيفة) — ٣١٨ الشَّكْل وبالكسر غلط . — ٣١٤ ، ٣٢٠ وفى غيرهما : تستمرئ بالهمز هو الفصيح .

٣ — أغلاط الصرف

٢٥٥ : ١٠ أظافِرهُ . كان يحسن أن ينبّه على أن (الأظافِر) لا يقال إلا فى الشعر لإقامة الوزن ، وإلا فهو خطأ ، والعوام المصريون والسُّوريون مغرمون بهِ دون العراقيين ، فإن جميعهم يقولون : أظافير ، بياء قبل الآخر .

٥٧ : ٢٢ ثلاثة مواضع — ٦٨ : ١٩ وفى ش ص ٣٠٢ مُعْجَمَىْ

استينجاس وريتشارد سن ؛ وهذا تعبير مولد لا تعرفه لغة القرآن . وقد أولع به المعاصرون واستعمله صاحب تاج العروس والمصباح وغيرهما من اللغويين فى إيراد شروحهم لبعض الكلم . ولو فكّروا قليلاً لعدلوا عنهُ . لأن معناهُ أن لاستينجاس معجمين ولريتشاردسن أيضاً معجمين ، إذ قد يكون للمؤلف الواحد تأليفان . فالعطف يكون على المضاف لا على المضاف إليه ؛ فكأنك تقول : معجمى استينجاس ومعجمى ريتشاردسن . والصواب معجم استينجاس وريتشاردسن .

٦٩ : ٢٦ كذا جاءَا . والصواب : وكذا جاءَا ، أو : وهكذا جاءَا ، أوْ : وجاءَا — وفى ١٥٦ خضراء ، وفى ١٧٦ ملساء . والصواب خُضْراً ومُلْس . لأن أفْعل مؤنثها فَعْلاء إذا كان نعتاً لا يجىء الجمع إلا على فُعْل كقفل ، ذكوراً وإناثاً ، وذلك إذا دلّ أفعَل على لون أو عيب أو حلية يقال : رجال سود وسُمْر وبيض ، ونساء سود وسمر وبيض . وليالٍ بيض وسود وأيام بيض وسود . ألم تلاحظ أن الجاحظ قال مُلْس فى أول س من ص ٢٧٥ ؛ ويكاد جميع كُتّاب مصر يركبون متن هذا الغلط . وقد صححهُ مجمع فؤاد الأول للغة العربية على إلحاحى على أعضائه .

وفى ١٠١ الدجلة ليس بغلط ، إنما هى لغة ضعيفة . وقد وردت باللام مراراً لا تُحصى فى نزهة الجليس ، ولم ترد مرة واحدة مجردة منها . وقال ابن الوردى :

إن للدِجلـــة ماء لم تصل مصر إليْها

وقولك « الدجلة » وإدخال « ال » على دجلة خطأ ، فإن المعرفة لا تُعَرّف (كذا) ، كلام غير صحيح . فما قولك فى : البصرة والحلة والموصل والشام ، والحسن والحسين والعباس والكاظم . — والفرات والنيلْ والهَبَيّخ . وكلها أسماء معرفة ومحلاّة بالتعريف ؟ — فكلامك مردود ومدفوع على كل حال .

« فى ١٠٨ دماميل ، وجاءت بهذه الصورة فى مواطن عديدة . وكان الحق أن يقال : دَمَامِل ، لأن فُعَّلاً يجمع على فَعَاعِل ، لا على فعاعيل ، ولكن ورود دماميل ودمامل فى جميع الكتب يؤخذ بهما كليهما وإن خالف أحدهما القياس .

« فى ٦١ والحوايا : الأمعاء ، واحدها حاوية » (كذا) والصواب حَوِيَّة .

« وأغرب من هذا قولك فى ص ١٦١ : « أشْرَار جمع شِرِّير بالكسر والراء المشدَّدة المكسورة » اهـ . — وهذه أول مرة أقرأ أن فِعِّيلاً يُكَسَّر على أفْعَال ، ولم يقل به أحد قبلك ، إذ هو فى منتهى الغرابة . وفِعِّيل يصحَّح ولا يكسَّر ، كما قالوا فى جمع سكِّير وشرِّيب وقدِّيس : سكيرين وشريبين وقديسين . وأما أشرار فهو جمع شرير وزان شَرِيف . وتقول فى جمع شَرِيف ومجيد وبديل وشهيد : أشراف وأمجاد وأبْدال وأشهاد .

وفى ص ١٤٦ « بنى عبد الله بن غطفان » ، ولعلك كتبتها بألف أى (ابن) لوقوعها فى أول السطر كما هو مألوف عادتك ، بخلاف ما كنتَ تفعل سابقاً ، فأنا لا أوافقك عليه ، لأن (ابناً) إذا وقع بين علَمين ، بين اسم الوَلَد ووالدِه « فيجب » أن تحذف همزة الوصل أينما وقعت ، أما إذا وقع بين اسم الولد وجدِّه ، أو اسم شهرتِه ، فتكتب الهمزة أينما وقعت ، ليتضح المعنى ولا يقع هناك إشكال أو شبهةُ .

وفى ص ١٤٨ : « أما إذْ أبَيْت » والأحسن هنا — على رأيى — أن يقال : أما إذا أبيتَ . —

وفى ص ١٤٩ : « وبقى أثرنا بها » ، وأفضل منها : « وبقى أثرُها بها » .

وفى ص ١٥٢ : أو عصاً : بالألف القائمة .

وورد كلام لا معنى لهُ فى ص ١٥٨ س ٤ : فأما مقادير أجسامها فقط .

وفى ص ١٥٩ س ١ . وجاوُوا .

وضبطت المغناطيس بكسر الميم فى ص ١١٢ ، ولا جرم أنك نقلتها عن محيط المحيط وهو معجم طافح بالأغلاط والأوهام والخلل والخطل ، والصواب فتح الميم ، كما فى جميع المعاجم العربية المعتمدة .

وفى ص ١٣٢ « يَسْتَخْبِر الريح ؟ (كذا . ولا معنى لهُ) والصواب ما فى اللسان والقاموس والتاج : يَسْتَمْخِر » .

وفى ص ١٥٦ أثبت خرافة الغرانق وهى منقولة عن كَتَبَة الفُرس ومُخَرِّفيهم . ويؤخذ من عبارة الجاحظ أنه لا يَعْتَقِدُها . واسم هذا الوحش بالفرنسية carcal-Lynx وعلماؤهم لا يَرْوُونها .

« وفى ص ١٧٣ : « يرون من ملاقاة الحية (للحيَّة) . » هذا كلام فارغ من المعنى . والصواب « مُلاَوَاة » . قال فى اللسان فى مادة (ع ق م) : « إن الأسود من الحيات يأتى شط البحر ، فيصفر ، فتخرج إليهِ العقام فيتلاويان ، ثم يفترقان فيذهب هذا فى البرّ وترجع العقام إلى البحر » اه . فالملاواة : المجامعة ؛

وفى ص ١٧٥ : أنْسُع والصواب أَنْسُع بفتح الهمزة .

وفى ص ١٧٦ « الشجاع : الحية الذكر ، والأرقم : حية فيها بياض وسَوَاد . . . » وكنا نتوقّع أن تأتينا بتحقيقات علمية لا بنُقُول خالية من الرويّة والتدبّر . ففى التاج . . وقال شَمِر فى كتاب الحيات : « الشُّجَاع (كغُراب وكِتاب) ضرب من الحيَّات لطيف دقيق ، وهُوَ — (على ما زعموا — أجرؤها . . . » قلتُ : والكلمة يونانية من Siga أو Sige أى الإطراق والسكوت ، فيكون معناهُ : ذا الإطراق والسكوت ؛ ولا يكون كذلك إلا ضرب من الحيات فى نهاية الخبث ، ومنه المثل عند السلف :

« أطرقَ إطراقَ الشُّجاعِ » : — وأما الأرقم ، فالذى حقَّقهُ بوشارت Bochart أنه المعروف عند اللاتين باسم : Haemorrhois وباليونانية : Haimorrhois (راجع معجم جسنيوس Gesenius العِبْرى اللاتينى).

— ٢ —

وفى ص ١٩١ س ٥ : « ولا أعْشَق » والصواب : « ولا أعْبَق » بمعنى « ولا أعْلَق» ، من عبق بهِ أى أولِـع بهِ أى علق به شديداً . واللام والباء تتعاوران ، أى يقال عَلِق بهِ كما يقال عبق بهِ .

وفى ش ص ٢٢٦ : « نصيبين مدينة من بلاد الجزيرة » وهى غير التى كان عندها الوقعة مع المصريين ، فهذه غير تلك ، فالتى عرفت بكثرة عقاربها هى تلك القديمة لا هذه التى وقع فيها ما وقع مع المصريين .

وفى ش ص ٢٣١ : « المُغْرَب ، بفتح الراء : الأبيض » لكن أيوافق هذا الشرح للعَيْن المُغْرَبة ؟ والذى فى الصحاح : « المغرَب : ما ابيضَّ أشْفَارُهُ » . وفى التاج : « يقال عين مُغْرَبة ، أى بيضاء زرقاء الأشفار والمحاجر ، فإذا ابيضَّت الحدقة ، فهو أشدُّ الإغراب . » فهذا الموافق لإيرادهُ أو شرحه هنا .

فى ش ص ٢٤٨ . والمراد هنا بالحلى الخلاخيل ذوات الجلاجل . وكانت النساء فى بغداد إلى قُبَيْل الحرب العظمى يضعن جلاجل فى خلاخيلهنَّ ، والآن عدلن عن استعمالها وأبقينها لخلاخيل أولادهن ، من ذكورٍ وإناثٍ .

وفى ص ٢٨٥ « بين حَوَافِى سَدِرٍ » وأظن الصواب . سِدَرٍ كعِنب أو سُدُر كعُنُق وهى جمع سِدْرٍ وهى شجرة النبق . وكثيراً ما تُرى الحيَّات لا جثاتٍ إلى أسافلها ، فإنها تعشق رائحتها .

وفى ص ٣٠٢ « من سُمَانِى الأقبُرِ » والصواب سُمَانَى بفتح النون .

ومن غريب مصطلحاتك قولك فى ص ١٧٩ « التاء المفتوحة » — قلنا : وهذه تكون فى مثل قولك . « البِنْتَ وبِنْتاً » وأما التاء المبسوطة أو المطوّلة فلم يسمّها أحدٌ بالمفتوحة .

وأغرب من هذه الكلمة قولك فى ص ١٨٤ : « مسألة مصدر ميمى » والمصدر الميمى لا يُختم بهاء على ما راجعنا كتب القَوْم .

وقلتَ فى ص ٢٠٣ ، على غشوشة : « كذا فى الأصل ، والمعروف غَشّهُ غشّاً . » وأظن أن الغشوشة هنا جمع غِش ، لأنهم قالوا فى جمعِه غُشُوش (راجع معجم دوزى فى غ ش) ثم قالوا غُشوشة ، كما قالوا سُهُولة وحزونة لأنهُ « رُوى عن أبى الهيثم أنهُ قال : العرب تدخل الهاء فى كل جمع على فِعَال أو فُعُولٍ . . فقالوا عِظام وعظامة . . وذكورة وفحولة . . . » (راجع اللسان والتاج فى : حجر) — وجاء فى ص ٢٥١ : ١١ « فإذا وضَعَتْهُ سَجَرَتِ التنور » وفى الحاشية : « سجرت التنور : أحميته وأوقدتهُ » والصواب أحمتْهُ .

وفى ش ص ٢٦٩ : « والحواء بضم الحاء جمع حاوٍ . وهذا الجمع ليس قياسياً ولا مما ذكرته المعاجم . . . » — قلتُ : وأنتَ تتبع فى هذا الرأى قول كثيرين من الصرفيين الذين يحكمون بعقول غيرهم لا بعقولهم ، وإلا فهذا الجمع قياسى ومبتذل . وإن لم يصرح بقياسيته جميعهم . فقد قالوا فُعّالاً فى جمع كاتب ، وسامر ، وصائغ ، وحاكم ، وصانع ، وتابع ، وكافر ، وجاهل ، وهالك ، ونائب ، ونائم ، وجانٍ ، وصادٍ ، وحاضِر ، وساجن ، إلى ما لا يحصى عده .

وفى ٢٩٠ من المساجين . وهذا الجمع لم يسمع من فصيح . وفى سورة الشعراء الآية ٢٨ : « لأجعلنّك من المسجونين . . . » .

٤ ــ أوهام فى الآراء

فى ص ٢٨ : ١٣ « وتجد فقراً . . . » قلتُ : وقد نشر يوشع فنكل فى القاهرة سنة ١٣٤٤ بالمطبعة السلفية رسالة عنوانها : « المختار من كتاب الردّ على النصارى » اختارها عبيد الله بن حسّان » ووقعت فى ٣٨ صفحة بقطع الثمن الصغير .

وفى ش ٢ من ص ٧١ « جنس من الايسيويين » وهذا الخلق لا وجود له فى الدنيا كلها . والذى أعرفهُ أن يأجوج ومأجوج هم الاسكوثيون أو الاشكوزيون أو السقوثيّون أو السكوثيون أى : Scythes واسم بلادهم اسكوثية أو اشكوزية ، وسمّاها الهَمْدَانى فى كتابه صفة جزيرة العرب (ص ٣٢ : ٩) سَقُوتيا .

وفى ص (٤٢٢ : ٢) « الحَيْر البستان » . قلتُ المراد بالحَيْر هنا البستان الذى يُجْعل فيه أنواع الحيوان كما هو الأمر اليوم فى بستان الجيزة . ويسمّى بالفرنسية jardin Zoolo Giaue وبالانكليزية Zoo وكان الحَيْر يسمى فى بدء الأمر (حَيْر الوَحْش أو الوُحُوش) ثم حذفوا المضاف إليه استغناء بالمضاف . ــ ذكر الخطيب البغدادى فى مقدمة تاريخ بغداد (ص٤٨ من الطبعة الباريسية) قال : « وكان الميدان والثُرَيّا وحَيْر الوحوش مُتّصلاً بالدّار . . » .

وفى كتاب « رسوم دار الخلافة » لهلال بن المُحَسّن الصابئ المتوفى سنة ٤٤٨ للهجرة ــ الذى يُعنى بتحريره وتعليق حواشيهِ ونشرهِ ولدنا بالروح ميخائيل عوّاد ما نصّهُ : « كانت دارُ (دار الخلافة ببغداد) عظيمة السعة ، وعلى أضعاف ما (هى) عليه الآن من هذه البقية الرائعة ، ودليل ذلك أنها كانت متصلة بالحَيْر والثُرَيّا ومسافة ما بينهما اليوم بعيدة . . » (ص ٨ من المخطوط) .

وفى تجارب الأمم لمسكويه – طبعة آمدروز – (فى حوادث سنة ٣١٥هـ) ذكر لحَيْر الوحوش ، فلْتراجع .

ويقال لِحَيْر الوحوش (حائِر الوحوش ، وحظيرة الوحوش) أيضاً . ففى مادة (التاج) من معجم البلدان لياقوت هذه العبارة : « واقتطع جملة من البرية ، عملها ميداناً لركض الخيل ، واللعب بالصوالجة . وحَيْراً لجميع الوحوش » اهـ . وراجع الأغانى طبعة بولاق ٩ : ٥٦ ، فقد صحفت هناك (جير) ، وفى نهاية الأرب ٤ : ٢٠٥ (حاشر الوحوش) وهو أشنع ، والصواب (حائِر الوحش) كما أسلفنا .

وفى ش ص ١٣٥ : « هذه الجزيرة هى المسمَّاه جزيرة أقُور » . – قلنا : من غريب تصحيف العرب للأعلام كلمة (أقور) فإن أصلها(أشُور) أو (أثور) ويقال (آشور وآثور ، وأشورية وأثورية) . وبالفرنسية: Assyrie . فالذين نقلوا (أشور) إلى (أقور) هم الذين قالوا فى (القَصَّاب) (الشَصَّاب) والذين نقلوا (أثور) إلى (أقور) هم الذين قالوا فى (العُلْثَة): (العُلْقَة) . وكأن هذه التصحيفات ليست بشىء ، فزاد القاموس أنْ حذَف الهمزة من الأول ، فقال (قور) فى مكان (أقور) قال فى مادّة (ج ز ر) ما هذا نصّهُ : « وجزيرة قور بين دجلة والفرات ، وبها مدن كبار ، ولها تاريخ ، والنسبة جَزَرِىّ » اهـ – وفى تاج العروس : « وقال أبو عُبَيْد : وإذا أطلقت الجزيرة ولم تُضَف إلى (العرب) ، فإنما يراد بها هذه » اهـ – وسَمَّاها الهَمْدانى مرة (أثور) فى ص ٣٦ من كتابه « صفة جزيرة العرب » ، وأخرى (بلاد أثُورِيا) ص ٤٢ – وطوراً الجزيرة (ص ٤٧ و ١٢٤) .

ومن العجب أن كثيرين لم ينتبهوا إلى أن هذه الأسماء المختلفة راجعة كلها إلى مسمًّى واحد ، هو (ديار اشور) عند الأفرنج ، أو (أثُوريا) كما مرَّ بنا ذلك قُبيل هذا .

وجاء فى ص ٧٢ : « من نبط بَيْسان » وذكرتَ فى الحاشية أن بيسان هذه ، قرية من قرى الموصل .

والذى عندى أن هذا وهم ، إذ ليس للك دليل سوى ما جاء فى ياقوت على بيسان . وأما الصواب فيظهر أن المراد ببيسان هنا مدينة بنواحى الأردن . كانت داراً شهيرة للأنباط ، إذ كانت ربوعهم الأصلية تلك الأرجاء . ويدعم هذا الرأى ، أن الجاحظ ذكر قبل ذلك (حَرَّة بنى سُلَيْم) وهى مجاورة لمرابع النبط فى الغور الشامى . وللأوربيين — على اختلاف قومياتهم — كتب كثيرة على تلك البلاد الواقعة فى شمال بلاد العرب وجنوبى فلسطين .

وفى ص ٢٠٥ : « وزعم بعض المفسّرين وأصحاب الأخبار ، أن الشوك إنما اعتراها فى صبيحة اليوم الذى زعمت النصارى فيه أن المسيح ابن الله » كذا . ولم تعلق على هذه الخرافة الفاقئة حِصْرِماً فى العين كلمةً ، مثل قولك : وهذا زعم باطل ، لا أساس لهُ ، أو كذب مَحْض على النصارى ؛ لأن الأناجيل كلها تذكر أن السيّد المسيح ، له المجد ، كُلِّل بإكليل من شَوْك (راجع مثلاً يوحنا ١٩ : ٢ وما يليها . — فهذا وحدهُ دليل واضح على وجود الشوك قبل قول النصارى المنسوب إليهم كذباً وزوراً وبُهْتاناً وافتئاتاً . وهناك دليل آخر أن العلماء الوثنيين من يونان وروماان وسريان وغيرهم ، يصفون العِضَاه وشوكها ، قبل ولادة المسيح بأعوام عديدة .

وفى ص ٢٢٥ : « وزعم ثمامة عن يحيى بن برمك أن البرغوث ينسلخ فيصير بعوضة . . . » وهذه أيضاً خرافة أخرى على ما فى الكتاب من الخرافات . وكان يجب أن تكتب (ابن) هنا بالألف ، لأنهُ منسوب إلى جدّه لا إلى أبيه كما حققتَ ذلك بنفسك (راجع ما علقناه هنا على ص ١٤٦) . وأما الخرافة فهى أن البرغوث لا ينسلخ بعوضة ، إذ الحيوان فى انسلاخهِ لا ينتقل إلى حيوان أو دابة من جنسٍ آخر . وعلماء الحيوان من

أقدمين وعصريين ، هم رأى واحد فى هذا الموضوع . فكيف فاتتك هذه الخرافة وأنت تعيش فى مصر وفى عصر النور والرقىّ ؟

وما جاء عن كعب الأحبار بصدد الحية (ص ٢٠٠) وعقاب الأرض (٢٠١) هو حديث خرافة أيضاً لا يقبله عقل الأطفال فضلاً عن عقل الرجال ؛ ولا أدرى كيف لم تعلق عليه شيئاً يبرئُ العَرَبَ من هذه التهم ، كما علقت على حاشية ٨ فى ص ١٤٣ بقولك : « ذلك زعم » .

— ٣ —

ومن الخرافات ، لكن اللغوية ، نقلك كلام اللغويين فى ص ٤١٢ فى أصل المنجنيق ، إذ قلت إنها من « جه‌نيك » أى : أنا ما أجودنى ! فياله من تحقيق ويا له من تأصيل ! ! ! أفاتك أن المنجنيق من اختراع علماء اليونان وأن الاسم وضع فى اليونانية ، قبل أن يوضع فى سائِر اللُغَى ، وعنهم نقله سائِر الأقوام فهو فى اليونانية : Magganon .

وفى ص ٤٨٣ فى ش : « ورجح ياقوت فى معجم البلدان أن تسميتها كنيسة القُمَامة » . — قلنا : ولا يجوز لأحد أن يحقق هذه التسمية غير النصارى . فإن الكنيسة بنتها الملكة هيلانة أم قسطنطين الملك ، حين زارت بيت المقدس . ولما شيّدتها سمتها باليونانية ، لا بالعربية Anastasia (أنستاسية) أى القيامة أو النشور أو البعث ، وذلك بنحو ثلثمائة سنة قبل الإسلام ، ولم يكن العرب يومئذٍ فى بيت المقدس ، فكيف يرجح ياقوت القمامة على القيامة ؟ ومعنى القمامة المزبلة ؟

وفى ص ٣٣٦ ش ٥ : « الصومعة كجوهرة : بيتٌ للنصارى . سمى بذلك لدقة فى رأسِهِ » (كذا) وهو رأى أغلب اللغويين الذين لا يعرفون من الكلم إلا الاشتقاق العربى ، فيشتقون جميع الألفاظ الأعجمية من لغة الضاد ؛ وهذا نقص عظيم فى علمهم . فالصومعة كلمة لاتينية من : Summa ومعناها

القمة ، وكل شيء دقيق الرأس على هيئة القمة . — وفى المتن : « وكذلك الصومعة » — والصواب أن يقال : وكذلك (بيضة) الصومعة ليتم التعبير والمعنى .

٥ — ما غمض عليك تحقيقه

جاء فى ص ٤٣٥ . . . « وعند البَحْريّين والبصريين » ، وصواب الأول « البَحْرَانيّين » ، وهم أهل البحرين ومن أعاظم أغنياء العالم فى عهد العباسيين وفى هذا الوقت أيضاً ، لأنهم يعنون بالغوص واستخراج اللالىء من بحرهم ، كأنهُ يقول : وعند اللاألين ، جمع اللأال ، لمستخرج الدُرّ وبائعه — وصواب الثانى البصريين بمعنى أهل البصرة ، لأنهم يتاجّرون مع البلاد النائية ، كالهند والصين وصين الصين ، وتلك الربوع المتناهية فى البعد ، فكأنه يقول بمعنى البصريين : كبار المتاجرين .

وجاء فى ش ص ٤٨٨ فى تفسير : « كأنهُ شهاب قُذف » ، أى الكوكب الذى ينقض « على أثر الشيطان بالليل ويقذف به » — قلنا : ما كان أغناك عن هذه الزيادة الأخيرة الخرافية . فالشهُب تنقض من غير أن يكون ثمّ شياطين ولا أبالسة ولا جنّ ؛ إنما الشهب من سنن الطبيعة . أفيكتب واحد مثلك مثلَ هذا القول ونحن فى عصر النور والرقى والتحقيق الدقيق ؟ — أما كان يمكنك أن تقرأ فى بعض التآليف الفلكية العصرية ما يقال عن الشهب والنيَازِك والرُجُم ؟ — فإن لم يكن بين يديك تصانيف عربية حديثة ، فراجع أسفاراً فرنسية تتكلم على Aerolithes, Bolides, Etoiles Filantes وبالانكليزية Shooting or Ealling star أو Meteor ، أو Aerolith

٦ — مقابلة الألفاظ العربية بالكلم الأجنبية

كثيراً ما تُقابل العربيات بالإنكليزيات وبغيرها من لغات أهل الغرب ، ولا تنبه على اللغة التى تنقل إليها . فنى ص ٩٤ Crane ولم تقل إنها

انكليزية ، وهي بالفرنسية تعني الجمجمة أو قحف الرأس . — وفي ش ص ١٠٧ Grasshopper للجندب ، والكلمة الانكليزية تعني الجرادة ، أما الجندب فلا مقابل له بالانكليزية ، وإنما يقال A kind of cricket وبلسان العلم Gryllus Stridulus وفي ش ص ١٠٨ Chamaleon وهي بالانكليزية ، ولم تنبه عليها . — (وفي ش ص ٤٧) caracal وقلتَ بالأفرنجية ، وهذه الكلمة تعني الفرنسية عند العرب ، وأنتَ تريد هنا الانكليزية . و Caracal هي بالفرنسية والانكليزية معاً .

وفي ش ص ٣٠٩ الورل Varanus وهذا بلسان العلم لا بالإنكليزية . — وفي ش ص ٢٦٠ دَخَّال الأذن ويسميها علماء الأفرنج Centipede ، وليس هذا بصحيح ، لأن هذه إنكليزية ، وأما علماء الأفرنج أي علماء الحيوان منهم فيسمونها : Myriapodes .

وفي ش ص ٣٣٥ البُهْمَى . . . وهي بالإنكليزية Wild-Oat وهذه الانكليزية يقابلها في لسان العلم : Avena Fatua ، مع أن الصواب هو ما وَرَد في مفردات ابن البيطار (أو جامع ابن البيطار) Hordeum Murinum وباليونانية : ϕolvlϛ ويقابلها أيضاً بلسان العلم : Lolium Perenne .

وفي ش ص ٣٧٤ خارطيس والصواب خارْتيس ، إذ ليس في لسان اليونانيين طاء وإن نقلها العرب في بعض الكلم إلى الطاء .

وفي ش ص ٣٦٧ فسرت العُلْجوم بالبعير الطويل ، والذي عندي أن للعلجوم مَعَانى شتّى ، منها : طائر عظيم أبيض ، وهو المراد منهُ في بيت الشاعر ، لأنه يرتاد الرياض ، ولهذا قيل : « كأنهُ يتناهى الرَّوْض عُلجومُ » . وهو بلسان الفرنسيين Heron-Crosse . ثم أين وجدتَ أن العُلْجوم هو البعير الطويل « المطليّ بالقار » ؟ فن أين لك هذه الزيادة « المطليّ بالقار » ؟

— ٤ —

٧ — ملاحظات شتى

ذكرت فى ص ٤٦ : « وفيها كـــكواء الزنابير » وأظنها كـــكوائر الزنابير » . وذلك أن هذه الهوام تبتنى لها بيوتاً يسميها العراقيون (ومنهم الجاحظ) كوارة والجمع كوائر . وفى المخصص ٨ : ١٨٠ : « وقيل الكوائر صغار الخلايا ، وقيل الكوارة بالضم : بيت تبْنيه (النحل) لم يوضع لها » اه . وفى القاموس : الكوارات : الخلايا الأهلية كالكوائر » اه . — ومن أسماء بيت الزنبور الصَّفَنُ بالتحريك .

وفى ش ص ٢٧٠ : « التأسير واحد التآسير . . . » وعندى أنها تأشير بالشين المعجمة وجمعها تآشير . قال فى المخصص ٨ : ١٧٣ : « والتأشير أيضاً : الأثناء وهى عقدة فى رأس الذنب (ذنب الجرادة) ، كالمخلبين ، ويقال لهما الأشْرتان . » اه . والذى عندى أن التأشير هنا الثَّنْى من باب الإطلاق أو التعميم بمعنى العقدة . ومعلوم أن للحيَّة أثناء مُتَلاَحكة أو حُزوزاً (راجع ص ٢٧٤) يدفع أحدها الآخر عند السعى أو الدب .

وفى ص ١٥٥ « الأجدهانى » ولم تضبطها . وهى بفتح الهمزة وإسكان الجيم وفتح الدال ، يليها هاء وألف ، ثم نون مكسورة ، فياء مشدَّدة . وهى منسوبة نسبة إرَمِيَّة إلى (أجْدَها) ، كما نسبوا إلى الباقِلاَ (بالقصر) أو الباقِلاَّء (بالمدّ) وباقدْرَا ، وبِلِفْيَا ، وَجدَيا ، وجُلُلْتا ، إلى غيرها ، فقالوا : باقِلاَّنى ، وباقدْرَانىّ ، وبلفيانى ، وجَدَيانىّ ، وجُلُلْتانى ، إلى نظائرها .

و (أجْدَها) تعريب الفارسية القديمة : (أژْدَها) بزاى مثلثة ، وتلفظ كالحرف J بالفرنسية ، (أژْدَها) قصر (أژْدَرْها) ، بإسقاط الراء ، ومعناها فى تلك اللغة (التنِّين الفتَّاك) . وقد اختلف الرواة فى عدد رؤوسه ، فالنصارى يجعلونها سبعةً ، رمزاً إلى التنين الأول ، وهو الشيطان اللعين ؛ وترمز أرؤسُه السبعة إلى الخطايا السبع الكبرى المعروفة عندهم بالخطايا الرأسية

السَّبْع ، وهي : الكبرياء ، والبخل ، والفحشاء ، والحسد ، والشراهة ، والغضب ، والكسل . فالظاهر أن الجاحظ وقف على رأى النصارى دون غيرهم .

وأما أنها عشرة أروُس ، فهى مبنية على وهم الفرس المحدثين ، أى أن الكلمة منحوتة من (ده) أى عشرة . و (آك) أى مصيبة أو بليَّة أو عَيب ، ولكن الكلمة ليست من الفارسية الحديثة ، بل هى قديمة الوضع ، زَنْدِيته (راجع معجم فُلَّرْس الفارسى اللاتينى المطبوع فى ألمانية ، وعنوانه باللاتينية : (J. A. vullers : lexicon : persico - latinum,1855) وأما أن هناك من قال : إن له روُوساً لا أروُساً ، فهم اليونانيون الأقدمون الخرافيون أهل السمر ، فإنهم يسمون هذا التنين ما نرسمه بالحرف الرومانى : Hydre de lerne . ومن راجع معجم لاروس الوسط ، يجد مختلف الآراء فى عدد روُوس ذلك التنين ؛ فمن قائل إنها تسعة ، ومن ذاهب إلى أنها خمسون ، وقالت جماعة بأنها مائة . وأما أن الجاحظ يرى أن هذا القول : « من أحاديث الباعة والعجائز » فليس صحيحاً ، لأنه يرى مُدوّناً فى أسفار مثقّفيهم الأقدمين ، ومنهم انتقل إلى الفرس الزَنْدِيين حين اتصلوا بحضارة الإغريق أو الأغارقة ، قُبيل الإسكندر الأكبر وبعده .

ونظن أن (الباعة) محرفة عن (الباغية) ، بمعنى الطائفةالباغية وهى اسم فاعل من بغى فلان يبغى بغياً : إذا عدا عن الحق واستطال وكذب . ويراد بالباغية جمهرة من الناس من أهل السَّمَر والمخْرَقة ، يَعْدُون عن الحق ويكذبون ويختلقون الأراجيف . فلما لم يفهم النُسَّاخ المُسَّاخ معناها فى هذه العبارة ، وضعوا فى مكانها (الباعة) ، وقد ألفوا سَمَاعها ومعناها فى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، وجهلوا أن لا معنى لها هنا يستقيم بها سياق الكلام ، وينسجم انسجاماً .

وفى ص ٣١٤ : « ومرةً يجعله أهلهُ على ربيث الدكان » — وهو كلام

لا معنى لهُ . والصواب : « يجعلهُ أهلهُ ، (أى أهل الجاموس) ربيثَ الدكان » ، ومعنى ربيث : سجين أو حبيس ، أى أن أهلهُ يحبسونهُ فى حظيرة مرتفعة الأرض كالدكان ليدفع عنهُ أذى البعوض ، لأن هذه الهوامّ تلجأ إلى الأرضين المنخفضة . وهذا ما يفعل إلى اليوم فى البطائح ، بجوار البصرة .

وفيها س ٣ : « لا تستمرى » ، والأفصح همز الآخر ، وقد تكرر هذا الخطأ مراراً كما فى ص ٣٢٠ وغيرها .

وفى ص ٣١٥ س ٩ : « وهو فى ذلك عبقر نضير » ، وهذه ألفاظ رنّانة فارغة من المعانى . والصواب : عُنْقُرٌ نضير . والعنقر : البرديّ ، أو البردى ما دام أبيض . وراجع كتاب النبات والشجر للأصمعى ، المطبوع فى بيروت فى مطبعة الآباء اليسوعيين ، سنة ١٨٩٨ ، لناشره الدكتور أوغست هغنر فى الصفحة ٣٨ .

وفيها س ١٠ ، ١١ : « قد خرق خرق جوف القار » . وليس فى الأردن قار أو قير بمعنى الزّفت ، ليصح هذا الكلام ؛ إلا أن هناك « قاراً كثيراً » ، بمعنى أن القار جمع قارة وهى الجبل الصغير المنقطع عن الجبال ، أو الصخرة العظيمة ، أو الأرض ذات الحجارة السود ، أو الصخرة السوداء » ، وهذا المعنىّ بهِ هنا دون غيرهِ .

وفى ص ٣١٦ س ٦ : « التى تكون عنها الصَّواعق » — والأحسن هنا « فيها » ، لأن الصواعق تكثر فى البصرة والأبُلّة إلى عهدنا هذا ، وتحدث فيهما أضراراً بليغة فى فصل الربيع .

وفى ص ٣١٩ : « وما قرأت للقدماء فى النفس الأجلاد الكثيرة » . وكان يحسن هنا أن تفسَّر (الأجلاد) ، فيقال إنها جمع جِلْد ، بمعنى السِّفْر أو المجلّد ، ليهتدى إلى معناها القارئ ، ولا يبحث عنها فى المعاجم التى لم تذكرها .

وفى ص ٣٢٠ : « فإذا عاد كالحمر . . . كما يبتلع الجمْر » . وتصحيح العبارة : إذا عاد كالجمْر . . . كما يبتلع الحجَر .

وفى ص ٤٠٤ : « كما يموت السمك ، إذا فارقهُ الماءُ » . والأحسن : كما يموت السمك إذا فارقَ الماءَ .

وفى ش ص ٣٠١ : « مركبة من قطعتين » — وهذا تعبير لا عهد لى به سابقاً . والصواب : « من لفظين أو حرفين » . وأما المقطع فهو الهجاء ، لا الكلمة ، أو الحرف أو اللفظة .

وفى ص ٤٧١ : « والملح شيئان : أحدهما المرَقَة » . (كذا ، بهذا النقل الشنيع ، وبهذا الضبط الأشنع) ، وفاتكَ أن ليسَ لمترادفات المِلْح : لمرَقَة ، بل الدُّقَّة .

وفى ص ٤١١ س ٦ : « على كَنَس » ، والصواب بضمتين ، أى على كنُس ، مثل سحاب وسُحُب .

وفى ص ٤٨١ الهرابذة ، وعرفتهم بنقل عبارة استينجاس ، ولا أرى سبب عدولك عن كلام العرب إلى نقل عبارتك عن الأعاجم ، فى حين أن السلف تكلموا عليهم . فقد قال المسعودى فى التنبيه والإشراف ص ١٠٣ من طبعة الإفرنج : « وكانت للفرس مراتب أعظمها خمس . هم وسائط بين الملك وبين سائر رعيته ، فأولها وأعلاها (المُربَذُ) تفسيرهُ : حافظ الدين لأن الدين بلغتهم (مُو) و (بذ) : حافظ . وهو (موبذان الوبذ) : رئيس الموابذة وقاضى القضاة . ومرتبتهُ عندهم عظيمة نحوٌ من مراتب الأنبياء . (والهرابذة) دون الموابذة فى الرئاسة . . . » والكلمة مركبة من (هر) أو (هير) أى نار . و (بد) أو (بذ) أى حافظ أو خادم أو قيّم ، ومحصّلها : خادم النار .

— ٥ —

وفى ص ٢٩٦ « زرادشت » ولم تضبط دالها . وكذلك « أهرمن » ولم تضبط . وفى الحاشية : « كيبستاسب وارموزد » . وكلها ألفاظ مخطوء فى رسمها وضبطها . — والصواب زَرَادُشْت . ويقال أيضاً زَرَادُهْشْتَ وزَارْتُشت وزَارْدُشت وزَارْدُهشت وزارْدِشْت (راجع معجم فلرس المذكور قبل هذا) .

وتضبط اهرمن هكذا : أهْرَمَن ، وأهْرَمْن وآهْرَاهْن ، وآهْرَمَن ، وآهَرْمَن وآهْرِيْمَن ، وأهْرَن ، وآهْرِيْمَن ، وآهْرَابَن ، وأهْزِيَمن ، وأهْرِيمَه على ١٠ فى كتُبهم الدينية .

وتضبط أرْمُزْد (وخطأ أرموزد كما كتبت) أرْمَز وأرْمُزْد وأوْرْمز وأوْرْمُزْد .

وأما كيبستاسب فليس محاله هنا . والذى يجب أن يكون هنا هو كيستاسب أو كيستاسف كما فى تاريخ ابن خلدون ٢ : ١٦١ . وأما كيبستاسب فهو ابن لهراسب ، وكان قبل ظهور زرادشت الهربذ الشهير (راجع الآثار الباقية للبيرونى طبعة أوربة فى الصفحة ١٠٥) ولا تراجع الشاهنامة فإن الأعلام فيها محرفة فى بعض الأحيان . فأين ذامن ذاك .

وجاء ذكر دِيدان الجُبْن فى ص ٤٦ . وهذا الأمر معهود إلى يومنا هذا وهو معروف بنوع خاص فى الجبن المسمَّى بالفرنسية Roquefort و Camambert . وقد أكلتُ من هذهِ الديدان شيئاً كثاراً عُجاباً حينما كنت فى نيس Nice فى جنوبى فرنسة فى سنة ١٨٨٩ إلى عام ١٨٩٤ .

وذكرت فى ش ص ٤٦٨ كلاماً على « لادَرَّ درُّ رجال . . » وفى المحبّىّ فى كتابه خلاصة الأثر ٢ : ٣٨٢ ، ورد مقال طويل على هذين البيتين . فليراجع .

وفي ص ١٥٤ ذُكر تِنّين أنطاكية . وقد تكلمتُ على تِنّين بغداد وهو كتِنّين أنطاكية ، كلاماً طويلاً عريضاً في مجلة المشرق البيروتية سنة ١٩٠٧ (أي قبل ٣٣ سنة) في المجلد ١٠ : ٥٩٠ إلى ص ٦٠٣ وهو بحث يعجبك كثيراً .

وفي ص ١٥٥ ذكر الأصلة . وقد نشرتُ مقالة طويلة عليها (ولا أتذكر أين ومتى وفي أي مطبوعة) ذكرتُ فيها ما ألخّصه هنا كل التلخيص وهو : أن الأصلة تعريب اليونانية : (باصلة) المقطوعة من : Basiliscos أي الملكة ، ولهذا سمّاها بعضهم بهذا الاسم أيضاً (راجع الدميري) . وسمّاها آخرون (المكللة) ، (راجع الدميري في : أصلة) . وظنها فريق أنها (الصِّلّ) وليست كذلك . وسمّاها الفُرْس الأقدمون (شاهمار) ، المركبة من (شاه) أي ملك ، و (مار) أي حيّة . فيكون معناها : الحيّة (الملكة) أو (المكللة) . والآن يقول لها عوام العراقيين : (شمهار) بالقلب .

ومن أسمائها : الباسيليق ، على اللفظ اليوناني (راجع دائرة المعارف للبستاني في هذه المادة في حرف الباء) . — ومن أسمائها : الصَفَر والصُفّار ، والناظر ، والدُودَمِس وابن قُتْرَة ، والمُطَفِئة الرَضَف (وراجع ما كتبناه في المشرق ١٠ : ٧١٨) .

وتكلمت على الدسّاس في ص ٢٢٢ . وقد وضعتُ مقالاً عليها في المشرق ٢ : ٣٤٧ — ثم ٥ : ٥٣٧ و ٥٣٨ .

ولم تقل كلمة شافية على الفُرَانق . وقد تكلمتُ عليه في المشرق ١٣ : ٨٢٨ إلى ٨٣١ وهو بالفرنسية Caracal - Lynx .

٨ — حسنات الكتاب

حسنات هذا المجلد لا تحصى ولا تستقصى ، ولو تولى غيرك العناية بنشر مثله لما استطاع قط ، حتى لو أقام خمس سنوات أو ستّاً لإبرازه بمثل

الحُلّة التى أفضتَها عليه ، لأن التحقيقات والتدقيقات التى أتيتَ بها بلغت أبعد الغاية التى يصل إليها الباحث المتروّى المتدبر . وأنا أعدد شيئاً من هذه المحاسن :

١ — إناك لم تعتمد على الجاحظ فى إثبات بعض الآيات القرآنية ، فإنك راجعت الأصل وأثبتّه . كما فعلتَ فى ص ٣١٠ مثلاً .

٢ — إنى أقدّر كل التقدير تعبك الناهاك فى مراجعتك بعض الأبيات الشعرية ومعرفة نسبتها إلى صاحبها الأصلى ، أو إلى أصحابها المختلفين . على نقلها الرواة . كما فى حواشى ص ٣١١ و ٤١٣ و ٤٤٥ وغيرها وهى جَمّة .

٣ — مما أدهشنى ، معرفتك لأصل هذه الكلمة ص ٢٤٤ : « وفى بعض كتُب الأنبياء : أن الله تبارك وتعالى قال لبنى إسرائيل : « يا أولاد الأفاعى » معلّقتَ عليها فى ش أنها من إنجيل متّى (٣ : ٧) فللّه درُّك من محقق مبرز على جميع الأقران . من شيب وشبان ! !

٤ — وجدتك تراجع عدة مصادر لمعرفة صحة بعض الروايات لبعض الأبيات . وهذه التحقيقات لا تُعد ، فتكاد كل حاشية تزدان بها . وهذا أمر عجيب ، إذ يدل على أنك صرفت ساعاتٍ طوالاً وأياماً كثاراً لهذا التتبع المدهش .

٥ — ألفيت تحقيقك اللغوى لا يقل بشىء عن استقرائك التاريخى والبلدانى والشعرى وتراجم الرجال على اختلاف طبقاتهم وأزمانهم ومواطنهم فمن هذا التحقيق والتدقيق ما أثبتّه فى ص ٦ بخصوص القِطْمِير . وما جاء فى ص ٤٢٨ عن الخشفان ، لكن قولك فى ش : الخشفان جمع غريب للخشف . بتثليث الخاء ... » أغرب . وأول كل شىء لم تضبط حركة الخاء بحركة فى المتن ولا فى الشرح . — ثم أين الغرابة ؟ هل فى ورود إحدى هذه اللغات المثلثة على فعلان أم ماذا ؟ — زد على ذلك أن المصباح ذكر بين جمع الخشف

الحشوف ، وقد نسيتَهُ أنتَ . وأما ورود جمع فَعْل المفتوح على فِعلان المكسور الأول ، فمثالهُ : حَشّ و عَبْد ووغد وثور ... فتقول : حِشّان وعِبدان ووغدان وثيران ... رجمع المكسور الأول مثالهُ : حِبُّ وصِنوُ وقِنوُ ونِير وخِيطُ ... وجمع المضموم الأول مثاله: كُور ودود وعود وسور... فأين بقيت تلك الغرابة ؟

٦ ــ ما ذكرتَهُ في ش ٤٢١ بصدد الأربد صحيح لا غبار عليه !

٧ ــ وفى ش ص ١٠٢ جاء كلامك على جعل ضمير العاقل لغير العاقل من أحسن ما يقال في هذا الباب !

٩ ــ خاتمة الرسالة

كل ما ذكرته إلى هنا هو نتيجة مطالعة سريعة بسرعة قابس نارٍ . وكانت تقع تلك المطالعات والملاحظات فى نحو خمسة أضعاف ما كتبتُ هنا . لكن أحد اللصوص الأشقياء سرقها منى كما سرق ساعتى الذهب التى كان الملك غازى ــ رحمهُ الله ــ أهداها إليَّ ذِكرى لمؤلفاتى ومكافأته إياى عنها مع كيس الدراهم . وكنتُ سلختُ فى كتابتها ١٢ يوماً . وما دونته هنا هو بعض تلك النقدات . ولا جرم أن السارق لمّا رأى أن تلك الأوراق لا تجديه نفعاً مزّقها شرَّ ممزّق . وكنتُ قد أفرغت فيها قوى فكرى وجسمى فأضْنَتْنِى إضناء ونحن فى بلدٍ حرُّهُ لا يطاق ، وهواؤهُ خارج من فوّهات جهنّم وقانا الله شرها !

كنت أود أن أرى فى كل صفحة من الصفحات المطبوعة أرقاماً تدل على عدد السطور ليسهل على القارئ إصلاح الأغلاط التى نبهتَ عليها فى آخر الكتاب . ــ وعسى أن تراجعنى فى ما لا توافق عليه من تصحيحاتى لك

وكنتُ قد أنفذت إليك بملاحظاتٍ شتى على الجزء الثالث من كتاب الحيوان ، فلم أرَ لها أثراً فى المجلد الرابع ، وكنتُ أتوقع أن أراها فى آخرهِ

مع نسبتها إلىّ . وإلا فما الفائدة من إجهاد النفس وتحميلها ما لا يطاق ، وليس ثَمّ أدنى عائدة ؟ فعسى أن أعرف سبب هذا الإهمال ، وإلا جمعتُ تلك النقلات فى رسالة تنشر فى مجلة أو فى رسالة قائمة بنفسها ، وفيها التحقيقات التى بذلتُ فيها الوقت والتعب والسهر .

وفى ختام هذه الكلمة ، أهدى إليك تهانىّ الصادقة بتحقيقاتك الدقيقة الدالة على تدبُّر بعيد المدى ، وعلى تفكر نيِّر . وأشكرك أصدق الشكر على هديتك هذه الثمينة .

بغـــداد

الأب أنستاس مارى الكرملى

كتاب الحيوان للجاحظ

جواب رسالة المحقق الكبير

الأب أنستاس مارى الكرملى

بقلم عبد السلام محمد هارون(*)

– ١ –

بلغتنى رسالتك الكريمة ، طيبةً رائعةً على صفحات « الثقافة » الغراء ، فحمدت لك هذه الغيرة الصحيحة ، ومن قبلُ ما شكرت لك تلك العناية البارعةَ فى رسائلى الخاصة إليك .

وقد تقبَّل الناس فى مصر مقالاتِك التى سطّرتَها فى كتاب الحيوان ، بخير ما يتقبلون به نتاجاً فكرياً مفيداً حقاً . ولا جرم أنك قد تصفحت هذا الجزء الرابع من الكتاب تصفّحاً تاماً ، وظهرت على دقائقه وخفاياه ، فكانت نظراتك فيه عميقة ، وإلمامك كاملاً .

وكنت أردت أن أجتزئ بقراءة رسالتك ، وأفيد ما حوت من خير كثير ، وجمعت من توضيح مشكلٍ وبيان عويص ، وألاّ أعارضها بما يظنه الغِرّ تطاولاً على مقامك الكريم ، أو تحدياً لجليل علمك . كنت أردت ذلك ، ولكن الحقَّ أبى علىّ ذلك – والحقُّ عزيز .

لذلك أستجيزك أن أكشف عن وجه الحقّ ، فيما تضمَّنت رسالتك ، راجياً ألاّ يخطئنى الإنصاف كما لم يفارقك ، وأن أتَّسم بما اتَّسمتَ به من حب الحق ، وتطلّب الحق .

(*) نشرت فى العدد ١٠٤ من السنة الثانية من مجلة الثقافة بتاريخ ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٣٥٩ ديسمبر سنة ١٩٤٠م .

ووجدتك قد قسمت رسالتك أبواباً ، فسأتحدث فى كل منها على النظام الذى اصطنعتَ .

١ ــ أغلاط الطبع

٤٠٣ « قلا مكانه » ليس خطأ فى ذاته ، لأن الفعل واوى يائى ، يقال قلاه يقلوه ويقليه ، بمعنى أبغضه .

٢ ــ أغلاط الضبط

١٠٢ (البرستوج) قلتَ : صوابها (الترستوج) مستشهداً بما فى البرهان القاطع . ويظهر لى أنهما كلمتان تدلان على هذا النوع من السمك ؛ فإن صاحب القاموس قد ذكر الأولى ، فى فصل الباء من باب الكاف (برشتوك). والفيروزابادى يعرف لغته معرفة جيدة ، وانظر ما أضفت من تحقيق فى هذه الكلمة ، فى حواشى الحيوان (٣ : ٢٥٩ ــ ٢٦٠) ، وكذلك معجم استينجاس ٢٤٢ .

٤٤٥ (صارت لهم خراطيمُ) . لا وجه لتخطئة هذا الضبط . فمعناه : أصبحت لهم خراطيمُ ــ والخرطوم : مقدم الأنف ــ أى ظهر فيها نتوء . وليس ما يشوب الإعراب ؛ فكلمة (خراطيم) اسم لصار .

١٨٥ (وإذا كان ذلك [كذلك]) . قلتَ : لا حاجة إلى زيادة (كذلك) ، ورأيت أن الكلام يستقيم بدونها . وأنا أوافقك فى صحة المعنى بدون (كذلك) . ولكن أسلوب الجاحظ يطلب هذه الكلمة . ومن تمرّس بأسلوبه عرف منه ذلك ، ولكل كاتب لازمات لا تكاد تفارقه . فأنت قلتَ فى مجلة الثقافة (٩٨ ص ٤٠) : « الفاقئة فى العين حِصرِماً » وأنت القائل أيضاً قبل ذلك بتسع سنوات : « يفقأ فى العيون حِصرماً[1] » وهى

(١) الجزء الثامن من كتاب الإكليل ص ٣٠٦ س ٢٤ وقد نشره حضرة الأب فى سنة ١٩٣١ .

خاصّة لك لم أرها لكاتبٍ غيرك . فالجاحظ التزم ذلك التعبير في كل موضع ورد فيه . وليس يمكنني إحصاء المواضع جميعاً . ولكني أدلك على بعض مواضع من كتاب الحيوان فحسب . انظر (٢ : ٩٧ س ١٧ — ١٨ ، ٣ : ٢٠١ س ٨ ، ٤ : ٤٣٤ س ٨) .

٣١٨ قلت : إن (الشِّكل) بكسر الشين ، غلط . والحق أنها صواب . وفي القاموس : « الشكل : الشبه والمثل ، ويكسر » . وجاء في بحر العوّام[1] ص ٢٧ : « وقرأ مجاهد : وآخَرَ من شِكْله[2] » فما تقول في لغةٍ مقروء بها ؟ !

٣ — أغلاط الصرف

٢٥٥ وردت كلمة (أظافره) في شعر ، فقلتَ : إنه كان يحسن أن أنبه على خطئها ، وجعلت صوابها (أظافير) .

قلتُ : ليس في الكلمة خطأ كما حسبت ، بل هو مذهب القرآن ، ومذهب الكوفيين ؛ إذ يجيزون حذف الياء من مثل هذا الجمع ، كما يجيزون زيادة الياء في نحو دراهم وصيارف . وحجتهم في ذلك القرآن الكريم : « وعنده مفاتح الغيب » والأصل (مفاتيح) وقوله : « ولو ألقى معاذيره » الأصل (معاذره) إذ هو جمع (معذرة) . وجاء في الشعر :

تنفي يداها الحصى في كلّ هاجرةٍ
نفيَ الدراهيم تنقادُ الصياريفِ

وقد وافق ابنُ مالك الكوفيين ، فأجاز في سربال وعصفور : سرابل وعصافر ، وفي درهم وصيرف : دراهيم وصياريف . واستثنى (فواعل)

(١) لابن الحنبلي طبع دمشق ١٣٥٦ .
(٢) سورة ص ٥٨ .

فلا يقال فيه (فواعيل) عنده ، إلا شذوذاً . انظر لذلك همع الهوامع (٢ : ١٨٢ س ٢٠ — ٢٣ طبع ١٣٢٧) وشرح الأشمونى (٤ : ١٣٢ س ١٨ — ٢٦ طبع ١٢٨٧) .

وفى ص ٣٠٢ : قلتَ إن عبارتى (معجمى استينجاس وريتشاردسن) تعبير مولّد لا تعرفه لغة القرآن . وقلتَ : إن معناه أن لاستينجاس معجمين . ولريتشاردسن أيضاً معجمين . تعنى أن المجموع أربعة . وجعلت صوابها (معجم استينجاس وريتشاردسن) . وليت شعرى كيف نفرق بين وجهى هذه العبارة — التى جعلتها الصواب — إذا أريد بها مرّةً أن لكل واحد من الشخصين معجماً خاصاً ، وأريد بها مرة أخرى أن الشخصين اشتركا فى وضع معجم واحد ؟

وقد أشرت إلى لغة القرآن ، ولعلك تعنى ما جاء فى قوله تعالى : « على لسان داود وعيسى بن مريم » حيث أفرد (لسان) . وهذه مسألة خلافية بعيدة عن مسألتنا ، وهى مسألة الإضافة إلى متضمِّنين مفرَّقين[1] ، باعتبار أن اللسان جزء من داود وعيسى عليهما السلام . وانظر تفصيلها والخلاف فيها فى همع الهوامع (١ : ٥١) فى نهاية باب الجمع .

أما مسألتنا هذه فهى إضافة ما ليس جزءاً مما أضيف إليه . فكلمة (معجم) ليست جزءاً من أحد الشخصين . ومذهب البصريين فيها أن ما ورد على خلاف الأصل — وهو المطابقة — مسموع . وقاسه الكوفيون . أما ابن مالك فقاسه إذا أمن اللبس . واللبس فى مسألتنا هذه غير مأمون . كما أسلفت . فما ذهبتُ إليه فى عبارتى ، هو الأرجح الأصوب عند النحاة .

وفى ص ٦٩ : ٢٦ (كذا جاءا) قلتَ بلزوم (الواو) قبل العبارة لتصح . وليس ما يمنع صحة الكلام ؛ لأنى لم أقصد عطفاً ، فما يدعونى إلى إقحام الواو ؟ !

---

(١) أى مفرقين بالعطف .

وفي ص ١٧٦ قلتُ : (صخور ملساء) فقلتَ : الصواب (ملس) . عنيتَ أن الجمع المكسر لغير العاقل لا يصح نعته بفَعْلاء ، بل يصح نعته بفُعْل جمع فعلاء . وهو مذهب يعترف حضرة الأب بأن أحداً من النحويين لم يصرح به . وقد سمعتُ منك في مجلس ضم بعض الفضلاء أنك استقريت كثيراً من كلام العرب فصحَّت لك هذه القاعدة . وخطأت بعض من حضر ، في قوله (الأيادي البيضاء) .

وأنا أقول : ليس يكون تقييد قواعد الكلام بهذا النحو الذي جرى عليه حضرة الأب . فالنحويون القدامى كانوا أوسع علماً وأكثر إحاطة ، وأدق انتباهاً إلى كلام العرب ومذاهبهم . منا نحن الذين لم نطلع إلا على القليل الذي وصل إلينا مسطوراً مكتوباً . وهم كانوا يشافهون الأعراب في باديتهم ، وكانت لديهم الذخيرة الفياضة من لغات العرب . فهؤلاء النحويون الأفذاذ الذين لم يعهد مثلهم في نحاة اللغات الأخرى ، لم يمنعوا ما منعت ، ولم يحجروا ما حجرت . ولو أنهم وجدوا في كلام العرب ما يفهم منه ما ذكرت لما ترددوا في حظره . وهم قد أجازوا أن يوصف هذا الجمع بما يوصف به المفرد المؤنث نحو قوله تعالى : « ولي فيها مآرب أخرى »[1] .

على أنه جاء من النصوص المعارضة قول الجاحظ نفسه في الحيوان ٥ : ١٠٧ س ٢ : « فتستحيل حجارة سوداء » وقول ياقوت في معجم البلدان (٢ : ١٩٣) : « إنما سميت البصرة لأن فيها حجارة سوداء صلبة » . وقد تقول إن إثبات الهمزة في (سوداء) من زيادة الناسخين ، فلم لا تقول إن الناسخين أهملوا بعض الهمزات في نحو هذه الكلمة . إهمال تحريف ، أو إهمال رسم[2] ؟ !

---

(١) كليات أبي البقاء ٢٤٢ .

(٢) من قواعد علماء الرسم الأقدمين حذف الهمزة خطأ إن سبقت بساكن ، فيكتبون نحو خمراء (خمرا) . المطالع النصرية ٨٢ .

وفى ص ١٠١ قال حضرة الأب : « الدجلة ليست بغلط إنما هى لغة ضعيفة » . واستشهد بما فى (نزهة الجليس) ، وببيت لابن الوردى . أما نزهة الجليس الذى اعتمدتَ ، فكتاب لا يسوغ لعالم أن يثق بما فيه . ومؤلفه رجل يطالعك بضعف اللغة ، وركاكة التعبير ؛ وهو العباس بن على ابن نور الدين المكى ، فرغ من تأليفه سنة ١٢٤٨هـ . وهو كتاب من كتب الرحلات ، المليئة بالاستطراد المهوش . سرد فيه رحلته من مكة سنة ١١٣١ التى استغرقت اثنتى عشرة سنة . وطبع فى القاهرة سنة ١٢٩٣ .

وفى الحق أن كلمة (دجلة) جاءت فيه مراراً كثيرة وهى محلاة بأل ، ولكنها وردت فى كلامه الذى هو من إنشائه . وذلك فى أثناء حديثه عن رحلته إلى العراق[١] . فهو يتحدث بلغة معاصريه . ولم ترد (الدجلة) فى خبر معتمد أو شعر صالح مروى ، إلا فى بيت ابن الوردى الذى رواه . وليس ابن الوردى أو نحوه حجة فى هذا .

وتستطيع أن تضم إلى ما نقلت عن درة الغواص فى منع دخول (أل) على (دجلة) قول ياقوت فى معجم البلدان : « دجلة نهر بغداد لا تدخله الألف واللام » . وكذلك قول ثعلب — ورواه الجوهرى فى الصحاح — : « تقول : عبرت دجلة بغير ألف ولام » .

وقلتُ : « فإن المعرفة لا تعرف » فقلتَ : « هذا كلام غير صحيح » . ولو أنّ حضرة الأب واجد نحوياً أو منطقياً بما قاله ، لما وجده مؤيداً له . أما المناطقة فيقولون عبارتهم المأثورة : « إن ذلك من تحصيل الحاصل » . وأما النحويون فلم نجد أحداً منهم ذكر لنا طريقة تعرف بها المعرفة ! بل ذكروا لنا طرق تعريف النكرات[٢] .

---

(١) نزهة الجليس (١ : ١١٥ — ١١٩) .

(٢) وهى إدخال (أل) ، والإضافة إلى المعرفة ، والنداء مع القصد .

وأما الاستشهاد بالبصرة والحلة والموصل والشام ، والفرات والنيل ، فليست (أل) فيهن للتعريف ، كما يرى حضرة الأب ، بل هي ما يعبر عنها في عرف النحاة بأنها (أل) الزائدة زيادة لازمة . وهذه الكلمات معرفات . لا بأل ، بل بالعلمية . و (أل) جزء منها ، قارن وضعه وضعها . كالجيم من جعفر والهمزة من أحمد[1] . وقد عبروا عنها بالزائدة لينوهوا بأنها ليست للتعريف كالتي جاءت في نحو (الرجل) .

وأما استشهادك بالحسن والحسين والعباس والكاظم ، فهذا باب آخر . و (أل) فيها هي التي تسمى (أل التي للمح الأصل) ، لا تفيد التعريف ، بل يلمح بها الأصل ، أي ينقل النظر فيها من العلمية إلى الأصل ، أي معنى الأصل الذي نقل منه العلم . وإدخال أل هذه على الأعلام المنقولة سماعي . وانظر حواشي الحيوان (٣ : ٣٨٢) .

وفي ص ٦١ (والحوايا : الأمعاء . واحدها حاوية) قال حضرة الأب : « كذا . والصواب حَوِيَة » .

وليس الأمر كما ظن حضرته : فإن واحد (الحوايا) يصح أن يكون (الحوية) — كما ذكر — ويصح أن يكون (الحاوية) أو (الحاوياء) . وفي اللسان[2] : « والحوية والحاوية والحاوياء ما تحوى من الأمعاء ... والجمع حوايا تكون فعائل إن كانت جمع حوية ، وفواعل إن كانت جمع حاوية أو حاوياء » . وهناك نصاً آخر في س ٢٣ — ٢٤ : « أبو الهيثم : حاوية وحوايا مثل زاوية وزوايا » . ثم قال : « ومنهم من يقول حوية وحوايا » . وفي هذا الذي أوردت . دليل صريح على أن العبارة التي أثبتها في شرح الحيوان صحيحة سليمة .

---

(١) الأشموني والصبان (١ : ١٩٢ — ١٩٣) .
(٢) لسان العرب (١٨ : ٢٢٨ س ١٩ — ٢١) .

وفى ص ١٤٦ أخذت علىّ أنى كتبت كلمة (ابن) بالألف فى أولها لوقوعها فى أول السطر ، ورأيتَ أن تخضع هذه الألف لاعتبار واحد ، هو وقوعها بين اسم الولد ووالده أو بين الولد وجده أو شهرته فهذا مذهب قد ارتضيتَه أنت ، وهو مذهب صحيح . ولكنى جريتُ على مذهب صحيح أيضاً هو السائد عندنا فى مصر ، أعنى إثبات الألف فى أولها إذا وردت أول السطر ، مهما يكن من أمرها . وقد أثبت هذا المذهب العلاّمة نصر الوفائى الهورينى فى المطالع النصرية ص ١٧١ س ١٧ طبع ١٢٧٥ .

وفى ص ١٥٩ رسمت (وجاءوا) هكذا ، فقلتَ صواب رسمها : (وجاوُوا) ولا ريب أن الرسم الأول هو الذى جرى العرف عليه فى مصر ، وهو الذى لقّننا معلمونا ونلقنه تلاميذنا ، وهو المذهب الصحيح ، وهو أن كل همزة بعدها حرف مدّ كصورتها تحذف ، نحو قرءوا ، تبوءوا[1] . ومعنى حذفها ألا تصوّر بواحدة من صورها الثلاث ، وهى الألف والواو والياء[2] . ووضع القطعة التى هذا شكلها (ء) فى محلها ، أو فوق الياء أو الواو المصورتين بدل الهمز ، أمر حادث بعد حدوث الشكل والإعجام[3] .

وأما إثبات صورتها فى (جاءوا) أى رسمها بواو هكذا (جاوُوا) فمذهب فى الرسم ضعيف . ففى همع الهوامع (٢ : ٢٣٤) : « ومنهم من يجعل لها صورة » .

وفى ص ١١٢ (المغناطيس) بكسر الميم ، قلتَ : الصواب فتح الميم كما فى جميع المعاجم العربية المعتمدة ، فما تقول فى أنها ضبطت فى القاموس ضبط قلم بالكسر ، وضبطت فى المعيار للشيرازى ضبط تعيين بالكسر أيضاً ، وعنهما نقلت . وأما محيط المحيط فلم تنل مكتبتى شرف الحصول عليه . على أن ضبط هذه الكلمة المعربة بالكسر أقرب إلى الأوزان العربية .

(١) شرح الشافية (٣ : ٣٢٠) والمطالع النصرية ٨٩ .
(٢) المطالع النصرية ٦٦ .
(٣) المطالع النصرية ٦٦ .

وفى ص ١٣٢ (يستخبر الريح) قلت : الصواب ما فى اللسان والقاموس والتاج (يستمخر) . وأنا لم يفتنى أن أنبه على هذه الرواية فى الاستدراكات ٥٢٦ . أما الرواية الأولى التى هى صحيحة أيضاً ، وليس ما يضعف من قوة معناها وجزالتها — فهى الرواية التى وردت فى البيان (١ : ٧٢) والحيوان (١ : ٣٤ ، ٤ : ١٣٢) فهى رواية الإمام الجاحظ .

وفى ص ١٥٦ قلت : إنى (أثبت خرافة الفُرانق) . وقد غاب عن حضرة الأب أن تفسير تلك الألفاظ الخرافية بما يوضح معناها التاريخى ، ليس يُعنَى به إثبات تلك الخرافات . فإذا قلتُ : الغول وحش صحراوى يتشكل أشكالاً ويتلوّن ألواناً — وأنا رجل يعيش فى القرن العشرين — فليس معنى ذلك إلا أننى أفسر تلك الكلمة بمعناها التاريخى . وليس واجباً علىّ أن أصخب وأقول : إنه أمر خرافى لا يقره العقل ، ولا يقبله الفكر . وإذا كنت أنشر كتاباً تاريخياً وورد فى تضاعيف عباراته ذكر إيزيس (Isis) مثلاً ، وفسرتها بأنها هى التى جمعت أجزاء جثة زوجها أوزيريس (Osiris) وردّتها إلى الحياة ، وأعقبَتْ منها ولدها حوراس : (Horus) ، أئذا فسرتها على هذا النحو أكون مشاركا لقدماء المصريين فى اعتقاد هذه الخرافة ؟ !

على أن الجوّ الذى وردت فيه الكلمة ، يحكم عليها قبل أن أحكم أنا عليها. ويؤسفنى أن يتوهم حضرة الأب أن فكرى ، أو فكر أى معاصر مثقف ، يقبل ما هو ظاهر البطلان ، وما يصرخ فى نفسه بأنه خرافة ظاهرة . وقد آخذ علىّ حضرة الأب مآخذ أخرى شبيهة بهذه ، سوف أشير إليها إشارات يسيرة فى مواضعها .

وفى ص ١٧٣ قال الجاحظ : « وليس للحيات سفاد معروف ينتهى إليه علم ، ويقف عليه عيان . وليس عند الناس فى ذلك إلا الذى يرون من ملاقاة الحية للحية ، والتواء كل منهما على صاحبه » فجعلْتَ صوابها « من ملاواة

الحية للحية » وفسرت الملاواة بأنها المجامعة . وهذا حسن فى ذاته ، ولكنه يقلب عبارة الجاحظ رأساً على عقب ، فهو يقول : إنها لا يعرف لها سفاد معروف ينتهى إليه علم ويقف عليه عيان . فكيف يقول : لا يقف عليه عيان ، ثم يقول بعد ذلك : إن الناس يرونه ويعاينونه ؟ ! فوضح بعد ذلك أن عبارة نسخة الحيوان صحيحة لا يعوزها علاج ، وان علاجها على النحو الذى رأيتَ يسقمها بلا ريب .

وفى ص ١٧٦ جعلتَ (الشجاع) مأخوذاً من اليونانية Siga أو Sige بمعنى الإطراق والسكوت . وهذا حسن إن تحقَّق ، ولكن العرب كما يعرف حضرة الأب ، قد وسِعَتْ لغتهم دقائق وافرة فى الحيات ، ففيها أسماء كثيرة لأنواع كثيرة فصّلوها تفصيلا ، وبلادهم بلاد الحيات ، فهم فى غنى عن أن يستجْدوا أسماءها من اليونان أو غير اليونان ، ما وجدوا مندوحة ؛ وكتب اللغة العربية تفيض وتزخر بكثير من الألفاظ الخاصة بالحيات . وكتاب المخصص لابن سيده يذكر لنا عدداً واسعاً ، ويرينا دقة ظاهرة فى تفصيل العرب لأنواع كثيرة من الحيات[1] . فالشجاع مأخوذ من الشجاعة . والنكّاز من النكز ، والأرقم من الرقْم . والعرماء من العَرَم ، وهكذا .

وفى ص ١٩١ (ولا أعشق) جعلتَ صوابها (ولا أعبق) وهو وجه جيد صالح إذا قرنتها بالكلمة التى قبلها ، وهى (أعلق) . وقد وجهتها أنا فى التذييل ص ٥٢٨ بأن تكون (أعنق) بمعنى أسرع . وهذا وجه جيد صالح — فيما أرى — إذا قرنتها بالكلمة التى بعدها ، وهى (أسرع) فهذا وجهان .

وفى ص ٢٤٨ قلتَ : « المراد هنا بالحلى الخلاخيل ذوات الجلاجل » . ثم استطردتَ . وتقييد تفسير الحلى بأنه الخلاخيل ذوات الجلاجل وحدها . ليس ما يثبته . وفى الصفحة نفسها من شعر النابغة :

« لحلى النساء (فى يديه) قعاقعُ »

---

(١) المخصص (٨ : ١٠٦ — ١١٦) .

وفى ص ٢٨٥ قول الراجز : « بين حوافى سدِرٍ وصخر » قلتَ : « الصواب سِدَر كعنب أو سُدُر كعنق ، وهى جمع سدرة وهى شجرة النبق » . ويمنع من صحة تفسيرك كلمة (حوافى) التى هى جمع حافة ، بمعنى جانب البحر أو النهر . وقد تقول إن (الحافة) تكون بمعنى جانب أى شيء ، ولكن البيت قبلها يعين المراد منها وهو :

* يظل فى مرأى بعيد القعر

والمراد ببعيد القعر هنا ، الماء العميق لاجرم . وانظر لحيات الماء ما جاء فى الحيوان (٤ : ١٢٨ ، ٢٣٧) .

— ٢ —(*)

وفى ص ١٧٩ (التاء المفتوحة) بمعنى المبسوطة هكذا : (ت) . قلتَ : إنها من غريب مصطلحاتى . والحق أنها مصطلح متوارث عندنا نحن المصريين . ورثه آباؤنا عن آبائهم ، وورثناه عنهم ، ونحن الآن نلقنه أبناءنا وتلاميذنا فى جميع مدارسنا . ولهذا المصطلح نظير آخر ، هو التاء المربوطة (ة) وهو اصطلاح من اصطلاحات علماء الرسم المتأخرين . والمتقدمون منهم يطلقون عليها اسم الهاء فقط . ولا مشاحة فى الاصطلاح ، كما يقولون .

على أن التاء المبسوطة التى ذكرتُ ، يعبر عنها بعض العلماء بالتاء فقط ، بدون زيادة شيء ، وبعضهم يسميها : التاء المجرورة[1] .

وفى ص ١٨٤ (مسألة : مصدر ميمى) . قال حضرة الأب : « والمصدر الميمى لا يختم بهاء . على ما راجعنا كتب القوم » ولست أدرى أىَّ كتب

(*) نشرت بالعدد ١١٠ من السنة الثانية لمجلة الثقافة بتاريخ ٨ من المحرم سنة ١٣٦٠ﻫ الموافق ٤ فبراير سنة ١٩٤١م .

(١) انظر المطالع النصرية ١٤٢ ، والصبان (٤ : ١٨٨ س ٢٢ بولاق) .

القوم عنيت ؟ ! فإن المصادر الميمية المختومة بالهاء كثيرة . ذكر بعضها سيبويه فى كتابه (١ : ٢٤٧ – ٢٤٨ طبع بولاق) . وسرد الإمام الرضى فى شرح الشافية (١ : ١٧٠ – ١٧٤ طبع ١٣٥٧) طائفة صالحة منها . ومن ذلك : محمدة ، وملمة ، ومعجزة ، ومظلمة ، ومعتبة ، ومهلكة ، ومعرفة ، ومغفرة ، ومعذرة ، ومعصية . كما أن المعاجم اللغوية تكفلت بإثبات ما ورد على هذا النحو . وفى القاموس : « سأله كذا وعن كذا وبكذا بمعنى . سؤالاً . وسآلة . ومسألة . وتسآلاً وسألة » فذكر بينها المصدر الميمى (مسألة) .

وفى ص ٢٠٣ (غشرشة) ظننْتَ أنها جمع (غِش) وتأوَّلت لذلك بما تأولت — فيه كثير من العسر . والأقرب أن تكون مصدراً مفرداً فى وزان السهو والليونة والصهوبة والكدورة .

وفى ص ٢٥١ جاء فى المتن : (سَجَرْتَ التنّور) . وفى الشرح : (سجرت التنور : أحميته وأوقدته) قلت الصواب (أحمته) . ولعل سبب الإشكال أنك قرأت عبارة الشرح مطابقة لعبارة المتن . وذلك أمر لا يلتزمه المفسر ؛ إذ أن من المذاهب الشائعة فى تفسير الكلمات أن ينسب المفسر الكلام إلى نفسه . فأنا أردت فى الشرح أن أقول (سجرتُ التنور) أعنى بتاء المتكلم . وقرأتها أنت بتاء المؤنثة ؛ فمن ذلك ما حدث الخلاف والشبهة . وتجد حضرتك أنى فسرت (نَقَتْ عظامَها) فى س ٩ بقولى : « نقى العظم نقياً : استخرج نقيه » ؛ ولم أقل (نقت عظامها : استخرجت نقيها) .

وفى ش ص ٢٦٩ : « والحُوّاء بالضم : جمع حاو . وهذا الجمع ليس قياسياً . ولا مما ذكرته المعاجم » فقلت : إنه (قياسى ومبتذل) . والحق أنه ما قيس ولا ابتذل ؛ إذ أن جمع الوصف من فاعل على فُعّال مطرد حقاً ، ولكن فى غير المنقوص . أما المنقوص منه فجمعه على فعّال نادر [1] . وهذا

(١) همع الهوامع (٢ : ١٧٧) والأشمونى (٤ : ١١٦) .

ما عنيتُ بقولى إنه ليس قياسياً .

وما ذكرتَ من الأمثلة الكثيرة جلُّه غير منقوص فلا يحتج بكثرته . وليس فيهن من المنقوص غير (جانٍ . وصادٍ) فهاتان من النادر . كما ندر أيضاً غازٍ وغُزَّاء ، وسارٍ وسُرَّاء . وفى ذلك ما قال ابن مالك :

وفُعَّـــل لفاعل وفاعـــله
وصفين نحـــو عاذل وعاذله

ومثله الفُعَّـــال فيما ذُكرا
وذان فى المعَلّ لاماً نـــدرا

٤ — أوهام فى الآراء

وفى س ٢ من ص ٧١ قلتَ إن يأجوج ومأجوج (جنس من الأسيويين) فعقّبتَ على ذلك بقولك : « وهذا الخلق لا وجود له فى الدنيا كلها . والذى أعرفه . . .) الخ . وليس بين القولين أى تعارض أو أى تضارب . فى ظنهم (سقوتيا) الذى ذكره الهمْدانى — هو إقليم أسيوى بلا ريب . وقد جعلهم الهمدانى أصحاب الإقليم السادس[1] . وجعل حد الإقليم السادس أرض الصين إلى نهر بلخ إلى بحر الشام الذى يلى المشرق[2] . أفلا يتضح من هذا أن يأجوج ومأجوج ،أو السقوتيين (جنس من الأسيويين) ؟!

وفى صفحة ٢٠٥ و ٢٢٥ و ٢٠٠ و ٢٠١ أخذتَ علىَّ أنى لم أعلق على هذه المرويات بأنها خرافات (تفقأ فى العين حصرماً) . فكأن حضرة الأب قد زعم لنفسه أنى أقرّ هذه الخرافات . ولا وحقّك ما إن كان من دأبى تصديق خرافة ! وما يكون لرجل من غيرى ، نصب نفسه لدراسة هذا

---

(١) صفة جزيرة العرب ص ٦ س ٨ .

(٢) صفة جزيرة العرب ص ٦ س ٢٠ .

الكتاب العجَبِ ، أن يتعثر فى تمييز ما هو خرافة ظاهرة ، وأن يتبيَّن فصل ما بين الأباطيل والحقائق . فخرافة الشوك (٢٠٥) وخرافة انسلاخ البرغوث بعوضة (٢٢٥) مصدَّرتان بكلمة (زعم) . وهذا يكفى للتنبيه على خرافيتها .

وأما مرويات كعب الأحبار فى (٢٠٠ و ٢٠١) فإنَّ القارئ الذى تحدثه نفسه بقراءة كتاب الحيوان ، ليس يفتقر إلى أعلام تنصب له فى طريقه ، كى لا تضلَّ به السبيلُ حين يقع بصره على هذه المرويّات ، ذات الشهرة الخاصة .

وأما كتابة (يحيى بن برملك) بإسقاط الألف ، مع أن (برملك) جد يحيى ، لا أبوه — فهو المذهب الصحيح من مذاهب علماء الرسم[1] . على أن الحجاج فى الرسم أمر لا يجدى فتيلاً ؛ فمن المؤسف أن الرسم لا يمكن جمع الناس فيه على مذهب خاص دون سواه ، مهما حاول المحاولون .

وفى ص ٤٨٣ ذكر (كنيسة القُمامة) المعروفة بكنيسة القيامة . وقد أثبتُّها بالميم ، اعتماداً على ما ورد فى الحيوان (٦ : ٦٢ ساسى) وعلى ترجيح ياقوت لهذه التسمية . وقد رأيتَ حضرتك أنه (لا يجوز لأحد أن يحقق هذه التسميةَ غير النصارى) وهذه عاطفة مشكورة نجلُّها ونحترمها . ولكننى أعرف أن التاريخ ملك للبشر جميعاً ، يتداولونه بينهم بالبحث والتفتيش والامتحان والتحقيق . وأنت ترى أن غير المسلمين ينظرون فى تاريخ المسلمين ويحقّقونه ، ونقبل منهم أقوالهم وأفكارهم ما كانت مستقيمة صالحة ، ونُرحّب بها ترحيباً خاصاً . وياقوت حين عرض لتحقيق اسم الكنيسة ، لم يشُبْ تحقيقَه غرض أو يخالطْه هوى . فهو يتحدث عن تسمية كانت معروفة متعالمة ، منذ القرن الثالث الهجرى على الأقل . ولا ريب أنها غَبَرَت دهراً طويلاً معروفة بذلك بين الناس . كما أن هذه التسمية لم

(١) المطالع النصرية ١٧٤ س ١١ .

تقتصر على الجزر العربى فحسب ، بل هى سارت أيضاً فى اللغة الفارسية عن طريق اللغة العربية . ففى معجم استينجاس الفارسى الإنجليزى ص ٩٨٨ تجد هذا النص :

Kanisatu' l-qumama, The church of the holy sepulchre at Jerusalem.

وتفسيره : (كنيسة القمامة : كنيسة القبر المقدس بأورشليم) . وسواء أكان ياقوت مخطئاً فى تعليل هذه التسمية أم مصيباً ، فهى تسمية شاعت حيناً ، وهى التسمية التى عناها الجاحظ بلا ريب[١] . وأنا إنما أثبتها تحقيقاً لنص الجاحظ ، لا تحقيقاً للوضع التاريخى الذى يجب أن يكون ؛ فإن مهمة كل ناشر أن يجتهد فى إثبات النص اللفظى الذى أراده المؤلف . وأنت تجدُنى فى ص ٤١٥ قد أثبت نص الجاحظ فى رواية بيت الحارث بن حلزة اليشكرى ، مع يقينى بأنها رواية مخطئة فاسدة ، كما نبهت عليه .

وليس من الغريب فى الأعلام العمرانية أن يتعاور اسمان مختلفان مسمى واحداً . فالمدينة سميت بيثرب وبالمدينة ، وبكل نطق القرآن[٢] . ومكة قيل فيها (بكة) أيضاً ، وبكل جاء القرآن[٣] . وأحياناً تمحو التسمية الجديدة نظيرتها القديمة وتعفى عليها . فلوأن صاحب الهرم بعث من مثواه ، وعرض عليه اسم الهرم أو ترجمة معناه لأنكره إنكاراً وغلب عليه العجب . ومن يدرى ؟ لعل اسمه بعد دهر يصيبه تغيير ! .

وفى ص ٣٣٦ س ٥ « الصومعة كجوهرة : بيت للنصارى سمي بذلك لدقة فى رأسه » فقلتَ : الصومعة كلمة لاتينية من : Summa ومعناها القمة وكل شيء دقيق . ولست أدرى لم نفر من الاشتقاق العربى ما دام مستفيضاً جامعاً فى مادة من المواد ؟ ! فالمعنى السائر فى مادة (صمع)

---

(١) انظر تعليلا آخر لتسمية كنيسة قمامة فى القاموس (قم) .

(٢) سورة الأحزاب ١٣ والتوبة ١٠١ .

(٣) سورة الفتح ٢٤ وآل عمران ٩٦ .

العربية هو دقة الأعلى ؛ فالصمعاء : المدملك المدقق من النبات . وكل برعومة لم تتفتح بعد . والصومعة : البرنس ، وذروة الثريد . ويقال صومع الثريدة : إذا دقق رأسها . ومنه قول الراجز[١] .

قد دقّـه ثاردهُ وصومعا
ثمت ألبـان البخاتى جعجعا

ونحن لا نستطيع أن نحكم بتعريب كلمة قبل أن نعدَم وجودَ أصل لها من الاشتقاق اللغوى العربى ؛ فإذا وجدنا الأصل ووجدنا معه النظائر ، كان من الظلم البيّن أن ننفى عن الكلمة نسبتها إلى العربية .

٥ - ما غمض تحقيقه

وفى ش ص ٤٨٨ تفسير الشهاب بأنه ينقضّ على أثر الشيطان بالليل ويقذف به . وهذا تفسير دينى عناه الجاحظ ويعرفه عامة المسلمين . وأنا مكلف بتفسير عبارة الجاحظ على النحو الذى عنَى . فقول الجاحظ : « كأنّه شهابُ قَذْف » لا يحتمل غير هذا التأويل . وكان من المستحسن أن تتمهل حضرتك قليلاً فيما حكمت به . فأنا قلت إثْر كلامى السابق فى حواشى الصفحة : « وفى الكتاب[٢] : إلا من خَطِف الخطفةَ فأتبعه شهابٌ ثاقب » . وأضيف إلى ذلك قول الله[٣] : « وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً للشَّيَاطِين » . وقوله[٤] : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وشُهُباً ، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً » . وقوله[٥] : « لاَ يَسَّمَّعُونَ إلى الْمَلأ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِب » .

(١) الحيوان (١ : ٢٣٦) .
(٢) سورة الصافات ١٠ .
(٣) سورة الملك ٥ .
(٤) سورة الجن ٨ - ٩ .
(٥) سورة الصافات ٨ .

وأما التفسير العلمى ، الذى يعرفه طلبة الفرق الدنيا من مدارسنا الثانوية بمصر ، فإنه لا يتنافى مع هذا التفسير الدينى ولا يعارضه ، فمع وجود السبب العلمى قد توجد العلة الدينية ، ليس فى ذلك ريب .

وقد جاء فى القرآن الكريم[1] فى شأن مدينة سَدوم : « فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ » وجاء فى سفر التكوين (١٩ : ٢٤ — ٢٥) : « فأمطر الرب على سَدُوم وعَمُورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء ، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض » . فالعلة الدينية لتخريب سدوم هو العقاب الإلهى على إجرام أهلها وشناعة فجورهم . والسبب العلمى الظاهر هو زلزال وانفجار جبل للنار ، أمطر أهلها بالحمم والقذائف المهلكة ، وقلب أرضهم وديارهم . ونسبة الحجارة إلى الجحيم والسماء إشارة إلى العقوبة الإلهية . وهذا مثَلٌ من أمثلة .

— ٣ —(*)

٦ — مقابلة الألفاظ العربية بالكلم الأجنبية

فاتنى حقاً أن أنسب بعض الكلم الأجنبية إلى لغاتها . وأشكرك على استدراكاتك !! فاننى من ذلك حقّ الشكر . وليس ينقضى عجب الناس وعجبى من صدق غيرتك ، وواسع علمك .

وجدتك تنكر علىّ فى ش ص ١٠٧ مقابلتى للجندب بكلمة : grasshopper الإنجليزية . وقلتَ : إنها تعنى الجرادة . والحق أن الكلمة لا يقصد بها إلاّ (الجندب) ذلك النوع الصغير من الجراد ، الذى يتميز

---

(١) سورة هود ٨٢ .

(*) نشرت بالعدد ١١٦ من مجلة الثقافة بتاريخ ٢ من صفر سنة ١٣٦٠ هـ و ١٨ من مارس سنة ١٩٤١م .

بالقَفَزَّان والصرير[1] . فنى مادة grasshopper من دائرة المعارف البريطانية ص ٦٥٨ من المجلد العاشر[2] .

(They are especially remarkable for their leaping powers, due to the great development of the hind legs & also for their stridulation Which is generally, but not always, a function of tht male only).

وعلى ذلك الوجه الصحيح تُرجِمت الكلمة فى معجم المعلوف والقاموس العصرى ومعجم Wartabet وسائر المعاجم الإنجليزية العربية المتداولة . فقولك (أما الجندب فلا مقابل له بالانكليزية . . .) الخ — ليس صحيحاً كما رأيت .

أما الجرادة فالذى يقابلها بالإنجليزية locust كما يتضح من دائرة المعارف البريطانية (١٤ : ٢٩١ — ٢٩٢) حيث ترى وصفها وشكلها الناطق . والجراد نادر الوجود فى بلادهم . وهم يؤرخون رحلاته النادرة إليهم ، كما فى ص ٢٩٢[3] .

ومما هو جدير بالذكر أن كلمة locusts كثيراً ما يراد بها (الجنادب) ولكن فى الاستعمال العامى أو غير الدقيق ، ففى دائرة المعارف البريطانية grasshopper ما يأتى :

(The name locust is often applied to any member of this family, in its strict usage the Termonly refers to certain destructive species) .

---

(١) القاموس واللسان والمخصص (٨ : ١٧٦) .
(٢) الطبعة الرابعة عشرة سنة ١٩٢٩ .
(٣) انظر أيضاً : children's Dictionary ص ١٨٩٨ .

وفى ش ص ٣٧٤ (خارطيس) اليونانية . قلتَ صوابها : (خارتيس) إذ ليس فى لسان اليونانيين طاء . وهذه عبارة ظاهرية بحتة ؛ فالحقّ أن الطاء حرف مشترك بين اللغات جميعاً ، ولو لم يفرد لها حرف خاص . وليست الطاء إلا تاء ثقيلة . فالتاء فى نحو كلمتى : Tall الإنجليزية ، و : monotone الفرنسية — هى طاء فى الحقيقة ، بل هى أشد من الطاء العربية التى فى نحو : إطار ، وسطر . فالقول بأن الطاء لا وجود لها فى اليونانية أو الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها من اللغات — غير منضبط على الواقع .

ومثل الطاء فى ذلك الصاد . فالصاد لم يفرد لها حرف خاص فى اللغات الأوربية ، بل يعبر عنها بحرف السين (S) أو (C) فى نحو كلمة : Facon الفرنسية .

وفى ش ص ٣٦٧ بيت علقمة فى نعت الظليم :

وضّاعة كعصىِّ الشَّرع جؤجؤه

كأنه بتناهى الرّوض علجومُ

وفسرتُ (العلجوم) بأنه البعير الطويل المطلى بالقطران ، فاعترضتَ باعتراضين . أما أحدهما فقولك : إن المراد بكلمة (العلجوم) هنا (طائر عظيم أبيض) . وأما الآخر فقولك « من أين لك هذه الزيادة : المطلى بالقار [1] » .

أما الاعتراض الثانى فإنك تجد جوابه فى شرح المفضليات لابن الأنبارى ص ٨٠٤ س ١٠ — ١١ طبع بيروت ١٩٢٠ وفيه هذا النص : « والعلجوم : البعير الطويل المطلىّ بالقطران » .

---

(١) سها حضرة الأب فى النقل . وإن اللفظ الذى أثبته فى حواشى الحيوان هو (المطلى بالقطران)

وأما تفسيرك للعلجوم فصحيح ، ونطق به بعض العلماء بالشعر ، كما فى شرح المفضليات ٨٠٥ س ٥ ، وفيه أيضاً : « ويقال هو الليل ، فشبّه سواد الظليم بسواد الليل » . لكن الرأى المتقدّم فى تفسير الكلمة أن تؤوّل بالبعير . وتجده أول الأقوال عند ابن الأنبارى . ويؤيد هذا الشرح أن كلمة (وضّاعة) فى أول البيت مأخوذة من صفة البعير الذى يضع فى سيره . ومنه قول دريد بن الصمة[1] :

يا ليتنى فيها جذَعْ أخُبّ فيهـــا وأضع

والشعر العربى أقوى درجات تفسيره أن يؤول بالنظائر والأشباه . ولذلك يخطئ كثير من الذين يعمدون إلى المعاجم ونحوها ، ليفسروا بها الشعر العربى . دون أن يلتفتوا إلى أجواء المعانى العربية ، وهى متقاربة متناوحة ، يأخذ بعضها من بعض وينظر إليه . فما ورد شبيهاً بالبيت السالف ، قول طرفة[2] :

ومكـــانٍ زعـــلٍ ظلمانُه

كالمَخاض الجُرْبِ فى اليوم الخَصِرْ

فانظر كيف شبّه الظّلمان بالمخاض من الإبل ، وقيد المخاض بأنها (الجُرْب) لما أنها تكون سوداً بما طليت وهُنئت من القطران . وهو قد اختار اليوم (الخَصِرْ) لأن البرد يكثّف الهَنَاء فيظهر سوادُه ويحلك ، كما أنه يظهر حمرة التقشر فيما برئ من مواضع الجسد . وهو تصوير دقيق رائع فى تشبيه الظلمان بالإبل . إذا لحظنا تجرد عنق الظليم وفخذيه من الريش وحمرتهما .

والعرب أبداً يشبهون الإبل بالنعام . ويشبهون النعام بالإبل . لما هو

(١) السيرة ٨٤١ جوتنجن ، وإمتاع الأسماع للمقريزى (١ : ٤٠٢) .
(٢) مختارات ابن الشجرى ٤٣ طبع ١٣٠٦ .

واضح من اشتراكهما فى كثير من الخلْق والخلُق . والأول كثير
ومن الثاني قول لبيد[1] :

وخَيطاً من خواضب مزلفات
كأنّ رئالها وُرْقُ الإفـــال

إذ شبّه صِغار النعام بصغار الإبل الوُرْق .

٧ – ملاحظات شتى

فى حديثك عن ش ص ٢٧٠ نقلتَ نصّ ابن سيده فى المخصص (٨ : ١٧٣) : « والتأشير أيضاً : الأثناء ، وهى عقدة فى رأس الذنب (ذنب الجرادة) ، كالمخلبين ، ويقال لهما الأشرتان » وبنيتَ على كلمة (الأثناء) ما بنيت .

والحق أن كلمة (الأثناء) محرفة عن (الأشرة) بالضم ، وهى بمعنى (التأشير)[2] . وكيفَ يجعل ابن سيده (الأثناء) المجموعة ، تفسيراً للكلمة المفردة ، أعنى (التأشير) ثم ينتكس مرة ثانية فيفسر هذه الكلمة الدالة على الجمع بما يفسر به المفرد المؤنث ؟ ! إن ذا لدليل قطعى على التحريف .

وقد عقّب ابن سيده بقوله : « ويقال لهما الأشرتان » يشير بذلك إلى أن تلك العقدة التى تشبه المخلبين المنضمين يفرد لها اللفظ حيناً فيقال (الأشرة) ، ويثنى حيناً فيقال (الأشرتان) . فهل لحضرة الأب أن يرى معى أن ما ذهب إليه قد بعُد به عن الصواب ؟ ! فقول أبى النجم فى نعت الأفعى :

* تأسيرها يحتكّ فى تأسيرها *

---

(١) الحيوان (٤ : ٣٦٠) .

(٢) القاموس وتاج العروس واللسان .

صحيح لا تحريف فيه ، ويراد بكلمة (التأسير) الجلد وأصل معنى التأسير ، السَّيْر ، كما أثبت فى شرح الحيوان . وقد قال الراجز بعده :

مرَّ الرحى تجرى على شعيرها

فليس يكون هذا الصوت الشديد للأثناء التى ظننتَ والجاحظ يحدّثنا أن تلك الحزوز والأثناء التى فى بطن الحيّة (لم توجد بعين ولا لمس[1]) وليس لها خاصيّة فى إحداث الصوت . وإنما يكون الصوت من عامة الجلد ، وخاصة إذا كانت الحية فى دور السلخ ، فإنه يسمع لجلدها — إذا قارب الانفصال وتلوّت الحية — كشيش واضح عالٍ . وفى ذلك يقول الراجز فى صفة شَخْب الناقة حين تحتلب[2] .

كأن صوت شخبها المرفضّ

كشيشُ أفعى أجمعَتْ لعضٍّ

فهى تحك بعضها ببعضِ

وفى ص ١٥٥ تحدثتَ عن (الأجدهانى) حديثاً ممتعاً قيماً ، فبهرتَ الناس بما أنك محقق قادر ، وبما أنك خطير .

وقد وجدتك تقول : « وأما أن الجاحظ يرى أن هذا القول من أحاديث الباعة والعجائز — فليس صحيحاً ؛ لأنه يُرَى مدوّناً فى أسمار مثقفيهم الأقدمين » فهل هناك تنافٍ بين قول الجاحظ وما ذكرت ؟ ! أوليس الباعة والعجائز عندنا يتكلمون بما فى أسفار الأقدمين مما يجرى على مذهبهم من حب الإغراب والتعجيب ؟ ! وقد سمعنا العجائز يحدّثننا بأخبار وأقاصيص مسطورة فى كتب الأولين . وكنّ يتزيدن فيها حيناً ويُغربْن آناً . فيخلعن بذلك عليها مَسحةً من جمال .

---

(١) الحيوان (٤ : ٢٧٥ س ١ — ٢) .

(٢) المخصص (٨ : ١١٥) . والخزانة (٤ : ٥٧١ بولاق) . والحيوان (٤ : ٢٣٣) . وفيه بقية المصادر .

وظننتَ أن (الباعة) محرفة عن (الباغية) وجعلتَ تؤيد مذهباك تأييداً ، ولست أدرى ما عدا بك عن (الباعة) أوليس الباعة يتحدثون ويكثرون من الحديث ؟ ! أوليس قد جبَل الله كثيراً منهم على الكذب والتزيد والمبالغة فى الاختلاق والبهرجة ؟ ! وهم من قد رأيت كثرةَ حلفٍ . وقوةَ تصنّع . ولَباقةَ حديث . وكأيّن من بائع طلّق زوجته مئاتٍ ليحتال على عميله بما يحتال ! وقد عرف الجاحظ ذلك منهم . فأضاف إليهم خبراً غريباً فى موضع آخر من الكتاب[1] : « ولم أجد أهل سكة اصطفانوس . وباب جاريةَ وباعةَ مربّعة بنى منقرٍ يشكّون . . . » إلخ . فليس فى الكلام تحريف كما رأيت .

وفى ص ٣١٤ س ٣ (ولا تستمرى) قلتَ : « والأفصح همز الآخر . وقد تكرر هذا الخطأ مراراً » .

أما أن الهمز هو الأفصح فإنه صحيح لا جدال فيه . وأما قولك إن ترك الهمز خطأ فلا وجه له من الصحة ؛ إذ أن تخفيف الهمزة فى مثل هذا جائز جوازاً مشهوراً ، فكيف خفى عليك ؟ ! وأنا لم أسقط الهمزة من الكلمة ، بل ذلك من صنع الجاحظ ، وله الخيرَة فيما يقول .

فهذه الهمزة المضمومة ، المتحركْ ما قبلها بالكسر ، يجوز تخفيفها بلا جدال . ولكن تخفيفها على ضربين : فمذهب سيبويه أن تخفف على طريقة (بينَ بينَ[2]) . ومذهب الأخفش قلبها ياء[3] وقد وجدتُ كثيراً أن الجاحظ يميل إلى تسهيل الهمزات فى مواضع شتى من كتابه . وهذا أحدها . وإن أحببت أن تعرف بعض الشواهد على ذلك فانظر (١ : ١٢٠ س ٤ . ٢ : ١٠٨ س ٧ ، ٣١٢ س ٢ ، ٣٣٣ س ٥ . ٣ : ٣٦ س ٤ ، ١٣٠ س ٦ ، ٤ : ٣٠٣ س ٧ ، ٣٨٨ س ٢) .

---

(١) الحيوان ٢ : ١٢١ س ٦ .

(٢) انظر لتوضيح هذه الطريقة شرح ابن يعيش ٩ : ١١٢ س ١ والإنصاف لابن الانبارى ٣٠٦ .

(٣) ابن يعيش ٩ : ١١٢ س ٢٤ وشرح الشافية ٢ : ٤٦ وهمع الهوامع ٢ : ٢٢١ .

— ٤ —(*)

وفى ص ٣١٥ س ٩ : (وهو فى ذلك عبقر نضير) فقلتَ : صوابه (عنقر) وأن المراد بالعنقر (البَرْدىّ) .

فأوّل ذلك أنك جعلت (الحلفاء) هو (البَردىّ) بعينه ، مع أنهما نوعان مختلفان ، وإن تدانيا فى الفصيلة . كما يتضح من مراجعة كتب النبات ومعاجم اللغة .

والآخر أن كلمة (عبقر) صحيحة فى معناها وفى وضعها ؛ فإن العبقر (أول ما ينبت من أصول القصب ونحوه وهو غَضٌ رخص قبل أن يظهر من الأرض[1]) . ومثل ذلك معنى (العنقر) كما فى اللسان ، والنبات والشجر للأصمعى[2] . ولكن ماذا يدفعنا إلى تبديل النصّ ما دام اللفظان متعادلين متساويين فى أداء المعنى ؟ !

ولعل ما حدا بك إلى إثبات (العنقر) أنك تريد تأويلها بالبَرْدىّ ، الذى هو أحد معنَيَي (العنقر) . وما معنى أن يقول الجاحظ : إن الحلفاء يثقب الآجرّ وهو فى ذلك بردىّ نضير ؟ ! إنما يريد الجاحظ التعجيب بأن يتمكن هذا بالأصل الغضّ الرّخْص ذو النضرة أن يثقب ذاك الجسم الجاسى الصلب .

وفى الصفحة نفسها س ١٠ — ١١ قال الجاحظ : « وزعم لى ناسٌ من أهل الأردن أنهم وجدوا الحلفاء قد خرق جرف القار » . وفسرتُ (القار) بأنه الزفت . فقلتَ معترضاً : « ليس فى الأردن قار أو قير بمعنى الزفت ليصحّ الكلام » . وليت شعرى أتقصّيتَ أرض الأردنّ ، وهى عريضة واسعة . فكان منك ألاّ تجد القار ؟ ! ولنفترض أن القار ليس يوجد

(*) السنة الثالثة من مجلة (الثقافة) بالعدد ١٢٥ (فى ٢٣ من ربيع الثانى سنة ١٣٦٠هـ و ٢٠ من مايو سنة ١٩٤١م) .

(١) اللسان (٦ : ٢١٠) . وانظر جمهرة الأمثال للعسكرى ٦٦ س ٤ طبع بمباى ١٣٠٦ .

(٢) اللسان (٦ : ٢١٩) والنبات والشجر ٥٢ طبع ١٩٠٨ .

بالأردنْ ، أفعجز أهله أن يجتلبوا القار إلى بلادهم ليستعملوه فيما يصلح من شأنهم ، ويقيِّروا به ما يشاءون من الحِياض والمترضآت ؟ ! وقديماً كان يفعل ذلك العربُ وغيرهم ، فى كل جهة وفى كل صُقْع ليمنعوا تسرُّب الماء إلى باطن الأرَضِين[1] . وهل يرتضى حضرة الأب أن أقول له : ليس فى بغداد ذَهَبٌ ؛ لأنه ليس يخرج من أرضها ؟ ! واستشهاد الجاحظ بقول أهل الأردن ليس يلزم منه وجود تلك المادّة فى غلاّت بلادهم أو عدم وجودها . وإنما يريد الجاحظ ذكر المخبر له بهذا الخبر ؛ ليطمئنّ القارئُ إلى صدق روايته .

وفى ص ٣٢٠ « فإذا عاد كالحمر . . . كما يبتلع الجمر » قلت : صحة العبارة « فإذا عاد كالجمر . . . كما يبتلع الحجَر وتصحيح الكلمة الأولى بديهى ؛ لأن كلمة (الجمر) تكررت فى الصفحة كثيراً ، فهو خطأ مطبعى ظاهر . وأما تصحيحك (الجمر) بكلمة (الحجر) فلا يسعفك فيه أن تقرأ باقىَ النصّ ، وفيه : « وكنت قلت له : إن الجمر سخيف سريع الانطفاء إذا لقِىَ الرُّطوبات . . . » إلخ .

وفى ص ٤٧٢ قول الجاحظ : « والملح شيئان ، أحدهما المرقة (فقلت : صوابه (الدقّة) المرادفة لكلمة (الملح) . ولو أننى صوّبته بما قلتَ لكنتُ متحكماً فى توجيه النصّ . وأنا قد أثبت فى شرح الحيوان قولين للعلماء فى تفسير كلمة (الملح) الواردة فى قول شُتَيم :

لا يبعد اللهُ ربُّ العبادِ والملحُ ما ولدَتْ خالدَهْ

أما الأول فهو (الحرْمة) بمعنى الذِّمام . وأما الآخر فهو (البركة) . فيصح أن تكون كلمة (المرقة) محرفة عن إحدى الكلمتين ، ولا سيما الأولى ، فهى أقربُ إليها فى الصورة .

---

(١) انظر لذلك الحيوان (٤ : ٣١٦ س ١١ – ١٢) .

وتجد حضرتك أنى بدأت الكلام على البيت بأن كتبتُ لفظ (كذا) . وهذه إشارة منّى إلى ارتيابى فى صحّتها .

وأما توجيهك لها بأنها (الدُّقة) فقد رأيتَه قريباً وأراه بعيداً ، وفيه شيء من العجب ؛ فإن أحداً من العلماء لم يفسِّر به البيت ، وإن الجاحظ لا يكون منه أن يلجأ فى تفسير الكلمة الواضحة — بالمعنى الذى أردتَ — إلى كلمة منكرة مثل هذه . ولو أراد هذا المعنى لعبّر عنه بقوله : (أحدهما ذاك المعروف) أو نحو ذلك .

وأخيراً ، إن إطلاق (الدقّة) على (الملح) قولُ ضعيف . وفى اللسان : « الدقّة : التوابل ، وما خلط به من الأبزار نحو القِزْح وشبهه . والدقّة : الملح وما خلط به من الأبزار . وقيل : الدقّة : الملح المدقوق » .

وفى ص ٤١١ س ٦ (علىَ كنَس) وهو خطأ مطبعى ، لا يرتاب قارئٌ فى ذلك . وتجد حضرتك فى الشرح قولى : « والكنس بضمتين » . وهذا تعيين صريح .

وفى ص ٢٩٦ (كيبشتاسب) الذى ظهر (زرادشت) فى عصره . فقلت أولاً : « صوابه كيستاسب ، أو كيستاسف ، كما فى تاريخ ابن خلدون ٢ : ١٦١ » . وقلت ثانياً : « وأما كيستاسب فهو ابن لهراسب . وكان قبل ظهور زرادشت الهربذ الشهير » .

أمّا ما قلت ثانياً ، من أن (كيبستاسب) كان قبل ظهور زرادشت ، فزعمٌ لا يصلح ، واستشهادك بما جاء فى الآثار الباقية للبيرونى ص ١٠٥ ، استشهادُ غير موفّق . فإن نصّ البيرونى حين راح يعدّد ملوك الفرس الكيانية ، هو : « وبعد ذلك كيبشتاسب بن لهراسب إلى أن ظهر زرادشت ، وبعد ذلك كى أردشير بهمن بن اسفنديار بن بشتاسف » فكيف يفهم من هذا النصّ أن (كيبشتاسب) كان قبل ظهور زرادشت ؟ ! وهو نصٌّ صريحٌ

كل الصراحة فى أن ظهور زرادشت كان فى زمن كيبشتاسب ، وأن مُلْكَ هذا امتد به حتى شاهد زرادشت .

وإن أحببت دليلاً آخر على أن (كيبشتاسب) بن لهراسب هو الذى ظهر زرادشت فى زمنه ، فارجع إلى فهرس ابن النديم[1] ، حيث يطالعك هذا النص الصريح الآخر ، نقلا عن كتاب الوزراء للجهشيارى[2] : « كانت الكتب والرسائل قبل ملك كيبشتاسب بن لهراسب قليلة . . . . فلما ملك كيبشتاسب واتسعت الكتابة ، وظهر زرادشت بن اسبتمان صاحب شريعة المجوس وأظهر كتابه العجيب بجميع اللغات أخذ الناس نفوسهم بتعلم الخط والكتابة فزادوا ومهروا . . » .

فأنت ترى أن (كيبشتاسب) تناوله المؤرخون الذين كتبوا بالعربية ، على وجوه شتى . فهو (أشتاسب)[3] عند الطبرى و (كشتاسب) عند ابن النديم ، و (كيبشتاسب) عند البيرونى[4] ، و (كيستاسب) عند ابن خلدون[5] و (كيستاسف) عند ابن خلدون أيضاً[6] و (بشتاسف) عند البيرونى أيضاً[7] ، و (بشتاسب[8]) . وذلك راجع إلى اختلاف سبل التعريب .

ومهما يكن من الأمر فهو ابن (لهراسب)[9] أو (كيلهراسب[10])

(١) ابن النديم ص ١٢ ليبسك .
(٢) لا تجد هذا النص فى القطعة المطبوعة من كتاب الوزراء .
(٣) تاريخ الطبرى ٦١٧ القسم الأول طبع ليدن .
(٤) الآثار الباقية ١٠٥ س ٢ طبع سخاو ١٨٧٨ .
(٥) ابن خلدون ٢ : ١٦١ س ٨ طبع بولاق .
(٦) ابن خلدون س ١٢ ، ١٤ ، ١٨ .
(٧) الآثار الباقية ١٠٥ س ٤ .
(٨) الطبرى ٤١٦ ، ٦٤٥ – ٦٤٩ ، ٦٧٥ – ٦٨٧ ومواضع أخر من القسم الأول .
(٩) الآثار الباقية ١٠٤ س ٢٣ .
(١٠) ابن خلدون ٢ : ١٦١ س ٦ .

أو (كيهراسف[١]) أو (كهراسف[٢]) أو (كى لهراسف[٣]) أو (لهراسف[٤]) فانظر كيف تعددت الصور والمسمى واحد !

ومما يحسن الإشارة إليه ، ويعرفه حضرة الأب الجليل جد المعرفة ، أن لفظ (كى) تصدَّر به أسماء كثيرٍ من ملوك الفرس . ومعناه (الملك الكبير) ، فهو ليس من صلب الاسم ، ولذا أهمله بعض المؤرخين . كما قد أهمل بعض المؤرخين إثبات يائه ، مكتفين بكسرة الكاف .

وأما حديثُك عن (تِنّين أنطاكية) وعن (الأصَلة) و (الدساس) وعن (الفرُانِق) ، وتذكيرُك إياى بما كتبتَ فى مجلة المشرق — فهو إشارة قيمة مفيدةُ حقًّا . وإنى لأتمنى كما يتمنَّى معى كلُّ معجب بتحقيق حضرة الأب ، وبأبحاثه التى لا يضارع فيها ولا يبارى — وإنا لنتمنّى أن نُلفِيَ هذه الأبحاثَ مجموعةً مجموعةً فى كتاب ؛ لتكون ذخيرة سهلة التناول ، عامة الفائدة ؛ فإنّ فى كل ما كتب حضرة الأب ما يعجز فطاحل العلماء المحققين . ولو أن الدهر كان قد تقدَّمَ به ، لكفانا مؤْنة هذا التضارب والتخالف فى تأصيل الكلم العربى . ورد الكلم الأجنبى منه إلى لغاته ، فهو به جدُّ عالم ، وجدّ خبير .

٨ — حسنات الكتاب

وجدتُك تخلع علىَّ حلّة من الثناء فضفاضة . وتعبِّر عن رضاك بما حققتُ من كتاب الحيوان ، وبما صارعت من تحريفاته وتصحيفاته ، تعبيراً خشيتُ أن أقوله غالياً ، كما خشيتُ أن يحملنى على الزَّهْو . ولست

---

(١) ابن خلدون ٢ : ١٦٢ س ٩ .
(٢) الطبرى ٦١٧ من القسم الأول .
(٣) الطبرى ٦١٨ ، ٦٧٩ من القسم الأول .
(٤) الآثار الباقية ١٠٥ س ٢ .

من الزهو والتخيُّل ، ولا هما منّي ! وإني لأعد ما قلتَ في هذا تشجيعاً كريماً ، وظناً حسناً . وليس يسعني إلا أن أشكرك أعظم الشكر على ما أفضتَ من برٍ طيّب ، وصنيعٍ بارع ، وما أشدت به وأعلنتَه ، وتهديتَ إليه ألطفَ التهدّي ، من مكنون جهدي المتواضع ، في هذه المهامهِ الفكريّة ، المترامية الأطراف ، الشائكة المناهج !

وإن كنتَ قد أعجبتَ بما رزقتُ من صبرٍ على تحقيق هذا الكتاب ، ومغالبة تصحيفاته وتحريفاته ، فإني أزجي إليك إعجابي وإعجاب أسرة العروبة جمعاء ، بما منحك الله من إنصافٍ بارع ، أدهش كلَّ من نظر في رسالتك التاريخية إليّ ، على صفحات (الثقافة)[1] .

سألتني عن الغرابة في جمع (خشف) بتثليث الخاء على (خِشفان) فأقول : إن الغرابة في عدم وروده في المعاجم ، فإن المعاجم المعروفة جمعته على (خشَفة) بكسر ففتح و (خشوف) كما نقلتم عن المصباح .

٩ ـ خاتمة الرسالة

لقد استرعى نظري في هذا الفصل قولك : « وعسى أن تراجعني فيما لا توافق عليه من تصحيحاتي لك » . فهذه هي الغاية التي يصل إليها تواضعُ العالِم القدير ! وإني ما نهضت بكتابة هذا الجواب إلا طوعاً لكريم طلبك ، وتلبية لنبيل رغبتك .

وقد أتحتَ للعالم العربيّ فرصةً في أن يشهد محاورة طيّبة بين أستاذ وتلميذه . وإنا لنرجو أن نعيد أمثالها فيما نستقبل من أجزاء الكتاب .

وقلت : إنك « قد أنفذت إليّ بملاحظاتٍ شتّى على الجزء الثالث من

(١) الأعداد ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ .
وحواشي على رسالة حضرة الأب في الأعداد ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٦ ، وهذا العدد .

كتاب الحيوان » . فلو أنها وقعتْ إلىّ لاحتفظت بها احتفاظ الشحيح ، ولحرصت عليها أشدّ الحرص ، ولأخبرتك بوصولها فى حينه شاكراً . وإنه ليؤسفنى أن أحرمَ من وصول هذه الملاحظات إلىّ ، بما صنع البريد ، فيما أرى .

ومهما يكن فإن موضع نشر الملاحظات التى تتعلّق بما تمّ نشرهُ من أجزاء الكتاب ، إنما هو نهاية الجزء السابع ، كما أشرت إلى ذلك فى تذييل الحيوان(١) .

وإنى لأرحب ترحيباً صادقاً بملاحظاتك ، وبما يرسل إلىّ كرامُ الأدباء وكبارهم ، أو يحتفظون به إلى ذلك الحين . وآخر رسالة وصلت إلىّ هى رسالة الأخ الجليل الأستاذ عبد الرزاق الحصان ، من كرام أدباء بغداد ، الذى أعلن له إعجابى بملاحظته الدقيقة .

وأما بعد فإنى أتقدم بجزيل شكرى إلى حضرة الأب المحترم ، ثم أثنى له الشكر ، راجياً أن يتقبّل من تلميذه المعجب بفضله وعلمه أصدق آيات الإجلال والاحترام .

عبد السلام محمد هارون

---

(١) الحيوان (٢ : ٤٠٣) .

كتاب الحيوان للجاحظ(*)

الجزء الخامس

بتحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون

بقلم الأب أنستاس ماري الكرملي

— ١ —

١ — **تمهيد** : أبو عثمان عمرو بن بحر المشهور بالجاحظ ، هو أكتب كتّاب العرب على الإطلاق ، منذ أن وجدوا على الأرض إلى عهدنا هذا . ولعلّ القارئ يعجب من هذا الكلام ، ويعزوه إلى جهلنا لتاريخ الآداب العربية ، أو لا أقلّ من أن ينسبنا إلى الغلوّ الفاحش . لكن الحقيقة أننا لا ننطق عن غرض . ولا عن هوى . إنما ننطق بالحقيقة مجردة عن كل غاية ، أو فكرة ملتوية .

نعم ، لقد قام فى بنى مُضر كتّاب نوابغ بلغاء فصحاء أبدعوا فى ما نمقوا ووشّوا من رفيع القول ، ومسجّعه ، ومن مختار الألفاظ وأدقها تعبيراً عن المراد ، ومنهم من أغربوا فيها إغراباً فاقوا من تقدمهم فى النطق ، واتخذوا من الكلم أعوصها وأغمضها . لكن ذلك كلهُ ليس بشىء يذكر بجانب ما أبدعهُ الجاحظ وصنفهُ ووصفهُ من متقن العبارة ومحكمها ، فإنهُ

(*) نشرت هذه البحوث بمجلة المقتطف فى الأعداد (مايو) و (يونيو) و (يوليو) من سنة ١٩٤٤ م .

يستحق وحده أن ينعت بـ « وصّاف الدقائق[١] » من بين كل من قبض على البراعة العربية .

٢ — نظرة عامة فى تصانيف الجاحظ : للجاحظ تصانيف ورسائل عدة مختلفة المواضيع ، بلغت ١٢٥ على قول ياقوت الحمويّ ، فى معجمه المعروف بمعجم الأدباء ، لكن لم ينشر منها إلى الآن — على ما نعهد — إلا ٢١ ، بينها كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان . وأحسن مؤلفاته : البيان والتبيين ، وأثمن منهُ وأبدع كتاب : الحيوان . إلاّ أن إخراج هذه الدرة من مغاصها بسبع لآلئَ (سبع مجلدات) على نفقة الحاج محمد السّاسى ، حط من ثمنها ومن شرف ثِينها[٢] ، إذ أزال كثيراً من محسنات الكتاب ، وروائعهِ ، ومبتكرات أقواله ، فيعثر القارئ فى كل صفحة من صفحاتهِ على أوهام ، وتصحيفات ، وتحريفات ، ونواقص ، ومحذوفاتٍ ، تخلّ بسياق المعنى ، كما أن ثمّ دواخل ومفأماتٍ[٣] مما يشجى ويبكى وينكى ، ويحول دون القارئ من المضى فى وجههِ قدماً .

٣ — إعادة طبع كتاب الحيوان : فلما رأى أولاد مصطفى البابى الحلبى الدركة التى انحط إليها هذا الأثر النفيس الذى يعدّ من أفخر مفاخر الناطقين بالضاد ، انتدبوا لإبرازه إلى عالم البعث والنشور والخلود ، شابّاً مصريّاً جمع

---

(١) المراد بوصاف الدقائق من يكتب على الأشياء ويصورها تصويراً دقيقاً يمثلها بين يديك تمثيلا كأنك تراها رأى العين ، وتلمسها لمس اليد ، حتى كأنه ينطقها نطقاً حياً ، تغنيك عن مقابلتها ومشاهدتها بوسيلة أخرى ، لأنك ترى محاسنها ومعايبها جميعاً على حد سواء .
ويسمى الأفرنج « وصاف الدقائق » : **Rêliste** وقد حاول بعضهم نقلها إلى لساننا بقولهم « كاتباً واقعياً » وآخرون بقولهم : « مصور الأشخاص والأشياء كما هى ، بدون تجميلها » . وبعضهم قالوا : هو « الكاتب الواقعى » . وفريق « القائل بحقيقة الأشياء » وجماعة : « القائل بالمذهب الحسى والواقعى » . وآخرون غير ما مر بك من الألفاظ والتعابير ، وكلها لا تفى بالمطلوب من الحرف الأفرنجى . هذا ويقابلها عندنا : « وصاف الخياليات » وعندهم : **Idêaliste**

(٢) الثين بكسر الثاء المثلثة : مستخرج الدرة من البحر .

(٣) مفأمات : جمع مفأم ، اسم مفعول من أفأمه ، أى وسعه وزاد فيه .

إلى توغله في الآداب والعلوم العربية وقوفه أحسن وقوف على تصانيف الجاحظ ، وآرائه وأفكاره ، ومعارفه ، فأبرز إلى نور النشور أربع مجلدات منه . وبين يدينا الجزء الخامس الذى يعدّ أوسع المجلدات ، وأصعبها فهماً لما حوى صدره من الآراء الفلسفية الغامضة ، وما وقع فيه من التصحيف والتحريف .

وفى هذا المجلد يبحث الجاحظ عن الطير التى تألف الدور ، وعن الفئران والجرذان ، والسنانير ، والعقارب ، وعن بعض الهوام كالبراغيث ، والقمل والصئبانى ، والبق ، والجرجس والشرّان ، والفراش ، والأذى ، والعناكب ، والنحل ، والقراد ، ثم تبدو له بادرة فجأة ، كأنه فاته شيء ، فيرجع القهقرى ويتكلم على الحبارى من الطير ، وعلى الضأن والمعز من الحيوان ، وعلى الضفادع من دويبّات الماء ، ثم يعود ثانية فيكلمنا على الفرق بين الإنسان والبهيمة ، وعلى الإنسان والسبع ، ثم يؤوب أوبة ثالثة كأنه يصحو من غيبة أو ذهول ، فيعقد فصلاً فى القطا ، ويختم هذا الجزء بنوادر وأشعار وأحاديث .

٤ — محتويات كتاب الحيوان : وقد وسم المؤلف كتابه بالحيوان. أما الحقيقة فهى أنه معلمة ، « قائمة برأسها » ومشتملة على جميع العلوم والفنون المعروفة عهدئذ . فإذا القارئ يصيب فيها أنواع المباحث والموضوعات ، كالتفسير والحديث ، وعلم الكلام ، والفلسفة ، والمنطق ، وأنواع المذاهب ، والأديان ، واللغة ، والأدب ، والتاريخ ، والبلدان ، والتراجم ، والشعر ، والحكم ، والأشعار ، والأمثال ، وعلم الحيوان ، والنبات ، والمعادن ، وكل ما وصل إليه العرب من علم الفلك والظواهر الجوية ، والقصص والروايات ، والأخلاق ، فضلاً عما وضعه هو من من نفسه من الأقوال ومن فكره الخاص به من الآراء . وهذا ليس بقليل .

فالمطالع يرى عظم نفع هذا التصنيف ، فهو يغنى عن خزانة كتب

مختلفة المباحث والمواضيع . ووجوب تسليمه إلى أديب يتمكن من إخراجه بجميع ألوانه المتموجة المتألقة ، وإلباسه أثمن حلة وأبدع وشى . وهذا ما فعله الأستاذ عبد السلام محمد هارون .

٥ – حسنات هذه الطبعة : أن المعتنىَ بطبعه لم يضنّ بالحواشى على اختلاف أبوابها ومعانيها، ومواضيعها . وقد وجّه الأنظار مراراً لا تحصى إلى الأصول التى ورد مناهلها ليعيد صحة الرواية إلى نصابها الذى كانت وضعت فيه فى بادئ الأمر ، من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، وأخبار تاريخية ، وتصحيحات علمية . وخرافات دخيلة ، وموضوعة ، ومأثورة عن السلف . ففاز المحرّر بالسهم الأوفى وبالنصيب الأعلى مما توخى .

فلقد رأيناه صحح آيات قرآنية لم يوردها المؤلف على وجهها ، كما هى فى السور ، وهذا عجيب من مسلم علامة مثل الجاحظ صاحب الفرقة الجاحظية[1] . فلقد صحح عبد السلام ما ورد منها فى هذا الجزء فى الصفحات ٣٢ و ٩٣ و ١٣٧ و ٥٤٤ و ٥٤٧ .

ومن مزايا هذه النسخة أن المحرر ضبط جميع الحروف التى تحتاج إلى تشكيل وتدوين وضبط ، وربما زاد على الضبط بالعلامات ، الضبط بالكلام ، كلّ مرة مست الحاجة إلى هذا الأمر .

ومن مزاياها أنهُ طبع الحواشى متميزة عن النص بحرف دقيق بديع الرسم . وعرّض تلك الحواشى . حتى شغلت موطناً غير يسير من الكتاب ،

(١) قال فى شرح المواقف : الجاحظية : فرقة من المعتزلة ، وهم أصحاب الجاحظ ، قالوا : المعارف كلها ضرورية ، ولا إرادة فى الشاهد ، أى فى الواحد منا ، إنما هى إرادته لفعله : عدم السهو ، أى كونه عالماً به ، غير ساه عنه . وإرادته لفعل الغير ، هى : ميل النفس إليه . وقالوا : إن للأجسام طبائع مختلفة لها آثار مخصوصة ، ويمتنع انعدام الجواهر ، وإنما تتبدل الأعراض ، والجواهر باقية على حالها . كما قيل فى الهيولى ، والنار تجذب إلى نفسها أهلها ، لا أن الله يدخلهم فيها . والخير والشر من فعل العبد . والقرآن جسد ينقلب تارة رجلا ، وتارة امرأة » . اهـ .

ثم أخرج كل رقم من أرقام ترتيبها بحيث تبدو للناظر من غير أن يبحث عن مرطنها وموقعها من الصفحة .

ومن خصائصها أن المحقق استعمل التنقيط فى جميع الأوجه ، من أنف الديوان إلى أخمصه : ولم يخالف قواعده فى عبارة واحدة ، حتى فى الحواشى ، وحتى فى أمر زهيد . ذلك ما لم نره فى أى تأليف طبع فى الغرب ، فضلاً عن الشرق فى لغة الضاد .

وأعاد طائفة من الكلم إلى مواطنها ، تلك الحروف التى يخل حذفها بالمعنى إخلالاً لا يخلو من معرة وسوء عقبى ، وقد أسقطها النساخ ، والورّاقون ، وسيئو النيات ، وأرباب الغايات والأهواء . فبذل كل ما فى وفاضه من السهام ، لكى يصمى صيده ، ولا يخفق ، فكان ما أراد .

وبذل كل ما فى كنانته فى تقطيع الموضوعات ، وإقامة الدبار[1] ، ليريح القارئ من تسلسل السطور وتتابع الكلم ، حتى يبقى المطالع مستريح البصر ، ومستجم القوى الفكرية ، بأن جعل لتلك الدبار عناوين مختلفة من وضعه ، عدا ما كان وضعه المؤلف من نفسه ؛ لوجوب هذا الأمر لمن يريد أن يجعل كتابه غذاء للفكر ، وراحة للبصر .

وكان بعض كتبة العصر يحذفون من عبارات الجاحظ كلمة « أيضاً »[2] ،

---

(١) الدبار بالكسر : جمع دبرة ، بفتح الدال المهملة ، وسكون الباء الموحدة التحتية ، يليها راء فهاء فى الآخر ، وهى البقعة تزرع كالمشارة ، ويريد بهما الكتاب وأرباب المطابع : جملة من الكلام تبتدئ برأس سطر بارز عن سائر السطور ، وتنتهى بعد طائفة من السطور ، إراحة للبصر وهى التى يسميها الفرنسيون : **Alinea** والإنكليز : **Break** وتجمع المشارة على مشاور ومشائر كمنارة ومناور ومنائر .

(٢) فقد قال الجاحظ مثلا فى ص ٢٣ : « وقد يقولون ذلك أيضاً على المثل » — وفى ص ٢٣ : « وهذه أيضاً فضيلة أخرى » — وفى تلك الصفحة نفسها : « جوزوا أيضاً أن يقولوا » — وفى ص ٤٥ : « ولو كان أيضاً التهافت . . . » وفى ص ٤٨ : « وقد غلط أيضاً كثير منهم » — وفى ص ٦٥ : « ويدل أيضاً على ما قلنا » إلى صفحات لا تحصى .

وقد جرى المحرر — وهو تلميذ الجاحظ النبيه — جرى أستاذه ، فلم يعمل بما قاله بعضهم فى هذا الصدد ، بل تأثر معلمه عن كثب .

زاعمين أنه لم يستعملها . أما الأستاذ هارون ، فإنهُ أبقاها في موطنها كل مرة وردت ، ولم يحفل باعتراضات المعترضين ، لأنها من أفصح الكلام وأقومه وأقدمه . لورودها في جميع النسخ التي اعتمدها . على اختلاف ناسخيها ووراقيها . وقد عددت منها ثلاثين مرة ثم وقفت .

هذا بعض ما أردنا أن نشير إليه من باب السرعة ضناً بوقت القارئ وطلباً للإيجاز .

٦ — ما كنا نتمنى أن يكون في هذا الكتاب : كنا نتمنى ما يأتي :

— أن ترقم كل خمسة أسطر برقم ، حتى يسهل على القارئ الرجوع إلى عددها من غير أن يعدها كل مرة وفي كل صفحة على حد ما يفعل اليوم جميع من يتولى نشر الكتب العلمية ولا سيما القديمة منها . حين يضطر القارئ إلى مراجعة بعض الألفاظ . فلا يزحم نفسه لعدّ السطور لوجودها .

— نقل المحرر بعض عبارات إفرنجية تفسيراً لبعض الكلم العربية ، نقلاً عن الأجانب . وكان يحسن به أن يترجمها إلى العربية . ليستفيد منها من لا يفهم الإفرنجية كما جاء في الحاشية « ١ » من ص ٣٥١ و ح ٧ ص ٤٦٨ .

— كان يحسن به أن يضع بجانب كل حرف يدل على حيوان أو نبات أو معدن ما يقابله عند الإفرنج . ليسهل على الباحث إتمام البحث عنه بحثاً علمياً عند أولئك الأعاجم . لأنهم قتلوا تلك المواد خُبراً . فنحن نحتاج إلى عرفانهم لأننا عالةٌ عليهم .

— كثيراً ما استعمل المحرر ألفاظاً كنا نتمنى أن يعدل عنها إلى ما اشتهر اتخاذُها عند الأدباء . فإنهُ استعمل (التنبيه) في مكان (الحاشية) . كما في ص ٦ ح ٤ . و ٥٤٦ ح ١ و ٥٥٢ ح ٣ — وهي أكثر من أن تحصى . وقد اجتزأنا بهذه الإشارة الطفيفة .

— ورد في ص ٦٨ س ١٢ : « والثلج قد يداوى به بعض المرضى ،

ويتولد فيهِ الدود . . . » — قال المحرر فى الحاشية « سبقت إشارة الجاحظ إلى ديدان الثلج فى (٣ : ٣٩٦ س ٦) . — ولم يذكر المؤلف اسمهُ عند العرب ، ولا المحرر فى موطن من مواطن الديوان . والذى نعلمهُ (الزُّلال) وزان غراب . راجع تاج العروس فى مستدرك (ز ل ل) .

— ذكر المحرر فى ٤٧ ح ٦ : « العفص ، بفتح العين بعدها فاء ساكنة : ثمر شجر جبلى يقارب البلّوط » — والذى نعرفهُ أن العفص زيادة مرضية تجيء على بعض الأنبتة هى نتيجة وخز تخزه حشرة أو هامة ، وتضع فى الوخز بيضها ، فينتج من هذا العمل ، ضرب من العقد أو الغدد هو هذا العفص ، فهو ليس بثمر كما يظن . أو كما يتصوره الأقدمون واسمهُ العلمى المشهور : Quercus Lusitanica ودونهُ : Quercus Infectoria وبالفرنسية : Chene a galles أو Ch. des Teinturiers وبالإنكليزية الشائعة : Dyer's oak ودونها Gall Oak أو Nut Gall Oak ويُنقل مقادير لا تحصى من عفص العراق إلى ديار الغرب لدخوله فى الأصباغ وبعض الأدوية وفى عمل الحبر الأسود الذى لا يمحى والشديد السواد .

— نقل المحرّر إلى الحرف اليونانى بعض الكلم العربية الهلنية الأصل فجاءت مخطوءا فيها ، كما فى أصل الهيولى فى ص ٥٠ ح ٤ و ص ٢٣٧ ح ١ إلى غيرها . وهى ليست بكثيرة .

— جاءَ فى ح ٤ ص ٥٢ « الأرز بالفتح وبضم : شجر الصنوبر » — والمحققون يقولون : إن الأرز بفتح الهمزة وإنهُ ليس بالعرعر ولا بالصنوبر ، بل إنهُ شجر قائم بنفسه اسمهُ العلمى : Cedrus Libani وبالإنكليزية : Cedar of Lebanon وبالفرنسية : Cedre, Cedre du Liban, Pin dn Liban.

— وفى نص ص ٦١ : « وضروب الضَّباب والأنداء ، فتراها إما صفراء

وإما حمراء » . والصواب إما صفراً وإما حمراً : أى إن كلاً من صفراً وحمراً بالجمع المنصوب غير الممدود . والمدّ من جهل النساخ .

— ورد فى ح ص ٨٤ : (الطلق) « بالأوربية العلمية » : Talc أو Talcum متعادل مركب من (سليكات المغنيسيوم) اه . ولو قال المحشى : وبالأوربية : Talc أو Talcus لكان أضمن للصحة . ويحسن أن تكتب سليكاة ، بالهاء لا بالتاء ، المغنيسيا . راجع المقتطف ١٠٤ : ١٩٩ .

— وفى ح ٩ ، ص ٨٤ « والبركان عامية مأخوذة من : Volcano » . والذى عندنا أنها معربة ، وقد وردت فى شعر ابن حمديس .

— وفى ح ٥ ص ٨٨ : « والعقيق هنا : البرق ، ولم تذكر المعاجم فى هذه المادة بهذا المعنى إلاّ العقيقة والعقق بضم ففتح » — قلنا : لم تذكر المعاجم العقيق لأنها جمع قياسى لعقيقة ، كما قالوا سحاب وسحابةُ وأرز وأرزة وبقر وبقرة ، فهى قياسية . وقد نبه أرباب المعاجم أنهم غير مقيدين بذكر المقيسات من الحروف .

— وفى ح ٢ من ص ٩٥ : « فقذا توفى حوالى سنة ٣٣٧ » . وقد استعمل المحرّر « حوالى » بمعنى نحو . وقد أكثر أرباب الصحف فى هذا العهد من استعمال هذا اللفظ بهذا المعنى . وقد قلنا مراراً : إنّ الفصحاء من الكتبة لم يعرفوها . وربما قالوا فى مكانها : فى حدود سنة كذا .

— فى ح ٢ من ص ١٤٥ : « والبشام : نبت طيب الريح والطعم » . فهذا تعريف عام لا يفيد فائدة علمية واضحة . ولو نقل عبارة لسان العرب لكان أجلى ، فقد قال بعد أن ذكر هذه العبارة : « شجر طيب الريح والطعم يستاك بهِ . قال أبو حنيفة : البشام ، يدَقّ ورقهُ ويخلط بالحناء للتسويد . . . والبشام : شجر ذو ساق وأفنان وورق صغار أكبر من ورق الصعتر ، ولا ثمر لهُ ، وإذا قطعت ورقتهُ أو قصف غصنهُ هُريق لبناً أبيض ، واحدهُ بشامة » .

– وفى ح ٩ من ص ١٥٢ تصحيح لما ورد فى النص : « إذْ مرّ العقعق والسخاب فى منقاره »« فيما عدا (ل) : فى فمه . وأنَّى يكون لهُ فم؟! » قلنا : ورواية الفم أصح من رواية المنقار ، فقد ذكر اللغويون : فم السمكة . وفم الطريق ، وفم الوادى ،وفم النهر من باب المجاز والتوسع . فلماذا لا يقال : فم الطائر ، وقد قالوا : فم الحيوان (المصباح) ولماذا لا يدخل الطائر فى جماعة الحيوان ؟ وقد كرر المحرر هذا الإنكار فى ح ١ ص ٣٣٨ .

– وفى ح ٥ ص ١٥٨ تعليقهُ على هذا البيت :

معى كلُّ فضفاض القميص كأنهُ

ط فقط : فضفاض الثياب ، ولم أجدها فى مرجع . قلنا : وهذه النسخة نفسها كافية لأن تكون مرجعاً يعتمد عليه ، إذا اتفق المعنى والمبنى معاً(١) .

– ذكر المحرر فى ح ٥ من ص ٢٠٩ التدرج والدُرَّاج ، فالتدرج على الأصح هو : Pheasant بالإنكليزية وبالفرنسية Faisan وأما الدُرَّاج وزان رمان فهو : Francolin بالفرنسية والإنكليزية معاً . وأما ذكر الدُرَّاج فهو الحيقُطان بالعربية و : A cock pheasan بالإنكليزية و : Le male du francolin بالفرنسية ، وقد أخطأ استينكاس بتسميته بالإنكليزية : Black partridge .

---

(١) على أن الفضفاض وردت فى جميع المعاجم . قال فى اللسان : « وقيص فضفاض : واسع . وفى حديث سطيح : أبيض فضفاض الرداء والبدن . أراد واسع الصدر والذراع . فكنى عنه بالرداء والبدن . وقيل : أراد كثرة العطاء ، ومنه حديث ابن سيرين . قال : كنت مع أنس فى يوم مطر والأرض فضفاض ، أى قد علاها الماء من كثرة المطر . وقد فضفض الثوب والدرع : وسعهما . قال كثير :

فنبذتُ ثم تحيــــة فأعادها غمرو الرداء مفضفَضُ السرِّبالِ

والفضفاض : الكثير الواسع ... إلى آخر ما جاء هناك . وراجع أساس البلاغة ، فقد جاء فيه : « درع فضفاضة : واسعة . وبطن فضفاض ... وعيش فضفاض : واسع » .

ـ ٢ ـ (*)

ـ ذكر الجاحظ فى ص ٢٥٣ أن : « قد كان ناس من أهل سيف البحر من شق فارس يأكلون الفأر والضفادع » . قلت : وقد مررت فى سنة ١٨٩٤ أى قبل خمسين سنة بالضبط بسيف خليج فارس أو بحر فارس ، ورأيت عرَباً يأكلون ضفادع ، فكانوا يقطعون أفخاذها ويشوونها شيًّا على النار ويستطيبونها ، ودعونى إلى أكلها فاستقذرتها ، ثم ألحوا علىّ إلحاحاً شديداً ، فأكلتها تطييباً لخاطرهم ، فاستطبتها ، فاشتريت منها كمية منهم ، وشكرتهم على هذه الدعوة ، فكانت أفخاذ الضفادع أطيب من لحم الدجاج ، فليجرب من يشك فى قولى . وأعاد الجاحظ مثل هذا الكلام فى ص ٥٣٠

ـ قال المحرر فى ح ٢ من ص ٢٧٧ : « والتؤام : المزدوجات ، جمع توأم ، وهو من الجمع العزيز » ـ قلنا : وهذا كلام كثير من النحاة واللغويين ، وقد جمعنا نحن أكثر من ٣٥ لفظاً على فعال بضم الأول . فكيف يكون عزيزاً ؟

ـ وفى ح ٢ من ص ٢٧٨ كلام على الزبَّاء ، وأحسن مقالٍ ورد فى هذا البحث ، ما جاء فى مجلة المشرق ، فى إحدى سنواتها الأول . ولستُ بين يدى خزانتى لأذكر السنة والصفحة ، لكنى واثق مما أقول فليراجع .

ـ فى ح ٤ من ص ٢٧٩ : « تبت بلاد بالصين » والصواب أنها بلاد واقعة فى شرقيّها وليست منها .

ـ وجاء فى أنف ص ٢٩٩ هذا البيت :

* وإذا فى الغباء سم بُرَيْص *

(*) راجع الفصل الأول من هذا الاستدراك فى العدد الماضى .

فقال المحشّي : أراد به سامّ أبرص وهو الوزغة . وهذا اللفظ لم يرد فى المعاجم . ولا أحسبه إلاّ لغة عامية » — قلنا : هذا اللفظ قصر « سامّ أبرص » . وقد تصرف فيه تصرف الشعراء فى الكلم من قصر وزيادة وتغيير ، وليس من كلام العوام .

— فى ح ٦ من ص ٣٠٤ شرح الناشر الزباد فقال : « كسحاب : ضرب من الطيب ، وهو عَرَق حيوان يشبه السنور » — قلنا : الزباد حيوان كالسنور له عند مخرجه جراب صغير فيه مادة دهنية ذكية الرائحة اسمها اسم الحيوان نفسه .

وقال فى آخر هذا البحث : « قال صاحب القاموس : وغلط الفقهاء واللغويون فى قولهم : الزباد دابة يحلب منها الطيب . وإنما الدابة السنور ، والزباد الطيب » — قلنا : الذى قاله الفقهاء واللغويون هو : الزباد دابة يحلب منها (بالحاء المهملة لا بالجيم) الطيب . فحينئذ لا غلط ولا وهم ، وإنما سميت المادة الدهنية زباداً تسمية صحيحة . وسميت الدابة زباداً أيضاً من باب حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه . فكأنهم قالوا للدابة : سنور الزباد ، أو دابة الزباد . ومعنى يحلب منها الطيب : يعصر منها الطيب . وهى تربى فى بيوت الأهالى فى تلك الربوع . وكلما احتاجوا إلى الطيب ، عصروا ذلك الجريّب واتخذوا الطيب لأنفسهم أو لغيرهم .

— وفى ح ٦ من ص ٣٣٥ : « وبيشة (فى قولهم آساد بيشة) موضع تنسب إليه الآساد » — قلنا : والذى فى حفظنا أنه من مواضع العراق . وليس الآن بيدى معجم البلدان لياقوت لأتثبت من الأمر .

— وقال الجاحظ فى ص ٣٣٦ : « وليس للكلب اسم سوى الكلب ، ولا للديك اسم إلاّ الديك » .

قلنا : ونحن نحفظ من أسماء الديك : العُتْرُسان والعُتْرُفان » فكيفْ فاتا أستاذنا الجاحظ هذا اللغوى الجليل ؟

وقال الشارح فى ح ٥ ص ٣٣٩ : « الفواخت : جمع فاختة ، وهى ضرب من الحمام المطوّق » . قلنا : إن الفاختة حمامة مطوقة خاصة بالعراق ومعروفة فيه إلى هذا العهد بهذا الاسم واسمها : Turtur Mesopotamenus بلسان العلم ولها تغريد خاص بها كأنها تقول : كُوكُووَوْوَوْكو !

وفى العراق ضروب من الحمام كالشِّفنين والطُّورانى (ويسمونه الطَّرّآنى والطُّوارْنِيّ ، بطاء مضمومة وواو مفتوحة وألف وراء ساكنة يليها نون مكسورة فياء مشددة) والشِّيِرّ والطُّرْغُلّ إلى غيرها وهى كثيرة ، ولها أسماء عديدة ولا تحضرنى الآن .

وأما الفاختة فيسميها اليوم عوام العراق غير فصحائهم فُخْتيَّة (زنة كردية وتركية) ويجمعونها على فخاتى ككراسىّ .

— وذكر الجاحظ فى ص ٣٤٩ النُّشَادر أو النشاذِر بصورة نوشاذُر ، بضم الذال المعجمة ، ونحن لم نَرَ هذا التقييد فى كتاب يعتمد عليه ، ونظن أن هذا الضبط من عمل الوراقين لا منهُ .

وقد قال المحرّر فى ح ٦ : « وبلغة العلماء الأوربيين : Sal-Ammoniac ولو قال : وبلغة الإنكليز ، لكان فى منجاة عن كل اعتراض ؛ لأن الاسم العلمى هو : Ammoniacus Sal .

— ضبط المحرر فى ص ٣٥٦ « بختيشوع » ضبط قلم هكذا « بُخْتيشَوْع » والصواب هو بفتح الباء الموحدة التحتية ، وإسكان الخاء المعجمة ، وكسر التاء المثناة الفوقية ، وإسكان الياء المثناة التحتية ، وضم الشين المعجمة ، يليها واو ساكنة ،وفى الآخر عين مهملة . وهو اسم شائع عند نصارى العراقيين إلى عهدنا هذا . نعم ، إن بعضهم ضبطره كما فعل الأستاذ عبد السلام ، لكنهم أخطأوا ، فليس الذنب ذنبه ، بل ذنب من اتخذ هذا الضبط بدون سند .

— وذكر المحرّر فى ح ٨ من ص ٣٦٠ هذه العبارة : « الأنابير جمع

أنبار ، والأنبار : جمع نبر بالفتح . والأنبار : أهراء الطعام . والهرى بالضم : بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان » اه .

قلنا : الأنبار تعريب اليونانية : أنباريون . فلما عربوها ، ظنوا أنّ (أنبار) المحذوف منها أداة الإعراب اليونانية لفظ جمع عربى وأن مفردها (نبر) ، وقد فعلوا مثل هذا الفعل فى عشرات من الكلم الدخيلة (كقرن) المدة من الزمن ، والجيل من الناس ، و (القرميد) ، و (الفردوس) ، (والغرش) وكذلك (الهرى) بمعنى الأنبار فإنهُ من الرومية Horreum مبنى ومعنى .

– وذكر المحرر فى ح ٥ ص ٣٦٢ أن البال من الفارسية . والذى أثبتناه فى كتابنا « أغلاط اللغويين الأقدمين » أن الكلمة يونانية . وذلك فى مقال طويل . وليس الآن تأليفنا بين يدينا ، لنحيل عليه النظر . إلاّ أننا نتذكر أننا قلنا : إن البال والفال من اليونانية : Phalaina وليس Phlaina كما ذكرها المحشى ح ٥ ص ٣٦٨

– وذكر المحرر القُمَّل زنة زُمَّج ح ٥ ص٣٦٨ الوارد فى القرآن بأنهُ الصغار من الجراد . أو صغار الذر . وقيل : « دوابّ صغار من جنس القراد . » وقد بيّنّا فى مقال طويل أدرج (فى مجلة غرفة تجارة بغداد) أن القمّل ضرب منَ الدويْبات تقع فى بعض السنين على سنابل الطعام فتمتص ما فيها من الماء وتدعها فارغة من كل مادة . ولا نتذكر الآن سنة المجلة ولا اسم تلك الدويبة العلمى .

– وذكر الجاحظ السمك الضخم الذى يكون فى الفُراتين وسماه الزّجر ص ٣٦٩ قلنا : وقد مات هذا اللفظ الأرامىّ من لغة العراقيين لأنهم يسمونهُ اليوم « البزّ » بكسر الباء الموحدة وشدّ الزاى . وأظن أنها من اللاتينية Piscis ومعناها السمكة من باب التغليب .

— شرح الأستاذ المحوّر البق بقوله فى ح ٣ من ص ٣٧٣ :

« البق البعوض . وقيل : هى دويبة مثل القملة (كذا) حمراء منتنة الريح تكون فى السرُر والجدُر . وبهذا المعنى الأخير تعرف فى مصر » اﻫ . — قلنا : إنّ الجاحظ كان بصرى المولد بغدادى النشأة . والعراقيون يسمون البعوض بقّا ولا يعرفون للضمج وهو المسمى بالبق فى مصر اسماً فى هذا العهد ، لأن الضمج لا يعيش فى العراق ، وإذا جئ به بطريقة من الطرائق إلى بلادنا ، فإنهُ يعيش فى الشتاء والربيع ، ولكن إذا جاء الصيف يموت حتماً لشدة الحرّ فى ديارنا . وقد سمعت — وأنا صغير من أبناء بغداد — أن مدحت باشا والى بغداد ، جلب من استانبول علباً كثيرة مملوءة ضمجاً ، فعاش ما كان فيها ، إذ ألقى تلك الدويبات فى السجون ليعذب بها المسجونين ، ولما جاء الصيف يبست وماتت ولم يحي منها واحدة . وقد أعاد الجلب أربع سنوات متوالية ، فلم ينجح ، ولهذا لا يرى أثر للضمج فى بغداد .

زد على ذلك أن « العرب الأقدمين » لم يريدوا بالبق إلاّ البعوض الضخم ولم يستعملوها البتة بمعنى الضمج ، أما البق فيمانىٌّ الأصل ومن اليمن نقل الاسم إلى الإنكليزية وغيرها من اللّغى ، وذلك فى العصور الوسطى عند إنشاء السفن فى بحر العرب وأرجائه .

وأما قول الكتاب إن البق بمعنى الضمج والكُتَّان يكون فى السرر والجُدُر ، فصواب العبارة : فى السرُر والحُصُر جمع حصير ، فإنه يعيش فيها بمئاتٍ وألوف ، ولهذا تعرف بأم الحصر ، ومن أسمائها أيضاً : الفسفس والفسفاس .

وجاء فى تلك الصفحة فى ح ٧ تفسيراً لقول الجاحظ : « إلاّ أن يقتلها بالعرك والقتل » فصواب العبارة بالعرك والفتل ، بفاء يليها تاء مثناة ، كما وردت فى حاشية ص ٣٨٠ ودونك نص الشارح : « وفى ل : « قتلها » ووجههُ بالفاء كما أثبت » .

زد على ذلك أن المفسرين الأقدمين لم يفهموا بالبق إلاَّ البعوض ، ومنهُ قولهم إن البقة التي دخلت أنف نمرود اسمها السُّكَيْنة بزنة التصغير .

— ذكر الجاحظ في ص ٣٨٢ : « تخت النرد قطعة نرد » فعلق عليها الأستاذ النابه ما هذا نقلهُ : « التخت في المعاجم العربية : وعاء تصان فيه الثياب . فارسي معرب . لم يذكروا غير ذلك . وبعيد أن يكون الجاحظ قصد هذا المعنى . وإنما أراد بالتخت اللوح الذي يوضع فوقه النرد . . . وأراد أنهم جعلوا قطعة اللبد بدلاً من اللوح » .

قلنا : إن التخت في لغة العراقيين جاء بمعان شتى منها : السرير يُقْعد عليه ، والمتكأ ، والتختة ، بهاء في الآخر : اللوح من الخشب يتخذ لمرافق شتى . فما في كلام الجاحظ هو من هذا الاستعمال .

— ذكر الجاحظ في بيت شعر (ص ٣٨٦) :

* من كرخ بغداد ذي الرمان والتوث *

فالكرخ هنا موضع واقع على الجانب الأيمن من دجلة ، وكان كثير البساتين — وأما التوث مختومة بثاء مثلثة فمن العراقيين من يلفظها إلى اليوم بثاء مثلثة في الآخر ، ومنهم من ينطق بها بتاء مثناة ، وكلاهما فصيح ، وإن أنكره بعضهم .

— وجاء ذكر الهوْر في ص ٣٩٩ فقال المحرّر : « الهور بالفتح : من قولهم جُرف هور أي واسع بعيد . وقولهم خرق هور أي واسع . » اه . — قلنا : الهور من مصطلح العراقيين إلى عهدنا هذا ، ويراد به في لغتهم : المستنقع أو البطيحة تفيض بها مياه غياض وآجام فتتسع » وهذا هو المعنىُ هنا ؟

— وقال الجاحظ في ص ٤٠٢ : « إلاَّ أني متى بيَّتّ معى في القبَّة ما صار

إليها » — ولم يشرح المحشّى معنى القبة . فالقبة فى لغة الجاحظ وجميع العراقيين : الغرفة والعلية .

— جاء فى ص ٤٢٢ : « أقبل رجلان ومعهما كلب أزب ضخم (دَوْسر) » فقال المحرّر : دوسر ضخم خديد — قلنا : والذى عندنا أن الدوْسر كلمة فارسية معناها : ذو رأسين . وذلك أن الكلب إذا كان ضخم الرأس يتبين كأن لهُ رأسين فسمى بدوْسر .

وكان للنعمان بن المنذر ملك العراق ، كتيبة اسمها دوسر وهى أشد كتائبه بطشاً حتى ضرب بها المثل . يقال : هو أبطش من دوْسر . كانت مجتمعة من جميع قبائل العرب وأكثرها من قبيلتين ، ولذلك سميت بهذا الاسم .

— ورسم المحرّر شمؤون الطبيب هكذا : شمئون . ويقال فيه شمعون أيضاً بعين فى مكان الهمزة وهو من أطباء النبط ، لجيل من الأرميين ، وكانوا يجعلون العين همزة حيثما وقعت . ومثل ذلك يفعل اليوم صابئة البطائح المعروفون عندنا فى هذا العهد بالصُّبَّة ، بالصاد المضمومة والباء الموحدة التحتية المشددة المفتوحة وفى الآخر هاء .

— فى ح ٩ من ص ٤٦٣ قول الشارح : « وأعرف الأقوال فى النقد أنهُ جنس من الغنم قصار الأوجه قباح الوجوه » قلنا : لعلهُ يريد قصار الأرجل وهى التى تكون قصاراً فى الغنم .

— وورد فى ح ٨ من ص ٤٦٦ هذه العبارة للأستاذ : « التياس : صاحب التيوس وممسكها » — قلنا : يكفى التياس أن يكون لهُ تيس واحد ، أو أن يكون ممسكاً تيساً واحداً ليصح فيه هذا الاسم .

— ووقع حرف فى ح ١ : من ص ٤٧١ فى قوله : « ليسوا فرساناً

لا معرفة لهم بالخيل » لعلّ الساقط هو « إذ » فيكون صراب العبارة : ليسوا فرساناً إذ لا معرفة لهم بالخيل .

— وطبع فى ص ٤٧٣ فى النص والشرح : الغرائر بالياء المثناة : والصواب أنها مهموزة كما أثبتناها لأنها غير جوفاء ولا يائية البناء . وكذا يجب أن تكتب المزايد وهى المزاود الواردة فى ص ٤٨٥ ح ٥

— وقال الأستاذ المحرر فى ح ٨ من ص ٤٧٥ : « السقط . بالتحريك : ما لا خير فيه . لعلهُ أراد بهِ حشوة الذبيحة وأطرافها ، كما يطلق اليوم هذا اللفظ فى العامية المصرية » — قلنا : وبهذا المعنى وردت السقط فى العراق. ويسمى بائع الأسقاط : سقّاطاً وسقطيّاً وأسْقاطيّاً .

— وذكر الجاحظ بيتين من الشعر لأبى الأسود الدؤلى . ونص الثانى منهما هو :

ولا بسبسٍ كالعنز أطولُ رِسلها
ورثمانهـــــا يومان ثم يزولُ

فقال المطرز تعليقاً على « بسبس َ » كذا وردت — وعندنا أن الكلمة مصحفة أصلها « بشيشٍ » بشينين معجمتين . يتوسطهما ياء مثناة تحتية ساكنة ، والشيش : الشيص بشين وياء وصاد . وهو تمر ردىء ، يضرب المثل برداءته ويشبه به الصعب الخلق . الشرس الطبع من الناس والحيوان .

— وجاء فى ص ٤٧٧ س ٤ : « فيشيريه » والصواب : فيشتريه .

— وورد فى ص ٤٨١ س ٢ : و « الماعزة قد قولد » . والصواب : تولّد .

— وقال الموشى فى ح ٤ ص ٤٨٢ : « كسكر كورة من كور فارس » والمشهور عند البلدانيين من كتبة العرب أنها من كور العراق إلى عهدنا هذا .

وتسمى اليوم (كوت العمارة) أو هى فى جوار تلك القديمة . وربما كانت من كور فارس قبل الإسلام ، ولا عبرة لذلك .

— وذكر المحشى فى ح ٥ من ص ٤٨٣ : قائلاً : « وكثيراً ما تطلق المعاجم العربية كلمة « الذكر » على الضرب الكبير من الحيوان » . — قلنا : وأول من نبه على هذا الأمر كاتب هذه السطور وذلك أن العلامة أمين المعلوف رحمه الله زارنى فى بغداد سنة ١٩٢٢ وذكرت له أن العرب تطلق اسم « الذكر » على ما كبر من الحيوان ، طيراً كان أو من ذوات الأربع ، أو من السمك والحشرات ، بل أطلقوا الذكر على بعض المعادن وأنواع الطيب ، فأخذ ذلك عنى وأشار إليه فى كتاباته . فجاء الأستاذ عبد السلام وقال وقال : « تطلق المعاجم العربية » . والصواب : تطلق العرب .

— وشرح الناشر « الضال » فى ح ٨ ص ٤٨٩ بقوله : شجر . وهو كلام يشمل نباتات عديدة ولو قال : الضال من السدر : ما كان عذياً ، أو السدر البرّى . لأفاد الباحث فائدة مرنحة للبال واسمه العلمى : Zizyphus Lotus أو Rhamnus Lotus وبالإنجليزية: Lotus Tree و: Wild Jujube و: Lotus Jujube وبالفرنسية: Jujubier Sauvage و: Lotus des Anciens و: Jujubier des Lotophages

— جاء فى ح ٧ من ص ٥٢٥ : « الرق . بالفتح السلحفاة المائية » — قلنا : وهذا تعبير غريب . لأن السلحفاة تكون دائماً مائية برية ، ولأن الرق لفظة مستعملة إلى عهدنا هذا فى العراق ، ويراد به العظيم من السلاحف . وقد يتساهل فيه فيطلق على الصغار منها أيضاً .

— وذكر الجاحظ اليَخّ بمعنى الثلج وهى فارسية الأصل (ح ٣ ص ٥٢٦) وهى تستعمل إلى اليوم فى العراق إذ يقول أبناء الرافدين : « أبرد من اليخ » ويخصّونه بما يقع منه من السماء كما يسمونه أيضاً « الوفر » بواو مفتوحة وفاء ساكنة وفى الآخر راء .

— وحكى الجاحظ أن الضفدع « إذا كان صغيراً كان ذا ذنب فإذا خرجت لهُ يدان أو رجلان ، سقط » ص ٥٢٨ ولم يذكر اسمه وهو فى ذلك الطَّور . قلنا : واسمهُ حينئذٍ الشرْغ بالكسر ، والشرغوف بالضم، والشفدع أيضاً . وبالفرنسية : Tetard وبالإنجليزية : Tadpole .

— وجاء ذكر العلاجيم فى ص ٥٣٣ من نص الجاحظ وهذا حرفه : « والعلاجيم : الضفادع السود » اهـ .

وكثيراً ما كنت أبحث عن حقيقة هذه العلاجيم ، فإذا هى الضفادع السود . أما سائر أرباب المعاجم فقد ذكروا أنها جمع علجوم ، والعلجوم : الضفدع عامة . — وقيل : هو هو الذكر منها . أما الآن فنعتمد على قول الجاحظ أى أنهُ الضفدع الأسود ، ذكراً كان أو أنثى ، وهو بالفرنسية : Crapaud وبالإنكليزية : Toad وبلسان العلم (أى بلسان أهل العلم) : Bufo Vulgaris.

— ٣ —

— وذكر الكاتب الناشر بردَى الجرادة والجندب فقال : هما رجلاه[١] . والصواب أنهما جناحاه ، لأن البرد الثوب المخطط فى الجراد والجندب والفراش ونحوها : الجناح والجمع أجنحة .

— وجاء فى متن الجاحظ ص ٥٦٢ : « يزعم أن الدبا يريد الخضرة ، ودونها النهر الجارى » . ونظن أن هناك سقطاً وهو « يريد الخضرة ولو حال دونها النهر الجارى » . على أن الكلام على ما هو مثبت قد يخرج أيضاً تخريجاً صحيحاً .

(١) كذا . والذى كتبته فى الحواشى ص ٥٥٦ : « جناحاه » ، فلعل هذا سبق نظر من الأب أنستاس . (هارون) .

— جاء ذكر القفعة فى ص ٥٦٦ و ح ٣ — وهى كلمة استعارها منا الفرنسيون وسمّوها : Cabas .

— وذكر النَّقل بالفتح ص ٥٦٦ و ح ٤ وهو « ما يعبث به الشارب على شرابه ويتنقل به . ويقال أيضاً بالضم . وقيل الضم عامية » . اهـ . وعندنا أن الضم هو الأفصح لأنه معرب من اللاتينية Nucleus وهو كل ثمر ذى نوى يتنقل به عند الشراب .

— وقال المحرر فى ح ١ من ص ٥٩١ : « فئام : جماعات كثيرة . لا واحد له من لفظه » . قلنا : والذى عندنا أن الفئام جمع فئة وأصل فئام : فئان بكسر الفاء وفى الآخر نون وهو أقدم جمع معروف فى لغتنا . ومثل ذلك فى العبرية فيقولون فى جمع سروف : سروفيم ، وفى جمع كروب : كروبيم . ثم نقلوا الميم إلى النون كما أن أصل التنوين : تمييم . وكنا قد وضعنا مقالاً مافى الذيل فى مجلة المشرق البيروتية قبل نحو خمسين سنة وهى ليست أمامنا لنحيل القارئ عليها . ومثل هذا الجمع القديم قول اللغويين فى جمع أرض وأوزّ وسنة : أرضون وأوزون وسِنون إلى غيرها وهى كثيرة . فهذا الجمع أقدم من قولهم « أراضٍ وأوزّات وسنوات » .

— وجاء ذكر البواقيل التى واحدها البوقال فى هذا البيت الوارد فى ص ٥٩٧ :

فمن رأى النيل رأى العين من كثب
فما أرى النيل إلاّ فى البواقيــل

قال المطرز الموشى : « البواقيل : جمع بوقال ، بضم الباء وهو كوز بلا عروة » .

وجاء في أساس البلاغة ، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٢م في الجزء ١ : ٥٨ : « وفلان لا يعرف البواقيل ، من الشواقيل : فالباقول (كذا) الكوب . والشاقول : عصا قدر ذراع في رأسها زجّ ، يشد إليها المسّاح[١] حبلهُ ، ثم يرزّه في الأرض ، ويتضبطها حتّى يمد الحبل » وهو من واضح الخطأ . وذلك لأسباب منها : أنّ البوقال ذكره كثير من اللغويين ولم يذكر أحد الباقول .

ومنها : أن الغربيين استعاروها منا وقالوا : Bocal ولم يقولوا Bacoul

ومنها : أننا استعرناها من اليونانية Boukalis ولو كان الفرنسيون استعاروها من اليونانيين لقالوا : Boucal لا Bocal .

ومنها : أن أساس البلاغة المطبوع في دار الكتب المصرية مشحون أغلاطاً شنيعة . ولما عارضنا المطبوع بالمخطوط المحروز في خزانتنا ، لاحظنا فيها أوهاماً يأسف لوقوعها فيه كل عربي غيور . وقد ذكرنا ذلك للعربي الغيور على اللغة العدنانية ، الدكتور منصور فهمي بك سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤٤ فقال لنا : إنهُ يعهد إلينا إعادة طبعه بعد الحرب إن أبقانا الله بين الأحياء .

ومنها : أن الذي خدع الواقف على طبعه ، ظن أن مفرد البراقيل هو الباقول ، لمعرفته أن الشواقيل واحدها الشاقول ، فقاس الواحد على الآخر[٢] .

---

(١) الذي في لسان العرب : « الشاقول : خشبة قدر ذراعين في رأسها زج تكون مع الزراع بالبصرة يجعل أحدهم فيها رأس الحبل ، ثم يرزها في الأرض ويتضبطها حتى يملوا الحبل » — وفي محيط المحيط : « الشاقول : خشبة تكون مع الزراع بالبصرة ، في رأسها زج كعقب الرمح . ومنه شاقول البنائين والمهندسين والفلكيين . وهم يستعملون منه فعلا ، فيقولون : شقل المكان ونحوه ، أي اختبر ارتفاعه وانخفاضه . والاسم عندهم الشقلة . قيل : هو معرب شاقول بالفارسية » انتهى — قلنا : هي بالنبطية والمندائية — وهي لغة صابئة البطائح — شاقولا . وكانوا أهل زراعة وصيد سمك في العراق كله .

(٢) ومن الأدلة المبينة لخطأ أساس البلاغة : أن الطبعة المصرية المذكورة لم تذكر (الشاقول) في مظنتها ولا في أي موطن آخر منها . أما نسختنا الخطية المجودة فقد ذكرتها في مادة ش ق ل . وقد قيدها أيضاً جميع أرباب الكتب لمتون اللغة غير المختصرة .

فهذه أدلة بينة على أن الأستاذ عبد السلام محمد هارون أخذ بالصحيح ونبذ القبيح .

— وجاء فى ح ٢ ص ٥٩٩ : « التقنص : الصيد » والذى عندنا أنّ التقنص كالقنص وهو الصيد بالكلب . وذلك أن الكلمة القنص منقولة من اللاتينية Canis أى الكلب أو أنها من اليونانية Kunegesia,as بمعنى اصطاد الصيد مستعيناً بالكلب [١] .

— وقال المرشى فى ح ٣ من ص ٥٩٩ : « والصعو » طائر أصغر من العصفور أحمر الرأس ، وهى بلغة العلم الأوربى : Regulus ومنهُ ما يسمى : Goldcrest or Kinglet قلنا : لو قال الأستاذ أصغر من الدورىّ ، أو أصغر من العصفور الدورىّ لكان أقوم . لأن العصفور فى اللغة يطلق على كل طائر دون الحمام . ولهذا يعدّ العصفور نفسه عصفوراً . وقول الأستاذ : « بلغة العلم » الأوربى غير موافق للمصطلح المشتهر . وكان الأحسن أن يقتنع بقوله : « بلغة أهل العلم » نابذاً « الأوربى » نبذ النواة . لأنّ اللفظ العلمى لا يعرفهُ الأوربى فقط . بل الأميركى . والأفريقى . والآسيوى . والأسترالى . وقوله : « بلغة العلم » صحيح بخلاف من نكر هذا التعبير جهلاً لأسرار العربية .

وقوله Regulus (وهو اسم عام علمى يشمل جميع صغار الطويئرات المغرِّدة) ثم قوله Kinglet أو Goldcrest وهو اللفظ الإنكليزى لنوع من جنس المليك أى Pegulus ليس باسم يميزه كل التمييز عن اسم الجنس .

ثم إن الأستاذ عاد فاستعمل العصافير بمعنى الدُّوريات فى كلامه على الدُّخَّل فى الحاشية (٦) من تلك الصفحة فقد قال :

---

(١) إن العرب ميزوا بين الصياد والقناص والعركى . فالأول يعنى كل من يأخذ حيواناً بحيلة أو بوسيلة من الوسائل . — والثانى صياد الحيوان مستعيناً بالكلب — وأغلب ما يكون هذا الكلب من جنس السلوق وهو الضرو بالضرى — وأما العركى — فصياد السمك ولم يشتقوا اسماً لمهنته ، فلم يقولوا : عراكة ولا عرك ولا أى لفظ آخر ، كما إنهم لم يشتقوا منه فعلا يدل على ذلك .

– والدخل ، بضم الدال وتشديد الخاء المفتوحة : طير صغار أمثال العصافير تأوى الشجر الملتف ، وهي أنواع كثيرة كلها غريد ، يعرف كثير منها عند عامة أهل مصر بالزريقة ، وهو بالإنكليزية : Sylvia or Warbler » . فنزيد على ما قلنا في المشارة السابقة أن Sylvia كلمة لاتينية معناها : دغلية ، أي إنها تأوى إلى الدغل ولعل الدخل العربية مشتقة من الدغل ، ثم وزنت وزن صيغة مبالغة ، لأن موطنها الدائم الأيك والحرج والغابات ، أما الإنكليز فلا يعرفون هذه الكلمة الرومية ، إلا العلماء منهم أرباب الثقافة العالية – وأما اللفظ الإنكليزى لهذا الطويئر فهو : Warbler ومعناه المرنم والمغني والمغرد ، واسم هذا الطويئر بالفرنسية : Fauvette .

ومن أسمائها العربية : الشرالة والدخناء والكحلاء إلى غيرها .

وقال الأستاذ في ح ٣ ص ٦٠٤ : « الروح النفس ، يذكر ويؤنث » – قلنا : يذكر ويؤنث إذا أريد به ما تقوم به حياة الجسد . أما إذا أريد به العقل والفكر والوحي إلى ما ضاهى هذه المعاني فلا يؤنث البتة . فالروح الأمين عند المسلمين لقب جبريل ، ولا يقال البتة : الروح الأمينة . ويقول النصارى : الروح القدس ولا يقولون : الروح القديسة ولا القدوسة ولا القدسة ولا ما يداني هذه النعوت من الألفاظ المؤنثة ، للدلالة على الأقنوم الثالث عندهم .

٧ – الخلاصة وهي الخاتمة : يتحقق القارئ مما كتبناه هنا : أن الأستاذ عبد السلام محمد هارون هو من أحسن من تولى نشر كتب الأقدمين ، فإنه صرف زمناً طويلاً في مطالعة الأسفار على اختلاف موضوعاتها ، لإبراز نص الجاحظ بأبهى حلة وأصح عبارة ، نابذاً كل ما أدخله فيه النساخ والوراقون من التصحيف والتحريف ، والحذف والسخف ، والزيادة والنقصان . حتى أصبح هذا الكتاب في جميع أجزائه من أصح وأفصح ما برز في المطابع المصرية منذ نشأتها إلى يومنا !

فنحن نشكره باسم العرب جميعهم ، ونتمنى أن يتمم ما شرع فيه ويوفقه الله لإخراج سائر مؤلفات الجاحظ ، وأثابه أحسن ثواب .

كتاب الحيوان للجاحظ(*)

حول المجلـد الخامس

بقلم : عبد السلام محمد هارون

— ١ —

قرأت ما دبجته براعة المحقق الكبير الأب أنستاس ماري الكرملي فيما سبق من أعداد المقتطف » تعليقاً على المجلد الخامس من كتاب الحيوان ، فزاد إعجابي بهذا المحقق الغيور على العلم . وبهرني ما شهد له الناس به من سعة الاطلاع . والإخلاص في البحث والتحري .

وزرته في الدير بشبرا القاهرة ، فكدت أقضي العجب حين طلب إليَّ في صدق أن أجادله في ما أراه موضعاً للجدل ، ثم هو يعيد عليَّ هذا الطلب ، فإذا العلم يرتفع ثم يرتفع في نظري ، وإذا جلال العلماء يأخذني فيما أشهد من كرم هذا الخطير وتواضعه ، فالحق وحده يبقى وتفنى الزخارف والأباطيل .

قال الأب : « نقل المحرر بعض عبارات إفرنجية تفسيراً لبعض الكلم العربية نقلاً عن الأجانب ، وكان يحسن به أن يترجمها إلى العربية ليستفيد منها من لا يفهم الإفرنجية » ، ومثل بما جاء في الحاشية ١ ص ٣٥١ و ح ٧ ص ٤٦٨ .

أما ما جاء في الموضع الأول وهو : . . . a stone

فقد أثبتُّ ترجمته قبله ، وهي : « الميناء حجر يشبه اللَّازَوَرْد تزخرف به الفضة » .

---

(١) نشر في مجلة المقتطف عدد نوفمبر سنة ١٩٤٤م .

وأمّا ما جاء في ص ٤٦٨ فهو : . . . a privy فقد أثبت تفسيره قبل : « هو الكنيف الذي يكون مشرفاً على سطح بقناة من الأرض » .

ـ أخذ عليّ حضرته استعمال « التنبيه » مكان « الحاشية » مع أن كلمة التنبيه أعرق في الاستعمال من الحاشية . وأوسع مدلولاً . وقد عرف من مؤلفات الأقدمين « التنبيه » لأبي عبيد البكري . على أمالي القالي . و « التنبيهات . على أغاليط الرواة » لعلي بن حمزة البصري . وهي حواشٍ وتعليقات لبعض كتب اللغة . وهذا نحو ما أنا بسبيله من إخراج مكتبة الجاحظ

وفي ص ٦١ قول الجاحظ : « وإذا انحط شرقاً أو غرباً صار كل شيء بين عينيك وبين قرصها من الهواء ملابساً للغبار والدخان والبخار وضروب الضباب والأنداء . فتراها إما صفراء وإما حمراء » . قال الأب : « الصواب إما صفراً وإما حمراً . أي أن كلاً من صفراً وحمراً بالجمع المنصوب غير الممدود . والمد من جهل النساخ » . وليأذن لي أن أقول إن العبارة سليمة . وأن كلمتي « صفراء وحمراء » هنا ليست صفة للجمع ، وإنما هي صفة للشمس المفردة . فإن الضمير في « انحط » عائد إلى « قرص الشمس » في كلام قبله . وهو : « ولو أن دخاناً عرض بينك وبين قرص الشمس أو القمر لرأيته أحمر . وكذلك قرص الشمس في المشرق أحمر وأصفر . للبخار المعترض بينك وبينه » فالكلام في لون الشمس ، لا لون ضروب الضباب والأنداء .

وليأذنْ لي كرّةً أخرى أن أعلن له أن وصف الجمع المكسر بفعلاء المفرد صحيح لا ريب فيه ولا شية . وقد سبق لي تحقيق قديم في ص ٢١٥١ من مجلة الثقافة . توجهت به إلى الأب الجليل . ولست أملك أن أعيده هنا مكرراً . ولكني أضيف إليه أموراً :

١ ـ جاء في اللسان تعليقاً على حديث : « ليس في الخضراوات صدقة » : « قياس ما كان على هذا الوزن من الصفات ألاّ يجمع هذا الجمع ، وإنما

يجمع بهِ ما كان اسماً لا صفة ، نحو صحراء وخنفساء . وإنما جمعه هذا الجمع لأنهُ قد صار اسماً لهذه البقول لا صفة ، تقول العرب لهذه البقول : «الخضراء» فتسمية البقول بالخضراء ، مسبوقة بوصفها بهذا اللفظ ، فهى رصف قد سمى به .

٢ — ونظير هذه العبارة ما ورد فى المادة نفسها من اللسان ص ٣٢٩ س ٣ : «والخضراء من الحمام : الدّواجن ، وإن اختلفت ألوانها ، لأن أكثر ألوانها الخضرة» .

٣ — وجاء فى اللسان (٦ : ٤٢٥ — ٤٢٦) : «وحكى ابن الأعرابى : ليل قمراء . قال ابن سيده : وهو غريب . قال : وعندى أنهُ عنى بالليل الليلة ، أو أنثه على تأنيث الجمع» يعنى أنه جعل الليل جمعاً لليلة ، كما تجمع البقرة على البقر ، والتمرة على التمر . فهذا نص قاطع أيضاً فى أن جمع المكسر المؤنث يسوغ وصفه بفعلاء المفرد . ومما هو جدير بالذكر أن ابن سيده من أشد اللغويين تزمتاً وتحفظاً .

٤ — وأما ما يذهب إليهِ الأب من أن ما يرى فى الكتب القديمة هو من جهل النساخ ، فإن هذه حجة ذات وجهين ، إذ نستطيع أن نقول إن الناسخين أهملوا بعض الهمزات فى هذه الكلمات ، إهمال تحريف أو إهمال رسم[1] .

— وفى ص ٨٤ قلت : «البركان عامية ، مأخوذة من : Volcano» وقال الأب : «والذى عندنا أنها معربة ، وقد وردت فى شعر ابن حمديس» وهو يشير إلى ما ورد فى ديوانه ص ٢٤١ من قصيدة له يذكر فيها صقلية :

إذا عشّنت فيها التنانير خلتها
تفتح للبركان عنهـــا منافسا

---

(١) من قواعد علماء الرسم الأقدمين حذف الهمزة خطاً ، إن سبقت بساكن ، فيكتبون نحو حمزاء : «حمرا» . انظر المطالع النصرية ص ٨٢ .

لكن ابن حمديس ليس ممن يحتج بعربيته ، وهو من شعراء القرن السادس الهجرى ، توفى سنة ٥٢٧ . ولعل أقدم نص وردت فيه هذه الكلمة ما جاء فى التنبيه والإشراف للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٥ . قال فى ص ٥٢ : وجزيرة صقلية وما يليها من جبل البركان ، ومنه تخرج عين النار التى تعرف بأطمة صقلية » والرجلان ليسا ممن يعتد بتعريبه .

— وفى ح ٢ ص ٩٥ : « فذا توفى حوالى سنة ٣٣٧ » أنكرها الأستاذ الأب ، وقال : إن الفصحاء من الكتبة لم يعرفوها . وليست هذه بحجة قاطعة فى نفى صحة هذا الاستعمال ، فإن فصحاء الكتبة الأقدمين لم يعرفوا كثيراً من العبارات التى نتداولها اليوم ونديرها على المجاز والاستعارة والتمثيل . أفيمنع ذلك صحة تلك العبارات ؟ وفى اللسان : « رأيت الناس حواله وحواليه ، وحوله وحوليه » فهذه الألفاظ أخوات يجعل أحدها فى مكان صاحبه .

— وفى ح ٩ ص ١٥٢ : « فيما عدا (ل) : فمه . وأنى يكون له فم ؟ » وهو تعليق على قول الجاحظ : « إذ مرّ العقعق والسخّاب فى منقاره » قال الأب : « ورواية الفم أصح من رواية المنقار » . واستشهد بقول صاحب المصباح إنهم قالوا : فم الحيوان . أما أن رواية الفم أصح من رواية المنقار فلم يأت لها الأب بدليل ، إذ لا ريب فى أن الاسم الموضوع للشىء أولى من الاسم المستعار له ، والمنقار هو الموضوع للطير . وأما استشهاده بما جاء فى المصباح من إضافة الفم إلى الحيوان وإدخاله بذلك الطير فى جملة الحيوان ففيه نظر آخر ، إذ أن المراد بالحيوان هنا ما عدا الطير الذى خص به لفظ المنقار . ومما هو جدير بالذكر أن نسخة « ل » المشار إليها فى التعليق هى أصح نسخ الحيوان وأقومها .

— وفى ح ٥ ص ١٥٨ كتبت فى قول الشاعر : « معى كلُّ فضفاض القميص » بقولى : « (ط) فقط فضفاض الثياب . ولم أجدها فى مرجع » . ظنّ الأب أنى أستنكر العبارة . وأنا إنما عنَيت أن نسخة (ط) من الحيوان

أتت وحدها بهذه الرواية ، ولم أجدها فى مرجع آخر من المراجع التى سقتها لتخريج هذا البيت . وسردتها فى ص ١٥٧ — ١٥٨ .

— وفى ح ٥ ص ٢٠٩ قال الأب : « وقد أخطأ استينكاس بتسميته بالإنكليزية : black partridge والحق أن استينكاس لم يسمه هكذا ، بل سماه : Francolin وأما الذى سماه Black Partridge فهو المعاوف فى معجم الحيوان ص ١٨٤ .

— وفى ص ٢٧٩ : « تبت بلاد بالصين » قال الأب : « الصواب أنها بلاد واقعة فى شرقيها وليست منها » . وأمامى الآن مصور (مصلحة المساحة المصرية) للدولة وفيه رسم للدولة الصينية وهى تشتمل على بلاد الصين الأصيلة وبلاد المغول ، وبلاد التركستان الشرقية ، وبلاد تبت ، وموقع بلاد تبت فى الغرب لا الشرق . فليس فى شرق الصين إلا بحر الصين .

— وفى ص ٢٩٩ ، قال الأب : إن « سم بريص » ليس من كلام العوام ، وإن الشاعر تصرّف فى هذه الكلمة « تصرف الشعراء فى الكلم من قصر وزيادة وتغيير » . وهذا التصرف الذى عناه له حدود وقوانين ، دونها النحاة فى أبواب الترخيم ، وقيدها الأدباء فى ضرائر الشعر ، « وسم بريص » ليس على قاعدة من قواعد الترخيم ولا مما يجيزه الأدباء فى ضرائر الشعر .

— وفى ص ٣٣٥ قال الأب فى الكلام على « بيشة » : « والذى فى حفظنا أنه من مواضع العراق » . وليس الأمر كذلك ، فإن بين بيشة والعراق بوناً شاسعاً . قال ياقوت : « بيشة من عمل مكة مما يلى اليمن ، من مكة على خمس مراحل . وبها من النخل والفسيل شىء كثير . وفى وادى بيشة موضع مشجر كثير الأسد » .

— وفى ص ٣٦٦ قال الجاحظ : « وليس للكلب اسمُ سوى الكلب ، وللديك اسم إلا الديك » . فذهب الأب إلى أن الجاحظ يعنى أن الديك ليس

له اسم سوى الديك ، واستدرك على الجاحظ بكلمتى « العترسان والعترفان » ، والحق أن الجاحظ إنما يعنى الأسماء الجامدة التى ليس لها أصل فى الاشتقاق ، فهو يقول قبل هذا الكلام : « وللسنور فضيلة أخرى : أنه كثير الأسماء القائمة بنفسها ، غير المشتقات » وذكر من أسمائه القط ، والهر ، والضيون . أما الديك فليس له اسم آخر من الأسماء الجوامد مثل ما للسنّور . وأما ما ذكره الأب من « العترسان والعترفان » فإن الواحد منهما مشتق من العترسة ، وهى الغصْب والغلبة ، والأخذ بشدة وعنف وجفاء وغلظة ، ومنه العنتريس للداهية وللناقة الصلبة الوثيقة والرجل الشجاع . والآخر مشتق من معنى الشدة والخبث . قالوا : جمل عتريف وناقة عتريفة شديدة . ورجل عتريف وعتروف أى خبيث فاجر جرىء ماض .

— وفى ص ٣٧٣ ذكر الأب أن « الضّمج » وهو ما يعرف فى مصر بالبق لا يعيش بالعراق ، وأنه يموت هناك لشدة الحر . وهذا عجب ، فإنه إنما يتكاثر ويظهر فى مصر فى شدة الحر ، ويختفى فى الشتاء والربيع . وقال أيضاً : إن صواب العبارة « يكون فى السُّرُر والحصر » لا « السرر والجدر » وأيد ذلك بقوله : « إنه يعيش فيها — أى الحصر — بمئات وألوف » مع أن المشاهَد الواقع بين ظهرانى المصريين أن الضمج إنما يشتد تكاثره فى شقوق الجدران وثقوبها . ولذلك يَلجئون إلى رأب تلك الصدوع وسد تلك الثقوب . أما الحصر فأقل شأناً من الجدر فى إيواء الضمج وتكثيره . وأما كلمة « القتل » فقد نبهت عليها فى أخطاء الطبع .

— وفى ص ٤٦٣ عبارة : « التياس صاحب التيوس » قال الأب : « يكفى التياس أن يكون له تيس واحد ، أو أن يكون ممسكاً تيساً واحداً ليصح فيه هذا الاسم » . وعلى قياس قوله ينبغى أن نفسر « الكلاّب » بأنه صاحب الكلب ، و « البقّار » بأنه صاحب البقرة ، وهكذا . وليس ذلك بمألوف فى عبارات المفسرين من اللغويين ، فهم يقولون فى تفسير الكلاّب

إنه صاحب الكلاب والقرَّاد صاحب القرود . وفى تفسير البقّار صاحب البقر ، والبغال صاحب البغال[١] . ولعل ما دفع الأب إلى ذلك ما ورد فى اللسان من قوله : « والتياس الذى يمسكه » وفى القاموس : « والتياس ممسكه » فهما فى ذلك تابعان للجوهرى فى الصحاح . والجوهرى إنما تكلم بالإفراد هنا لأنهُ أراد أن يرجع الضمير إلى « التيس » الذى سبق ذكره قبله ، وهو مفرد .

– وفى ص ٤٧٣ كتبت « الغراير » كما وردت فى أصل الحيوان بالياء ، على التسهيل ، فقال الأب : « الصواب أنها مهموزة . . . لأنها غير جوفاء ولا يائية البناء » . وليس فى الأمر خطأ ولا صواب ، وإنما هما مذهبان يجرى أحدهما على الهمز والآخر على التسهيل . والتسهيل هو لغة قريش فى جميع كلامها ، وإن كان النحاة قد وضعوا للتسهيل قيوداً ورسوماً لم تعرفها قريش ، فإن النصوص متواترة أن قريشاً لم تستعمل الهمزة فى كلامها . قال الرضى[٢] : « فخففها قوم . وهم أكثر أهل الحجاز ولا سيما قريش روى عن أمير المؤمنين على رضى الله تعالى عنه : نزل القرآن بلسان قريش ، وليسوا بأصحاب نبر ، ولولا أن جبريل عليه السلام نزل بالهمزة على النبى صلى الله عليه وسلم ما همزنا » .

وقال السيوطى[٣] : « والكتّاب بنوا الخطّ فى الأكثر على حسب تسهيلها لوجهين : أحدهما أن التسهيل لغة أهل الحجاز . واللغة الحجازية هى الفصحى » .

وقال ابن منظور[٤] : وفى الحديث : قال رجل للنبى صلى الله عليه

(١) انظر اللسان (٢ : ٢١٨ س ٢٤٢ : ٣٥٠ س ٥-١٠ : ١٤٠ س ١٣-٨ : ٦٣ س ١٠) .
(٢) شرح الشافية (٣ : ٣١) .
(٣) همع الهوامع (٢ : ٢٣٣) .
(٤) اللسان (٧ : ٣٩ – ٤٠) .

وسلم : يانبيء الله . فقال : لا تنبر باسمي — أي لا تهمز — وفي رواية : فقال : إنا معشر قريش لا ننبر . والنبر : همز الحرف . ولم تكن قريش تهمز في كلامها . ولما حجّ المهدى قدم الكسائي يصلّي بالمدينة ، فهمز ، فأنكر أهل المدينة عليه وقالوا : تنبر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن » . على أن المتصفح لكثير من المخطوطات القديمة يرى كتابة التسهيل شائعة فيها .

— وقال الأب في ص ٤٧٤ في بيت أبي الأسود الدوؤلي :

ولا بسبس كالعنز أطول رسلها

ورئمانها يومان ثم يــزول

« الكلمة مصحفة أصلها بشيش بشينين معجمتين يتوسطهما ياء مثناة تحتيّة ساكنة ، والشيش الشيص . . . » إلخ . وهذا التصحيح الذى أورده لا يستقيم به الوزن ، ومن أين لنا تشبيه الصعب الخلق بالرديء من التمر .

— وفي ص ٥٢٥ : « الرق ، بالفتح : السلحفاة المائية » . وقد استغرب الأب هذا التعبير لأن السلحفاة تكون دائماً مائية برية » .

والحق أن السلاحف على ضربين : سلحفاة برية لها طبع الحيوان البرى ، وأخرى بحرية لها طبيعة التمساح تعيش في البحر وتضع بيضها في الشطوط . وقد عقد الدميرى فصلاً لكل منهما . وفي اللسان : « والرق ضرب من دواب الماء شبه التمساح » . ويقال للسلحفاة البحرية أيضاً الحمسة والجأة . وقد خصصت المعلمة البريطانية فصلين للسلحفاة البحرية : Sea tortoise و Sea turtle جاء في الأول منهما theseall have the limbs formed as flippers أي أن لها أطرافاً كهيئة الزعانف . كما خصصت فصلين للسلحفاة البرية : Land tortoise Land turtle جاء في الأول منهما : a chelonian of terresterial habits أي السلاحف ذات الطبائع البرية .

— وفي ص ٥٦٦ ورد ذكر « النقل » وهو ما يعبث به الشارب على

شرابه ويتنقل بهِ وجاء فى نصوص القدماء : « ويقال أيضاً بالضم ، وقيل الضم عامية » قال الأب : « وعندنا أن الضم هو الأفصح ، لأنهُ معرب عن اللاتينية : Nucleus » . والحكم بتعريبه ليس من القوة بمكان، لأن المادة فى العربية واسعة ، واشتقاق هذه الكلمة من مادتها ليس فيه شىء من العسر . ولو قد ذهبنا إلى أنها معربة ، ما كان هذا اللفظ الذى عرب حكماً ومقياساً فى تقدير الفصيح والأفصح ، إذ أن اللغة العربية لغة مروية ، وللرواية فيها السلطان والحكم والعرب لم يلتزموا فى التعريب مداناة الأصل ولا مقاربته ، وإنما يلزمون ما تطوّع لهُ ألسنتهم وأذواقهم .

هذه بعض ما أسعفتنى به هذه الصفحات المحدودة من « المقتطف » وبقيت مواضع لم أعرض لها خشية الإطالة .

وإنى لأقدم إلى الأستاذ الأب الجليل شكراً صادقاً ، واعترافاً خالصاً بجميل صنعه فى ما درّس من هذا الجزء من كتاب الحيوان ، وندعو الله أن يمتعه بالسلامة والعافية ، حتى نقرأ دراسته لسائر هذا الكتاب وما يتلوه من مكتبة الجاحظ ، ولنفيد من أدبه البارع وعلمه الوافر الغزير .

حول كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها

لعرام بن الأصبغ السلمى

تحقيق عبد السلام محمد هارون

النشرة الأولى بتاريخ غرة جمادى الثانية ١٣٧٢هـ .

تعليق ونقـــد للأستاذ الجليل حمد الجاسر

آثرت قبل إيراد التعليق والنقد أن أورد ما كتبته مقدمة لتحقيق النشرة الأولى التى ظهرت مستقلة قبل إدماجها فى نوادر المخطوطات فى سنة ١٣٩٤ الهجرية والتى روعى فيها الانتفاع بما صحّ لى من هذه التعليقات ومناقشة ما وجدته محتاجاً إلى مناقشة .

وإلى القارئ الكريم نص ما كتبته مقدمة لتحقيق الطبعة الأولى الصادرة من مطبعة أمين عبد الرحمن بالقاهرة سنة ١٣٧٢ :

مقدمة التحقيق

(للنشرة الأولى)

بقلم عبد السلام محمد هارون

تهامة :

« تهامة » كلمة : يختلف مدلولها اختلافاً شديداً ، فهي تمتد طولا ما بين عدن إلى تخوم الشام مسايرة شاطئ البحر ، وهي تنكمش أحياناً من الشمال أو من الجنوب ، ويختلف علماء البلدان الأقدمون في ذلك . ولعلّ أصدق دليل على هذا ما ذكره عرام في صدر كتابه هذا ، أن أول جبال تهامة هو « رضوى » ، وهو من ينبع على يوم .

ويبدو أن ذلك الانبساط والانكماش جاء في مختلف العصور نتيجة للسلطان السياسي أو القبلي الذي كان يسود تلك المنطقة أو يتقلص عنها .

على أن اللغة تعيننا عوناً تاماً في هذه القضية ، إذ أن اشتقاق تهامة من « التَّهَم » ، وهو تغير الريح وركودها وشدة الحر . فالامتداد الساحلي من جنوب اليمن إلى تخوم الشام هو الذي تصدق عليه هذه التسمية .

وإن الراجع إلى أقوال العلماء القدماء ليفهم أن تقسيم الجزيرة العربية يخضع إلى حد ما للحجاز ، وهو الجبل الممتد الذي حجز بين شطرين جغرافيين متباينين من الجزيرة ، أحدهما مرتفع وهو نجد ، والآخر منخفض عنه غائر وهو غور تهامة . وسراة هذا الجبل ، أي أعاليه ، هي ما يسمى بالسراة ، ممتدة ما بين أقصى اليمن وأدنى الشام .

فبالطبيعة الجغرافية تكون تهامة هي الغور الضيق الذي يساير بحر القلزم ، ضارباً من الجانب الغربي لشبه جزيرة طور سينا إلى أقصى الجنوب من بلاد

اليمن . ويختلف عرضها اختلافاً كبيراً . فهى بين الطور والسويس جزء ضيق من الساحل[١] . وأوسع موضع فى تهامة هو ساحل جدة . وهناك تهامة اليمن ، وتهامة الحجاز .

وكانت تهامة اليمن فى بعض العهود ولاية قائمة بذاتها ، ولا سيما فى عهد الفتح الفارسى لليمن فى نهاية القرن السادس الميلادى . ثم ولى تهامة هذه من بعد بنوزياد ، وكانت حاضرتها « زبيد » ، ثم أصبحت ولاية خاضعة لأئمة صنعاء .

وهناك تهامة أخرى فى غير الجزيرة العربية ، وهى على الشاطئ الغربى للبحر ، وهى (تهامة الحبشة) ، ذكرها ابن خرداذبه[٢] ، وهو يعنى بذلك ما يعرف اليوم بساحل « إرتيريا » .

أما تهامة التى يعنيها عرام فى كتابه هذا فهى (تهامة الحجاز) لا ريب ، يجعل أول جبالها الشمالية « رضوى » وهى من ينبع على يوم ، ومن المدينة على سبع مراحل : وحدها الجنوبى الطائف وقراها .

ومع أن ظاهر هذا الكتاب أنه خاص بجبال تهامة وسكانها وما يتعلق بها ، الواقع أنه يشمل الكلام على تهامة والحجاز . فنحن نجد أن ما يخص تهامة ينتهى عندما يقرب من ثلاثة أخماس الكتاب ، أى فى ص ٤٩ . ثم نجد فصلا معقوداً لحد الحجاز ، يتناول كثيراً من البلدان والقرى والجبال والمواقع الحجازية المجاورة للمدينة . وهى وإن يكن ذكرها جاء تبعاً لذكر تهامة لملاصقتها لها ومصاقبتها ، فإنها ظفرت بنصيب وافر من عناية عرام ، واحتلت مكاناً أصيلا من الكتاب .

وأنت حينما تنتهى إلى خاتمة الكتاب تلقى هذا النص : « تم كتاب أسماء جبال مكة والمدينة وما يتصل بها » .

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية (تهامة) .
(٢) المكتبة الجغرافية (٦ : ١٥٥) .

وقد يوحى هذا النص بأنهما كتابان أحدهما لتهامة والآخر لمكة والمدينة . وليس الأمر إلا ما ذكرت من استطراد عرام ، وأن كلمة « كتاب » لا تعنى إلا ما كتبه فى هذه الناحية ، فإن الأقدمين لم يذكروا لعرام إلا هذا الكتاب « كتاب أسماء جبال تهامة » ، وعنه ينقل الناقلون والمؤلفون .

نسبة هذا الكتاب :

ينسب هذا الكتاب إلى « أبى الأشعث الكندى[1] » : وهو عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الملك ، وهو الذى روى الكتاب مباشرة عن « عرام » . ولم أجد لأبى الأشعث ترجمة ، ولكن من المرجح أنه من رجال القرن الثالث ، إذ أن شيخه « ابن أبى سعد » كانت وفاته سنة ٢٧٤ .

ومن عجب أن ياقوتاً لم ينسب الكتاب إلى عرام فى مقدمته ، ولكن نسبه إليه فى مواضع مختلفة من صلب الكتاب .

وينسب هذا الكتاب أيضاً إلى « السَّكونى » ، قال البكرى : « وجميع ما أورده فى هذا الكتاب عن السكونى فهو من كتاب أبى عبيد الله بن بشر السكونى[2] فى جبال تهامة ومحالها ، يحمل جميع ذلك عن أبى الأشعث عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك الكندى ، عن عرام بن الأصبغ السلمى الأعرابى » .

وقد رجعت إلى النصوص التى عزاها البكرى فى معجمه إلى السكونى فوجدت كثيراً منها زائداً على كتابنا هذا ، مما يدل على أن « السَّكونى » جعل الكتاب أساسه فى الرواية ، ولكنه زاد عليه كثيراً من التعليقات والإضافات ، شأن كثير من رواة الكتب الأقدمين .

---

(١) مقدمة معجم البلدان لياقوت ص ٨ .

(٢) السكونى هذا كندى أيضاً مثل أبى الأشعث ، فإن السكون ، بفتح السين ، بطن من كندة .

ومن أمثلة ذلك ما ورد فى ص ٦٥٩ من معجم البكرى : « وقال السّكونى بإسناده عن موسى بن إسحاق بن عمارة قال : مررنا بالبغيبغة مع محمد بن عبد الله بن حسن وهى عامرة ، فقال : أتعجبون لها ، والله لتموتنّ حتى لا يبقى فيها خضراء ثم لتعيشُنّ ثم لتموتن . وقال السكونى فى ذكر مياه ضمرة : كانت البغيبغة وغيقة وأذناب الصفراء مياهاً لبنى غفار من ضمرة . قال السّكونى : كان العباس بن الحسن يكثر صفة ينبع للرشيد فقال له يوماً : قرب لى صفتها . فقال :

يا وادى القصر نعم القصر والوادى
من منزل حاضر إن شئت أو بادى
تلقى قراقيره بالعقر واقفة
والضب والنون والملاح والحادى » .

فهذا نص واضح أنه ليس من كتاب عرام ، وليس مما رواه السكونى عن عرام .

وفى ص ٨١١ : « وروى السكونى عن رجاله عن طارق بن عبدالرحمن قال لسعيد بن المسيب : مررنا على مسجد الشجرة فصلينا فيه . فقال : ومن أين تعلم ذلك ؟ قال : سمعت الناس يقولونه . . » إلخ . فهذا تعليق على « الحديبية » ومسجدها . وهو مسجد الشجرة ، وليس هذا من كتاب عرام فى شىء .

وهذا نص ثالث ليس من كتاب عرام ولا من منهجه فى كتابه ، قال السكونى(١) : إذا أردت أن تصدق الأعراب إلى العجز — يريد عجز هوازن — ترتحل من المدينة فتنزل ذا الغصة وهى للسلطان ، فتصدق بنى عُوال

---

(١) معجم ما استعجم ١٢٣٦ .

من بنى ثعلبة بن سعد ، ثم تنزل الأبرق أبرق الحمى وهى لبنى أبى طالب ، ثم تنزل الربذة ثم عريج وهى لحرام بن عدى بن جشم بن معاوية ، ثم تنزل الماعزة – ويقال الماعزية – وهى لبنى عامر ، من بنى البكاء ، ثم تنزل بطن تربة فتصدق هلال بن عامر والضباب ، ثم تنزل تريم وهى لبنى جشم ، ثم تنزل السىّ فتصدق بنى هلال ، ثم ناصفة وهى لبنى زِمَّان بن عدى بن جشم ، ثم الشيسة وهى لبنى زمَّان أيضاً ، ثم ترعى وهى لبنى جداعة ، ثم تأتى بوانة .

فهذا دليل دامغ أن كتاب السَّكونى فى جبال تِهامة هو رواية حرة لكتاب عرام اعتمدت على التعليقات الكثيرة والإضافات الاستطرادية ، ويكون البكرى فضفاض العبارة فى كلمته التى سقتها له .

ومهما يكن فإن نسختنا هذه كريمة الإسناد ، يرويها السيرافى ، الذى قيل إنه وضع كتاباً فى جزيرة العرب ، عن أبى محمد السكرى ، عن أبى سعد ، عن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك المعروف بأبى الأشعث الكندى ، عن عرام .

عرام بن الأصبغ السلمى :

ولم نعثر لعرام على ترجمة . إلا ما ذكره ابن النديم عرضاً عند سرده لأسماء الأعراب الذين دخلوا الحاضرة ، فذكرهُ قريناً لأبى الهيثم الأعرابى ، وأبى المجيب الربعى ، وأبى الجراح العقيلى ، وقد ذكره باسمه كاملا ، « عرام بن الأصبغ السلمى » .

ويبدو أنه كان أحد أعراب بنى سليم ممن كانوا يطوفون بالبلدان ويتعرفون مسالكها فيكتسبون بذلك خبرة صادقة . واشتقاق « عرام » من العرامة بمعنى الشدة والقوة والشراسة . ويقال : عَرَمَنا الصبىُّ وعرم علينا ، أى أشِرَ ، وقيل مرح وبطر ، وقيل فسد . و « الأصبغ » اسم أبيه مأخوذ

من الأصبغ ، وهو من الخيل ما ابيضت ناصيته كلها ، ومن الطير ما ابيضّ ذنبه .

عرام النحوى :

وأما عرام الذى ذكره ابن النديم فى الفهرست[١] ، والقفطى[٢] فى إنباه الرواة ، فهو لقب لأحد النحويين . وعرام ليس اسماً لذلك النحوى بل هو لقب له ، واسمه أبو الفضل العباس بن محمد ، أو المفضل بن عباس بن محمد وكان هذا النحوى فيما ذكروا ما جنا رقيعاً خفيف العقل ، وهو بلا ريب غير عرام بن الأصبغ الذى يعد كتابه هذا وثيقة من أهم الوثائق البلدانية ، وأمّا من أمهات المراجع الأصيلة .

نسخة الأصل :

أصل هذه النسخة فريدة فى مكتبات العالم ، وهو محفوظ فى دار الكتب السعيدية بحيلىر أباد فى مجموعة برقم (٣٥٥ حديث) وتاريخها يرجع إلى سنة ٨٧٦ . والنسخة فى ست ورقات ، أى اثنتى عشرة صفحة ، بكل صفحة منها ٢٥ سطراً . ومقياس الصفحة ١٨ — ٢٠ . وهى عسرة القراءة مكتزبة بخط نسخى غامض ردى فيه كثير من إهمال النقط ، كما أنها كثيرة التحريف والتصحيف . وقد تغلبت على ما بها من عسر بالرجوع إلى كتب البلدان ، وفى مقدمتها معجم ياقوت ومعجم البكرى ، وهما قد استوعبا معظم نصوص هذا الكتاب على ما بهما كذلك من تصحيف وتحريف . وكذلك استفتيت معاجم اللغة وغيرها من الكتب فى جميع الفنون التى يتطلبها التحقيق ، غير آل جهداً أن يظهر هذا الكتاب على أقرب ما يكون من السلامة .

---

(١) ابن النديم ١٢٧ مصر ٨٦ ليبسك .

(٢) إنباه الرواة القسم الرابع من المجلد الثانى ص ٣٩٩ مصورة دار الكتب المصرية .

تحقيق هذا الكتاب :

لم أكن أعرف شيئاً عن وجود هذا الكتاب إلا ما كان يقع تحت نظرى كثيراً عند مراجعتى لمعاجم البلدان من ذكر (عرام بن الأصبغ السلمى) حتى كان يوم لقيت فيه الصديق الكريم (الشيخ سليمان الصنيع) ، وكنت قد شرعت فى عمل علمى يرمى إلى نشر المخطوطات النادرة الصغيرة ، وهو الذى أخرجت منه مجموعتين مشتملتين على تسعة كتب نادرة باسم « نوادر المخطوطات » فأخبرنى حضرة الأخ أن لديه مخطوطة جديرة بالنشر ، هى كتاب عرام هذا ، ووعدنى أن يرسله إلى من الحجاز لأقوم بتحقيقه ونشره ، وكان أن برّ بما وعد به ، وأرسل النسخة إلى فوجدتها مخطوطة سنة ١٣٦٨ عن نسخة نقلها الشيخ إبراهيم حمدى مدير مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة عن نسخة الهند [١]. ونسخة الأخ الشيخ سليمان هذه قد عنى بمراجعتها وتحقيق بعض مواضع منها .

ثم تفضل الشيخ الجليل (السيد محمد نصيف) فكتب إلى يشفع رغبة الشيخ سليمان برغبته الكريمة ، وأرسل إلى نسخة أخرى نقلها الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليمانى عن الأصل الهندى فى دقة وإتقان ومطابقة للأصل.

ولكن ذلك كله لم يقنع ضميرى العلمى ، إذ أن أصل الكتاب موجود ، وأن من الممكن الحصول عليه ، فانتهزت فرصة رحلة الأخ البار (الأستاذ رشاد عبد المطلب) إلى الهند فى بعثة جامعة الدول العربية لجلب صور مخطوطاتها النفيسة ، فأوصيته أن يحضر معه صورة كتاب عرام . فكان له الفضل الطائل فى أن تمكّن من اجتلابها ، فكانت هى الأصل الذى اعتمدت عليه فى نشر هذا الكتاب .

فالشكر لحضرة الأخ (الشيخ سليمان الصنيع) على ما بذل من فضل

بتعريفى بهذا الكتاب وما قدم من خير ، ولحضرة الأخ (الأستاذ رشاد عبد المطاب) الذى كان له فضل اجتلاب نسخة الأصل من الهند .

وليس يفوتنى أن أجعل خاتمة كلمتى هذه شكر السيدين النبيلين (السيد محمد نصيف) و (السيد يوسف زينل) لما أظهرا من اهتمام كريم بنشر هذا الكتاب ، وما قاما به من الإنفاق على طبعه ، إسهاماً فى نشر العلم وأداء الأمانة .

القاهرة فى غرة جمادى الثانية سنة ١٣٧٢ [١] .

عبد السلام محمد هارون

(١) هذا هو تاريخ النشرة الأولى ، وقد ظهر محرفاً تحريفاً مطبعياً فيما قبل فقرى سنة ١٣٧٣

نقد النشرة الأولى

ذاك ما كتبته فى صدر نشرتى الأولى لكتاب عرام . وقد سرنى عظيم السرور أن يظهر بعد نحو ثلاثة أشهر من ظهور هذه النشرة نقد علمى لها بقلم الأخ العالم الشيخ حمد الجاسر عضو المجمع العلمى العربى بدمشق ، فى مجلة المجمع بالمجلد ٢٨ : العدد الثالث ص ٣٩٦ — ٤٠٢ بتاريخ شوال سنة ١٣٧٢ ، والعدد الرابع ص ٥٩٢ — ٥٩٩ بتاريخ المحرم سنة ١٣٧٣ .

وأنا ممن يعجبه النقد إعجاباً ، ويرى فيه إتماما لأداء الأمانة العلمية التى يحملها العلماء جميعاً لا ينفرد أحد منهم بحملها وحده . ويرى كذلك أن من كتم الأمانة آثم فى حقها وفى حق العلم .

فكان من الطبيعى عندى أن التى ذلك النقد فى غبطة ، وكان من الطبيعى أيضاً أن أغض الطرف عما يندفع فيه الناقد أحياناً من لغة هى أشبه بنزوات الظافر فى حومة القتال ، فهى نزوات قل من عصم نفسه البشرية من أمثالها .

وقد كنت دعوت من قبل إلى أن يكون النقد بين الأدباء جارياً على سنن رفيع من أساليب التعبير ، وأن يكون مبرأ من العوامل الشخصية ، وكتبت قديماً فيما كتبت فى مجلة الثقافة العدد ٦٤٧ مايو سنة ١٩٥١م .

« لم يعُد النقد الأدبى كما كان بالأمس تجريحاً وتشهيراً بالمنقود ، بل آن أن نصطنع الجد فيما يمس أقدار الأدباء وكرامتهم العلمية . فإن العثار أمر يعرض للأدباء جميعاً . لا يرتاب فى ذلك إلا مغتر . أو ذاهب العقل . أو متهافت النفس . وأمر النقد لا يعدو أن يكون معاونة ومجادلة فى الرأى . أو مشاركة فى التهدى إلى الصواب . والنقد أبداً خادم للعلم . وليس ضرباً هيناً من فنون الهجاء . وإنما هو فن رفيع يتأتى إليه الأديب فى خلق سمح وخطاب كريم » .

وبهذه الروح التي أعتز بها وأومن بوحيها إيماناً صادقاً ، أنشر صدر كلمة الأستاذ الجاسر ، وهي كلمة كريمة كنت أرجو أن تكون مبرأة من بعض الهنات التي شوهت شيئاً من قسماتها . ولكن الكمال لله وحده .

وأعود هنا فأقول : إن النسخة التي تأدت إلينا من كتاب عرام عريقة في التصحيف والتحريف عسرة القراءة ، بحيث تجعل المحقق في صراع مع كل لفظ من ألفاظها ، وأحياناً بين كل حرف من حروف ألفاظها . ومهما بذل محقق جهده ووكده فليس بمستطيع أن يحررها تحريراً كاملاً .

لذلك أيضاً أعلن غبطتي بما ظفرتُ به هذه الرسالة من تحقيقات وتصحيحات وتعليقات للأستاذ الناقد الكريم ، بلغت جميعها نيفاً وعشرين ، وسيرى القارئ أثر ما صحّ عندي من هذه النقدات والتعليقات في مواضعها إن شاء الله .

وقد ظنّ بنا الأستاذ الجاسر أنا قد اطلعنا على نشرة الأستاذ الميمني عند تحقيق النشرة الأولى ، وأنا كتمنا ذلك على القراء ! ! وهي تهمة ساذجة نرجو له من أجلها غفراناً واسعاً من الله ، فإني لم أر هذه النسخة للمرة الأولى إلا ظهر يوم الخميس ١١ شوال سنة ١٣٧٤ في دار صديقه وصديقنا الأستاذ رشاد عبد المطلب .

وإليك ما كتب الشيخ الناقد في صدر كلامه مقروناً بشكري الصادق ، وعتبي الصادق أيضاً :

أسماء جبال تهامة

تأليف : عرام بن الأصبغ السلمى

تحقيق : عبد السلام هارون الأستاذ المساعد بجامعة القاهرة

لنشر هذه الرسالة قصة نجملها بأن الشيخ إبراهيم الخربوطلى مدير مكتبة (شيخ الإسلام) فى المدينة (المتوفى سنة ١٣٧١) زار الهند فى عام ١٣٥٧ فرأى العلامة المحقق الشيخ عبد العزيز الميمنى عضو المجمع العلمى العربى يقوم بنسخها ، فساعده فى مقابلة ما نسخه على الأصل ، ونسخ هو نسخة أتى بها إلى الحجاز . ولما مر بجدة نزل فى ضيافة السرى المفضال السيد محمد حسين نصيف وأطلعه على هذه النسخة ، فاستنسخها الشيخ نصيف وأطلع عليها كثيراً من المعنيين بالعلم من علماء وغيرهم ، فمنهم من نسخها ومنهم من استفاد منها . وكان ممن نسخها على نسخة الشيخ نصيف الشيخ سليمان الصنيع . وقد بذل جهداً مشكوراً فى تصحيحها بمقابلة ما جاء فيها على معجم البلدان ومعجم ما استعجم وغيرهما من الكتب . إذ نسخة الشيخ الخربوطلى كثيرة التحريف والغلط ، زيادة على ما فى الأصل من ذلك . ولما زار مصر أطلع الأستاذ عبد السلام محمد هارون على أمر هذه الرسالة لكى ينشرها فى مجموعة من الرسائل النادرة[1] ، وبعث إليه بعد أن عاد من مصر بنسخة ، ولكنه لم ينشرها بل قال فى مقدمة المجموعة الثانية من (نوادر المخطوطات) ص ١١٦ : « كنت قد اعتزمت أن أنشر فى هذه المجموعة كتاب عرام بن الأصبغ السُّلَمى فى أسماء جبال تهامة . . ولكن علمت أن العلامة عبد العزيز الميمنى الراجكوتى قد قام بنشر هذا الكتاب ، فآثرت أن أؤجل صنعه إلى أن أطلع على نسخته » .

---

(١) يعنى نوادر المخطوطات .

أما الشيخ الميمنى فقد نشر الرسالة – كما ذكر الأستاذ عبد السلام – نشرها فى مجلة الكلية الشرقية التى تصدر فى مدينة لاهور فى الباكستان : (Oriental College Magazine) بعد أن وضع لها مقدمة وصف فيها الأصل ، وتحدث عن مؤلف الرسالة . وأشار إلى شىء من خبر المكتبة السعيدية التى وجدت فيها .

وقد أراد الشيخ محمد نصيف نشر هذه الرسالة – لأنه لم يطلع على ما نشره الشيخ الميمنى – فبعث بها إلى (المجمع العلمى العربى) فأرجعت إليه وقيل له : ينبغى أن يقوم بتصحيحها فلان – كاتب هذا المقال – فبعث بها إلىّ ، ولكننى رأيت تحقيقها تحقيقاً مفيداً يتطلب الحصول على صورة عكسية من الأصل (فتوغرافية) وأبديت للشيخ نصيف عدم صلاحية نسخته للنشر قبل مقابلتها على الأصل مقابلة دقيقة ، فبعث بها إلى الشيخ عبد الرحمن المعلمى اليمانى – وكان إذ ذاك فى الهند من القائمين على نشر الكتب التى نطبعها دائرة المعارف العثمانية فى (حيدر أباد) فقابلها على الأصل مقابلة دقيقة ، ونسخ نسخة أخرى عن الأصل بعث بها إلى الشيخ نصيف . وبمقابلة تلك النسخة ظهر أن نسخة الشيخ الخربوطلى كثيرة التحريف والغلط .

ثم رأى الشيخ محمد نصيف أن يقوم بنشر الرسالة ، وأن يتولى نشرها الأستاذ عبد السلام هارون . وكانت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية قد بعثت إلى الهند السيد محمد رشاد عبد المطلب ليصور بعض المخطوطات العربية النادرة . فكان مما صور أصل هذه الرسالة .

وقد حرَصت حينما كنت فى القاهرة على الاطلاع على النسخة التى صورتها الإدارة الثقافية ، ولكننى لم أتمكن من ذلك مع ما بينى وبين السيد محمد رشاد من الصلة – التى أعتبرها أنا قوية – وقد تكرم فأعارنى نسخة من النسخ التى طبعها الأستاذ الميمنى .

وقد اتصلت بالأستاذ الجليل الشيخ محب الدين الخطيب ، وتحدثت معه فى موضوع نشرها ولكنه قال : إن الأمر يتطلب وجود نسخة من الأصل.

ولعل الله أراد لهذه الرسالة خيراً – بإحيائها وتحقيقها من علامة محقق ، ذى خبرة ودراية وطول معاناة ، هو الأستاذ عبد السلام هارون .

وليس لنا من عتب نوجهه إلى إخواننا فى مصر الذين قد تحول ظروفهم الخاصة دون إطلاعنا على ما نرغب الاطلاع عليه من الكتب التى لنا حق الاطلاع عليها – وخاصة مخطوطات الإدارة الثقافية – نعم ليس لنا من حق فى عتبهم ، فلعل لهم من العذر ما نجهله . غير أننا نعلم – كما يعلمون – أن التعاضد والتساند والتآزر فى سبيل العلم أمور يجب أن تقدم على كل اعتبار .

وأما كلمتنا عن الأستاذ عبد السلام – فى تحقيقه لهذه الرسالة – فهى تحوى شيئاً من الاختلاف معه فى شأن التحقيق ، وهو اختلاف ما كنت أوده ، إذ الاختلاف شر فى جميع وجوهه ، غير أن واجب العلم يقضى به . لقد قلت فى كلمات نشرت فى (الرسالة ، ومجلة المجمع العلمى ، ومجلة الفتح ، ومجلة الحج) إن بعض إخواننا الجامعيين كالأستاذ مصطفى السقا والأستاذ الدكتور زكى محمد حسن قاموا بتحقيق بعض المؤلفات أو ترجمتها قياماً لا يتناسب مع ما لهم من منزلة علمية رفيعة ، وخشيت أن يكون ما قيل من أن بعض العلماء المشهورين يكتفى بوضع اسمه على المؤلف الذى يراد منه تحقيقه ، ويكل الأمر إلى بعض إخوانه ممن لا يبلغون منزلته – خشيت أن يكون هذا حقاً . أما الأستاذ عبد السلام فأنا أبرئه من هذه الوصمة ، لأنى شاهدت من آثار عمله فى تحقيق بعض المؤلفات القديمة ما لم أشاهده من كثير ممن يعنون بذلك .

وكنت أود أن أجد فى هذه الرسالة ما وجدته فى غيرها من الكتب التى حققها أو أكثر مما وجدته ، غير أننى – وإن رأيت فيها ما يسر ويفيد ويمتع –

رأيت كل هذا قليلاً بالنسبة لما كنت أتوقعه من الأستاذ . ولكى أدلك على قولى يحسن بى أن أذكر بعض ما رأيته فى حاجة إلى مزيد من العناية .

لم يشر الأستاذ عبد السلام إلى أن العلامة الميمنى نشر هذه الرسالة[١] . والأمانة العلمية والاعتراف لكل ذى حق بحقه يقضيان بعدم إخفاء مجهود هذا المحقق[٢] الذى لا يجهل باحث فى الأدب العربى ما له من أياد فى سبيل تحقيق كثير من الكتب الأدبية ، ولا ينكر ما له من فضل وعلم . ولا أكون مبالغاً حينما أقول بأن جهده فى تحقيق هذه الرسالة لا يقل عن جهد الأستاذ عبد السلام إن لم يفقه . فالميمنى مثلا أوضح من حالة عرام وبين عصره فذكر أنه من أهل القرن الثانى وأول الثالث[٣] وأنه ممن دخل خراسان مع عبد الله ابن طاهر سنة ٢١٧ وهذه من الأمور التى فاتت الأستاذ هارون ، وهى أمور لا بد منها ، إذ معرفة المؤلف أهم ما يعتنى به محقق الكتاب .

قد يقال بأن الأستاذ يجهل كون الميمنى قام بتحقيق هذه الرسالة . ولكن هذا يردّه أمور :

---

(١) كيف يتفق هذا مع ما نقله الأستاذ من قولى ، فى مقدمة هذا المقال ؟!

(٢) كذا طوع للأستاذ الجاسر قلمه ولسانه أن يزل هذه الزلة التى لا تليق برجل يعلمنى حق العلم ، ويعلم حرصى على التنويه بفضل كل ذى فضل ، ولا سيما العلامة الميمنى الذى لا يكاد يخلو كتاب من كتبى من التنويه بفضله ، وقد كنت شريكاً له فى نشر خزانة الأدب مع المغفور له أحمد تيمور باشا . والصلة بينى وبينه وثيقة لا يضيرها مثل هذا الادعاء . أما السر فى إخفائى مجهود هذا المحقق كما زعم الشيخ فهو أنى لم أكن رأيت هذا المجهود بعد ، فكيف أظهر شيئاً لا يزال عندى فى ضمير الغيب ؟ ! ! وكيف يقال أنى أخفيت ما لم يظهر لى بعد ؟ ! وأما السر فى عدم اطلاعى على نسخة الميمنى التى اجتلبها الأستاذ رشاد عبد المطلب من الهند فقد أفصح عنه الشيخ نفسه بقوله فى هذا المقال : « وقد تكرم فأعارنى نسخة من النسخ التى طبعها الأستاذ الميمنى » . لذلك لم تقع إلى هذه النسخة التى احتجزها الأستاذ الجاسر وينست من الاطلاع عليها إلا يوم ١١ شوال من سنتنا هذه ، كما أسلفت القول .

(٣) هذا يطابق تمام المطابقة ما ذكرته فى نشرتى الأولى ص ٦ س ٥ — ٦ من المقدمة . ولكن يأبى الأستاذ إلا أن يتلمس سواقط التهم .

١ ـ أنه صرح بعلمه بذلك قبل شروعه فى تحقيق الرسالة .

٢ ـ أن السيد محمد رشاد عبد المطلب الذى قال الأستاذ هارون بأنه أوصاه بإحضار نسخة مصورة من أصل الرسالة فأحضرها ، قد أحضر فى الوقت نفسه نسخة من تحقيق الميمنى [١] .

٣ ـ أنني نشرت فى الرسالة فى العام الماضى نبأ نشر الأستاذ الميمنى ، أثناء نقدى لطبعة السقا لكتاب (معجم ما استعجم) . وليس عبد السلام ممن يوصف بأنه لا يقرأ مجلة (الرسالة) وهو ممن يكتبون فيها [٢] .

هذا الأمر ـ تجاهل الناشر لما يقوم به من سبقه فى سبيل تحقيق ما يقوم بنشره ـ مما أخذ على الأستاذ السقا وأخذ على بعض العلماء الجامعيين . وكنا نود أن يتنزه عنه الأستاذ عبد السلام هارون [٣] .

* * *

قال الأستاذ عبد السلام فى مقدمة الرسالة : « أصل هذه النسخة فريدة فى مكتبات العالم ، وهو مخطوط فى دار الكتب السعيدية بحيدرأباد فى مجموعة برقم ٣٥٥ حديث وتاريخها يرجع إلى سنة ٨٧٦ والنسخة فى ست ورقات ، (أى فى اثنتى عشرة صفحة) » .

كذا قال الأستاذ . ولكننا نجد الأستاذ الميمنى حينما وصف الرسالة قال : « يوجد فى الخزانة السعيدية فى حيدر أباد مجموعة فيها ٢٧ رسالة فى

---

(١) قد استعنت بالمنطق واستعان جمع غفير من أصدقائى ليجدوا نتيجة حتمية لهذا تتعلق بشخصى ، فأعيتهم هذه النتائج . والواقع أن النسخة المصورة وردت مع بعثة الهند فى حقائبها بالطائرة ، وأما الكتب ومنها كتب الأستاذ رشاد الخاصة فوردت بطريق البحر بعد شهرين .

(٢) ولكنهم لا يقرءون فيها كل شىء ، وقد تفوتهم قراءة عدد بأكله . وهذا ما حدث لى ، فإنى مع شديد الأسف لم أقرأ للأستاذ هذا النقد ، وسأحاول أن أستفيد بقراءته إن شاء الله .

(٣) نطلب من الله للأستاذ الجاسر غفراناً فيما رمانا به من سوء ، ونتلو فى ذلك قوله جل وعز : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » .

الأحاديث والرجال . أولها خلق أفعال العباد للبخارى ، ووافق الفراغ من كتابتها ١٨ جمادى الأولى سنة ٧٨٦ وثبت على طرة الخاتمة : بلغ مقابلة على الأصل المنقول منه فى مجالس آخرها فى ليلة يسفر صباحها عن يوم الخميس من ذى الحجة الحرام سنة ٧٨٧ كاتبه محمد بن على . ولكنه مع هذه الدعوى الفارغة آية فى التصحيف والتحريف . ورقم كتاب عرام فيها ١٦ فيما بين ص ١٥١ — ١٥٩ أى أنه وقع فى تسع صفحات فحسب » .

هذا ما قاله الأستاذ الميمنى ، وهو يخالف وصف الأستاذ عبد السلام فى تاريخ النسخ ، وفى عدد الصفحات ، فأيهما أصح قولا ؟ الظاهر أن الميمنى هو المصيب(١) ، وأن الأستاذ عبد السلام نقل تاريخ النسخ عن نسخة سليمان الصنيع ، وهو نقلها عن نسخة أصلها نسخة الخربوطلى التى جاء فيها التاريخ كما ذكر الأستاذ هارون ، غير أن الشيخ نصيف لما بعثها إلى الهند لتقابل على الأصل كان مما صحح هذا الموضع ، صححه الأستاذ عبد الرحمن اليمانى كما جاء فى نسخة الأستاذ الميمنى . يضاف إلى ذلك أن الأنموذج الذى نقله الأستاذ مصرراً فى نسخته ليس فيه شىء من تاريخ النسخ مع أنه آخر الرسالة . فالظاهر أن الذين صوروها صوروها وحدها وهى خالية من التاريخ فاعتمد الأستاذ عبد السلام على ما جاء فى نسخة الأستاذ الصنيع ، وهو غلط .

* * *

وبعد أن أورد الأستاذ حمد الجاسر هذه النقدات فى مقالين بمجلة المجمع(٢) قال فى خاتمة قوله :

---

(١) قد يكون ذلك فيما يتعلق بتاريخ النسخ ، فإن مصورتى خلو منها ، واعتمدت على ما تأدى إلى من نسخة الشيخ سليمان الصنيع . أما فيما يتعلق بعدد الصفحات ، فهو تجن محض من الأستاذ ، فإن النسخة بيدى أقلبها مراراً . وقد حرصت فى هذه النشرة أن أبين أوائل هذه الصفحات (الاثنتى عشرة) لا التسع كما نقل الشيخ عن العلامة الميمنى .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق فى الجزأين الثالث والرابع من المجلد ٢٨ ، ١٩ شوال سنة ١٣٧٢ هـ و ٢٣ من المحرم سنة ١٣٧٣ . وقد اشتمل المقال الأول على ست ملاحظات والثانى على ٢٣ مأخذاً نبهت عليها فى مواضعها من كتاب عرام المنشور فى نوادر المخطوطات مع الرد على معظمها .

« هذا ما رأيت إيراده مما لاحظته على هذه الرسالة التى قام بتحقيقها السيد عبد السلام محمد هارون الأستاذ المساعد بجامعة القاهرة ، ولا أريد أن أغمطه حقه أو أقلل من عمله ، فهو أجل من أن ينكر فضله . وأنا أربأ بنفسى عن الاتصاف بصفة سيئة ، ولكننى أردت المشاركة فى إبراز هذه الرسالة إبرازاً يجعل النفع بها تاماً . وقد قام الأستاذ – فى هذا السبيل – قياماً مشكوراً فرجع إلى ٣٢ كتاباً من المراجع العامة ، ووضع للرسالة فهارس شاملة لأسماء المواضع ، وللأعلام والقبائل ، وللنبات ، وللحيوان ، وللقوافى ، وللغة ، وزينها بكثير من الحواشى المفيدة ، وشكل أسماء المواضع ، فجاء عمله فى هذه الرسالة – كعمله فى غيرها من الكتب الكثيرة التى حققها – مفيداً نافعاً » .

هذا . وليس يفوتنى أن أكرر الثناء والشكر للأستاذ العلامة الجليل ، ألهمنا الله وإياه التوفيق والسداد .

الباب الرابع

نظرات لبعض الأدباء والأصدقاء

رفع
الماهم
عفا الله عنه

كتاب الحيوان للجاحظ(*)

بتحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون

للأستاذ عبد المنعم خلاف

آقدم عملاً عظيماً فى لون من ألوان الأدب العصرى لم يوجد إلا بعد أن وجدت المطبعة ، ووجدت بحوث المستشرقين وفن إخراج الكتب .

وهو عمل يتصل بالعلم بما فيه من التحقيق وتحرير النصوص ، ويتصل بالأدب بما فيه من ملكة التذوق والترجيح واستفتاء الثقافة الأدبية والاعتماد على المحفوظ المذكور من نصوصها ، ويتصل بالفن بما فيه من تنسيق وتبويب وإخراج جميل يروع ويجذب العين واليد إلى الكتاب .

وكاد هذا العمل يكون خاصة موقوفة لأقلام المشرقيات الأجانب لولا نفر قليل من المشارقة أنفسهم ساهموا بأقلامهم فى هذا العمل النافع القيم الذى هو فى الحق ميلاد جديد للكتب القديمة تهتز له عظام مؤلفيها القدامى غبطة بتسهيل الانتفاع بما تركوا من آثار جليلة قد يذهب بما فيها من الفائدة عند شباب هذا الزمان أنها ألفت على غير ما ألفوا من الكتب الحديثة المبوبة التى يعلن فيها كل مبحث عن نفسه فى سهولة واقتراب إلى الأذهان التى لم تتعود الصبر والجلد على التعرف إلى الآثار القديمة لانقطاع الأسباب وبعد الزمن وتغير الأساليب وكثرة الملاهى وحب السرعة ، ومرض الهمة وكلال العزيمة.

وإذ أقدم هذا العمل العظيم أشعر فى نفسى بغبطتين : الأولى : غبطتى ببعث مكتبة الجاحظ أديب العربية العباسية الأكبر ، ووارث علوم علمائها

(*) نشرت بالعدد ٢٧٥ من مجلة الرسالة .

وأدب أدبائها وخفة ظرفائها ، وسجل دنياها الزاخرة ، ومصرر حياتها المتشعبة ، بعث فيه من الجدة والفن والطرافة ما يخيل إلينا أنها انحسرت عنها قريحة معاصرة .

والثانية : غبطتى بأن هذا البعث كان على يد صديقى الثبت الضابط الأستاذ عبد السلام محمد هارون الذى أعرفه كما أعرف نفسى إذ كان صديقى الأول وصنوى فى عهد الدراسة العزيز .

وأخشى أن يحسب حاسب أنه قد طغى وثوقى بهذه الشخصية وحبى لها على تقدير عملها فى « الحيوان » تقديراً بعيداً عن الغلو ، كما أخشى أن يظن ظان أن الأمر فى هذا التقديم مرجعه إلى « توريط » الصداقة وتقريظ الأصدقاء بعضهم بعضاً . وحسب ذاك الحاسب وهذا الظان أن يرجعا إلى الجزء الذى طبع من الحيوان ليريا المجهود فيعرفا الشخص الذى بذله كما عرفته أنا منذ خمس عشرة سنة أديباً متصلا بصميم الأدب العربى مقلباً يده وعينه فى مراجعه القريبة والبعيدة ممتاثاً من حرّ نصوصه .

وإذا كانت الأمور تقاس وتقدر بما يبذل فيها من مجهود له نتيجته النافعة فأظن أن ما فى المطبوعة الحديثة من الحيوان من التحقيقات وتحرير النصوص وفهارس المعارف وأجناس الحيوان وأعلامه وأعلام الناس والقبائل والطوائف والبلدان والأماكن والأمثال والشعر والأرجاز واللغة والكتب وأيام العرب ، أظن هذا كله عملا أشق وأنفع من كثير من الكتب التى يرسلها مؤلفوها إرسالاً سهلاً . وأظن أنه يستتبع تقدير صاحبه تقديراً ترضى به نفسه . وقد صار العلم الآن بما فى الكتب القديمة سهل المورد بأمثال هذه الفهارس التى تنفض ما فى الكتب نفضاً ، وتعلن عن كل كلمة فيها إعلاناً عريضاً يأخذ بعيون الباحثين إلى ما يلقون من الأشباه والنظائر والمختلفات ، مما يوفر عليهم الجهد والوقت والاستذكار ، حتى لقد شاعت هذه الكلمة « إن العلم الآن معرفة ما فى الفهارس » .

وقد ابتدع الأستاذ هارون فهرساً قيماً لما فى الحيوان من المعارف التى وضع لها هو أيضاً عنوانات فصلت أثناء الكتاب . وهو لون طريف فى التعريف بما ورد فى الكتاب حشواً فى غيره ، مما قد يمر عليه القارىء عفواً بدون ترقب ولا تعقب ؛ وهو عمل عظيم فى كتب شأن مؤلفيها الاستطراد أو إلقاء ما فى الذاكرة متى حضر ولو بدون مناسبة قريبة ، وإنما هو جُود الذاكرة .

والأوائل كانوا على رأى فى الأدب هو أنه الإلمام من كل شىء بطرف ، ولذلك كانوا يخرجون كتبهم الأدبية إخراجاً يرضى هذا التعريف . فكانت كتبهم الغالبة أشبه شىء بحديث المجالس وأماليها . غير أن هذا اللون من التأليف نبا عنه الذوق العصرى الذى لا يرضى من المعارف إلا ما كان فصائل وأجناساً مضموماً بعضها إلى بعض مميزة بعنوانات تضم الشتيت كما يضم اللقب الأسرة ، ولا يرضى أن يذهب فكر القارىء شعاعاً وبدداً هنا وهناك وقت القراءة .

وعلى ذلك كل عمل يرشد القارئ الجديد إلى ما يبحث عنه فى بطون الأسفار القديمة رأساً بدون اضطراره إلى الخوض فى بحر لا ساحل له ، وفى مباحث لا حاجة له إليها ، فهو عمل من أعظم ما يربط أسباب الجديد بالقديم ويجلو الدرر المدفونة بين طيات الكتب التى فيها كثير من الحصا والتراب .

وقد قدم الأستاذ هارون « مكتبة الجاحظ » التى « سيعدل جهده على إخراج ما يمكن منها بعون الله ما مد له فى الحياة » تقديماً بديعاً تحدث فيه عن بيان الجاحظ وعصره والتأليف فى عصره ومؤلفات الجاحظ ومنحاه فى التأليف وقيمة كتبه فى نوادى الأدب وذيوعها ووراقيها . وقد أتى فى هذا الحديث بفوائد ممتعة .

وقد قدم كذلك كتاب الحيوان تقديماً خاصاً عرض فيه لمنشأ التأليف فى الحيوان عند العرب ولمراجع الجاحظ فى تأليف كتابه من القرآن والحديث

والشعر العربى وكتاب الحيوان لأرسطو ومحاولات المعتزلة وجدالهم فيما بين أيديهم من ألوان المعارف جليلها ودقيقها . ثم المجهود الشخصى للجاحظ وولوعه بمباحث الحيوان ولوعاً حمله على أن يجالس الملاحين وصائدى العصافير والحوائين وغيرهم من القائمين على شئون الحيوان . وهو لعمر الحق مبحث فى غاية النفاسة وفى صميم الأدب الأصيل اهتدى إليه الأستاذ هارون ابتداء ، لم يسبقه إليه سابق فيما أعلم . ومن المباحث القيمة أيضاً فى هذا التقديم تحقيق زمن تأليف الجاحظ للحيوان وتبيين قيمة كتاب الحيوان بما فيه من المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية وسياسة الأقوام والأفراد ونزاع الطوائف ، والمسائل الجغرافية وخصائص الأجناس وقضايا التاريخ وأحاديث الطب والأمراض والمفردات الطبية ، وأحوال العرب وعلومهم ومزاعمهم ، ومسائل كثيرة فى الفقه والدين ، مضافاً إلى ذلك كله فكاهة الجاحظ الساخر أو فلتير الشرق — كما لقبه الأستاذ الزيات — واختياره للصفوة المختارة من حر الشعر العربى ونادره ... إلى آخر ما تمتاز به مؤلفات أبى عثمان بن البحر ...

« وبعد » فنظرة واحدة إلى صفحة من صفحات الكتاب بصلبها وهامشها تقف القارئ مباشرة على مقدار الجهد العنيف الذى بذله الأستاذ الصبور محقق الكتاب ، فى ضبط الألفاظ وشرحها وفى مقابلة النسخ القديمة التى اعتراها كثير من التصحيف والتحريف ، وفى أمانته وحرصه على استئذان القارىء فيما أثبت أو نفى من أوضاع الكتاب وكلماته وتوجيهاته . مع تواضع جميل يعرف فى طبعه كما يعرف فى قوله من تقديم الكتاب : « وأما أنا فلست بمكان من يدعى العصمة أو يخال السلامة ، فليس يكون ذلك إلا لمن ذهب عن نفسه وتعلق بالباطل .

« ولكننى يعجبنى أنى بذلت فيه غاية الجهد وأنى التزمت جانب الأمانة فلم أسقط حرفاً ولم أزد حرفاً إلا استأذنت القارئ » .

ثم نظرة أخرى إلى ثبت مراجع تقدم الكتاب وتحقيقه وشرحه نرى

القارىء مقدار سعة اطلاع الأستاذ واهتدائه إلى مواطن الفتوى فيما يشتبه عليه من خبر أو نص أو توجيه وإلى ما يعتمد عليه فى إخراج هذا السفر الجليل وما وراءه من مكتبة الجاحظ ؛

فجزاه الله الكريم وأمتع به أصدقاءه ونفع بجهوده الموفقة اللغة العربية .

والشكر الجزيل لحضرات ناشرى الكتاب فى ثوبه الأنيق وورقه الفاخر وحروفه الواضحة .

تعقيبات(*)

بقلم الأستاذ / محمد فهمى عبد اللطيف

المحرر بالأخبار

مكتبة الجاحظ :

أتم صديقنا الباحث المحقق الأستاذ عبد السلام هارون تحقيق كتاب الحيوان لأبى عثمان الجاحظ وأخرجه للناس مصححاً مقوماً مكملاً ، فلو رآه الجاحظ لقرّت به عينه وطابت نفسه وشكر للأستاذ الفاضل هذا الصنيع الذى أحيا به أثراً خالداً ، وأسدى به إلى العربية يداً . . .

ونشر الكتب وتحقيقها ليس بالأمر الهين ، ولكنه عمل يشترك فيه الذوق والفهم ، والعلم وسعة الاطلاع ، ويقتضى بذل الجهد وطول البحث والصبر على مراجعة النصوص ، وهذا كله قد اجتمع للأستاذ عبد السلام هارون ، وتجلى فيما أخرج من كتب قيمة وحقق من أسفار نافعة ، وقد أعطى لكتب الجاحظ قدراً كبيراً من عنايته ، فهو الآن يعد العدة لإخراج الحلقة الثانية من مكتبة أديب العربية الكبير ، وهى كتاب البيان والتبين ، وقد راجع الأصول المخطوطة لهذا الكتاب ، وكمل مواضع النقص فيه ، واستوفى مواقعه الناقصة شرحاً وتعليقاً ، وما بقى إلا أن يقدمه إلى أبناء العربية فى أجمل حلة من التنسيق والطبع . . .

على أن الذى يدعو إلى الغبطة أكثر أنه الآن يهتم بجمع الأصول لرسائل الجاحظ المفقودة ، وقد هيأ فعلاً رسالة « حيل اللصوص » لأبى عثمان ،

(*) نشرت فى العدد ٧٥١ من مجلة الرسالة .

وكان الظن بهذه الرسالة أنها ضاعت فى أجواء العصور الخالية، وإنه لجهد نافع ، وعمل مشكور [١] .

إن هذا الذى ينهض به الأستاذ هارون لعمل تنوء به الجماعة ، ولو نهضت به جامعة أو جماعة لحسبته من مفاخرها الخالدة ، ولكنه عمل ينهض به فرد مخلص للعلم . وهو صامت صابر ، قانع بأنه يؤدى واجبه العلمى ، ثم هو لا يظفر من جامعاتنا وهيئاتنا العلمية بكلمة تقدير أو شكر . . .

---

(١) الواقع أنى لم أصرح بهذا النبأ على هذا الوضع ، بل كان مجرد أمنية لم تتحقق ، وذلك لما علمته من أن النسخة الوحيدة التى كانت فى مكتبة داود حلبى بالعراق قد فقدت ، وأصبحت فى خبر كان .

نوادر المخطوطات(*)

نشر وتحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون

للدكتور شوقي ضيف

– ١ –

سبق أن قدمنا إلى قراء الثقافة الأستاذ عبد السلام هارون وما يضطلع به من جهد في نشر مكتبة الجاحظ . وغيرها من ذخائر الكتب العربية النفيسة ، وقد أتم أخيراً الجزء الرابع من كتاب البيان والتبيين ، وألحقه بفهارس مختلفة تذلّل الفائدة منه أمام الباحثين .

ولا نتحدث اليوم عن ذلك ، إنما نتحدث عن سلسلة جديدة من عمله رأى أن يزود بها المكتبة العربية الحديثة ، وهي سلسلة لا تقوم على نشر الكتب والمجلدات الضخمة ، وإنما تقوم على نشر الرسائل الصغيرة الطريفة التي تعبر عن فكرة جديدة أو بحث محدود .

وهذه خطوة موفقة ، فإن كثيراً من الرسائل المخطوطة التي لما تنشر قد تحوى من الفائدة العلمية ما لا تحويه دفّتا كتاب ضخم ، إذ الرسالة الصغيرة في العادة هي التي تظفر بالآراء الجديدة للمؤلف ، فإن لم تظفر بآراء جديدة ظفرت بموضوع معين يحيط المؤلف بحدوده وأقطاره .

وقد عبر الأستاذ عبد السلام هارون عن ذلك في مقدمته لهذه النوادر ، إذ قال مصوراً لقيمتها ومبيناً لمنهجه فيها : « رأيت أن همة الناشرين المحققين تتجه في أغلب ما تتجه إلى المخطوطات ذات الشهرة الظاهرة ، وإلى ما جلّ

(*) نشرت بمجلة الرسالة العدد ٦٣٤ فبراير ١٩٥١ .

مقداره من كتب السلف ، مغفلين فى أكثر الأمر هذه الرسائل الصغيرة ، وقديماً كان الناس كذلك ، إنما يروقهم ما يملأ أبصارهم ، وما يروعهم بجسامته وعظمه ، ورب أسد مزير فى أثواب رجل نحيف ، فصح منى العزم على أن أكشف عن طائفة من هذه الكتب الصغيرة غطاءها ، وأقدم منها إلى جمهرة الباحثين مادة نادرة ، وأن أجعل هذا فى مجموعات متتالية متسلسلة الأرقام والصفحات ، وسيتكون من كل أربع مجموعات مجلد يقع فى نحو خمسمائة صفحة ، تنتهى بفهرس عام لما فيها من هذه الرسائل .

وهذه المجموعة الأولى تحوى أربع رسائل مهمة ، هى : الرسالة المصريه لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٨هـ ، وكتاب المردفات من قريش لأبى الحسن على بن محمد المدائنى المتوفى سنة ٢٢٥هـ ، وكتاب مَنْ نُسِب إلى أمه من الشعراء صنعة محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥هـ ، وتحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه لمجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧هـ .

وكل رسالة من هذه الرسائل لها طرافتها ، فالرسالة الأولى كتبت فى أوائل القرن السادس للهجرة ، كتبها أبو الصلت عقب زيارته لمصر ، ويقول ابن سعيد فى المغرب إنه كان قد خرج من أشبيلية فصحب بالمهدية ملوكها الصنهاجيين وتوجه فى رسالة إلى مصر فسجن بالقاهرة فى خزانة البنود ، وكان فيها خزائن من أصناف الكتب ، فأقام بها نحو عشرين سنة ، فخرج منها ، وقد برع فى علوم كثيرة من حديثة وقديمة ، وصنف كتاب الحديقة على منزع كتاب اليتيمة فى فضلاء عصره ، وصنف الرسالة المصرية ، وإنما حبسه المصريون لأن صاحبه الذى أرسله وهو يحيى بن تميم بن المعز بن باديس كان قد قطع هو وأبوه اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة واستقلا عن مصر ، فلم يكرم المصريون رسوله بل حبسوه إهانة له وإزراء عليه . والرسالة فى مقدمتها تشهد بأن أبا الصلت ألفها ليحيى بن تميم بعد رجوعه

إلى حضرته من مصر ، وقد وصف له فيها الديار المصرية وموقعها فى المعمورة ومجرى النيل فيها ، ثم أردف ذلك بنُبَذ صوّر فيها جمال ربوعها ومغانيها ، وأحوال أهلها وأجناسهم وأخلاقهم وسيرهم وعاداتهم وما يتصل بهم أو ببلدتهم من الآثار العجيبة كالهرمين ، ومن ألوان المعرفة كالطب والتنجيم ؛ وعجب من جهل بعض الأطباء فى مصر كما عجب من ولوع بعض المصريين بأحكام النجوم وكثرة استخدامهم لها ، وقص فى ذلك طرفاً من النوادر ، ثم تحدث عمن لقيه من الظرفاء والشعراء .

وأظن فى ذلك ما يوضح أهمية هذه الرسالة ، فإن بها أخباراً طريفة عن الأحوال الاجتماعية والعلمية والأدبية بمصر أوائل القرن السادس للهجرة ، وقد أشاد بها السابقون واستقوا منها كثيراً فى مؤلفاتهم على نحو ما صنع ياقوت فى معجم الأدباء والعماد الأصبهانى فى الخريدة وابن مماتى فى قوانين الدواوين والقفطى فى اخبار العلماء وابن أبى أصيبعة فى عيون الأنباء وابن سعيد فى المغرب والمقريزى فى الخطط والإدفوى فى الطالع السعيد والسيوطى فى حسن المحاضرة والمقرى فى نفح الطيب .

وعلق الأستاذ عبد السلام هارون على هذه الرسالة بتعليقات بديعة كشف فيها عن مواضع الغموض وقابل بين نصوصها ونصوص الكتب التى نقلت عنها ، وأصلحها فى غير موضع ؛ ومن الحق أن نقول إن النسخة التيمورية التى نشر عنها هذه الرسالة مشوهة غاية التشويه حُرِّفَ فيها كثير من الكلم والجمل ، وقد استطاع أن يصلحها جميعاً ويعيدها صورتها الأولى إلا ثلاثة مواطن استعصى فيها النص على الإصلاح بسبب أنه غير كامل أو أنه حرف تحريفاً تاماً ، وتصادف أنى كنت أرجع ، إلى الخريدة فى قسمها الخاص بصقلية ، وإذا أول هذا القسم ينقله العماد عن الرسالة المصرية لأبى الصلت فيتعرض لموطنين من هذه المواطن الثلاثة ، فأتم ما فيهما من نقص وأصلح ما بهما من تحريف .

ففى ص ٢٢ من المجموعة نجد الرسالة تجرى هكذا : « وقد تعاور الشعراء ... الشعاع على صبح ... » ووضعت النقط لتدل على أن الكلام فى الأصل ناقص ، والعبارة فى الخريدة : « وقد تعاور الشعراء وصف وقوع الشعاع على صفحات الماء » ، ونلتقى فى أعلى ص ٢٣ ببيتين محرفين تحريفاً تاماً ، وأشار إلى ذلك الأستاذ عبد السلام هارون وأنشدهما العماد فى الخريدة على هذا النحو :

بشاطئ نهرٍ كأن الزجاج
وصفوَ اللجين به ذُوِّبا

إذا جمّشته الصَّبا بالضحى
توهمتْه زرداً مُذْهَبا

وبذلك يستقيم موطنان من المواطن الثلاثة ، ويظل موطن ورد فى ص ١٩ حيث نجد بيتين غير مكملين وأكبر الظن أنهما للصنوبرى ، وديوانه غير موجود تحت أيدينا ، ولا أشك أنهما سينكشفان لحضرة الأستاذ الناشر أثناء بحثه وتنقيره الدائبين فى الكتب والدواوين ، وقد جاء فى هذه الصفحة نفسها أى ص ١٩ بيت لتميم بن المعز فى وصف النيل وهو قوله :

فكأنما أمواجه غُرَفٌ
وكأنما داراته سُرُرٌ

وأنا أحفظ له رواية ثانية لعلها هى الأصح والأضبط ، إذ تجرى على هذه الصورة :

فكأنما أمواجه عُكَن
وكأنما داراته سُرَرُ

والعكن : الطيات حول السرة .

وجاء فى آخر هذه الرسالة اسم شاعر مصرى هكذا : أبو إسحاق إبراهيم ابن الأشعث ، وفى الخريدة : إبراهيم بن شعيب ، وكذلك أيضاً فى حسن المحاضرة ومسالك الأبصار .

وإنى لأثنى على ما بذله الأستاذ عبد السلام هارون فى تحقيق هذه الرسالة وإقامة ما فيها من عوَج وأمت ، ولولا خبرته النادرة فى تحقيق النصوص ما استطاع أن يخرجها فى الصورة التى انتهت إليها ؛ وكما بذل جهوداً مشكورة فى هذه الرسالة بذل كذلك جهوداً تشكر له فى الرسائل الثلاث الأخرى ، فقد حقق رسالة « المردفات من قريش للمدائنى » تحقيقاً بديعاً ، والمردفات هن اللائى خلف عليهن أزواج مختلفون ، وفى كتاب « المحبر لابن حبيب» فصل فى هذا الموضوع ، ولكنه أعم ، إذ يتعرض للمردفات من قريش وغيرهن ، وفيه أيضاً زيادات خاصة بالقرشيات ، وفيه أيضاً بعض مغايرات فى الحديث عن المردفات اللائى اشترك فيهن مع المدائنى ، تارة فى أسماء الأزواج وتارة فى تعيين بعض أسمائهن ، غير أن ابن حبيب يكتفى بذكر اسم السيدة ومن تزوجها ، ولا يأتى بشىء من أخبارها وأشعارها إلا قليلاً ، أما رسالة المدائنى التى نشرها الأستاذ عبد السلام هارون فتعطينا فى أحوال كثيرة صورة واضحة عن السيدة التى يتحدث عنها ، ومن هنا تأتى أهميتها ويأتى امتيازها على الفصل الذى عقده ابن حبيب فى كتابه .

وتتبع هذه الرسالة رسالة « من نسب إلى أمه من الشعراء » لابن حبيب . ورسالة « تحفة الأبيه ، فيمن نسب إلى غير أبيه » للفيروزابادى ، وهما رسالتان مهمتان جداً لمن يبحث فى الشعر القديم والأدب العربى على وجه العموم ، إذ تشرحان حقيقة كثير من الأسماء مثل اسم ابن الزِّبَعْرَى ، وقيس ابن الحُدادية وابن الدُّمَيْنة وابن الطَّثْرية وعمرو بن الإطنابة ممن نُسب إلى أمه ؛ ومثل إسحاق بن راهويه ، وأحمد بن تيميّة وسويد بن كراع وعبد الله بن

أبىّ بن سلول ومحمد بن شرَف القيروانى ومحمد بن القوطيّة ومحمد بن ماجه والمقداد بن الأسود ويونس بن حبيب ممن نسب إلى غير أبيه .

وإننا لنرحب بهذه المجموعة النادرة ونثنى على ما أدى فيها حضرة الناشر من تعب وعناء تعودناهما من قبلُ فى كل ما يحاول من نشر وتحقيق .

— ٢ —(*)

هذه هى الحلقة الثانية من تلك السلسلة الطريفة التى يضطلع ببعثها وإحيائها صديقنا العالم الجليل عبد السلام محمد هارون . وليس من شك فى أنه وفق إلى أوسع الحدود فى التوفيق حين اختار القيام على نشر الرسائل الصغيرة النادرة فى عالم المخطوطات العربية بجانب ما يقوم به من نشر بعض الأمهات .

فكل من يتصل بالمخطوطات العربية يعرف أن الرسالة الصغيرة لا تقل أهمية فى تاريخ فكرنا العربى عن الكتاب الكبير ، بل ربما كانت الرسالة الصغيرة أشد أهمية ، ففى العادة يحمّلها المؤلف إما فكرة جديدة ، أو نصوصاً جديدة . ونحن فى الكتب الكبيرة إنما نبحث عن هذه الرسائل الصغيرة وما يشبهها ، حتّى نقف على الحركات الجديدة فى حياتنا العقلية السابقة وحتّى نطلع على بعض خصائص هذه الحياة .

وقد يكون من تكرار القول أن نشير إلى أننا لا نزال فى حاجة إلى نشر التراث العربى وإلى التوسع فى ذلك ، وإلى طائفة من شبابنا الذين ثقفوا مهنة النشر أو يثقفونها ، لبعث كل ما يمكن من الأعمال والمؤلفات التى كتبها الأسلاف والأجداد ، والتى لا تزال مطوية على رفوف المكاتب تنتظر من يتناولها بالإخراج والإحياء .

وقد قدّمت الأستاذ الجليل عبد السلام محمد هارون غير مرة وأشدت بجهوده ، وما يبذله فيما ينشره من عنت وعناء ، فهو من جهة قد أحسن

(١) نشرت بمجلة الرسالة العدد ٦٥٦ يونيه ١٩٥١ م .

مهنة النشر إلى أقصى حد ممكن ، وهو من جهة أمين على ما ينشره . ولست أقصد بالأمانة هنا المحافظة على النص ، ولكنى أقصد المحافظة على كل ما يمكن لبعث النص على خير الوجوه من حيث التذييل عليه والتعليق ، فى غير تكثر ولا ادعاء ، وفى الوقت نفسه فى تثبت وثقة بما يقول ويكتب .

وإنى أشبه الناشرين من الشباب بمجتهدين ، فكل يجتهد حسب ذوقه ، وحسب ما يضع لنفسه من مناهج ، وما أحرانا بأن نقبل من كلٍّ ذوقه ومنهجه ، وما يوفر لعمله من جهد . وحتى إن اختلفنا مع بعض الناشرين ، أو لم يجر ذوقهم مع أذواقنا ولا منهجهم مع منهجنا ، فإنى أرى أن نقبل منهم عملهم فى غير تحفظ .

وفى رأيى أنه ينبغى أن ننتظر حتى تكثر الأمثلة والنماذج وخاصة عند بعض من لقنوا النشر على أصوله من أمثال الأستاذ عبد السلام محمد هارون . وحينئذ يمكن النقد ويمكن التوجيه ، وفى رأيى أيضاً أن النشر الجيد خير من النقد الجيد فى حد ذاته ، لأن الأول يعطى المثال ، بينما الثانى يشير إليه ، وقد يخرج من الإشارة إلى السخط والإزراء .

وما أحرى جماعة الناشرين أن يقوم بينهم التعاون والتآزر ، وأن يتعمق ذلك نفوسهم ، فيشعروا بشىء من الإخاء . وحبذا لو أحدثوا نقابة أو جمعية يكون من شأنها لمُّ شتاتهم من جهة ، وتعارفهم من جهة ثانية ، بحيث يمكن أن يتعاونوا فى عملهم تعاوناً يفيد نشرهم منه .

وإنى أرنو إلى هذا اليوم الذى أرى فيه كل ناشر قريباً من زميله ، بحيث يعرض عليه ما فى النص الذى ينشره من صعاب لعله يجد له منها مخرجاً .

وتصحيح النصوص القديمة هو فى رأيى دائماً مسألة احتمالات ، وقد يوفق الناشر فى تصحيح يصحح به النص ، وقد لا يوفق ، وهذا لا يضيره بحال . فللمجتهد إن وفق أجران ، وله أيضاً إن أخطأ أجر واحد ، ولكنه أجر على كل حال .

ومع أنى اتصلت فى أوقات متقطعة وعلى أزمان متباعدة بنشر بعض النصوص العربية ، فإنى أعترف بأن ما صنعته فى هذا الجانب لم يكن فى كل مرة إلا صوراً من الاحتمالات ، قد أعود أنا ، إن نظرت من جديد فى النص ، فأصلحها ، ومن أجل ذلك كنت أقدر كل عمل يتصل بنشر المخطوطات القديمة ، وأعرف مدى ما يلقاه الناشر من صعوبات فى عمله ؛ فليس يعلم إلا الله مدى ما يوفر الناشر الحصيف من أمثال الأستاذ الجليل عبد السلام هارون لعمله من جهود مضنية .

وإنى لأشعر دائماً كلما قرأت له عملاً جديداً أنه يبذل كل الإمكانيات ليخرج عمله إخراجاً حسناً ، ومع ذلك فأنت لا تشعر منه أثناء ذلك بصلف ولا بدالة يُدلُّ بها عليك ، بل هو يقدم عمله للباحثين ، ويطالب إليهم أن ينبهوه إلى ما قد يفوته ، أو يند عنه . وذلك خلق العلماء العاملين .

وهذه المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات تحتوى خمسة آثار طريفة : أولها خطبة واصل بن عطاء التى اشتهرت فى العصرين الأموى والعباسى لا لما حذق فيها من فصاحة وبلاغة ، بل أيضاً لأنه استطاع أن يتجنب فيها الراء ، وكانت له لثغة فيها ، وكان ذلك يعد عيباً يقع فيه خطيب ذو بيان ومنطق . وقد نشرت هذه الخطبة من قبل ولكنه أعاد نشرها لعثوره على أصل جديد قرأه كاتبه محمد بن يوسف اللخمى على الإمام أبى ذر الخشنى ، وأيضاً فإنه عثر على أصل ثان فى كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ، فأتاح له ذلك أن يعيد نشره ، وقدم لهذا النشر بمقدمة طريفة عن واصل ولثغته ، وحديث الجاحظ عنه وعن أنواع اللثغة بصفة عامة .

وبجانب هذه الخطبة البديعة نجد (كتاب أبيات الاستشهاد لأحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥هـ) وهو كتاب قصد به صاحبه إلى أن يضع بين أيدى الأدباء مجموعة من الأشعار التى يمكن أن يتمثل بها فى المناسبات المختلفة من عتاب أو اعتذار أو جزع أو حزن أو معونة لإحسان أو إساءة

من صديق ونحو ذلك . ويعقب هذه الرسالة رسالة ثانية فى أعجاز أبيات للمبرد المتوفى ٢٨٥هـ ، وهى أيضاً شطور أبيات يتمثل بها المتمثل فى المناسبات المختلفة .

ونستمر فنجد كتاب العصا لأسامة بن منقذ بطل شيزر وأحد قواد الحروب الصليبية ، فهو فارس ، وهو إلى ذلك شاعر ، ومؤلف . وكتابه «العصا» يمكن أن يعد ذا صلة واضحة بكتاب العصا للجاحظ فى البيان والتبيين . غير أن أسامة يضيف أشعاراً جديدة كثيرة مما نظمه الشعراء بعد عصر الجاحظ ، ومما نظمه هو نفسه ، وأيضاً فإنه — على عادته فى مؤلفاته — يقص كثيراً عن مشاهداته وعصره . وهذا يجعل لتلك الرسالة — على قصرها — طرافة خاصة .

ونصل أخيراً إلى رسالة التلميذ لعبد القادر البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣هـ ، وهى رسالة تبحث فى كلمة التلميذ ووجودها فى العربية — وقد أثيرت فى الأيام الأخيرة أبحاث حولها ، وهل هى عربية أو غير عربية .

وتلك هى المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات ، ولا شك فى أنها ثروة جديدة تضاف إلى تراثنا المنشور .

شوقى ضيف

للحقيقة والتاريخ(*)

كنت قد صدّرت كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ الذى ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٤٨م بعبارة إهداء ، كتلك التى اعتاد بعض الأدباء والمؤلفين أن يصدروا بها كتبهم وتآليفهم ، تكريماً لمن يعتزون به من ذوى قرابة أو ذوى محبة وتقدير خاص ، وكانت كلمة الإهداء هذه مقدّمة منى إلى صديق كريم كان صنو نفسى وموضع ثقتى وإعزازى ، هو المغفور له الأستاذ عبد السلام محمد الناظر أحد كبار رجال الأعمال .

وهذا هو نص الكلمة :

حَفِظَكَ اللهُ وَأبقاكَ وَأمتَعَ بِكَ ، وَجَعَلَ ما بيني وَبينَكَ مِنْ وُدٍّ مَوصُولاً أبَدَ الدَّهرِ ، فَقَدْ عَرَفْتُكَ صَدِيقاً لا يَشُوبُ صَداقَتَهُ زَيفٌ مِنْ شَوائِبِ الدُّنيا ، وَعَرَفْتُكَ على تَقادُمِ العَهدِ وَتَطاوُلِ الزَّمانِ ، أخاً ثابِتَ الإخاءِ وَثيقَ النَّفسِ ، لَيسَ كَمَنْ يَدُورُ بِخُلَّتِهِ بَينَ النّاسِ مُلتَمِساً بِها الغُنْمَ ، وَباغِياً بِها النَّفعَ ، فَكانَ ذلِكَ ، أيَّدَكَ اللهُ ، مِمّا أكبَرَكَ فِي عَيني ، وَأعظَمَكَ فِي نَفسِي ، وَبَسَطَني أنْ أُقَدِّمَ إلَيكَ هذا الكِتابَ الخالِدَ لِتَرى فِيهِ ، وَلِتَعلَمَ أيُّها السَّمِيُّ الكَرِيمُ ، أنِّي أحفَظُ لَكَ فِي نَفسِي مِثلَ ما تَحفَظُ لِي مِنْ وَفاءٍ ، وَأطوِي لَكَ صَدرِي عَلى مِثلِ ما تَطوِي مِنْ وَلاءٍ .

(*) الإهداء مكتوب بخط الأديب الكبير شيخ الخطاطين المعاصرين الأستاذ سيد إبراهيم

ومضى زمان وزمان، ثم فوجئت بصديق فاضل أديب ، هو الأستاذ سعد محمد حسن أحد رجال التعليم .

يهدى إلى العدد الأول من « مجلة مدرسة الإسرائيليين القرائين » التي أصدرها برياسة تحريره لها في مايو سنة ١٩٥١ وصدرها بنفس عبارتي في الإهداء السابق ، على أنها قطعة أدبية بقلم الجاحظ مختارة من مأثورات قلمه ، ومع نسبتها إلى الجاحظ !

ولخشيتي حينئذ أن يعلق بأذهان القراء هذا الخطأ ، وأن تسرى عبارة الإهداء هذه منسوبة إلى الجاحظ ظلماً له وللتاريخ — بادرت فنشرت كلمة في العدد ٦٤٨ من مجلة الثقافة بتاريخ ٢٨ من مايو سنة ١٩٥١م .

وهذا نصها :

للحقيقة والتاريخ

بين الجاحظ وتلميذ الجاحظ

قرأت في العدد الأول من السنة الأولى لمجلة (مدرسة الإسرائيليين القرائين) سنة ١٩٥٠ — ١٩٥١ عبارة منسوبة إلى أبي عثمان الجاحظ ، هذا نصها :

« حفظك الله وأبقاك وأمتعَ بك ، وجعل ما بيني وبينك من ودّ موصولاً أبدَ الدهر ، فقد عرفتُك صديقاً لا يشوب صداقتَه زَيفُ من شوائب الدنيا ، وعرفتُك على تقادم العهد وتطاول الزمان أخاً ثابت الإخاء وثيق النفس ، ليس كمن يدور بخاتمه بين الناس ملتمساً بها الغنم ، وباغياً بها النفع ، فكان ذلك أيّدك الله ، مما أكبرك في عيني ، وأعظمَك في نفسي ، وبسطني أن أقدم إليك هذا الكتاب الخالد ، لترى فيه ، ولتعلم أيها السمي الكريم ، أني أحفظ لك في نفسي مثل ما تحفظ لي من وفاء ، وأطوى لك صدري على مثل ما تطوى من ولاء » .

والحق أن هذه الكلمة ليست للجاحظ ، وإنما هى لكاتب هذه السطور ، نسجتها فى أساوب أبى عثمان الجاحظ وبيانه ، ولعلها قد سمابها التقايد والمحاكاة حتى ظنت أنها من كلامه ، وأنى يكون لمثلى أن يرتفع إلى حيث الجاحظ وسحر بيانه !

وإن ضمير التاريخ ليدعونى أن أعلن أن هذه الكلمة هى عبارة الإهداء التى صدرتُ بها كتاب « البيانَ والتبيين » ، لشيخنا الجاحظ ، وذلك فى نشرته الأخيرة التى أخرجتها فى أربع مجلدات .

وعبارة الإهداء هذه مقدّمة منى بقلمى إلى صديقى وسمىّ الأستاذ « عبد السلام محمد الناظر » أحد كبار رجال الأعمال والمال ، الذى يرجع عهد الصداقة به إلى أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، وهو الذى أشرت إليه بكلمة « السَّمِىّ الكريم » ، وقد ذكرت ذلك فى مقدمتى للبيان والتبيين .

وحرصاً منى على أن لا يتكرر مثل هذا اللبس أرجو كل من وقعت إليه نسخة من نشرتى هذه أن يشير إلى أنها من صنع كاتب هذا البيان .

وقد قدّر الصديق الأستاذ سعد محمد حسن حينئذ ما سيترتب على ذلك من خلط تاريخى فنشر فى العدد ٦٥١ من الثقافة بتاريخ ١٨ من يونية سنة ١٩٥١ كلمة بعنوان :

(جاحظى كالجاحظ) يقول فيها :

كان من سوالف الأقضية أن أخرجت مدرسة الإسرائيليين بالقاهرة مجلة سنوية أسندت إلىّ رياسة تحريرها ، فأخذت أنقب فيما تحت يدىّ من كتب عن كلمة بليغة أضعها فى صدر المجلة كإهداء ، فلم أجد خيراً من كلمة جاحظية فى صدر كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ نشرة الأستاذ عبد السلام هارون ، وقد قرأت الكلمة مرة ومرة فأعجبنى جرسها

وسلاستها وجاحظيتها القوية البينة ، وما كنت أشك أبداً فى أنها لأبى عثمان فى بعض مقدمات كتبه .

وبعد أن فرغت من طبع المجلة أرسلت بعدد منها هدية للأستاذ هارون ، فطالعنا فى الثقافة الغراء عدد ٦٤٨ بكلمة بعنوان « للحقيقة والتاريخ » ينفى فيها أن يكون الكلمة لأبى عثمان ويجعلها من بيان تلميذه عبد السلام هارون . وقد أسفت كثيراً لما وقع منى من خلط ، كان عذيرى فيه أن أسلوب العبارة جاحظى بحت ، وأنها لم تكن ممهورة باسم عبد السلام هارون ، والعبارة وإن كان قد ارتفع بها كونها للجاحظ فإنه لم يسفّ بها أبداً كونُها لهارون ، وحق للأستاذ عبد السلام وقد عاش مع أبى عثمان عشر سنوات فى كتابه الأول وموسوعته الضخمة القيمة « الحيوان » ثم رافقه بعد ذلك فى « البيان والتبيين » أن يكون أعرف الناس بلغة أبى عثمان ، حتى لينسج على منواله ويعزف على قيثارته ، فما تستطيع أن تفرق بين الجاحظ وتلميذه ، فالكلمة الجاحظية هذه وإن لم تكن للجاحظ فهى دون ريب لجاحظى .

سعد محمد حسن

حول كتاب تهذيب الحيوان

من تأليف الاستاذ عبد السلام محمد هارون

من تراث الجاحظ العربى الاسلامى(*)

بقلم الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى

الجاحظ هذا الرائد الكبير للعقل العربى ، وهذا الأديب الخالد فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، وهذا القلم البليغ الذى ظل أدبه طول العصور نموذجاً رفيعاً يحتذيه كل الكتاب والمتأدبين من واجبنا القومى والفكرى والأدبى أن نعنى بتراثه ، وأن نوليه حظاً من الاهتمام والجهد والخدمة الصادقة الدؤوب .

وليس فى جيلنا ولا فى الأجيال السابقة من أولى تراث الجاحظ كل دأبه ووقته وعلمه وعمله معاً مثل الأستاذ الكبير شيخ المحققين فى عصرنا ، عبد السلام هارون أطال الله فى عمره لخير الأدب ولغة العرب وتراث العربية العظيم . .

نذكر له بالحمد والفخر معاً تحقيقه لكتابى « البيان والتبيين » و « الحيوان » ونذكر له تحقيقه لرسائل الجاحظ ونذكر له الكثير من أعماله التى يعتز بها جيلنا فى الحاضر والمستقبل . . ومن بينها هذا الكتاب النفيس الذى أصدرته دار الرفاعى بالرياض ومكتبة الخانجى بالقاهرة فى أكثر من ثلاثمائة صفحة ، وهو « تهذيب الحيوان للجاحظ » .

(*) صحيفة الرأى العام الأسبوعية المصرية العدد ٨٠ من السنة الثامنة بتاريخ ٢٦ صفر ١٤٠٨ ١٩ أكتوبر ١٩٨٧ .

كانت عناية الجاحظ بالحيوان والتأليف فيه عناية موفورة فالحيوان رفيق العربى فى الحل والسفر ، يقاسمه حياته ومعيشته أينما كان ، وحيثما كان . . والحيوان كذلك كان موضع اهتمام المنكرين والعلماء منذ القدم ، أرسطو كتب كتاباً مشهوراً عنوانه « الحيوان » نقله المترجم العربى ابن البطريق قديماً من اليونانية إلى العربية ، وترجم حديثاً إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية وغيرهما .

وكان الجاحظ — كما يذكر الأستاذ الكبير عبد السلام هارون فى مقدمته أول واضع لكتاب عربى جامع فى علم الحيوان وإن سبقه علماء اللغة الذين استقصوا الألفاظ اللغوية التى ينعت بها أعضاء الحيوان فى رسائل صغيرة ولكن الجاحظ ينطق كتابه بالقصد العلمى التفصيلى للحيوان جميعاً ، ولكل مملكة من ممالكه ولكل جنس من أجناسه معتمداً فى ذلك على كتاب الله وحديث رسوله . . وعلى التراث العربى الضخم المنقول عن العرب . والمروى عن بدوهم وحضرهم ، والذى وعاه الجاحظ فى القرنين الثانى والثالث طيلة حياته الطويلة (١٦٠ — ٢٥٥هـ : ٧٧٧ — ٨٦٩م) وعلى كتاب الحيوان لأرسطو كذلك وأرسطو يلقبه الجاحظ بصاحب المنطق وقد نقل عنه الجاحظ بعض النصوص التى تعد من القيمة والنفاسة بمكان عظيم وقد وافق أرسطو فى بعض آرائه ونقده فى البعض الآخر واعتذر عنه فى بعض ثالث بأن المترجمين لم يحسنوا ترجمة كتاب أرسطو إلى العربية ولم يتوخوا الدقة والمطابقة فنجده يقول حيناً ولعل المترجم قد أساء فى الإخبار عنه ويقول حيناً آخر : ولعله : أرسطو — أو وجد هذا المترجم أن يقيمه على المصطبة ويبرأ إلى الناس من كذبه عليه ومن إفساد معانيه بسوء ترجمته .

ويعتمد الجاحظ كذلك فى كتابه « الحيوان » على آراء معاصريه وبخاصة المعتزلة الذى كان هو إماماً من كبار أئمتهم .

والكتاب كما يقول الأستاذ هارون معلمة واسعة صورة ظاهرة لثقافة

العصر العباسي المتشعبة الأطراف وقد حوى طائفة صالحة من المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية كما تحدث فى سياسة الأقوام والأفراد، وكما تكلم فى نزاع أهل الكلام ، وسائر الطوائف الدينية .

وفى الكتاب الكثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية واللغوية والأدبية والنقدية والدينية ؛ وتحدث فيه الجاحظ عن العرب والأعراب وأحوالهم وعلومهم وتراثهم وأفاض القول فى آى الكتاب العربى وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ويجمع كتاب الحيوان للجاحظ صفوة ممتازة من حر الشعر العربى ونادره من بلاغات العرب ومعارفهم وقصصهم وتاريخهم .

وقيمة الكتاب قيمة — رفيعة فى التراث العربى لأنه دائرة معارف واسعة — عن العرب وتراثهم وأدبهم ، وهو مطبوع فى عديد من المجلدات مما بتحقيق شيخنا الجليل الأستاذ هارون .

وهذا العمل العلمى الكبير ، الذى يوليه العلماء والمثقفون كل اهتمام وتقدير دفع الأستاذ هارون إلى تقديم خلاصة موجزة له ليكون فكر الجاحظ وأدبه المتمثلان فى كتابه فى أيدى القراء وبخاصة الشباب فى سائر بلاد العروبة والإسلام ، فكان كتاب اليوم « تهذيب الحيوان » .

من أجل ذلك كله اختار محققنا الجليل فى تهذيبه ما كان غير مألوف للقراء وما كان من الأدب الرفيع النبيل الذى يجب أن يحفظ وأن يستشهد به وحذف فى تهذيبه الكثير من النصوص الحوشية والغريبة ، ومن المسائل الكلامية والفلسفية وأخر من نصوص « الحيوان » ما كان أقرب إلى أدب الأديب وثقافة القارىء المتفهم .. ووضع فهارس وافية للكتاب، وأخرجه فى أجمل صورة وأجمل مظهر .

فتجد بين دفتى الكتاب « تهذيب الحيوان » كلام الجاحظ المأثور عن

الكتاب والترجمة وعن الخلاف بين صاحب الديك وصاحب الكلب ويتحدث عن الكلب والثعلب ، والديك والدجاج ، والخفاش ، والنمل ، والسنانير ، والحمام ، والأسد والذباب ، والخفاش ، والحيات ، والعصفور ، والظليم ، والفأر ، والعنكبوت ، والقط ، والضباب والأرانب ، والفيل والجاموس وغيرها ، ويضم «التهذيب» الكثير من القصص العربي الطريف ومن الأمثال والحكم ، والبلاغات والأشعار ، والروايات والطرائف التي تستعذب وتنقل وتروى ويستشهد بها .

ومما تحدث فيه الجاحظ أيضاً وهو جزء من التهذيب كذلك :

- عفة عمر بن أبي ربيعة .
- قصة عبد الله بن سوار .
- أشعار النساء .
- الكلام في المعنى واللفظ .
- النظام وعدم إيمانه بالطيرة .
- قصة أبي الأعز .
- لعب الأعراب .
- الجن وتخيلات الأعراب .
- أشعار لبعض الشعراء العميان .

وغير ذلك من طرائف أبي عثمان الجاحظ ونوادر أدبه في كتابه «الحيوان» .

وماذا تقول في هذه الذخيرة الحية وهذا الكنز الثمين الذي جمعه العلامة هارون في «التهذيب» من أدب الجاحظ ورفيع كتاباته عن الحيوان وحول الحيوان . .

وليس هناك أشق من تهذيب كتاب ضخم وخاصة إذا ما كان هذا الكتاب لأديب ومفكر كبير كالجاحظ . . فهنا تضخم المشقة ويصعب الاختيار . .

ولكن العلامة الكبير عبد السلام هارون وهو من هو فقهاً بالعربية ومعرفة بأصولها ومصادرها وتراثها وبتراث الجاحظ خاصة من بين تراث العربية الكبير قد صمد للمهمة ونجح فى القصد ووفق فى الاختيار توفيقاً ما بعده توفيق .

ليت الشباب يقرأون مثل كتاب « تهذيب الحيوان » ليفقهوا أدب الجاحظ العظيم وليتثقفوا بالرفيع من نماذج أدبه . وروائع بلاغاته التى كان طه حسين وتوفيق الحكيم خاصة من بين كبار أدبائنا يعجبون بها كل الإعجاب ويرفعون من منزلتها إلى أعلى مكان فى البلاغة والتأثير .

الموضوع والسلاسة والبساطة والصدق والقوة والامتناع . . أقل ما توصف به بلاغة الجاحظ وبخاصة فى تهذيب الحيوان .

ونقف عند نص من نصوص الكتاب :

الكركدن يذكره الجاحظ ويقول : إن داود النبى ذكره فى الزبور وإن صاحب المنطق — أرسطو — ذكره فى كتاب الحيوان وسماه بالحمار الهندى وجعل له قرناً واحداً فى وسط جبهته ، ويعرفه أهل الهند كبيرهم وصغيرهم . وتزعم الهند أن سائر الحيوانات تهابه وترهبه . . وقد زعم صاحب المنطق أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الأسنان لطول لبثه فى بطنها وهذا جائز فى ولد الفيل غير منكر لأن جماعة نساء معروفات الأباء والأبناء قد ولدن أولادهن ولهم أسنان نابتة كالذى رووا فى شأن مالك بن أنس ومحمد ابن عجلان وغيرهما . وقد زعم ناس من أهل البصرة أن خاقان بن عبد الله بن الأهتم استوفى فى بطن أمه ثلاثة عشر شهراً وقد مدح بذلك وهجى . .

وليس هذا بالمستنكر وإن كنت لم أر قط قابلة مولدة تقر بشيء من هذا الباب وكذلك الأطباء وقد رووه كما علجت ولكن العجب كل العجب ما ذكروا من إخراج ولد الكركدن رأسه واعتلافه ثم إدخاله رأسه بعد الشبع والبطنه ولا بد أكرمك الله لما أكل من نجو (فضلات) فإن كان بقى ذلك الولد يأكل ولا يروث فهذا عجب وأن يروث في جوفها فهذا أعجب إلى آخر ما قال الجاحظ في ذلك .

أرأيت هذا الاستقصاء وهذا التحقيق وهذه المعرفة العلمية في فكر الجاحظ وهذه الحرب للخرافات والأوهام والأساطير وهذا المنهج العلمى الذى سار عليه الجاحظ والذى راع العلماء والمفكرين وجعلهم يتعلقون بأدب الجاحظ تعلقاً شديداً .

أجزل الله الأجر للمحقق الكبير الذى أتحفنا بهذا السفر النفيس من خلاصات كتابه القيم « الحيوان » ومن مأثور علمه وأدبه وبلاغته .

* * *

تمت « القطوف الأدبية » والحمد لله
الذى بنعمته تتم الصالحات ..

مصر الجديدة
١٥ من شعبان ١٤٠٨ هـ

عبد السلام محمد هارون

الفهرس التحليلى لموضوعات(*)

(القطوف الادبيــة)

الباب الأول : بحوث ومقالات :

(*) وافت المنية ـ شيخنا ـ المؤلف رحمه الله ، قبل ان يقوم بعمل الفهارس التى وعد بها فى المقدمة ، فقمنا بعمل هــذا الفهرس ، ونأمل من القارىء أن يعذرنا فى عدم اتمام هذه الفهارس، حتى طبعة قادمة ان شاء الله.

(الناشر : شرف حجازى)

الباب الثالث : بين الأدباء والعلماء وبينى

الباب الرابع : نظرات لبعض الأدباء والأصدقاء

* * *

تطلب جميع منشورات مكتبة السنة
بالمملكة العربية السعودية
من الوكيل المعتمد لها : **مكتبة ابن القيم ـ المدينة المنورة**
تليفون ٨٣٨٨٠٠٩ ص.ب ٣٦١٥

ايداع رقم ١٩٨٨/٨٣١٠

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة ـ الفجالة
جمهورية مصر العربية تلفون ٩٠٤٣٤٣ ـ ٩٠٥٢٩٦